سيرة الحبايب

٥٥ شخصية من قلب مصر

سناء البيسي



دار الشروق



سيرة الحبايب

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٢٦٠٩ / ٢٠٠٩
ISBN 978-977-09-2610-8

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

سناء البيسى

سيرة الحبايب

٥٥ شخصية من قلب مصر

دار الشروق



إهداء..

إلى ابني هشام رفيق التجوال . .

دعوة لجولة واسعة معي في رحاب الأحباب . .

سناء البيسي



المحتـــويـات



مقدمة

ليس تأريخًا وإنما تحليق مع باقة جمعتها من ثمار شجرة الإنسانية لأتذوقها على مهل، وأحلق فى أجوائها بالخشوع والمعايشة والصداقة والحب والتأمل والتأثر.. وأنصت لها وأستزيد.. فغرامي وقضيتي وحوار عمري ونبض قلمي ونهج بحثي هو سيرة الأحباب..

سناء البيسي



أولى المؤمنات

خديجة بنت خويلد

هل في الوجود حب كهذا؟ . . هل سمع أحد من يصف حب الحبيبة بمثل هذا الوصف السماوي؟! هل اقترن حب من قبل بأنه هبة من الخالق سبحانه؟! . . هل بلغت عاطفة الحب تلك المكانة المقدسة على مر الزمان؟! . . هل ارتقى الحب بمثل هذا القدر ليغدو قدَرًا ومكتوبًا لا دخل فيه للإرادة الشخصية؟! هل هناك منزلة أرفع من أن يكون الحبيب هو المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأن تكون حبيبته هي خديجة بنت خويلد أفضل نساء الجنة؟! . . هل الحب من عند الله وحده يرزقه لمن يشاء؟! . . هل الحب توجيه إلهي لا يملك المرء صرفه عن قلبه حتى ليعبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله في حب خديجة: «إني قد رُزقت حبها»، والتعبير بقوله رُزقت إنما يشير إلى أنه عمل إلهي مثل قوله صلى الله عليه وسلم وهو يقسِّم بين نسائه «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك». . بمعنى أن قسمة الأمور المادية مستطاع أن يكون فيها عدل بين الزوجات، أما الحب فمن الصعب أن يكون فيه عدل بين أكثر من واحدة، ولعل ذلك مما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾.

خديجة . . . أولى زوجات المصطفى ورفيقة دربه، وراية النور في مسيرة وسيرة سيد الخلق، وسند الدعم للدعوة الإسلامية، وحافز التأييد بالرأي والمشورة والمال والجاه والحسب والنسب في كل ما قال وما كان يقول . . خديجة التي لم يخترها الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما هي التي اختارته، ولم يكن اختيارها له مصادفة، وإنما لأن الله عزّ وجلّ هو من اختارها لتكون بجوار نبيه، تؤازره وتشجعه

وتدثُّره وتزمّله وتصدقه الرأي وتخلص له المشورة وتعينه على أعباء حمل الرسالة ونشرها . . اختارها المولى لتكون صرحًا أساسيًا في بدايات حياة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي مراحل تنزيل القرآن وملاقاة الوحي وتعبده في غار حراء ونشر الرسالة.

هذا التلاقي النوراني والارتباط المحفوف بالتبجيل والتكريم والحفاوة في الأرض وفي السماء كانت له بوادره وأولياته، فلم تكن بالمرة الأولى التي عهدت فيها خديجة لمحمد بن عبد الله بتجارة لها لتسعى من بعدها للزواج منه . . لقد كانت الرحلة الثالثة التي تاجر لها فيها، ومن قبلها كان يرعى مع شريك له إبلاً لأختها، فلما انقضت المدة ذهب شريكه ليتقاضى بقية أجرهما واستحى محمد في الذهاب معه . . ويتوسط العم أبو طالب لمحمد ليتاجر لها في بلاد الشام وتعده خديجة بضعف ما كانت تعطي لغيره، وفي كتاب بحار الأنوار أنها أعطته ناقتها الصهباء، ليركبها، ومنحته ثوبين من قبّاطي مصر، وجُبَّة عدنية، وبُردة يمنية، وعمامة عراقية، وخفين وعصاة من خيرزان . . ويأتي في البرية رجل لينادي بأعلى صوته في اجتماع نساء مكة في عيد لهن ليقول: «سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد، فمن استطاعت منكن أن تكون زوجًا له فلتفعل . . فحصبنه - أي رفضن كلامه ورميناه بالحصى كما كان معتادًا أن يُرمى المتحدث بالحصباء عند عدم الاستجابة له - إلا خديجة» التي لم تعرض عنه، بل ظلت كلماته تدوي في أعماقها، هي التي ظنت أنها قد نفضت يديها من الرجال، ورفضت من الخُطّاب الكثيرين من سادة قريش وسراة مكّة بعدما تزوجت مرتين، ومات عنها الزوجان وكانا من كبار التجار مما أورثها عنهما ثروة طائلة وأولهما: عتيق بن عابد الذي توفي بعد زواجه منها بعام ونصف العام فقط، وأنجبت منه بنتًا، والثاني النبّاش بن زراره التميمي الذي أنجبت منه ولدًا اسمه هند - وكان هند فصيحًا بليغًا يقول وقد نشأ في كنف رسول الله: «أنا أكرم الناس أبًا وأمًا وأخًا وأختًا . أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخي القاسم، وأختي فاطمة، وأمي خديجة رضي الله عنهم»، وقد قتل هند مع علي في معركة الجمل.

عاد محمد من تجارته لخديجة ظافرًا قادمًا من الشام وفي صحبته غلامها ميسرة الذي نقل لها ما رآه من عظمة الرجل وكماله وجلاله الذي زاده ما رآه من راهب بحيرة بنبوة محمد، وذلك الظل الذي يحمي الرسول صلى الله عليه وسلم من الشمس ساعة الظهيرة، وأمور لم يدرك الغلام أبعادها، لكن خديجة بشفافيتها وحنكتها أدركت أن محمدًا ليس كأي إنسان آخر، وعزمت أن تفوز به زوجًا وأسرّت إلى صديقتها نفيسة بنت منية برغبتها، وفيما يرويه ابن الأثير في أسد الغابة أن خديجة رضي الله عنها هي التي عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم أن تتزوجه قائلة له: «إني قد اخترتك لقرابتك مني وشرفك في قومك، وأمانتك عندهم، وحُسن خُلقك وصدق حديثك».. وفي هذا المقام قال الإمام البوصيري:

ورأتهُ والتقَى والزُّهد فيه سجية والحياءُ

وأتاها أن الغمامة والسَّرح أظلَّته منهما أفياءُ

وأحاديثُ أنَّ وعدَ رسول الله بالبعث حان منه الوفاءُ

فدعته إلى الزواج وما أحسنَ ما يبلغ المنى الأذكياءُ

فذهب يذكر ذلك لأعمامه ليخرج معه لخطبتها عماه أبوطالب وحمزة ابنا عبد المطلب، وفي بيتها وجدوا قومها في انتظار، وكل شيء مهيأ لزواج سريع، وتكلم أبوطالب: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ونسل معد، وعنصر مضر، وجعلنا حَضَنَة بيته، وسُوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا حكام الناس.. ثم إن ابن أخي محمدًا بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفًا ونبلاً، وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قُلٌّ فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك».. وخطب ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة فقال: «الحمد الله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، ورغبنا في الاتصال بحبلكم، فاشهدوا عليّ معشر قريش أني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله». فقال أبوطالب: قد أحببت أن يشركك عمها.. فقال عمها عمر بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ:

اشهدوا عليّ معشر قريش أني قد زوّجت محمداً من خديجة على صداق قدره عشرون بكْرة - وقيل كان الصداق اثنتي عشرة أوقية ونشًّا ذهبًا - الأوقية قيمتها أربعون درَهمًا، والنش عشرون درهمًا - وانتهى العقد في زواج تنبأت به كاهنة لاقتة عند الكعبة بعد ما كان قد التقى بنفيسة التي دعته للزواج بصاحبة المال والجمال والشرف السيدة خديجة. . يومها استوقفته الكاهنة سائلة: «جئت خاطبًا يا محمد؟ فأجابها غير كاذب: كلا. . فتأملته برهة، ثم هزّت رأسها وهي تقول: ولمَ لا فوالله ما في قريش، وإن كانت خديجة، من لا تراك كفئًا لها». . هذا ومن بعد الاتفاق بين الجالسين أن محمداً صلى الله عليه وسلم، فنحر جزورًا، وقيل جزورين، وأطعم الناس، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء، فإذا بينهم حليمة مُرضعة الرسول التي أتتَ مهنئة من بادية بني سعد لتعود ومعها أربعون رأسًا من الغنم هبة من خديجة - العروس - لمن منحت لبنها لفم الزوج الحبيب رضيعًا، وكانت ليلة أفراح وسرور أمرت فيها خديجة جواريها بالرقص وضرب الدفوف.

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهرْ. وأمها: فاطمة بنت زائدة بن الأصَم بن رواحة بن حَجَر بن عَبْد بن معيص بن عامر بن لؤيّ بن غالب بن فهر. عاشت إلى جانب الرسول ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها مكة، واستغرقا في هنائهما خمسة عشر عامًا ليرزقهما الله القاسم، وعبد الله، وزينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة - وكان للرسول ابن من مارية القبطية هو إبراهيم - وقد كان للزوجين في وئامهما وتصبُّرهما، ما أعانهما على تجرع كأس فقدان ولديهما عندما استرد الله وديعتهما، وأولهما القاسم وهو رضيع وقد بلغ المشي ليواسي رسول الله صلى الله عليه وسلم أمه بقوله: «إن له مرضعًا في الجنة ليستكمل رضاعته» وذلك عندما دخل عليها وهي تبكي قائلة: يا رسول الله درَّت لبينة القاسم - تصغير لبنة - وتعني بها بقايا اللبن في ثديها - فلو عاش حتى يستكمل رضاعته! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: إن شئت أسمعتك صوته في الجنة، فأجابت: بل أصدق الله ورسوله. . ومات عبد الله طفلاً في مستهل الدعوة، ولعله مما يؤنس إلى هذا، قوله تعالى في سورة

الكوثر لنبيه الكريم: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③** ﴾ وهي سورة مكية مبكرة قال عنها المفسرون إنها نزلت في العاصي بن وائل السهمي أحد أشراف مكة الذين ساروا إلى أبي طالب يسألونه أن يرد ابن أخيه عن الدعوة إلى دينه. وكان العاصي - فيما نقل ابن اسحق - إذا ذُكر محمد صلى الله عليه وسلم، قال لقومه: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم من أمره. فأنزل الله في ذلك سورة الكوثر التي يفسرها الزمخشري بقوله: إن من أبغضك هو الأبتر لا أنت، لأن كل من يولد من المؤمنين إلى يوم القيامة أولادك وأعقابك، وذكرك مرفوع على المنابر، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى نهاية الدهر، فمثلك لا يقال له أبتر، وإنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة، وإن ذُكر فباللعن.. النبوة اصطفاء لا وراثة، وهو عليه الصلاة والسلام قد بُعث خاتمًا للمرسلين لا نبي من بعده.. ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد هما: علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة الكلبي من ظل يدعى زيداً بن محمد حتى أمر الإسلام» ادعوهم لآبائهم وشملت عاطفة الأبوة الكريمة ربيبه هنداً ابن خديجة وسلمة وأمها أم سلمة من أمهات المؤمنين وحبيبة وأمها أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين، ولم تزل حفاوة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ملاقاته لهند - ابن النباش زوج خديجة الأسبق تتصدر كتب السيرة المحمدية وكيف هش له عندما دخل عليه وكان مستريحًا وقت القيلولة ما بين الظهر والعصر فاستيقظ عندما سمع صوته بعد موت خديجة ليضمه إلى صدره هاتفًا به... هالة هالة هالة، كما رواه الطبراني عن عائشة.

وفي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر تلقى محمد رسالة الوحي إيذانًا بعهد جديد ملؤه الاضطهاد والأذى، والجهاد، ثم النصر.. فما إن شارف المختار الأربعين حتى كان قد ألف خلوة غار حراء يستجلي برياضته الروحية السر الأعظم، وما كانت عين خديجة تَذهب عن حراسته ورعايته لتمشي من بيتها لجبل النور حاملة لسيد الخلق طعامه وشرابه، فتقطع المسافة ذهابًا وإيابًا بما يقدر بخمسة كيلومترات وأربعمائة متر، وبعدها تصعد الجبل الذي يبلغ ارتفاعه ثمانمائة وستة

وستين متراً فوق سطح البحر لتطمئن عليه، وتعينه على ما هو فيه، فإن وجدته مستغرقًا في تأملاته سادراً في خلوته، وضعت الزاد وانسحبت في هدوء حتى لا تخدش أجواء علوية كانت إرهاصات للحدث الجلل، وسكونًا مهيئًا لموكب النور، ومهبطًا له المقام الرفيع لجبريل والقرآن الكريم. . و. . اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. . ويلتمس محمد بيته في غبشة الفجر شاحبًا يرجف فؤاده ينفض لدى الحبيبة مخاوفه لتضمه إلى صدرها: فوالذى نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك أبدًا. . إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر.

ويزايله روعه، فما هو بالكاهن ولا من به جنّة، ويستغرق المختار في نومه المطمئن لتصحبه بعدها إلى ابن عمها العالم الضرير ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى وأمه هند بنت أبي كبير بن عبد بن قَصيّ الذي لم يتزوج ولم يعقب أولادًا، وكان قد تنصّر في الجاهلية ويكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء له أن يكتب، وكانت خديجة تلجأ إليه لتبثه قلقها وحيرتها وعدم قناعتها بعبادة الأصنام وما كان من نبوءة راهب بحيراً للرسول الذي أخبره بما رأى أولاً وأخيرًا فاهتز الشيخ انفعالاً ليقول في حماسة بالغة: «قُدوسٌ. . قُدوسٌ، لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، ويا ليتنى أكون حيّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مُخرجيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عوُدي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزرًا». . ويظل ورقة يستبطئ الأمر. . أمر النبوّة الإسلامية ليقول في ذلك:

لججت وكنت في الذكرى لجوجًا ... لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قسي ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمدًا سيسود قومًا ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر يقوِّم به البرية أن تموجا ... يقوِّم به البرية أن تموجا

فـيلقى من يحـاربه خـسـاراً ويـلقى مـن يسـالمه فلـوجًـا
فـيـا لـيـتني إذا مـا كـان ذاكم شـهـدت وكنت أولهم ولـوجًـا

ويفتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة، حتى شقّ عليه ذلك فأحزنه، فجاءه جبريل بسورة الضحى، يُقسم له ربه وهو الذي أكرمه بما أكرمه به، ما ودّعه وما قلاه، فقال تعالى «والضحى والليل إذا سَجَى. ما ودعك ربُّك وما قلى ـأي ما تركك وما أبغضكَ منذ أحبَّكَ. وللآخرة خيرٌ لك من الأولى».. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر سرًا ما أنعم الله به عليه وعلى العباد من النبوّة إلى من يطمئن إليه من أهله إلى أن نادت قريش بعزل النبي صلى الله عليه وسلم وحصاره مع أهله بني هاشم وبني المطلب، والتضييق عليهم في شعب أبي طالب، ومنع الطعام وكل مقومات الحياة عنهم.. ولم ترض خديجة ابنة الثراء والنعيم أن تبقى في دارها المترفة تنعم برغد العيش مع أنها لم تكن معنية بتلك المقاطعة، وكان بيدها لو أرادت، ولها في عشيرتها بني أسد قوة وبأس، ولكنها آثرت اللحاق بزوجها الحبيب للاشتراك في الجهاد مما أثر في رجال عشيرتها، فكيف يرضون أن تجوع من كانت تغدق بخيراتها على الجميع، فاندفع بعضهم يحمل إليها الطعام سرًا، ومن بينهم ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد الذي ذهب يحمل لها القمح، فيلقاه أبوجهل ليمنعه فتماسك الرجلان ليتدخل ابن عم خديجة أبوالبختري بن هشام الذي يتصدى لأبي جهل فيكيل له الضربات ويلقيه على وجهه ثم يطؤه بأقدامه، ولم تكن خديجة تستأثر بطعام يحمل إليها خلسة وإنما توزعه على جميع من في الشعب، واستمر الحصار اللعين ثلاث سنوات طوال إلى أن أذن الله فأرسل على الصحيفة الظالمة ـ التي كتبها الكفار ضد محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ـ حشرة الأُرضَة فأكلتها ولم تبق فيها إلا اسم الله، وتهاوى الحصار أمام قوة الإيمان الصادق والمجاهدة الباسلة، وآنَ للنبي صلى الله عليه وسلّم أن يعود إلى بيته في جيرة الحرم المكي، مع خديجة المؤمنة الصابرة التي أنهكتها سنوات الحصار والمعاناة والخوف على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.. وبعد ستة أشهر من انهيار الحصار يموت العم أبوطالب؛ من كان لابن أخيه صلى الله عليه

وسلم، أبًا وصديقًا وكافلاً وحاميًا ومانعًا عنه أغوال قريش، قومه. . ولم تشهد خديجة مأتمه فقد كانت في فراشها تحتضر وزوجها صلى الله عليه وسلم إلى جانبها يؤنس وحشة اللحظات الأخيرة. . ويقول لها: يا خديجة أتكرهين ما أرى منك، وقد يجعل الله في الكره خيرًا كثيرًا، وتسلم الزوجة الحبيبة الروح بعد ثلاثة أيام بين يدي الحبيب وهو يطعمها عنبًا من الجنة. . الذي أحبته وصدقته وناصرته وآمنت برسالته منذ فجر ليلة القدر، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير. . ويهبط الرسول صلى الله عليه وسلم يدفنها في قبرها بالحجون. . ولم تمت خديجة فقد ظلت ماثلة أمام زوجها فلزم بيته وأقلّ الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به حتى سمى عام وفاتها بعام الحزن. . وما كان يسير إلا وطيف منها يتبعه، وما يسري إلا وسنى مشرق منها يبدد من حوله حُلك الليالي، وستدخل بعدها في حياته الزوجات، لكن مكانها في قلبه وفي دنياه سيظل أبدًا خالصًا للزوجة الأولى. . الحبيبة التي لم تشاركها رجلها أخرى لمدة ربع قرن، ولا كانت في حياتها معه ظل لشريكة سواها، ولم تفلح واحدة بعدها في إبعاد طيفها عنه، وكان عندما يذبح الشاة ويقطعها يبعث بأعضائها لصديقات خديجة، وهو الذي من بعد أعوام من وفاتها يلمح قلادة جيدها تبعث بها ابنتها زينب شفيعة لزوجها أسير بدر أبي العاص بن الربيع حتى يرق قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ويهزه الشجن لتلفه ريحها، فيسأل أتباعه الظافرين في الحرب أن يردوا على زينب قلادتها ـ قلادة أمها خديجة ـ ويفكوا أسيرها. . وتغار من ذكراها زوجه السيدة عائشة بنت أبي بكر: «ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة، وما تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن ماتت. . وأقول له كأن لم تكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟! فيتغير وجهه صلى الله عليه وسلم ويغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ليزجر غاضبًا: والله ما أبدلني الله خيرًا منها: آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

ويختار مكانا إلى جوار قبرها ليشرف منه على فتح مكة لتؤنسه روح خديجة

التي تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة يحطم الأصنام ملتفتًا بين آونة وأخرى إلى دارهما، حيث نهل من نبع الحب والحنان ما تزود به لذلك الجهاد المضني الطويل. . الدار التي ارتفع عنها الطريق فينزل إليها ببضع درجات تؤدي إلى ممر على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو قدم وطولها عشرة أمتار وعرضها أربعة أمتار، وعلى اليمين باب صغير يُصعَد إليه بدرجتين يؤدي إلى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين تضم ثلاثة أبواب، أولها من الجانب الأيسر يفتح على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة أمتار كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يتخذها محرابًا، ويؤدي الباب الأمامي إلى بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة، هو مخدع الزوجين الكريمين، والباب الثالث على يمين الداخل يفتح على غرفة مستطيلة طولها سبعة أمتار وعرضها أربعة لمبيت ـ بناته منها ـ زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم، وبطول الدار من ناحية الشمال فضاء شاسع مساحته ستة عشر مترًا في سبعة أمتار يرتفع عن الأرض بحوالي متر، كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تستخدمه مخزنًا لتجارتها قبل اقترانها بالرسول صلى الله عليه وسلم، وباعتزالها التجارة غدت تلك المساحة لاستقبال الضيوف وهذا الوصف التفصيلي للمنزل الكريم جاء في تاريخ الطبري.

ذلك البيت شاهد نزول جبريل مرات ومرات، وفي حجرة المحراب ذات الستة أمتار سألت خديجة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذا جاءك الوحي أخبرني، وكانت تريد أن تعرف حقيقة الوحي، فقال لها ذات يوم: ها هو ذا يا خديجة قد أتى، ولكن خديجة لم تر جبريل رؤية العين مثل نبي الله محمد لأسباب كثيرة تعددت في كتب السيرة.

خديجة كانت في الأربعين، والبعض أخفض السن للخامسة والثلاثين، بينما الزوج الحبيب المختار كان لم يزل في الخامسة والعشرين، والبعض أخفض السن لما دونها. . ونجح الارتباط أيّما نجاح. . على مدى ربع قرن من عشرة الاكتمال وسلاسة الحال، لم يكن في القلب والعقل والملاذ والسكْن والرفَقة وتحت السقف غيرها. . عاشا معا في ثبات ونبات لينجبا الصبيان والبنات. . كانت لمحمد عزّة

وجلالاً . . كانت لليتيم بمثابة الأم الرءوم . . وكانت للعابد في خلوة الجبل شريكة السكون ومظلة الأمان وحبل الوريد . . وكانت للبيت سيدة البيت ، وللزوج قائمة على رموش العين . . وكانت للمبتلى بالجحود وعذابات الصدور وإنكار سطوع الشمس والآيات البيِّنات بمثابة الدرع والجدار ورباط الجأش والجراح وبأس الصمود . وكانت للمرتجف من زمتة الضم وجلال الموقف وحضور الملاك وإملاء التلقي وقراءة ليس فيها بقارئ ومهمة الأنبياء لحمل رسالة السماء . . كانت بنت خويلد لها . . كانت خديجة الأربعين بسعة أفقها ورحابة صدرها وشلال حبها . . كانت قدّها . . ليكافئها ربها بهبوط جبريل من أجلها برسالة من الله يقرؤها فيها السلام ، فيأتي ردها من تمام فقهها : إن الله هو السلام ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام . . ويبشرها ربها ببيت في الجنة من قصب ـ لؤلؤ ـ لا صخب فيه ولا نصب .

محمد . . من هنا أحبها وقد رُزقَ حبها وقال في حبها : «أنا أحبها وأحب من يحبها» . . وعندما ماتت قال عنها : «ما أبدلني الله خيراً منها» . . وما تجاوزت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها في قول الحق عنها : كأن لم يكن في الدنيا امرأة سواها .

إمام المتقين

عليّ بن أبي طالب

جلس أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في المسجد الجامع بالكوفة مقر الخلافة بالعراق في أفقر بيت يؤدي بابه إلى المسجد.. بينما كان معاوية بن أبي سفيان في قصر الخضراء بالشام ينعم كأباطرة الرومان.. جلس عليّ رضي الله عنه مطرقًا مفكرًا تداعب أصابعه لحيته العريضة الناصعة البياض، حيث استعمل الخضاب مرة لكنه تركه لأنه يخفي حقيقة شيبته ويخالف صراحة طبعه ويغير مظهره.. جلس سارحًا متكدرًا ليسأله أبو الأسود الدؤلي: «فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ فأجاب: إني سمعت ببلدكم هذا لحنًا في اللغة، فأردت أن أصنع كتابًا في أصول العربية.. فقال: إن فعلتَ هذا أحييتنا، وبقيت فينا هذه اللغة لغة القرآن سليمة بلا عوج.. ثم أتيته بعد ثلاثة أيام، فألقى إليّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلمة اسم وفعل وحرف.. فالاسم: ما أنبأ عن المسمى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.. ثم قال: تتبعه وزد فيه ما وقع لك، وأعلم أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر.. قال أبو الأسود: فجمعت من ذلك أشياء عرضتها عليه، فكان منها حروف النصب، تذكرت منها: إنَّ، وأنَّ، وليت، ولعل، وكأنَّ، ولم أذكر لكن.. فذكرها قائلاً: ولِمَ تركتها؟!.. فقلت: لم أحسبها منها.. فقال: هى منها فزدها فيها».. وهكذا كان عليّ.. من روائع بلاغته ومن فيض حكمته ومن نفحات عقله نشأت علوم كثيرة مثل علوم الفقه والنحو والحساب والزهد والتصوف وعلوم

الكلام وغيرها من علوم الدين، حتى كان الناس من علمه وهيبته يحذرون أمامه من الخطأ، لكنه كان يردد قوله لهم: لا يستحي من لا يعلَم أن يتعلم، ولا يستحي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم، وكان يحذر من مصاحبة الجاهل حتى لا يعكس عليه جهالته ويقول في ذلك:

فلا تصحب أخا الجهل ... وإيَّاك وإياه
فكم من جاهل أردى ... حليمًا حين آخاه
يقاس المرء بالمرء ... إذا ما هو ما شاه
وللشيء من الشيء ... مقاييس وأشباه
قياس النعل بالنعل ... إذا ما هو حاذاه
للقلب على القلب ... دليل حين يلقاه

سيرة سيدنا عليّ إمام المتقين تراث للمسلمين جميعا، وليس للشيعة فقط، إنه التراث النبيل الأعلى والأرفع والأسمى من أية مذهبية.. تراث نهج البلاغة، تراث الإنسانية.. تراث لا حدود لعلمه لمن جاء في الحديث الشريف عنه «أنا مدينة العلم وعليّ بابها».. ولمن نزلت فيه ثلثمائة آية.. لصاحب الأذن الواعية التي دعا له بها الرسول صلى الله عليه وسلم بعدما نزل قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ وكان عليّ يقول: ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط فنسيته، وهو الذي روى عنه خمسمائة وثمانين حديثًا.. لمن كانت المقادير تدخر سمعه ووجدانه لكلمات ستغيّر وجه الأرض ووجه الحياة.. لمن سمع الآيات البينات مشرقة متألقة حديثة العهد يرتلها رسول رب العالمين من بعد ترتيل جبريل.. آية من بعد آية فيشرب قلب من رضي الله عنه جمال القرآن وجلاله وأسراره وفقهه وبلاغته آية من بعد آية.. لمن صار جديراً بأن يقول: «سلوني، وسلوني، وسلوني عن كتاب الله ما شئم فوالله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلت في ليل أم نهار». لمن حين نزلت سورة الرعد: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا المنذر وعليّ الهادي، وبك يا عليّ يهتدي المهتدون.. لمن كان القرآن علمه وعَمله.. سابق المسلمين.. التلميذ الأول للقرآن.. ربيب الوحي.. فما أعلمَه.

علي بن أبي طالب الإمام عليّ، بن عبدالمطلب، بن هاشم، بن قصيّ، بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة.. علي.. أبو الحسن، وأبو تراب، وأبو السبطين، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أول هاشمية ولدت هاشميًا وكان اسم الوليد «حيدرة» بمعنى أسد على اسم أبيها، ولكن غلب عليه اسم «عليّ».. الذي سماه به محمد صلى الله عليه وسلم، وجاء مولده في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، قبيل الهجرة بثلاث وعشرين سنة، وقبل بعثة النبي باثنتي عشرة سنة.. ولدته فاطمة في البيت الحرام ولم يولد قبله فيه سواه، ومن قول فاطمة: «بينما أنا أسوق هديا إلى الكعبة حيث هبل ـ إذ استقبلني رسول الله وهو يومئذ غلام شاب قبل البعثة فقال لي: يا أماه إني أعلمك شيئًا فهل تكتمينه عليّ.. قلت: نعم.. قال: اذهبي بهذا القربان فقولي كفرت بهبل وآمنت بالله وحده لا شريك له، فقلت أعمل ذلك لما أعلمه من صدقك يا محمد».... وعندما تموت فاطمة أم عليّ يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم بحفر لحدها بيده ويخرج ترابه ويضطجع فيه قائلاً: اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حُجتها ووسع عليها مدخلها.. ويسألونه: رأيناك صنعت شيئًا ليس لأحد قبلها فيقول: ألبستها قميصي لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت في قبرها ليخفف عنها من ضغطة القبر، لأنها كانت من أحسن خلق الله تعالى صنعا إليّ بعد أبي طالب.. وعندما أصاب مكة جدب وقحط أضرّ بذي العيال قال الرسول لعمه العباس وهو من أيسر بني هاشم: يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى؟ فانطلقا ليخففا عنه عياله ليضم الرسول صلى الله عليه وسلم عليًا إليه، ويأخذ العباس جعفر، حيث رجاهما أبوطالب أن يتركا معه عقيلاً مع بقية إخوته، وكان عقيل ضعيفًا سقيم البدن، وإخوة عليّ خمسة أولاد، هم إلى جانبه: طالب وعقيل وجعفر، ومن الشقيقات: أم هانئ واسمها فاختة وقيل هند وقيل فاطمة وأسلمت في عام الفتح، وجمانة.. ويأتي أبو طالب وابنه جعفر للرسول ليجداه يصلي وعن يمينه عليّ فقال أبوطالب لجعفر صل جناح ابن عمك، فقام بالصلاة عن يساره ولم يعد بعدها أبوطالب يتعبد الأصنام.

ويشب عليّ في حجر النبي لا يفارقه، ويزامله إلى الكعبة قبل الرسالة ليحطما الأصنام، ويروي عليّ: «انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة فقال لي: اجلس، فجلست، فصعد على منكبي. فقال لي: انهض فنهضت. فعرف ضعفي تحته. قال لى: اجلس فجلست ثم نهض بى فخُيِّلَ إليّ أنني لو شئت نلت أفق السماء. فصعدت إلى الكعبة، وتنحى هو قائلاً: ألق صنمهم الأكبر، وكان من نحاس مُؤَتَّد بأوتاد من حديد في الأرض. فقال رسول الله: عالجه.. فجعلت أعالجه، حتىً استمكنت منه، فقال: اقذفه، فقذفته حتى انكسر.. ونزلت من فوق الكعبة، وانطلقنا نسعى بعيداً، وخشية أن يرانا أحد من قريش وغيرهم».

علي.. كرم الله وجهه.. فهو لم يَحْنه لغير الله تعالى.. كرم الله وجهه.. فلم يقع على عورة قط، وكان إذا سقط خصمه في الصراع وأدرك أنه هالك بسيف عليّ، كشف الخصم عن عورته، كما فعل أبو سعد بن أبي طلحة في غزوة أحد فأشاح عليّ بوجهه تعففًا، وقيل أيضًا إن عمرًا بن العاص قد قام بمثلها فأدار وجهه على بن أبي طالب ولم يجهز عليه، وقد عايره في ذلك الأمر «معاوية» فلم ينكر بن العاص.. وكان عليًا كرم الله وجهه قوي البنية، عريض المنكبين، ممتلئ الجسم، عظيم العينين، كثير الشعر، عريض اللحية، ربعة لا بالطويل ولا بالقصير، ضخم عضلة الذراع، ضخم عضلة الساق، إذا أمسك بخصمه يكاد يُلْفظه أنفاسه، وما جادل أحدًا إلا أسكته، وكان يسرع في سيره وإلى الحرب يهرول، وحمل باب الحصن على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، وجاهد أربعون رجلاً في قلب ذلك الباب فما استطاعوا، وعندما تقدم في العمر دهمه الصلع، وقد بلغ من عمق تأثيره على الآخرين أنه اشترى عبداً فعلمه الإسلام وأعتقه، لكن العبد لازمه، حتى إذا مات النجاشي ملك الحبشة، واضطربت الأمور من بعده اكتشف أن ذلك العبد هو ابن النجاشي قد اختطفه تجار الرقيق طفلاً وباعوه في مكَة، فأتى قوم من الحبشة يعرضون عليه مُلك الحبشة وريثا لأبيه النجاشي، لكنه رفض الملك وآثر البقاء على الإسلام في صحبة عليّ كرم الله وجهه.. ويركز الزمخشري فضائل عليّ بن أبي طالب في قول الرسول: «يا علي إنك أول من يقرع باب الجنة فتدخلها بغير حساب بعدى».. وأنه من افتدى الرسول ونام في فراشه

مفوِّضًا أمره إلى ربه، ولم يضطرب حين دخل عليه المشركون شاهرين السيوف وكان جبريل يحرسه عند رأسه وميكائيل عند رجليه.. وأنه كان يشتري حاجات أهله ويحملها بيديه فإذا اقترب بعض مرافقيه ليحملوها عنه أبى وقال مبتسمًا: أبو العيال أحقُّ بحمله!!.. ويرتدي وهو خليفة جلبابًا اشتراه من السوق بثلاثة دراهم.. ويركب حمارا، وقد تدلت على جانبيه ساقاه، وكأنه أحد فقراء البادية، ويعزم عليه أصحابه أن يركب جوادًا يليق بأمير المؤمنين فيجيبهم: «دعونى أُهنْ هذه الدنيا»!! وأنه من أوْكل إليه الرسول أمر رد الودائع لأصحابها وقت الهجرة، وقد شهد جميع الغزوات إلا غزوة تبوك، حيث خلفه الرسول على النساء والأطفال قائلاً له: «أما ترضى بأن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»..

وأنه الممدوح بالسيادة، فقد قال الرسول لابنته فاطمة: زوجك سيد في الدنيا والآخرة.. وأنه أقضى الصحابة لقوله صلى الله عليه وسلم: أقضاكم عليّ، وكان عمر بن الخطاب يقول عنه: أعوذ بالله من معضلة لا علي بها، ولولا عليّ لهلك عمر».. وأن الرسول انقطع عن أصحابه لأجله، فقالوا: «يا رسول الله افتقدناك»، فقال: إن أبا الحسن وجد مغصًا في بطنه فتخلفنا عليه».. وأنه جمع ثلاث مفاخر لم تجتمع لأحد سواه لما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله له: «يا عليّ أعطيت ثلاثا لم يعطها أحد غيرك: صهرا مثلي، وزوجة مثل فاطمة، وولدين مثل الحسن والحسين».. وهو الذي أطلق عليه حين نضجت مناقبه «إمام المتقين».. وفي هذا يقول عليّ لقومه: «تعلمون موضعي من رسول الله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد يضمنى إلى صدره، ويكنفني فراشه، ويمسني جسده، ويشمنى عرقه، وما وجد لي كذبة في قول، وكنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علمًا، ويأمرني بهذا الاقتداء».

وقد يأتي الحق جليًا أمام من لا يريد سماعه ممن لا يستطيع إلاّ قوله رغم ما أصابه.. يدخل عديّ بن حاتم على معاوية بن أبي سفيان الذي يسأله عن أولاده: «أين الطرفات؟! وكان يعني طريفًا وطارفًا وطرفة» أولاد عديّ.. فيجيبه عديّ: «قتلوا ثلاثتهم يوم صفين بين يدي عليّ بن أبي طالب.. فقال معاوية: الله ما

أنصفك ابن أبي طالب، إذ قدم بنيك.. وأخرّ بنيه.. صف لي عليّا إذ قُتل وبقيت.. فقال عديّ: إن رأيت أن تعفيني. فقال معاوية: لا أعفيك.. فعاد عديّ يصف عليا بقوله: كان بعيد المدى، شديد القوى، يقول عدلاً، ويحكم فصلاً، تتفجر الحكمة من جوانبه، والعلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنسَ بالليل ووحشته، وكان والله عزيز الدمعة، طويل الفكرة، يحاسب نفسه إذا خلا، ويقلب كفيّه على ما مضى، ويدنينا إذا أتيناه، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منّا لا نكلمه لهيبته، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسّم فعن اللؤلؤ المنظوم، يعظّم أهل الدين، ويتحبب للمساكين، لا يخاف القوي ظلمه، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه، وأرخى الليل سرباله، وغارت نجومه، ودموعه تتحادر على لحيته، وهو يتململ ويبكي بكاء الحزين، فكأني الآن أسمعه وهو يقول: يا دنيا غرّي غيري، قد طلّقتك ثلاثًا لا رجعة لي فيك، فعيشك حقير، وخطرك يسير، آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق».... هنا انهمرت دموع معاوية، وجعل ينشفها بكمه، ثم قال: «يرحم الله أبا الحسن كان كذلك، وبموته ذهب الفقه والعلم، ثم أضاف قائلاً لعديّ: فكيف صبرك عليه؟ فأجاب عديّ: كصبر من ذبح ولدها، فهي لا ترقأ دمعتها، ولا تسكن عبرتها.. ثم سأل معاوية: فكيف ذكرك له؟.. فقال: وهل تراني أنساه».

في خجل يقترب عليّ من ابن عمه وعلى وجهه كلام لم ينطق به، فيدرك النبي أن ابن عمه وأخاه قد جاء في أمر يمنعه الحياء من الإفصاح عنه فيسأله: «ما خطب ابن أبي طالب؟».. فلم ينطق من يغض بصره سوى بالاسم.. فاطمة.. دون تعقيب، وما نطق الأب سوى بكلمتين لا ثالث لهما: مرحبًا وأهلاً.. وبعدها.. أمسك الرسول عن الكلام، وطال صمته لينصرف عليّ حائرًا يدير الكلمتين.. يستنطقهما.. ليظل منهما متخوفًا ألا تكون فيهما استجابة، خاصة أن رسول الله كان قد ردّ كلا من أبي بكر وعمر بن الخطاب من قبل عندما جاء كل منهما لخطبة فاطمة، ووقتها كان رده الجميل المقنع لكليهما: لم يأذن الله بعد.. ولكن طمأن الجمع عليًا بقولهم إنه كان يكفيه تعبيرا عن موافقة الرسول إحدى الاثنتين «مرحبًا أو

أهلاً». . ولم يكد يطلع نور الصبح حتى استجمع علي شجاعته ليفصح بالجملة المفيدة: «لقد أتيتك يا رسول الله خاطبًا ابنتك فاطمة فهل زوجتني إيّاها»؟ . .
وكانت فاطمة التي قاربت وقتها عامها الثامن عشر تحس بإلهام فطرتها ووحي قلبها أن عليًا متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغب في سواها من بنات المسلمين. . وكذلك كانت هي لم تشعر بمن هو أقرب إليها من عليّ وأعزّ موضعًا. . وما إن يطلب علي فاطمة حتى يتهلل وجه النبي منبسطًا سائلاً: وهل عندك شيء تصدقها به؟ فيجيبه الخاطب صادقًا: لا يا رسول الله. . فيعود ليسأله: وأين درعك؟! فينطلق ليأتي به ليأمر الرسول ببيعه ليجهز العروس بثمنه، ويتقدم عثمان فيشتريه بأربعمائة وسبعين درهمًا قام عليّ بوضعها أمام المصطفى الذي دفع بعضها إلى بلال ليشتري عطرًا وطيبًا، وبالباقي لأم سلمة رضي الله عنها لتشتري جهاز العروسين اللذين أهداهما عليه الصلاة والسلام بساطًا من الصوف الأبيض. . وقام عليّ بإعداد بيته لاستقبال بنت أشرف الخلق. . حجرة متواضعة خلف بيت النبي صلى الله عليه وسلم عن يسار المصلى إلى القبلة في الروضة، وكان فيه خوخة ـ ممرًا ـ إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم ـ حيث كان يأتي بابها كل يوم يأخذ بعضادتية ـ ضفتيه ـ ويقول: «الصلاة . . . الصلاة»، وعن عمر بن علي بن الحسين قوله: «كان بيت فاطمة في موضع الزور مخرج النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت فيه كوّة إلى بيت عائشة رضي الله عنها، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام إلى المخرج اطلع من الكوّة إلى حجرة فاطمة فعلم خبرهم. . وكان يحدث فاطمة من الكوّة أحيانًا ليسألها عن أحوالهم». . البيت حجرة متواضعة فرشت بالرمل الناعم، وفراش ووسادتان حشوهما من ليف هذبته بأيديهما زوجتا رسول الله عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، وعود في جانب البيت لتلقي عليه الثياب وتعلق القربة، وجلد كبش يقلب علي صوفه فيصير فراشًا، وإناء به سمن جاف يطهى به، وقربة للماء وجرّة وكوز، ورحى، ومنخل، ومنشفة. . وخفت نساء الأنصار الثرياتَ فأهدين فاطمة رداءين للزفاف، وبعض حقاق من الطيب والعطور، وأقرضنها بعض الحُلي من الذهب والجواهر. . وفي موعد القران احتفل بنو عبد المطلب فأتى حمزة عم النبي وعم علي بشارفين ـ جملين ـ نحرهما وأطعم الناس. . وما إن فرغ الجمع من

الطعام حتى أتى الرسول ببغلته الشهباء وثنى عليها قطيفة قائلاً لفاطمة اركبى، وأمر سلمان أن يقود بها، ومشى الرسول خلفها ومعه حمزة وبنو هاشم مشهرين سيوفهم، وأمر بنات عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يمضين في صحبة فاطمة، وأن يفرحن ويرتجزن. . وينثر الرسول على رأسي الزوجين ماء معطرًا مع قوله: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا». ويسأله عليّ: «يا رسول الله أنا أحب إليك أم هي؟ فيرد عليه صلى الله عليه وسلم: هي أحب إليّ منك، وأنت أعزّ عليّ منها». واعتاد الرسول أن يزورهما ليطمئن على أحوالهما، وكان إذا أوصى عليا بها قال: «فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها» ويهديهما كلمات علمها له جبريل للتغلب على المصاعب: «تسبحان بعد كل صلاة عشرًا، وتحمدان عشرًا، وتكبران عشرا، وإذا آويتما إلى فراشكما، تسبحان ثلاثا وثلاثين، وتحمدان ثلاثا وثلاثين، وتكبران ثلاثا وثلاثين».

ويعتذر عليّ بن أبي طالب لفاطمة يسألها العفو والمغفرة فتغفر لابن العم الذي راح يروي لها ما كان من حديث المسجد، ويصف لها شعوره الآسف حين سمع ابن عمه صلى الله عليه وسلم يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة وإنكاره أن يتزوج عليّ من بنت أبي جهل مع الزهراء، وقسمه ألا يجمع بين بنت رسول الله وبنت عدو الله أبدًا. . وتلد الزهراء الحسن والحسين ليكون اسماهما نغمة حلوة في فم أبي الزهراء يستعذبها ولا يمل من ترديدها. . ويلقى ابنته وزوجها وقد غلبهما النعاس، والحسن يبكي ويطلب طعامًا، ولا يهن على الأب الكريم أن يوقظ العزيزين النائمين، فأسرع إلى شاة كانت تقف في ساحة الدار، فحلبها وسقى الحسن من لبنها حتى ارتوى، وكان يقول لابنته معاتبًا إذا ما بلغ مسمعه صوت بكاء الحسن: «علمت أن بكاءه يؤذيني».

ومن بعد وفاة الرسول لم تُر الزهراء إلا حزينة باكية تدعو أن تلحق بأبيها كما بشرها قبل الرحيل. . وما أسرع ما لحقت به بعد ستة أشهر، حيث اغتسلت ولبست ثوبًا جديدًا واضطجعت على فراشها وسط البيت واستقبلت القبلة وتهيّأت

للقاء ربها ولقاء أبيها الحبيب . . ثم أغمضت عينيها . . وأسرع عليّ يجهزها ويدفنها سرًا كما أوصت ويبكي على قبرها قائلاً :

لكل اجتماع من خليلين فرقة — وإن الذى دون الفراق قليل

وإن افتقادي واحدًا بعد واحد — دليل على ألاّ يدوم خليل

ويعود إلى داره وحيدًا مع أحزانه، يواسي صغاره: الحسن والحسين ومحسن وقد مات صغيرًا وأم كلثوم وزينب، ورقية وماتت صغيرة قبل البلوغ، ولم يتزوج عليّ على فاطمة حتى وفاتها . . وكان في عصمته يوم قُتلَ أربع زوجات هن: أمامة، وليلى بنت مسعود التميمية، وأسماء بنت عميس، وأم البنين.

غزير الدمع . . طويل الفكر . . المخوشن في سبيل الله . . كان في رمضان من السنة التي قُتل فيها يفطر ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين، ولا يزيد في أكله على ثلاث أو أربع لقمات ويقول: «يأتيني أمر الله وأنا قميْص جائع»، ولم يمض الشهر حتى قُتل رضي الله عنه لتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما علمت بمصرعه: «فلتصنع العرب ما شاءت فليس لها أحد ينهاها» . .

أبا الحسن . . الأمور تقترب من نهاياتها . . البطل يقف بين فتنتين عارمتين . . الشام تصيح: يا لثارات عثمان!! . . وفي العراق صيحة: لا حكم إلا لله!! . . ولئن كانت الأولى أعتى وأوسع، فإن الثانية أمضُّ وأوجع، ذلك أن ذويها ومشعليها الذين كانوا بالأمس أتباعه وجنده، هم الذين أصرّوا على قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه ويدعوهم إلى رفضه . . وصدق رسول الله حين قال: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى، والماشي خيرٌ من الساعى» . . ويضع الإمام الذي ضاق بهم ذرعًا مصحفه فوق رأسه قائلاً: «اللهم إنهم منعوني أن أقوم في الأمة بما فيه المصحف فأعطني ثواب ما فيه، اللهم إني مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني . . اللهم أمت قلوبهم موت الملح في الماء» . . وإلى أي حد ضاق الإمام بهم ذرعًا حتى دعا عليهم ودعا لنفسه قبل استشهاده بأيام «والله لوددت أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم . . ولوددت أني لم أركم ولم أعرفكم . . فقد، والله ملأتم

صدري غيظًا، وجرعتموني الأمرّين أنفاسًا، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان». . وسارع القدر يلبي رجاءه.

يزعق الإوز في وجه الإمام عند دخوله المسجد. . يحاول الناس إسكاته فيقول الإمام: «ذرهن فإنهن النوائح». وكان اغتياله يسيرًا لا يتطلب جلدًا ولا قوة ولا بطولة. . فقط ضميرًا ميتًا وقلبًا أعمى. . كان الإمام بلا حرس. . وكانت هناك «فطام» بالغة الجمال من الخوارج التي قُتَل أبوها وأخوها يوم النهروان، وشرطها على عبد الرحمن بن ملجم لنيل رضاها أن يكون المهر ثلاثة آلاف وعبد وجارية، وقتْل علي بن أبي طالب. . وكان السيف مسلولاً سقاه بن ملجم السم أربعين يومًا. . وقُتل الإمام. . قُتل أبو تراب الذي طلب في لحظاته الأخيرة شربة لبن، وأمر لقاتله بمثلها. . قُتل إمام المتقين الذي صدق عندما قال: «يأتي على الناس زمان لا يقرّبُ فيه إلا الماحل الواشي، ولا يظفر فيه إلا الفاجر، ولا يضعف فيه إلا المنصف، زمان يتخذون فيه الصدقة مغرمًا، وصلة الرحم منًا، والعبادة استطالة على الناس - أي تكبرا - فعند ذلك يكون سلطان النساء، ومشاورة الإماء، وإمارة الصبيان».

أبا الحسن. . لقد أتى هذا الزمان. . زماننا الآن!!

نفيسة العلم

السيدة نفيسة

وجدتني ولم يكن في الأمر إذعان ولا إجبار ولا انسياق علي غير رغبة مني . . وجدتني ملبية . . وجدتني ولم أكن أدري أنني المتأهبة نحوها . وجدتني ولم يكن بعلمي أنني أحمل لها ذلك الطوفان من المشاعر . وجدتني وكأنه الإذن بالمرور لمن طال وقوفه على الباب . وجدتني مع بشائر مولد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه مستبشرة بحفيدته التي فوجئت بتزامن ميلادها مع ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فقد ولدت في الحادي عشر من شهر ربيع الأول ، الموافق الأربعاء سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة النبوية ، بل وتوفيت في مثل عمر رحيله في الثالثة والستين . . وجدتني ووجدتها . . وجدتها وكأنها رسالة تلكأت في الطريق نحوي وآن أوان تسلمها . . وجدت الصديق يطلعني على منام رآني فيه بالأمس القريب كنا فيه معا يدعوني للكتابة عن السيدة نفيسة ، وجاءت جدته الراحلة في الحلم ، وهي من كانت في طفولته حريصة على اصطحابه في زيارتها لمسجدها ، جاءت لتجلس قبالتنا من بعيد تهز رأسها في غبطة الموافقة على دعوته لي ، ويقول المريد وكأن صورة جدته في المنام بهيئتها هي ذات السيدة الطاهرة . . السيدة نفيسة .

ويضيء في عيني الطريق لأقوم لساعتي أبحث في المكتبة عن نفيسة العلم ، كريمة الدارين ، وأنقل لابني عبر الأثير من الجهاز الصغير ما انتويت ، وأستند في حديثي إلى أحد الرفوف الذي سبق لي مرات المرور على عناوين كتبه دون طائل . . فأجده . . يطل ناحيتي بجانب رأسه ، وقسمًا بمولاي لو أني مكثت أبحث عنه دهرا في مخبئه لفشلت في الحصول عليه ، وكأن هناك يدا خفية قد دفعت به ليطل ناحيتي من بين أغلفة أقرانه .

وأبدا لا أذكر يوما اقتنيت فيه هذا الكتاب القديم بعنوانه «السيدة نفيسة رضي الله عنها». مطبعة دار التأليف: ٨ شارع يعقوب بالجمالية تليفون ٢١٨٢٥ الثمن ٢٠ قرشا.. ووجدتني فرحة للالتفاف حولها في شوق لمعرفة تاريخها وأصلها ونسبها وقدومها إلى مصر، ودور الإمام الشافعي في حياتها وسبب التصاق العلم باسمها «نفيسة العلم» وحب المصريين البالغ لها كواحدة من آل البيت الذين يجلّهم أبناء مصر بالفطرة دونما انقسامات أو مذاهب وشيع أو شقاق أو خوارج أو ندم تدميه السلاسل حتى ليصبح اسمها نفيسة المصرية.

وجدتها.. ساعة أن يذكر اسمها.. هي بالذات.. تعكس العيون استجابة فورية برقرقة مطلة من المآقي كأنه الغيث القادم من بعد التحاريق.. تتبدل الشفاه العابسة والجباه المنعقدة والملل المتبدي والقول الجارح.. جميعها تتراجع من بعد المد إلى جزر ململمة ضجرها وكآبتها ويأسها إيذانا بقدوم طلائع الطمأنينة وأجواء السلام. تأتي العذوبة مع فتح سيرتها تطل من خدرها كأنما استدعيَت بتعويذة أو رقية لتنضو عنها ثوب الخمول.. أرصد الأنظار تتجه إلى الاسم كأنه كائن نوراني له كيان وحده، خلق من أوراق الورد وسقي بماء الكوثر.

ذلك كله إذا ما ذكرت السيدة نفيسة. نفيسة الدارين. العالمة الفقيهة الورعة الطاهرة. السيدة نفيسة بنت حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.. نفيسة مصر والمصريين وقرة عين المسلمين أجمعين، من جاءت من نسل قوم عظّمت السماء شأنهم، وأعلت الشريعة قدرهم، وخلّد القرآن ذكرهم، ونزل الوحي في بيوتهم، وزارت الملائكة رحابهم، وجرت دماء النبي في عروقهم، وقال عنهم الرسول الكريم لسيدنا علي: «ادن مني يا علي... خلقت أنا وأنت من شجرة أنا أصلها وأنت فرعها والحسن والحسين أغصانها فمن تعلق بغصن منها أدخله الله الجنة». ومن واحد من تلك الأغصان، غصن القرن الأول للهجرة جاءت نفيسة أحد أغصان رياحين القرن الثاني الهجري.. السيدة التي جمعت إلى طهارة القلب شرف النسب، وإلى كثرة العلم نبل الصفات، وإلى حفظ القرآن الفقه في الدين والإلمام

بأحكامه وتعاليمه والإحاطة بأسراره ومعانيه. . ساعة أن يذكر اسمها. . هي بالذات. . ينتفي الإعراض ويتفجر القبول على جميع المستويات وفي كل الجهات.

من الوزير للغفير، ومن العسكر للحرامية، ومن السياسيين للمطربين، ومن العالم للجاهل، ومن ابن دمياط لابن الدلنجات، ومن ساكن الزمالك لنزيل العشوائيات، ومن المحجبة للسافرة. . وتعكس محبتها واليقين من كراماتها إحدى العقائد المصرية الراسخة في النفوس حتى ظلت ملامح الثقة البالغة والاطمئنان الزائد عن الحد بادية على وجه سائقنا في مشوار عودتنا من زيارة ضريحها، رغم اختلال توازن العربة واصطكاك مفاصلها وتفويت فراملها وغربلة عجلاتها، ظل يلتفت إلينا مرات من مقعده الأمامي باستهزاء من تخوفنا قائلا: «اللي جابتنا ترجعنا».

نفيسة المصريين

وجدتها. . من أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بدفنها في مصر.

وجدتها. . قد حفرت قبرها في دارها بيدها لتبقى الميتة الحية.

وجدتها. . قد أضاءت بنور علمها الأرجاء.

وجدتها. . بنت الأمير وزوجة الأمير وحفيدة أمير المؤمنين.

وجدتها. . زوجة تزوّج زوجها عليها مرتين في الشام والمدينة.

وجدتها. . الأم الثكلى من مات أبناؤها القاسم وأم كلثوم في حضنها.

وجدتها. . الابنة التي تتخلى عن اللحاق بزوجها لرعاية الأب المريض.

وجدتها. . تحج ثلاثين مرة سيرا على الأقدام.

وجدتها. . عاصرت المنصور والمهدي والهادي والرشيد والمأمون.

وجدتها. . تحج لمقام إبراهيم فيوصيها في المنام بسورة المزمل.

وجدتها. . طرحوا قناعها على صفحة النيل عندما غاض فزاد وفاض.

وجدتها. . مرجعا للأئمة.

وجدتها. . تقرأ القرآن وتبكي.

وجدتها . . شاعرة .

وجدتها . . صابرة .

وجدتها . . غداة كل مصيبة حامدة شاكرة .

وجدت أن أعظم الكرامات لها أن يدعو الداعي في رحابها الطاهر فيستجيب الله له فيفرج عنه ضيقه ويقضي حاجته .

وجدت من شذرات أقوالها : الصبر يلازم المؤمن بقدر ما في قلبه من إيمان ، وحسب الصابر أن الله معه ، وعلى المؤمن أن يستبشر بالمشاق التي تعترضه ، فإنها سبيل لرفع درجته عند الله الذي جعل الأجر على قدر المشقة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، وحذار من الغرور فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تحفُّه الصحابة بألوان من التعظيم والتكريم يسجد على تراب الأرض ، وإن الجهاد في طلب الرزق عبادة يدخر أجرها ليوم الحساب ، ولا يكمل حب المسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بمتابعته في جميع أعماله وأقواله .

ووجدتها حين شعرت بدنو أجلها تقول :

اصرفوا عني طبيبي . . ودعوني وحبيبي

لا أبالي بفوات . . حيث قد صار نصيبي

جسدي راض بسقمي . . وجفوني بنحيبي

نفيسة العلم . . أتقنت القراءة والكتابة وهي لم تبلغ السابعة في محيط كانت الأنثى توأد فيه من قريب ، وقبل الثامنة حفظت القرآن على يد أبيها وجوّدته ، وتلقت في المسجد النبوي الشريف علوم الحديث والفقه من علمائه ، ومن بينهم الإمام مالك الذي قرأت له كتابه الموطأ واستوعبته ، وكانت في مقدمة الذين يجلسون إليه من طلاب العلم الذين يفدون من سائر الأقطار الإسلامية ، والتقت في مجلس أبيها الحسن بصفوة العلماء وخلاصة الفقهاء فتستمع إليهم وتروي عنهم . . وكانت تنشد الشعر ، ومن قولها في حب جدها الأكبر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا حبيب القلوب أنت الحبيب ... أنت أنسي وأنت مني قريب

يا طبيبا بذكره يتداوى ... كل ذي سقم فنعم الطبيب

طلعت شمس من أحب بليل ... واستنارت فما تلاها غروب

وإذا ما الظلام أسبل ستا ... فإلى ربها تحن القلوب

نفيسة العلم عندما قدمت إلى مصر يوم السبت الموافق ٢٦ رمضان عام ١٩٣هـ كان بيتها ندوة قائمة دائمة يحج إليها فحول العلماء وأئمة الفقهاء وشيوخ الزهاد وصفوة العارفين، أمثال الإمام عبد الله بن الحكم صاحب الإمام مالك الذي نال رئاسة المالكية من بعده، والإمام عثمان بن سعيد المصري والشيخ أبوالفيض ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصري من كبار الصوفية الذي استمر يزورها في حياتها ويزور قبرها من بعد وفاتها، والربيع بن سليمان المرادي الذي قال عنه الشافعي: الربيع راويتي.

وحدث أن انقطع بشر بن الحارث عن زيارتها وهو الحريص على مجلس علمها فلما سألت عنه وعلمت بمرضه ذهبت لتعوده في داره، وهناك التقت الإمام أحمد ابن حنبل الذي سأل صاحب الدار عن شخصية السيدة، فلما علم بها أحسن تحيتها وطلب من بشر مستبشرا أن يسألها الدعاء لهما، فلم تخيب رجاءهما لتدعو قائلة: «اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا أرحم الراحمين». وقد حضرت السيدة نفيسة إلى القاهرة قبل قدوم الإمام الشافعي إليها بخمس سنوات عندما نزل عند أخواله من الأزد قبيلة أمه أسوة بالنبي عليه الصلاة والسلام عندما هاجر إلى المدينة فنزل عند أخواله بني النجار.

وهو من آل المطلب أبناء عمومة الرسول عليه الصلاة والسلام الذي ولد بغزة ونشأ بعسقلان وانتقل إلى مكة للتزود من العلم، ومن ضيق ذات يده كان يكتب العلم الذي يأخذه على قطع الجلود وسعف النخيل.. ورحبت السيدة نفيسة بالشافعي القرشي الذي ينبض قلبه بحب آل البيت، ولقد جمع بينهما النسب وربطت بينهما القرابة والدماء، وزاد من تقدير السيدة للإمام، علمه وورعه فكانت

الحريصة على أن تكون في مجلسه تسمع رأيه في الفقه واجتهاده في فهم نصوص الدين، ولشدة ثقتها به طلبت منه أن يكون إماما لها يصلي بها الفرائض فأجابها، ويأتي رمضان وحرصها فيه على الصيام والقيام فطلبت منه أن يؤمها في صلاة التراويح فلبى الإمام.

وكانت دارها كريمة الدارين بمثابة الجزيرة الآمنة له وسط بحر صاخب متلاطم الأمواج، حتى كان من عادته أن يزورها وهو في طريقه إلى حلقات درسه في مسجد الفسطاط وفي طريق عودته إلى داره، وفي غير ذلك من الأوقات.. ولما ثارت الضغينة ضد الإمام الشافعي، وقام أتباع الإمام مالك يطالبون الحاكم بإخراجه من مصر وإلا كانت فتنة عمياء، وللأسف استجاب الحاكم لطلبهم، فأنذر الشافعي بالخروج من البلاد بعد ثلاثة أيام، ووقفت السيدة نفيسة إلى جانبه، وأصرت على بقائه، وهنا تدخلت الأقدار حيث لم تمض هذه الأيام الثلاثة حتى مات الحاكم وبقي الشافعي إماما للبلاد، فهل كانت هذه إحدى كرامات السيدة؟ أم كانت كرامة للإمام؟!

وكان إذا ما أصابه مرض يجعله يتخلف عن زيارتها يرسل رسولا من تلاميذه فيقرؤها سلامه قائلا: «إن ابن عمك الشافعي مريض ويسألك الدعاء» فتقول: عليه بالسبع المنجيات من آيات الذكر الحكيم، وترفع وجهها للسماء تدعو له فلا يعود رسوله إلا وقد عوفي الإمام، ولما مرض مرضه الأخير أرسل لها كعادته يلتمس الدعاء فقالت لرسوله: «متعه الله بالنظر إلى وجهه الكريم».. فعلم الإمام الشافعي بدنو أجله ليوصي بأن تصلي عليه السيدة نفيسة، ولما توفي في عام ٢٠٤ هـ، مروا بجنازته على بيتها فصلت عليه مأمومة وإمامها أبو يعقوب البويطي - أحد أصحاب الإمام - وكان مرور جنازة الشافعي بدارها بأمر من السري أمير مصر لأنها سألته في ذلك تنفيذا لوصية الإمام، ولأنها لا تتمكن من الخروج لضعفها من كثرة العبادة، وجاء ذكر الشافعي بعد وفاته في مجلس السيدة نفيسة لتمتدحه وتترحم عليه بقولها: «رحم الله الشافعي فقد كان رجلا يحسن الوضوء».. مات الإمام الشافعي فقيرا ولم يبلغ الرابعة والخمسين ودفن بالقرافة الصغرى بالقاهرة.

في يوم مولدها طغت الفرحة على حسن الأنور بقدوم الابنة الأنثى من زوجته أم ولد من بعد عشرة من الذكور من زوجته أم سلمة، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت له ثلاث بنات يؤدبهن ويكفلهن ويرحمهن وجبت له الجنة فسأله بعض الصحابة ولو كانت اثنتين؟ فقال ولو كانت اثنتين؟ فقالوا: ولو كانت واحدة؟ فقال النبي ولو كانت واحدة». فعندما زفت إلى الأنور بُشراها أسماها نفيسة لأنها بمثابة الدرة النفيسة، وتيمنا بعمتها أخته السيدة نفيسة بنت زيد التي تزوج بها الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموي، التي جاءت إلى مصر مع زوجها حين كان واليا عليها قبل توليه الخلافة لتمكث بعد طلاقها منه عند ابنة عمها السيدة سكينة بنت الإمام الحسين قبل مجيء السيدة نفيسة الصغرى لمصر بوقت طويل، ودفنت بدارها المسماة باسم «المعبد» شمال مصر القديمة الشرقي، حيث لا يعرف الكثيرون أن بمصر نفيستين الكبرى والصغرى.. ولم يكد الأب يبرح مكانه بالكعبة المشرفة بعد بشرى مولودته حتى جاءته البشرى الأخرى بإسناد ولاية المدينة المنورة إليه مع منحة قدرها عشرون ألف درهم.. ويبلغ الركب آفاق المدينة ليستقبل أهلها حفيد الرسول بأصداء ذكريات ما استقبلوا به الرسول الكريم عند هجرته بطلع البدر علينا من ثنيات الوداع ووجب الشكر علينا ما دعا لله داع.. ويحمل الحسن نفيسته في الخامسة إلى الروضة الشريفة قائلا: «يا رسول الله هذه ابنتي وأنا أحبها وراض عنها فلتشملها منك النفحات» ويرى الحسن النبي الكريم في منامه يقول له: «إني راض عن ابنتك برضاك عنها، والحق سبحانه راض عنها برضائي عنها».

وتلازم الابنة أباها في حلقات العلم ويشركها معه في نسكه وعباداته.. وتتفتح المدارك وتنضج الأنوثة ليفيض اكتمالها على النفيسة بهاء وجمالا، مما جعل خطابها ولاسيما من شباب آل البيت لا ينقطع قدومهم، بينما الوالد يلقاهم قاطعا برفضه: «إني أريد أن أؤدي الأمانة إلى أهلها، وأرد القطرة إلى بحرها، وأغرس الوردة في بستانها».. واستنهض همته خيرة شباب الأسرة العلوية إسحاق بن جعفر الصادق المعروف باسم إسحاق المؤتمن ـ من أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وذهب إلى

أبيها يخطب ابنة العم وشريكة الطفولة ورفيقة الصبا، فأتاه الرفض المعلن للجميع، فانصرف إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقف في محرابه الميمون يبث لوعته، وأتى الصباح ليرسل له الحسن والد نفيسة يخبره بعدوله عن رفضه بعدما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له في المنام: زوج نفيسة يا حسن من «إسحاق المؤتمن». . وتم عقد القران في يوم الجمعة من شهر رجب سنة إحدى وستين ومائة هجرية، والعروس في سن الخامسة عشرة ليجتمع فرعان من شجرة النبوة ويذوب معدن الحسن والحسين معا وتلتقي ذرية النبي وسلالة عليّ وأحفاد خديجة وفاطمة الزهراء.

سافر إسحاق تصحبه زوجته إلى مكة المكرمة ليستقر بهما المقام حيث الكعبة الشريفة والمسجد الحرام، لتهيم نفسها بزيارة مقام خليل الله إبراهيم، ولم يهدأ شوقها حتى صحبها إسحاق إلى مزاره المبارك في مدينة الخليل بفلسطين، وبعدها إلى دمشق مستقبلة بجموع العلماء الذين هرعوا لالتماس بركاتها، وتذهب هناك لزيارة مقام زينب بنت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وقبر عمتها فاطمة بنت الحسن بن علي. . وفي الشام تاقت لزيارة مصر حرم الأمان، فقدمت مع زوجها إسحاق وأبيها الحسن الأنور أثناء ولاية الحسن بن البحباح والي مصر من قبل الرشيد الخليفة العباسي، وكانت شهرتها قد سبقتها ليخرج إليها الناس لاستقبالها على أبواب مصر عند العريش في أفراح لم يسبق لها مثيل، اشترك فيها مئات الرجال وكانت النساء في الهوادج بأعداد لا تحصى، وحطت السيدة نفيسة الرحال عند رجل من كبار التجار اسمه جمال الدين عبد الله الجصاص. . ويطلب الزوج من زوجته بعدها مرافقته للمدينة التي أصبح واليا عليها فتستأذنه في البقاء لرعاية أبيها المريض، وتحين ساعة رحيل إسحاق عن أولاده الباكين المتشبثين في المشهد الحزين الذي يعينها عليه بقوله:

«عدي السنين لغيبتي وتصبري ودعي الشهور فإنهن قصار».

فتجيبه وقد خانها الصبر:

«لا تنس حاجتنا إليك وضعفنا. . واذكر بناتك إنهن صغار».

وفي غربة الأب تمرض الابنة أم كلثوم وتموت ومن بعدها شقيقها الصغير قاسم لتنعيه الأم الثكلى: «ألا تلك المسرة لا تدوم ولا يبقى على الدهر النعيم»، ولا يعود إسحاق رغم مراسيلها إليه وكان قد تزوج وأنجب في المدينة.. ويستغيث الناس من ظلم ابن طولون بالسيدة الطاهرة ـ كما ذكر القرماني في تاريخه وصاحب الغرر وصاحب المستطرف ـ فسألتهم عن موعد موكبه فقالوا في الغد، فكتبت إليه رقعة ووقفت تعترض في الغد طريقه، فلما رآها عرفها فترجّل عن فرسه وأخذ منها الرقعة التي جاء فيها «ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم ففسقتم، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لاسيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريْتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون، وجوروا فإنا بالله مستجيرون، واظلموا فإنا إلى الله متظلمون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ قال: فعدل لوقته».. ويزدحم البيت بوفود الزائرين يرجون دعاء السيدة نفيسة ويبتغون كراماتها.. ويذكر الأجهوري في مشارق الأنوار: أن السيدة جوهرة جارية السيدة نفيسة، أخذت إبريق السيدة تملؤه، فوضعته، فجاء ثعبان يتمسح برأسه كأنه يتبرك به.. وينمو إلى علم أمير مصر السري بن الحكم رغبتها في الرحيل إلى المدينة، فيركب إليها يسألها البقاء فتقول: إني امرأة ضعيفة وقد شغلني الناس عن أذكاري وعبادة ربي، كما أن المكان قد ضاق بالجموع الكثيفة، فيهبها السري دارا واسعة على أن تخصص يوم السبت والأربعاء لتلك الجموع وتتفرغ بقية الأيام للعبادة، وتقبل السيدة التي يحبب لها البقاء في مصر بعد أن رأت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يقول لها: «لا ترحلي عن مصر فإن الله متوفِّيك فيها».

ويرحل الإمام الشافعي وتحفر السيدة نفيسة قبرها لتصلي فيه وتختم القرآن مائة وتسعين ختمة، وترسل إلى زوجها إسحاق المؤتمن تطلب منه موافاتها لإحساسها بدنو أجلها، لكنه لا يأتي أيضا، ويشتد بها المرض، وتروي زينب بنت أخيها ومرافقتها: «تألمت عمتي في أول يوم من رجب وما زالت كذلك إلى أول جمعة في رمضان فزاد بها الألم وهي صائمة، وأشار إليها الأطباء بالإفطار لحفظ القوة لما رأوا

من الضعف الذي أصابها، فقالت: واعجباه لي ثلاثون سنة أسأل الله عز وجل أن يتوفاني صائمة، فأفطر؟! معاذ الله».

ثم إنها بقيت كذلك إلى العشر الأواسط من شهر رمضان فاحتضرت، واستفتحت بقراءة سورة الأنعام، فما زالت تقرأ إلى أن وصلت إلى قوله تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾، وغشي عليها فضممتها إلى صدري فتشهدت بشهادة الحق وفاضت روحها الكريمة، ولقد خدمت عمتي السيدة نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت بليل ولا أفطرت بنهار، إلا العيدين وأيام التشريق.. وكانت تأكل كل ثلاثة أيام مرة، ولها سلة معلقة أمام مصلاها، كلما اشتهت شيئا وجدته في السلة.

وكانت الراحلة الكريمة قد أوصت بأن يضمها قبرها الذي حفرته بيديها بعد وفاتها، على ألا يعدها لقبرها إلا زوجها إسحاق المؤتمن الذي حضر مصمما على دفنها في البقيع مع أمها الزهراء وأبيها الحسن، ولكن المصريين حالوا بينه وبين ما يريد، وحملوا له من الأموال حمل بعير فأبى إلا نقلها، فتشفعوا إليه بالأمير الحاكم فلم يقبل شفاعته، وبات الناس حول قبرها حتى الصباح أفواجا تدعو وتبتهل إلى الله ببركة كريمة الدارين ألا يريهم ساعة فراقها مرتين وقضى الله بأن تظل السيدة نفيسة بركة مصر والمصريين وقرة عين المسلمين أجمعين.. قضى أن تظل في قبرها الذي حفرته بيدها وأضاءته بقرآنها وصلواتها.. وأشرق نور الصبح ليقبل إسحاق مشرقا ـ وهو الذي قيل عنه إنه لم ير أبدا ضاحكا ـ ليقول للجمع الحزين: والله لقد رأيت الرسول في منامي قائلا لي: «دع نفيسة بنت الحسن للمصريين». وكان يوم دفنها مشهودا ليظل مسجدها على مدى تاريخه يحظى باهتمام العلماء والأمراء والحكام الذين تعاقبوا على مصر، فمنهم من جدد المقام ومن وسّع المسجد حتى وصلت مساحته إلى ما يزيد على ألفي متر بعد أن كان مجرد حجرة في الدار، ولم يكن كافور الإخشيدي إلا زائرا مستديما لمقامها، يهرع لقبرها يسأل الله قضاء حوائجه ويفي بالنذر وينثر الطيب ويحن على الفقير، ومعروف عن خديو مصر عباس حلمي الثاني أنه كان من مريدي السيدة نفيسة، وهو الذي قام بتجديد مسجدها وأقام في هذه المناسبة احتفالا كبيرا حضره الأمراء والعلماء والأعيان،

ليظل مسجدها يومها يعج بالناس حتى صباح اليوم التالي لتوافد الزائرين من شتى أنحاء مصر . . جاءوا لنفيسة المصريين .

ولأنه أوصى - الإمام الشافعي - بأن تصلي عليه بعد وفاته ، جاءوا إليها به وصلَّت عليه . . وعندما رحلت كريمة الدارين كتب على باب مقامها الطاهر قول الإمام :

«يا أهل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكمو من عظيم القدر أنكمو من لم يصل عليكم لا صلاة له» .

إمام التوفيق والتقريب

الشيخ شلتوت

ولا كل من لبس العمامة يزينها، ولا كل من ركب الحصان خيال.. لقد زان شلتوت العمامة والإمامة، وكان آخر فرسان الأئمة المجددين العظام انطلاقا من الفكر النبوي الذي جعل التجديد سنة الله وقانونا من قوانين الفكر الإسلامي: «يبعث الله لهذه الأمة كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها».. الشيخ الإمام الأكبر محمود شلتوت البوصلة والجوهر والمرجع والأستاذ القاطع بالرأي الذي لا يخاف في الحق لومة لائم، المفتي بالحق الشجاع بالعلم الداعي بسلامة المنطق القادر بقوة الإقناع المنصت للرأي الآخر، المنطلق بفكره من قيود التقاليد، المنادي بالتجديد الانقلابي في الأزهر الشريف.. من كان يرحب بالذهاب إلى القمر ليرى بعينه أثرا من آثار القدرة الباهرة لله الفعال لما يريد.. من أطلق عليه العقاد لقب «إمام التوفيق والتقريب».. من فرق في مقالة بعنوان شخصيات الرسول بين الرسول كرسول معصوم يوحى إليه، والرسول كبشر يعتريه ما يعتري أي بشر من عوارض، وهاجمه علماء الأزهر لكنه لم يلتفت لمثل هذه الأمور.. الذي نفى الكفر عمن يعتقد أن عيسى عليه السلام قد توفي، واستشهد بالآيات القرآنية ومنها **﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾**.

شلتوت الإمام الأكبر الذي كان صدره الرحب لا يضيق بالسؤال وإن جاوز السؤال حدود السؤال.. من أفتى بشجاعة الحق أن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين، ولمن قلد مذهبا من المذاهب أن ينتقل إلى غيره ولا حرج عليه في شيء، وإن مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية،

مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة، وذهب الشيخ المجتهد الشجاع في عدم اعترافه بالتفرقة المذهبية إلى أنه وهو شيخ الأزهر كان يقدم الدكتور القمي من علماء الشيعة في إيران للإمامة في الصلاة دون حرج مرات ومرات ليصلي من خلفه.

ومن جهود الشيخ الفكرية والعلمية التي تبناها الأزهر الشريف في عهده احتضانه لكل المذاهب الإسلامية الموثقة المصادر، وإصدار الموسوعة الفقهية باعتماد المذاهب الفقهية الإسلامية الثمانية: الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي، والجعفري، والزيدي، والإباضي، والظاهري، مما جعل الأزهر متفردا بين كل الجامعات الإسلامية، فاتحا الباب أمام إسلام واحد بلا مذاهب، حتى لقد أنشأت إيران مجمعا للتقريب بين السنة والشيعة يرأسه مدير سني هو الإمام آية الله محمد خراساني، الذي أقام في مارس ٢٠٠١، حفل تكريم للشيخ الراحل محمود شلتوت والإمام آية الله بروجردي من علماء إيران شارك فيه نخبة من علماء الدين المستنيرين في مصر.

ابن منية منصور مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة ولد في الساعة التاسعة والدقيقة العشرين من مساء ٢٢ أبريل ١٨٩١، ليشق طريق التلمذة حتى الأستذة في مدرسة الإحياء والتجديد للإمام محمد عبده، كان يقطن بالشقة رقم ٧ بالدور الثالث من العمارة رقم ١٢ شارع إسماعيل الفلكي بحي الظاهر قبل انتقاله عام ١٩٥٨، إلى فيلته في مصر الجديدة وذلك بعد إنجابه أربعة أنجال: إيهاب الضابط والمهندس سعيد، وخبير البترول أحمد وجلال موجه العلوم بالأزهر، ومن البنات أربع نزيهة وحكمت وفوزية وفكرية.. ذريته أنجبت ما شاء الله أربعين حفيدا. في الحرب العالمية عام ١٩٤٢، كانت كلما دوت صفارة الإنذار وبدأت المدافع المضادة للطائرات ترسل هديرها، يهرع الجميع إلى المخبأ، يلتمس طريقه في الظلام، وكان الشيخ يأخذ في بث الشجاعة في نفوس الأطفال الذين يستولي عليهم الجزع قائلا للصغير: أتبكي ليضحك منك الناس؟ وهل يبكي الرجال؟ أنسيت أنك رجل صغير؟ فيكُف الطفل عن البكاء، ويسأل أباه: وهل الرجل الصغير لا يبكي؟

فيقول له: كلا، وإلا فإنه لا يكبر، بل يظل طوال حياته رجلا صغيرا. . فإذا فرغ من تسكين روع صغاره استدار إلى الكبار ممن يضمهم المخبأ، ومضى يشغلهم بالحديث عن متابعة قصف المدافع ودوي القنابل، ويؤكد لهم أن الألمان لا يبغون شرا بالشعب المصري الآمن، وأنهم لا يلقون القنابل جزافا، بل يحددون أهدافهم بدقة! ويحدث يوما بينما يؤكد لمن أطار الرعب صوابهم من السيدات والرجال، مدى دقة الطيارين الألمان في إصابة أهدافهم أن سقطت قنبلة ضخمة على مسافة تبعد عن المخبأ بضع عشرات من الأمتار، فإذا بالمخبأ ينشال وينحط، وصاحت إحدى السيدات موكولة باكية تقول له: ها هم الألمان يا سيدنا يلقون القنابل جزافا فقال لها ضاحكا: لا تصدقي! لا بد أن يكون هذا الطيار «طيار إيطالي خايب»! وتنتهي الحرب العالمية، وتأتي بعدها بسنوات حرب فلسطين، وتدوي صفارات الإنذار من جديد، ويسارع سكان المنزل جميعا إلى المخبأ ماعدا الشيخ شلتوت، فقد ظل يلازم مسكنه مع أسرته، على الرغم من أنه يقطن في الطابق الأخير، والطوابق الأخيرة معرضة لخطر الغارات أكثر من سواها، ويسألونه لماذا لا يلجأ إلى المخبأ فقال: لأنه من المخجل أن ترغمنا دولة من الأفاقين، كدولة إسرائيل على دخول المخابئ، ده عيب قوى! . . ولم يطل الأمر بسكان المنزل حتى اعتنقوا هذه النظرية، فلم يعد أحد يهتم بالالتجاء إلى المخبأ!

الشيخ شلتوت من تميز بشجاعته الأدبية في مواجهة الأحداث، وحرية الرأي فيما يبدي من آراء، ومن هنا وضع اسمه في قائمة السراي السوداء خلال حكم الملك فؤاد ومن بعده الملك فاروق، ولم يحفل بما ناله من اضطهاد السراي ومن محاربتها له حربا لا هوادة فيها بلغت موارد الرزق، فاستقال من وظيفته واشتغل بالمحاماة مع الشيخ علي عبد الرازق الذي كان قد فصل من القضاء الشرعي بسبب كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، وكان يضطلع بالقضايا الشرعية الكبرى المعقدة. وحدث أن زاره تاجر كبير كان عضوا في هيئة سياسية بارزة كان من بين نوابها، ويتمتع بنفوذ كبير في الدوائر والأوساط الرسمية، وقد جاء لشلتوت يستطلع الرأي فيما أسماه فتوى دينية قائلا: «إنني أشتري كل أسبوع مائتي نسخة من القرآن الكريم أحملها على صدري وأذهب بها إلى الجامع وأظل واقفا بها حتى يخرج المصلون،

فأوزعها عليهم، أليس في تكبد مشقة حمل هذا العدد الكبير من النسخ، ما يجعلني أظفر بالثواب في الآخرة والمغفرة عن ذنوبي؟ فقال فضيلته: لا شك في أن توزيع كتاب الله الكريم على الناس مجانا، عمل ينطوي على الخير، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. فقال التاجر النائب: وحمل نسخ الكتاب، هذه الشيلة الثقيلة، أليس لها ثوابها؟ ألا تجازي بالعفو عن كل الذنوب؟! وحاول فضيلة الشيخ إقناعه بالحسنى أن حمل النسخ في حد ذاته يعتبر أمرا ثانويا، ولكن التاجر أبى أن يفهم، وراح يناقش في لهجة متعالية لم تعجب فضيلته فقال له: اصغ إليّ، لو أنك حَمَّلت حمارا آلافا من النسخ، ليذهب بها من مكان إلى آخر، فهل يكون للحمار أي فضل في هذه الحمولة؟ فأجاب الرجل: كلا! فقال فضيلته ضاحكا: اتفقنا إذن، آهي دي زي دي!» وانصرف التاجر غاضبا وهو يقسم أن يذهب لرئيس الحكومة ليشكوه إليه.

كان فضيلته يثور على أصحاب سرادقات المآتم الذين يضعون الميكروفونات المتعددة لتجسيم صوت المقرئ بكيفية تثير أعصاب الأهالي، وتحرم المريض من السكون، والمتعب من الراحة، والطالب من استذكار دروسه.. ولما قيل له: لماذا لا تكتب مقالا تهاجم فيه هذه العادات المزعجة؟ قال: «نحن الآن في عهد ملك طاغية، وحكومة مستبدة، فلو ظهر مثل هذا المقال فسوف تخرج صحف الحزب الحاكم لتقول إن الشيخ شلتوت يمنع تلاوة القرآن! ولا يبعد أن يصدق الناس ذلك، وقد أوصانا الرسول عليه السلام بأن نداري سفهاءنا، لا أن نقاتلهم!.... ثم عاود الشيخ القول: «إني لأرثي للأموات أكثر من رثائي للأحياء، فما أحسب أحدا من الذين تزعجهم هذه الميكروفونات، يقابل هذا الإزعاج بالترحم على المرحوم!». وعندما خرج أذناب فاروق على الناس بتقليعة نسبه الشريف المزعوم، عن طريق أمه نازلي، التي ثبت فيما بعد أنها من سلالة فرنسية لجدها لوالدتها قيل للشيخ شلتوت: كيف يسكت السادة العلماء وكبار علماء الدين عن هذه الكذبة الضخمة؟ فقال: «إن للدين ربا يحميه من الإفك والأفاكين، وقد رأينا في التاريخ حكاما ادعوا الألوهية، فذهبت ريحهم، ولن يبعد على فاروق أن يدعي الألوهية

إذا طال به العهد، ولن يطول عهد رجل يفتري على الله كذبا». . . . ولم يطل العهد بفاروق بعدها وكأنما كان فضيلته يقرأ سطور الغيب!

كان الشيخ محمود شلتوت في بيته أبا مثاليا عصريا يتخذ من أبنائه إخوة له ويحرص على تعليم البنات بشعار «لا زواج قبل الحصول على الشهادة»، وظل حتى النهاية يعطي الكبير قبل الصغير العيدية، ومعها كيس بمب وينفخ البالونات للأحفاد. . وتصرح الابنة الصغرى فوزية للكاتب الصحفي حسن عبد الله بأن والدتها الهانم كانت تقوم على خدمة الزوج خدمة روحية، فتسأله عما حدث له في يومه وتطمئن على أحواله فيجيبها بحب وبساطة بالغين، وكان بدوره يستشيرها في كل شيء: ولم نسمعه يوما يتحدث عن امرأة سواها بل كان قوله الدائم لها «كل نساء الدنيا عندي هنا في بيتي مجتمعات في واحدة هي أنت». . وكانت هناك زائرات كثيرات من أوروبا وإفريقيا البعض منهن أتى ليشهر إسلامه على يد الوالد، والبعض للتعرف عليه، وكانت والدتي حريصة على حضور مثل تلك اللقاءات.

وكنا نستمع معه إلى الغناء والموسيقى ونشاهد التليفزيون، وما زلت أتذكر ذلك الموقف عندما دخل والدي المنزل وكان عبد الوهاب يغني في الراديو أغنيته التي يقول فيها: «أنا هيمان ويا طول هيامي»، فأنصت والدي من بعيد قليلا ثم قال غاضبا: كيف يغني عبد الوهاب مثل هذا الكلام. هل يعقل أن يغني أنا طلياني وأبويا ألماني اطلبوه لي فورا. . فضحكت وقلت له: انتظر يا بابا. . حضرتك سمعتها غلط، فهو يغني أنا هيمان ويا طول هيامي، فضحك ضحكته الجميلة وهو يقول: كيف وصلت إلى أذني هكذا؟!. . وكان والدي الشيخ يستمع إلى أم كلثوم وعبد الحليم وغيرهما من المطربين والمطربات دون أدنى حرج.

ولقد كانت فتوى الإمام الأكبر الشيخ شلتوت مفاجأة مفرحة للمسلمين في مصر والعالم عندما أفتى ليس بإتاحة الغناء والموسيقى بكل ألوانها، و لكن بالدعوة إلى تعلمها ومعرفة أصولها، فالغناء والموسيقى الأصل فيهما الحل، والحرمة عارضة، وحب اللذة: غريزة فطرية في الإنسان، والشرع ينظمها دون قمع ولا إفراط، وجميع ما قيل بشأن التحريم ضعيف، أو يتحدث عن توظيف

الغناء والعزف في المحرمات، وأضاف الشيخ شلتوت في فتواه أنه قد نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرمات، وكان الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر في القرن الثالث عشر الهجري ذا ولع شديد بالسماع، وعلى معرفة بأصوله، ومن كلماته في بعض مؤلفاته: من لم يتأثر برقيق الأشعار، تتلى بلسان الأوتار، على شطوط الأنهار، في ظلال الأشجار، فذلك جلف الطباع حمار!

كان الكاتب الساخر وليم باسيلي الجار المقابل لشقة الشيخ شلتوت في عمارة الظاهر، الذي تحولت العشرة الطويلة الطيبة بينهما إلى صداقة متينة.. كانا يجلسان في الشرفة معا لتبادل أطراف الحديث على بخار الشاي ودخان السجائر ليجرهما الحديث إلى ذكر الطلاق ومآسيه فيقول الشيخ: والله ما من شيء يحز في نفسي وينقبض له قلبي مثل وقوع الطلاق.. إنه بيت يخرب، وأسرة تتفكك، وأطفال تتشرد، وبناء قائم يستحيل إلى كومة رماد.. ومن هنا جاءت فتواه بأن الإسلام ليس ذا شغف في التفريق بين الرجل وزوجه، والطلاق بالثلاث لا يقع إلا واحدة رجعية، ويرد الرجل زوجه إليه بكلمة الرجعة أو بالمخالطة الخاصة، والحلف بالطلاق كعليّ الطلاق لا يقع به طلاق أصلا. والطلاق على فعل شيء أو تركه لا يقع به أيضا متى كان القصد منه التهديد والتخويف ولم يقصد الطلاق.

ودائما كان بيته مفتوحا لكل قاصد لا يرد أحدا، ويوم أن جاءته فتاة غرر بها شاب وتزوجها عرفيا دون إثبات، وضاعف من حرج موقفها أنها رزقت منه بطفل عجزت عن إثبات نسبه إلى أبيه الذي تنكر لها ولطفله. تبنى فضيلته قضيتها فأرسل في طلب الشاب، وأخذ يبين له عواقب فعلته المنكرة، وما زال به حتى بكى الشاب بين يديه نادما، فأرسل فضيلته في طلب المأذون حيث عقد زواجهما في منزله، ودفع فضيلته مهرها من جيبه، مضافا إليه رسوم وأتعاب المأذون، ودعا الحاضرين على شرب الشربات احتفالا بالزواج واستكتب الشاب اعترافا ببنوة الطفل، وشيَّعهما تجاه الباب بعد أن نفح كلا منهما مبلغا من النقود.. ويروي وليم باسيلي

الكثير عن خفة ظل جاره الشيخ شلتوت الذي كان يصعد يوميا ثلاثا وتسعين من درجات السلم ليصل إلى مسكنه، وفي السنين الأخيرة قبل انتقاله لمصر الجديدة لم يكن يقوى على صعود السلم دون أن يقف بين كل طابق وآخر ليسترد أنفاسه. وكان الحال من بعضه بالنسبة لجاره - الذي كان يطلق على نفسه اسم المجاور أسوة بطلبة الأزهر - إذ لم يعد الآخر يقوى على ارتقاء السلم دفعة واحدة كما كان أيام زمان، ويحدث كثيرا أن يلتقيا في هذه المحطات فيقفا لتبادل الحديث بأنفاس مبهورة.. وكأنما كانت وقفتنا للحديث لا للاستراحة، ولكنه فيما يبدو لم يصبر طويلا على هذا النفاق الذاتي فقال لي ضاحكا: قل لي يا وليم.. نكونشي عجِّزنا وإحنا مش واخدين بالنا؟!.. فأبدي له اعتراضي البالغ واحتجاجي على رأيه المبالغ فيه فيسرع لطمأنتي ضاحكا: لك حق.. إحنا دلوقتي في قمة الشباب لكن يظهر إن السلم هو اللي طول!!.. وينتقل الشيخ شلتوت بعدها إلى فيلته في مصر الجديدة ليجلس ساعة العصاري في البلكونة مرتديا جلبابه الأبيض والطاقية البيضاء وأمامه براد الشاي الكبير تحيطه عدة أكواب.. يرشف قدرا ثم يدعو كل من يمشي أمام البلكونة: اتفضل شاي.. حتى باعة الخضار والجرائد كانوا يتوقفون تلبية لدعوته بعد أن يصب لهم الشاي بيده ليمضي معهم وقتا في الدردشة منصتا لحديثهم الساذج البسيط بانتباه تام.. وعندما استرعى انتباهه ارتباك راهبات المدرسة المقابلة لسكنه الجديد وترددهن في الحديث معه بادر بزيارة المدرسة لينشئ جسر الحوار والجوار الذي شيده راسخا ليغدو سكة للراهبات يسألنه في بيته عن أمور الدين، ولم تزل صورة الشيخ الجليل معلقة في إطارها داخل المدرسة إلى جوار صور القساوسة والرهبان رمزا لسماحة الإسلام وروحه الودود.

إمام التطوير الذي أصبحت مشيخة الأزهر في عهده تتجه إليها الوفود شرقية وغربية، وعربية ومسلمة وغير مسلمة. الذي سافر إلى الشرق الأقصى وزار الصين والفلبين وإندونيسيا والملايو، ونال الدكتوراه الفخرية من جامعات شيلي بأمريكا اللاتينية والجامعة الإسلامية بإندونيسيا، وجامعة سومطرة الشمالية، والجامعة الإسلامية بالفلبين، كما منح وسام الشرف من الملك محمد الخامس ملك المغرب وملك أفغانستان محمد طاهر شاه، ولقب مواطن فخري من أحمد أهيد جو

رئيس جمهورية الكاميرون، وزاره في بيته هيلا سيلاسي إمبراطور الحبشة، ورئيس العراق عبد السلام عارف، ورئيس اليمن عبد الله السلال والذي نال شهادة العالمية عام ١٩١٨ .

وفي عام ١٩٢٧ ، انتقل للجامع الأزهر مدرسا عز عليه أن يجد الجامع الشريف متهاويا ضعيفا فنهض له ثائرا ناقدا نظامه، داعيا لإصلاحه فتم فصله عام ١٩٣١ ليعود إليه في منصب الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر في ١٣ أكتوبر ١٩٥٨، بعد مسيرة عمل وريادة عين فيها عضوا في لجنة الفتوى، وأصغر أعضاء جماعة كبار العلماء عام ١٩٤١ ، وعضوا في مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦ ، ضمن عشرة أعضاء أطلق عليهم الأستاذ أحمد أمين العشرة الطيبة . . وبتوليه المشيخة قام برعاية قانون تطوير الأزهر الذي يجعل من جامعته بكلياتها الشرعية والمدنية المنبع الذي يلبي احتياجات المسلمين في علوم الدنيا والدين . . ولكن الدولة لم تكن تثق بنيّات شيوخ الأزهر تجاه توجهها الاشتراكي، في مقابل سوء ظن شيوخ الأزهر برجالات الثورة واتجاهاتهم الاشتراكية، مما أحدث المفارقة التي بلغت حد المأساة عندما أصبح الشيخ شلتوت ذاته، وهو روح التطوير وداعيته وراعيه، أول ضحايا قانون التطوير الذي تم إقراره في ليلة واحدة مع آخر جلسة في مجلس الأمة الموحد بين مصر وسوريا، المجلس الذي كان يرأسه محمد أنور السادات عندما طلب من الأعضاء أن ينتهوا من إقرار هذا القانون في هذه الجلسة، لأنها كانت نهاية الفصل التشريعي .

انتهت حياة الشيخ الجليل بمأساة اقترفتها البيروقراطية واستبداد الاختصاصات التي أرادت لمنصب شيخ الأزهر أن يكون دينيا فقط ولا علاقة له بالسلطة . . فخاض معركة صامتة تحلى فيها بالصبر ضد العدوان على الأزهر، وكتب بقمة الشجاعة والشموخ والكرامة المذكرات الشاملة الشارحة إلى عبد الناصر رئيس الجمهورية ورئيس وزرائه علي صبري والتي ألحقها باستقالته من المشيخة في ٦ أغسطس ١٩٦٣ . . الاستقالة التي ذيلها بأنه لن يقبل على دينه وكرامته السكوت على تضييع أمانة الأزهر مطالبا بإعفائه منها : . . وليس أمامي إلا أن أضع استقالتي

من مشيخة الأزهر بين أيديكم بعد أن حيل بيني وبين القيام بأمانتها . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . . ويسقط الشيخ صريع الشلل في نصفه الأيسر، وعندما يشعر ضباط الثورة بالحرج أمام الزائرين الأجانب الذين يلحون في طلب زيارته، أشاعوا أنه اعتزل الحضور للأزهر بسبب مرضه، فما كان من الشيخ الثائر إلا إعلان سفره إلى قطاع غزة بالسيارة الجيب التي يتركها ليسير على قدميه ليتفقد أحوال أهلها . . ولا تمضي شهور أربعة بعد الاستقالة حتى يدخل شلتوت مستشفى الجمعية الخيرية لإجراء إحدى الجراحات . . وتنجح العملية . . ولم يكن الشيخ مرحا في يوم من الأيام أكثر منه في يومه الأخير بعد الإفاقة من البنج، فقد ظل يداعب أحفاده، وقبل أن تصعد روحه إلى بارئها بدقائق كان حديثه إلى زواره عن الإسراء والمعراج . . ثم توقف فجأة . . أزمة قلبية طارئة . . حاول الأطباء إنقاذه بأنابيب الأكسجين لكن الروح كانت قد فاضت لبارئها . . الروح التي قال عنها شلتوت: «إنه لم يرد في الدين نص صريح يشرح حقيقتها ويحدد وجودها لكنها كغيرها من حقائق الكون تركت للبحث البشري يبحث عنها فيصيب أو يخطئ».

الشيخ محمود شلتوت أحد أفرع شجرة الإحياء والاعتدال الإسلامي التي رواها فيلسوف الإسلام وموقظ الشرق جمال الدين الأفغاني، ووضع مشروعها التجديدي الإمام محمد عبده، و أضاءت بثمار الفكر المجدد لمحمد رشيد رضا، ومحمد مصطفى المراغي، ومصطفى عبد الرازق، ومحمد أبوزهرة، وحسن البنا، وحسانين مخلوف، وأحمد حسن الباقوري، وعبد الحليم محمود، وسليم البشري، ومحمد الغزالي، ويوسف القرضاوي . . . رجالات من زمن الأزهر الشريف عندما كانت مصر تتيه بلقبها بلد الأزهر وقت أن شع نوره في العالم الإسلامي ليغدو الانتساب إليه مجالا للبركة والاعتزاز، وذلك قبل أن يخفت النور ويتراجع ويتقزم حجم الأزهر، وتتدهور أحواله بأمراض الوساطة، ويفقد رصيده في العالم الإسلامي . . بلد كان فيه شيخ الأزهر جاد الحق علي جاد الحق يسكن بالدور الخامس في شقة بالمنيل بلا أسانسير، وعندما أصيب بالأزمة القلبية لم تستطع أنبوبة الأكسجين اللحاق بأنفاسه الأخيرة أثناء صعودها الكعابي فوق السلالم!!

إمام الصوفية

عبد الحليم محمود

في شرفة فندق بمدينة مدراس بالهند جلس الدكتور عبد الحليم محمود وهو في الخامسة والستين عام ١٩٧٥، في إحدى جولاته العالمية شرقا وغربا كشيخ للأزهر رقم ٤٢ في سجل المشايخ العظام، جلس يكتب قصة حياته من منطلق أن في تاريخ الإنسان ما قد يفيد الآخرين، أو ما يروِّحون به على أنفسهم.. ومن بعد قراءتي صفحات بلغت ١٨١ صفحة من كتاب مسيرته بعنوان «الحمد لله.. هذه حياتي» الذي بدأه بفصل أول عن الحمد وجدتني لم أجمع من اعترافاته سوى شذرات داخل خبايا السطور، وإضاءات كالفلاشات ما تكاد تفصح وأقول لروحي: ها هو الشيخ الدكتور الأستاذ المفكر الصوفي الإمام سيزيح الستار حتى تتوارى أحداث حياته خجلا وتواضعا في خضم بحور سرده لمعارفه من علوم الفقه والفكر والدين والشريعة وجوهر الإسلام، وأكتشف بعدها أن مثل هذا التراجع الذاتي والتواري الشخصي هو السمة الغالبة عند أئمة الصوفيين في سيرهم الذاتية، وقد كان شيخنا الجليل أشهر من كتب عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة حتى لقد قيل من بعد وفاته مات الإمام العارف بالله أبو التصوف في العصر الراهن لتسكن من بعده المطابع عن نشر تراثنا الصوفي.

فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة من لم يعرف الخصام إلى نفسه سبيلا، ولا البغض إلى قلبه طريقا، ولم تعرف تصفية الحسابات إلى حياته بابا.. حليما ودودا محبا سمحا مخلصا يجمع خصائص الأئمة من أصحاب الفكر المستنير الذين لا يموتون، وإن توارت عنا أجسادهم فأعمالهم وعلمهم يذكرنا دوما بهم

ليحق فيه قول أحمد شوقي: والناس صنفان موتى في حياتهم وآخرون ببطن الأرض أحياء.. فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان.. ابن القرية والكتاب الذي بدأ مدرسا بكلية اللغة العربية ثم أستاذا للفلسفة بكلية أصول الدين ثم عميدا لها ثم أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٦٩، ثم وكيلا للأزهر فوزيرا للأوقاف وشئون الأزهر ورئيسا لبعثة الحج ثم شيخا للأزهر.. صاحب الـ٦٣ كتابا، إلى جانب العديد من الترجمات من الفرنسية إلى العربية، وكان آخر كتاب له وربك الغفور ذو الرحمة) وآخر حديث حول (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد) وآخر مقال بمجلة الأزهر في أكتوبر ١٩٧٨، بعنوان «الإسلام هو التوحيد».. من تنبأ بنصر أكتوبر، ورفض أنصاف الحلول وتقييد الطلاق وتعدد الزوجات، وقدم استقالته لضم الأزهر وهيئته إلى وزير شئون الأزهر، فقد رأى في ذلك عدوانا على الأزهر وحصانته، والتزم الشجاع بموقفه حتى سارعت الحكومة إلى إصدار اللائحة التنفيذية للأزهر بعد تعطل صدورها ١٢ عاما، وكان أول شيخ للأزهر يزور الولايات المتحدة الأمريكية لتسمع تلاوة القرآن لأول مرة في الكونجرس بصوت الشيخ محمود خليل الحصري، ويطالب بتخصيص مصلى للمسلمين في الأمم المتحدة فيستجاب فوريا له ليفتتحها بصلاة الظهر، ويلاقيه الرؤساء والملوك تحت سلم الطائرة، وفي ذلك قال رئيس باكستان الأسبق الجنرال ضياء الحق حول خرقه لنظام البروتوكول الرئاسي: «إن الأزهر في العالم كله أزهر واحد، وفي العالم الواسع لا يوجد سوى إمام واحد هو الإمام عبد الحليم محمود».. الصوفي الذي أطلق عليه ألقاب غزالي القرن العشرين، والإمام العارف بالله الذي يضع حدا فاصلا بين التصوف الحق والتصوف الزائف ليبين المنهج الصوفي الصحيح وهو المنهج الإسلامي.. الذي كانت رسالته في الدكتوراه من السوربون موضوعها في التصوف عن الحارث بن أسد المحاسبي، وكان منهجه الحب والاتباع، الحب للرسول صلى الله عليه وسلم، والاتباع لطريقه وتطبيقه في قوله. «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

وإذا ما كان الإمام قد قال في مذكراته الكثير من علمه والقليل عن حياته فقد ذهبت أفتش عنه وعنها عند أقرب الناس إليه.. الابن البار الذي سار على دربه

وكان ألصق الناس به الدكتور منيع عبد الحليم محمود، العميد السابق لكلية أصول الدين بجامعة الأزهر. . يقول وأنصت، ويستطرد ولا أقاطع ويروي فيضيف الكثير عن أبيه أبي العارفين الذي أحببته وقرأته ورددت من خلفه قولا كان أثيرا عنده للصوفي يحيى بن معاذ: «عفوه يستغرق الذنوب، فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال، فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول، فكيف وده؟ ووده ينسي ما دونه، فكيف لطفه؟. . وإني لأسير من خلف الإمام لأغدو من هؤلاء الذين يتشبثون دائما برحمة الله فهو رحمن وهو رحيم، وهو سبحانه أرحم الراحمين». .

وتكون بدايتي مع الابن بحكم الإطار وروحانيات رمضان عن الإمام في شهر الصيام فيقول الدكتور منيع:

«عندما يسألونني عن الشيخ عبد الحليم في رمضان أقول لهم إن أيام رمضان لم تكن تختلف لديه عن أية أيام أخر، فهو صائم الدهر طوال العام، وعندما يؤذن المغرب فالإفطار لا يعدو قطعة بقسماط يعصر فوقها نصف برتقالة، أو قطعة خبز جاف يتناولها شهورا بالعسل الأسود أو الأبيض، ولقد أردت يوما مداعبته فقلت له إنني متخوف من أن تفقد شهوة الأبوة أيضا من كثرة ما فقدت من شهوات. . كان كل مكان يطرقه يتحول إلى مسجد أو مدرسة، بمعنى أنه لم يكن منغلقا على نفسه، وليس بينه وبين الناس حجاب، أي مكان يدعى إليه يلبي دعوة صاحبه، وكثيرا ما كان يذهب بدون دعوة ليسمع ويرى بعينيه، وكان يؤمن بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم «ما عُبد الله بأحسن من جبر الخاطر ويشفع لمن يعرفه ومن لا يعرفه»، وكانت تخرج منَ مكتبه على الأقل يوميا ٢٠٠ توصية، والنابغ يتبناه ويجد لديه الوقت لتوصيله لما يستحق نتيجة نبوغه، ولقد كان يتمتع بما يتمتع به الصوفي من انفساح الوقت، وموقعه في البيت حجرة مكتبه حيث نومه على الأرض، ومن الممكن القول بأنه لم يكن ينام فهناك مرحلة من التصوف تسمى سجود القلب التي كتب عنها الصوفي سهل بن عبد الله: إذا سجد القلب لا يقوم من سجوده أبدا، وقد فهمت من أبي ومن تصرفاته أن صاحب هذه المسألة لا ينام أبدا ـ لحظتها تذكرت قوله تعالى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ـ وعندما كتب عن الصوفيين كان كأنما يكتب عن نفسه، ومن هنا قول الصوفية (من ذاق عرف) ولقد كان يصحو الليل في

عبادة يصلى ويذكر ويناجي، وتظل مناجاته الخافتة التي لا يكاد يسمع فيها صوته حتى أذان الفجر الذي ما إن يؤدى صلاته حتى ينتقل للجلوس إلى المكتب للعمل، وتأتى التاسعة صباحا ليذهب في مشواره اليومي لسيدنا الحسين ومنه إلى مكتبه ليقضي حوائج الناس ويمنح المشورة ويستقبل ممثلين لمختلف الاتجاهات السياسية والفكرية، وعند الرابعة عودة للبيت لاستئناف اللقاءات، وكان كثير الحديث في السياسة وله أصدقاء عديدون من رجالات الحكم، وتمت بينه وبين الرئيس السادات عدة لقاءات غير رسمية، ومن أصدقائه كان عثمان أحمد عثمان وحامد محمود وحسن التهامي والسفير كمال الدين عبد النبي والأمير محمد عبد المنعم وزوجته نسل شاه وكان سكنهما في قصر الحرية. وكان من المعجبين بحديث السهرة الثقافي في التاسعة والنصف مساء للأديبة أبكار السقاف الحضرمية، وكان يثني على الدكتورة سهير القلماوي والدكتورة إجلال خليفة وتلميذته الدكتورة سعاد عبد الرازق أستاذة الفلسفة الإسلامية، ويعترض على مشاغبات الدكتورة بنت الشاطئ وزوجها الدكتور أمين الخولي، ويحضرني هنا أن عثمان أحمد عثمان قدم مشروعا في ميدان الحجاز لبناء عدة عمارات من ثلاثة أدوار ببدروم خاص ثمن كل منها عشرين ألفا بالتقسيط المريح فسارع لاقتنائها جميع الوزراء إلا والدي مكتفيا بشقة الإيجار بالزيتون».

وموقف الوالدة؟

«عندما جاء ذكر مسألة العمارة على لسان الوالد كان بمثابة خبر عادي فلا كلمة قيلت ولا تعليق قد ارتفع، فأسلوب والدي جعلنا نعيش حالته.

كان الوالد قد أزمع بالفعل على تكوين حزب سياسي ذي خلفية دينية في فترة السادات، وبدأ العمل على بلورة الفكرة بعقد الاجتماعات التمهيدية ولقاء البعض، وقد ظن الناس أن السادات عندما قال إنه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، أنه يقصد بقوله الإخوان المسلمين، بينما كان يقصد في الحقيقة والدي الشيخ عبد الحليم محمود موجها ومسددا كلماته إليه، وعندما شعر الوالد بأنه سيثير المشاكل في أمر لن يتحقق أبدا ما دام السادات مصمما على رأيه، ومن هنا برز

لديه دور المفكر الذي ارتأى تحقيق هدفه من خلال إنشاء المعاهد التي ستعطي وتفرز نفس النتيجة بل أكثر من فكر إسلامي مستنير، فالأزهر لا يفرخ الإرهابيين إطلاقا، وكان في ذلك متنبئا بما سوف يحدثه الإرهابيون الذين زارهم وعايشهم وبات معهم في جبال أسيوط وتعرف على فكرهم ولم يكونوا قد حملوا السلاح بعد، وأثناء محاكمة ما سمي بجماعة التكفير والهجرة أراد القائمون على المحكمة العسكرية الزج بالأزهر وعلمائه للشهادة في قضية ليست لديهم وقائعها، رفض الإمام مدافعا بقوله إنهم لن يشهدوا في قضية فكر دون دراسة جوانبها، وأن قضية الفكر لا تواجه إلا بالفكر.. وفي خطة الإمام لنشر المعاهد تفجرت معاهد العلم لتبلغ حتى الآن ٧٠٠٠ معهد وكانت الأرض التي قامت عليها وتقدر الآن بالأسعار الحالية بما يصل إلى مائة مليار جنيه كلها من تبرعات المصريين المسلمين والمسيحيين والأجانب، فقد انهالت التبرعات على الشيخ الذي كان يطلق اسم المتبرع على المعهد الذي شارك في بنائه، وهناك على سبيل المثال معهد في الإسكندرية باسم اليونانية مارينا لاتسيس، ومما قاله الشيخ وقتها في التليفزيون: اعتبروني شحات وادوني فلوس لإنشاء المعاهد.. وفي ذلك كان يقبل دعوة على الغداء عند البعض في مقابل أن يعطيه صاحبها عشرة أو عشرين ألفا، وأتذكر أن أحد المتبرعين من بعد تناول الغداء لم يجد حاجة يعبئ فيها العشرين ألفا في السبعينيات فقام بلفها في ورقة جرنال.. ويعود الفضل للشيخ عبد الحليم في استرداده ٧٠ ألف فدان من أراضي أوقاف الأزهر؛ الذي كان يمتلك يوما خمس أراضي مصر أي ٢٠٪ منها، وكان الشيخ يرد أن المساس بأراضي الأوقاف حرام في حرام لدرجة أنه كان يضرب مثلا بعصفورة تقول لصاحبتها إنها من الممكن أن تخرب بيت القرية المجاورة، وذلك بأن تحمل إليها بمنقارها بعضا من تراب الأرض المغتصبة من الأزهر فتغدو بالمثل أرضا حراما.

كان والدي رشيقا أنيقا في ردائه ينتقي الكاكولة من القماش البديع ولا بد من شكل معين للعمامة بحيث تبدو ضخمة على رأسه، وهو الذي كان قد خلع الكاكولة عند ذهابه إلى فرنسا وظل مرتديا البدلة حتى عودته وهو مدرس بالأزهر الشريف، وعندما قام عبد الناصر يوما يعرض بعلماء الأزهر الذين يفتون الفتاوى

من أجل ديك يأكلونه . . هنا شعر الأزهري بالمهانة، ومن ثم ارتدى الدكتور عبد الحليم الزي الأزهري مناديا زملاءه بارتدائه اعتزازا بالأزهر والأزهريين، وظل محافظا على هذا المظهر حتى وفاته . . ولم تكن هناك ممنوعات أو قيود في القراءة فالمكتبة عامرة بالروايات والمسرحيات، وفوق الرفوف تشيكوف ودستوفسكى والحكيم وطه حسين وإحسان، إلى جانب أعداد هائلة من كتب التراث . . الموسيقى وأغاني عبد الوهاب وأم كلثوم لم يكن يسمعها باستغراق كبير أو يخصص لها وقتا، وإنما السماع كان يأتي مصادفة كأن تكون قبل نشرة الأخبار .

نشأ والدي في كنف أسرة تنتسب إلى آل البيت فضلا عن تواجده في إطار مؤسسة الأزهر الشريف فقد كان والده أزهريا واختار لابنه عبد الحليم طالب الأزهر وهو في سن الـ ١٣ زوجة هي ابنة عمته وخالته التي تصغره بعامين . . وعن زيجته تلك يكتب الإمام في مذكراته : في منتصف العام الدراسي الأول بالأزهر زارني والدي ليقف على مدى انتظامي في الدراسة، وشرع يحدثني عن الزواج وعرض عليّ أسماء فتيات واستطلع رأيي وكانت سني آنذاك ثلاث عشرة سنة، وكان رأيي الذي قلته له الأمر لك ولوالدتي! وعاد والدي إلى العزبة، ومضت فترة، جاءني بعدها خطاب يقول فيه والدي : إن الأسرة كلها في شوق إليك، فاحضر لنراك ولتطفئ غلة شوقها إليك . . وعدت إلى العزبة في مساء الأربعاء، وتم عقد زواجي يوم الخميس . . وعدت إلى القاهرة يوم الجمعة . . ونجحت في الامتحان وعدت لأقضي العطلة الصيفية بين الأهل في العزبة . وانتهزوها فرصة لإتمام الزواج بالزفاف : وركبت الفرس وطاف بي في شوارع العزبة وحولها، وكانت ليلة ممتعة ظل طيفها ماثلا في الأذهان سنوات طويلة» .

ويستطرد الدكتور منيع : «كانت سعادة جدي عامرة بحصول الابن على عالمية الأزهر، وحتى لو لم يعمل مدرسا به كما يتمنى له فيكفيه أنه قد أنجب شيخا مطمطما بالعمامة، ولكن هدف الابن كان هناك وراء البحر في عاصمة النور باريس بجامعتها السوربون، ولما لم يكن معه مصاريف السفر الذي أخفى أمره عن أبيه شمرت الزوجة عن ساعد التكافل، وقامت ببيع ميراثها النصف فدان الذي تملكه

ليسافر الزوج إلى غايته ومقصده، وعلى ظهر مركب متجه إلى مارسيليا سافر مع صديقه الدكتور جلال الذي أصبح فيما بعد من أكبر علماء الأنثربولوجى ولم يكن الوالد يعرف كلمة فرنسية واحدة، وفي طريقهما هبطا في مارسيليا، ويقول الإمام في مذكراته: ورأيت النساء والفتيان وكأنهن يقفزن في سيرهن من السرعة، كما كن يتحدثن في سرعة أيضا وهن فرحات مستبشرات سعيدات يضحكن في سرور وبشاشة، ولست أدري لماذا تواردت على ذهني صور من الشعر العربي تصور الجمال في النساء العربيات. ووثبت إلى ذاكرتي قول ذلك الشاعر الذي يعبر عن المثل الأعلى في جمال المرأة بقوله: مشي القطاة، ونطقها إيماء.. إن المرأة ـ هنا ـ لا تمشي مشي القطاة وليس نطقها كما يقول الشاعر إيماء.. وبوصول الشيخ وصاحبه إلى باريس دارا يبحثان عن وابور الجاز لطهو طعامهما فلم يكن قد نما إلى سمعهما ذكر للبوتاجاز أو فرن الكهرباء، ولما لم يفهم الناس قصدهما قاما برسم الوابور فوق ورقة ومضيا يعرضانها في الطرقات، وبعد جولات مرهقة محرجة استدل أحدهم على المبتغى وأشار إلى أحد محلات الأنتيكات الذي وجدا فيه ضالتهما.. وكان على والدي خريج الأزهر الذي لم يكن يعرف نطق بابا وماما بالفرنسية الحصول على الليسانس في عامين وبعدها خمس دبلومات، وفي تلك المدة الزاخرة بالتحصيل والاستيعاب كان شغوفا بارتياد الجمعيات الجغرافية والتاريخية والمتاحف والمعارض وبالقطع شاهد مسرحيات وفنونا ليس لها أول من آخر».

ـ كل هذا من النصف فدان؟!

ـ «لا... فقد أمده جدي بمصاريفه، وبعد عامين عاد والدي ليصطحب أمي معه لفرنسا وهي السيدة التي لم تغادر في حياتها قرية السلام حتى للمركز في الزقازيق.. ركبت أمي معه الرفَّاص لعبور ترعة الإسماعيلية، حيث لم يكن هناك طريق مرصوف وقتها ونزلا في غمرة ليستقلا القطار من باب الحديد للإسكندرية ليبيتا ليلتهما، ومع خيوط الصباح فوق ظهر المركب لمارسيليا، ودوغري لباريس... أي من السلام لباريس.. وفي باريس أنجبت الوالدة شقيقي محمد الحاصل على دكتوراه الدولة من السربون في أثر الأدب العربي على الأدب

الفرنسي في القرن الثامن عشر، وكان سفيرا لمصر في إيطاليا، ومن بعده أنجبت شقيقتي الكبرى. . وعادت الوالدة لمصر بعد دخولها المدارس الفرنسية هناك ترطن وتجيد الفرنسية وتقرأ لموبا سان وفيكتور هيجو وترتدي الفستان والإيشارب. . في رحلة العودة عام ١٩٤١، بعد نيل الدكتوراه مباشرة كانت الحرب العالمية الثانية قد أغلقت الملاحة في البحر الأبيض فاضطر والدي إلى البقاء مع أسرته الصغيرة في أسبانيا لمدة ستة أشهر قضاها في التجوال والمشاهدة، وأخيرا سنحت فرصة الارتحال على ظهر مركب شحن تدور حول رأس الرجاء الصالح، وعلى ظهر الباخرة التقى بالإخوة اليهود هيراري الذين عرضوا عليه منصب رئيس تحرير مجلة «الكاتب المصري» لكنه رفض لعدم توافق اتجاهاته معها، وفيما بعد قبل الدكتور طه حسين ذلك المنصب ليقوم الإمام بزيارته في مكتبه بها أكثر من مرة.

جميع الأطراف كانت تكن احتراما بالغا للإمام. . الوهابيون في الخليج الذين يهاجمون كل من يخالفهم في الرأي لم يهاجموه، واعتبره الإخوان واحدا منهم رغم أنه ليس من الإخوان، وكان عمر التلمساني يزوره في بيته مقدما كل مظاهر التبجيل، وكانت علاقته قوية بالشيخ متولي الشعراوي بعد عودة الأخير من الجزائر في أوائل السبعينيات، وقام الإمام الأكبر بتعريفه بالأستاذ أحمد فراج صاحب برنامج نور على نور لتقديمه في التليفزيون، ومن مظاهر احترام الشيخ الشعراوي له رفضه الجلوس بجواره مفضلا الجلوس أمامه على الأرض حتى في المجالس العامة ومثال ذلك عندما صمم على تلك الجلسة في مكة أمام أكثر من ثلاثمائة شخص. وكان الشيخ عبد الحليم محمود حكما عدلا عندما يثور الخلاف بين الأطراف المتنازعة، وقد أتاه وفد نيجيري يجمع بين الصوفية والوهابية ليحكموه فيما بينهم، وكان على اتصال بالمسلمين الإنجليز والفرنسيين تحت رئاسة ميشيل فالسان الذي أطلق على نفسه اسم مصطفى فالسان بعد الإسلام، وكان يمنع أي مسلم شرقي من الدخول وسطهم لاعتقاده بأنه سيثير الخلافات، وقد زار إنجلترا مرتين واستقبلته ملكتها اليزابيث في قصرها، كما التقى بكارتر ليقنعه بأن مقاومة الشيوعية لن تأتي إلا بمساعدات اقتصادية ضخمة للشرق الأوسط، فالإسلام وحده الذي يستطيع

الوقوف في وجه الشيوعية، وقد كان لتلك المحادثات تأثيرها الفعال.. وكان يحب الذهاب إلى تونس ليمكث شهرين من كل عام يحاضر في شئون الدين بما قد يتعارض مع النظام خاصة بعد علمه بمحاولات الرئيس بورقيبة لتغليب وتفضيل كل ما هو فرنسي وغربي على كل ما هو إسلامي وإلغائه الجامعة الزيتونية وإباحته الإفطار في رمضان بدعوى أن الصيام يعطل الإنتاج متعمدا تناول عصير الليمون في وضح النهار، وتحريم إذاعة الأذان وعدم الأخذ بالتاريخ الهجري ولا بنظام رؤية هلال رمضان.. وقف الإمام يحث علماء الزيتونة على الصمود قائلا:.... وقولوا لأعدائكم ما قاله بلال رضي الله عنه.. أحد أحد.. ووالله لو علمت كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها.

كان يؤمن بحرية الرأي والرأي الآخر، وعندما يهاجمه أحد في شخصه لا يرد لكنه يسارع بالرد عند الهجوم على الأزهر، وكان يردد ـ وهو لم يزل بعد مدرسا ـ أن شيخ الأزهر سياف تحارب عنه الملائكة ولابد من أن يكون له الاحترام الأكبر.. وأذكر أن الحاجة زينب الغزالي وكانت تحرر مجلة السيدات المسلمات الأسبوعية أنها كانت تهاجم شيخ الأزهر وقتها الشيخ عبد الرحمن تاج فيرفض الإمام هجومها أو المشاركة في الهجوم، ويحضرني بينما كان الإمام أستاذا في كلية أصول الدين يرتدي البدلة والبنطلون أنه أزمع يوما زيارة الشيخ تاج بعد طلوعه من المشيخة زيارة عرفان وتقدير، فتذكر فجأة ونحن في ميدان السفير بأنه قد نسي ارتداء الطربوش، فأرسلني لأعود ثانية إلى منزله بشارع العزيز بالله بالزيتون لأحضر الطربوش قائلا: لا يليق أن أدخل عليه بدون الطربوش.. وقد زاره في المشيخة الحاخام شندلر مع وفد من حاخامات يهود أمريكا في محاولة لإصدار بيان لتهدئة الأوضاع، فأصر على خروج اليهود أولا من القدس وهدد بأنه سوف يذهب في مسيرة من المسلمين إليها، وعندما اشتدت وطأة المناقشة طلب الحاخام خروج الصحفيين، وظل الإمام حتى أخريات أيامه ينوي تنظيم تلك المسيرة، وعندما دعاه وزير خارجية الفاتيكان لإجراء لقاء حول حوار الأديان أصر أولا على اعترافهم بدين الإسلام كما نعترف نحن بالمسيحية.

الشيخ عبد الحليم محمود الصوفي الذي أخذ الطريق فأتاه في أول ليلة اسم الله الأعظم فلم يستعمله قط، وفي الليلة التالية بعدما انتهى من أذكاره ووِرده أمسك قطب عصره بيده يعاهده: ولتصدقن ولتكونن من المحسنين.. فأجابه الشيخ: نعم.. وكانت النقود تطلع من جيبه لكل الدنيا دون خشية من فقر.. بينما عندما توفي لم يترك سوى ٤٥٠٠ جنيه صرفت في العزاء.. ومن شفافيته أنه رأى الرسول وصحابته يعبرون مع جنود مصر القنال، وكان يتنبأ بموعد ليلة القدر، وقد تنبأ بموته شخصيا، فقد قال لي ونحن في رحلة العمرة نزور قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة: سأموت هنا فلا تبلغ السفارة أو أي مخلوق وخذني ليُصلى عليّ في المسجد الحرام ثم ادفني في البقيع.. وأراد المولى أن يموت في القاهرة بعدها بأيام قليلة بعدما أجرى له الدكتور إبراهيم بدران عملية المرارة بنجاح في مستشفى الشبراويشي ليقرأ بعدها ويصلي لكنه من بعد المسكن شعر بالآلام ليظل طوال يومه الأخير يردد الله حق.. الله واحد.. يا محسن.

وأستزيد.. وأستزيد من سيرة الإمام الأكبر وأطلب من الابن الذي أخذ عنه الطريق أن يطلعني على دعاء كان يردده العارف بالله إمام المتقين إذا ما ألم به ضيق فمنحني الدعاء التالي الذي أضاءت كلماته يوما في عيونه فعلم أن الله قد استجاب: اللهم صلي صلاة جلال وسلم سلام جمال على حضرة حبيبك سيدنا محمد، واغشه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجليات فنظر إلى وجهك الكريم، وبحقيقة الحقائق كلم مولاه العظيم الذي أعاذه من كل سوء.. اللهم فرِّج كربي كما وعدت. أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.. وعلى آله وصحبه وسلم.. آمين.

الغـزالي.. سـيد الدعـاة

لأن شيخنا الجليل محمد الغزالي كان رجل دعوة تنير العقول بالحقائق، وتقدم الدين من ينابيعه الصافية خالصا من الزوائد والشوائب وآفات التدين الفاسد، لا يحب الرياء الديني ولا الرياء الاجتماعي ولا الرياء السياسي . . لأنه . . ولأنه، فقد أزعج السلطات يوما فحذرته وعندما لم يستجب صدر القرار الوزاري عام ١٩٧١ بمنعه من الخطابة في المساجد عامة . . ويأتي الحليم الذي يعرف قدره .

الدكتور عبد الحليم محمود . . وزيرا للأوقاف فيطالب بعودة الشيخ الغزالي فتلبي الجهات المعنية الطلب على استحياء من الرجل الصوفي المسئول صاحب الشأن الكبير في العالم الإسلامي، ويرسل الدكتور عبد الحليم يدعو الغزالي في يوم أربعاء ليخبره : «يا شيخ محمد ها قد عدت إلى المنبر، وستخطب بإذن الله الجمعة القادمة من منبر جامع عمرو بن العاص، وإني قد رأيته في الرؤيا يشكو من هجر مسجده» .

ويهبط القرار على الغزالي بأحاسيس متضاربة مستهلها فرحًا لاستئناف ما وهب من أجله . . الدعوة . وحزن لأن القلب لا يحمل حبا لعمرو بن العاص لموقفه المعادي لعلي بن أبي طالب في حادثة التحكيم بعدما استخدم دهاءه السياسي مع أبي موسى الأشعري وجاء التحكيم لصالح معاوية، ويعلن الغزالي رفضه صراحة فيحاصره ويخجله الدكتور عبد الحليم : «يا شيخ محمد أنت ستخطب بإذن الله الجمعة القادمة في جامع عمرو، وستكون إماما وسوف أصلي من خلفك» .

ويسقط في يد الشيخ الغزالي لتأتي الجمعة ويصعد مكرَها منبر عمرو بن العاص، لكنه في هبوطه ـ كما روى ـ كانت تغمره سعادة خفية لا يدري مصدرها

فيقرر الاستمرار وينتعش الجامع الذي اجتمعت المحافظة والوزارة على تجديده، ويقبل الناس على خطب الشيخ حتى يبلغ الحاضرون عشرات الألوف.. ويتذكر الغزالي مجهشا بالبكاء نادما على موقفه الأول من عمرو بن العاص استدعاء الشيخ الباقوري له في بيته لأمر مهم: «عندما جلست على المقعد القريب إذا بالشيخ الباقوري، وكان المرض قد نال منه ليقعده، يقربني أكثر ويبادرني بالسؤال: ماذا بينك وبين عمرو بن العاص؟.. فتعجبت وقلت: لا شيء! إنني أخطب الآن في مسجده.. فعاد ليقول لي: أنا أحكي لك ما رأيت، والتفسير لك، فبينما كنت نائما إذ شعرت بطارق يطرق الباب ويقول بصوت جهوري: الوالي قادم.. فسألت من هو الوالي القادم؟! فقال الطارق: عمرو بن العاص، فتأهَّبت للقاء صاحب رسول الله وشعرت بخفة في بدني، ودخل عمرو بن العاص وجلس مكانك هذا، رجل قصير القامة في عينيه عمق كأنهما أغوار محيطات، فقال لي: أبلغ الشيخ محمد الغزالي أنني غفرت له تطاوله عليّ لأنه أحيا مسجدي بعدي، وهذا المسجد رابع مسجد في الإسلام الذي اجتمع فيه الفاتحون الذين هزموا الرومان في مصر وأدخلوا الإسلام».

ويكمل مسيرة الدعوة محمد الغزالي أحمد مرسي السقا.. المصري المولد والنشأة والنكهة، ابن قرية نكلا العنب التابعة لمركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة، مسقط رأس الشاعر محمود سامي البارودي والشيخ محمود شلتوت والإمام حسن البنا. من ولد لأسرة ريفية فقيرة في يوم السبت ٢٢ من سبتمبر ١٩١٧، واختار له والده اسمه المركب «محمد الغزالي» تيمنا بالإمام أبو حامد الغزالي، وكان الشيخ أكبر إخوته السبعة، وأتم حفظ القرآن الكريم في العاشرة والتحق بالمعهد الديني التابع للأزهر الشريف بمدينة الإسكندرية ليحصل على الابتدائية والثانوية الأزهرية عام ١٩٣٧، وذلك في صحبة والده الذي باع أرضه وغيَّر نشاطه ليشتري مكتبة كان الابن يجلس فيها يطالع الكتب وينسى عملية البيع والشراء، ومن بعدها ومعه والده سافرا إلى القاهرة للالتحاق بكلية أصول الدين ليتلقى العلم على يد كوكبة من كبار العلماء منهم الإمام الأكبر الشيخ شلتوت، وينال شهادة العالمية عام ١٩٤١، ثم على إجازة الدعوة عام ١٩٤٣.. ويكمل سيد الدعاة مسيرة الدعوة برؤية ترى أن

الشهادة ليست نهاية العلم، وأن الداعية المسلم في هذا العصر لا بد وأن يظل قارئا ما عاش، ولا يزال المرء عالما ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل، ولا يجوز الخلط بين تعاليم الإسلام والتقاليد التي تسود بلدا ما، فللناس تقاليد ألبسوها الزي الإسلامي وهي من عند أنفسهم وليست من عند الله، والدعوة إلى هذه التقاليد على أنها المنهج الإسلامي جهل قبيح، فمصادر الإسلام معروفة، وميزانه في الحلال والحرام حساس والأمم التي دخلت فيه كثيرة، وتاريخه تقلب بين مد وجزر، وفقهاؤه المجتهدون تعرضوا للصواب والخطأ، وحكامه على اختلاف الأيام والدول فيهم من أحسن ومن أساء، ومن هنا علينا التحري في ميدان الدعوة، فلا نصد عن سبيل الله بأمر نحسبه من مسلَّمات الدين وليس كذلك.. ويصادف الغزالي في طريق الدعوة المتحدثين الخطرين على الإسلام ودعوته، الذين يؤثرون التعقيد، ومهمتهم تأويل النصوص أو الاصطياد من الشواهد النادرة ما تأباه الفطرة ويمجُّه العقل، وهناك - كما يرى - أقطار تشقى فيها النساء لأن التقاليد جعلت دما دون دم وأبا دون أب، أفهذا إسلام؟! إن العقل عند هؤلاء متهم حتى تثبت براءته، والسيف لا الإقناع أساس نشر الدعوة.

وملابس البداوة إمارة على التقوى، أما الأزياء الأخرى فإن لم تدل على التحلل فهي موضع ريبة، وعدم البصر لا غض البصر أساس العلاقة بين الجنسين، وقلما يعرف هؤلاء شيئا عن ضوابط الحكومة العادلة كمثال، ولو سألتهم لعادوا يبحثون في التاريخ عن أساليب الحكم في الكوفة أو بلخ ليعطوا صورة شرعية للحكم المطلوب!.. إنني أصادف هذه المناظر المؤذية في طريق الدعوة فأشعر بالنكد، وآخر ما لقيت من هؤلاء شاب يقول لي: أليس في الالتحاق بالجيش شيء من الوثنية؟ فقلت: ويحك كيف؟!! فض الله فاك!؟ قال: إنهم يحيُّون العلم كل يوم وهذه وثنية!.. وفي إحدى محاضرات الغزالي شاهد أحد الطلبة يمسك سواكا يحك به أسنانه فعاب عليه، فقال الطالب: هذه سنة، فرد عليه: والاستنجاء أيضا سنة، ولكن السنن لها مواضع ومواقف.. ويعلق على النقاب بقوله: «إنها عادة ولا أظن أنها من تعاليم الإسلام، لأن التعاليم تدعو إلى غض البصر عند النظر إلى المرأة الأجنبية، فإذا ما كان الوجه مغطى بالنقاب ففي هذه

الحالة لا يكون هناك مجال لغض البصر، ولكن الغض يفترض أن يكون في حالة كشف الوجه وليس تغطيته».

الغزالي صاحب الـ ٥٧ كتابا، من يعترف بالفضل لإخوانه ويشيد بمواهبهم ومواقفهم وفضائلهم، فيثني كمثال على الشيخ سيد سابق ويبرز مكانته في الفقه فيحيل عليه وعلى كتابه فقه السنة، وكثيرا ما نوه بالقرضاوي في المؤتمرات والندوات قائلا: «اسألوا يوسف فهو أولى مني»، بل لقد صرح بقوله أمام الملأ من كبار الأساتذة: «لقد كان يوسف تلميذي فيما مضى، وأما اليوم فأنا تلميذه».

ويحمد لشيخنا الجليل أنه كان أوَّابا بمعنى ناقدا للذات، الذي لا يخجل من الاعتراف بخطئه والرجوع إلى الحق، وفي القرآن الكريم الثناء والجنة لمن كان أوَّابا **﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾** . . الغزالي الذي كان يداوم على محاسبة النفس ملتزما بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . . ولقد ازدان تاريخ الأمة بعلماء حاسبوا أنفسهم، ومنهم كمثال العز بن عبد السلام (١١٨١ ـ ١٢٦٢م)، أعظم علماء عصره الذي أفتى مرة بشيء ثم ظهر له خطأ فتواه فما كان منه إلا الطواف بالشوارع في القاهرة ينادي قائلا: «من أفتى له العز ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به، فإنه قد أخطأ في فتواه». ولقد كان الشيخ الغزالي من أوابي هذا العصر، وعندما راجع نفسه في خلافه مع الهضيبي في بداية حقبة الخمسينيات رأى أنه من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات، بل لقد عبر عن اعتذاره هذا إلى حد تقبيل يد الهضيبي أمام الجمع عندما التقيا أثناء تشييع إحدى الجنازات، وفي المؤتمر الوطني للقوى الشعبية الذي انعقد في مايو عام ١٩٦٢، كان للشيخ حديث طَالبَ في ختامه بلباس موحد للرجال وآخر للنساء طلبا للحشمة الشرقية وإزالة الفوارق الصارخة في الأزياء بين الناس، وعندما راجع الشيخ موقفه أدرك أنه لم يوفق في اختيار الموضوع المناسب للمقام فقال: «ولا أدري كيف وقعت في هذه الحفرة، ولا كيف انسقت إلى هذا الموضوع الثانوي وسمحت لنفسي بإطالة الكلام فيه، مما تسبب هذا الخطأ في أني لم أعط صورة

كاملة لمكانة المرأة في الإسلام ففهم البعض أنني أريد العودة بالنساء إلى عهود الجمود والجهالة التي عاشت فيها خلال القرون الأخيرة». وعندما اختلط الأمر على الشيخ الغزالي في انتقاده للمنهج اليساري في تفسير التاريخ الإسلامي، كان من بين الذين أشار إلى أنهم من كتاب اليسار الإسلامي الدكتور محمد عمارة؛ الذي كان جميع ما قدمه للمكتبة الإسلامية من فكر ينقض ويهدم من الأساس مصداقية ما يسمى باليسار الإسلامي.

ومن هنا. . قدم الغزالي اعتذاره لعمارة بكتاب هدية من مؤلفاته أرفقه بخطاب استهله بقوله: «إن القليل الذي قرأته لك أخيرا ردني إلى الصواب في أمرك، وجعلت أندم على تعجلي. . . وعند أول فرصة سأنشر رأيي في حقك الذي يفرضه عليّ ديني». . . ومن بعد خروج خالد محمد خالد من المعتقل أصدر كتابه «من هنا نبدأ» ليتصدى له الغزالي في كتاب «من هنا نعلم» ينقد فيه خالد في رفق وأدب ورعاية لرابطة الود القديم مستنكرا أن يجرده الأزهر من شهادة العالمية كما نادى البعض، ولم يقبل تدخل السلطة طرفا في الموضوع متكئة على الأزهر.

تلك الصداقة التي جمعت بين الشيخ الغزالي بالمفكر الإسلامي خالد محمد خالد كتب الأخير نبذة عنها في كتابه «قصتي مع الحياة» يقول فيها في صفحة ٣٧٢: «وقد حقق الله سبحانه أمنيتي ورجائي وصرنا صديقين حميمين ومرت بنا أيام، كان أحدنا يقول فيها للآخر: يا. . أنا»!! ويصحب خالد صديقه الشيخ سيد سابق لمسجد عزبان بالعتبة ليسمعا إمام المسجد وخطيبه محمد الغزالي، فيصليان فريضة المغرب لينتقلا بعدها إلى غرفة الإمام الملحقة بالمسجد: «وفيما نحن جالسون نتهيأ لتبادل الحديث إذا صوت الموسيقار محمد عبد الوهاب يتهادى إلى أسماعنا من مذياع محل تجاري للملابس ملاصق للمسجد. . كان يردد إحدى أغنياته الجديدة ويقول: هذه ليلة حبي. . ورأيت الشيخ الغزالي يلامس صدره براحة يمينه، ويكتسي وجهه بشجن رقيق، ويقول: سبحان الله. . إن هذه الأغنية تملؤ نفسي بالشجن الجميل. . وابتسمت في رضا وانتشاء. . وأسررت إلى نفسي كلمات لم تتحرك بها شفتاي: نِعْم الصديق أنت. . فأنا كنت أهيم حبا للموسيقى وللفن

الرفيع وها أنذا ألتقي بعالم فاضل نشط ومجتهد يصل الخفي بالظاهر لا ينأى عن تحريم الموسيقى والفن فحسب، بل ينفعل بهما وتهزه الأغنية الجميلة والصوت الرخيم، ورغم علم الشيخ الغزالي الغزير، وأسلوبه المتأنق والنضير، وذكائه المقتحم والجسور، فقد أضفت إلى هذا كله، وربما قبل هذا كله، انتشاءه الطروب بالموسيقى كلمة ولحنا وأداء كما تبدى لي في ذلك اللقاء، أما أخونا الجليل الشيخ سيد سابق فقد عقَّب على المشهد قائلا: إن الإمام أبا حامد الغزالي رضي الله عنه يقول: من لم يطرب بالسماع فهو حمار يمشي على ساقين، وهكذا استمرأنا الحديث في هذا الموضوع واتسعت أمامنا مبارح القول، حتى نادي المؤذن لصلاة العشاء فأقمناها، وعدنا نستأنف الحديث».

الغزالي. . الذي قد قضى في معتقل الطور بسيناء قرابة العام سنة ١٩٤٩، وأقل من عام في سجن طرة عام ١٩٦٥، عندما أعيد إلى عمله وعيِّن وكيلا لوزارة الأوقاف، اعتبر المنصب نوعا من رد الاعتبار بعد الإبعاد والإقصاء، لكنه حين ذهب إلى الوزارة في يومه الأول اقترح عليه وزير الأوقاف أن يبعث ببرقية إلى الرئيس السادات ليشكره على إعادته ورفع درجة وظيفته، فوجئ الشيخ بطلب الوزير فقال له: «إذا كان لا بد من الشكر فالوحيد الذي يشكر على ما تم هو الله سبحانه وتعالى الذي أراد فكان ما كان»، وتشبث كل من الوزير والشيخ بموقفه، وإزاء إصرار الوزير لم يكن أمام شيخنا المستغني إلا أن هبَّ واقفا قائلا ناهيا: «لا أريد وكالة ولا وزارة». وقدم استقالته وعاد إلى بيته مستريح الضمير وهو يعلم أن مرتبه وهو دخله الوحيد قد انقطع. . وخلال سنوات مرضه الأخيرة عرض عليه ملوك ورؤساء وأمراء أن يقوموا بنفقات علاجه الباهظة في أي مصحة عالمية لكنه ظل الرافض لأن يكون لأهل السلطان عليه فضل.

الغزالي السمح. . من قال: «أكره أصحاب الغلظة والشراسة، ولو كان أحدهم تاجرا واحتجت إلى سلعة عنده ما ذهبت إلى دكانه، ولو كان موظفا ولي عنده مصلحة ما ذهبت إلى ديوانه، لكن البلية العظمى أن يكون إمام صلاة أو خطيب جمعة أو مشتغلا بالدعوة. إنه يكون فتنة متحركة متجددة يصعب فيها العزاء. . .

وإذا لم يكن الدين خلقا دمثا، ووجها طليقا وروحا سمحة، وجوارا رحبا، وسيرة جذابة فما يكون؟ . . . إن الفكر الديني قد سمن ونما له كرش، في تلك القضايا التي أوجدها الفراغ أيام الفراغ، ولن تعود له صحته إلا إذا ذهبت هذه السمنة واختفى الكرش واشتغل المسلمون بعلوم الحياة، والسمنة في الفكر تعني الترهل في الفكر، وتعني تناول ما لا قيمة له وغض البصر عما له قيمة . . . إن في المسلمين من لايزال يحفر في الدوسيهات القديمة ليتساءل، أيهما كان على حق: عثمان أم علي، واعتبار الأعمال العامة والخدمات من التوافه التي يقبل فيها العبث والتسويف، حتى ليؤجل الموظف العمومي مصالح الخلق حتى يؤدي الصلاة، بينما أمامه وقت ممتد لأدائها. هذا الخلل كله وصل بالمسلمين إلى الحال التي صاروا إليها. . . . ورأيت صيدليا مشغولا ببحث قضية صلاة تحية المسجد ومهتما بترجيح مذهب على مذهب، فقلت له: لماذا لا تنصر الإسلام في ميدانك وتدع هذا الموضوع؟ إن الإسلام في ميدان الدواء مهزوم، ولو أراد أعداء الإسلام أن يسمموا أمته في هذا الميدان لفعلوا ولعجزتم عن مقاومتهم، فما كان الأولى بك وبإخوانك أن تصنعوا شيئا لدينكم في ميدان خلا منه، بدل الدخول في موازنة بين الشافعي ومالك. . . التطرف ممقوت والتشدد تديّن الضعيف والفاشل، فالإسلام أوسع وأرحب صدرا من السماء والأرض وفيه مساحات شاسعة للرحمة والتيسير على العباد، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا، وهو القائل: أوغلوا في الدين برفق فإن الدين متين. . . تسعون في المائة من الديمقراطية البريطانية إسلامي المنبع والوجهة، ولولا أن مجلس العموم البريطاني ومجلس اللوردات قد اشتركا في إباحة بعض الرذائل التي يأباها الله كالشذوذ لكانت الديمقراطية الإنجليزية من أجمل صور الشورى التي نحبها لبلادنا».

«إن الشيطان لا يقيم عائقا ماديا أمام ذاهب إلى المسجد ولا يدفع سكرانا في قفاه ليتجرع الإثم من إحدى الحانات، إنه يملك الاحتيال والمخادعة ولا يقدر على أكثر من ذلك، أما عن عملية لبس الشياطين للأجسام التي أراها منتشرة خاصة بين العامة فأقول: هل العفاريت متخصصة في ركوب المسلمين وحدهم؟ لماذا لم يشك ألماني

أو ياباني أو أمريكي من احتلال الجن لأجسامهم؟!». . . «أهداني رجل طيب سبحة فاخرة لأختم بها الصلوات فتقبلتها منه شاكرا ثم عدت إلى بيتي وأهديتها إلى حفيدة لي، وبعد أيام قال لي الرجل: لم أرك تستخدم السبحة المهداة؟ فقلت له: إنني أقدر جميلك، ولكن الأذكار المطلوبة في أعقاب الصلوات لا تستغرق غير دقيقتين أو ثلاث فأوثر استخدام أصابعي ولا حاجة إلى جهاز إحصاء. . . ماذا على الناس لو أراحوا الدين من عنت الأهواء الجامحة، فإذا أرادوا العصيان لم يلجأوا إلى فتوى تشرعه؟».

الغزالي. . الذي خدم الدعوة في قطر خمس سنوات وثلاث سنوات في الجزائر أشرف فيها على جامعة الأمير عبد القادر الجزائري الجديدة ليجعل منها مثالا للأزهر الشريف، وكان الشارع يخلو من المارة أثناء حديثه التليفزيوني الذي يشرح فيه الإسلام بأيسر الطرق، وكأن الإسلام على يديه بدأ يدخل الجزائر من جديد، وفي أحد المؤتمرات بالجزائر حاولت ثلاث فتيات سافرات بإلحاح دخول القاعة، ولكن شبابا واقفين بالباب منعوهن بطريقة فظّة، وعندما علم الغزالي بالأمر قام غاضبا مستندا إلى عصاه متجها للشبان الذين منعوا الفتيات قائلا: «من أدراكم أن هؤلاء لسن أقرب إلى الله منكم؟» فتراجعوا واحدا تلو الآخر وأفسحوا الطريق أمام الفتيات اللاتي أسرعن نحو الشيخ باكيات، وحين أسندن رءوسهن إلى صدره ربت عليهن في حنو وقد طفرت دمعة من عينه! . . . . ويضحك الغزالي وهو يروي عن اتساع المفارقة: «قرأت أن وزير خارجية إحدى الدول الخليجية قد اجتمع مع نظيره الأمريكي. . . ويتساءل من أين بالله تأتي هذه المناظرة وأليس للتناظر شروط؟!».

الغزالي في بحثي عنه أقترب منه. . أطرق الأبواب وأفتح الأدراج وأفض الأختام وأنصت لدبيب النمل لأحصل على زادي وزوّادي عن فضيلة الشيخ الذي أنجب تسعا فعاش منهم سبع من البنين والبنات الذين استقى أسماءهم من قصيدة أحمد شوقي «نهج البردة» فجاءت الأسماء: هدى وإلهام وسناء وعفاف ومنى وضياء وعلاء. . الجميع جامعيون وجامعيات وضياء مهندس وعلاء أستاذ جامعي عميد أكاديمية السادات، وعفاف زوجة الكاتب الصحفي محمد عبد القدوس. .

عندما تقدم الشيخ المتخرج حديثا في أصول الدين لطلب يد فتاته الحسناء أمينة ابنة موظف السلك القضائي آثره الوالد على جميع العرسان المتقدمين رغم ثرائهم وجاه عائلاتهم، فقد وقع حب محمد في قلبه لدرجة أنه أوسع للعروسين مكانا في بيته ليعيشا في كنفه، ورغم فارق السن كان يصلي من خلفه.. وكما احتضنه حماه وحماته في شبابه كان رد الجميل أن اصطحبهما يعيشان معه في بيته الأول بشارع الأزهر، وفي بيته الثاني ١٠ شارع قمبيز سابقا الذي حمل اسم الغزالي من بعد وفاته.

الشيخ المنضبط كالساعة، كان لا ينام بعد صلاة الفجر ورغم التصاق جامع شركس بوزارة الأوقاف مقر عمله فلم يترك مكتبه لصلاة الظهر فيه، فقد كان الوقت ممتدا ليلحق بالصلاة مع امرأته في البيت ليأخذ قيلولته ساعة بعد وجبة غداء لا يتناول بعدها طعاما حتى الصباح التالي، وكان دائب الاستماع لإذاعة الـ (BB.C) البريطانية.. منصت شغوف لأم كلثوم ومحب لعبد الوهاب ومعجب بكلمات مرسى جميل عزيز، ويرفع له الأبناء صوت فيروز ليسعد بها تغني: اعطني الناي وغني، وينادي على زوجته التي تهوى اقتناء اللوحات من بعيد: الربيع يا أمينة تعالي اسمعي فريد الأطرش في الراديو.. وعندما يستمع إلى عزف ابنه علاء على البيانو يأتي ليجلس بجواره معطيا له أذنا صاغية.. وكانت جدران بيته تحنو وتداعب أكثر من كلب آخرها من فصيلة الجريفون الصغير.. ويعثر الابن المهندس ضياء في أوراق والده من بعد وفاته على دفتر أشعاره فيطلب من الدكتور مصطفى الشكعة أن يقدم عنها ورقة تعرِّف القارئ بها، فإذا بالشكعة يكتب لها مقدمة من ٧٩ صفحة تعترف بجودتها وصدق أحاسيسها.

.. الغزالي الزوج الودود الباش الهاش سريع البديهة، المرح كان حزنه بالغا لرحيل زوجته ـ التي توفيت متأثرة بمرض في الكبد وكان طبيبها المداوي الدكتور ياسين عبدالغفار ـ فحياتهما الزوجية كانت مثالا للمودة والرحمة على مدى ما يقرب من أربعين عاما، وأبدا لم يفكر في حياتهما أو بعدها في أخرى غيرها، فهو الذي لم تجف دموعه عليها، حتى في أحاديثه الإذاعية كان يذرفها مدرارا عندما

تأتي سيرتها، وقد أبكى يوما المذيعة الراحلة آمال العمدة معه عندما سألته عنها، ومن فرط حساسيته كان أهل بيته يهرعون لخفض صوت فيروز عندما تغني بالذات، لم؟ فالأغنية التي كانت تثير شجونه. . وإذا ما كان الغزالي قد دخل في اشتباك رأي مع صلاح جاهين في الستينيات فقد نسي من بعدها تلك الخصومة تماما.

وأصبح الحريص على الاطلاع على نكتة جاهين اليومية في الأهرام يتفاعل معها ويضحك من قلبه لها. . وكان يعد نفسه من كتيبة الحرس الخاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومفتاح شخصيته حب الله ورسوله، وقد طبع من كتابه «السنة النبوية» ١١ طبعة في سنة واحدة فقط، وعندما سألت السفارة الأمريكية في عام ٨٥، عما إذا كان الكتاب قد ترجم للإنجليزية للاستعانة به في رسالة دكتوراه عن الغزالي بإحدى جامعاتها، اتضح أن بنظير بوتو في رئاستها الأولى للحكومة الباكستانية قد قامت بترجمته بالفعل، وقد ظل الغزالي محرِّما طيلة حياته عمل أي رسائل جامعية عنه، ومن بعد رحيله تدفقت الشهادات، بينما كتابه «من هنا نعلم» المترجم للإنجليزية قد اختير كأفضل كتاب عالمي صدر في عام ٥٣، وكان قد كتب مؤلفه «فقه السيرة» عام ١٩٥١ داخل الروضة الشريفة، وتشهد أصوله على آثار دموعه المختلطة بمداد الحروف، وقد ضم هذا الكتاب ١٤٠٠ حديث وراجعه الشيخ الألباني، وترجم إلى جميع لغات الأرض ومنها السواحلية والأردية والفارسية والصينية والهندية وغيرها.

وكان الغزالي لا ينصح بكثرة الحج والعمرة، ويرى أن التبرع بمصاريفهما من بعد أداء فريضتها أجدى وأفضل. . ويسأل الابن ضياء أباه ـ الذي كان يأنس لوجوده معه ـ عن موقفه من رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ فيعرف منه أنه بعد أن ارتفعت الآراء المعارضة للرواية أحالها جمال عبد الناصر للتحقيق، فتم انتداب كل من الشيخ الغزالي والشيخ سيد سابق والشيخ أبوزهرة لقراءتها، فوجد ثلاثتهم فيها تطاولا فكتبوا تقريرهم الذي أوقفها.

وعندما حصل محفوظ على نوبل، عارض الشيخ أن تنسب الجائزة العالمية لتلك الرواية بالذات وإنما رأى أنها منحت للكاتب الكبير على مجمل أعماله، وسارع الشيخ لمستشفى الشرطة للاطمئنان على محفوظ بعد الاعتداء عليه، وجلس إلى زوجته وكريماته مجيبا على استفساراتهن الدينية.

شيخنا الجليل أبدا لم تصحبه جوقة أو تجري في ركابه بطانة طيلة حياته، وعندما سرق سور مدفن الأسرة الحديدي في الإمام الشافعي، وفكرت الأسرة في مدفن آخر قال إنه مكتف بجوار الإمام الشافعي، وكان وقتها في علم الغيب أين المستقر الذي انتهى به في يوم ٩ مارس ١٩٩٦، وقلمه في يده يدوّن نقاطا للدفاع عن الإسلام في مؤتمر الرياض.. كانت هناك رحلتان إحداهما للكويت والأخرى لمهرجان الجنادرية الثقافي في الرياض، ففضل رحلته إلى السعودية التي لم تكن ستستغرق سوى ثلاثة أيام.

وكان على غير عادته متعجلا للسفر حريصا على أن تكون جميع ملابسه جديدة وهو من لم يكن يعنيه هذا الشأن.. ومن الرياض اتصل بابنه ضياء لانتظاره في مطار القاهرة غدا.. وغدا قضى الله أمرا كان مفعولا، وأذيع خبر الوفاة، وأمر الملك عبد الله - ولي العهد وقتها - بطائرة خاصة لنقل أسرة الفقيد للصلاة عليه في المسجد النبوي، حيث حضر لتوديعه الآلاف بملابسهم البيضاء الذين قدموا من شعاب المملكة للمدينة المنورة ليقينهم بأن الغزالي لا بد وأن يأتي إليها.... وتمطر السماء ويسأل من أوكل إليه مهمة أن يوسد جسد الشيخ في مثواه الأخير عن شخصية الراحل فيذكرون الاسم ليختصره في جلال موجز.. الواعظ.. ويدفن الشيخ الغزالي في الوسط ما بين الإمام مالك والإمام نافع من جهة، وبين إبراهيم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم من الجهة الأخرى.. ويزور البقيع الشيخ الشعراوي كلما أتى للصلاة في المسجد النبوي ليبكي فقد الغزالي.. وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

الباقوري إمام التيسير

ولا كل من لبس العمامة يزينها ولا كل من ركب الحصان خيال . . ولقد زان الشيخ الباقوري العمامة كواحد من الصفوة الذين أضفوا عليها عزتها وفخارها، وكان أحد فرسان منابر هذا الزمان منذ اعتلاه في شرخ الشباب بنغمة عصرية تقدم المزيج المنشود من عطر التراث ونسيم الحاضر في عذوبة لا تغيب حين يرتفع الصوت الرخيم هادرا غاضبا أو متهدجا متأثرا، أو خفيضا ذاهبا لجلال الصمت فيسكن الجمع الصاغي حتى لتكاد تسمع صوت الدم في العروق . . صوت يخاطب القلب والعقل معا، جامع للوداعة والسماحة والمصداقية، ينم عن نفس خيرة تقية ورعة تشي بإحساس جسيم بالمسئولية . . صوت ينفذ للأعماق في استرسال فذ متدفق بارتجال وكأنه يقرأ من ورقة أو يستظهر شيئا حفظه عن ظهر قلب . . كان الخطيب البارع والثوري القائد والمناضل خريج المعتقلات . .

على مدى خمسين عاما لم تشهد مصر داعية للإسلام جسد سماحة الدين وجسد قدرته على التوافق مع مقتضيات العصر مثلما فعل الباقوري الأزهري الصرف الذي تدرج في سلك الأزهر من أول المعهد الديني في المدينة الإقليمية إلى شيوخ الأعمدة في ساحة الأزهر الشريف، يدرس العلوم الأزهرية بمنهج الفهم والاستيعاب لا التلقين والحفظ، مما أتاح له النظر بعمق في اللب دون القشور، والنفاذ إلى الجوهر دون التلكؤ عند المظهر . . ومن هنا اتسعت آفاقه باتساع معارفه لتصبح النصوص والمقولات القديمة مجرد خلفية تنير له طريق الفكر المستنير، أما المبادئ فقد باتت سلوكا إنسانيا يسعى نحو التكامل ما أمكنه ذلك، وأما النصوص المقدسة فإنها المصابيح الهادية، وفيما عدا ذلك فكل مقولة من بني البشر قابلة للبحث والتمحيص والرفض إن لم تكن واقعا قانونيا لا يقبل الزعزعة . . ولسوف

نظل طويلا نحمد للشيخ الباقوري مواقفه المستنيرة من أمور كثيرة كانت محل خلاف وجدل، وإن عاد الجدل العقيم القديم يطل برأسه من جديد مع هجمة فتاوى الفضائيات التي تعيد النظر في الدخول بالقدم اليمنى من قبل اليسرى، ورضاعة الكبير، وبول الجمال.

الثائر الشيخ صاحب الـ ٢٢ كتابا ـ كان آخرها «بقايا ذكريات» الذي أوصى بنشره من بعد وفاته ـ كان يهز الجمود الفكري برفق بنظرة ترى أنك ما دمت لا تقول شيئا يناقض كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فليس لك أن تفرض التشدد لتحتاط، لأن الاحتياط يوقعك في الحرج، ولأن يتدين الناس بتتبع الرخص خير من أن يشقُّوا على أنفسهم وعلى الناس، فينصرفوا عن التدين جملة.. ويقول: «هذه هي الحقيقة التي أدعو إليها أبنائي وبناتي وزملائي وزميلاتي وشيوخي رضي الله عنهم أجمعين».. الباقوري رجل الإسلام الذي يرفض لقب رجل الدين لأنها كلمة وافدة وليس لها إسناد في الإسلام، وكان شيخنا الجليل لا يتحدث بفتوى أو برأي إلا ويدعمه بالسند والدليل الشرعي من الكتاب والسنة واجتهادات علماء الأئمة، ثم إن الشيخ كان يجتهد بترجيح رأي على رأي أو النظر في مدى مطابقة الحكم وقدرته على التكيف مع الواقع، وكان يرى أن محاولة جر المسلمين إلى الوراء ١٤٠٠ عام ليعيشوا واقعا غير واقعهم وحياة غير حياتهم نوع من التهريج والاستهانة بالإسلام، الذي جاء ليهذب الناس في كل زمان ومكان لا ليكون عبئا عليهم، ومن هنا كان شيخنا يقول ما يعتقده، ويفتي بما ييسر على الناس حياتهم كي يعيشوا الإسلام كنعمة أنعم الله بها عليهم.. ولقد كان يري أن التشدد لم يشق على المسلمين فقط في مجال السلوك بل لقد وصل أيضا إلى فهم القرآن وتفسيره، حيث يقولون إن كل شيء سبق القرآن إليه. حتى عندما وصل الإنسان إلى القمر قالوا إن ذلك جاء في القرآن أيضا. حتى الأوكسجين والهيدروجين والتنفس يقولون إن القرآن سبق إلى الحديث عنها، ويسمون هذا اجتهادا ولكنه ليس اجتهادا، فهناك فرق بين أن تجتهد بالتخمين وبين أن تجتهد على أصول، فالقرآن كتاب الله العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه جاء لتهذيب الإنسان وتعليمه ما يحتاج إليه وينتفع به.. لكن إذا حاول البعض أن يعتبر القرآن مصدرا للعلم

المعملي فهذا خطأ، وفي رأيي أن هذه الظاهرة ترجع إلى محاولة البعض إثبات أفضلية له وسبق في فهم خاص للقرآن.

«الباقوري من ولد بلا شهادة ميلاد في التاسع من مايو عام ١٩٠٧، في قرية باقور بمركز أبوتيج محافظة أسيوط في أسرة ترجع أصولها إلى المغرب العربي، زمان لم تكن شهادة الميلاد دقيقة فمكتوب في شهادة ميلادي «أحمد حسن أحمد» وهي شهادة شقيق لي ولد قبلي بعامين ومات إثر حقنة التطعيم بالجدري فلما ولدت لم يشأ أهلي أن أعيد الكرة في التطعيم فقالوا تكفيه شهادة شقيقه، ومعنى ذلك أنهم أكلوا عليّ سنتين، ولو كان في إمكاني أن أرفع قضية تعويض لكنت رفعتها، وعندما طلبت تصحيح اسمي بعدها وأنا طالب في قسم التخصص كي تصدر شهادتي المتخصصة في البلاغة والأدب باسم أحمد حسن الباقوري وأرسلت الطلب إلى مديرية أسيوط في عام ١٩٣٦ . . والله الذي لا إله إلا هو . . ردت عليّ المديرية عام ١٩٥٥، وأنا وزير للأوقاف» . . صاحب القلب الكبير الذي ضجت له قاعة جمعية الشبان المسيحيين في ذكرى القمص سرجيوس ليصفق له آلاف المجتمعين . . ما لا ينسى له أقباط مصر عندما كان مديرا لجامعة الأزهر أنه دعا صديقا له من كبار رجال الدين المسيحي، وهو الكاردينال كوان من النمسا، لإلقاء محاضرة في قاعة الإمام محمد عبده بالجامعة، وكان الرجل يحمل على يديه زيه الكهنوتي، فاستأذن في ارتدائه فقال الباقوري بل تفعل ولا ترتديه وحدك بل أعينك على ارتدائه بيدي هاتين فدهش الكاردينال معقبا: أنت متسامح كريم فأجابه فضيلته: «إني عندما أسمح لك بارتداء زيك الكهنوتي وأعينك على ذلك فليس هذا مخالفا لما ترشدني إليه عقيدتي، وإنما أنا أقتدي بالرسول الكريم الذي جاءه وفد من نصارى الحبشة فأكرم وفادتهم وأنزلهم في المسجد مكرمين وقام على خدمتهم بنفسه ورفض أن ينوب عنه في ذلك إنسان آخر». وتذكر منابر جمعيات شبرا القبطية التي كانت حريصة على أن يكون زينة حفلاتها ـ كما يقول القمص بولس باسيلي عضو مجلس الشعب السابق ـ إن الشعب كان يهرع إليها ليسمعوا الشيخ الباقوري وهو يردد معهم هتافهم: «الشيخ والقسيس قسيسان وإن تشأ فقل هما شيخان». وتعود هذه القيم إلى الجذور: «كان بقريتنا باقور عدد كبير من الأقباط،

وكان بيتنا في موقع المسيحيين، وتفتحت عيناي في طفولتي وصباي على أن نادي المسيحيين بيا عمي، وأتذكر أن جدتي كانت لها صديقة عزيزة جدا اسمها دميانة، وكنت أناديها بستي دميانة لأنني تعودت أن أنادي جدتي بستي عزيزة، وكانت ستي دميانة تحبني جدا وتخصني بأهمية ورعاية خاصة في طعامي وفي منامي.. وأذكر جيدا أنها كانت ـ في الشتاء ـ تضع قدمي الباردتين بين قدميها لتدفئتي».

وتكسب ثورة يوليو بالباقوري أراضي شعبية شاسعة بلباقته وقوة حجته وغزارة علمه وارتباط هذا العلم بمجريات الحياة كجزء لا يتجزأ منها، فيغدو خطيب الثورة الذي أيدها وطاف مع قياداتها في محافظات الجمهورية يخطب: «أيها الناس جاءكم من حملوا أرواحهم على أكفهم لينقذوا شعب مصر من حكم الإنجليز وطغيان القصر وفساد الحكم وإرهاقكم بالضرائب، فجاءوا ليقولوا لكل واحد منكم ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الظلم والاستبداد». ويسافر الباقوري مع عبد الناصر في عام ١٩٥٥، إلى اندونيسيا لحضور مؤتمر باندونج فتخصه الجماهير وحده بتحية خاصة يقبلون فيها طرف الكاكولة ويتهافتون على لمسة من يد رجل الإسلام القادم من الأزهر الشريف، ويعلق عبد الناصر بقوله: «إنه لا بد وأن المراقبين في الشرق والغرب قد رأوا حب المسلمين والتفافهم حولك حتى أصبحت في رأيهم زعيما يؤيدك الغرب ويتملقك الشرق، وإن شاء الله تنتفع بك الثورة عالميا كما انتفعت بك داخل مصر»!! وبقدر ما أسعدت شيخنا الكلمات بقدر ما أزعجته، فهو العالم العارف بأنها تستهدف معنى بعيدا وغاية خطيرة، ومن يومها بدأ الباقوري يتعامل بحرص شديد وحذر بالغ.. وتأتي زيارته الطويلة للصين بأوامر من عبد الناصر ليلقى فيها الزعيم الصيني ماوتسي تونج الذي يخترق الصفوف ليتجه إليه لتحيته في مكانه سعيدا كما قال بقدومه ليتفقد بنفسه أحوال ٥٠ مليون مسلم صيني.. ويعود الباقوري ليجد المطار غاصا بالمستقبلين، ويصطحب في اليوم التالي أسرته إلى مسرح الريحاني فيلمحه سراج منير الذي يوقف العرض لتحيته باسم الجماهير: رجلا غاب عنا مائة يوم في زيارة لمصر والمصريين، وفي اليوم التالي يفاجأ بعبد الناصر يقول له: «إن رحلتك الطويلة جعلتك زعيما يصفق له المواطنون في مسرح الريحاني». فيرد الباقوري بفورية: «إن تصفيق المواطنين

ليس من أجل شخصي ولكن من أجل أنني أمثل ثورة مصر». وتكثر الألغام بين عبد الناصر والباقوري ويشمر كُتَّاب التقارير الأكمام عن سواعد الجد.. ويزعق الباقوري لم أعد أطيق في أجواء أصبح الوالد فيها يتجسس على ابنه.

وحتى مساء ١٣ فبراير عام ١٩٥٩، كان الشيخ الباقوري ملء السمع والبصر في طول مصر وعرضها.. وفجأة اختفى الشيخ.. خرج من الوزارة وكان ذلك بمثابة حكم بالانسحاب من الحياة كلها.! أين الباقوري.. ماذا فعل شيخنا؟!.. ما هي جريمته؟! خطؤه غير المغتفر؟.. لا أحد يعلم.. الرجل فص ملح وذاب.. ولم يسمع الناس عن جريمة ارتكبها الباقوري فهو لم يسرق ولم ينهب ولا سعى للفساد في الأرض، ولا تاجر بالدين ولا أفتى بغير ما أحل الله وحرم الله، وعاش فقيرا ميراثه عن جدة أبيه أم علي نخلة ورثتها بدورها عن أبيها، حيث كانوا يأتون له في وزارة الأوقاف بنصيبه منها بما يسمى المنقطة، وتضم سبع بلحات نصيبه الشرعي في الإرث.. رصيده العلم والفضيلة، وتاريخه العمل الوطني في رحاب الأزهر وخارجه من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وفي رحاب الأزهر بدأ دوره في النضال الوطني. قاد المظاهرات وهتف بمصر حرة مستقلة، وطالب بالجلاء والدستور، وعرف السجون والمعتقلات، وعندما قامت الثورة وتولى فيها منصب وزير الأوقاف كان ذلك نقطة خلافه مع جماعة الإخوان المسلمين ليتم استبعاده منها، وعلى مدى السنوات السبع الأولى من الثورة، أخطر سنواتها، عاشها الباقوري قريبا من جمال متحمسا وداعيا وخطيبا.. أين الرجل؟!!.. وكان طبيعيا أن تتكفل الشائعات بالرد على كل التساؤلات.. وأثمرت الشائعات في نفس عبد الناصر فلم يحضر حفل عقد قران ليلى الابنة الكبرى للشيخ الباقوري مما جعله يندم على موقفه من عبد الناصر ودفاعه عنه من المحيط الهادي شرقا إلى الأطلسي غربا، ومن البحر الأبيض شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا!

ويمضي ربع قرن من الزمان ليتكلم الشيخ الذي آثر الصمت مخافة زائر الفجر.. «ذات يوم اجتمعنا في الندوة في دار محمود شاكر، ورن جرس التليفون وإذا بالمتكلم يحيى حقي، وكان يشكو إليه أنه نقل إلى عمل لا يناسبه، وكان سفيرا لمصر

في ليبيا لأن زوجته غير مصرية، فقال له محمود شاكر في حماسة عمياء، وما حيلتي يا أخ يحيى في هؤلاء العساكر الذين يحكمون البلد، وعلى رأسهم جمال عبد الناصر ابن الـ . . . وكانت كلمة مع الأسف تستوجب إقامة حد القذف لو كان القانون يأخذ بالتشريع الإسلامي . . ومما تكمل به صورة هذا الموقف الأليم، أن العمارة التي كان يسكنها محمود شاكر في الدور الثالث، كان الدور الأرضي فيها قد خلا من قاطنيه وسكنه أحد رجال المخابرات. ولست أدري إلى الآن أكان هذا بعلم، أو بالاتفاق مع الأستاذ محمود شاكر أم كانت مصادفة . . واستدعاه عبد الناصر مساء ذلك اليوم ١٣ فبراير ١٩٥٩، وأسمعه التسجيل وسأله . . هل كنت حاضرا؟ . . وقال الشيخ: نعم . . وكادت الأرض أن تميد من تحت قدميه . . ولم يدر ماذا يقول ولا كيف يوضح من أن المخابرات قد سجلت حديثا جرى في حضوره ولم يكن طرفا فيه، وكان المتحدث يسب عبدالناصر موجها حديثه لشخص آخر، وفي نهاية الحديث قال له: أنت جبان وخايف من عبد الناصر . . والشيخ الباقوري جنبي أهه وسامع الكلام . . وكان الباقوري يصلي وقتها، ولما فرغ من الصلاة قال للمتحدث معاتبا: يا أخي ذلك عيب ولا يصح» . . لكن خبراء التسجيلات توقفوا بها عند كلام المتحدث الذي كان يسب!

وكان الشيخ يدرك الهول الذي ينتظره بمجرد خروجه من بيت عبد الناصر، ولذلك كان رجاؤه له أن يؤمن خروجه من بيته . . قال الشيخ: «العدل الذي أرجوه منك وأعتقده فيك أن تخرجني من بيتك كما أدخلتني فيه!» وأدرك عبد الناصر مغزى الرجاء فقال له: ربنا يسهل . . واتصل بمدير مكتبه وطلب منه أن يدخل سيارة الشيخ، وكانت قد أوقفت بمعزل بعيدا على غير العادة . . وعاد الباقوري إلى بيته لم يبرحه طوال خمس سنوات وخمسة أشهر وخمسة أيام . . عاشها مع أسرته في توجس مما كان يجري أيامها من هجمة زوار الفجر!

وأسمعُ من الابنة عزة الباقوري ـ من كانت تعمل في المجال الاقتصادي ـ عن والدها وأستزيد:

«أب جميل كل ما يقوله جميل . . أجواء عائلية لا تعرف التعصب، شعارها ما

رفعه الأب بأن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . . مرح ضاحك أكثر ما يسعده التفاف بناته وأحفاده من حوله يوم الجمعة ، يلعب مع الصغار الكرة والشطرنج الذي يجيده ومع هذا يتركهم يفوزون عليه ، وكان يحب الطاولة والقراءة والمشي ، وكان سباحا ماهرا ويركب الخيل قبل إصابته . . يرفض اجتماع صنفين من الطعام على المائدة قائلا : هذا تبذير ، ويطلب من أصغر الأحفاد تذوق ثمرة طلائع موسم الفاكهة قائلا هذه سنة رسولنا صلى الله عليه وسلم ، وكان يحب الأكل الصعيدي واللحم داخل الخضار والبطاطس في الطاجن بالبصل والثوم ، والحمام بالفريك ، والعيش الشمسي الذي كانت ترسله والدته في الزوَّادة التي يفرح بها هاتفا : هاتوها كما هي فطبيخ أمي لا يحتاج إلى طباخ ، وسعادته بالغة بالقرع العسلي ويشرب كوبا فقط من الشاي كل صباح ، وقبل النوم كوبا من اليانسون ، ولا يطمئن لأدوات مائدته إلا إذا غسلتها ماما أو إحدانا . . كانت هناك على الدوام صورتان فوق مكتبه ، الأولى له مع عبد الناصر يشعل له فيها سيجارته والأخرى مع السادات يستقبله بالأحضان . . عندما عاد والدي من لقاء عبد الناصر الذي استقال فيه من الوزارة أرسل في طلب زوج شقيقتي ليلي الدبلوماسي محمد سعيد الدسوقي الذي كان قد عقد قرانه عليها منذ خمسة أيام فقط ، وروى له ما حدث بينه وبين الرئيس ليحله من الارتباط بتمام حريته وتقديره لمصلحته بعد ما لم يصبح حماه وزيرا ، فرد عليه زوج شقيقتي باكيا : أنت تعرف يا عمي أنني متمسك بليلى بنت الشيخ الباقوري مش بنت وزير الأوقاف ، وقد عقدنا القران وأنا مقتنع بها . . عندما انسحب والدي من الدنيا جاءته الدنيا حتى حجرة نومه ، فقد كان الفقهاء والأدباء يزورونه ليتحاوروا معه فيقول لهم : من أراد أن يزورني فلن أزيد على قال الله وقال الرسول ، وكان يأتينا الشيخان - سيد سابق ومحمد الغزالي - يزورانه ويصليان معه . . في أول الثورة عندما أفاق عبد الناصر من آثار التخدير بعد إجراء عملية الزائدة له طلب رؤية الباقوري فذهب إليه في صحبة والدتي وكانت المرة الأولى التي يقدم فيها الرئيس زوجته السيدة تحية لتسلم على أحد الرجال خارج نطاق عائلتها . . كان يقدر ويحترم الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين ويحرص على متابعة عموده اليومي في الأهرام قائلا لشقيقتي الصغيرة يمنى التي أطلق عليها لقب زميلة

المحنة لأنني وليلى كنا نعيش في منزل الزوجية، كان يقول لها: اقرئي لي بهاء كاتب إيه النهاردة، وإلى جانب متابعته لكتابات الأستاذ أنيس منصور كانت بينهما مداعبات كثيرة، منها عندما ذهبا في عام ١٩٥٥ ليصلي الباقوري في المسجد الأقصى بالقدس الشرقية، وبعد الصلاة لاحظ والدي أن الأستاذ أنيس يمشي حافي القدمين بعد أن ضاع حذاؤه وابتل جوربه فنظم فيه شعرا يقول:

تقول رعاك الله إنك شفته يماشي وفود العرب في القدس حافيا
أنيس فتى مصر وزينة القدس يمشي في ربى القدس ساعيا
وليس بصوفي وليس بزاهد وفدها إلى ولا كان في الوادي المقدس ساعيا

وتُعدُّ والدتي السيدة كوكب كريمة الشيخ عبد اللطيف دراز مرجعا لفكر أبي، وهي من كان يملي عليها خواطره وأفكاره فتكتبها بخطها البديع، وعندما أراد استرضاءها ارتدى البدلة بدلا من الكاكولة في يوم الصباحية ودعاها لمسرح الريحاني.. قام والدي بتعليم نفسه الإنجليزية حتى أصبح ينطقها بإجادة الإنجليز.. أذكر كلبنا الضخم نجرو الذي كان يتمسح بكاكولة الوالد لحظة إطلالته فيقوم بالربت على ظهره ومسح رأسه والتنبيه على العناية به، وبعد وفاة والدي قبع نجرو في مكانه مضربا عن الطعام لمدة أسبوع حتى نفق.. وبعد محنة «الثلاث خمسات» ارتفع رنين التليفون في بيتنا: معالي الوزير موجود؟ وترد والدتي: مين حضرتك؟! أنا محمد أحمد يا فندم.. ويأتي والدي: إزيك يا محمد.. فينهي إليه الخبر: عقد قران هدى كريمة الرئيس يوم الخميس ـ وكان الحديث يوم الثلاثاء ـ وإحنا عايزين نعرف هل إذا دعاك الرئيس تحضر أم تعتذر، فقال والدي هدى ابنتي مثل عزة وليلى ويمنى بالضبط.. وأتى الموتوسيكل حاملا دعوة الرئاسة ليتعطل طابور التحية طويلا من خلف والدي فقد كانا يتعانقان طويلا هو وعبد الناصر.

الشيخ الباقوري كان يحب سماع صوت وردة في قصيدة «لعبة الأيام» وفايزة في «يا أمه القمر ع الباب» ومطربه المفضل عبدالوهاب في أغانيه القديمة في الليل لما خلي، وعندما سألناه عن رأيه في قارئة الفنجان قال: أنا شخصيا وقع لي شيء غريب، فزمان وأنا في أسيوط قرأت لي ولأصدقائي البخت في الفنجان إحدى

السيدات وحدث ما قالته لنا بالأسماء ويجوز أن تكون هناك قوى أخرى في الكون لا نحيط بها علما، وبشكل عام الغيب لا يعلمه إلا علام الغيوب، وكانت من أحب المسرحيات إلى قلب أبي مسرحية «السلطان الحائر» التي قال عنها لو عرضت علينا كل يوم لن أشعر بالملل لأداء سميحة أيوب الرائع ونطقها السليم للحروف وصوتها المنغوم المؤثر طبقا للموقف في المسرحية. . ولن أنسى نجاة عندما طلب منها والدي إحياء حفل زفافي الذي أقامه لي في حديقة بيتنا. . تجمعنا بالكاتبة الصحفية القديرة نعم الباز صداقة قديمة ومتينة، وتعد مرجعا متفردا لذكريات وآراء والدي، فقد كانت تسجل معه بالساعات ولها كتابها القيم عنه وعنوانه «ثائر تحت العمامة». .

كان السبب الحقيقي وراء مرض أبي بعد ما عاد للعمل مديرا لجامعة الأزهر وذهب لاستقبال الرئيس في المطار، وبينما يقف ضمن المستقبلين اقترب منه أحد بطانة السوء ليقول له: ده مش مكانك ده كان زمان يا شيخ! وكأن الكلمة طعنة غادرة أصابت أبي في الصميم ليسقط مكانه في المطار مصابا بجلطة في المخ ترتب عليها شلل أصاب نصفه الأيسر ليحمل إلى مستشفى هليوبوليس، ويومها كنت في استقبال عبد الناصر عند قدومه لزيارته لأقول له: الخير على قدوم الواردين يصحبه عبد الحكيم عامر الذي قال له: أنت مسئول عن صحة الباقوري، واقترح الدكتور البنهاوي إزالة الجلطة بالجراحة ورفضت الوالدة وسافرنا إلى لندن ويعترض الدكتور مايكل كريمر أستاذ المخ بجامعة لندن على الجراحة بقوله: إن المخ (Box of Jewelery) واقترح تذويب الجلطة بالعلاج لنمكث سبعة أشهر هناك، حيث كانت شقتنا الصغيرة مزارا لا ينقطع، وفيها قام أشهر راقص باليه إنجليزي بإشهار إسلامه على يدي أبي بعد أن رأى نفسه يقود ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام وسمى نفسه رشيد الأنصاري. . وعلى أرض المطار عند عودتنا استقبلنا بموكب كبير يرتدي الزي الكهنوتي أرسله البابا كرولس للتهنئة، ونزلنا في استراحة الرئيس في القناطر الخيرية حيث دعت أم كلثوم نفسها على الغداء على أكلة كشك، وحضرت في صحبة كل من الأساتذة أحمد عبد الله طعيمة والطحاوي وزوجها الدكتور الحفناوي، والجدير بالذكر أن أبي كان من اقترح عليها غناء قصيدة أبي فراس الحمداني: «أراك عصي الدمع شيمتك الصبر. . . أما

للهوى نهي عليك ولا أمر»، وجلست أم كلثوم تحكي ظروفها مع النكسة التي حدثت والوالد في الإنعاش بلندن فقالت: تصور يا شيخ أنهم قالوا لي لازم تعملي غنوة تقول: حننتصر وحغني في الليل في تل أبيب، وصدقتهم وعملتها وكل ما أسأل: حنذيع امتى يقولون لي استني شوية.. استني شوية.. ولما بلغني ما جرى سألتهم أمال كان فين القاهر والظافر؟! قالوا لي استخدمناهم لكنهم ضربوا في ولادنا، ووسط انهماك أم كلثوم في الحديث أطاحت أصابعها بطبق ماء غسيل الأصابع فأغرق المفرش.

وبعد الغداء استأذن والدي ليرتاح قليلا فاقترحت أم كلثوم أن تلعب مع الأحفاد أيمن ويمنى الكوتشينة لغاية ما يصحى، وأفخر أنني كنت الوحيدة مع أولادي التي لعبت مع ثومة لعبة صلَّح.. وبعد ما عاد الباقوري للعمل رجاه صديق الأسرة «يوسف الرويني» أن يجد حلا في مشكلة جمال بن عبد الحكيم عامر الذي لم يحصل على مجموع يؤهله لدخول الجامعة، فما كان من أبي وهو مدير لجامعة الأزهر إلا أن كتب على الطلب يقبل على مسئوليتي الخاصة، وبعدها اتصل بمحمد أحمد سكرتير الرئيس ليبلغه الأمر، ولم تمض سوى خمس دقائق إلا وأتت المكالمة المهمة: متشكر فقد رفعت الحرج عني... ويمرض والدي من جديد بالكبد ونسافر إلى لندن من جديد وهناك في يوم الرحيل ٢٦ أغسطس ١٩٨٥، ظل لمدة الأربع وعشرين ساعة الأخيرة لا يلفظ سوى.. يا الله.. يا رحمن».

يرحل المؤمن أحمد حسن الباقوري بعدما ألمت به محنة تحولت بإرادة الله سبحانه وتعالى إلى منحة للشيخ الداعية الفقيه المظلوم، وكأني به يتمثل قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.. فالمحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالي، والمأسور من أسره هواه».

بنت الشاطئ

ينظر الدكتور محمد سليم العوا خلفه بأسى بالغ بعد الصلاة الأخيرة عليها فلا يجد أمامه سوى صف صغير من المعزين ومن خلفه لا يوجد أحد، ويحف جثمانها إلى مثواه الأخير قبل أن يوارى الثرى في مقابر مصر الجديدة نفر قليل من الرجال، ويجلس خارج المقبرة عدد أقل من النساء، وهو الذي توقع أن يكون في توديعها ألوف المسلمين ومئات المفكرين والكتاب والباحثين.. ويعزيه صاحبه: «لا تبتئس فإنها تشيعها الملائكة»... الدكتورة عائشة محمد عبد الرحمن.. بنت الشاطئ من تستقبلها أرواح علوية طاهرة من دار الفناء لدار البقاء، بعد أن خاضت في خدمة الدين والقرآن والحديث واللغة العربية ما لم تخضه كتيبة كاملة من العلماء الصادقين، بل من جيل علماء بأسره.. الراحلة العالمة عاشت ونصب عينيها الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.. وقد خشيت بنت الشاطئ الله وتصدت بشجاعة نادرة لتغدو من كبار العلماء والأمناء، وروى مسلم: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».

«عندما صادقني الكتاب طفلة وقرظني مدرس اللغة العربية بعبارة لا بأس مذيلا بها موضوع الإنشاء الذي كتبت فيه عن قرص الشمس المدرج بدماء معركة الغروب بين جيوش النهار والليل ليسقط مجندلا خلف الأفق، مسح والدي على رأسي مباركا تلك اللابأس ودعا لي أن يراني يوما أسير على درب بنت الشاطئ المعجب بها والمتابع لمؤلفاتها وكتاباتها في صفحات الأهرام. وبقي الاسم أمام ناظري هدفا أسعى للتمثل به لأحقق أمنية لمن أنجبني أنثى وكان يتمنى وأتمنى لو أنني كنت الذكر الذي يحمل الاسم ويمد الفرع ويشد الأزر ويذود عن حمى الأهل والديار ويعمل حسابه أزواج الشقيقات.. طيف والدي عاد من الأغوار طاغيا وملمس يده الحانية

بعث كأنه مروحة النسيم العليل على الجبين الملتهب لحظة أن قرأت خط الدكتورة بنت الشاطئ في إهدائها لي كتابها «صور من حياتهن» في طبعته الجديدة ضمن سلسلة أعمالها الكاملة. تحييني أستاذتي كابنتها وصديقتها وزميلتها متفضلة من مكانتها السامقة على واحدة ممن يسرن على خطاها ويتبعن هداها وقلت في سري تعال يا والدي شوف الهنا اللي بنتك فيه بعدما كتبت لي بنت الشاطئ ذات نفسها وبخط يدها: عزيزتي»!!

المتفردة أم المثقفين سيدة نساء العرب في عصرنا، أحد معالم القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين والقرن العشرين الميلادي فريدة عصرها.. وحيدة دهرها.. ودرة تاج زمانها. أستاذة الأجيال المتتالية.. أول سيدة تحاضر وهي سافرة في أروقة الأزهر، وتترجم موسوعتها «سيدات بيت النبوة» إلى الفرنسية والإنجليزية والأردية والإندونيسية، وأسلمت اليابانية تيرو كوتوكو ماسو إثر ترجمتها لكتابها عن فاطمة الزهراء إلى اليابانية، وكان الملك عبد العزيز آل سعود يلقبها بأميرة الصحراء.. التي أنجبها بيت على شاطئ النيل من فرع دمياط على مقربة من ضريح الشيخ شطا في السادس من نوفمبر عام ١٩١٣، وكان والدها الشيخ عبد الرحمن الذي يمتد نسبه إلى البيت الحسيني الشريف، ابن قرية شبرا نجوم مركز قويسنا محافظة المنوفية، قد استقر به المقام في سوق الحسبة بدمياط بعد زواجه بدمياطية حفيدة شيخ الجامع الأزهر إبراهيم الدمهوجي ليسبق مولد عائشةأختها البكرية من بعدها جاء شقيقات أربع وشقيقان.

ترتع الصغيرة في ملاعب الطفولة تحت الصفصافة النامية في اعوجاج الجسر، وتصنع بأدواتها الساذجة حمامة بيضاء بفرد جناح تسيرها مركبا ورقيا صغيرا يتهادى على سطح النيل الخالد لتزامل مسيرتها من فوق البر فاردة جلبابها ليملؤه الريح فيغدو الشاطئ في مخيلة الطفولة الخصبة منصة الانطلاق للطيران للأعالي لفوق السحاب.. وتحكي عائشة للماء ويهمس الموج بالحكاوي وتتأصل أواصر المحبة وتخاف الأم عشق الصغيرة للسطح اللامع المراوغ فتروي لها مأساة جدتها في شرخ الشباب التي كانت تجلس طويلا تتأمل على الشاطئ، وذهبت لتتوضأ

لصلاة الفجر فلا أقامت صلاتها ولا لدارها عادت فقد سحبتها أذرع الموج الهادر وتاهت صيحة استغاثتها مع الهدير لتهبط لمرقدها في القاع أو ليجرفها التيار للبعيد. . ومع الأيام غفرت عائشة لشاطئها ذنبا لا يغتفر، وتمادت بطبعها السمح في تسامحها معه بأن استعارت من اسمه اسمها الجديد بنت الشاطئ ائتناسا بأصدائه، وساترا تختفي من ورائه عن عيون التزمت المترصدة لكل من تخرج عن صف الحريم، وتوقع باللقب المستعار كلماتها التي تصيغها حروفا من نور وفيروز الشطآن.

أستاذتي الجليلة. . حياتها التحدي. . كنت واحدة من جيل ضحايا شهيدات كتب عليه أن يعبر الصراط الخطر ما بين أسوار الحريم إلى آفاق الحرية، تاركا في كل خطوة أشلاء شهيدة تعثرت خطواتها فوق المعبر الضيق وأغشى الضوء المباغت بصرها فضلت السبيل. . مشوار تعليمها الذي نحتته في الصخر سلسلة من التحديات الكبرى، فقد جاء رفض والدها قاطعا في مسألة خروج البنات للتعليم، وظفرت لها الأم بالإذن ممن لا يملك الوالد أن يعصي له أمرا. . جدها لأمها الشيخ محمد الدمهوجي الذي دفع غاليا في سبيل تعليم حفيدته، عندما أعيا جدي إقناع والدي في أول الأمر ذهب إلى جامع البحر يستعين بشيوخه على عناد أبي، وإصراره على حجزي في البيت، ولم أبلغ بعد سن الحجاب. . وطالت المجادلة بين جدي وأبي حتى صارت خصومة حادة، دون أن يتزحزح والدي عن موقفه. وخرج جدي منفعلا بالغيظ والغضب، فلم يلتفت إلى دابة كانت تعبر الطريق مسرعة أمام الجامع لحظة انصرافه، فألقت به على الأرض المرصوفة بحجارة صخرية، فلم ينهض على ساقيه بعد ذلك قط! ليمضي ما بقي من سنوات عمره كسيحا مقعدا. . ورق والدي للشيخ الكسيح في محنته، فتخلى له عني.

أقوم على خدمته وأعيش إلى جواره، وسكت على مضض، حين أرسلني جدي إلى المدرسة الراقية. . وتختزل عائشة بإرادة حديدية كل مراحل التعليم، وعندما تقدمت للالتحاق بمدرسة المعلمات بالمنصورة سحب والدها أوراقها في الخفاء، وعندما قدم جدها أوراقها إلى مدرسة اللوزي بدمياط رفض الوالد، فنزلت

عائشة على رغبته لتتابع تحصيلها ودراستها المنزلية لتحصل على كفاءة المعلمات كأولى الناجحات عام ١٩٢٩ ، وعلى البكالوريا القسم الأدبي عام ١٩٣٤ . . وتلتحق بقسم اللغة العربية كلية الآداب جامعة فؤاد الأول ، وتحصل على الماجستير عام ١٩٤١ ، والدكتوراه عام ١٩٥٠ .

بنت الشاطئ قلعة الفقه والفكر والتفسير والتحقيق التي قدمت للمكتبة الدينية أربعين كتابا والعديد من الأبحاث والمقالات والآراء اصطفت في رفوف المكتبة تسد عين الشمس ، وكان من أشهر أعمالها في الاتجاه الديني كتبها حول «سيدات بيت النبوة» و«قراءة واعية لفكر البهائية» ، وفي ميادين الكتابة الأخرى طرقت جميع المجالات فكتبت الرواية سيد العزبة ، وكتبت القصة القصيرة عن واقع المرأة في جيلها «صور من حياتهن» ، ونال الكتاب القصصي جائزة مجمع اللغة العربية للقصة القصيرة عام ١٩٥٣ ، وكتبت بنت الشاطئ رسالتها العذبة التي تصور فيها مشاعر الحب والأنوثة عند المرأة الشاعر والملهمة عن ابن زيدون وولادة بنت المستكفي ، وكان أول كتبها عن الريف المصري ، أما أشهر كتبها فهو «على الجسر - سيرة شخصية» .

وتتحدى الدكتورة صعوبة اختراق عالم أبي العلاء المعري ، فحصلت على رسالتيها للماجستير والدكتوراه عن حياته الإنسانية ومؤلفاته «رسالة الغفران ، الصاهل والشاحج ، الفصول والغايات» ، وظلت عائشة لأكثر من نصف قرن من الزمان واهتمامها بأبي العلاء لا ينقطع ، تجسده في خيالها لتحادثه وتحاوره وترنو نحوه وتخطو إليه ، وتقول يوما عنه : لو كان أبو العلاء حيا لنافس زوجي في حبي له ، ورغم عدم وفاق المعري مع المرأة ظلت عائشة تقول عنه : «أحببت فيه الصدق . . لقد رفض كل شيء لتسلم له كلمته النقية ، وقد اختلفت فيه مع الخولي ومع طه حسين ، فأنا أعتقد أنه ركل الدنيا بإرادته ، وهما كانا يريان أنه كان محصورا في أن يتزهد ، وهناك جهل بأبي العلاء الذي كان عدوا للزيف والإتجار بالدين ، وناقما على الساسة فناصبوه العداء وقوَّلوه ما لم يقله ، مثل أنه في كتاب «الفصول والغايات» نقد القرآن الكريم ، ولما قرأته وجدته وعظا من الدرجة الأولى ومواجد صوفية تسجد لله سبحانه وتعالى» .

وتحدت عائشة ابنة عبد الرحمن في القيام بتحقيق مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح، وهذا التحدى الكبير لا يشاركها فيه أحد، فالكتاب موسوعة في علم الحديث، تضم سبعين نوعا، وقد سبق عائشة عدد من المحققين لهذا الكتاب، ولكن أحدا لم يبذل الجهد الذي بذلته أو قام بالتصويب والترجيح والتراجم التي قامت بها، حتى بلغ عدد صفحات الكتاب بملحق تراجمه تسعمائة واثنتين وخمسين صفحة، وبتحقيق هذا الكتاب اقتحمت سيدتنا ميدان دراسات علم الحديث الذي نبغت فيه واجتمعت لها أدواته التي جعلت منها نابغة المحققين في عصرنا.

وليس هناك أشجع من تحديها لصاحب السطوتين القلم واللسان العملاق عباس محمود العقاد، الذي دخلت معه بنت الشاطئ في جدل تاريخي خرج كل منهما من براثنه مثخن الجراح، لكنها كانت أمتع معركة أدبية بين هو وهي على مستوى تاريخ الحوار الأدبي في مصر، الذي كتبت عنه بنت الشاطئ: «بدأت مبكرا في الكتابة بجريدة الأهرام، وكان لي مكتب فيها، وفي أحد الأيام التقيت الأستاذ العقاد في مكتب رئيس التحرير، وأسمعني كلمات تشجيعية تحفيزا لكاتبة ناشئة!.. سألني: هل قرأت كتابي (سارة)؟، قلت: لم أجد نفسي فيه، والأنثى أقرب إلى فهم طبيعة الأنثى من الرجل. قام من المكتب وأسر في نفسه هذا الرأي السلبي، وبعدها كتب «المرأة في القرآن الكريم» وشاعت آراؤه التي تجعل من المرأة بطبيعتها «غانية»، وحتى المهن التي ألفتها وأقرب إلى طبيعتها كالطبخ وتصميم الأزياء وتصفيف الشعر وحياكة الملابس لم تتفوق فيها، وتفوق فيها واشتهر الرجال، وهي آراء تنم عن عداء مبالغ فيه لجنس النساء، فهو كان يرى أن المرأة بطبيعتها قذرة، وفي مجالس اللهو أو حينما تتعرى فالمرأة عنده أقرب إلى الاستثارة الجنسية والخفة.

وهنا رددت عليه آراءه في مقال لي كتبته تحت عنوان «اللهم إني صائمة» وقلت: إن المرأة التي يتحدث عنها العقاد والتي تتردد على مجالسه لا نعرفها ولا نعرف الذين يعرفونها.. إضافة إلى ذلك.. من قال له إننا نتعلق بأن نكون طباخات أو

مصممات أزياء أو نعمل مصففات شعر أو حائكات ملابس بعد أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه من أستاذية في الجامعات؟!.. وقلت له: أنت لا تعرف المرأة لا زوجة ولا بنتا ولا أختا فهلا عرفتها أما؟!.. أما قولك بأن المرأة قذرة فالذي أعلمه أن أمهات الأنبياء جميعا نساء فهل هن كما قال؟!.. فرد عليّ كتابة: رأيي هو من رأي الله.. فكانت القاصمة الكبرى، وعلقت على كلامه قائلة: إن الرأي تردد وبين قبول وإيجاب، والكسبيات لا تسند إلى الله، فالله يحكم ولا يرى وإنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون. فما قاله العقاد مناقض لأصول العقيدة، فالله لا تجوز عليه الكسبيات كما قلت، وانتهي بالنسبة لي الحوار مع العقاد عند هذه النقطة، لأن ما وقع فيه من أخطاء قاصمة تدل على عدم معرفة فيما خاض فيه.. وانتهى شهر رمضان ليثير العقاد القضية ثانية، قائلا: إنني آخر من تتكلم عن جنس النساء لأني رضيت بتعدد الزوجات... فرددت عليه بمقال كان عنوانه «ما لم أقله في الصيام»، وقلت إن هذا الجنس الذي أنا آخره أعتز بالانتماء إليه.. وعلى العموم كانت معركة فيها مماحكة وتلاسن، وماذا أنتظر من رجل يفخر بأنه لم يدخل مدارس؟!».

وفي مسيرتها مع التحدي تتحدى بنت الشاطئ قلعة الصحافة لتدخلها من الباب الخلفي بعدما استشعرت الحاجة لبيبة محمد رئيس تحرير مجلة «النهضة النسائية» موهبتها فنشرت لها قصيدة بعنوان «الحنين إلى دمياط» وعدة مقالات، فقامت بدعوتها للقاهرة وقد حطت في مخها ما سوف يأتيها من خير أدبي ومادي بقدوم الدمياطية بأمشاط زينتها الدمياطي البراقة إليها، إلى جانب مساعدتها في حمل أعباء المجلة، فكانت دعوة ظاهرها حضارة وباطنها شطارة، لم تُشر بطلتنا سوى لجهدها المبذول فيها: «لبيت الدعوة على استحياء متهيِّبة لقاء هذه السَيدة التي تنتمي للطبقة الراقية، وكان قد بلغني من أنباء حياتها أنها تزوجت أول مرة من مرتضى باشا، ثم من أحد الأثرياء، وأن إحدى بناتها كانت زوجة لعبد الستار الباسل بك خلفا لفقيدة الأدب ملك حفني ناصف باحثة البادية، وحصل اللقاء وكررت الزيارة أحمل مقالاتي معي وأقوم بالمراجعة اللغوية لجميع مواد المجلة، وقد تكلفني السيدة الجليلة أحيانا بكتابة مقالها الافتتاحي، فأعد هذا التكليف شرفا لي وشهادة لقلمي.

ثم بدا للسيدة الجليلة أن تستغني، لأسباب لم أسأل عنها، عن خدمات مدير التحرير الأستاذ محمد صادق عبد الرحمن ومدير الإدارة السيد عقل، وعهدت إليّ القيام بعملهما معا، وذلك من عدد أكتوبر ١٩٣٣، وقد أدركت السيدة الجليلة بفطنتها حاجتي إلى مورد إضافي أستعين به على مواجهة نفقات تعليمي لكي أعفي أمي من المبلغ الذي تقتطعه لي من نفقات بيتنا المحدودة المتواضعة، فأصبح راتبي ٤ جنيهات في الشهر، وهو في تقديري مكافأة سخية على كتابة بريد المحلة، وإعداد موادها للطبع، وتصدير كل عدد منها بمقال افتتاحي أتفنن في إنشائه وأُوقِّعه باسم السيدة الكبيرة الجليلة صاحبة المجلة، ثم أحمل المواد كل شهر إلى مطبعة حجازي في الجمالية لأعود مرة أخرى فأصححها، وأخرى لأتسلم أعدادها ـ نحو ألفي مطبوعة ـ وأنقلها في عربة خيل إلى مقر المجلة في حي عابدين، وأكتب عناوين المشتركين على غلافها، ثم أحملها على دفعات إلى صندوق بريد المطبوعات على ناصية شارعي خيرت والمبتديان، وأتابع حركة البريد وتسديد الاشتراكات، وأحتفظ بالمرتجع حتى تعود السيدة الجليلة الحاجة من رحلتها السنوية إلى الحجاز، حيث اعتادت أن تقضي هناك نحو ستة أشهر».

وتغري الموهبة ابنة دمياط للسباحة خارج مجري السيدة الحاجة الجليلة، فترسل بقصصها القصيرة لتنشر في صحيفتي «البلاغ وكوكب الشرق»، أما مجلة الهلال فتعيد لها قصتها مع بطاقة اعتذار باسم إميل زيدان، وتبدأ مشوارها الصحفي مع الأهرام منذ عام ١٩٣٦، مع أنطون الجميل لتظل تكتب على مدى ستين عاما بابها الشهير «شاهدة عصر» لتستمر تكتبه بلا انقطاع حتى الخميس السابق لوفاتها عصر الثلاثاء أول ديسمبر عام ١٩٩٨ .

التحدى جزء من فطرتها، وشطر من تكوينها، حتى إنها تحدت الغضب والشعور بالظلم لتسمو فوق الجحود وعدم الاعتراف بالجميل. . وعلى كثرة ما قدمت في حياتها العلمية، وعلى ضخامة ما أنارت سكة الباحثين، وعلى كثرة ما كرمها الملوك والرؤساء والأمراء والدول، فإن العارفين بفضلها وقدر منزلتها يهزهم الألم الدفين، فالموقعان اللذان كان ينبغي أن تشغلهما العظيمة الكبيرة العميقة

الكريمة بنت الشاطئ في مجمع اللغة العربية ومجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف ظلا شاغرين حتى موتها، ومن عجب العجاب ألا تدخل عائشة مجمع اللغة وهي إمام اللغة. . وقد استحقت عن جدارة أن تتبوأ مكانها في مجمع الخالدين، ولكن أعضاءه آثروا أن يبقي مكانها أبدا شاغرا، ولم يتسع لها صدر مجمع الفقه الإسلامي الأزهري رغم مكتبتها الإسلامية التي لا حصر لها ولا مقارنة بها. . المترفعة دوما التي لم يتسع لها صدر مجامع تشرف بأن تكون نوارتها عائشة، فاتسع لها صدر المغرب العربي كله لتمكث في هجرتها المباركة لديه معززة مكرمة عشرين عاما، تفتحت فيها قلوب المغاربة لها، فأحبوها وعرفوا قدرها ونهلوا من فيض علومها، فأسلموا لها قياد التكريم والأستذة.

وتظل بنت الشاطئ في تحديها. . حتى لأحزانها. . وفجأة، تتفرغ لكتابة كلمتها الأخيرة تكاشف الناس فيها قبل الرحيل بمأساة حياتها، وتذكر ما لم تذكره قبلا في سيرتها الذاتية، فتصرح ولا تلمح، وتواجه ولا تداري، فقد كانت في السابق تتعزى بفقد الزوج والحبيب والأستاذ وفقد الابن والبنت بالتجلد، وإذا بالتجلد ينقلب إلى تبلد، والشجاعة عندها التبست بالمكابرة، لكنها في أخرياتها بعد ما تشققت قشرة التحدي وانهزم درع الاحتمال، تعترف بأن هذا كله كذب وزيف وغرور، وقد آن لها أن تسجل حقيقة انتمائها المؤلم لبيت الأحزان المسكون بالموت. . تقول: «كنت أرقب ابنتي أمينة من بعيد وأحس بأنها لن تعيش منذ مات والدها، كانت تدرس الدكتوراه في فيينا، فأبت أن تخذل ذكراه وأتمتها، وعلى الرغم من اشتداد مرض السكر عليها كانت كلما أصابها منه الوهن تقول لنفسها «عيب يا أمينة بابا يزعل»، كانت نابغة ومتفوقة بشكل غير عادي وحصلت على الدكتوراه في الفلسفة والرياضيات والبحث والشخصية المقارنة بمرتبة امتياز.

فكانت أول طالبة تحصل على هذه الدرجة في تاريخ جامعة فيينا التي قررت أن من حق هذه الطالبة أن يسلمها رئيس الجمهورية شهادة الدكتوراه، فما كان من ابنتي أمينة إلا أن اعتذرت عن هذا الحق وطلبت أن يسلمها الشهادة مدير الجامعة، لأنه في رأيها أولى بها، فهو عالم في الرياضيات، ويمثل الشخصية العلمية في الجامعة،

بينما هي لا تمثل لرئيس الجمهورية سوى طالبة أجنبية متفوقة . . وذهب ابني أكمل إلى الموت في زهو شبابه جراء طلقة نارية اخترقت يده واستقرت في دماغه، ذهب إلى الموت عن طريق الخطأ بيده وببندقيته التي اشتراها حين انتشرت جرائم سطو على البيوت، على الرغم من أني كنت معترضة على شرائها، لكن أحد الأشرار أمن له إحضارها، وهكذا صدق توجسي . . ولا أملك الآن سوي التجلد الذي استحال إلى تبلد».

بنت الشاطئ تحدت كل شيء لكنها لم تستطع تحدي الحب. التقته في الجامعة لتوقن عن إيمان عميق بأن حياتها كانت قبل معرفتها به طريقا إليه، وبعد رحيله انتظارا للقاء الثاني به في الحياة الآخرة - أستاذها وزوجها وسيد قلبها الشيخ أمين الخولي ١٨٩٥ - ١٩٦٦، خريج مدرسة القضاء الشرعي، الذي ذهب في بعثة إلى أوروبا وتأثر بحركات التجديد الديني، وشغل منصب مدير عام الثقافة، وأصدر مجلة الأديب عام ١٩٥٦، وأنشأ جمعية الأمناء وكان أمينها، ومن مؤلفاته «المجددون في الإسلام» - الحبيب الذي تقول عنه: «وتجلت فينا ولنا وبنا آية الله الكبرى الذي خلقنا من نفس واحدة فكنا الواحد الذي لا يتعدد، والفرد الذي لا يتجزأ، وكانت قصتنا أسطورة الزمان، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا، وهيهات أن تتكرر إلى آخر الدهر» . . . . ولا تكتفي عائشة بلغة السرد في الحب بل تكتب الحب شعرا بلا قافية:

«اثنين، لكل منهما اسمه ونسبه ولقبه وصفته وصورته، وعمله وشخصيته . . وبهذه الثنائية العددية يتعاملان مع الناس والدنيا . . ولكنهما في جوهر حقيقتهما واحد لا يتعدد . . لا كما تخيلت الأساطير عن النفس والقرين . . ولا كما تغنى الشعراء بالروح الواحدة في جسدين . . ولا كما تمثل الصوفية رؤيا الفناء في ذات الحبيب . . ولا كما تحدث العلماء عن الخلية الواحدة قبل أن تنقسم . . وإنما هو سر وراء ذلك كله . . سر تجلت فيه آية الله الذي خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها».

ويسألونها عن زواج الحب؟ فترد: «الزواج من الطبيعي أن يسبقه حب، ولقد كنت أتمثله وأنا في الطريق إليه، وكنت ألقاه قبل أن ألقاه، وبالفعل فإني قد تزوجته

على ضرة، ولكني حينها نضجت على هذه السن التي تمنعني ضرة من لقائه . . كنت أشب وأرتفع لأصل إليه، والحب والكره داخلان حتى في علوم أصول الفقه، ومما قاله الشاطبي في الموافقات : «القلوب بيد الله» . . ولقد خضع أبي لرقابتي ستين سنة فلم يختل فيها سلوكه شعرة واحدة في ناظري، لكني وجدته في شيخوخته، وهو الشيخ المتصوف الذي أفنى عمره في الطاعات والتقرب إلى الله بالعلم، يردد حينما يتذكر أمي :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

لقد مضى وبقيت . . رحل الزوج الذي كان لا يناديني إلا بالأستاذة، ولا يجري ذكري على لسانه إلا بالدكتورة . . وعلى عيني، حملوه من دارنا إلى غير عودة، ومضوا به إلى قريته شوشاي في ريف المنوفية فدفنوه في ترابها الذي جاء منه وإليه كان المآب» .

وترحل بنت الشاطئ إلى الشاطئ الآخر . . شاطئ الخلود . . رحلت وكتابها بيمينها . . ذهبت من وهبت حياتها بسخاء للإسلام دينا وعقيدة وفكرا وتراثا، ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام . . استدعتها الملائكة بأمر ربها يا ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ صدق الله العظيم . . ذهبت عائشة عبدالرحمن . . بنت الشاطئ . . ذهبت وبقيت كلماتها .

خالد محمد خالد

فتح الشيخ حسين اللفافة ووضعها جانبا ومن بعد الغداء جاء موعد تسميع القرآن، فانبرى شقيقه طفل الثامنة يتلو ما حفظه من السور، بينما الشيخ مشغول بتفريغ اللفافة من محتواها الجهنمي، فإذا بها كرباج له خاصية متفردة، فالعادة أن يصنع من التيل المجدول أو الجلد وأن يكون طويلا بنهايات متحررة حتى يكون نصفه للضرب الجاد والنصف الآخر فرقعة تهويش، أما كرباج حسين فقد صنعه له خبير محترف في فنون التعذيب، فهو من سلك الكهرباء المكثف والمجدول والقصير الذي لا تعنيه فرقعات الهواء، فالمبتغى منه إنزال العقاب الجاد، وهذه النوعية اللاإنسانية يطلق عليها في الريف اسم الزخمة.. وما أدراك ما الزخمة فوق أجساد العصافير!!.. وعلى الرغم من وصية الأب بألا يضرب الصغير إلا في حالات الضرورة القصوى وبخاصة في الليل قبيل النوم حتى لا تأتيه الكوابيس، فإن الشيخ حسين كان في منهجه التعليمي يقوم بالضرب في آناء الليل وأطراف النهار وجميع الليالي والصباحيات.. جميعها.. كلها.. مواقيت للحفظ يستوي في ذلك قبل النوم وبعد النوم وأثناء النوم.

وبتلك الطريقة أتم خالد محمد خالد حفظ القرآن في الزمن الذي قدره الشيخ حسين.. خمسة أشهر.. ليتسلمه من بعدها الشيخ محمد ليعلمه التجويد وأحكامه من غن ومد وإدغام وإشباع.... إلخ.. وتبقى الزخمة في يد الكبير لا للتسميع فقد تم الحفظ، وإنما للتهذيب والإصلاح الدوري حتى من بعد الانتقال إثر تصدع البيت للسكن في رواق الشراقوة في مسجد الأزهر.. وتتردد صرخات الطفل تحت وطأة الضرب المبرح فإذا ما احتج إخوان الرواق على هذا الإيذاء، يسحبه الأخ إلى جنبات الجامع الفسيح ليتخير مكانا قصيا يستطيع فيه أن

يتجول بزخمته بعيدا عن تدخل الفضوليين واسترحامهم. . وينجح خالد في امتحان القبول في معهد القاهرة الأزهري ليأخذ مكانه بين طلبة السنة الأولى الابتدائية، ويرفع الشيخ حسين الزخمة إلى فمه يشبعها لثما وتقبيلا ومناجاة: لولاكي. . لولاكي. . لولاكي ما حفظ!! فهل تبقى المعرفة بهذه الوسيلة طويلا؟!. . إن الحكمة الموجزة تقول من جد وجد، بينما كانت مدرسة الشيخ حسين وأمثاله تضيف ومن جُلد اجتهد، ولقد كانت في كثير من الأحوال مسألة تربية أكثر منها تدينا، وطريقة لَضبط اللسان والتمكن من اللغة، فالفرنسيون على سبيل المثال لا يدخلون على أطفالهم حتى آخر المرحلة الابتدائية أية لغة أخرى غير الفرنسية ليتم تغلغلها في أسماعهم وأقلامهم، بينما نحن في زمن المباهاة مع أجيال لم تحفظ القرآن ولم تسمعه بنطقه العربي الصحيح نربي أطفالنا من فترة الحضانة بمنطق عقدة الخواجة فنقول لابن الثالثة: قوم يا هني - يا عسل - هات الشوز بتاعك وبطل تلعب في النوز. . هذا بينما جلس مندوب اليمن في عام ١٩٤٧، مع افتتاح جامعة الدول العربية عندما طلب منه إلقاء خطابه جلس يقرأ سورة البقرة على الحضور لمدة ساعتين، فلم يكن عنده حاجة ثانية يقولها من بعد ثقافة الحفظ والتسميع، وقد امتدت عقدة الخواجة تلك إلى خريجي الأزهر أيضا، حتى إن المفكر الكبير أحمد أمين والد الأساتذة جلال وحسين أمين كان يحيي أبناءه الجالسين مع الأصدقاء عند عودته للمنزل قائلا بنسوار، ويتعمد بعض الكتاب الأزهريين الذين درسوا الإنجليزية على طريقة القط كات والفأر رات والنهر يدعى عندهم ريفر، كتابة أسماء الأساتذة الأجانب والمراجع الخارجية - بالإضافة للحروف - باللاتينية كنوع من التميز أو رد فعل ثقافة ضاغطة كانت على الرجل منهم في طفولته. . ولقد استشعرت بعضا من تلك اللازمة المضادة للثقافة الضاغطة في كتابات المفكر خالد محمد خالد الذي لم يخل له كتاب في علوم الإنسان والاجتماع والسياسة من استحضار أرسطو وسقراط وبسمارك وكوبرنيكس والفيلسوف ديوجينز، وكما يقول كونفشيوس، واكتشاف كارل ماركس للمنطق التاريخي، وفلاسفة اليونان ديمقريطس وليوسبس وأبيقور والروماني لوكريتيس وللأسف أن الطفل في مثل حالة الإجبار على الحفظ يتحول إلى جهاز كاسيت يردد

آليا مخزونه كما تم شحنه به، وكما حفظ خالد القرآن كله في مثل تلك السرعة الخارقة فقد نسيه كله في سرعة خارقة أخرى مماثلة، فالطبيعة الإنسانية بكل غرائزها ونزعاتها وارتباطاتها إذا ما أضيف إليها طبيعة الزمن تغدو جبارة حين تثأر لنفسها ولرعاياها. . وإنا لنطالع في سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه حفظ سورة البقرة في بضعة أعوام. . لا لضعف ذاكرته أو هبوط همته، ولكن لأنه لم يكن يحفظ بالذاكرة وحدها، بل بالقلب والعقل والضمير معا. . ولم يكن يحفظ القرآن كله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى نفر قليل لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. . وفي هذا المجال يذكر أنه عندما قيل للإمام محمد عبده إن فلانا قد حفظ القرآن فجاء رده: «كويس لقينا نسخة جديدة». ولقد أنبأ الله رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بأن كل شيء عنده بمقدار، رفع القلم ووضع التكليف عن الطفل حتى يبلغ الحلم. . أفلا يكفي هذا لفتح أبصارنا عن حقوق الطفل في الرفق، والرحمة، وفي ذكاء التوجيه، ورقة المساءلة. . وحتما كانت نيات الشيخ حسين طيبة يتعامل ويتناجى بها مع الجنة مباشرة بعدما سمع عن رسولنا صلى الله عليه وسلم أن من أحفظ مسلما آية من القرآن، أو علمه مسألة من العلم دعاه الله جل جلاله أن يختار من غرف الجنة أحسنها وأبهاها. . ويسأل المفكر الإسلامي الكبير خالد محمد خالد عن مصير علوم الأزهر التي بدأ معها بداية سيئة قال: «إن الذي معي منها هو ما قرأته ودرسته وحصلته فيما بعد عن طريق القراءة الحرة، أما ما أثقل ذاكرتي بمحفوظات في الفقه والنحو والتوحيد وبقية العلوم فكانت المحفوظات السريعة التي غدت منسيات سريعة». وعندما أتيح لصاحب الخمسين كتابا وهو في الرابعة عشر، أن يدخر خمسة قروش من مصروفه الضعيف مضى يحمله ممتلئا مختالا بثروته يجوس بين مكتبات ميدان الأزهر ليختار بغيته التي لم تكن كتابا أدبيا في النثر أو الشعر، أو كتابا دينيا، أو في علم البلاغة أو اللغة، فقد أعرض عنها جميعا ليحتضن كتابا مترجما عنوانه «مذكرات لورد جريبي» وزير خارجية بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى. . كتاب أبعد ما يكون عن ثقافته واستعداده بعد أن تحررت ذاكرته من الحصار الذي كان مضروبا عليها، كما تحررت من عبودية الحفظ وتفتحت نوافذها لتهب عليها الرياح من الجهات الأربع. .

الشموع السبع أضيئت في عام ١٩٢٠، للوليد المكتوب عليه الاستنارة لتسمى كل شمعة منها باسم مختلف عن الأخرى كعادة أهل الريف في قريته العدوة مركز ههيا مديرية الشرقية بعاصمتها الزقازيق ـ التي منحها محمد على اسمها تحية وتكريما لآل زقزوق الذين استضافوا بناة القناطر الخيرية ـ وتنطفىء الشموع تباعا بفعل الذوبان ليطلق اسم الشمعة التي صمدت حتى النهاية فترحل عن الحياة ناقلة اسمها للقادم الجديد إلى الحياة وكان. . خالد. . ابن الشيخ محمد خالد ثابت، سليل عائلة ثابت ووالدته من عائلة مكاوي، من كان بمثابة مدرسة المعارف الأولى لمفكرنا الكبير الذي كان يشرح للصغير من نافذة القطار كل صغيرة وكبيرة، والفارق بين شجرة الجميز والصفصاف معقبا أينما ولى ببصره في قدرة الخالق ونعمته تعس من كفر بالله. .
ومن نافذة القطار كان درسه الأول مع الحرية والديمقراطية، ومواطنون لا رعايا والضمير الإنساني في مسيره ومصيره، وإنه الإنسان ونحن البشر، وفي البدء كانت الكلمة، ومن هنا نبدأ وإلى كلمة سواء. . فقد رأى عربة يركبها أفندي مسترخيا بشمسية تحميه من الشمس الحارقة يدفعها بالعدو السريع رجلان يرفع أحدهما ذراعه بين الحين والحين ليجفف عرقه بأحد أكمامه فسأل عنها ليجيبه الشقيق بأنه مفتش القضبان في مروره اليومي.

ـ ولازم الآدميين هم اللي يسوقوا العربة، ويجروا ويتعبوا، وهو مجعوص كده زي عمدة بلدنا؟!

ـ الدنيا كده يا عم خالد. ناس فوق وناس تحت. ناس ينجعصوا وناس ينفعصوا! والذى نراه الآن مجعوصا سيكون في مكان آخر ومع رؤسائه الأعلى منه مفعوصا. . الطفل الأزهري الذي ارتدى الكاكولة والعمة وطوله نصف متر وهو لم يبلغ التاسعة، ذهب العيال وكأنهم يرون فيه إحدى عجائب الدنيا يصيحون به:
«شد العمة شد. . . . تحت العمة قرد. . شد العمة يا أستاذ تحت العمة وابور جاز».
في اليوم التالي كان يخلع عمامته ليخفيها داخل حقيبة كتبه الصغيرة ليلتقط منها الطاقية لتكون بدل فاقد، وعلى ناصية مسجد الأقمر بالجمالية ما بين بيت القاضي وباب الفتوح كان يعيد كل شيء إلى مكانه، الطاقية إلى الحقيبة والعمامة إلى

الرأس . . الأزهري من بعد التحاقه بوظيفة التدريس وحصوله على شهادة العالمية من كلية الشريعة عام ١٩٤٧، ليعين مدرسا حتى عام ١٩٥٦، قام بتوديع العمامة والكاكولة مقبلا على الجاكتة والبنطلون، بدافع أن الوظيفة المدنية بداية المطاف ونهايته، فلا بد وأن يلبس لها زيها المألوف . . وحاول الوالد زجره، ومن بعدها إقناعه :

ـ طاوعني وإنت حتبقى شيخ الأزهر .

ـ وما يدريك أنني أريد أن أكون شيخا للأزهر؟

ـ أمال عاوز تبقى إيه؟

ـ عاوز أكون خالد محمد خالد .

ـ وهل هناك فارق في أن تكون شيخا للأزهر، وخالد محمد خالد؟

ـ الفارق كبير جدا، ومعرفتي بنفسي تخبرني بأنني أفقد ذاتي في أي منصب كبير أتولاه . . خالد الذي راح يقرأ ويقرأ ويقرأ ليجذبه الفكر الأوروبي إليه ويعترف بأنه في طريقه إلى البحث عن الحقيقة منح عقله ما يسمى «كارت بلانش» أي حرية التصرف والاختيار، ويذكر في أحد أوقات عناده وتمرده : أن قلت لنفسي وكأنني أخاطب شخصا أمامي : اذهب وابحث كما تشاء عما تشاء . . ثم عد إليّ متوشحا بالإيمان . . أو مغرقا في الإلحاد . . أو لا أدري بين هذا وذاك . . وعاد إليه العقل وهو يحمل للدين الخالص ولاء موضوعيا . . لا ولاء تقليديا . . ولاء الريادة والاقتناع، لا ولاء التبعية والاتباع .

ويسأل خالد محمد خالد نفسه قبل أن ننحو نحن باللوم عليه : كيف توفق بين إيمانك بالديمقراطية وبين رثائك الطاغية ستالين يوم مات بمقالة جعلت عنوانها : طبت حيا وميتا يا رفيق»! . . ويجيب على نفسه معترفا بخطئه في اختياره العنوان : «حتى لو لم يكن ستالين طاغية فتلك التحية المودعة قالها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين سعى إلى جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه الشريف وقالها : طبت حيا وميتا يا رسول الله، وما كان ينبغي لي أن أودع

بها ستالين أو غيره من الناس واللهم غفرانك». ويمضي خالد في ندمه مسترسلا بأنه حين رثى ستالين لم تكن رائحة طغيانه قد فاحت بعد، وكنا نحمد له مناصرته لنا ضد من يستعمروننا، فقد ناصرنا أيام المؤامرة ضد فلسطين والعرب عندما أرسل مع مندوبه في مجلس الأمن نصيحة للنقراشي في أن يقبل مشروع التقسيم قبل أن ينجز الغرب مؤامرته الكبرى لتمكين إسرائيل من فلسطين كلها، ووقف مع النحاس عندما ألغى معاهدة ٣٦ معلنا مشروعية هذا الإلغاء معترفا بحقنا فيه، وكلف وزير خارجيته بتبليغ النحاس بأن بلاده على استعداد بمد مصر بالسلاح عندما بدأت المقاومة ضد الإنجليز.. وعندما وقف خروشوف يحكي الكثير من مخازي ستالين ودكتاتوريته سحبت السجادة التي كنت قد فرشتها له وأنحيت عليه باللوم.

خالد محمد خالد الإعصار الثقافي الثوري لاستنهاض همة المسلمين ليهبوا ويصنعوا فجرهم المشرق الذي كفله لهم الإسلام الصحيح ونبههم إليه ورسم له الطريق في قرآنه الكريم وسنة نبيه العظيم. خالد كان هدفه إسلاميا محضا بكل معنى الكلمة.. أن تتخلص البلاد من الاحتلال، وأن يتحرر الناس من بطش الحاكم وظلمه، وأن يعاد توزيع الثروة القومية على أسس اقتصادية علمية تكفل الحياة الكريمة لجميع الناس كل حسب قدراته ومؤهلاته، وأن تتقارب المسافات بين الفقر المدقع والثراء الفاحش، وأن يكون العلم حقا لكل مواطن، وأن تسترد المرأة كيانها الإنساني، وأن يحترم كل إنسان عقيدة الآخر المشارك له في الوطن والوطنية، وأن تشيد العلاقة بين الحاكم والمحكوم على جسور الرحمة والمودة واحترام إنسانية الإنسان.. أن يحدث كل ذلك فهذا هو جوهر الإسلام.. من كان في رأيه أن السياسة في الإسلام عبادة، وفي شريعة الإسلام قاعدة خالدة تقول: «الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه، فمن لم يقتنع بأن الديمقراطية المعاصرة بخصائصها وعناصرها مما دعا الإسلام إليه وحض عليه فلا أقل من الاقتناع بأنها المسكوت عنه، والمعفو عنه». خالد السابح ضد التيار الذي تلفع بشجاعته وحدها ووقف يحاور عبد الناصر وهو في عنفوان مجده وذروة قوته ثلاث ساعات سويا في

حوار مشهور عام ٦٢، كان مسرحه اجتماع اللجنة التحضيرية لمؤتمر قوى الشعب، أما موضوعه فكان العزل السياسي الذي ارتأى عبد الناصر وقتها أن يطبقه على من رأى أنهم يقفون بأفكارهم وبمصالحهم الخاصة وبارتباطاتهم الأسرية والحزبية ضد ثورة يوليو وأحلامها، وكان خالد على عكس ناصر يرى أن عفو الثورة عن هؤلاء أجدى للثورة ولمسيرتها من كل عقاب.. ثلاث ساعات يجادل عبد الناصر وذاك في حد ذاته كان عملا خارقا ومذهلا.. بعدها خسر المعركة لكنه كسب احترام الجميع وعلى رأسهم ناصر نفسه على الرغم من أن خالدًا كان قد أتعبه وأرهقه.

وفى حوار صحفي يروي الابن أسامة خالد عن والده فيقول: «لقد عانى أبي مدة طويلة من الاكتئاب وتوقف عن الكتابة ما يقرب من عشر سنوات بعد أن بدأت بوادر المرض تزحف إليه في أعقاب موقفه مع عبد الناصر، فقد كان يتصور أنه كان بإمكانه أن يؤثر عليه ويقنعه بالديمقراطية كما أقنعه في مجالات أخرى وأثر عليه بشأن تحرر الفلاح والمساواة الاجتماعية التي طالب بها في «مواطنون لا رعايا» - الكتاب الذي اشترى منه عبد الناصر نسخا كثيرة من جيبه الخاص وقام بتوزيعها بنفسه على زملائه مبديا إعجابه بالكتاب وصاحبه - ذهب أبي ليقول كلمته فلم يجد أحدا من أصدقائه بجانبه ولو كان عبد الناصر قد أودعه السجن لكان أرحم من العزلة بين الناس».

خالد النادر في الاعتدال ومراجعة الذات، فقد كان المتدين المعتدل والمثقف الشجاع.. من كانت لديه لباقة الاختلاف مع الاحترام، وهو الفارق بين المثقف النزيه الذي يرد بوجهة نظر أخرى، والسفيه الذي يقوم بالتجريح.. وما كان أجمل من اختلاف في الرأي عندما قال خالد محمد خالد «من هنا نبدأ» فرد عليه الشيخ الغزالي «ومن هنا نعلم»، ولم يفسد الاختلاف للود بينهما قضية بل ظلت الصداقة بينهما وطيدة.. وكان قد مضى على صدور الكتاب المثير من هنا نبدأ ثلاثون عاما عندما كتب خالد في مذكراته بعنوان «قصتي مع الحياة» يقول: «إن حركة الترحيب بالكتاب لاسيما في الخارج جعلتني أسأل نفسي: أتراني قدمت للشانئين على الإسلام - المتحاملين عليه والكارهين له - ما أثلج صدورهم وسرهم إلى هذا المدى

من الترحيب المريب» . . وروى الأستاذ خالد في مذكراته كيف أنه أمضى سنوات يفكر ويناقش مع نفسه الحقيقة الموضوعية والتاريخية لمكانة الإسلام، وبين كونه دينا وكونه دولة وعلى حد تعبيره فإن البحث أفضى به إلى أن هناك فارقا شاسعا ومسافة بعيدة جدا بين الحكومة الدينية والحكومة الإسلامية. فالأولى يضرب لها المثل بحكم الكنيسة في ظلمات القرون الوسطى في القارة الأوروبية، والثانية يضرب لها المثل بحكم الرسول والخلفاء الراشدين، وخلص إلى أن الإسلام لا يعرف الحكومة الدينية التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى واكتوت بنارها حين حكمها البابوات، إنما يعرف الحكومة الإسلامية التي لم تترك صغيرة ولا كبيرة من احتياجات البشر إلا لبتها وغطتها وقالت فيها كلمة الفصل . . ومراجعة الأفكار شيء مختلف عن النفاق بالأفكار، بمعنى أن صاحب المراجعة يغيِّر رأيه ويبدله ويتراجع عنه مقتنعا بأنه كان على خطأ ويحق له التصويب، أما صاحب المنافقة فيغير رأيه ويبدٍّله مع تبدل الظروف ومع اتجاه الريح ولكي يمنح نفسه الأمان . . الأمان الاجتماعي وليس الأمان الفكري. الأمان الذي يجلب له الريالات والدراهم والدينارات.

خالد محمد خالد صاحب المدرسة الخاصة في مناقشة الشخصيات الإسلامية التي فيها يتفاعل مع تلك الشخصيات بطريقة درامية، ولو امتد بخالد العمر وعاش في زمن دراما الفضائيات لكان أفضل كاتب للدراما الدينية في العالم العربي كله فقد كان يكتب عن تلك الشخصيات مثل كتابه «رجال حول الرسول» وكأنه واحد من أهل ذلك الزمان، لم يكن ينظر بعين الطائر المحلق على العصر الإسلامي الذي يناقشه، لكنه كان يكتب بروح مواطن من تلك العهود ينفعل ويتفاعل مع الأحداث . . وليس في تحليله متدرجا بمشرط وقلب جراح بارد لكنه المنفعل المقتحم الذي يعكس إليك انفعاله وهو في ذلك مختلف عن تحليل العقاد . . يكتب ببلاغة متفردة، فتشعر مع كلماته بصوته المجلجل يقدمها لقارئه جاهزة التشكيل وكأنه يريد مساعدته على صحة قراءتها . . يقدمها له صوتًا وصورة، فتقرأه وأنت تتمشى بصوت عالٍ لتستمتع بالدراما في الهواء الطلق مؤثرا ومتأثرا.

حتى النهاية يصعد خالد محمد خالد وهو في السادسة والسبعين على درجات السلم الحلزوني الضيق لشقته المتواضعة فهو العفيف الذي دافع عن الكويت عند غزوها فاتته حقيبة المكافأة فرفضها في كبرياء أهل العلم، لتشتد به آلام الكبد ولا يجد الأطباء منفذا سوى اللجوء إلى زراعة كبد جديد. . ويطير الخبر لولي عهد المملكة السعودية آنذاك الأمير عبد الله بن عبد العزيز فيصدر قراره بعلاجه على نفقة الدولة. . لكن رئيس الوزراء المصرى وقتها الدكتور كمال الجنزوري كان قد قرر علاج ابن مصر على نفقة مصر سواء في الخارج أو الداخل. . ولم تحتمل حالة الفارس الكبير لا المجازفة بالسفر ولا إجراء العملية في الولايات المتحدة، فينتقل ليستقر به المقام يواصل علاجا يواكب تطورات المرض العضال في مستشفى المقاولين العرب بالقاهرة. . ويذهب البابا شنودة ليعوده قبل وفاته بأيام فيدور بينهما الحديث عن صفاء النفس التي عبر عنها البابا بقوله: «أحب حياة الخلوة والوحدة مع الله أكثر من الجولان في الأرض، ففي الخلوة تصفو نفس الإنسان ويصفو فكره ويستطيع أن ينتج، وأنا في اعتقادي أن تعب الإنسان يأتيه من داخله وليس من الظروف الخارجية». . . ويرد خالد محمد خالد: «هذا يعني أن الإنسان مشكلته نفسه، وهذه المشكلة قام بحلها الإمام الشافعي رضي الله عنه ببساطة وذكاء في قوله: أتعب ليه؟ وأشقى ليه؟ أنا إن عشت فلست أعدم قوتا، وإذا مت لست أعدم قبرا، فعلام إذًا أذل للناس نفسي، وعلام أخاف زيدا وعمرا، همتي همة الرجال، ونفسي نفس حر ترى في المذلة كفرا، وهذه المبادئ الثلاثة تخلق أروع وأصدق صيغ الحياة. . ليس أجمل ولا أرغد ولا أفضل من الخلوة مع الله، وقد كان في زمان لنا صديق شاب يدعى سعيد وهو شقيق عبد القوي باشا وزير الأشغال في وزارة على ماهر، وكان قد ذهب إلى السودان وحصل على الجنسية المزدوجة، وأخبرني بقصة لم يقلها لأحد سواى، فلقد دخل خلوة بأمر شيخ وكان يذكر الله ويسبح ويصلي، وأقسم لي أنه في بعض الأيام كان يسمع الحصى تسبح بحمد الله بصوت وحروف وكلمات، وهذه نعمة الله على كل قارع لبابه سواء أكان مسلما أم يهوديا أم نصرانيا، فالله رب العالمين وربنا مش بتاع أقليات». . ويرد البابا شنودة: «نحن نؤمن بأن الطبيعة كلها تسبح لله، وفي

المزامير يقال: السماوات تتحدث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه.. ولكن طريقة التسبيح تختلف من كائن لآخر، فطريقة تسبيح الطبيعة تعطي فكرة عن قدرة الخالق وعظمته، وأذكر في مرة عشت فيها في مغارة بالجبل فأحسست بجمال الليل وهدوئه فقلت:

هدوء الليل موسيقى وأنغامه تداعبني
وصوت الريح في رفق يصب اللحن في أذني»

ويعقب خالد محمد خالد بآية من القرآن الكريم: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ** ﴾ تسبيحهم صدق الله العظيم.

ولا تجف الأسئلة لصاحب الفكر حتى ساعاته الأخيرة: «أنا اجتهدت وأصبت وأخطأت.. الإنسان مأساة عظيمة.. لقد كنت فقيرا وراتبي لا يكفيني وأعول ثلاثة أطفال وأعاون إخوتي ولكني عندما كنت أمسك بالقلم كنت أشعر بأنني ملك لأنني جزء من حضور شعبي.. كلنا حطب جهنم التي نوقدها بأيدينا ثم نقول في بلاهة: كوني بردا وسلاما كما كنت على إبراهيم.. إذا قلنا إن أي كاتب ليس بيده أن يحرك طوبة واحدة في البناء فهو اليأس في أشد درجاته كأن أذهب إلى الطبيب فأجده مريضا.. قل كلمتك لكن لا تفرض كلمتك.. اقرأ قراءة الأحرار لا قراءة العبيد.. اقرأ لتكتشف نفسك لا تفقد نفسك.. الإيمان بالله ملاذ ولا أقول عزاء.. نحن لا نبدأ من فراغ.. ومن هنا نبدأ».

البحر الزاخر

الشيخ مصطفى عبد الرازق

تظهر فتحة البوابة الكبيرة هيئته قادما مهيبا شامخا لا يكاد شق الجبة ينفتح مع وقع خطاه الوقور، وقد يتندى جبين الفهم عرقا لكن اليد لا ترتفع لإزاحة العمامة للخلف كي لا تهتز صورة الشيخ الجليل المكوكل المعمم. . وقبل ارتقائه الدرجات لا تفوته نظرة فوقية خاطفة لساعة الجامعة تعقبها نظرة رضا لانضباط ساعة اليد عليها. . ومن قبل أهبة دخوله المدرج الرحيب تحدث الجلبة بين الصفوف. . الشيخ قادم. . الأستاذ نظر لساعته. . وتعتدل الصفوف لتهب واقفة لحظة المواجهة لتشير اليد للجمع بالجلوس بعد التحية، فيلبي الخمسة الإشارة ويردون التحية بأحسن منها. . تلامذة خمسة كانوا هم قسم الفلسفة بكلية آداب جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة الآن ـ على رأسهم الدكتور مصطفى الخشاب التلميذ والحواري والصفي للأستاذ الدكتور الباشا الشيخ مصطفى عبد الرازق، من كان بمجرد دخوله حرم الدرس يخلع العمامة الجليلة يضعها على المنضدة المستطيلة وبجوارها ساعته الدقيقة الأنيقة كأنه يشير بهما إلى تعظيم العلم وتقدير الوقت في آن واحد. . وينطق الشيخ بالحديث الثري الطلي كأنما مصباح وهاج تستضيء به إلى الحق، وتسترشد إلى الخير وتهتدي إلى الجمال، ورغم غزارة العلم لا ينسب أي فضل إلى نفسه حتى ليذكر السامعين بأبي الفلسفة اليونانية سقراط عندما يقول: «إنني لا أعرف شيئا إلا شيئا واحدا هو أنني لا أعرف شيئا». ويسأل الطلبة أستاذهم ويلحون عليه في السؤال: لماذا لا يطبع محاضراته الثرية الجامعية في كتاب؟! فكان الرجل العظيم المتواضع يجيب في بساطة وإيجاز: «لأنني لست مؤلفا، ولكنني مجرد قارئ جيد».

الشيخ الجليل ينحدر من أسرة وطنية عريقة من قرية أبوجرج ـ بكسر الجيم وتسكين الراء ـ من قرى محافظة المنيا في الصعيد التي كانت على عداء وخصومة مع الملك فؤاد، وعلى خصومة مع الخديو عباس الثاني لدورها في إنشاء حزب الأمة وجريدته، وبعدها لدورها في تأسيس حزب الأحرار الدستوريين، ثم لكتاب الإسلام وأصول الحكم الذي وضعه رأس العائلة ليسد الطريق أمام الملك فؤاد حين طمع في أن يكون خليفة للمسلمين. . أسرة عرفت باسم أسرة القضاة قدرت ملكيتها بسبعة آلاف فدان. . في شهور الصيف تدب الحياة في القصر العالى الكبير وتعود أسرة حسن باشا عبد الرازق الممثل لمديرية المنيا في مجلس النواب في عهد الخديو إسماعيل ثم في مجلس شورى القوانين، تعود بأبنائها السبعة من الذكور رابعهم مصطفى، وشقيقتين يخالطون الكبير والصغير بلا ترفع، والقصر مأوى للغريب والمحتاج، والموائد حافلة ليل نهار بالضيوف. . وساعة العصاري يرى الأهالي فوق الجسر الطويل الشيخ مصطفى في رقته وحيائه يسير منفردا أو بصحبة صديقه الدكتور طه حسين وزوجته الفرنسية، وكانا ينزلان كل صيف ضيفين على آل عبد الرازق. . أما قصر آل عبد الرازق في القاهرة خلف قصر عابدين فكان يوم الجمعة فيه يوما حافلا لأبناء أبوجرج بالقاهرة، فالدعوة مفتوحة والطلبة يكفيهم أن يكتبوا في خانة ولي الأمر بيت عبد الرازق عابدين. . كان القصر بمثابة المنتدى الفكرى والثقافى والسياسى، الموائد عامرة والنقاش لا ينقطع وأصدقاء الابن مصطفى ينفردون بحجرة يلتقي فيها شباب الأزهر بشباب الحقوق وبعض الذين يتعلمون في أوروبا، وتثار القضايا على اختلافها دينية وفلسفية وسياسية واجتماعية وتتلاقى الأفكار والآراء، آراء المحافظين في مواجهة الأحرار، ومؤيدو السفور ينازعون مؤيدي الحجاب، والوطنيون يثورون على الرجعيين. . ثم تأتي المحطة الفارقة في حياة مصطفى عبد الرازق وهي دراسته بالأزهر وتلقيه العلم على أستاذه الإمام محمد عبد ه الذي توطدت صلته به إلى درجة من الحميمية غير مسبوقة، ويتصدع الشيخ مصطفى بنبأ رحيل الإمام لكنه يواصل دراسته حتى يحصل على شهادة العالمية، ويسافر الشيخ إلى باريس في صيف عام ١٩٠٧، بتحفيز من لطفي السيد بعد الاستقالة من مدرسة القضاء الشرعي بعيدا عن بؤرة الأحداث عندما

كانت الإضرابات تكاد تعم أرجاء الأزهر، وبات واضحا أن الفتنة في المؤسسة الدينية العريقة استيقظت من رقادها ومن الصعب كبحها. . وفي السوربون عام ١٩٠٩ يحصل على الدكتوراه عن الإمام الشافعي باعتباره من أكبر مشرِّعي الإسلام، ويعود إلى مصر في زيارة قصيرة يشيِّع فيها أمه إلى مقرها الأخير، ثم ثانية إلى باريس، وتقوم الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، ليعود مع كثير من زملائه للوطن، ويعين عام ١٩١٥ في مجلس الأزهر بتوصية من السلطان حسين كامل الذي تعرف عليه في فرنسا، مما دعا الأميرة قدرية بنت السلطان بتكلفته بترجمة كتاب لها إلى العربية فقام بترجمته بعنوان طيف خيال ملكي. . وفي عام ١٩٣٥ يعين أستاذا للفلسفة بالجامعة وينال البكاوية عام ١٩٣٧ ثم يتولى وزارة الأوقاف التي ألفها محمد محمود باشا سنة ١٩٣٨. ويظل وزيرا لها حتى عام ١٩٤٢. وأثناء عمله كوزير يعين عضوا بالمجمع اللغوي عام ١٩٤٠. وفي عام ١٩٤١ ينال رتبة الباشوية ثم شيخا للأزهر في ٢٧ سبتمبر ١٩٤٥.

كان إنسانا لكنه لم يكن كغيره من الناس. . كان عالما وفيلسوفا، لكن ليس كغيره من الفلاسفة والعلماء. . وكان وزيرا لكن ليس كأشباهه من الوزراء، وكان شيخا للأزهر وإماما للمسلمين لكنه من طراز خاص. . كان هذا كله، وكان غير هذا كله الإمام رقم ٣١ في تاريخ المشيخة مؤلف الدين والوحي في الإسلام وتمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية وفيلسوف العرب والإمام الشافعي ومحمد عبده وغيرها من المؤلفات، بجانب ترجمته لرسالة التوحيد إلى الفرنسية مع صديقه برنارد ميشيل، ومع طه حسين قاما بترجمة كتاب الواجب عن الفرنسية لجيل سيمون بهدف أن يزيلا ما علق بأوهام المسلمين من سوء الظن بالفلسفة، واشترك مع الفيلسوف الفرنسي لويس ماسينيوس في تأليف كتاب التصوف الإسلامي. .
ويقدم الشيخ مصطفى عبد الرازق البراهين والأدلة التي تؤكد أن الاجتهاد بالرأي هو بداية التفكير الفلسفي عند المسلمين، فقد سن الرسول صلى الله عليه وسلم لولاته أن يجتهدوا برأيهم حين لا يجدون نصا، وفي القرآن والسنة جاء الشيخ بأحكام كلف بها المسلمون على أن يكون سبيلهم في طاعتها الاسترشاد بالعقل. .
وقد روى عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن

قال: «كيف تصنع إن عرض عليك قضاء؟ قال أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال فبسنة رسوله. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي. قال: فضرب بيده في صدري وقال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسول الله لما يرضاه رسولُ الله».. وكان الشيخ مصطفى يرى أن الأدب العربي لم ينتجَ غير المتنبى فيلسوفا، وأن فضل المتنبي على الفلسفة أنه بثها في الشعر يوم كانت تلتمس لها منفذا إلى العقول والقلوب، ولعل شعر المتنبي في رأيه كان من أسباب عناية الكتاب والشعراء بالدراسات الفلسفية استكمالا لفنهم وطمعا في اللحاق بذلك الشاعر الفيلسوف الذي شغلت به الألسن وسهرت مع شعره العيون.. ومن شدة إعجاب الشيخ مصطفى بالإمام الشافعي كانت رؤيته له كأكبر مشرعي الإسلام وأول موجه لأصول الفقه في الاتجاه العلمي، ويشرح طريقة تناول الشافعي للعلم بما يظهر منهجه وذلك فيما قاله محمد بن أخت الشافعي عن أمه قال: «ربما قدمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أقل أو أكثر المصباح بين يدي الشافعي.. وكان يستلقي ويتذكر. ثم ينادي: يا جارية هلمي مصباحا. فتقدمه ويكتب ويكتب. ثم يقول: ارفعيه.. ليعود يستلقي ويتذكر». فقيل لأحمد بن حنبل: «ما أراد الشافعي برد المصباح؟ فأجاب: الظلمة أجلى للقلب». وقد عقب مصطفى عبد الرازق على تلك الطريقة بأنها كانت البذرة التي نبتت منها شجرة النظر الفلسفي في الإسلام وذلك حين قال: وليس هذا النوع من التفكير الهادئ في ظلمة الليل كتفكير من يهتم بالمسائل الجزئية، فهو هنا يعني بضبط الاستدلالات، وذلك هو النظر الفلسفي.

ولم تلعب الجينات أثرها ليغدو كل من الأخوين مصطفى وعلى عبد الرازق نسخة من الآخر.. كان أحدهما يكمل الآخر دون أن يكون صورة مطابقة له.. كلاهما من مدرسة الشيخ محمد عبده، والاثنان أزهريان تربيا ودرسا في بيئة أسرية وعلمية واحدة وعانيا من جمود الأزهر ومن بطش الحكام، وكان كل منهما يعشق صحبة أخيه عشقا مبالغا فيه، فإن زار أحدهما الآخر في داره وقيل له مثلا إنه يستحم، فإنه يذهب إليه ساحبا كرسيا يدخل به الحمام ليجلس بجوار البانيو ثم ينخرطان في الحديث كأنهما يكملان ما انقطع سابقا!.. ولم يجد علي عبد الرازق

وصفا لمصطفى في حفل تأبينه بالجامعة المصرية في ٢٧ مارس ١٩٤٧، أدق ولا أجدى من عبارة شقيق روحي، وبعدها أجهش بالبكاء ولم يستطع أن يكمل كلمته التي أعدها مسبقا.. غير أن عليًا كان على الطبيعة أكثر حدة من مصطفى، بل أقل صبرا منه تجاه المخالفين والنقاد والمهاجمين.

وربما تظهر المحادثة - التي جرت في بداية الثلاثينيات بينما الأزمة الاقتصادية طاحنة في البلاد - بين الشقيقين مصطفى عبد الرازق وشقيقه علي التي أنصت لها الكاتب حافظ محمود أثناء سيرهم في أحد شوارع عابدين الهادئة.. ربما تظهر مدى اختلاف طباع الشقيقين.. كان حديث علي إلى أخيه يدور حول الظروف الاقتصادية القاسية التي ألمت بثروة الأسرة مما يحتم اختصار الكثير من النفقات.. وسأل مصطفى شقيقه عن أهم أبواب الاختصار فقال علي: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها»، ونحن ندفع لعشرات الأسر رواتب شهرية من باب المساعدة، لكن حينما نكون نحن أحوج إلى المساعدة، أليس من العدل أن نبلغ هذه الأسر أننا على كره منا لن نستطيع لها عطاء بعد شهر أو اثنين؟». وتمهلت خطوات مصطفى قليلا ثم توقف نهائيا قائلا لأخيه: «لا يا علي.. الموت أهون عليّ مما تقول.. أولئك ناس ربطوا عيشهم بعيشنا واطمأنوا لنا».

فلنقطع نحن من أقواتنا لنعطيهم وإن اقتضى الأمر نستدين لنجنبهم مذلة الحاجة... وتمر عشر سنوات ويصبح الشيخ مصطفى وزيرا للأوقاف، ويذهب حافظ محمود لزيارته بالوزارة فيجده يراجع طلبا لإحدى بنات وطني عظيم لم يخلف لذريته شيئا، وكانت هذه الابنة تتقاضى راتبا شهريا من الأوقاف الخيرية، عشرة جنيهات شهريا، لكن نفاد الاعتماد تسبب في حرمانها من هذا الراتب.. ونادى الوزير مدير مكتبه ليسأله: إذا لم تجبر وزارة الأوقاف كسر مثل هذا القلب فلماذا وجدت هذه الوزارة؟! قال مدير مكتبه: وما حيلتنا يا سيدي الوزير وقد استنفدت تأشيرات معاليك ضعف الاعتماد المقرر للخيرات؟

ويسارع الشيخ مصطفى بمد يده إلى مظروف كان قد تسلمه منذ قليل وبه راتبه الوزاري ثم يعطي هذا المظروف إلى مدير مكتبه يسد به نقص الاعتماد، قائلا:

«وأما العشرة جنيهات التي كانت ترسل إلى كريمة فلان، فهذا قرار برفعها إلى عشرين . . وحين تقدمون خيرا لأنفسكم، قدموه من القلب وليس من الجيب!».

وتعد حياة الشيخ مصطفى عبد الرازق قصيرة كالشهاب فقد ولد عام ١٨٨٥ ورحل عام ١٩٤٧، إلا أنه كان فريد زمانه بأخلاقياته وإضافاته وعلومه وفلسفاته وتواريخه وأفكاره ومؤلفاته وألقابه ومراكزه وتراثه ومواقفه وصداقاته وصولاته وجولاته، مما يجعل العمر مديدا مديدا ومهمة متابعة خطاه أكثر من عسيرة. . . من هنا لم أستطع وضع خطة للجري وراءه، أو فك الملابسات من البدهيات في حياته، أو تحصيل الحاصل مما هو حصل في أيامه . . بل تركت نفسي أتجول . . أحادي . . أقترب . . أنتقي من كل بستان زهرة: البطل واقفا بعيون دامعة يودع فرنسا فوق ظهر الباخرة عائدا إلى مصر، وقبل أن يهبط إلى ميناء بورسعيد يدخل حجرته ليخلع ملابسه الأفرنجية ليرتدي زي الشيوخ ويحبك العمة فوق رأسه، وما إن خرج من حجرته حتى أنكره من كانوا قد أمضوا معه الليالي الخمس مدة رحلة العودة . . تلك الواقعة التي قال عنها في مذكراته: في الصباح أنكر رفاقي في الرحلة من عرفوني في المساء، واستوحش الشباب الجديد مني مظاهر الشيخوخة والقدم، وشعرت أنا نفسي كأنني خرجت من جيل إلى جيل.

أرى طالب السوربون مصطفى عبد الرازق في حديقة لوكسمبورج الشهيرة الواقعة في قلب الحي اللاتيني يقترب فيها من البحيرة ليقف متأملا ليعود يكتب في مذكرات مسافر: لمحت في بعض النواحي فتاة بيدها خطاب تقرؤه فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم وأمامها فتاة تكتب في صحيفة وتتلو ما تكتبه فتبكي، وكم أوى إلى تلك البركة من باك ومبتسم، وعندما ينزعج طالب السوربون من عبث الأطفال بماء البحيرة يكتب إليهم راجيا متوسلا: رويدكم أيها الأطفال العابثون بماء البحيرة ليس ماء ذلك الذي يجري في البحيرة لكنه ذوب ابتسامات ودموع المحبين.

وكان الشعر إحدى مراحل العبقرية في حياة الشيخ مصطفى التي استمرت طوال فترة الدراسة وانسحبت في هدوء بعد أن وضع قدمه على سلم الباخرة التي عبرت به المتوسط إلى فرنسا، وفي واحدة من قصائده القلائل التي كتبها في هذه الفترة

ظهر فيها حبه الشديد لأستاذة الشيخ محمد عبده يرحب فيها بالإمام عند عودته من بعض البلاد العربية بدأها بقوله:

أقـــبل عليك تحـيـــة وســلام	يا ســـاهرا والمسلمـــون نيـــام
إن يقدروا في الغرب علمك قدره	فلمـــصـــر أولى منهم والشـــام
فـــيك الرجـاء لأمـــة لعـــبت بما	يلهي الصـغـار، وجـدت الأيام

جريدة السياسة منذ ٧٢ عاما نقدا طويلا يقرظها جاء في بعضه: في الرواية تحليل للعواطف في هدأتها وتحليل للعواطف في ثورتها.. وفيها حب إذا كان لا بد للناس من حب.

ويكتب الشاعر المتذوق فضيلة شيخ الأزهر في عام ١٩٢٥، وصفا لأم كلثوم: «وإني كلما ذكرت الشيوخ ذكرت أم كلثوم أميرة الغناء في وادي النيل، فإن لها هي أيضا شيوخا يحفون بها في عمائمهم المرفوعة وأكمامهم المهفهفة وقفاطينهم الحريرية الزاهية اللامعة وجببهم الطويلة الواسعة. عن اليمين شيخان وعن اليسار شيخان حول فتاة معتدلة القوام لا يشتكى منها قصر ولا طول، ولا يشتكي غلظ فيها ولا نحول، وتنظر بعينين فيهما شباب وذكاء، وفيها نزوة الدعابة ودلال الحسناء في وجه ليست تفاصيله كلها جميلة، ولكن لجملته روعة الجمال، تحت ذلك العقال البدوي مكفكفا على جبينها بطراز مذهب ومرخي وراء ظهرها منه هداب الدمقس المفتل، في ثياب حشمة تميل إلى السواد وفي مظهر بساطة، كان على سجيته يوم أن كانت الفتاة القروية حديثة عهد بسذاجة الريف، ثم أصبح تأنقا حضريا مقدرا تقديرا.. تظهر أم كلثوم بادئ الأمر رزينة ساكنة تشدو بصوتها الحلو شدوا لينا، من غير أن يتحرك طرف من أطرافها إلا هزة لطيفة تنبض بها رجلها اليسرى أحيانا ثم ينبعث الطرب في هيكلها كله فتنهض قائمة وترسل النغمات متعالية تذهب في الآفاق هتافا مرددا، أو تترجع رويدا حتى تتلاشى حنينا خافتا وتهزها أريحية الشباب والطرب فتساير النغمات في حركاتها، مندفعة بوثبات الشعور وراء مذاهب الفن، وتتلوى عن يمينها وشمالها أعناق الشيوخ.. ويا ليت شعري ما لأم كلثوم والشيوخ؟.. أم كلثوم نعمة من نعم الدنيا. فما بالها تأبى إلا أن تتجلى على الناس في ظهر الآخرة»؟!

ويسأل السائل الشيخ مصطفى عام ١٩٤٩ : هل تقدمت أخلاقنا أو انحطت؟ . . فيجيبه بقوله : هذا سؤال يرغمني على الفلسفة لأنه لكي يتسنى لنا أن نحكم على الأخلاق وهل تقدمت أو تأخرت يجب أن يكون هناك معيار إذا انحرفت عنه الأخلاق قلنا إنها انحطت . . وإذا بلغته وتخطته قلنا إنها بخير . . وحتى لو وجد هذا المعيار فإنه يتغير بتغير الزمن .

لمدة عام واحد وخمسين يوما تولى الشيخ مصطفى فيها مشيخة الأزهر متنازلا عن رتبة الباشوية الحديثة ، وذلك بعد صدور تشريع جديد يقضي بأن يكون التدريس في الجامعة مساويا للتدريس في المعاهد الدينية . . وكأي عالم وعظيم دبرت له المكائد وراح حزب الوفد القوي المناوئ لحكومة النقراشي يؤلب مراكز القوى ضده ، وتراكمت السحب إثر ما عزَتْه جريدة لوموند الباريسية إليه بعد توليه المشيخة من حديث اتخذ منه خصومه أداة للنيل منه ، وفيه أن فرنسا قد أحرزت مكانا ممتازا بما بذلت من الجهود الكريمة في نشر الثقافة بين المسلمين وأن الشيخ يأمل ألا تتخلى فرنسا عن خطتها تلك كي تحتفظ بحب العالم الإسلامي .

وقامت الصحف في مصر وبر الشام تزيد النار اشتعالا خاصة بعدما أهدت الحكومة الفرنسية شيخنا وسام جوقة الشرف من رتبة الصليب الأحمر . . وقامت في الأزهر ثورة بسبب تخطي الحكومة خريجي الأزهر في بعض المناصب التي كانت مخصصة لهم ، والثورات عادة كالنار لا تميز بين الأخضر واليابس ، وسمع الشيخ رفيع المكان والمكانة من قبل المناصب وبعدها ، سمع بأذنيه هتاف بعض الطلبة يجرفه فلم يخرج عن وقار الإمام ، لكنه عاد إلى البيت حزينا بعد رئاسته لجلسة المجلس الأعلى للأزهر التي كانت قد امتدت إلى ما قبل أذان العصر ، فتناول الغداء وأخذ قيلولته ثم استيقظ وتوضأ ليصلي ، وساعة أن أخذ يرتدي ثيابه شعر بإعياء فاستدعى الطبيب لإسعافه ، وما إن لاحظ الشيخ المؤمن باضطراب الطبيب حتى علم بأنها النهاية ، فالتفت ناحيته مبتسما مهدئا من روعه هامسا : هون عليك يا بني . . لقد فعلت ما بوسعك وإلى الله حسن المآب .

وحقت نبوءة الإمام محمد عبد ه حين قال عن الأزهر بعد استقالته منه في عام ١٩٠٥ : إنني ألقيت بين جوانح هذا المكان شعلة لا تنطفئ . . وإن لم تلتهب اليوم أو غدا فستلتهب في ثلاثين عاما وستكون ضراما . . . وقد حمل الشيخ مصطفى عبد الرازق شعلة الإمام نورا ونارا يخوض بها وسط الأمواج . . . والبحر الزاخر لا يضره إن رمى فيه صغير بحجر!

المفتري والمفترَى عليه

أحمد عرابي

المثل الصيني يقول «إنك لا تنزل النهر مرتين»، والقول المأثور «إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين»، لكننا في مصر المحروسة نشمر ونتنزل النهر والبحر والترعة والمسقى مرات ومرات وندب ذراعنا في ذات الجحر ألف مرة، ونتقرص وتورم القرصة وتعمل غرغرينا ويمكن تنقطع إيدنا ولا نحرم ولا نتعلم ولا نفتكر ولا نتوب، بل وإذا ما اعترضنا النهر نفسه نهرع إليه كالعميان بحجة المكتوب والنصيب والنداهة، وليس الغفلة والبله والعته والمخ الفاضي.

في مصر أصدق مثال على أن التاريخ يعيد نفسه، والمصيبة أنه يعاد بحذافيره وأبطاله وأفعاله وأخطائه ولا نتعلم ولا نتعظ من درسه الأول.. ونحن الدولة الوحيدة في العالم - يا سبحان الله - التي تنزل النهر نفسه وتخطئ الخطأ نفسه وتقع طبق الأصل(photo copy) في الأخطاء نفسها حتى يحق فينا ما قاله عنا يوما موشي ديان عندما سألوه كيف تعيد نفس الخطة في حرب ١٩٦٧، التي نفذتها عام ١٩٥٦ فكان جوابه: العرب لا يقرأون وإن قرأوا لا يفهمون ولو فهموا سرعان ما ينسون.. وسبحان الله أن يكون تعقيبنا الساذج بعدما تقع الفأس في الرأس هو ما يقع إلا الشاطر، وخيرها في غيرها، و المتعوس متعوس ولو علقوا على بابه فانوس، وآدي الله وآدي حكمته، والتالتة تابتة، والأوله آه، والتانية آه، والتالتة آه يا بلد.. والمصريون وحدهم من لديهم القدرة العبقرية التاريخية على تحويل خطأ الماضي إلى خطيئة الحاضر.

النهر والجحر وعودة التاريخ والآه. . كلها استغرقتني وأنا غارقة في بحور الثورة العرابية أو هوجة عرابي ١٨٨١ التي وجدت في تسميتها ما أعادني لأحداث ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي ظلت تحمل اسم الحركة المباركة عاما كاملا في الخطب الرسمية ووسائل الإعلام حتى أتى طه حسين ليطلق عليها اسم ثورة يوليو، وإن ظل البعض يعتبرها انقلابا، ولم يزل هناك المؤرخ الذي يحدد الأحداث التاريخية أيام الخديو توفيق بقبل هوجة عرابي وبعدها، بل إننا عندما توجهنا أخيرا لنسأل الفلاحة العجوز جميلة إبراهيم في قرية البلاسي في فاقوس عن سنها الحقيقي فقالت بتحديد تاريخي دقيق: أنا اتجوزت بعد هوجة عرابي بسنتين وفي الصباحية أخدوا العريس للجهادية.

بذمتكم هل هناك فارق عما سبق لنا من حجج ومبررات في نكسة ١٩٥٦ وأيضا ١٩٦٧، كمثال من أننا كنا ننتظر الأعداء من الشمال فخدعونا ـ الله يجازيهم ـ وأتونا من اليمين فكانت مباغتة، وتلك المباغتة تعلل بها عرابي في ضرب الإسكندرية فكتب في مذكراته يقول: باغتنا الإنجليز بالعدوان على غير استعداد منا، ونسي أن الأسطول الإنجليزي كان في مياه الإسكندرية منذ ١٧ مايو ١٨٨٢، أي قبل حوالي شهرين.

ويرجع بعض المحللين السياسيين أن من أسباب نكسة ١٩٦٧، الرئيسية تلك السهرة الدورية الراقصة الصباحي للطيارين التي أقامتها الشئون المعنوية في إحدى قواعد الطيران بأنشاص، ورصدتها المخابرات الإسرائيلية لتدك طائراتنا على الأرض، بينما الطيارون في غفلة وإن قيل بعدها بأنها كانت حجة واهية للاعتذار عن الهزيمة، وكان في دفاع صدقي محمود قائد الطيران أنه طلب تخصيص مبلغ ١٥٠ ألف جنيه لعمل هناجر ـ سواتر ـ للطائرات فخصصوا له ٥ آلاف جنيه فقط. . ألا تعيد سهرة أنشاص ١٩٦٧، إلى الأذهان سهرة مماثلة سابقة في سبتمبر عام ١٨٨١، وإن اختلفت الألحان من تداخل عدة آلات موسيقية إلى آلة واحدة هي الدف، سهرة قضتها قوات عرابى في إقامة الحضرة والأذكار والدعاء على الأعداء بالأوراد وعديَّة يس وارتفعت فيها الترديدات حي. . حي. . حي، فوجدها

الإنجليز الفرصة السانحة للمداهمة تحت جنح الظلام بعد أن نام المفقرون الأبرار ننة نام مع الملائكة الأطهار يأكلون في المنام الرز باللبن ويشخرون من شدة الإجهاد والتعب، فزحفوا بأحد عشر ألفا من البيادة وألفين من السواري وستين مدفعا، وكان جيش العرابيين النائم بثيابه الداخلية يفوقه والصلاة ع النبي في العتاد والعدد فهو مؤلف من عشرين ألفا من البيادة، وألفين وخمسمائة من السواري، وستة آلاف من العربان وسبعين مدفعا، وكان قد بدأ الزحف الإنجليزي من القصاصين فسار الإنجليز دون أن يشعر بهم محمود باشا سامي البارودي قائد فرقة الصالحية، فلم يلقوا أية مقاومة لا من جانبه ولا من جانب مقدمة العرابيين التي يقودها علي بك يوسف خنفس الذي كلفه عرابي بموافاته بالأخبار يوما بيوم عن حركات الإنجليز فلم يصدق معه وبعث إليه في ١٢ سبتمبر يقول: كله تمام.

كل شيء هادئ في الميدان والسكون سائد في معسكرات العدو.. فاطمأن عرابي - الذي لم يتميز في ماضيه بعمل من أعمال البطولة ولم يخض غمار المعارك والحروب مما يجعل منه ضابطا كفؤا يعتمد عليه، وكان قد نال رتبة تحت السلاح عام ١٨٥٨، وهو في السابعة عشرة ثم رتبة صاغ رائد في نفس العام ١٨٥٩، ثم رتبة بكباشي مقدم في ١٨٦٠، ثم قائمقام عقيد في سبتمبر ١٨٦٠ - فاطمأن عرابي لأقوال خنفس وأصدر أوامره إلى جيشه العرمرم بالراحة والترويح، فانصرف الجنود إلى حلقات الذكر تحت إشراف الشيخ عبد الجواد المشهور بالورع والتقوى، وما لبث الإنجليز يتقدمون على أطراف الأصابع، والجماعة مستغرقون في النوم في العسل، حتى بلغ الإنجليز استحكامات التل الكبير، وهناك أمطروهم وابلا من الرصاص فاستيقظوا مذعورين وولوا الأدبار لا يلوون على شيء، تاركين أسلحتهم وذخائرهم والسبعين مدفعا رابضة في أماكنها لم تنبس ماسورة أي منها ببنت شفة.. وكان عرابي قبلها بيومين قد عقد قران نجله محمد على عروسه جلفدان داخل خيمة الميدان على يد الشيخ عبد الجواد.

ويذكر أحمد شفيق باشا في مذكراته من تفصيلات ما حدث والتي وردت إلى السراي أن عرابي النائم نوما عميقا على بعد ميل كامل من خط النار قد استيقظ على

قصف المدافع، فخرج من خيمته مستطلعا، ولما شهد الهزيمة التي حلت بجيشه، حاول أن يستوقف الفارين وهم بالملابس الداخلية ـ كانت إسرائيل في عام ١٩٦٧ لا تعرف رتب الأسرى بعد أن كان القادة يلقون بها بعيدا، وبعدها تعرفت عليها من المقارنة بين نوعية الملابس الداخلية، وهنا كان النزاع على أشده في مؤخرة الجيش بين القادة والعساكر حول تبديل الملابس الداخلية بالأمر واقلع يا عسكري تمام يا فندم ـ ولكن الذعر كان قد دب في قلوبهم فعندئذ أخذ خادمه محمد إبراهيم يرجوه أن يفر وينجو بروحه، فامتثل عرابي للنصيحة ولم يكن يعرف إبراهيم أن واجب مولاه أن يصمد ويموت في مكانه في ميدان القتال! وظل يفخر بأنه استطاع أن يجعل سيده يسمع نصيحته. . وبذلك لجأ عرابي إلى الفرار وكان هدفه أن يصل محطة التل الكبير ليأخذ القطار للقاهرة، فوصل قبل الإنجليز بدقائق، فعجز عن ذلك، ولكنه نجح وخادمه في عبور الجسر المقام على القناة، وعلى الضفة الأخرى وجدا نفسيهما في وادي الطميلات، فركضا بعزم طاقتهما إلى بلبيس يسابقان الريح، وفي بلبيس وجد عرابي علي باشا الروبي قد سبقه إليها، ويقول عرابي: «سألته عما حدث؟ فلم يزد على قوله: إنه الخذلان! وكانت على إثرنا فرقة من خيالة العدو، فهجموا علينا فأرخينا للخيل أعنَّتها حتى وصلنا محطة أنشاص، فوجدنا هناك قطارا فركبناه، وذهبنا إلى القاهرة!» ـ وهنا يعيد التاريخ نفسه في مسألة الهروب لنتذكر هزيمة ١٩٦٧، عندما كانت الأغنية الحزينة تخنق الصدور: قولوا لعين الشمس ماتحماشي لحسن جيشنا الغلبان راجع ماشي، ولا ننسى سخريتنا من الألقاب وقتها فكنا نردد: رهوان أول ورهوان تاني وفكيك بد لا من ملازم وبكباشي وعقيد، وكانت الفزورة هي: مين اللي اكتنز الدهب والفضة واتجوز وردة وهرب يوم الشدة؟!. . ورسموا يومها الأهرامات الثلاث ورابعها صورة المشير وتحتها التعليق: خوفو وخفرع ومنقرع ومنهرب!!. . ولم يكن الذنب على جيشنا الباسل وإنما لانتظارنا تبعا للأوامر تلقي الضربة الأولى!! في الحرب الأولى والثانية.

ويضيف أحمد شفيق باشا بقوله حول سهرة الأذكار: و«من المضحكات المبكيات، أن صديقي المرحوم البمباشي حسن رضوان، قومندان الطوبجية في

استحكامات التل الكبير، أخبرني بأنه في مساء ١٢ سبتمبر دخل عليه في الطابية أحد أرباب الطرق الصوفية وبيده ثلاثة أعلام، وتقدم إلى أحد المدافع فرفع عليه أحدها وقال: هذا مدفع السيد البدوي، ثم انتقل إلى مدفع آخر فوضع عليه علما ثانيا وقال: إنه لسيدي إبراهيم الدسوقي، ثم إلى مدفع ثالث وقال: إنه سيدي عبد العال.. وقال صديقي معقبا: ولكن لم يمر على ذلك بضع ساعات حتى صارت الأعلام والمدافع المصرية في حيازة الجنرال ويسلي!!».

وإذا كان المذيع أحمد سعيد في عام ١٩٦٧، يسقط في لهجته الانفعالية ثلاث طائرات إسرائيلية في الدقيقة - تبعا لما يأت إليه من تقارير كما ذكر فيما بعد - فنهلل من خلفه لبطولتنا العبقرية وأصبحنا نتبارى في الإحصاء حتى لا نخطئ في عدد الليمون الواقع من على الشجر، فإن عرابي في زمانه عندما ضرب الإنجليز الإسكندرية بالقنابل مدمرين جميع الاستحكامات والقلاع والحصون بسبب ضعف دفاع العرابيين، قد قام بمثل هذا الدور، وإن كان وقتها لا يمسك ميكروفونا وإنما يشد تلغرافا، وهو لا يعلم كقائد خط سير المعركة ولا كان الشعب السكندري أيضا يعرف، بل كان مضللا لدرجة تصوره عندما أطلق الأسطول الإنجليزي مدافعه أن دولة الخلافة العثمانية قد أرسلت أسطولها لمحاربة الإنجليز، وأن عثمان باشا الغازي قد قدم من الأستانة لهذا الغرض، وعندما أطلق الأسطول الإنجليزي مدافعه على قلعة العجمي ظل الإسكندريون يمارسون حياتهم الطبيعية، وتبعا لأقوال السائحين الألمان الذين بقوا ولم يهاجروا مع الأجانب الآخرين فإنهم قد سمعوا بائعات الحليب صباحا ينادين: لبن.. لبن.. وكانت صاجات العجين على رءوس الخادمات ذاهبة في طريقها اليومي للفرن، وعلى المقاهي يجلس روادها كعادتهم يرتشفون القهوة المحوجة ويشدون أنفاس النارجيلة وفي الطرقات كان الأهالي يخبر بعضهم البعض بأن الأسطول الإنجليزي لم يبق فيه سوى ثلاث سفن، أما البقية فقد أغرقتها مدافع القلاع المصرية، وقد ساعد على ترويج هذا الوهم أن الوقائع المصرية في يوم ١١ يوليو ١٨٨٢، قد نشرت تلغرافا واردا من عرابي نصه: الحالة جيدة، وقد شوهدت حريقة في مراكب الإنجليز ولم يكن هذا صحيحا! وفي غروب يوم الضرب - كما يشرح الدكتور حمادة حسني أحمد مدرس التاريخ الحديث بجامعة

قناة السويس ـ نشرت الحكومة صورة تلغراف وارد من عرابي يقول: حصل إطلاق المدافع من المراكب وصار مقابلتها من الطوابي بكمال الهمة من أول الساعة واحدة من النهار لغاية الساعة العاشرة، وبعدها امتنع الضرب من الجهتين! وفي اليوم التالي ١٢ يوليو، ورد تلغراف من عرابي إلى وكيل الحربية يقول فيه: لم يحصل ضرب في هذا اليوم إلا مناوشة خفيفة، وهي ضرب أربعة مدافع من المراكب الإنجليزية، ومقابلتها بمثلها من الطوابي، وبعد ذلك أبطلت المحاربة من الجهتين.. وللأسف فقد حدثت مجزرة في الإسكندرية ذهب ضحيتها حوالي ألفين من الجنود والأهالي.. وكان هناك حريق قد أشعل بقرار أخرق من قائد الآلاي السادس سليمان داود تحت ذريعة إيقاف الاحتلال الإنجليزي للمدينة، لكنها لم تفلح رغم آثارها المدمرة وتم الاحتلال، وللأسف أيضا فإن عرابي علم بهذا كله وهو الذي لم ينصت لفكرة محمود فهمي باشا رئيس الأركان بسد قناة السويس لإقفال الطريق في وجه الإنجليز، وأخذ برأي ديليسبس الذي أقنعه بأن الإنجليز سيحترمون حيْدة القناة.

ولأنه المشهد التاريخي المحفور على صفحات عقولنا بالأزميل ذلك الذي ركب فيه عرابي حصانه شاهرا سيفه في ساحة قصر عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ والخديو توفيق واقف هناك على الأرض يسأله: لماذا أتيتم هنا؟ فيجيب عرابي بثبات القائد المغوار جئنا نعرض عليك طلبات الأمة والجيش العادلة، ثم يذكر ثلاثتها كما عرفناها وهي إقالة وزارة رياض، وتنفيذ الدستور ودعوة البرلمان للانعقاد، وزيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندي.. ويجيب توفيق بغطرسة الحكم: طلبات لا حق لكم فيها، وقد ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا، ويرفض عرابي هذا المنطق بعبارته الرنانة المدوية: لقد خلقنا الله أحرارا، ولم يخلقنا تراثا وعقارا، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم ـ وهو في ذلك يعيد قول عمرو بن العاص للمصري القبطي الذي جاء يشكو له تعسف ابنه وضربه له فقال ابن العاص لابنه عبارته السابقة ثم طلب من القبطي الأخذ بثأره قائلا له اضرب ابن الأكرمين، فرد له صفعته ـ وقعدنا نعيد ونزيد في موقف عرابي المجيد في كتب التلامذة وعلى مسرح

ثورة يوليو الذي صنع أبطالا شعبيين مثل أدهم الشرقاوي وياسين زوج بهية، ولكن البحث في الأصول والجذور والمراجع والكتب ومنها مذكرات أحمد شفيق باشا وكتاب البحر الزاخر في علوم دولة الأوائل والأواخر لمحمود فهمي باشا الموجود منه نسخة واحدة وقامت بطباعته المطبعة الأميرية عام ١٣١٢ هـ . . . وإلخ، سوف نجد أنه حوار شط في الخيال، ولم يحدث أن قيل وقال وأن مصدره المباشر مذكرات أحمد عرابي نفسه التي كتبها من الذاكرة في عهد الخديو عباس حلمي الثاني وانتهى منها يوم ٢٦ يوليو ١٩١٠، أي قبل وفاته في ٢٢ سبتمبر ١٩١١، بعد عودته من المنفى في سيلان هو وأصحابه السبعة، وهو الذي لم يكن يدون يومياته قبل ذلك مثلما دونها أحمد شفيق باشا بعنوان مذكراتي في نصف قرن، فهل كان عرابي يتذكر مجده الضائع وهو يكتبها فلعب به الخيال وأوحى بأشياء لم تكن قد حدثت، وهو الذي كان في عابدين حريصا على أن يبلغ الخديو مطالب الأمة وأن يصر عليها ويتمسك بها دون أي تجاوز يحسب عليه، ومن ثم استجاب فوريا حين طلب منه الخديو الترجل.

وبغض النظر عن دور عرابي السياسي فقد كان له باع في عالم النساء من زوجات ومعجبات كان يلفت نظرهن بهيئته الفارعة وبشرته البيضاء، وشاربه الذي يقف عليه الصقر وصوته الجهوري الذي ينفذ إلى الأعماق، ومشيته التي فيها حضور وخيلاء يرجع فيها صدره إلى الخلف ليمشي الهوينى وكان وقتها يمتلك ٨٦٨ فدانا . . في قائمة زوجاته من جميع الطبقات كانت حافظة ابنة الخال التي تزوجها في أوائل عام ١٨٦٣، وأنجبت له محمداً وطلقها لإهمالها رعايته مما تسبب في إصابة الابن بالعمى، والثانية من قلعة الكبش وشقيقها كان طباخا وطلقها عرابي، والثالثة صديقة هانم والدتها حليمة هانم مرضعة الأمير إلهامي بن الخديو عباس، وأنجبت له بناته الهوانم الأربع نفيسة ورقية وعاتكة وأمينة، وبعدها زوجته زينب هانم التي عاشت معه في بيت بدورين بشارع خيرت أمام عمر أفندي، وعند النفي إلي سيلان اصطحب معه ابنه محمد وزوجته وجاريتيهما فرح جول وزعفران . . فتزوج عرابي، منهما الواحدة تلو الأخرى، وطلق زعفرانة لإدمانها مضغ التبغ وبصقه، وبعودته من المنفى عاد إلى زوجته صديقة هانم وطلق فرحة

جول الحبشية التي كانت ترتدي على الدوام زي الرجال، وقد كتب عرابي في مذكراته التي وقعها باسم أحمد عرابي الحسيني المصري أن عشيرته تبلغ في قريته نحو ربع تعدادها، وأنه لو عاشت ذريته كلها لبلغت ثلاثين ابنا وابنة. . هذا وقد كان من معجباته أجنبيات كثيرات إلى جانب أميرات البيت المالك اللاتي حضرن محاكمته، ومنهن السيدة الأجنبية التي ألقت عليه الورد عندما عدل الحكم من الإعدام للنفي المؤبد، والأميرة إنجي أرملة الوالي سعيد باشا التي بعثت له خطابا اعتبره البعض حماقة لعرضها فيه أن تتزوجه باعتباره منقذا لمصر، فرد عليها قائلا أن تلزم بيتها وتهتم بشئونها! هذا وكانت الوالدة باشا أم الخديو إسماعيل قد تبرعت بجميع خيول عرباتها لدعم عرابي.

بعد موقعة التل الكبير سلم عرابي سيفه لوازلي على أبواب القاهرة، وأرجع البعض استسلامه لوجود اتفاق خاص سابق، وأكدت جريدة الأهرام ذلك. . وفي رسالة وجهها عدد من كبار المشايخ إلى السلطان أعربوا فيها عن دهشتهم لاستسلام عرابي، وشكوكهم إزاء إعلان الحكومة الإنجليزية قبل بدء المحاكمة أنها لن تسمح بإعدام عرابي أيا كانت الأحوال، وربط الناس بين هذا كله وعدم استمرار موقعة التل الكبير أكثر من عشرين دقيقة. . ومن هنا استخف الكثيرون بعرابي بعد عودته من منفاه في أوائل القرن العشرين فلم يلق شيئا من الاحترام أو الاهتمام خاصة أنه بمجرد وصوله للوطن قال في حديث بجريدة المقطم في عدد ٣ أكتوبر ١٩٠١، إنه سأل الذين قابلوه بالسويس من أفراد أسرته: «صحيح أن السخرة ألغيت عندكم؟ فقالوا: نعم صحيح، قلت: والكرباج؟ قالوا: أبطل من زمن طويل، قلت: وكيف تحصل الأموال من الأهالي؟ قالوا: بالحق والعدل، وكل إنسان يعرف ما له وما عليه، فسألتهم وكيف الاستبداد في الأحكام الآن؟ فأجابوا أنه لم يبق للاستبداد أثر، فكل شيء مقيد بقانون ونظام، ولا خوف على محكوم من جور حاكم، لأن كل من له أو عليه قضايا يرفع ظلامته للمحاكم، فشكرت الله لأنه حقق مناي وأراني قبل مماتي ما طالما كنت أتمناه لبلادي، وقد شاء الله أن ينعم به على وطني لحكمة قضى ألا يتم ذلك على يدي بل على يد الذين نازلناهم في ساحة القتال، وكانوا لنا أعداء فصاروا لمصر خير الأصدقاء، أما فيما يختص بي فإني لم

أجد من الذين قاتلتهم غير معاملة الكرام الذين يستحق معروفهم الشكر وكرمهم الإكرام فإنهم حفظوا حياتي من الإعدام، ولما بت وحيدا بذل قوم منهم المال لمساعدتي فكنت أستعين بمالهم في الدفاع عن نفسي، وبمالهم أرسلت التلغراف الطويل الذي نشر في التايمز قبل سفري من مصر لبيان حقيقة أمري، وقبلما أفارق هذا القطر طلب مني اللورد دفرين أن أطلعه على ما أرى هذا القطر محتاجا إليه من الإصلاح فكتبت تقريرا من ١٩ مادة ذكرت فيها ما أراه واجب الإجراء لإصلاح حال البلاد والعباد، وأنا أراها الآن مستوفاة في الإصلاح الذي تم بحسن تدبير جناب اللورد كرومر الإداري والمصلح الكبير».

هذه التصريحات جعلت الأمة تقابله بالفتور والسخط حتى إن أمير الشعراء أحمد شوقي كتب يهاجمه بقصيدة جاء فيها:

صغار في الذهاب والإياب أهذا كل شأنك يا عرابي

وكتب محمود سامي البارودي عدة قصائد في هجاء عرابي جاء في مخطوطة له لم تنشر من قبل:

أستغفر الله إلا من عداوته فإنها لجلال الله إعظام

دع السلاح لقوم يصبرون له واسكت فخلفك عند الفخر قدام

وفي مرثيته التي نظمها حافظ إبراهيم في البارودي تطرق إلى أن اشتراك البارودي في ثورة عرابي كان بمثابة زلة:

أكرم بها زلة في العمر واحدة إن صح أنك فيها غير محمود

وكتب مصطفى كامل سلسلة من المقالات يهاجم فيها عرابي في جريدة اللواء في ٢٨ سبتمبر ١٩٠١ جاء فيها: عار أكبر وأشهر من عار رجل تهور جبانا واندفع جاهلا وساق أمته إلى مهواة الموت الأدبي والاستعباد الثقيل ثم فر هاربا من ميادين القتال... وهجاه الشيخ محمد عبده في قصيدة ورد فيها هذا البيت:

ما كان أحسنه شيخا بزاوية يغشى النساء بوعظ كان يمليه

وقال عبد الرحمن الرافعي: «لقد انتقدت في كتابي عن الحركة العرابية ما جرى

في التل الكبير من تجاوزات وأخذت على عرابي تسليمه سيفه للقائد البريطاني وكنت أتمنى لو أنه استشهد في المعركة، وأخذت عليه موقفه الضعيف المتخاذل في المحاكمة». وبلغ من درجة عداء الشاعر ولي الدين يكن لعرابي الإشادة بالإنجليز وتأييدهم حتى إنه يقول: «قام العرابيون على أمير البلاد عصيانا وطغيانا، ولما يئس الإنجليز من ارتداع المتمردين كَلَّموا الثغر السكندري بألسنة المدافع، وهبطوا إن شاء الله آمنين»!

وحقيقة أن في مصر الآن معركة حول الذاكرة.. كل متذكر يشدها ناحيته في الدوران حول شخصية تاريخية.. قد يجسدها أحدهم بطلا أو أفاقا أو درويشا، والتاريخ حمال للأوجه المختلفة.. ولقد اصطدم عرابي بالأطماع الأوروبية التي كانت أقوى من قدراته فانتهى الأمر إلى الهزيمة المريرة، وبغض النظر عن سلوكه وأسلوبه في إدارة الأمور، وبغض النظر عن موقفه عقب الهزيمة الذي رأى فيه البعض موقفا مخزيا، وبغض النظر عن أحاديثه المهزومة التي أدلى بها عقب عودته من المنفى، وبغض النظر في أن الأحداث التي نحياها الآن إنما هي من نتائج الثورة العرابية، فإن وجود الاستعمار البريطاني في مصر هو الذي أدى إلى استيلاء بريطانيا على فلسطين في الحرب العالمية الأولى، ثم أدى بعد ذلك إلى وعد بلفور وإقامة دولة يهودية في فلسطين، ولو أن عرابي قد انتصر في عام ١٨٨٢، كما انتصر المصريون من قبل على حملة فريزر لتغير ميزان القوى في المنطقة العربية كلها.. وبغض النظر عن هذا وذاك فقد كان أحمد عرابي زعيما ساقته الأقدار لمواجهة قوى ليس ندا لها فانكسر أمامها، لكن هذا لا ينفي أنه كان زعيما وطنيا سيبقى له شرف المحاولة لتحقيق مشروع الوطنية في مصر... وقد يكون كل ما سبق نوعا من تنشيط الذاكرة.. أو.. تصويب الذاكرة!!

الأصل والصورة

سعد زغلول

وحقك أنت المنى والطلب . . وفجأة تسكت أم كلثوم عن الغناء في ملهى البوسفور أمام محطة مصر عندما تفاجأ بالمتفرجين واحدًا تلو الآخر تاركين لها الصالة خاوية فتلتفت حولها تناشد الموسيقيين العون فتجد آلاتهم قد أعلنت خرسها والوجوه قد زايلها انسجامها، فتسأل محمد القصبجي المحتضن عودة فتأتي الإجابة طاعنة كحد السكين: الباشا مات . . فتموت الأغنية على شفتي أم كلثوم لتنهار فوق المقعد القريب . . وبعدها يضع لها الشاعر أحمد رامي أنشودة: أنا انتهيت وابدأوا جميعا . . لتوزع منها شركة جرامفون نصف مليون أسطوانة تردد كلمات سعد زغلول الأخيرة على فراشه في بيت الأمة .

لست سعدية ولا وفدية ولا أنا حزبية ولا لي دعوة بمقاعد البرلمان أو الجلوس حتى مستمعة تحت قبته، لكن تسكنني مشاهد الطفولة عندما كانت الوالدة تجلس إلى أصابع البيانو تعزف لنا مقطوعات، لي لذة في ذلتى وخضوعي ومالي فتنت بلحظك الفتاك، وأيها الفلك على وشك الرحيل وأفراح القبة وطالع السعد وكنت فين يا علي وأمك بتدور عليك و . . إن يغب عن مصر سعد . . وتمتد في بيتنا حكاياته مع سعد مطرزة في سلاسل صبا أمي الذهبية . . يوم الجهاد للمطالبة بالاستقلال، ويوم ما اعتقل سعد ونفاه الإنجليز لجزيرة مالطة، ويوم ما عاد من المنفى لمدة شهر . ويوم ما نفي مرة أخرى لجزيرة سيشل وبعدها لجبل طارق .

ويوم استقباله ويوم ما انضرب بالرصاص . . ويوم ما جاء لنا الخبر . . نار يا أولاد . . تحكي لنا عن صوت سعد في خطبه العصماء المرتجلة التي كانت تشعل

الحماسة . . الكل واقف على رجليه رجال ونساء وأطفال . . فوق التلات ساعات يسمع ولا يتعب من صوت . . رفيق لين يجمع مابين الصلابة والرقة والقسوة والرحمة والشدة والحنان . . صوت ناره مولعة حامية تنزل فوق رأس العدو تحرقه، وينهلها الحبيب سلسبيل الشهد . . صوت يخفي تعب وجهد صاحبه ويرفع النبرات تسود المكان كله حتى لو كان سعد زغلول بيخطب في أوسع ميدان . . ورغم ارتفاع الصوت والثورة لا ملامح تلتوي ولا خدود تنتفخ ولا تكشيرة تتشنج ولا عيب مفاجئ يدخل على سلامة الحنجرة يغلظها أو يسرسعها .

وكان سعد ينطق القاف بالكاف وبقينا كلنا نقلده في نطق الحرف كما يلفظ به سعد كأنه جاء بالمثل في الأجرومية أ ب ت ث . . . ك . . ذلك الوصف الذي ساقته أمي رددته بالمثل الآنسة مي زيادة عندما قالت في كتابها «ذكرى جبار الوادي» : سمعت سعدا متكلما على المنبر فأدركت ثمة كيف الوجه العادي يصبح أجمل من الجمال وأوفر إغراء، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحيوية الشبان فتجرفها جرف العاصفة لأوراق الخريف . وكيف ينفتح والجفن الكثيف المتهدل على بؤبؤ العين فينجلي البصر حساما استل من غمده وتشيع النظرات أنصالا تشق الصدور . . صوت ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضي يتقاذفه ويلهو به وأنت من نشوتك لا تفيق .

وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه الأنواء وتزمجر خلاله العواصف لتنجلي فيه إرادة شعب يقول : أنا . . إني موجود .

سعد . . الزعيم الذي لم يتبرأ من أخطائه ولا حاول أن يسترها، بل اعترف بها اعتراف الرجولة الجريئة والصراحة الواثقة غير مضطر ولا مجبر : «أعترف أني وأنا وزير قد عملت بحسن نية وإخلاص عملا لو عرض علي اليوم لكنت أول المعارضين فيه، فقد عرض علي قانون المطبوعات فعارضت فيه أولا، ثم لم ألبث أن وافقت عليه واشتركت في تطبيقه لظروف بررتها في ذلك الوقت، وها أنا اليوم نادم على ما فعلته بالأمس» . ويعترف سعد في الجمعية التشريعية : «كنت قاضيا وكنت وزيرا وها أنا اليوم عضو بينكم في الجمعية التشريعية، وأحس في نفسي بأن

شعوري كان يختلف باختلاف تلك المراكز جميعها وأني ربما كنت أرى الرأي في حالة أرى غيره في حالة أخرى، ومع ذلك كنت حسن النية في جميع الحالات، فالوزراء قد تتغلب عليهم مراكزهم فيعملون بحسن نية ما يظنون أن فيه فائدة للأمة وليس هو كذلك».

سعد زغلول الفلاح الذي كان يطل من داخله في لحظات غريبة غير منتظرة. عندما يتصدر مائدته ذات الطراز الأوروبي في قصره الذي يشرف على ثلاثة شوارع في وقت واحد، فيتوقف لحظة عن الطعام سارحا ويعود فجأة ليعبر عن حنينه إلى فحل البصل الذي كان يأكله وهو طفل يجلس حافيا على الترعة في قريته إبيانة أو يتغنى بطعم عود السريس الذي يفضل مذاقه على طعم الأسبرج المستورد من باريس.

وكان إذا أراد أن يتخذ قرارا جريئا في حياته وشعر بالتردد اتجه إلى الريف يستلهم من الأرض البكر وحيًا ومن رائحة المزارع الخضراء عطرا.. كان سعد الفلاح يتجه إلى قرية مسجد وصيف أو قرية أسرته في إبيانة أو إلى أرض اشتراها في إحدى قرى البحيرة ليبقى فيها أياما قبل اتخاذ قراره الخطير، وقد فعل ذلك عندما انضم إلى الثورة العرابية، وعندما قرر تأليف جمعية الانتقام بعد فشل الثورة، وعندما أراد أن يعد لثورة ١٩١٩، وعندم كان يستعد للقيام بثورته الثانية عام ١٩٢١.

وكان إيمانه بقوة الفلاح المصري يذهل أصدقاءه الذين يدركون التخلف السائد في الريف المصري، لكنه كان يقول إن ثورة تقتصر على المدينة أشبه بالحب الأفلاطوني الذي لا يلد شيئا، ولكن ثورة تمتد إلى الفلاحين هي التي تخصب وتلد وتؤدي إلى نتائج.

وكان إيمانه بالقرية أكبر أسرار نجاحه، ولعل هذا أيضا هو الفرق بينه وبين من نافسوه على زعامة مصر. فبينما كان سعد يشعر بالغربة في لندن مثلا، كان منافسه عدلي يكن باشا يحرص على ألا يتولى كي ثيابه إلا عند أشهر مكوجي في لندن وكان يرسل ملابسه بانتظام من القاهرة إلى المكوجي الخاص بكي ملابس اللوردات والدوقات والأمراء الإنجليز..! وبينما يصرح سعد زغلول وهو رئيس

وزراء مصر في حديثه لصحيفة التايمز اللندنية بأنه فلاح ابن فلاح، وأنه يفخر بأن أغلب أقاربه لا يزالون إلى اليوم يرتدون الجلاليب الزرقاء واللبدة والطاقية، ويحملون الفئوس، كما هو فخور بأن يكون زعيم الجلاليب الزرقاء. . بينما يصرح بذلك كان عدلي يكن باشا يفخر دائما بأنه من أصهار الأسرة المالكة وأن اسم يكن بالتركية معناه صهر السلطان! . . وبينما كان سعد يتباهي بأنه كان يذهب حافيا إلى الكتَّاب ويجلس على الأرض ويضربه الشيخ العريف عبد الحفيظ، وأنه درس في الأزهر مجانا، وعاش سنوات على الفول والبصل والطعمية.

كان عدلي يكن يتباهى بأنه لم يدخل أي مدرسة مصرية، وأنه تعلم فقط في مدارس الفرير. . وبينما أسرة عدلي يكن تحمل أسماء تركية مثل مدحت وجليباظ وجلوستان وباكيناز، نجد بين أخوات سعد: شلبي وستهم وفرحانة وشلبية.

وظل يحتفظ بجلبابه الريفي الذي أتى به من إبيانة إلى القاهرة يعلقه بجوار ثوب التشريفة الموشى بالقصب والمرصع بالأوسمة والنياشين ويتدلى منه سيف ذهبى يتجاوران بدولاب في غرفة ملاصقة لغرفة نومه، وكان إذا عاد إلى بيته خلع طربوشه وارتدى الطاقية، وكان يقول إنه يفكر وهي فوق رأسه خيرا من تفكيره وهو تحت الطربوش!

ويصف عباس محمود العقاد، ثقافة سعد بأنه كان عمليا في ثقافته كما كان عمليا في مساعيه وأخلاقه، فكانت مكتبته مكتبة الأزهري القانوني الوزير، لأنه نشأ في الأزهر، وبعدها درس القانون، ثم انتظم في سلك الوزراء ورجال السياسة، لهذا فرفوف مكتبته تضم كتب فقه دينى أو مدني أو دستوري، وغالبا ما يدعوه إلى قراءاته أمر عملي يحوم حول الكتاب متصلا بالسياسة، فقد قرأ كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للأستاذ علي عبد الرازق حين ثارت من حوله ضجة المعارضين ومنهم صاحب الكتاب، وقرأ كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين حين ثارت حوله مثل تلك الضجة التي تنبئ بمثل تلك النتيجة. . وكان حكمه على الشخصيات مجملا دون الدخول في تفاصيل تكوين الشخصية مثل ما قاله لمسيو جاريار الأثري الذي يعني بجمع آثار نابليون في القاهرة:

«ومن هو نابليون! إنه جزار وما قاله عن عدلي يكن عندما تحدث الحاضرون عن ولعه بالفنون الشعبية، فقال سعد: إن عدلي يكن أرستقراطي والأرستقراطي يأخذ ولا يعطي». وكانت اللغات الأجنبية التي يعرفها سعد هي الفرنسية فالألمانية فالإنجليزية، ولدراسة كل لغة سبب واقعي وعملي، فالفرنسية تعلمها لأنها ضرورية لدراسة القانون، والألمانية لأنه كان يتردد على ألمانيا في رحلة الصيف، والإنجليزية تعلمها منذ سنة ١٩١٩، وجدد اهتمامه بها في سيشل لأنها لغة لازمة في المفاوضات والعلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا.. ويذكر العقاد مشاهدته لكتاب ألمانيا الحديثة وتطوراتها لهنري لختنبرجر في مكتبة سعد زغلول الذي قرأه بعد ذيوع نهضة ألمانيا ومطامعها خلال الحرب العظمى، وعندما لاحظ العقاد وجود كتاب عن أصل الاعتقاد بالله لأستاذ الفلسفة بالمعهد الكاثوليكي بباريس دكتور سرتيانج، سأله عن موضوعه فأجابه سعد أنه اقتناه ليقارن بين أدلة علماء المسلمين وعلماء الغرب المتينين وغير المتينين على إثبات وجود الله، وجاء خلاصة رأيه وهو يرفع إصبعه إلى السماء: أنه يؤمن بالعناية الإلهية، وتلك كانت عادته كلما جد في السياسة المصرية طارئ لا يقع في الحسبان، فكان يقول إنها العناية الإلهية أو ياما إنت كريم يارب ويشير إلى السماء، والمعروف أن سعد زغلول التحق بالكتاب في السادسة وانتهى منه في الحادية عشرة، وتميز في تلك السن الصغيرة بموهبتين ظلتا ملازمتين له طوال حياته، وهما الفهم والعزم، فكان يحفظ قراءة اللوح من مرة واحدة، ويفرض على نفسه من الواجبات فوق ما يفرضه سيدنا، فيعيد في كل يوم ثلاثة أرباع من جزء المصحف بينما لا يطالب بأكثر من إعادة ربعين حتى حفظ القرآن، ولم يبق له ما يتعلمه في الكتاب، فذهب إلى رشيد ومطوبس ليدرس النحو والفقه وأصول التجويد بالجامع الدسوقي والقراءة على الشيخ عبد الله عبد العظيم مقرئ الجامع، ثم باتت النية على إرساله للجامع الأزهر، حيث لم تكن في إقليم الغربية على اتساعه مدرسة ابتدائية واحدة، ولم يكن بالقطر من مدارس ثانوية غير اثنتين إحداهما الخديوية بالقاهرة ورأس التين بالإسكندرية ولم يكن الطلاب يتزاحمون على الدراسة بل كانوا مع آبائهم يهربون من موظفي الحكومة الذين يجوبون القرى لاختيار النجباء من الأطفال لإلحاقهم بالمدارس

والبعثات، وكانت الثقة منعدمة في الحكومة التي يرى الأهالي أن التلميذ في عهدتها كالجندي الذي تسخره في خدمة لا شرف فيها، وتقذف به إلى البلدان السحيقة بلا أجر ولا عناية، وكان الأهالي يخافون من المدارس الحديثة على دين الأبناء بمثل ما يخافون على حياتهم وسلامتهم، لهذا جاء سعد والإصلاح إلى الأزهر على موعد، فقد التحق به في عام ٧١ في السنة التي أعطيت فيها شهادة العالمية الأزهرية لأول مرة، واختار سعد في دراسته الأزهرية فريق المتطلعين إلى الجديد هاجرا الفريق الذي يمضي في طريقه مغمض العينين التابع لما وجد عليه آباءه.. اهتدى سعد إلى طريقه بوحي من البداهة في سن مبكرة فسره لنا بعد خمسين عاما في خطبة ألقاها بالأزهر بعد عودته من أوروبا عام ١٩٢١، حيث قال: «جئت اليوم لأؤدي في هذا المكان الشريف صلاة الجمعة، وأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه، وكان له فضل كبير في النهضة الحاضرة، تلقيت فيه مبادئ الاستقلال، لأن طريقته في التعليم تربي ملكة الاستقلال في النفوس، فالتلميذ يختار شيخه، والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه ومتأهل له: يوجه إليه كل منهم الأسئلة التي يراها، فإن أجاب الأستاذ وخرج التلميذ ناجحا في هذا الامتحان كان أهلا لأن يجلس مجلس التدريس، وهذه الطريقة في الاستقلال التي تسمى الآن خللا في النظام جعلتني، أتحول من مالكي إلى شافعي، حيث وجدت علماء الشافعية في ذلك الوقت أكفأ من غيرهم».

في بعض أحاديث سعد كان يقول: «إن العمل للمصلحة العامة جذبة تستولي على الإنسان كجذبة الدراويش، وأنه لو شاور الفكر وحده لما اشتغل بالمصلحة العامة ولفضل عليها الاشتغال لنفسه ولذويه، لكنه الفكر والقلب معا اللذان يشعلان تلك الجذوة لدى البعض المحمود الخطى». وكان في مقدور سعد أن يبقى بعيدا عن وجع دماغ السياسة وملابساتها بعد فشل ثورة عرابي وتقديمه للمحاكمة وإصدار قرار بنفيه لجزيرة سيلان لكنها الجذبة.

ولقد أصبح سعد زغلول ابتداء من ١٥ أكتوبر ١٨٨٥، محررا في جزيرة الوقائع المصرية التي يرأس تحريرها الشيخ الإمام محمد عبده، وكان أول راتب يتقاضاه

سعد ثمانية جنيهات في الشهر، وبداية من فيراير ١٨٨٢» زاد راتبه فأصبح تسعة جنيهات وثلاثين قرشا، وكتب سعد عشرات المقالات في الوقائع المصرية يهاجم فيها الفساد ويدعو لحكم الشورى، ويتبنى نفس مبادئ وشعارات الثورة العرابية وسرعان ما يترك سعد الوقائع المصرية ليعمل في وظيفة معاون بنظارة الداخلية في مايو ١٨٨٢، ويتركها ليغدو ناظرا لقلم القضايا بمديرية الجيزة في سبتمبر ١٨٨٢، براتب خمسة عشر جنيها. ورغم ذلك الأمان المادي والوظيفي وقتها سعى بالاشتراك الفعلي في أحداث ثورة عرابي وكان من أركانها وذوي الرأي فيها على حداثة سنة وتم القبض عليه متهما بأنه عضو في جمعية سرية تسعى لقلب نظم الحكم ومكث في الاعتقال حوالي ١٠٥ أيام خرج بعدها عاطلا، فعدل عن التوظف واحترف المحاماة التي كانت تعد في نظر العالم مجالا للاحتيال والشطارة على القاضي والخصم والموكل، وكان اسم المحامي مساويا لاسم المزوِّر، ويعترف سعد زغلول فيما بعد: «إني اشتغلت بالمحاماة متنكرا عن أهلي وأصحابي وكلما سألني سائل: هل صرت محاميا؟! أقول معاذ الله أن أكون كقوم خاسرين!! وجملة القول إنني كنت أجتهد ألا يعرفني إلا أرباب القضايا وإن كنت أجهل ما تكون العاقبة؟!». لكن نزاهة سعد زغلول وشجاعته وجرأته هي التي جعلت لحرفة المحاماة مكانة مهمة ومتميزة، بل غدت أملا لمستقبل أبناء الأسر الكريمة والمعروفة، وأصبح المحامي سعد أهلا للدخول في أرقى المجتمعات، ويرجع إليه الفضل في إنشاء أول نقابة للمحامين ومن المحاماة أصبح أهلا لولاية القضاء، وقد سأله أحمد بليغ باشا في لجنة الامتحان: «ما هي واجبات المحامي؟ فقال: درس القضية جيدا والدفاع عن الحق واحترام القضاء». وهذا كان كلامه وعمله من يوم اشتغاله بالمحاماة التي لم يقبل فيها أبدا الدفاع عن باطل ولم يرفض أبدا الدفاع عن حق ولم يحضر أبدا في الجلسة إلا وقد درس جميع القضايا التي حضر للدفاع فيها، وكان سعد علم الأعلام في محيط المحامين، فمكتبة يدر عليه رزقا لا حصر له، وشخصيته الفذة تهز المحاكم ببراعته، وتعلن للملأ أن دراسة القانون يمكن أن تفرز قانونيا عظيما من غير مؤهل، وأرادت الحكومة أن تستفيد من هذه الشخصية النادرة فضمته قاضيا في إحدى محاكمها لينخفض دخله إلى عُشْر ما كان يحصل عليه،

لكنه قَبل ليؤكد للناس أن المحاماة مهنة رفيعة، بهذا التعيين رفعت الدولة قدر المحاماة وبصمت بمقامها الرفيع، ومنذ ذلك الوقت البعيد استعانت بمئات المحامين تغذي بهم وظائف قدس الأقداس العدالة.. ومن بعد القاضي بمدة قصيرة رقي سعد إلى مستشار لكنه أثناء تداوله في إحدى القضايا مع المستشار الإنجليزي عايره الأخير بأنه غير مؤهل، فما كان من سعد إلا أن نال شهادة القانون من فرنسا في نصف المدة المقررة، وبذلك تساوت الرءوس شكلا وموضوعا.

سعد زغلول الشيخ الأزهري حافظ القرآن لم يكن أبدا متعصبا، بل لقد وحد ما بين الصليب والهلال في مصر.. فقد كانت سياسة الإنجليز التفريق بين المسلمين والأقباط، ونجحوا في ذلك إلى أبعد حد، وجاء سعد عام ١٩١٩، ليجعل ثورته وطنية عمادها الأقباط والمسلمون معا، وكان بعض رموز وقيادات الرجعية تعارض تدريس الدين المسيحي للتلاميذ في المدارس الأميرية، فقال سعد زغلول كلمته التي نشرت في جريدة مصر يوم ١٦ ديسمبر ١٩٢٩: هل يجوز ترك فريق كبير من الأمة مجردا من الدين بالمرة؟!

وقال: «مادام الأقباط شركاء لنا في هذه الديار ومرتبطين في سرائر مرافقها فمن مصلحة البلاد الحقيقية أن يكونوا عالمين بأحكام دينهم متمسكين به، لأن الذي لا دين له لا أمان ولا وفاء له، لهذا يجب ألا تكون هناك أية قيود على إعطاء المواعظ المسيحية أو الكهنوتية أو اللاهوتية للمسيحيين في أي مكان لأن الدين يحمي الشباب بل الناس جميعًا من الانحراف ومن الخطايا والرذائل، ولو انتشرت المبادئ السامية لكل الأديان لحل السلام والأمان في العالم».

وسرت مبادئ سعد زغلول تؤاخي بين عنصري الأمة ليتبدى أكرم مثال عندما يتعرض مصطفى النحاس زعيم الوفد أيام وزارة إسماعيل صدقي لاعتداء في مدينة المنصورة، فيحميه صديقه ورفيقه في الجهاد سنيوت حنا بجسده فيصاب بطعنة سونكي مسمومة ليموت متأثرا بجراحه ليجسد أرفع نموذج للوحدة الوطنية والإخاء الديني.

وكان لنجاح سعد زغلول في توحيد المسلمين والأقباط أثره في جميع الحركات الوطنية في الشرق.. وقال غاندي في لندن سنة ١٩٣١: «لقد كان سعد زغلول

أستاذي. قلدناه في حركته الوطنية. قلدناه في فكرة تأليف الحزب من طبقات. كلما اعتقل الإنجليز طبقة حلت مكانها طبقة أخرى. ولكننا فشلنا في أمرين نجح فيهما سعد زغلول. أولهما توحيد الهندوس والمسلمين كما وحد سعد بين الأقباط والمسلمين، وثانيهما إضراب الموظفين. !». وزار صحفي أمريكي قادم من الهند سعد زغلول وأخبره بأنه قابل المهاتما غاندى الذي قال له: «سعد زغلول أستاذي في الوطنية وأستاذ كل الحركات الوطنية الجديدة في الشرق. وسر سعد بهذه التحية قائلا: هذا وسام ممن يملك منح الوسام».

وللمقارنة بين ما نعيشه من مهزلة برلمانية وبرلمان ١٩٢٦، يذكر أن سعدًا اختار صديقه عدلي يكن رئيس حزب الأحرار ليؤلف وزارة من الوفديين والأحرار، وانكمش الملك وحذفت من الميزانية بنود كثيرة عند عرض ميزانية القصر على البرلمان، وكان سعد إذا دخل إلى المجلس وقف له الأعضاء بمن فيهم من الوزراء وكان أمامه جرس معد يدقه رئيس المجلس إذا ما نشب خلاف بين النواب أو بينهم وبين الحكومة، ولم يدق سعد جرسه مرة واحدة خلال رئاسته، لأن العملاق المهيب كانت إشارة من يده تعيد الجميع إلى احترام النظام، ورفض سعد بقرار جماعي من النواب ألا يسافر الملك إلى الخارج دون أن يصحب معه وزير الخارجية، وأن يكون الوزير هو المتحدث الرسمي، وليس للملك حق الكلام أو إلقاء التصريحات، وبذلك تقوقع الملك ولزم حدوده.

سعد الشموخ الذي قبض عليه الإنجليز وهو على مشارف السبعين للمرة الثانية يوم ٢٣ ديسمبر، بعد عودته من المنفى في الرابع من أبريل من نفس العام، أتى وصفه على لسان الكاتب عبد القادر حمزة في كتابة «اذكروا سعدا»: و«ما مضت دقيقتان أو ثلاث دقائق حتى ضج فجأة كل الذين حولي، فنظرت فإذا سعد مقبل وأمامه ضابطان ومن خلفه حاجبه وخادم، وهم جميعا يمشون في نطاق من الجنود. رأيته يمشي بعد أن نزع من أهله وبيته وأحيط بالجند والسلاح، وفتح أمامه باب التضحية على مصراعيه مجهول الأول مجهول الآخر، فأقسم ما رأيت فيه وفي مشيته إلا بطلا عالي الرأس مطمئن النظرات.. ولوددت أن رآه معي في تلك

الساعة كل أبناء مصر. إذن لرأوا سعدهم أسدا هو أثبت ما يكون حين تنازله الحادثات، كان يمشي هادئا منبسط الجبين ليس في خطوه إسراع ولا تثاقل، ولا في نظراته، ولا في حركات جسمه أثر واحد يدل على قلق أو اضطراب، ويده اليسرى في جيب معطفه ويده اليمنى تحرك عصاه حركة عادية منتظمة كأنه لا يرى لكل ما هو واقع ولا لكل الذين هم محتاطون به وجودا أكثر من العدم. وما رأيته تلفت يمينا أو شمالا، ولا وقفت عيناه عند واحد من الذين يرافقونه مسلحين، ولكنه لما رآنا نحن واقفين مد نظره إلينا وسرَّحه فينا».

سعد زغلول الفارس من كان يألف ركوب الخيل صبيا، لأنها رياضة الرجال وظل يركبها في القاهرة ويفضلها على المركبات إلى ما بعد اشتغاله بالمحاماة.. سعد من لم تحسم تاريخ مولده إلا شهادة الليسانس التى حصل عليها من باريس، وتحمل تاريخ أول يونيو سنة ١٨٦٠.. سعد اليتيم من ترمَّلت أمه مريم في الثانية والعشرين لتعرف كيف تحنو عليه بالقسوة كما تحنو بالرحمة وكيف تغض عنه كما تهش له والتي استمد منها الابن الكثير من البأس والأصالة، وعندما أصبح مستشارا وبنى له بيتا في حي الظاهر طلب من أمه الحضور للإقامة معه ولم يكن قد تزوج بعد. فجاءت مريم ومعها حفيداها سعد ـ الذي تغير اسمه إلى سعيد كي لا يحدث لبس بين السعدين في بيت الأمة ـ ورتيبة التي تزوجت من أمين يوسف لتنجب أشهر توءم في مصر: مصطفى وعلي أمين اللذين تربيا في بيت الأمة في كنف سعد، وصفية هانم أم المصريين.. التي ما إن مات سعد الذي لم يستطع خصومه هزيمته حيًا حاولوا هزيمته ميتا، وعندما لم يستطيعوا طعنه في ذمته السياسية قرروا طعنه في ذمته المالية، فجاءت غضبة أم المصريين التي استدعت رئيس الوفد الجديد مصطفى النحاس فورا إلى بيت الأمة ليذيع للأمة بيانا على لسانها تقول فيه: «لقد اختلقوا الأكاذيب حول تركة الراحل الكريم الذي عفت يده ونفسه وضحى بكل عزيز لديه في سبيل أمته، وأسندوا له في البنوك وجود أموال طائلة، وسندات من أسهم قناة السويس باسمي في البنوك، موهمين أنها من أموال الأمة وحددوا مقاديرها بما ابتدعته تضليلا للأفهام وإني قطعا لألسنة السوء وإجلالا لوفاء الشعب لزعيمه، رأيت أن أنشر على الأمة وهي مصدر فخره والأمينة على ذكره البيان الآتي:

٧٨١ , ٧ جنيه و ٣٣ مليما قمية ما خصني في تركة المغفور له زوجي بحق الربع ، و٧٧٩ , ١٤ جنيه و ١٥٧ مليما قيمة ما هو باق لي من سنة ١٩١٥ إلى الآن من إيرادات عزبتي بمسجد وصيف البالغ مقدارها ٢١٠ فدادين و ٢١ قيراطا وثلثا سهم ، وهى التي خصتني في وقف المغفور له والدى ويدخل في ذلك مبلغ ٠٥٠ , ٣ جنيها قيمة إيرادات هذا العام ، والتي حصلت بعد وفاة المرحوم زوجي ، ومبلغ ١٩٢٧ جنيها قيمة ما ورثته في النقود المخلفة عن المرحوم والدى .

هذا وليس لي مال ولا عقار غير ذلك ، ولم يكن لي في حياة المغفور له زوجي ولا بعد وفاته مال ولا سندات غير ما ذكر » .

بيت الأمة في ٣ فبراير ١٩٢٨

صفية زغلول

سعد زغلول الذي مات في مرحلة من مراحل السياسة فيها الدستور قائم لا يعلم مصيره ، والمفاوضات على القضية المصرية ماضية لا يعلم مصيرها ، والمساعي كثيرة والفروض أكثر ، وكان سعد وحده ميزان الأمور في بحور تتلاطم فيها المساعي والفروض . . سعد الذي تزعم شعبنا المصري في عصر من أسوأ عصور التخلف الإسلامي والعربي والمصري وفي فترة بلغت شراسة الاستعمار فيها حدا أجاز لإنجليزا أن تسمى بالإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس . . سعد ناظر مدرسة الأحرار الثائر على الأوضاع الذي فتح أمام المواهب والقدرات كل المنافذ والأبواب ولم يكن يستطيع الفصل يبن التفوق الدراسي والأخلاق الرفيعة ، ومن ملاحظاته في هذا المجال أنه استعرض الطلبة المرشحين لإحدى البعثات ، فسأل أحدهم وقد استكبر سنه : «هل تزوجت؟ فأجاب الطالب : نعم! عاد سعد يسأله : وكيف تصنع بزوجتك وأنت مقدم على سفر في أوروبا لبضع سنوات؟! ورد الطالب في بساطة متناهية : طلقتها يا باشا!» . وأمر سعد زغلول بحذف اسم الطالب من البعثة قائلا في حزن وغضب : مثل هذا لا يؤتمن على تعليم!! . . ولم تكن الأخلاق والمبادئ تتجزأ عند سعد إنسانا كان أو وزيرا ، فحدث أن رشح أحد النواب من أنصاره وزيرا ، ثم علم سعد أن هذا الرجل طلق زوجته بعد زواج دام عشرين سنة ، بعد أن

اكتشف أن زوجته سيئة السمعة، فعدل عن ترشيحه للمنصب، وكان يقول لمن حوله: «إن الرجل الذي لا يستطيع أن يكتشف سوء خلق زوجته إلا بعد عشرين سنة لا يستطيع أن يكتشف الأخطاء في وزارته إلا بعد مائتي سنة»!!

أفكار جذابة مدهشة تبدأ بشكل آخر تماما. مشروعات سياسية ضخمة في مستهلها هادرة ضاغطة مسيطرة كاسحة بريقها يخطف الأبصار يحشد الأنصار مثل الحركة المهدية في السودان التي بدأت بحركة نضال كبير ضد الإنجليز، وفي نهايتها تحولت إلى قزم سياسي.. السنوسية في ليبيا بدايتها حركة كفاح وطني نبيل ضد استعمار الطليان ونهايتها مجموعة من الدراويش.. الماركسية في مستهلها وهج ولمعان وأحلام الرفاق بالمساواة والعدل الاجتماعي انتهت بعد أقل من قرن إلى بيت من ورق.... الفكرة تقاس دائما بقدرتها على الاستمرار والصمود والتتالي والتغلغل مثل الحضارة الصينية والحضارة الهندية.. هذا بينما ينقطع الاستمرار كما حدث مع الحضارة الفرعونية لتسقط في هوة سحيقة تبتر بأبعادها المظاهر والدوافع والدلالات والشخوص والمعاني حتى لا يعود لدينا سوى حق فك طلاسم حضارتها فقط من فوق الجدران ووجوه التماثيل ومصاطب الأهرامات، ولا يعود ذكرها اللهم إلا إذا أحرزنا هدفا في مباراة الكرة فنهتف الفراعنة غلبوا.. أما إذا!!! فالحضارة صامتة لا حس لها!! التحدي في كيفية الاحتفاظ بالقمة لتظل الصورة مطابقة للأصل وليس النقيض مثلما حدث مع حزب الوفد الذي أصبح اليوم غير الوفد أيام سعد.. حدث الشرخ العظيم. نهاية لا تمت للبداية.. تم الفصل في الوجدان بين ما بدأ به الوفد وما انتهى إليه.. بين الصرح والطرح.. بين الملحمة والملحة.. بين الالتفاف وإعطاء الظهر. بين الالتحام والاكتئاب.. بين الثريا والثرى.. بين اللي جوه القلب والقعودع القلب.. بين الاختيار وبين المكوث بقرار.. وكان لنا شرف المحاولة لرؤية الأصل وليس الصورة الكاريكاتورية.. وابقوا معنا!!

النحاس

انحنى محمد عبد الوهاب على يد الزعيم مصطفى النحاس يقبلها كعادته فجذبها منه زاجرا لأنه غنى بحبه مهما أشوف منه ومهما الناس قالت عنه فكيف بالله يرضى الهوان من أي مخلوقة ولو كانت ست الحسن والجمال، وهو الذي غنى حب الوطن فرض علي، وأيها الخفاق.. وعاد عبد الوهاب يسترضيه فأواصر المعرفة قديمة بين الزعيم والمطرب تعود إلى زمن استمع فيه إليه لأول مرة في كرمة ابن هانئ على شاطئ النيل عام ١٩٢٦، وكان مصطفى وكيلا لمجلس النواب مدعوا مع سعد زغلول إلى فرح علي شوقي ابن الشاعر الكبير أحمد شوقي، حيث غنى عبد الوهاب للعريس بين يدي سعد باشا:

دار البشاير مجلسنا وليل زفافك مآنسنا
إنشالله تفرح يا عريسنا إنشالله دايما تفَّرحنا
الشمس طالعة في التللي وردة وعليها توب فللي
ملحة في عين الحسود اللي ما يقولشي ع النبي صلي

وظل عبد الوهاب من المقربين للنحاس حتى إنه كان المطرب الوحيد الذي أحيا حفل عقد قرانه على زينب هانم الوكيل، حيث نشرت الصحف الخبر الهام في ١٣ يونيه ١٩٣٤، تحت عنوان دولة النحاس باشا الاحتفال بعقد قرانه أمس، وجاء في السطور قبل أن وافت الساعة السادسة من بعد ظهر أمس أخذت السيارات المقلة للعظماء والكبراء والوزراء السابقين والوجهاء تيمم تجاه ضاحية حدائق القبة إلى شارع شفيق باشا، حيث تقوم دار آل الوكيل الكرام أصهار حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا، ففي هذه الدار تولى حضرة صاحب الفضيلة

الشيخ إبراهيم الغاياتي صيغة عقد قران دولته بسليلة المجد الآنسة النجيبة زينب الوكيل هانم كريمة حضرة صاحب العزة عبد الحميد الوكيل بك عضو مجلس النواب السابق، وكان ذلك في حفل كريم من العظماء. وقد وزعت عليهم الحلوى والمرطبات وأخذ المصورون صورا عديدة لدولة الرئيس والحفلة الأنيقة. ثم جلس دولة الرئيس في وسط الحفل المبتهج واستمعوا إلى قصيدة عامرة ألقاها الشاعر الكبير عباس محمود العقاد، ثم وقف المطرب المبدع الأستاذ محمد عبد الوهاب فأطرب الحاضرين بصوته العذب الحنون في قطعة ترنمت بها نبرات الموسيقى:

النيل يهنئ بفرحة شخصك الغالي

والأمة تهتف وصوتها في الهتاف عالي

دولة مصطفى النحاس.. الوحيد المتفرد على أرض مصر أول من سبق اسمه لقب دولة.. كان لقاؤه الأول بسعد زغلول في عام ١٩٠٩ عندما كان يشغل موضع العضو الشمال في إحدى الدوائر القضائية بمحكمة القاهرة في الدائرة التي يرأسها صالح حقي باشا، وأثناء نظر إحدى القضايا مال رئيس الدائرة على عضو اليمين وتحدث معه، ثم مال على عضو الشمال مصطفى النحاس وقال له باستخفاف: «سنصدر حكما بكذا، فقال النحاس: أنا لي رأي آخر ويجب في هذه الحال الانتقال إلى غرفة المداولة»، ولكن حقي باشا لم يستجب لطلب النحاس ونطق بالحكم، فما كان من الأخير إلا أن قال لكاتب الجلسة بصوت عال وعلى مرأى ومسمع من جمهور المتقاضين وغيرهم من المواطنين داخل قاعة المحكمة: «اكتب أنه لم يؤخذ برأي عضو الشمال في هذا الحكم».

وحدثت ضجة كبرى داخل القاعة مما اضطر حقي باشا إلى رفع الجلسة والانتقال إلى غرفة المداولة، وترتب بعدها بطلان الحكم، ولم يجد حقي باشا ما يشفي غليله إلا أن يشكو النحاس إلى وزير الحقانية وقتها سعد زغلول الذي استدعى إليه النحاس لتكون المقابلة الأولى بينهما التي أسفرت عن اعتزازه بموقف النحاس فأصدر قرارا بنقله قاضيا جزئيا تكريما وإعجابا بشجاعته، وتمضي مسيرة سعد زغلول الوطنية ليتم تأليف الوفد المصري في نوفمبر ١٩١٨، استعدادا للسفر إلى

بريطانيا من ثلاثة من المنتمين للحزب الوطني كان النحاس أحدهم، ومن يومها أصبح النحاس سكرتيرا عاما للوفد وأقرب الشخصيات إلى قلب سعد، وعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩، كان زميل المنفى، بعدما اعتقلت السلطات سعد زغلول ومصطفى النحاس وفتح الله بركات وعاطف بركات وسينوت حنا ومكرم عبيد في ٢٣ ديسمبر ١٩٢١، وقامت بنفيهم إلى جزيرة سيشل، وأمام الثورة العارمة للشعب اضطرت انجلترا إلى إطلاق سراح الثوار.

وبعدها صدر دستور ١٩٢٣، الذي جعل السلطة للشعب وليست للملك.. وتوفى سعد في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ويجتمع الوفد المصري ليقرر في ١٩ سبتمبر ١٩٢٧، انتخاب النحاس رئيسا له وبالتالي زعيما للأمة، ومع افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة لمجلس النواب ينتخب مصطفى النحاس رئيسا خلفا لسعد زغلول الذي قال عن النحاس: «رجل ذو قلب طيب، ومبدأ ثابت، يميل إلى الثرثرة ولكنه خفيف، به خفة ورعونة يميل إلى الخيال، سريع الانفعال ولكنه لا يتغير بتغير الأحوال، وطني مخلص وهو فقير مفلس. ذكي غاية الذكاء، وفي كل الوفاء، وله في نفسي مكان خاص، ولم يكن سعد حتى النهاية يخفي حبه للنحاس حتى أطلق عليه النحاس سيد الناس».

يحيا النحاس.. نداء دوّى في سماء مصر منذ أواخر العشرينيات حتى أوائل الخمسينيات، قام فيها النحاس بتوقيع معاهدة الاستقلال عام ١٩٣٦، أفضل ما كان يمكن أن يحصل عليه في ظل الاحتلال، وفى عام ١٩٥١، قام بإلغائها معلنا الكفاح الوطني الشعبي ضد الاحتلال ليقول مقولته الشهيرة في ٨ أكتوبر ١٩٥١، في مجلس النواب: لقد وقعت معاهدة ٣٦ وها أنا اليوم أطالبكم بإلغائها.. وقام بتوقيع أول ميثاق لجامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، كأول خطوة للوحدة العربية، وقام بإصدار أول قانون لنقابات العمال. وتولى الوزارة في ٤ فبراير ١٩٤٢، بمفهوم إنقاذ مصر من شر مستطير كانت ستتعرض له لو رفض.. وأيده الكثيرون وعارضه البعض بدعوى لقد أتى النحاس على أسنة رماح الإنجليز.

وأيا كان الحكم وأيا كان الدفاع فسيبقى النحاس رمزا للديمقراطية ورمزا للدستور

ورمزا للكفاح الوطني الطويل الذي تم التعتيم على صاحبه ليدرج عنوة وبفعل فاعل في أضاريب النسيان، فقد حددت إقامته حتى وفاته في بيته بجاردن سيتي، وحذف اسمه من كتب التاريخ المدرسية ليتم العبور من فوقه كأن لم يكن ليذكر من أسماء الزعماء المصريين محمد كريم وعمر مكرم ومحمد علي وابنه إسماعيل وعرابي وهوجته مرورا بالأفغاني الضيف ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول، وبعدها قفزة واسعة تهبط إلى اسم جمال عبد الناصر ويسقط اسم مصطفى النحاس الجليل الذي قضى سنواته الأخيرة كالأسير يعاني مرارة الجحود والظلم والإهمال، حيث كانت الصحف لا تذكر اسمه إلا تهجما أو تهكما أو تحاملا على جيل بأكمله. . جيل السياسيين المصريين الذين انتزعوا مقاليد مصر من براثن الترك والشركس والأغوات، ومن بعد ما ختمت على أسماعنا أسماء نوبار وباغوص ورفقى ولاظوغلي أصبح الوزراء يحملون أسماء زغلول والنحاس والغرابلى وأبو علم وويصا واصف، رجال من طين مصر عشقوا مصر فأفنوا حياتهم فيها، ومع ذلك تعرض تاريخهم لأبشع أنواع التلطيخ والتزوير بينما لا يملكون دفاعا عن أنفسهم فيلوذون بجدران بيوتهم حتى يأتيهم الموت فقراء فيحسبهم الجاهل أغنياء من شدة التعفف.

الزعيم الذي كان جيرانه في جاردن سيتي يشاهدونه قبل وفاته محمولا فوق مقعد بواسطة البوابين وسياس الجراجات للانتقال لمكان العلاج ترشيدا للنفقات التي تتضاعف إذا ما تم العلاج في مسكنه. . السياسي النزيه الذي أجبر على اعتزال الحياة السياسية لم يكن له دخل إلا معاشه الصغير في عام ١٩٥٣، الذي لم يتجاوز ١٢٠ جنيها، فهو لم يرث الأطيان ولا القصور فاضطرت زوجته إلى بيع مصاغها وبعض قطع أثاث منزلها لمواجهة أعباء المرض، واضطر النحاس إلى التخلص من سيارته الخاصة بالبيع مع تسريح سائقها، وفي عام ١٩٥٥، عجز تماما عن مواجهة الحياة فقامت زوجته ـ كما جاء على لسان النحاس ذاته في مذكراته التي أملاها على سكرتيره الخاص محمد كامل البنا ـ بالاتصال بجمال عبد الناصر تطلب إليه أن يدفع إليها مبلغا من إيراد أملاكها التي صودرت، ورد عليها سامي شرف وسألها

ماذا تريدين من الرئيس فقالت في أمر شخصي فتركها على التليفون وغاب طويلا، فعادت لتطلب محمد أحمد أحد أعضاء سكرتارية عبد الناصر الذي أوصلها به:

ـ أنا زينب الوكيل حرم الرئيس السابق مصطفى النحاس.

ـ أهلا وسهلا.. فيه حاجة؟

ـ تعلم أن كل ما أملك قد صودر، وأصبحت لا أجد ما أستطيع أن أواجه به مطالب الحياة، وأنا مسئولة عن زوجي الذي مهما يكن رأيكم فيه فلا ينكر أحد أنه ظل يخدم الوطن أكثر من ثلاثين عاما وقدم له ولغيره من الأوطان العربية ما قدم فهل ترضى أن يهان في أخريات أيامه وألا يجد ثمن الدواء؟

ـ لا لست راضيا ولا أقبله فماذا تطلبين؟

ـ أطلب أن تأمر بصرف مبلغ لي من إيراد أموالي التي تحت يد الحكومة لأنفقه على مطالب الحياة.

ـ سأفعل وسآمر المختصين بأن يصرفوا لك مبلغا يكفي لنفقات النحاس الذي لا ننكر أنه تولى زعامة مصر أكثر من خمسة وعشرين عاما فلم يستغل ولم يسرق ولم يختلس.. وانتهت المحادثة وبعد يومين اتصل بها محمد أحمد قائلا: إن سيادة الرئيس أمر بأن يصرف مبلغ ثلاثمائة جنيه شهريا للإنفاق منها على النحاس، وحينما انتقل الزعيم إلى جوار ربه في ٢٣ أغسطس عام ١٩٦٥، توقف صرف معاشه الرسمي في أول سبتمبر ١٩٦٥، وورثت الحكومة نصف معاشه الأصلي المستحق له، وصرفت لحرمه النصف الباقي وقدره ٦٢,٥ جنيه.

وهو نفس ما حدث له مسبقا في عام ١٩٣٠، عقب خروجه من الحكم، عندما أراد إسماعيل صدقي باشا أن ينكل به فخفض هذا المعاش إلى النصف بحجة أنه أضاف مدة النفي التي قضاها في سيشل وهي حوالي عامين إلى مدة خدمته في الحكومة، واعتبر صدقي أن تلك الإضافة أمر لا تجيزه اللوائح، ووقتها أسقط في يد النحاس فقد كان يعطي شقيقته من معاشه قبل تخفيضه عشرة جنيهات وأولاد أشقائه خمسة عشر، وكانوا يسكنون معه في شبرا في شقة بالدور الأخير.

واضطر النحاس للاقتراض من بنك مصر ووافق طلعت حرب على إقراضه بالتقسيط، ورفع النحاس دعوى وحكم له القضاء وتم رد قيمة القرض من المبلغ المتجمد من فرق المعاش، لكنه عاد لاقتراض مبلغ ٣٠٠٠ جنيه وهو ما كان يعادل معاشه لمدة عامين كاملين، وفي عام ١٩٥٠، أرسل إليه الدكتور محمد مصدق رئيس الحكومة في إيران سجادة صلاة هدية كان حجمها لا يزيد على ثلاثة أرباع متر، ولما لم يكن من حق أي شخص سوى الملك استلام هدية من الخارج دون تحصيل رسم الجمارك قبل النحاس الهدية وظل يدفع القسط المطلوب شهريا، وكان المبلغ كله ٢٠٠ جنيه بما يعادل مائة في المائة من قيمة السجادة.

زعيم الأمة الذي بدأ حياته موظف تلغراف في مسقط رأسه سمنود ضمن سبعة إخوة لتاجر الأخشاب محمد النحاس، وهم بالترتيب أحمد، وسالم، ومحمد، ثم مصطفى وبعدهم ثلاث شقيقات.. الذي ثار وغضب وانفجع لأن أطفالا لا جريرة لهم قد تناولوا في مصر القديمة خبزا مخلوطا بنشارة الخشب، فما كان منه وهو رئيس للوزراء إلا إرسال الأساتذة المحامين لبحث المسألة ورفع دعوى على الحكومة بطلب التعويض والحكم بالسجن على الذين قاموا بالغش، وفي اليوم التالي توجه إلى مسجد عمرو بن العاص لتأدية فريضة الجمعة وسأل عن منزل والد الأبناء الذين تناولوا الخبز المخلوط، فدله الكثيرون على البيت المتواضع فجلس وحوله الأطفال يواسيهم ويعطي كلا منهم مبلغا فضيا، واختلى بالوالد ليمنحه مبلغا يستعين به على الحاجة فتعفف طويلا عن قبوله.. الفلاح الذي كان يحلو له أمام الملك فاروق أن يخلع طربوشه ويمسح عرق رأسه بالمنديل كما يفعل أى شيخ غفر.. الوطني الذي قطع إجازته بعد أول يوم فيها ليعود بالطائرة التي يركبها لأول مرة ليهنئ بقيام الثورة في مبنى قيادة الجيش في كوبري القبة بعد منتصف الليل فيلاقيه محمد نجيب معانقا متحمسا.

«أما الضباط الذين كانوا في الحركة ولم أكن أعرفهم فقد استقبلوا حضوري بصمت وسكون عَزَوْتهُ إلى المفاجأة وعدم معرفتهم بي». الثوري الذي لم يقف أمام محكمة الثورة وهو ما يعني أنه لم يكن لدى الثوار ما يمكن إدانته به أو حتى

الشوشرة عليه . . الحريص على الصلاة في أوقاتها الذي جاء والده ليدخله المدرسة في القاهرة فذهب به رأسا إلى ضريح سيدنا الحسين ليقف به أمام المقام قائلا في خشوع : «سلمت لك مصطفى»، وظل مصطفى يذكر تلك الوقفة طيلة حياته . . من لم يتناول خمرا ويكره السجائر ويعزف عن القهوة ويشرب الينسون بدلا من الشاي على الإفطار .

شديد النظافة إلى حد الوسوسة من الميكروبات حتى إنه كان لا يلمس الدواء بيده وإنما ينقله بمشبك بعد تطهيره في كل مرة قبل تناوله . . من صفعه مواطن على وجهه وهو رئيس وزراء فذهب يشكوه في أقرب قسم . من قال في مذكراته إنه هزأ من الخبر المؤسف ورأى أنه إلى الهزل أقرب منه إلى الجد، عندما قالت الصحف إن جلالة الملك المعظم ينتسب من جهة والدته الملكة نازلي بنت عبد الرحيم صبري إلى الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، وأعلنت الصحف أن هذا الكشف قد توصل إليه وزير الأوقاف الهمام صاحب المعالى حسين الجندي باشا، وأن الذي أرشده إلى هذا الاكتشاف الخطير وباركه هو السيد محمد الببلاوى نقيب الأشراف في مصر وخطيب مسجد الإمام الحسين .

فاروق ابن نازلي التي يتصل نسبها بلاظوغلي تصبح بين عشية وضحاها من آل البيت النبوي الكريم ويتصل نسبها بخاتم المرسلين سبحانك . . ضحكتُ كما لم أضحك في حياتي وتذكرت المثل اللي يعيش ياما يشوف . . من وصفته فاطمة اليوسف بأنه بسيط للغاية طيب القلب ذو وجه صريح القسمات، وعندما نشرت روزاليوسف مقالا عن حياته الشخصية ثار وغضب بشدة معترضا بأنه ليس إحدى زهرات المجتمع . . من شاهدوه وهو يلقي خطبة وصفوا كيف كان في منتصف الخطاب يتوقف عن الاسترسال ليعنف شخصا قاطع حديثه حتى ولو بالهتاف .

من كان يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه . . من تعرض في حياته إلى سبع محاولات اغتيال، منها ما حدث في ٢٥ أبريل ١٩٤٨ ، حيث تم تفجير سيارة ملغومة أمام منزله : شاءت قدرة الله أن تنزل قطعتان كبيرتان من الديناميت فوق الناموسية التي كنت أنام تحتها وأمامي كتاب الله على

الكومودينو ونجا النحاس. وكتب السادات أن ناصر كان يرى في النحاس وليا من أولياء الله ومن يجيء عليه لا يكسب.

ويدخل مصطفى النحاس في ١٢ مايو سنة ١٩٤٣، قاعة البرلمان الخاصة بالنواب منتصب القامة، ومن خلفه أحد الحراس يحمل حقيبة كبيرة يفتحها خلال ردوده على استجواب «الكتاب الأسود» الذي قام بإعداده مكرم عبيد الرجل الأول في الوفد بعد النحاس، وسكرتير الوفد ووزير ماليته الذي أطلق عليه في شبابه ابن سعد البكر.. وكانت بين مكرم والنحاس مودة وثقة بالغة زادها نفيهما معا إلى سيشل.

وكان لمكرم يد في اختيار زوجة صديقه حيث توثقت العلاقة بين السيدتين أيضا، وبقي شهر العسل الدائم بين الرجلين حتى مايو ١٩٤٢، عندما طلب النحاس من مكرم الاستقالة فحدث الخلاف الحزبي، وخرج مكرم من الوفد ليؤلف حزب الكتلة الذي سانده القصر، وأعد مكرم كتابه الأسود بمعاونة القصر ومندوبه أحمد حسنين وتم توزيع الكتاب سرا ليحدث ضجة في مصر وخارجها، ويقدم بعدها مكرم استجوابه الشهير لصاحب المقام الرفيع ليضم ملخصا للكتاب يقع في ٢٦٠ صفحة ويحوي ٥٢ سؤالا حول وقائع مهمة قام النحاس بالرد عليها، فنال تجديد الثقة بإجماع ٧٦ نائبا ما عدا عشرة.

يفتح النحاس الشنطة ليخرج منها للمجلس ست قطع من الفراء الحريمي الثمين، كل منها فراء لثعلب كامل.. طول القطعة من الرأس إلى الذيل ٧٠ سم وطول الذيل ٢٧ سم، وعرض الظهر والبطن ١٨ سم، وكان يفردها وهو يقول للمجلس: هذه هي قطع الفراء التي ترتديها زوجتي انظروها.. هل تساوي القطعة ٥٠٠٠ جنيه، كما نقل مكرم عبيد عن كتاب الجغرافيا الاقتصادية (ضحك) أم تساوي ستة عشر جنيها على أكثر تقدير، وكما قدمنا الدليل المادي على ما نقول.. أترك لكم بعد كل هذا تقدير ما سمعتم وما رأيتم ومقارنته بما سمعتموه وتبينتموه من صاحب الاستجواب! (تصفيق حاد).

وكانت صحف أخبار اليوم تهاجم النحاس وتخصص مقالاتها وعناوينها

ورسوماتها الكاريكاتورية للنيل منه، وبعد وفاته كتب مصطفى أمين حزينا نادما آسفا قائلا: عرفت الرجل عشرات السنين. . أحببته وحاربته، وسجنت من أجله وفصلت من المدارس بسببه واختلفت معه في الرأي وهاجمته وهو رئيس حكومة، فلم يفكر أن يضعنى في السجن ولو كنت كتبت في عهد الدكتاتورية عن سكرتير أحد الوزراء ما كتبت عن النحاس لشنقوني أو أعدموني رميا بالرصاص

ومن حق النحاس عليّ أن أشيد به وأن أذكره كرجل قاد كفاح هذه الأمة، وضحى في سبيلها ونفي من أجلها، وحمل الزعامة بعد سعد زغلول، وأخطاؤه كانت جنحا بالنسبة للجنايات والجرائم التي ارتكبت بعد ذلك. . ولقد خرجت الملايين لتشييعه إلى مثواه الأخير هاتفة عشت زعيما ومت زعيما، وعندما قبض على بعض من مشوا في الجنازة قيل إن قرار القبض يقضي باعتقالهم إلى الأبد. . فأتى الرد عليهم: أنتم لا تملكون الأبد. . وعندما نقلب في بعض الصفحات التي ندم عليها مصطفى أمين نجد مجلة آخر ساعة قد خصصت بابا زجليا أسبوعيا كان يكتبه الزجال سعيد عبد ه ويرسمه الفنان صاروخان جاء فيه أيام عرض فيلم «فاطمة» الذي لعبت بطولته أم كلثوم زجلاً على نمط أغنيتها في الفيلم «ح أقابله بكره وبعد بكره». . يغني فيه مكرم عبيد على العود تحت صورة النحاس:

ح أبـوسـه بـكـره وبـعـد بـكـره
وبـعـد بـعـده أبـوسـه بكـره
ح أبـوسـه بـكـره
يـا كـتلة هيـصي ح أبـوس عـريسي
صـفصف رئيـسي في شـفـايفـه بكره
أقـول لـه أهلا يقـول لي مـهـلا
ولما أبـوسـه أقـول لـه بـكـره
ح أبـوسـه بـكـره
يـا قلبي جـالك سـواد كـتـابك
واللي جـرالك عـمـره مـا يجـرى

ح ارجع لعــــــهــــــده وامــــــدح عــــوايده
وادخل في وفـــده في العـــمـــر مـــرة
مـــا دام يا قلبي حـــتـــبـــوســـه بكره
ح اقـــعـــد لوحـــدي في الكتلة بكره
أغـــســـل عنيـــــه واحط قطرة
أنا حـــر أعـــشق وحـــر أكـــره
الليلة أحـــبـــه وأحـــاربه بكره
ح أبـــوســـــــــه بـــكـــره
يا ريت يا قلبي في كل قـــبـــلة
تيـــجي اســـتـــقـــالة من عـــضـــو كتلة
يا نجـــيب هلالي يا فـــؤاد غـــالي
قـــولوا لرئيـــسي راح أبوســـه بكره
والعـــمـــر كله يهنا لنا بكره

لقد استمد الوفد شرعيته من موقفه الوطني تحت قيادة رجلين هما . . سعد والنحاس . . والناس الآن عندما تتكلم عن الوفد تقعد تفتكر وتتذكر وتقلب الصفحات، وكان زمان وعلى ذكر الأيام، فالوفد أصبح تاريخا بعدما انتقل حاضره من صفحة السياسة إلى صفحة الحوادث . . . . لقد كانت الأحزاب بما فيها الوفد جزءا من حيوية مجتمع أعضاؤها لاعبون وليسوا متفرجين أو كومبارسًا . . في زمن النحاس كانت المباراة الديمقراطية حامية الوطيس بين أحزاب الأمة .

فإلى جانب الوفد كان حزب الأحرار الدستوريين بزعامة محمد حسين هيكل باشا، وحزب السعديين بزعامة الدكتور أحمد ماهر باشا، وحزب الكتلة الوفدية بزعامة مكرم عبيد باشا، والحزب الوطني بزعامة حافظ رمضان باشا، وحزب مصر الفتاة بزعامة أحمد حسين، وجماعة الإخوان المسلمين بزعامة الشيخ حسن البنا، وأربعة أحزاب شيوعية غير معلنة، وحزب الفلاح .

وبجانب الأحزاب الرسمية المعلنة كانت هناك عشرة أحزاب أخرى معلنة ورسمية، ولكنها غير مؤثرة أو منتشرة على أرض الملعب.. ولقد أصبح حضور الوفد في الإدراك الوطني نحيله إلى النحاس الميراث المشترك لكل المصريين، وبالتالي أصبح مصطفى النحاس هو الحاضر الغائب.. موجود وغير موجود، وما هو غير موجود نفتقده، وكما يقول الصوفية: إذا غاب.. حضر!!

محمد نجيب المنسي

في وقتها ووقته كان الأستاذ محمد حسنين هيكل يستقبل في مبنى الأهرام الجديد بشارع الجلاء ضيوفه من ملوك ورؤساء وزعماء يتجول بهم بين طوابق وردهات ومكاتب المبنى يشهدهم فخورا بمدى ما وصلت إليه صحافة مصر من رقي في المكانة والمكان . . ولم أزل أذكر دخلته عليّ في مكتبي وفي ضيافته الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ومن بعدها الزعيم معمر القذافي، وفي اليوم الذي خرجت فيه من مكتبي مصادفة لقيته في الممر وكان في صحبته شاب ظننته شقيقه الصغير فقدمنا لبعضنا باقتضاب هيكلي يراقب معه بحب استطلاع شغوف مدى ردة فعل المفاجأة على شخصي الضعيف . . ذكر له اسمي ليشير إلى الناحية الأخرى في تقديمه : الملك حسين!! ودارت الأيام ووجدته أمامي . . محمد نجيب رئيس الجمهورية الأسبق . . يسير وحيدا في نفس الممر بخطوات زاحفة لشيخوخة هدها المرض والأسى، فهرعنا إليه معا أنا والزميلة شريكار على ندعوه لمكتبنا لاحتساء القهوة على طريقة عزومة المراكبية، وفوجئنا به يطاوعنا وكأنها محطة استراحة بعد جهد مشوار التف فيه حول حوائط الدور الرابع في طريقه للخروج بعدما قام بتسليم مقال له لمكتب رئيس التحرير، وفي دردشة الدقائق وسط عبارات المجاملة التقليدية أطلعنا الرجل الودود أنه عمل مثلنا صحفيا وكان ذلك في جريدة اللواء التي أنشأها الحزب الوطني في أواخر عام ١٩٢٠ . وأنه التحق بجريدة السياسة التي كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين، وكثيرا ما كتب في مجلة الجيش منذ عام ١٩٣٧ . . وقام متساندا ليتلاقي عزمنا معا أنا وهي على اصطحابه داخل الأسانسير للدور الأول تأثرا وتبجيلا لرجل كان يوما رئيسا لجمهوريتنا، جاء السادات ليرفع عنه أخيرا قيود الحراسة . . اللواء محمد نجيب؛ الذي كان يرفض في كتابة إهداء

كتبه عبارة الرئيس الأسبق . . القائد الذي قال عنه عبد الناصر أثناء زيارته لقرية بني مر مسقط رأس ناصر : «باسم هذا الإقليم أرحب بك من كل قلبي وأعلن باسم الفلاحين أننا آمنا بك، فقد حررتنا من الفزع والخوف، وآمنا بك مصلحا لمصر ونذيرا لأعدائها»، ووضعه البكباشي أنور السادات على رأس أعظم عشرة رجال في العالم في استفتاء أجرته مجلة المصور العدد (٤٩١) الصادر في ٨ مايو ١٩٥٣، أي أن نجيب وهو رئيس مجلس قيادة الثورة كان في نظر السادات أعظم رجل في العالم، وقال عنه عبد الحكيم عامر لجمال عبد الناصر : «لقد عثرت على جوهرة» وكان يعني بذلك اللواء محمد نجيب لأنه رأى فيه النموذج الأمثل لقيادة حركة الضباط لشعبيته في صفوف الضباط والجنود وصفاته الوطنية وتأييده لرغبة الضباط الأحرار في التغيير وإنقاذ البلاد من مساوئ فساد الحكم . . واعتبرته جريدة التايمز اللندنية رجل العام لسنة ١٩٥٢ . . وكتب عنه مصطفى أمين : «وقفت مع جمال عبد الناصر ضد محمد نجيب فقد كان من رأيي أن ناصر أصلح للقيادة من نجيب، ولم تتأثر صداقتي لنجيب بسبب هذا الموقف، فقد كان الرجل طيب القلب لا يحقد ولا يكره ولا ينتقم، وزارني عدة مرات في مكتبي بأخبار اليوم بعد خروجي من السجن، وفي أول مرة أوصلته لباب سيارته، وفي المرات التالية كان يقسم بألا أودعه إلا على باب المصعد».

محمد نجيب يوسف عباس القشلان من ترجع جذوره إلى قرية النحارية في الوجه البحري التي تبعد عن كفر الزيات بنحو ٩ كيلومترات، ويسكنها نحو ١٥ ألف نسمة التي دأب على زيارتها والاطمئنان على أهله فيها بعد قيام الثورة وتوليه رئاسة الجمهورية، ورغم عدد المدارس الابتدائية والإعدادية والمعاهد الأزهرية والجمعيات في قرية أول رئيس للجمهورية فلا طريق بدروبها قد رصف، ولا إشارة عنه فيها يأتي ذكرها اللهم إلا شارعا أطلق عليه اسم محمد نجيب لا يعرف المارة فيه من هو هذا النجيب، وأتى زلزال ٩٢ ليكمل طمس الأثر بمحو بيت الأسرة من الوجود . . . محمد نجيب الذي اكتشف أن مولده في ٧ يوليو ١٩٠٢، وهو تاريخ توصل إليه بمجهوده الخاص بعدما عرف تاريخ ميلاد أحد أقاربه الذي سبقه في الميلاد بأربعين يوما بالضبط، كما ذكرت له نساء الأسرة مؤرخات الأيام

والسنين بما يجرى فيها من أحداث. . قرية النحارية مسقط رأس والده يوسف النجيب الذي شارك في الثالثة عشرة في إحدى مباريات كرة القدم بمدرسة الصنايع ليقع في هجمة على الأرض وتنكسر ذراعه إلا أنه قام ليكمل المباراة ويفوز فريقه، ويشاهده صدفة كيتشنر الحاكم العام العسكري الإنجليزي فيلحقه معجبا بالمدرسة الحربية لينضم بعد تخرجه إلى الكتيبة ١٧ مشاة في حملة دنقلة الكبرى مشتركا في معارك استرجاع السودان، ليتزوج من السيدة زهرة محمد عثمان، ابنة الضابط المصري الذي استشهد في إحدى المعارك ضد الثورة المهدية وأنجب منها ثلاثة أبناء: محمد نجيب واللواء علي نجيب والطبيب البيطري محمود نجيب وست بنات: دولت وزكية وسنية وحميدة ونعمت ونجيبة. . في السودان عشت طفولتي وصباي وكان بيتنا المتواضع بالقرب من الجامع العتيق في الخرطوم مكونا من أربع حجرات، وأصبح فيما بعد ناديا للموظفين المصريين. . وجاءت صدمة وفاة الوالد ومحمد لم يبلغ الثالثة عشرة بعد وكان طالبا بكلية غوردن التي عانى فيها من جبروت المدرسين الإنجليز، ومن ذلك ما كان يمليه عليهم مدرس اللغة الإنجليزية في قوله: «إن مصر يحكمها البريطانيون، فصرخ الطالب نجيب عفوا مصر تحتلها بريطانيا فقط لكنها مستقلة داخليا وتابعة لتركيا، فقرر المدرس معاقبة الطالب المصري، بالجلد بالسوط على ظهره عاريا للذهاب بعيدا للعمل براتب ٣ جنيهات كموظف متواضع، ويقرر دخول المدرسة الحربية وكان خائفا من قصر قامته سنتيمترا واحدا عن المطلوب، لكنه خاض التجربة مرتحلا من الخرطوم للقاهرة بعدما ادخر مبلغ ٩ جنيهات، ترك منها لأمه ٦ جنيهات مصروفا للبيت، واحتفظ بالثلاثة الباقية، وتخفى في الجلباب السوداني ليتسنى له ركوب القطار بالتخفيض. . ومثل هذا التخفي كان بعد تخرجه في الكلية الحربية عام ١٩١٢، وزواجه للمرة الأولى وحصوله على ليسانس الحقوق عام ١٩٢٧، وهو نفس العام الذي أصدر فيه الملك فؤاد قراره بحل البرلمان لأن أغلبية أعضائه من حزب الوفد. . تخفّى محمد نجيب ثانية في الملابس السودانية في زي خادم سوداني وقفز فوق سطح منزل النحاس باشا ليعرض عليه في حضور مكرم عبيد ومحمود فهمي النقراشي تدخل الجيش لإجبار الملك على احترام رأي الشعب، لكن النحاس رفض بشدة مطالبا بابتعاد الجيش عن الحياة

السياسية وضرورة ترك هذا الأمر للأحزاب، وكان درسا مهما لمحمد نجيب حول ضرورة فصل السلطات واحترام الحياة النيابية الديمقراطية، الدرس الذي أراد تطبيقه في عام ١٩٥٤، لكن الأمور جرت بما لا تشتهي السفن ولا ما كان يأمله، فقد كان هناك رجل آخر يخرج من الظل الذي ارتاده في البداية لحاجة في نفسه.. جمال عبد الناصر.. وبعد أن أعلن مجلس قيادة الثورة تعيين محمد نجيب رئيسا للجمهورية في ١٨ يوليو ١٩٥٣ قام بتقديم استقالته في ٢٥ فبراير ١٩٥٤، وبعدها بيوم أعيد للرئاسة ثم أعيد انتخابه في ٨ مارس ١٩٥٤، وفجأة في ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ أعفي من منصبه وتم إيداعه معتقلا في المرج في فيلا زينب الوكيل على بعد ٢٠ كيلو مترًا من القاهرة.

معتقل المرج الذي عاش فيه محمد نجيب ما يقرب من ثلاثين عاما كان قبل وصوله قد زرع في خطة مسبقة بعشرين نقطة حراسة حول الأسوار، وفوق الأسطح وفي المداخل ليتحول إلى ثكنة عسكرية مسلحة بالمدافع والقنابل والمعدات تحسبا لمعركة حربية شرسة.. ما إن دخله المساق إلى المجهول حتى جلس يلتقط أنفاسه على أقرب مقعد في الحديقة وامتدت يده إلى جيبه ليشعل البايب متأملا فيما جرى وما سوف يجري وما يقوم به ما يقرب من ٢٠٠ من الضباط والجنود من نهب الأشجار والثمار والأثاث واللوحات وأحواض الحمامات والثلاجات وحلل الطعام، وحتى رخام الدرجات وخشب الأرضيات تم نزعه.. وعندما لحقت به الزوجة كانت تحمل معها حقيبة واحدة وفي صحبتها ثلاثة أبناء والشغالة.. وباتت الأسرة على لحم بطنها حتى ظهر اليوم التالي فلم يسمح بشراء طعام من الخارج لعدم تلقي الأوامر بذلك، وعندما صدرت الأوامر أحضر لهم الجنود عامودا به قليل من السبانخ وقطعتين من اللحم وكبشة أرز مما تعافه النفس.. وواست الزوجة زوجها: «عوضنا على الله واعتبره كأن حريقا قد شب في بيتنا والتهم كل شيء».
الدور الأرضي من الفيللا التي صارت خواء تحول مع سنوات الاعتقال إلى مخزن كبير يضم مئات الكتب التي جمعها وقرأها صاحبها في جميع معارف ولغات الأرض.. في الأدب والطب واللغات والتاريخ واليوجا والفلك والاقتصاد بلغات خمس أجادها محمد نجيب: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والعبرية.

تعانقت المعارف مع الأوراق والخطابات والشهادات التي تثبت حصوله على دبلومات عديدة، منها: دبلوم الدراسات في الاقتصاد السياسي للحصول على الدكتوراه وشهادة أركان حرب ودبلوم الدراسات العليا في القانون الخاص ووثيقتان تثبتان حصوله مرتين على نجمة فؤاد الأول تقديرا لبسالته وشجاعته وتفوقه في فنون الحرب والقتال بعدما جرح خمس مرات في معارك فلسطين وإصابته برصاصة اخترقت صدره أسفل القلب لتنفذ من الظهر ليتكبد العدو الإسرائيلي في مقابلها ٤٥٠ قتيلا، وذلك في معركة التبة في دير البلح في ٢٣ ديسمبر ١٩٤٨. وشهادة منحة رتبة الفريق من فاروق المليك التي رفضها نجيب معتزا برتبة اللواء. تاريخ رجل من رجالات مصر القلائل عاشت أوراقه وكتبه في المخزن الكبير مع الفئران والثعابين والتراب، وإن خلت من كتابه الأول المجهول الذي كتبه بالإنجليزية فتمت مصادرته من أعضاء مجلس الثورة وحرقت جميع النسخ والأصول والمسودات.

الدور الأول من الفيللا المظلومة التي انتزعت من صاحبتها لتضم بين جدرانها مظلوما ممن أحسن الظن بهم، كانت الصالة الضخمة فيه قد غدت شاغرة إلا من ترابيزة سفرة عتيقة هجرتها مقاعدها تؤدي إلى حجرة متواضعة لفتحية الشغالة، وإلى بلكونة بها عشة فراخ وتمثال برونز لسعد زغلول، وتؤدي الصالة أيضا لحجرة نوم ومعيشة وعالم رئيس الجمهورية السابق، وتضم سريرا قديما كان بمثابة مخدع لجسده ومكتبة لكتبه، وشماعة لعصا من البوص اللين كان يعاقب بها قططه وكلابه، وبجوار السرير منضدة مشعثة بما يعلوها من مجموعات البايب برمادها المتساقط على الأوراق وعلب الأدوية والمفرش المشمع الفقير، وعلى طول الذراع ثلاجة قزمة بابها في متناول اليد بالقرب منها كنبة بقر بطنها وظهرت يايات تنجيدها ينام عليها الكلاب إذا ما زهدوا في شمس الحديقة العارية، وفي الركن صناديق من الكرتون متساندة، لم تعد هناك قوة ولا ذهن للتقليب في محتوياتها، وفوق الجدار صورة لصابر الدهر أيوب القرن العشرين بالملابس والرتب العسكرية وآيات من القرآن الكريم وأحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم وحكم لعلي بن أبي طالب تدور حول معنى أن النفع بيد الله، والضرر بيد الله، لا بيد البشر ولو اجتمعت

الأمة على ذلك . . وفي الركن القصي دراجة متساندة على الجدار لم توافق الحراسة له على استخدامها فقرر أن تبقى رمزا أمام عينيه وعيني كل من يزوره كمشروع لحرية أقدامه تم بتره .

في هذا المناخ المعتم أقامت الزوجة الثانية عائشة لبيب أم الأولاد فاروق وعلي ويوسف ـ الأولى كانت السيدة زينب التي أنجبت سميحة الابنة المتوفاة في عام ١٩٥٠ ، بعد حصولها على ليسانس الحقوق بمرض اللوكيميا ـ التي كانت مفرطة في البدانة حتى إنها بمضي الخمول السائد لم تعد تستطيع الانتقال وحدها من السرير للكنبة ، بل بعدها لم يعد في مقدورها تغيير وضعها على السرير لتنام على الجانب الآخر إلا بمساعدة نجيب والشغالة . . وتم حشر السيدة في الأسانسير والسيارة لقضاء فترة العلاج في مركز التأهيل بالعجوزة ، حيث عادت تمشي على قدمين تحتملان بالكاد سطوة ثقل البدن .

أما الزوجة الثالثة نفيسة ابنة الخال فكانت تقطن بشقتها بجاردن سيتي في العمارة المواجهة للسفارة البريطانية . . سيدة وقور تقارب زوجها في العمر . قليلة الكلام . مقتضبة الرد . . دلالهما معا يعكس مشاعر عتيقة أيام ما كانا صغيرين . تناديه يا خويا وساعات تقول له يا نجيب ، ولما يرتفع مؤشر العواطف يبقى لكلامها مذاقا خاصا يهبط على رأس صاحبنا دشا من الإحباط والنبي يا نجيب لسه حواجبك سودة ولو صبغت شعرك زيها يفتكروك أصغر بعشرين سنة ، فيرد مداعبا بما يقطع على ذكاء ودهاء الأنثى الطريق : «أنا ناوي أعملها يا نفيسة لما بإذن الله أتجوز المرة الجاية» ، وجاءت الرابعة عزيزة محمد طه الشريف ساكنة ميدان تريانف في مصر الجديدة فكانت ملجأ وملاذا وواحة خضراء في صهد أيام نجيب المعتقل في صحراء المرج بعيدا عن الخضرة . . قبل ميدان الكربة بمصر الجديدة يهدئ سائق عربة الحراسة بسجينها من سرعاتها لتتوقف تماما أمام البقال الخواجا الذي ما إن يشاهدها إلا وكأنه قد ضبط ساعته عليها فيقبل حاملا كيس البقالة المترع باللفائف والزجاجات : أهلا وسهلا يا ريس نجيب . . وينزل الثلاثة من السيارة نجيب والرقيب والحارس الخاص الجديد الذي لم يكن يعرف حدود مهامه بعد في أن

يمكث في الأسفل مع الرقيب على دكة البواب حتى ينتهي نجيب الزوج المشتاق من زيارة الزوجة الشابة. . ويروي العقيد باسم القاضي الذي كان منوطا لأول مرة بحراسته الشخصية «أنه مع كل طلعة لدرجة في السلم الطويل كان نجيب يستدير للخلف فيجده في ذيله فيستسلم للدرجة التالية، ويلتفت ويستاء ويهز رأسه تأففا، وعند الباب بعد ما لم يجد فلفصة من المطاردة دق الجرس، ففتحت الشراعة شابة انكمشت إطلالتها الضاحكة عندما نظرت لما وراء رأس الحبيب، فأغلقت الشراعة لتغيب لحظات عادت بعدها لتفتح الباب مرتدية روبا ساترا لتهرول للداخل وقد سها عليها حتى الترحيب بالموعود باللقاء. . وقادني نجيب إلى غرفة الصالون ليجلسني وانصرف ليعود ثانية وبيده زجاجة كوكا فتحها داخل كفه ليناولها لي مع كوم من الصحف والمجلات صفها على الترابيزة أمامي وغادرني بلا ابتسام. . ومضت أكثر من نصف ساعة. . ساعة. . النصف بعد الساعة. قرأت فيها كل كلمة وكل سطر وعنوان وأعمدة الوفيات والمشاركة وبرامج الإذاعة والأخبار البايتة. . أقرأ وأحرج. أقرأ ويزداد حرجي. . أقرأ وأنكمش في مقعدي من شدة حرج موقفي وسخف انتظاري. . وأخيرا دخل الرجل بالبيجاما وفوقها روب قصير ورأسه مندى بالماء، وكي يخفف من وطأة الموقف الثقيل أشعل البايب وفتح بابا للدردشة ثم قام يستعد للعودة معي إلى المعتقل». لقد كان رجال حرس نجيب يرتدون ملابسهم المدنية أثناء ملازمتهم له في الأيام الثلاثة التي سمح له فيها بالخروج كل أسبوع. . السبت والاثنين والأربعاء. . أما الخميس فالتوجه بالملابس العسكرية إلى مكتب شمس بدران في القيادة لتقديم التقرير الأسبوعي عن تحركات نجيب ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة. . يوم السبت لميدان تريانف. . ويوما الاثنين والأربعاء لزيارة أحد الأشقاء أو الأصدقاء المصدق عليهم من قبل القيادة أو لزيارة زوجة جاردن سيتى، أما ما عدا ذلك فلا بد من أوامر مسبقة تأخذ إجراءات طويلة، هذا وهناك أمر صادر بأنه لا مانع مع الالتزام بمواعيد العودة من مرور الرجل في طريق الذهاب أو الإياب على إحدى المكتبات الثلاث الأنجلو ـ مدبولى ـ دار المعارف فالمعتقل غاوي قراءة واقتناء للكتب.

في غرفة معيشته بالمعتقل التي أبدا لم تكن صومعة، فقد كانت ممرا في أي ساعة

من الليل أو النهار لجنود الحراسة أثناء تبادل ورردياتهم في الصعود والهبوط لنقطة المراقبة على السطح . . فوق السرير المزدحم بالذكريات والمرض والهم كتب وكتب وكتب محمد نجيب : «حضر جمال وعبد الحكيم إلى بيتي طالبين أن تقوم الثورة يوم ٤ أغسطس ، سألت السبب؟! حتى يكون الضباط قد صرفوا مرتباتهم واطمأنوا على عائلاتهم ، فكان ردي أن من يتصدى لعمل ثوري لا يهتم بمرتب شهر . . . . كانت مشكلة السودان طرق المواصلات ، فالمسافة بين الخرطوم وبحر الغزال مثلا تستغرق ٣٥ يوما ، منها ١٠ أيام على القدمين فأجرت حمارين دفعت فيهما ٣ جنيهات ليركبها أولاد العساكر ، ومشيت أنا مع الكبار على قدمي أكثر من ١٠٠ كيلو متر ، وكان مرتبي لا يزيد على ١٢ جنيها . . . . رفضت الانتقال لقصر عابدين مفضلا بيتى المتواضع في حلمية الزيتون متنازلا عن نصف مرتبي ٦ آلاف جنيه كرئيس للجمهورية تقديرا للأحوال الاقتصادية السائدة في البلاد . . . . كانت شائعة غير صحيحة سببها أن أحد كبار الصحفيين كان عندما يريد الدخول لمكتبي يزج دائما أمامه كباسبور للدخول صحفية شابة وجميلة وأشاعوا وقتها أننى تزوجتها . . . . بكيت للموقف الرهيب ، ملك يخلع عن عرشه ، لحظة خلع ملك من سلطانه ومغادرته أرض بلاده بلا رجعة موقف مؤثر وبالغ الأهمية . بكيت ولم أكن بلا شعور مثل أحد صغار الضباط الذي أمره الملك بخفض عصاه من تحت إبطه فرد بأفظع السباب ، لكن الملك المتربي ، لم يجب بشيء وأعطاه ظهره وانصرف . طبعا بكيت . كان لازم أبكي . . . . كانت آخر كلمات الملك المعزول فاروق لي : إن مهمتك صعبة للغاية فليس من السهل حكم مصر . . . ذهبت يحيطني الحراس لزيارة جمال سالم وهو على فراش الموت فأجهش بالبكاء قائلا : سامحني . . . . في ٢٧ فبراير ١٩٥٤ ، اعتصمت بعض السيدات في نقابة الصحفيين وأعلن الإضراب عن الطعام حتى الموت ، ولم يَعْدلنَّ عن ذلك إلا بعد خطاب أرسلته لهن واعدا بأن ينلن حقوقهن في الدستور . . . . بالتحديد في يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ سمعت انفجارات متتالية وأنا في المرج وفوجئت بعربة البوليس الحربي تنقلني إلى استراحة في الصف ومنها بالقطار في كابينة مغلقة إلى نجع حمادي على بعد ٧٠٠ كيلو متر جنوب القاهرة وسألت وكان الجواب بشعا ، حيث تطاولت على ألسنة

وأيدي ضباط صغار في سن أولادي لم يحترموا العمر ولا الرتبة العسكرية الكبيرة، وهانت عندي الحياة ولم أكن قادرا على شيء سوى الإضراب عن الطعام الذي عدلت عنه بعد يومين لأنه يؤدي إلى الانتحار وهو أمر بغيض عند الله، وفي قاعة مظلمة ببلده «طما» قضيت حبسا انفراديا لمدة ٥٩ يوما كاملة لا تدخل فيها شمس ولا يصرح لي بالخروج، وعند النوم يشاركني فيها ضابط وصول وشاويش، حتى حرية النوم وحدي فقدتها، وكانت إقامتي سرية حتى على وزارة الداخلية، أما صوت الدعاء الذي كان يتسرب إلى أذني فقد كان موجها لي من والدة أحمد أنور قائد البوليس الحربي التي كانت تقيم هناك خلال هذه الفترة، وكنت في طريقي بالسيارة لمنفاي الجديد قد أوقعت ورقة كتبت عنوانا لها موضوع مهم جدا جدا وفي سطورها كتبت: هذه السيارة التي أكتب منها يوجد بها اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيس الجمهورية السابق المخطوف منذ أول نوفمبر ١٩٥٦، وخطفه رجال البوليس الحربي وهو لا يعرف عن أولاده شيئا، فأرجو تتبع السيارة وإبلاغ من يهمه الأمر بذلك... إذا كنت قد أذنبت فإن ذنبي لم يكن سوى قطرة ماء إذا ما قورنت بمحيط العذاب الذي غرقت فيه منذ خروجي من عابدين حاملا مصحفي لأبقى ثلاثين عاما في معتقلي بالمرج.... في موقعي مديرا لسلاح الحدود رفضت طلب صيد استاكوزا للملك فاروق، بحجة أنه ليس عندي صيادون ولا عربات، وقلت لهم إن البحر هائج... كم مجدنا وعظمنا الملك فاروق الذي قال له طه حسين في حفل افتتاح مركز الأرصاد الجوية بمعهد الصحراء إنك يا مولاي سيدنا ومصر من صنع أياديك وأجدادك العظام.... أرسل الحزب الاشتراكي إشارات تليفونية إلى أقسام البوليس لتعلن زعم وفاتي وأكثر من هذا نصبوا صوانا مزيفا عند جامع عمر مكرم دعي إليه المارة للعزاء في محمد نجيب... كان غاندي هو مثلي الأعلى بعد عمر بن الخطاب، وعندما سألت جريدة (Out look) الهندية عبد الناصر عن سبب الخلاف بينى وبينه قال إني متمسك بالمثل العليا مثل غاندي وهذا لا يتناسب مع زماننا.... هل كان هناك في الجيش من ينقاد ويتبع شبابا لولا أني على رأسهم؟! وهل كنت أطمئن إلى القيام بانقلاب مع طغمة من الشباب لا أعرف عنهم شيئا؟! وهل كانوا هم من البلاهة بحيث يأتمنون شخصا لا يعرفونه؟! يا ناس عيب هذه

الترهات. . . . رحت للشيخ الشعراوي بعد الإفراج عني في بيته في سيدنا الحسين وقلت للحارس قل لفضيلته واحد اسمه محمد نجيب عايز يقابلك، رد وقال لي، الشيخ نايم دلوقت يا عم نجيب أي خدمة لما يصحى نبلغها له، قلت له أنا مش طالب حاجة أنا محمد نجيب اللي كنت رئيس الجمهورية، قال طيب اقعد استريح على الكنبة يابا لغاية ما يصحى فضيلة الشيخ وأبلغه. . . . عشت في الممنوع، ممنوع زيارة صديق في بيته. ممنوع دخول أي محل للشراء. ممنوع تفصيل بدلة عند ترزي. ممنوع التردد على أية وزارة. ممنوع عمل توكيل لمحامي وممنوع استقبال جثمان ابني في المطار وممنوع ينكتب اسمي في نعيه وممنوع أقف للقائه على باب المدفن وهو يوارى التراب. . في حياتي مات أولادي الثلاثة من صلبي كل منهم بمأساة، ومات معظم أبنائي من أعضاء مجلس قيادة الثورة. مات صلاح وجمال وانتحر عامر ومات عبد الناصر واغتيل السادات.

لم أنجح في تطبيق شعار الاتحاد والنظام والعمل الذي رفعته بعد الثورة مباشرة إلا على الكلاب والقطط التي أربيها. الأكل بمواعيد والنوم بمواعيد، ونجحت في أن يكون العمل هدفا لها، كل منها حسب وظيفته المناسبة، الكلاب للحراسة، والقطط لتنظيف البيت من الفئران، ونجحت معها حتى في تغيير طبيعتها، ومازلت محتفظا بصورة كلبة نادرة ترقد على جنبها لترضع منها قطة فقدت أمها، دليلا على أن الحيوانات أكثر رقة في التخلص من شراستها من صنف البشر!».

محمد نجيب خرج من أسوار معتقل المرج ليحيا عاما واحدا في شقة متواضعة بحدائق القبة لتطوى في ٢٨ أغسطس ١٩٨٤، صفحة مجهولة لملايين المصريين من تاريخهم، كتبها ساكن القصر المهجور الذي أصبح ملجأ للنساء العاقرات اللاتي يتسللن إليه في غبشة المساء، لأنه مظلم وموحش ومرعب فيفزعن وعندما يفزعن تنفك العقدة. . قصر مبروك زرته في وسط الليل اتخضيت وربنا نفخ في صورتي ودوغري بطني شالت في البت فتحية. . محمد نجيب في حياته عاش الموت الافتراضي والموت الحقيقي. . أخذوه لمقعد الرئاسة، وأخذوه للمعتقل، وأخذوه للحبس الانفرادي، وأخذوه معاقبا ومسرحا لحياة الظل، فرفع يده للسماء ولم ينل راحته إلا حينما أخذه الله.

أحمد حسنين باشا.. عاشق الصحراء

وتبقى مثل شخصية أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي محورا ومرتعا ومهبطا للآراء من جميع الاتجاهات. . تبقى مثالا لضرب المثل، وقماشا مطروحا على مناضد النهش والثرثرة للقص والتفصيل على حسب المقاس أو التطبيق والشجب أو التطريز بغرزة الحشو ورجل الغراب. . أحمد حسنين عندما يأتي ذكره تعقبه الآراء المتباينة التي تضعه بعضها في قفص الاتهام لتصدر الأحكام بالإدانة مع وجوب تشديد العقوبة، وآراء ترى فيه نموذجا للحذق والذكاء وجمع خيوط اللعبة في يده ليقيم الوزارات ويسقطها، ويحرك الأحداث من وراء ستار دون أن يبدو عليه أنه يعرف ما في داخل الشقوق وما يجري على الساحة، بل يؤكد لمعارفه أنه لا يفهم شيئا في السياسة، مع دهاء البقاء أمينا لأسرار المتناقضين وصديقا مقربا لجميع المتصارعين. . وهناك من رآه فقط بمنظار زير النساء الذي لم يقف في طريقه نعش ولا عرش. . وأحمد حسنين في كل هذا وذاك قد غابت عن الكثيرين صورته الحقيقية لتتأصل صورته التي خلعها عليه ببغاوات الترديد، مما جعلني لم أسعد كثيرا عندما اخترقت على أحفادي الصغار قلعة لهوهم ففوجئت بهم يرتدون تيجان الورق منهمكين في لعبة فاروق ونازلي وحسنين من بعد مشاهدتهم للمسلسل الميقاتي الجذاب الملك فاروق لكاتبته القديرة لميس جابر، والأداء المتميز للفنان عزت أبوعوف. . وقفت مشدوهة وأنا أرى نورا الملكة الصغيرة ترفع يدها الصغيرة لتصفع ابنها الملك فيهرب منها باكيا فتلاحقه لتشبعه لكما وعضًا بينما حسنين الصغير يعاونها في إيقاعه أرضا وتمزيق تاجه الورقي، ثم يمسك بذراعها أنكجيه ليسيرا بعيدا في خطوات راقصة!. . رثيت لحسنين الذي سيبقى أبدا سجين حدوتة نازلي حتى أصبحا معا في عداد ثنائيات الهيام والغرام مثل عنتر وعبلة،

وروميو وجوليت، وإدوارد ومسز سامبسون، وناعسة وأيوب.. نازلي وحسنين!!

على الدوام وبحكم الزمان وكتابة تاريخ الأقوام فإن رجال الصف الأول وحدهم من ملوك وأباطرة وزعماء ورؤساء هم وحدهم من يخطفون الأضواء لتنصب عليهم دون غيرهم، بينما رجال الصف الثاني والثالث فقدرهم الغرق في بحور التاريخ، وهذا ما يحدث في السياسة والثقافة والعلوم وكل الميادين، رغم أنه قد يكون من بين هؤلاء من هو أكثر كفاءة وقدرة وشجاعة وعطاء ممن لمعوا على الواجهة وسرقوا جميع الكاميرات.. وقد يحدث صدفة أو تخطيطا أن يتقدم أحدهم من كواليس ظلال الصفوف الخلفية للصف الأول مثلما حدث مع أحمد حسنين، لكن استدعاءه للصدارة كان على حساب قيمته الفعلية الثقافية والعلمية فدخل من الباب الملكي في معية الملكة الوالدة نازلي ليظل سجينا لحدوته أهواء امرأة سجنها زوجها العجوز، فلما مات باعت ملابسه عند دكان روبابيكيا وانطلقت لتحط على زينة الرجال الذي أطلق عليه الشاعر أحمد شوقي لقب الليث.

أحمد ابن حي بولاق الشعبي المولود في عام ١٨٨٩، في ظل حياة جده أحمد حسنين باشا الذي حمل لقب أمير التجار، وكان والده محمد حسنين البولاقي من علماء الأزهر الشريف الذي كان حريصا على أن يحفظ ابنه القرآن الكريم ودواوين الشعر الجاهلي والحديث كاملة.. ورغم أرستقراطية الوسط الذي أصبح حسنين ينتسب إليه في محيط الناس اللي فوق فقد كان حريصا دوما على الذهاب إلى بولاق مسقط رأسه وزيارة جيران طفولته، وكان أمتع التجوال إلى نفسه السير في السيدة زينب والحسين والأحياء الشعبية، وكثيرا ما شوهد يهبط من عربته ليحتضن رجلا مهلهل الثياب معفر الوجه وسط دهشة المحيطين به من وزراء وباشوات قصور ويكتشفون في النهاية أن هذا الرجل كان صديقا لوالده أو مرافقا له في إحدى رحلاته في الصحراء.. ولقد ترك والده الشيخ حسنين أثرا بالغا في نفسه ليكتب عنه فصلا كاملا في مستهل مؤلفه الكبير عن رحلته الاكتشافية بعنوان «سدد الله خطاك» مؤمنا باستجابة المولى لتقواه.. الجملة التي وقف الأب الشيخ في غرفته

الواسعة يدعو له بها قبل السفر: «وقف أمامنا شيخ طويل القامة ذو لحية بيضاء مرسلة يلبس قفطانا من الحرير البرتقالي. وينبعث من وجهه الوسيم المتغضن نور الصلاح والطمأنينة والتقوى، وتتساقط بين أصابعه الطويلة المنشرحة حبات سبحة من الكهرمان. . ووقف إلى جانبه خادم يحمل مبخرة من الفضة يتصاعد منها بخور زكي الرائحة ينشر في فضاء الغرفة حلقات رقيقة. . وضع الشيخ التقي سبحته جانبا ثم رفع يديه نحو السماء وتمتم بصوت خافت من فعل السنين واضح من أثر اليقين. دعاء يستمطر به رحمة الله لنا نحن المسافرين. ويضرع إليه تعالى أن يسدد خطانا ويكلل بالنجاح مسعانا ويعيدنا سالمين غانمين، وجعل يغادي في أنحاء الغرفة ويراوح بالمبخرة على كل من حوائج السفر مرددا دعاء قصيرا، وتلك عادة متوارثة قام بها أبي لتحل البركة على أمتعة ابنه المقبل على سفر طويل بعيد. . ووقفت أمام الشيخ الصالح أتلقى البركة فلم أعد أمامه ذلك المصري المتحضر، إنما بدويا يعود إلى الصحراء. . وعدت بعدما تلقيت العلم في أوروبا فاختلفت مشاربنا وآراؤنا وتباعدت طرائقنا في الحياة، على أنني طالما تمنيت لو تفرغت لدراسة ما أتجه إليه من العلوم حتى أقتبس من معارفه الواسعة وأغترف من بحر علمه الغزير. . سمعته ذات يوم يقول عني لأحد زملائي: إنه مخلوق لغير زماني فدعه يحصل على ما يقتضيه زمنه من العلم والتهذيب. . عندما مات أبي من بعد رحلتي للصحراء فقدت بفقدانه خير النصراء النصحاء. وكنت إذا اشتدت صروف الحوادث واستحكمت حلقاتها أجد عنده الكلمة التي تفرج الكرب والنصيحة التي تفتح أبواب الفرج والعظة التي تعيد للنفس المضطربة بأسها وللحواس المضعضعة قواتها وللعزيمة المزعزعة ثباتها. . كان الصديق الصادق إذا ضاقت السبل وانقطعت الأسباب وتعقد الأمر وتكاثفت الظلمات واشتدت الحيرة».

الأب الشيخ حسنين كان من الشيوخ المقربين للخديو عباس ثم للسلطان حسين كامل، وعند تولي الملك فؤاد استطاع من خلال رجال البلاط الحصول على توصية لابنه الوحيد أحمد من اللورد ميلز ـ الذي أصبح فيما بعد وزيرا للمستعمرات ـ لإلحاقه بإحدى جامعات بريطانيا. . وعندما سئل أحمد حسنين في الاختبار الشفهي: لماذا إنجلترا بالذات؟ . . أجاب بعبارته القوية: «لكي أتعلم كيف أحاربها

حين أعود إلى وطني» . . وأعجب اللورد ميلز بهذه الفصاحة الوطنية التي جاءت على لسان شاب مصرى عاشق لبلاده فكتب في خطاب التوصية لعميد كلية (بليلول) التي كان ميلز يرأس مجلس إدارتها : أقدم لك عدوا صغيرا من أعداء بريطانيا العظمى أرجو أن يتحول على أيديكم إلى صديق كبير . . وأصبح حسنين من أبرز طلاب الجامعة وتخرج في أكسفورد، ليغدو الاتهام الأول الموجه إلى تاريخه - فيما بعد - أنه قد طبع بطابع الإنجليز فصار ولاؤه لهم وحدهم، ومن هنا قام بتشكيل العجينة الطرية - فاروق في سن الخامسة عشرة - التي وقعت بين براثنه تبعا لمزاجه الاكسفوردي الصرف . . ودعونا نتساءل هنا إذا ما كانت اكسفورد حجة لعداوة الوطن فلماذا على سبيل المثال لا الحصر - فآلاف العلماء والأطباء والمهندسين ورجال القانون والأدباء والمفكرين قد تلقوا علومهم وخبراتهم على أيدي الإنجليز والفرنسيين . . إلخ - لم يخن غاندي وطنه الهند بعد عودته من دراسته في جامعات إنجلترا، ولماذا عاد يحيى حقي من بعثته إلى الخارج ليكتب معاناة شعبه في قنديل أم هاشم؟ ولماذا عاد طه حسين من السوربون يكتب عودة الروح؟ ولماذا كانت شهادة الجامعة الفرنسية العريقة تاجا على رأس من ينالها حتى لقد أطلق على أحدهم لقب محمد صبري السوربوني؟ . وقد شغل أحمد حسنين من بعد تخرجه وظائف عدة، وفي عام ١٩٢٠ كان مساعد مفتش بوزارة الداخلية، ثم منتدبا لمفاوضة إيطاليا بشأن الحدود الغربية عام ١٩٢٤ . وبعدها أمينا للملك فؤاد عام ١٩٢٤ . وتم انتدابه لملازمة ولي العهد فاروق في رحلته الدراسية إلى لندن في أكتوبر ١٩٣٥ ومن هنا جاءت صداقته الوثيقة لفاروق مما جعله يتولى منصب رئاسة الديوان الملكي في عهده في عام ١٩٤٠ . لم يكن أحمد حسنين مراهقا بل رجلا له مكانته الاجتماعية المتميزة وذلك في بداية احتكاكه بالسراي، فقد كان متزوجا من لطيفة ابنة الأميرة شويكار مطلقة الملك فؤاد التي أحبها في واشنطن عندما كان السكرتير الأول للسفارة، وكان السفير والدها سيف الله يسري باشا . . وكانت شويكار مغضوبا عليها من الملك فؤاد ومحرومة من كل المخصصات الملكية، ورزق حسنين من لطيفة بولدين : كبيرهما هشام ضابط الجيش المتخرج في سلاح المدرعات (السواري) زميل كوكبة من الأسماء الشهيرة اللامعة مثل شمس بدران ويوسف

صبري أبوطالب وأحمد بدوي وزغلول كامل وعمر عبد الآخر وجمال السيد إبراهيم، والأصغر طارق الذي عمل بالتجارة بعد حصوله على البكالوريوس، وابنتين هما جيدة ونازلي. . وفي عام ١٩٣٦، مات فؤاد وورثت شويكار ثروة هائلة عن شقيقها أحمد سيف الدين أغني رجل في مصر لتغدو لطيفة بدورها أغنى شابة في مصر. . ويروي حسنين: «استدعاني الملك فؤاد للعمل معه في خدمته وقد قبلت هذا العمل حتى أستطيع أن أقوم برحلة ثالثة في الصحراء لأكتشف فيها الربع الخالي بعد الرحلتين الأوليين، ودخلت القصر على أن أخرج بعد شهور، ولكنني فشلت، لأبقى بداخله ٢٢ عاما».

حسنين الرحالة الكبير ممشوق القد كالسهم الذي لا يتجاوز الطول بالمعقول. . من قال عنه المفكر الكبير أحمد لطفي السيد: هذا الإخلاص للعلم والتضحية له بالمال وبالراحة ليسا موهبة عادية ولكنهما من خصال الطبع الاستثنائي، فما كل امرئ رحالة ولا كل نفس تطيق ما أحبته نفس الرحالة أحمد حسنين ابن أستاذنا المرحوم الشيخ محمد حسنين ابن المرحوم أحمد حسنين باشا. . إن رحلة أحمد بك حسنين قد فتحت أمامنا منطقة عظيمة كانت حتى الآن من مجاهل الأرض. . وكما يقول العالم الدكتور هيوم: «لا أذكر عالما قام بمثل هذه الرحلة منذ نبلاء (فيلي) في القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد». . ويعد كتاب رحالتنا حسنين بك على كل ما فيه من الحقائق العلمية ملحمة أدبية. لم يكن رحالتنا مشهورا قبل الآن بالتفوق في الكتابة كما اشتهر بالتفوق في العلم وفي وسائل الشجاعة والرياضيات. ولكنه لما تهيأ له ظرف الكتابة والوصف سما في ألطف المعاني وترتيبها وحسن الذوق في إيراد الحوادث والتبسط في عرضها إلى حد يعتبر نموذجا. . مباركة هذه الرحلة التي أكسبت الوطن نوعا جديدا من المجد وأضفت على النابغة أحمد بك حسنين مجدا يبقى ببقاء المعلومات التي أضافها إلى العلم.

أولى رحلات أحمد حسنين في اكتشاف الصحراء الغربية في مصر وليبيا كانت عام ١٩٢٠، ترافقه سيدة إنجليزية تدعى «روزيتا نوريس»، وبعد عودتهما ادعت لنفسها قيادة الرحلة وأن حسنين كان مجرد تابع وسكرتير خاص، والتف أصدقاء

حسنين يسألونه فأجاب: «إنني لا أريد خذل سيدة»، ورغم الوثائق والمستندات التي تكذبها فإنه كان يحمل تجاهها مشاعر عاطفية ولم يشأ أن يكذبها! . . وهاجمته الصحف الإنجليزية والأمريكية ووصفته بأنه مدع وأن البطلة الحقيقية هي روزيتا، لكن سرعان ما ظهرت الحقيقة لتمنحه الجمعية الجغرافية العالمية للاكتشافات الميدالية الذهبية، ومنحته مثيلتها كل من جمعيات فرنسا وبريطانيا وأمريكا، وأقامت له الجمعية البريطانية حفلا كبيرا تكريما لجهوده في اكتشاف الصحراء، ومنحته لقب رحالة عظيم وهو شرف لم ينله أحد من قبل في الشرق العربي . . وألقت روزيتا في حفل تكريمه كلمة مؤثرة أشادت فيها بالبطل المصري أحمد حسنين قالتها وسط دموعها التي تساقطت ندما على كذبها حول جهده الحقيقي الذي استولت عليه بغير وجه حق، وأنهت روزيتا خطابها بعبارة: «إنه من الصعب إخفاء الشمس، ومن المستحيل طمس الحقيقة» . . وتعد من أهم اكتشافات الرحالة العظيم التي وقفت أمامها عاجزة عن فك طلاسمها وتحديد مسارات متاهات علومها البيانية وأرصادها الفلكية، وتعيينها الفلكي للوقت المحلي وارتفاعات سطحها فوق سطح البحر في جغبوب المسجد وجاك العرج وبئر أبي الطفل وتاج الكفرة وزغنين غير الآهلة وغرب تبز ربو وبوزيما، والموقع الحقيقى، لآبار الظيغن والكفرة، واكتشاف واحتي أركنو والعوينات اللتين لم تعرفا من قبل، وبذلك ينفتح طريق جديد للرحلات في صحراء ليبيا بمناطق لم تكن قد اكتشفت، ومعرفة تكوين الجبال لإيجاد مخرج صرف لبحيرة تشاد . . . . إلخ . . ويكتب عاشق الصحراء في حب الصحراء: تبتسم فما أحلى ابتسامها. وتعبس فما أقسى عبوستها. تضحك نجومها فتستهوى عابر سبيلها ويحتكم فضاؤها في القلب فتوقعه في أسرها ولكنها كالغانيات شيمتها الغدر، فقد تريك بعد تمام الرضا غاية الغضب ونهاية القساوة . . قليلون من أهل المدن من يعرفون لذة الجلوس في حلكة الظلام ورعي النجوم. ولا عجب إذا كان العرب أساتذة علم الفلك. فالأعرابي إذا انتهى من عمل يومه خلا إلى نفسه وانقطع إلى ترسم حركات النجوم وإمتاع روحه بما تبعثه فيها من الراحة والشعور بالسمو إلى ما فوق العالم الأرضي . . وإذا ما دارت قبة الفلك لم تغب فجأة كما يختفي المسافر عند الرحيل، ولكنها تحتجب تدريجيا كما يذوب الراحل في عين

مودِّعه على أمل اللقاء القريب . . وينصل الليل فينبعث من فم أول مستيقظ من رجال القافلة حي على الصلاة . . فيسرى الأمل وينتشر في السماء نور يرمي خلف الرجال والإبل ظلالا دقت حتى ما تكاد تسميها ظلالا ثم يتخضب الفضاء بحمرة تبعث الدفء . . وفي تلك اللانهائية الساكنة يصفو الجسم والعقل وتشفى الروح فيشعر الإنسان بأنه أقرب إلى الله عز وجل ويحس وجود قوة قاهرة ، وتكشف الصحراء من نفس الإنسان عن جوانبها الشريفة ، فتنعدم الأنانية ويفرغ كل قصارى جهده في خدمة زملائه ومساعدتهم . . فإذا ندر الماء وما من أثر لبئر ووجم الرجال وسألت الدليل عن الطريق فهز كتفيه وقال الله أعلم . وضاقت دائرة الأفق البعيد الشاسع حتى أصبحت طوقا يضيق حول عنقك ويغل حلقك الجاف . فهنا يشعر الإنسان بافتقاره إلى قوة كبرى ، أكبر من قوة تلك الصحراء الفتاكة القاسية . وهنا يجأر باستدرار رحمة الله ولطفه . حتى إذا ضلت دعواته الطريق ضم جرده إلى جسده وتهالك على الرمال ينتظر المحتوم في سكينة واستسلام . . هذا هو الإيمان الذي لا بد منه بمجتاز الصحراء .

ويغامر المغامر في كل فضاء فيشتري طائرة ويقودها من لندن إلى القاهرة لكنها تتحطم في الطريق وينجو حسنين بأعجوبة ، ويشترى الطائرة الثانية وتتحطم به أيضا ، والثالثة وينقلوه حطاما من بين حطامها إلى المستشفى ويوقن الجميع من قسوة جراحه أنه انتهى ، لكن المقاومة في طبعه غلابة فيتماسك ليقف على قدميه ليهتف الطبيب المعالج لأول مرة أرى ميتا يقف على قدميه . . ولقد كان أحمد حسنين رياضيا ، وبطلا في لعبة السيف الشيش ، وقد تولى رئاسة الفريق المصري في الألعاب الأولمبية في بروكسل عام ١٩٢٠ ، كما تولى رئاسة النادي الأهلي المصري ، ورئاسة نادي السلاح الملكي . . ويأتي ذكر رياضة حسنين في عالم السيف على لسان أمين فهيم السكرتير الخاص لفاروق : سافرت إلى إيطاليا عام ١٩٤٧ ، وكنت خلال عملي بالسفارة المصرية أتردد على نادي السلاح ، وبعد مرور سنوات ذهبت إلى النادي مودعا مدربي الإيطالي ، فقدم لي سيفه المحفور اسمه على مقبضه هدية لي قائلا : «إنه كان يعتز بهذا السيف الذي انتصر به على أحمد حسنين في الألعاب الأولمبية في أوائل الثلاثينيات بلوس أنجلوس» ، وأخذ يحدثني عن حسنين

وقال: «بعد أن انتهى الشوط بفوزي على حسنين دهشت، إذ رأيت النساء الأمريكيات والأجنبيات يتهافتن عليه ويقدمن له الأوتوجرافات ليوقع عليها باسمه.. فاقتربت منه ضاحكا وقلت: أما كان الأولى أن أكون أنا الفائز مكانك؟.. فضحك حسنين فقال: أتريد أن تقول سعيد في الحب تعيس في اللعب.. واستطرد المدرب قائلا: تهافتت النساء عليه، ولكنه أبدا لم يستسلم لإغرائهن، وكنا جميعا نرتاد أماكن اللهو، ونقضي سهراتنا بين الشراب والرقص، أما حسنين فكان لا يبرح الفندق وكنت أقول لنفسي إنها الأخلاقيات».

ويقام حفل تكريم تحية للرحالة المصري المقدام أحمد محمد حسنين بكازينو سان استيفانو بالإسكندرية في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٣، تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد فتجود عبقرية أمير الشعراء أحمد شوقي بك بقصيدة ألقاها على الحضور بهذه المناسبة، لتنشرها جريدة السياسة في عددها الصادر في الصباح التالي وقد جاء من أبياتها المطولة قول شوقي في حسنين:

أقدم فليس على الإقدام ممتنع	واصنع به المجد فهو البارع الصنع
وإن نبغتم ففي علم وفي أدب	وفي صناعات عصر ناسه صنع
أكبرت من حسنين همة طمحت	تروم ما لا يروم الفتية القنع
رحالة الشرق إن البيد قد علمت	بأنك الليث لم يخلق له الفزع
أجزت مصر ثناء أنت موضعه	فلا تذب من حياء حين تستمع
ولو جزتك الصحاري جئتنا ملكا	من الملوك عليك الريش والودع

ولم يكن أمتع لدى نجم القصور - بطل السلاح مكتشف الصحراء - من لحظات يقضيها في الحديث وضرب الأمثلة من الشعر العربي القديم، والحديث والجلوس إلى نجيب الريحاني يناقشان معا أحداث المسرحية الهزلية الجديدة ليتوقف حسنين عند مشهد لا يرى فيه إثارة أو داعيا للضحك، فيضيف من عنده موقفا يخلق فيه التضاد وعدم التكافؤ منبعا للكوميديا، أو ربما يقترح على ملك السخرية مشهدا آخر بدلا منه، وتعد جميع روايات الريحاني الأخيرة مجازة من قبل حسنين الحريص على حضور البروفات ومراقبة انفعالات الممثلين والحد من شطحاتهم.. ولم يكن

مسرح الريحاني وحده الذي كان يلقى مثل هذا الاهتمام من حسنين باشا، فقد كان بصفته رئيسا لجمعية أنصار التمثيل والسينما له أحقية حضور جميع تدريبات المسرحيات والاطلاع على كل كبيرة وصغيرة بشأن الجمعية، ويتذكر شكري راغب مدير الأوبرا في مذكراته الباب الخلفي: «أذكر أنه حضر يوما بروفة رواية كليوباترا للفرقة المصرية، وكانت زينب صدقي تقوم بدور ملكة مصر، وبالرغم من تعمق زينب في مظاهر الإبداع في الإلقاء والحركة والمظهر العام، فقد كان حسنين باشا يلفت نظرها إثر كل مشهد من مشاهد المسرحية المختلفة إلى بعض الملاحظات، شارحا لها وجهة نظره، محاولا إقناعها بطريقة سلسة لطيفة حتى يأتي تمثيلها مطابقا للحقيقة من حيث جلالة الملك وعظمته.. وكم من مرة طلبني لأتولى إعداد بعض الحفلات الخاصة التنكرية، فتارة كنت أعرض عليه ملابس عطيل أو القائد الفرنسي كليبر، ولم يكن يهتم باختيار ملابسه فقط، بل كان يكلفني باختيار ما يناسب الشخصيات الأخرى، وكان لا يصرح بأن هذه الملابس سوف يستعملها الملك والأمراء بل كان يطلب إليّ أن أختار ما يتناسب وشخصية جورج أبيض ويقصد شخصية فاروق، لأن جسم فاروق كان أقرب الأجسام إلى جورج أبيض.. وكان حسنين باشا كما يقول صديقه الصحفي الأرستقراطي محمد التابعي فاهما للفن متذوقا للكلمة، ومن هنا كان يطلع أولا بأول على أغاني أم كلثوم قبل أن تلقيها ويؤمن بأن أم كلثوم تستطيع بأدائها أن تحرك إرادة الجماهير أكثر مما يفعل الزعماء..
ولأنه كان سمِّيعا كبيرا كان من الطبيعي أن تكون أسمهان الصوت والصورة المطربة والأنثى لها مكان خاص في قلبه وعقله ووجدانه، حيث قدمها له محمد التابعي لأول مرة في حفل ببيته في ٨ فبراير ١٩٤٠، وكان بين المدعوين المطرب محمد عبد الوهاب.. واضطر حسنين أن يقتصد في إعجابه بأسمهان بعد ثورة براكين غيرة الملكة نازلي، وأن يكف عن زيارتها في دارها واستقبالها في داره، لكن الخط الساخن بينهما ظل مشتعلا عبر أسلاك التليفون عندما اقترح عليها غناء قصائد القارئ الشيخ علي محمود قائلا لها: إنك تغني قصيدة يا نسيم الصبا تحمل سلامي خيرا مما يغنيها علي محمود نفسه.. وغنت أسمهان.. وصل شدو الكمان لمسامع ابن بولاق.. فرق ما بيننا الزمان ورجعتلك يا حبيب الروح.. وليت للبراق عينا

فترى . . . ويتأوّه بأعذب النغمات الصوت العاكس للتعبير الإنساني المشرب بالحس الدرامي : وسدوه بين أضلعي فقد ضمه قلبي حنانا وغراما ، وانضحوه بدموعي وانثروا حوله قلبي الذي أضحى حطاما» .

وتغرق أسمهان في سيارتها في ١٤ يوليو ١٩٤٤ ، في ترعة بطريق القاهرة الإسماعيلية ، ويلقى أحمد حسنين مصرعه حين صدمته سيارة بريطانية مسرعة فوق كوبري قصر النيل في ٩ فبراير ١٩٤٦ . . مات على الأرض ولم يبلغ بعد السابعة والخمسين بينما نجا ثلاث مرات وهو يقود طائرات تحطمت في الفضاء . . وتموت نازلي مرتين : عندما ماتت حزنا على حسنين ، وبعدها في أمريكا بعدما قضت على سمعتها ومكانتها وعقيدتها . . وفي يوم ٢٤ يونيو من عام ١٩٥٨ ، تم في المزاد العلني بالقاهرة بيع غطاء سرير نازلي ضمن محتويات قصرها بمبلغ ٥٨ جنيها فقط ، وهو من القطيفة الحرير الطبيعي بلون ورق الورد مطعم بالقصب وله داير من الفرو ، وقال عنه الحارس الحاج توفيق ، إن سيدته الملكة لم تكن تفرشه إلا في المناسبات الخاصة السعيدة . . وتم بيع مكحلة الملكة نازلي المصنوعة من حجر الجاد المشغول بغطاء من حجر الروزكوارتز بخمسة جنيهات لأحد الجزارين الذي صرح بأنه جازف بشرائها رغم ارتفاع ثمنها ، وذلك لإهدائها لوالدته عند عودتها من أداء فريضة الحج .

السادات وخريف الغضب

خلف القضبان وفي ساحة محكمة الجنايات وبعد عامين وستة أشهر وتسعة عشر يوما على حادث اغتيال أمين عثمان باشا كان من بين المتهمين الذين قدموا لسماع الحكم عليهم، المتهم محمد أنور السادات متميزا في الصور التاريخية بأناقته البالغة داخل الجاكتة الشاركسكين البيضاء، والكرافتة السادة اللامعة والشارب المشذب بعناية بعرض ابتسامته الناصعة البياض. . ومثل تلك الأناقة تبدت طوال فترة نظر القضية في لقطات المشاوير ما بين السجن ومحكمة الجنايات، حيث كان موكب المتهمين يمر بطول شارع محمد على داخل عربة لوري مفتوحة وفي المقدمة الشاب الأسمر الأنيق بالبدلة الكاملة والكرافتة الرفيعة بربطة غاية في الدقة موضة سنة ١٩٤٨ . . وكان حادث الاغتيال قد وقع في مساء الخامس من يناير ١٩٤٦، وبلغ فيه عدد شهود الإثبات ١٢ شاهدا بينهم مصطفى النحاس باشا والنائب العام عبد الرحمن الطوير باشا، وأربعة من ضباط البوليس، ووكيل نيابة وسيدتان. . أما شهود النفي فبلغ عددهم ١٠ من بينهم من رؤساء الوزارات على ماهر باشا وحسين سري باشا وحسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ ووزيران سابقان ووكيل وزارة ومستشار سابق بمحكمة النقض والإبرام، وصحفي وضابط بوليس. . وقد استغرق نظر القضية ٨٤ جلسة، وبلغت صفحات التحقيق ١٥٨٠ صفحة، وترافع عن المتهمين ٣٥ محاميا من مختلف الأحزاب، وصدر الحكم بإدانة ١٤ متهما من الستة والعشرين وتبرئة أحد عشر من بينهم اليوزباشي الأنيق محمد أنور السادات أكبر المتهمين عمرا وأكثرهم ثقافة وتجربة.

أناقة السادات سمعت عنها بالتفصيل من سويلم الترزي الخصوصي له صاحب المحل الشهير في أول شارع عبد الخالق ثروت المتفرع من سليمان باشا. . من أنه

كان يقوم بشكل دوري بتفصيل جميع ملابس السادات للمناسبات العامة والخاصة من أول الأطقم الكاجوال والسفاري والبليزرات، وبدل الاستقبالات الرسمية التي يفضلها مع الكرافتة المنقطة، وكثيرا ما اختارها من القماش الكاروهات الاسكوتش الإنجليزي أو المقلم بأقلام فاتحة على أرضية داكنة، وكان يفصِّل له البيجامات والأرواب المنزلية، إلى جانب العباءات الحريرية والصوفية المطرزة والجلاليب البلدية المطورة في حردة الرقبة والمرد لجلسات المصطبة المسترخية، التي يدلي فيها بأحاديث ذات ذكريات وشجون مستعرضا الأماني والإنجازات والهموم للمذيعة همت مصطفى في بلدته بالمنوفية ميت أبوالكوم.. ولا أنسى ما قاله لي يوما الزميل الراحل محمود أحمد المحرر البرلماني للأهرام عندما سافر ليغطي زيارة الوفد البرلماني المصري برئاسة أنور السادات رئيس مجلس الشعب إلى إيطاليا، الذي اصطفاه ليصحبه لأحد المحال الشهيرة ببيع القماش الرجالي، فلاحظ شراء السادات لست قطع من كل نوع قماش يقع عليه اختياره، وعندما شعر السادات باندهاش الزميل همس له ضاحكا بأنه يوفر بذلك على روحه وجع الدماغ من ملاحظات الرجل الكبير: والستة يا ابني بتبان كلها كأنها هي هي البدلة الواحدة ولا من شاف ولا من دري ولا من اشترى!

ولقد كان أكثر ما شعر به السادات من مرارة وإحباط في سجن مصر عام ١٩٤٦ تركه لمدة ثلاثة أيام ببذلته دون غيار أو صابونة اغتسال.. وبعد خروجه من السجن في عام ١٩٤٨، ذهب يتوارى في بنسيون رخيص في حلوان، حيث نفدت نقوده ليفاجأ بزيارة الصديق القديم زميل معتقل الزيتون حسن عزت الذي لاحظ هبوط معدل أناقته إلى الحضيض، بعد أن بلي نسيج البنطلون الرمادي الوحيد من الخلف، وغدا بياض الجاكيت الشاركسكين اليتيم مكللا بسواد الزمان والمكان، فذهب يفصِّل له بذلتين ويشتري له عدة قمصان، وعندما أعجب السادات باختراع الجوارب السوكيت التي تُرتدَى بسهولة وبدون حمالات، أي أستيك منُّه فيه، وكانت قد انتشرت في الأسواق، في فترة سجنه قام الصديق حسن بشراء أربعة أزواج له اختارها السادات زوجين كحلي وزوجين من اللون الأسود الذي يفضله مع الأبيض ليصنع جمال التضاد.. وعن مدى حرصه على مظهره في أحلك

ظروف حياته بعد خروجه في السجن عام ١٩٤٥ ، عندما كانت الخمسة مليمات بالنسبة له عملة صعبة فيسير أكثر من ٢٠ كيلو متراً لأنه لا يملك ٦ مليمات أجرة الترام . . «نشأت على حبي للجمال في كل شيء ، وكانت ملابسي ضمن الأشياء التي أتطلب فيها الجمال ، وكانت عندي جاكتة أعتز بها كثيرا أرتديتها قبل اعتقالي مرات معدودة لا غير ، فقررت أن أبيعها في محل من محلات وسط البلد التي تشتري الملابس المستعملة . . وفعلا أخذتها وتوجهت إلى أحد هذه المحلات ولكني عندما أصبحت على مسيرة قدمين من المحل توقفت . . لا بد أن صاحب المحل سيتصور أني سرقتها فليس من المعقول أن شابا رث المنظر بهذا الشكل يمكن أن يمتلك هذه الجاكتة الوجيهة . . خطر لي هذا الخاطر فتراجعت عائدا سيرا على الأقدام إلى البيت ومعي الجاكتة . . كنت أعرف أن التاجر لن يسألني من أين أتيت بها ، وكنت واثقا من أنه سيشتريها بأى ثمن وأن هذا الأي ثمن مهما يكن ضئيلا سوف يفك ضائقتي . . ولكني فضلت ألا أشوه صورتي ومظهري في نظر إنسان لا أعرفه ولا يعرفني مهما يكلفني ذلك» . ولأنه أنور السادات كان ما قرأته عنه سجينا وبخط يده من يوميات كتبها على مدى ٣٠ شهرا داخل سجن الأجانب وسجن مصر بمثابة تاريخ وإعادة اكتشاف . . تاريخا وليس تأريخا لمن عبر وأعاد الأرض وقام بالزيارة الصدمة التي استغرقتها الطائرة في أقل من أربعين دقيقة من مطار أبوصير في القناة إلى مطار اللد ليستقل السيارة مع كارتزير رئيس إسرائيل الأستاذ الجامعي ويصل للقدس ضيفا على فندق الملك داود ويردد مع خيوط الفجر في صلاة العيد بالمسجد الأقصى : صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ونادى بحقوق الفلسطينيين داخل الكنيست في خطاب أعده له موسى صبري . . . من فتح القناة بعد إغلاقها ثماني سنوات ، والتي قال إنها بعد افتتاحها قد أثبتت أنها (Lucky Strike) وانفتح بسياسة نقضها البعض لينقدها البعض ، وتوسع يغزو الصحراء بمدن كفراوية جديدة ، وأذن بدفن الملك فاروق في وطنه بمسجد الرفاعي تلبية لرغبة الأميرة فريال ليكون مع رفات أجداده من بعد أن دفن أولا في مسجد الشافعي ، وأراد أن يواري سوأة عشرات المومياوات الفرعونية في موكب جنائزي مهيب يليق بأجدادنا الملوك تقديسا وأخلاقا ودعاية وزفة سياحية عالمية ليس لعرضها

مثيل، وانبرى يرد على أسئلة بربارا والتز المذيعة التليفزيونية العالمية بإجابات أحسن منها. . من اختار نائبا له منذ بداية حكمه، واتخذ من عثمان صديقا ومن كيسنجر صديقا ومن كارتر صديقا ومن الشاه صديقا ومن العتال الذي شاركه العمل على عربة النقل أيام الهروب صديقا، ومن المستشار الألماني هيلموت شميت صديقا وصدوقا، حتى إن شميت كتب في مذكراته عن صديقه السادات فصلا كاملا يقرظه فيه، واعتكف العشر الأواخر من رمضان في استراحة سانت كاترين مخططا لمجمع الأديان، وسنّ لكل مناسبة زيها ولكل مقام مقال ولكل مجال مغناطيسيته، وضرب مراكز القوى في مقتل من بعد اكتشافه التسجيل تحت السرير، ومكثنا نظن أن الديمقراطية تترفق بالناس فإذا بها عنده لديها المخالب والأنياب، ووضع قانونا للعيب، وطور في مشية الإوزة الهتلرية، وتسلح بعصا المارشالية، والتزم في خطبه لعدة دقائق بما كتب له ليزيح من بعدها الأوراق وينبري يقول ما عنده ويختم بآياته المنزلات من سورة البقرة ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ من داوم على يدي النبوي إسماعيل النجاح في الانتخابات بنسبة ٩٩,٩٪ . . واغتيل يوم عرسه . . من عشق الانطلاقة من أسوار التزمت في السجن أو الحرس الجمهوري، فهرب من الأول وتفنن في صنع المشكلات للثاني عندما كان ينطلق وحده بالعربة الفولكس ليقسم البعض أنهم شاهدوا مثيلا له الخالق الناطق على الكوبري وفي زحام الإشارة وعلى الطريق السريع . . من كانت نقطة ضعفه وقوته في حبه للعمار والتعمير حتى أخذ عليه قوله : نفسي كل حتة أرض في مصر تغلي، وكان مقصده البريء أن يبني كل جزء من الصحراء ليجد الشباب والفقراء بيوتا تظللهم، ولم يكن يدري أن أمنيته ستتحقق على يد سماسرة العقارات والعمولات وتسقيع الأراضي وتشفيرها وطرحها بالمليارات لأجانب الدولارات والدينارات.

ليس تأريخا للرجل فليست مهمتي ولا صناعتي ولا أنا المؤهلة أكاديميا أو سياسيا أو حزبيا لها، ولا أنا من خريجات مدرسة الدكتور يونان لبيب رزق الراصدة لتاريخ

صفحات جريدة الأهرام المئوية، وإنما مجرد واحدة غاوية البحث عن مفاتيح الشخصية للقيام برسمها فقط لا غير، وشخصية السادات على مدى أيامه وأحداثه أنه لم يكن دمويا في صراعاته أو خلافاته مما جعله متهما في بعض الأحيان بالتراخي الأمني.. شخصية رجل منعم بطاقة فن التشخيص التي صنعت مجده وصنعت مأساته، والتي شعر بوطأتها في شرخ الشباب فأرسل صورته للمنتجة آسيا في عام ١٩٣٩ عندما طلبت وجوها جديدة لغزو الشاشة، ونشرت مجلة الهلال صورته كوجه مرشح للتمثيل، وأراد السادات وهو على رأس المؤتمر الإسلامي جمع أعداد الهلال القديم الذي نشر الصورة فكان من غير المستطاع، وربما من هذا المنطلق كتب بيجن في مذكراته عنه قوله: «السادات مثل عليّ الدور، وشخصية الممثل المقنع المقتنع بجوانبه السلبية والإيجابية تلك جعلته في عام ١٩٣٢، يخلع ملابسه ويغطي نصفه الأسفل بإزار ويصنع نولا للغزل ويعتكف فوق سطح بيتهم في كوبري القبة لعدة أيام تشبها وانبهارا بالزعيم مهاتما غاندي إلى أن تمكن والده من إقناعه بالعدول عن دوره الذي لن يفيده أو يفيد مصر في شيء، بل على العكس من المؤكد أنه سيصيبه بمرض صدري، وعندما زحف هتلر من ميونخ على برلين ليخلص بلاده من آثار هزيمتها في الحرب العالمية الأولى قام بطلنا بجمع أقرانه وهو في الثانية عشرة ليتزعمهم مثل هتلر الذي يجيد طريقة أدائه للزحف على القاهرة من ميت أبو الكوم.. وأبدا لم يمثل لون بشرته الداكنة لديه أية عقبة لتخطي السدود إلى قمم الأناقة والوجاهة والجاذبية، فقد نشرت مجلة لايف صورته إلى جانب النجم جريجوري بيك وأمير موناكو كواحد من أكثر رجالات العالم أناقة، تلك الأناقة التي قد تكون جزءا من أسباب اغتياله عندما رفض ارتداء الجاكت الواقي من الرصاص تحت البدلة العسكرية المحبكة، ألمانية الطراز في حضور العرض العسكري ليظل محتفظا بوزنه المثالي ومظهر رشاقته التي داوم من أجلهما على الرجيم والجبن القريش، وبقي قوامه حتى النهاية بدون كرش أو سنتيمتر زائد من الشحم».

إن يوميات الشهور الثلاثين التي قضاها محمد أنور السادات في السجن ما بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٨، تعد نافذة تاريخية على ما قد جرى، أما ما خرجتُ منها

بإعادة الاكتشاف فقد كان اكتشافي لنفسي من أنني عندما أحببته . . السادات . . كان عندي حق .

من بين أيامه المسجونة كتب في ٢٠ يناير ١٩٤٦ ، في سجن الأجانب : «مضى عليّ الآن ثلاثة أيام وأنا أنام ببدلتي ، فقد نقلوني إلى هنا مساء الخميس السابق دون أن يحضروا ملابسي وحاجاتي من سجن مصر حيث كنت ، لذلك كتبت خطابا شديد اللهجة إلى النائب العام في شأن هذا الإهمال ، وتركي بدون ملابس أو حتى صابونة لأغتسل . . وقد سبب لي النوم بالبدلة التهابا شديدا في فخذي جعلني أهرش كما لو كنت أجرب !» .

٤ فبراير ١٩٤٦

طلعت علينا جريدة المقطم وفيها خبر نقل كيلرن من مصر ، ولما كنت أبغض هذا المخلوق الذي أدمى كرامة مصر كلها ، فقد صممت على أن أحتفل ، وأرسلت في شراء دستة جاتوه باسم المسجونة ليلى الهندية ووزعتها على ليلى والسجانات واستبقيت لنفسي ثلاث قطع أحتفل بأكلها على فنجان شاي المساء ، وقد استمتعت بأكلها أيما استمتاع ، خاصة أن المعازيم تركوها لي من النوع الدسم المملوء بالكريمة ، وفي نحو الساعة الثانية صباحا استيقظت على مغص وإسهال مروع ، واتضح أن الجاتوه كان تالفا ، وقد جيء به من دكان في شارع محمد علي . . إنني أقرر لوجه الحقيقة أن بغضي لكيلرن قد تحول إلى حقد دفين منذ هذه الليلة !

١٤ فبراير ١٩٤٦

ليلى الهندية تحب السجين رقم ١٩ ، هذه هي العبارة التي يرددها السجن كله ، قالتها لي سنية السجانة ، بل أكثر من هذا تقدمت ليلى للمأمور بطلب إعطاء المسجون رقم ١٩ فسحة أطول لكي تتمتع بالتحدث إليه ومناجاته ، وقد دفعني الفضول لرؤية هذا الحبُّوب وبكل عناء تمكنت من أن أراه لمدة نصف دقيقة فوجدته يستحق إعجاب ليلى فعلا ، إذ كان شابا أشقر ذا أنف روماني ، وشعر أصفر ، وتقاطيع متناسقة في رجولة . . وقد علمت فيما بعد أنه يدعى محمد إبراهيم كامل .

أول يوليو ١٩٤٦

اجتمعنا نحن المتهمين في قضية أمين عثمان نفكر في كيفية جعل حياتنا هنا شيئا محتملا بقدر الإمكان وانتهينا إلى القرارات الآتية :

١ـ يصير توزيع جميع الأطايب الحلويات وما شابهها التي تأتي لأحد المتهمين على الجميع .

٢ـ على كل من يرى امرأة جميلة في شباك سجن النساء أن يخطر الباقين لمشاهدتها أثناء الطابور والغزل ممنوع ويكتفي بالمشاهدة ، أو المصمصة فقط .

٣ـ إصدار مجلتين أسبوعيتين تتضمنان الحوادث العامة والتعليق عليها ، ونقد المتهمين أنفسهم ، والتعليق على ما يدور من حوادث السجن بخلاف أي مواد أخرى يراها رئيسا التحرير .

١٠ يوليو ١٩٤٦

المكان كخلية النحل ، فبينما أخذ المتهمون في استحضار الكتب والمؤلفات ، نجد رئيسي تحرير المجلتين المزمع إصدارهما وسيم خالد و محجوب الجابري يتفنن كل منهما في اختيار الأقلام الملونة والورق . . وقد سرت شائعة أن المقالة الجيدة أو القصيدة الموزونة ثمنها سيجارة ولا شك أن ضخامة التمويل هذه تبشر بإنتاج صحفي رائع فالسيجارة هنا أندر من الذهب .

بداية أغسطس ١٩٤٦

استيقظنا لنرى في غرفة كل منا إعلانا من هيئة تحرير الهنكرة والمنكرة وهو الاسم الذي اختاره وسيم لمجلته يحوي أقذع الشتائم لهيئة التحرير الأخرى ، ويتهم محرريها بأنهم مأجورون ، وأن محجوب شوهد مع الضابط النوبتجي في خلوة أمنية .

نهاية أغسطس ١٩٤٦

قاتل الله البروباجندا . . اليوم نظمت هيئة تحرير الهنكرة والمنكرة موكبا في طرقة السجن يتقدمه محجوب، ومن خلفه مدحت يعزف على مندولين مصنوع من أستيك الكالسونات ومشدود على علبة فواكه فارغة، وسعيد يحمل طبلة مصنوعة من كرتون مشدود على صحن المياه المنصرف لنا، وسار الموكب والمسجونون يصفقون ويهللون إلى أن وقعت الطامة وجاء ضابط السجن على هذا الضجيج . . وكان من نصيبنا أن أقفلت علينا الزنازين طيلة اليوم وهددونا بقفلها طيلة الأسبوع إن عدنا . . ألا قاتل الله البروباجندا!

٢٦ أكتوبر ١٩٤٦

دام الإعداد للمجلة شهورا وفي العدد الأول لم يفت أصحابها العناية بباب الأخبار ومنها هذه الانفرادات: دخل أحد اللصوص حجرة عمر حسين أبو على لتأدية واجبه كالمعتاد، ولكنه لم يعثر في الحجرة على آثار المأكولات، فرقّ قلبه لما تبيّن حالة الفقر المدقع التي كانت تظهر على الحجرة وخرج تاركا فيها موزة وثلاث بلحات . . لله . . قال لنا فريق سابق إن السيجارة في السجن أثمن من فردة كاوتش بره . . تتناقل الألسنة هذه الأيام أن أنور السادات وقع في غرام سجن النساء . . والحب أعمى كما يقولون .

٢٠ فبراير ١٩٤٨

استخف بنا الفرح بعد الحكم الابتدائي بالبراءة فنظمنا مهرجانا لسهرة في قصر هارون الرشيد، واشتركنا جميعا في التمثيل والإخراج والغناء والاستمتاع في آن واحد، وكان توزيع الأدوار كالآتي: أنور السادات: الخليفة هارون الرشيد، وحسين توفيق: السياف عبد الله، والسيد عبد العزيز خميس: القهرمانة وكبيرة القيان، وسعيد توفيق: كبير الحجاب، ومدحت فخري: شهرزاد الراقصة المغربية، وعمر أبو علي: إسحاق الموصلي، وأحمد وسيم ومحمد كريم ومحجوب: فتيات

الكورس، والجوهري: بائع اللب، ومراد: الخواجة ورئيس وفد الفرنجة، وتبدأ السهرة بصوت القهرمانة ومن خلفها ترديدات الكورس، ويطرب الخليفة فيستعيد النغم مثنى وثلاثا ولا يتمالك عندما يأخذ الطرب بمجامع نفسه من أن يندفع ويرد على الكهرمانة والقيان:

أنا جيت لكم والله يا ولاد.. أنا أحبكم أوي أوي يا ولاد.. أنا جيت لكم أنا جيت.. دا الاتهام لخبيط!!

ويطلب الخليفة من القهرمانة أحدث مواويل الموصلي في الصبر والسلوان فتنشد مع القيان:

نامت عيونك وعين الله ما نامت.. ما في ولا شدة على مخلوقها دامت.. وإن دامت الشدة ما يدوم صاحبها.. راحت ليالي الهنا ياليتها دامت.

وتندفع الراقصة المغرية شهرزاد على نغمات الموال، ويصيح الخليفة في حبور: هدهدوني هدهدوني اطربونى اطربوني، وينتهز بياع اللب الفرصة فينادي على بضاعته بصوت نشاز فيأمر الخليفة بإخراجه من المكان، ويحل وقت العودة إلى الزنزانات فينتهي الحفل بين رنين الضحكات، وباسم الثغور، وبالغ البهجة والحبور.. وغضب السجانين وصك الأقفال!

يونيو ١٩٤٨

فجأة.. ودون أن يعلم أحد هرب حسين توفيق، لقد وصلنا الخبر أول ما وصل، على وجه السجانين والضباط، ثم انهالت علينا القيود والتشديدات، وعدنا إلى سالف العصر والأوان.. لقد كان حسين شرا في وجوده، وشرا في هروبه، ففي وجوده كان خير من يثير عنف المناقشات وزعيره يكهرب الجو بالتكهنات والخرافات.. ثم هرب فكان سببا فيما نزل بنا من كبت وإرهاق، اللهم سامحه والطف به وبنا.

٧ يوليو ١٩٤٨

انتهى اليوم الدفاع وتأجلت القضية إلى جلسة ٢٤ يوليو بالحكم.

٢٠ يوليو ١٩٤٨

منذ يومين ونحن مشغولون بالأحلام التي هطلت علينا كالمطر، ويظهر أن الحالة النفسية المسيطرة علينا كان لها الأثر الأول في تكاثرها، فقد رأى مدحت أنه يلبس ثيابا بيضاء ويركب حصانا أبيض ويسير به الهوينى في نادي سبورتنج، ولما التقينا رفض أن يكلمنا لأنه من الأسياد ونحن فلاحون.. وقد نال جزاءه على ذلك بأن فسرنا له الحلم ألعن تفسير.. ورأى عمر في المنام أنه معزوم في مأدبة بها ما لذ وطاب لكنه كلما مد يده ليتناول لونا تحول في يده إلى لب أو حمص حتى انقطع قلبه على حد تعبيره، وفجأة رأى العزومة تنقلب إلى عنبر السجن، والطعام يتحول إلى يمك السجن فاستيقظ مهموما.. ورأى محمد كريم في المنام أنه قد نبت له ذيل وأنه كان يبكي خجلا من أن يعرف زملاؤه ذلك.

٢٤ يوليو ١٩٤٨

قال القضاء كلمته ليقرر أني بريء، وها أنذا أكتب هذه الكلمات من بنسيون في حلوان جالسا وفي رأسي زحام كبرج بابل.. لكني أردد: اللهم لك الحمد حتى ترضى.

السادات.. فلاح ميت أبو الكوم الذي هرع طفلا حافيا بالقميص البفتة في ذيل جدته أم الأفندى فوق الجسر للحاق بمركب البلاليص الراسية في كفر زرقان لأن العسل وصل.. المطارد الذي قام عاملا باليومية بقطع الرخام في محجر جنوب بني سويف ليقوم بنقله بنفسه إلى الأهرامات ليبني استراحة فاروق.. اليوزباشي خريج السجون الذي اختبره شكري زيدان للتأكد من أنه الكاتب الحقيقي ليوميات الثلاثين شهرا في السجن قبل الإذن بنشرها، فأعطاه مهلة النصف ساعة الباقية على دوران المطبعة ليمط فقرة كتبها في سطرين إلى عمود ونصف العمود، فأنجز مهمته

في عشر دقائق فقط، فقام بتعيينه براتب شهري وليس بالقطعة كالآخرين، وذلك في وظيفة المراجع في دسك دار الهلال خلفا لإحسان عبد القدوس... السادات الذي عمل بالسياسة منذ عام ١٩٣٩، عضوا في أول تنظيم سري للضباط كان اغتياله في ٦ أكتوبر ١٩٨١، بسبب قوله المأثور المطبوع بختم السادات: «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين»، الجملة التي قالها أثناء خريف الغضب... ويمضي على الذكرى ٢٦ عاما أسافر فيها للعريش وشرم الشيخ وأقيم في فندق طابا وأقارن إسماعيلية ٦٧ بإسماعيلية ٧٣، وأزور مدن العاشر و ٦ أكتوبر والسادات وأقف أتطلع على رمال شاطئ فايد للمدن العالمية العائمة في تهاديها عابرة القناة، فتأستشيعر خريف الحب.. وأردد دعاء السادات: ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به..... واعف واغفر لنا.. وارحمنا.

عثمان أحمد عثمان .. المعلم

في استراحته بالإسماعيلية تحلقنا حول السادات على مدى يوم كامل في استضافته السلسة التي نأكل فيها معه ونشرب معه ونضحك معه ونقف معه على شاطئ القناة نتفرج معه على روعة فنون بنايات السفن العالمية الضخمة التي تعبر أمامنا شريان الملاحة الإستراتيجي الذي تم تنظيفه وتوسيعه وإعادته للحياة . . ويحكي لنا السادات شريط الذكريات فيمسك بخيوط حب استطلاعنا ملك يمينه وهو الحكّاء القدير والمضيف الكريم حتى ظننت من حسن استقبالنا في أجوائه المنفتحة ومائدته العائلية وكأنني توءم لابنته همت مصطفى فوق فرن ميت أبو الكوم .

ويومها في تجوالنا وقعدتنا وطعامنا وشرابنا وضحكاتنا وإنصاتنا ظل على يمينه عثمان . . عثمان أحمد عثمان . . مؤانسا موافقا مداعبا مقرظا مرابطا مستشارا وخبيرا . . ويومها تجول السادات بعينيه فينا يستشف جوهرنا نحن مجموعة الصحفيين والكتاب الذين وقع اختياره علينا لتحقيق حلمه في إصدار جريدة مايو التي أسند رئاسة تحريرها للكاتب الصحفي القدير إبراهيم سعدة . . وبعدما اطمأن إلى حسن اختياره مال على عثمان ليقول له بصوت مدو كان رجعه في آذاننا زغاريد موكب العروس القادم : أنا رأيي يا عثمان إنك تبني لكل واحد منهم فيللا بجنينة . . سامع يا عثمان . . وسمع عثمان ساعتها ، لكنه لم يسمع بعدها ، فهناك أوامر يصدرها الناس الكبار لها نفس وقع إمضاءاتهم على نوعية من الطلبات يذيلونها بعبارة للأهمية ليتعرف عليها طاقم التنفيذ كي تنام في عسل رفوف الأرشيف ، والظاهر أن جملة سامع يا عثمان كانت من تلك الفصيلة !

عثمان . . المهندس . . صبي الميكانيكي . . المعلم . . المقاول . . الوزير . . أستاذ التعمير . . رئيس النادي الإسماعيلي . . النقيب . . والد محمود وأحمد وإبراهيم ومحمد وهادية . . عاشق صوت أم كلثوم الذي دخل كلية الهندسة بشهادة فقر مقاوما الحقد على الأغنياء بترديده حكمة أمه : غير . . ومتحسدشي . . ابن برج الحمل في ٦ إبريل عام ١٩١٧ الذي بدأ حياته العملية في مجال المقاولات ببناء جراج لطبيب يوناني مستعيرا أدوات البناء التي لا تخرج عن ستة عروق خشب ولوح وسقالة وكان مكسبه منها ٦ جنيهات ، ومنها بدأت العجلة تدور وتزداد سرعة دورانها ويمتد العمل خارج الإسماعيلية لبناء سور مصنع السماد بالسويس ويجرب حظه عام ١٩٥٠ في السعودية ليرسو عليه عطاء تنفيذ الكلية الحربية بالرياض .

وفيها يعرف الملايين ليوقع بعدها باسمه بالخرسانة المسلحة على الرخام والصخر والأسمنت في الكويت والإمارات والعراق والأردن وليبيا ولبنان ثم إلى مصر إلى التحدي الأكبر . . السد العالي . . عثمان المقاتل بطبعه . من لا حدّ لطموحه . العنيد الذي لا يقبل تقهقرا أو هزيمة . عاشق الصعب المتعالي على السهل الميسور . المصمم على إثبات وجوده . من لا يقبل بأقل من درجة الامتياز مع مرتبة الريادة . من لا يقنع بأقل من تشييد مملكة لا بالمعنى الحرفي وإنما بمعنى المشروع بالغ الضخامة والفخامة والأنشطة والتسميات الذي يعترف به الجميع ولا يستمر فقط لمدى حياة مؤسسه بل ينتقل من الأب للإبن للحفيد ليشمل عائلة كبيرة يرتع فيها الأبناء والأحفاد تحت لواء الجد المؤسس لمملكة الرخاء .

وتلك الشخصية قلما تتوافر إلا فيمن يمتلك إرادة حديدية وثقة مفرطة بالنفس وذكاء على درجة أكبر بكثير من الذكاء العادي واهتماما بالتفاصيل الصغيرة لصالح الأساسيات الكبيرة وجينات ماسية لها خاصية الاستشعار عن بعد لتقويم مزايا الناس وعيوبهم بمجرد نظرة وكلمة وسؤال ومعاملة كل منهم بالأسلوب الذي يؤثر فيه مستخرجا منه أفضل ما فيه . . وذلك هو طراز رب العمل المثالي الذي تشكل داخل قالبه أمثال عثمان أحمد عثمان .

ولقد وقع اختيار كل منهما عليه بالذات لتنفيذ مبتغاه . . ووجد هو في كل منهما بذكائه الفطري والمدرب ووصية أمه في الصغر التي كانت كالنقش على الحجر «اللي مالوش كبير يشتري له كبير وجد في كل من الكبيرين هدفه وسكته فاشتراه في ضميره ليخلص له العمل ويفني النفس لإرضائه . . ناصر من كان في أشد الحاجة ـ لتنفيذ مشروعه الطموح لبناء السد العالي ـ إلى رجل له من القوة والجلد والقدرة على التحمل والتصدي والطموح والصبر ما لعثمان أحمد عثمان، وكان عثمان في الستينيات يرسي قواعد مجده وفي حاجة ماسة إلى ناصر الكبير بما له من سلطان وسيطرة وإرادة تهد جبال ومنزلة عالمية تهز الخمس قارات .

وأتى السادات ليغدو في حاجة إلى حنكة عثمان وهو ينتزع السلطة من رواسي وشعاب تغلغل نفوذ رجال عبد الناصر في الأرض والبحر والجو . . وهو يشيد دولة الانفتاح الجديدة . . وهو يعيد تعمير مدنه المهجرة المنتهكة . . وهو يبني مدنا جديدة ـ مدينة العاشر من رمضان ومدينة السادات ومدينة الملك خالد ومدينة العبور ومدينة ١٥ مايو ـ مدنا جديدة لملايين جديدة تضخها الأرحام هدرا وغباء وتسيبا . . كان السادات في حاجة لعثمان لينظف ويوسع قناته الملغمة الواقفة في حلق الملاحة الدولية ليسيِّر فيها مراكب أضخم الموارد الاقتصادية المصرية للعملات الأجنبية .

وعلى الجانب الآخر تطلع عثمان إلى عطف ومودة ومظلة أمن السادات ليرأب صدع إحباطات نجاحاته العملية عندما تعاونت ١١ شركة مقاولات مصرية في تكوين اتحاد لتنفيذ بناء السد العالي بعرض بلغ ٢٧ مليون جنيه، في الوقت الذي تقدمت فيه شركة عثمان وحدها لتنفيذ العمل المطروح بـ ١٥ مليونا فقط . . ولم يصدق المسئولون أن هذا المقاول يمكن أن يقوم بالعمل وحده وبأقل ١٢ مليونا عن منافسيه، فقرروا أن تشترك معه شركة قطاع عام بنسبة ٣٠٪ ورفض عثمان المبدأ وقرر بدلا من أن تشترك معه شركة لا يعرف عنها شيئا أن يتنازل عن ٥٠٪ من شركته للدولة ولكن الدولة رفضت هذا العرض .

وعندما عرف السوفييت أن شركة مصرية واحدة هي التي ستقوم بالعمل اعترضت بانزعاج، وأعلنت أن المشروع لا تقوم به شركة أو شركتان أو ثلاث بل

كل الشركات العربية، وقد ألهم هذا الاعتراض من جانب الروس عثمان لتغيير اسم الشركة وتسميتها الاسم الذي حمل شهرتها المقاولون العرب ـ عثمان أحمد عثمان. . وبعد ستة أشهر من توليه بناء السد صدر قرار بتأميم الشركة بعد أن أصبحت تساوي الملايين ـ أربعة ملايين ونصف المليون جنيه ـ ولم يفقد عثمان توازنه بل بقي مكانه يقوم بدوره كاملا كما لو كان صاحب الشركة رافضا عرض الملك خالد التجنس بالجنسية السعودية وتقديم ما يبغي من أموال وتحمل نفقات معيشته مع أسرته في أي مكان في العالم.

وعرض آخر قدمه له «ديلنج هام» رابع مليونير في العالم لمشاركته في بناء شركة في بيروت ميزانيتها خمسة آلاف مليون دولار. . ويسأله المشير عامر بعد التأميم إذا ما كان متأثرا مما حدث، ذاكرا أنه ليس مقصودا بالقرار وحده وإنما القانون فوق رأس الجميع. . وكان عثمان قد ذهب للسادات ـ صديقه ـ قبل التأميم بأيام فلم يشأ الأخير أن يفاتحه بما سوف يصيبه باعتبار ذلك سرا ملكا لناصر وحده. . ويسأله عثمان بعدها: لماذا أمموني؟ وأنا لست من النوعيات التي ينطبق عليها مثل هذا القرار، فلا أنا إقطاعي ولا رأسمالي ولا مستغل ولا محتكر ولا ذنب للاستعمار وما لديّ من أموال كونت بها الشركة وحصلت عليها بعرقي من خارج مصر وأتيت بها لتستثمر لصالحها فيها. ويجيبه السادات: هذه أشياء سوف تنتهي وعليك بالصبر. . ويتم عثمان دوره في بناء السد في الوقت الذي أصبح لكل عامل في الشركة راتب بينما نسوا أن يحددوا له أجرا ليظل ثلاث سنوات رئيسا لمجلس إدارة شركة المقاولون العرب بلا راتب ليتولى الإنفاق على أسرته من قليل تبقي له بعدما أخذوا وقتها كل شيء. . وهكذا كان الاعتماد متبادلا بين عثمان والسلطة في كل العهدين. . الناصري والساداتي. . وإذا ما كان عثمان قد قام بتنفيذ حلم ناصر في بناء السد وظل حتى النهاية مؤيدا ومناصرا ومتعاونا معه، فإنه من بعد رحيله بدا واضحا نفوره من سياسته حتى ظل يشير إليه بتعبير نظام الحكم بدلا من ذكر اسمه الحقيقي.

أما مع السادات فكأن كلا منهما قد عثر على ضالته، على توءمه وشقيق روحه

على حد تعبير الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، أو كأننا أمام شخصين تربطهما علاقة كأنها نابعة من أعماق نفسية متشابهة تماما أو متكاملة إلى أقصى حد. . فالنظر إلى الأمور واحد والآمال واحدة والتخطيط واحد والمصالح أيضا واحدة. . ومن بعد نسب وزواج الأرواح تم نسب وشائج الدماء ليتزوج محمود بن عثمان الأكبر بجيهان صغرى بنات أنور السادات.

وإذا ما كانت معركة بناء السد العالي قد عشناها جميعا بالصوت والصورة والأغنية التي كتبها صلاح جاهين لنحفظ تاريخها بصوت عبد الحليم: قلنا حنبني وآدي إحنا بنينا السد العالي، يا استعمار بنيناه بإيدينا السد العالي، فقد كانت هناك معارك أخري أشد بأسا وضراوة، فعقب هزيمة يونيو ١٩٦٧، لم يعد لإسرائيل هم سوى استخدام طيرانها بشكل مكثف لا لضرب الأهداف العسكرية وحدها وإنما لضرب المنشآت المدنية والمدنيين أيضا، وفيها كان الاعتداء الآثم على مدرسة بحر البقر، ومن جراء عدوانها البربري ماتت شيماء.

كان ذراعها الطويل يمتد إلى كل شبر من أرض مصر ليغدو هدفا سهل المنال للسلاح الجوي الإسرائيلي فوسائل دفاعنا شبه مشلولة للتصدي لاختراقات تعود بعدها القاذفات الإسرائيلية لأوكارها كأنها طلعت ياللا بينا فسحة. . ولم يكن بد من الصواريخ المضادة التي لا بد بالتالي من بناء قواعد لها. . وكان شرط موسكو لتعجيزنا أن يتم بناء القواعد في شهرين لا غير وإلا . . وإلا سحبت موافقتها على إمدادنا بوسيلة الدفاع عن أراضينا مقدرة أن سلاح الطيران الإسرائيلي أبدا لن يسمح بإقامة القواعد مهما يكن الثمن لأن معركته مع البنائين بمثابة معركة حياة أو موت لإسرائيل. . ودخلت مصر معركتي التحدي. . مواجهة الروس للحصول بالقطارة على السلاح ومعركة تلقي القذف الإسرائيلي بأطنان القنابل التي تلقى بغير حساب أثناء مباشرة العمل. . ونجح عثمان ونجح جنود المقاولين في بناء دشم الطائرات وقواعد الصواريخ على امتداد الجبهة كلها ليسقط في محنة التحدي ٥٠٠ شهيد في يوم واحد على الضفة الغربية في القنا، حيث وصل التحدي الإسرائيلي مداه عندما كان يهدم القواعد أكثر من خمس مرات بعد بنائها، وفي كل مرة تعجن

المونة بدم الشهداء. . . ووسط موجات العدوان الإسرائيلي على رجال عثمان يتم القبض على عثمان. . وبماذا؟! . . بتهمة خيانة الوطن والتآمر!! مع من؟! مع إسرائيل!!

لقد أتى إليه في مكتب غرفة عملياته لبناء السواتر الدفاعية فحلان، طول كل فحل منهما متران وعرضه متر قدما لأخذه بسيارة النظام للتحقيق معه ليظل وحيدا في حجرة صامتة الجدران في حراسة جندي مسلح من الحادية عشرة صباحا إلى السابعة مساء دون أن أجد من يسألني من أنت؟! وكانت المرة الوحيدة في حياتي التي تمنيت فيها أن أجد من يسألني من أنت؟ . . التهمة: أن مهندسا كهربائيا - محمد متولي مندور - سرق رسما هندسيا لإحدى حظائر الطائرات التي تقوم شركة المقاولين العرب بتصميمها وتنفيذها وسلمه للمخابرات الإسرائيلية وعند مواجهة المتهم بعثمان أمام رجال التحقيق أشاد بعثمان قائلا: من أنظف من تعاملت معهم في حياتي وليست له أية صلة أو أدنى علم بتصرفاتي. . وأنقذني السادات من كارثة محققة حيث كان من السهل جدا أن تكون تلك الواقعة التي لا ذنب لي فيها سببا يحتمون وراءه ليضعونني وراء الشمس دون أن يدري عني أحد شيئا كما حدث للكثيرين غيري من الأبرياء. . . . وإذا ما كان عثمان في زمانه قد أنقذته براءته - قبل علاقته بالسادات - فهناك الآن من تنقذه العلاقة وليست البراءة!!

المعلم عثمان. . الذي رفض بيع قطعة أرض تطل على النيل خلف قصر العيني أثناء توليه وزارة الإسكان والتعمير لشركة شباب الكويت لإقامة فندق عليها بمبلغ أربعين مليون دولار في وقت من أحرج الأوقات الاقتصادية العصيبة في تاريخ مصر، وقد كان عثمان وراء صدور قانون منع بيع الأراضي للأجانب، فمبدأه الأرض بالنسبة لمصر كالعرض وسياسة الانفتاح لخير مصر وليس لبيعها، ولقد ضاعت فلسطين بهذه الطريقة وبدلا من أن نستفيد من تجربتها نسعى لأن نحول مصر إلى فلسطين أخرى. . وقال لوزير مالية الكويت القادم بالعرض المغري أمام رئيس الوزراء المصري: «إن كل ما عندك وما عند العرب جميعا وكل أموال العالم لا يمكن أن تشتري قطرة دم من دماء أولادنا الذين استشهدوا من أجل كرامة العرب

وإن أرواحهم التي صعدت إلى السماء ومعها إرادة مصر عالية لا تقبل أن تركع إلا لله وحده فكيف بالله نسجد أمام كومة فلوس كانت تلك الأرواح هي السبب في ارتفاعها عشرة أضعاف؟!».

وما زلت أذكر ما رواه لي يوما الأستاذ الصديق الراحل عبدالله عبد الباري رئيس مجلس إدارة الأهرام الأسبق عن شهامة عثمان معه، حيث لم يتخل عثمان عن أسرة عبدالباري طوال فترة اعتقاله في السجن لثبوت تهمة لقائه بأحمد أبوالفتح صاحب جريدة المصري في الخارج، وكان لقاء المصادفة الذي اعتبرته الأجهزة جريمة لا بد من أن ينال مرتكبها العقاب الرادع.. ومثلما ذكر عبد الله عن موقف عثمان الإنساني جاءت شهادة الكاتب محمود السعدني في مجلة المصور في العدد ٧ مايو ١٩٩٩ حول شهامة عثمان مع الجميع، والتي احتوته شخصيا عند سجنه في قضية مراكز القوي، حيث أرسل أحد كبار موظفي شركته بمظروف يحتوي على خمسمائة جنيه، ولكن السيدة زوجته رفضت تسلم المظروف، وعندما أبلغته بالنبأ أثناء زيارتها له في سجنه عاتبها بشدة على رفضها متأثرا بموقف عثمان.

فتلك المبادرة من جانبه كانت تعني الكثير بعد أن أشاع عملاء الحكومة أنهم عثروا في بيته لحظة التفتيش على أربعة ملايين جنيه وكان عثمان يعلم الحقيقة، وما تلك المبادرة سوى تبرئته من التهمة هذا وقد توسط عثمان لدى السادات ليعفو عن السعدني ويسامحه بعد تطاوله عليه سنوات في البلاد العربية خلاص يا واد يا محمود والله ما في حاجة في نفسي من ناحيتك أبدا.. ارجع يا وله وكل شيء ح ينحل، ووعده بالعودة، وكانت المرة الوحيدة التي تدخل فيها عثمان بالحديث عندما قال الرئيس أنور السادات لمحمود السعدني: بس إنت لسانك وسخ يا وله وعاوز قطعه.. فعقب عثمان قائلا: «ده يستاهل قطع رقبته.. وضحك»! فقال محمود له بحدة: «إنت ما تشتمش خالص يا عم عثمان اللي يشتم الرئيس وبس»!! وضحك السادات وتم الصلح.

ويعقب المعلقون ذوو وجهات النظر الخاصة بأن شهامة عثمان ما هي ميزة فيه وحده وإنما هي صفة أصيلة في الفلاح المصري عامة تنطوي على مزيج من الشعور

بالواجب واعتقاد راسخ في أن ما يقدمه الشخص لغيره اليوم سيلقى مثله في الغد وكله سلف ودين، وأن من الحماقة ألا تؤدي لشخص ما خدمة في وسعك تقديمها له بسهولة إذ أنك إن فعلت فسوف تكسب نصيرا لا بد وأن يكون في كسبه منفعة لك في يوم قادم. . وحتي عمل عثمان الخير لوجه الله جعلوه حاجة عادية خالص وكلهم بيعملوها ومش شيء يستاهل نعمله زفة وزيطة وزنبليطة في الصالون وعموما ده سلو الفلاحين في بلدنا !!

عثمان. . من عاش حياته بالطول والعرض وبالعمق أيضا وقد أصاب وقد أخطأ ولكنه كان مؤثرا في كل حين. . قال في تجربة السنين: «رحل والدي وأنا في الثالثة وتركني بلا موارد مع ثلاثة أشقاء وشقيقتين. أكبرنا لم يتجاوز الثانية عشرة وحسين الصغير لم يزل رضيعا، وعندما حاولوا إقناع والدتي بالزواج أجابت لن أسعد نفسي، وأشقي أولادي. . كان والدي يمتلك محلا للبقالة وبعد وفاته ترك محمد المدرسة ليدير المحل. . كان عندنا عنزة ننظر إليها كأحد أفراد العائلة اسمها عيدة وكانت توفر لنا بعض مصادر غذائنا. . كانت أمي التي تقوم بتربية الطيور وبيعها لتغطي التزاماتنا لا تقرأ ولا تكتب لكنها علمتنا الكثير.

عندما قمت بزرع حوش البيت وبيع محصوله قالت: «عثمان إيده خضرة. . كان بيتنا في شارع مكة، بحارة عبد العزيز في حي العرب بمدينة الإسماعيلية من طابق واحد مبني بالدبش والطين بسقف تعريشة من الخشب والعروق والجريد مكون من أودتين واحدة للتخزين والثانية لنومنا فوق الحصير ع الأرض فلم يكن عندنا سرير أو دولاب. . يوم الخميس موعدي الأسبوعي مع النعيم، مع رغيف خارج لتوه من الفرن ساخنا وطزاجته أفتح لها قلبي وقلبه لأضع فيه عددا من البيض تحتفظ به أمي لمثل تلك المناسبات الوضَّاءة، ثم أقفله وأعيده للفرن مرة أخرى حتى يكتمل نضجه مع البيض بداخله، وأنفرد به أقضم لأتلذذ بأشهى وجبة أحببتها في حياتى».

عم عثمان الطحان الذي التحق بكلية الهندسة في عام ١٩٣٥، بالاستعانة بشهادة فقر فقد كانت المصروفات المقررة أربعين جنيها، وقرر الزواج في عام

١٩٤٨، عندما رصد ٣٠ جنيها شهريا لفتح بيت، وكانت العروس سامية هي الشقيقة الثالثة لزوجتي شقيقيه إبراهيم وحسين بنات إسماعيل وهبي المحامي، وفي الصباحية نهض من فراشه في الخامسة صباحا ليذهب إلى عمله كالمعتاد. . ذلك المنضبط ـ الذي أعاد بناء كفر عبده بالقرب من السويس في شهرين، وشق في الجبل نفق الشهيد أحمد حمدي، وزرع الجبل خضرة للنادي الإسماعيلي، وأقام فوق الجبل مستشفى المقاولين، الذي أفرد في سيرته الذاتية مكانا لتفاصيل كثيرة عن علاقته بالإخوان المسلمين.

حيث كان حسن البنا مؤسس الجماعة ومرشدها الأول هو في الوقت نفسه مدرس اللغة العربية والدين في مدرسة عثمان الإسماعيلية الابتدائية، وكان البنا وقتها لم يزل في العشرينيات، وتعلق به عثمان، وكان يحرص على سماع أحاديثه في مندرة خاله الشيخ محمود حسين. . عثمان كان من رأيه في القوى العاملة أنها مقبرة للشباب ونظام لم تضعه الدولة لتحقيق مصلحة الشباب وإنما لأنها كانت في وقت من الأوقات في حاجة لحماية كرسي الحاكم، فأرادت أن تربط الناس بها وتعطيهم لقمة العيش من يدها، ليس لكي تطعمهم وإنما ليدوروا في فلكها. . ومن معتقداته الراسخة «أن ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب. . وأن العمالة المصرية لها الفضل في نهضة البلاد العربية كلها».

وأن الأعمال العظيمة لا يسمع عنها أحد إلا إذا وجدت طريقها في وسائل الإعلام التي يعود ٣٠٪ من نجاح الشركة إليها. . عثمان الذي قدم فكرة وتخطيط كوبري أكتوبر لعبد الناصر ليرفضها تخوفا من أن تقوم إسرائيل بتدميره ليتم إنشاؤه في عهد السادات تماشيا مع مهمة تعمير منطقة القناة. . الذي قام بتصنيع دراجة بستين قرشا لتنقذه من مشكلة المواصلات وقطع المسافة من باب الخلق إلى مبنى كلية الهندسة بالجيزة سيرا على الأقدام مرتين في اليوم فلم يكن باستطاعته دفع ثمن تذكرة الترماي. . عثمان الذي وافق له ناصر على أن يلقي كلمة ترحيب به في نادي المعلمين عندما قام بزيارة لمواقع العمل في السد العالي بشرط أن تعرض الكلمة عليه قبل إلقائها.

ورغم موافقته عليها انتزعت من عثمان ليلقيها أحد العاملين، وكان في البرنامج أن يرافقه ليشرح له ما يحدث في الموقع الذي لا يعرفه أحد غيره، لكن الأوامر صدرت بأن يقف صامتا بعد خلع نظارته، ويسأل عثمان بنية سليمة عن سبب خلع النظارة فتصفعه الإجابة: لا داعي لها، ولا يصح المصافحة وأنت تضع فوق عينيك نظارة.. ويتصل المستشار الهندسي بمنزل عثمان طالبا مقابلته، ويسأله عثمان عن السبب فتأتي الإجابة: اليفط يا عثمان؟!.. ويسأله عثمان: مالها؟!.. فيبلغه الأوامر: مطلوب تغييرها لأن اسمك فيها مكتوب بحجم بارز وكبير.. ويرد المتلقي صاحب الاسم الكبير: حاضر.. حاضر.

ويحسن عثمان الظن بمآل جهده وثمرة كفاحه وعظيم إنجازه فيذكر أن عبد الناصر بعدما انتهى من زيارة مواقع العمل في السد العالي، الإعجاز والإنجاز، الذي تصنعه سواعد مصر السمراء بعد ستة أشهر فقط، لم يستطع سوى أن يشد على يد عثمان بحرارة شديدة تعبر عن انبهاره بما رآه ورأيته ينحني لأول وآخر مرة في حياته، فما رآه قد أجبره على أن يخرج عن طبيعته.. ويأتي من لا يريد للرجل الفذ الذي أم فأكمل العمل، وانتزعت نظارته أدبا له، وقلص اسمه في لافتاته حتى لا يظن نفسه أحسن من مين؟!!.. يأت من لا يريد له أن يهنأ حتى في قبره ويروي غليل صدره وصده بذكر رواية تلك الانحناءة العابرة التي ينحني فيها عبد الناصر بعض الشيء إلى أسفل في وضع غير مألوف بالنسبة له، إذ يفسرونها لا بأنها تحية تقدير للعمل ومنفذه، وإنما بقولهم بأن المتأمل جيدا للصورة المسجلة في نهاية مذكرات عثمان سوف يلاحظ أن ابتسامة عبد الناصر العريضة التي صاحبتها تلك الانحناءة ما هي إلا تعبير عن شعور بالحياء من فرط إطراء عثمان وثنائه على ناصر مما جعله يومئ بنظره إلى الأرض، أو قد يكون التفسير شيئا قريبا من هذا.. أو غير هذا!!!

صاحب الجلالة التابعي

لمحتها . . تلك النظرة المترعة بالغبطة العاكسة لما في النفس من الرضا على النفس عندما فتح باب مكتبي في الدور الرابع بمبنى الأهرام ـ الجديد وقتها ـ يقدمني له في معرض جولة يطوف فيها بضيفه الكبير، مستعرضا صرح الصحافة المصرية الحديث الذي شيده ويفاخر به . . محمد حسنين هيكل يطل وفي صحبته محمد التابعي . . التقطتها . . نظرة تلميذ يقول لأستاذه تعال معي تطوف وتشوف نجاحاتي وتفوقي وريادتي وأهرامي، تقابلها نظرة أبوية تحمل في ثنايا العيون الزرقاء راحة واطمئنانا وفخرا بالنبوغ الذي استشعره يوما في الشاب الصحفي فاحتواه، فأصبح الفرع شجرة وارفة تظلل الجميع بما فيهم الأستاذ.

ويظل هيكل مخلصا لذكرى التابعي وأسرته من بعده مستوعبا قسوته عندما كان رئيسا للعمل: أذكر أنني كنت نائبا لرئيس تحرير آخر ساعة في وقت كان يرأس هو تحريرها، وسافر وقتها إلى تركيا لقضاء فترة الصيف . . وأرسل لي تلغرافا قال فيه: إذا كان المجمع اللغوي في القاهرة قد انتهز عدم وجودي في مصر وأصدر تعليماته بتغيير قواعد اللغة العربية فلا مانع مما نشرته في صفحة (كذا) في السطر (الفلاني) لتقوم بنصب (الفاعل) ورفع (المفعول به)!

علاقة الأستاذ بتلامذته نفسها لا غيرها هي تلك الرابطة الحميمة التي تكاد تصل إلى صلة الدم، فالبراعم على يديه تتفتح، والرعاية اليقظة تعجل من تصاعد شذى عطر الزهور لينتشي به الأستاذ في الأعالي من قبل تلميذه، ومن هنا يذود الكبير عن صغيره. من هنا يصبح له بمثابة الدرع. من هذا المنطلق تعتري الأستاذ قوة وصلابة فولاذية للدفاع عن قضية التلميذ، ربما قد لا تأتيه مثلها للدفاع عن قضيته

الشخصية، وذلك ما أتى كمثال في كلمات الكاتب الصحفي إبراهيم الورداني عن أستاذه التابعي عندما كان محررا ناشئا في آخر ساعة، ويورد كيف أن التابعي غضب من الرقيب الذي شطب للورداني ثلاث صفحات، وكيف أخذه التابعي معه إلى وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين». . ويصف اعتداد الرجل بنفسه وبتلامذته:

«وركبت بجواره ومعي البروفة في سيارته الرولز رويس الباهرة الفاخرة، وطربوشه المائل على الحاجب يهتز من شدة ما هو منفعل وغاضب! . . ومرقت السيارة بنا من بوابة وزارة الداخلية والعساكر تعظيم سلام، والتابعي بأرستقراطيته النفاذة يقتحم الأدوار والردهات والحجرات والناس له ينحنون ويفسحون ثم تندفع خطوات حذائه نحو غرفة مكتب مزدحمة بأطقم من أفخر الناس والرياش، وشاب فائح الأناقة هو مدير مكتب الوزير يقفز مهرولا منحنيا للتابعي. . وقبل أن يحاول الشاب أن يدخل وهو يفتح الباب مواربا على غرفة الوزير سبقته خطوات التابعي العصبية وهو يجرني من ذراعي وبركلة من حذائه دفع الباب ليفتح على المصراعين. . نعم فتح الباب بركلة من حذائه! . . ويا له من منظر لا أنساه. . الباشا الذائع الصيت المرعب فؤاد باشا سراج الدين وزير الداخلية والحاكم العسكري والآمر الناهي في كل بر مصر. . المنظر. . المشهد. . الباشا. . سراج الدين. . كالوهج منجعص خلف مكتب مطعم بالقطيفة الخضراء. . والبللور الضاوى له بريق الذهب ورائحة البنكنوت الطازج.

في فمه سيجار له حجم الفأر وفي إصبعه خاتم له شكل الفانوس، وأمامه يجلس كرشان فخمان. . الباشا عثمان محرم والباشا عبد المجيد صالح. . هب الثلاثة الفخام العظام في استقبال التابعي وأذرعهم تفرد نفسها لطويل العناق، ولكن التابعي توقف في منتصف الحجرة متجاهلا الأذرع الممدودة وانطلق مزمجرا معنفا مخيفا بكلام خلاصته هو الرفت الفوري لهذا الرقيب الوقح وأن يسمع الاعتذار من وزير الداخلية وفورا. . ! . . ويا له من مشهد انزرع في العين والباشوات الفحول يهدئون الصحفي المنفعل الغضوب. . يدللون ويسترضون بل يتزلفون. . واهدأ يا محمد. . روّق يا تابعي. . نرفت لك الرقابة كلها بل تعتذر لك أجهزة الحكم

كلهـا. . . كل هذا وأنا جالس على طرف المقعـد منكمشا ومبهـورا وذاهلا. . وريفيتي المفرطة لا تصدق أن يكون للقلم الصحفي مثل هذا السلطان. . أقول وأردد. . لقـد انزرع هذا المشهـد في عيني وفي مشاعري وعلى أسطر ضلوعي وكأنه التقويم الهائل لقيمة الصحفي في بلاط الحكم والسلطان. . ويا إلهي كيف لا يستعمله الصحفيون والكتاب بمثل هذا الشمم وتلك الكبرياء؟».

نعم انطبع المشهد وشاع في وجداني ولم أسأل وقتها من أين هذا السلطان. . ومن أعطى هذا السلطان. . ولحساب من هذا السلطان؟

إنه الشعب لا سواه. . هو وحده الذي يعطي مثل هذا السلطان.

وسلطان الكرامة والذود عن التلميذ والربيب وبرعم موهوب يتفتح في حديقته كان له مثال آخر مع التلميذ مصطفى أمين بعدما ظل التابعي الذراع اليمنى للسيدة فاطمة اليوسف في تحرير مجلة روز اليوسف منذ عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣٢، ليستعين بمصطفى أمين وهو لم يزل في سن السابعة عشرة. . وكان لا بد وأن تحدث الخلافات عندما يتداخل الحب والعمل، وهنا كان التابعي الذي يحرر بابا نسائيا يوقعه باسم الآنسة حكمت يطلق لقلمه الساخر العنان في باب طورلي الذي يحرره أسبوعيا وكتب فيه تحت عنوان صاحبة المجلة وصاحب الطورلي:

«خصصنا هذه الصفحة كما أعلنا في رأسها للحديث عن العظماء والصعاليك وسوف أتكلم اليوم عن صاحبة المجلة وعن نفسي وللقارئ أن يسمينا عظماء أو صعاليك كما يشاء، تأمرني بأن أكتب وأن أملأ صفحة بشرط ألا أعرض بأحد أو أسب أو أقدح أو أتملق أو أنتقد ثم تقول لي وفيما عدا ذلك فأمامك الميدان فسيح فاكتب ما تشاء. . أكتب ما أشاء!!. . وماذا أبقت لي لأكتب عنه؟!. . تقوم بيننا المناقشة وهي دائما حادة تبدأ من القرار وترتفع إلى جواب السيكا، فإذا طالت المناقشة ورأت هي إقفالها عمدت إلى طريقتها الخاصة في الإقناع، وهي أن تنظر بعين إلى أكبر وأضخم قاموس ثقيل على المكتب ثم تنظر ناحيتي وهي تحرك يدها المنذرة بحركة عصبية، فإذا لم تصلح هذه الطريقة في الإقناع عمدت إلى النشافة أو الدواية أو أي شيء آخر قد يكون قريبا إليها».

ويمضي الأستاذ التابعي قائلا: «خبروني من الذي لا يقتنع بمثل هذه الأدلة الثقيلة؟! . . وهكذا تنتهي المناقشة دائما بانتصارها وانهزامي ثم أكتب. . ذلك الصبر والنفس الطويل عندما كان الخلاف قاصرا بين التابعي وروزاليوسف، لكن الأستاذ أمام دموع تلميذه الذي تعرض للقسوة لم يستطع الصمود، بل كان بكاء مصطفى أمين سببا ودافعا جوهريا لأن يقرر التابعي تغيير مسيرة حياته كلية لتولد مجلة آخر ساعة - والجيب مافيش فيه ولا مليم - ولا ينقذ التابعي سوى طلعت باشا حرب الذي يقدم له عن طريق بنك مصر قرضا بمبلغ ثلاثمائة جنيه ينشر بقيمتها إعلانات في آخر ساعة الجديدة - ويفصِّل التابعي قصة خلافه مع روز اليوسف بقوله: بعد عودتي من أوروبا بأربعة أيام جلست أنا والسيدة روز اليوسف واقترح مصطفى أن يسافر يومها إلى الإسكندرية لكي يجمع الأخبار للعدد القادم وعارضت السيدة روز اليوسف في سفره وكانت مشادة تبودلت فيها عبارات شديدة. . ولمحت الدموع تجول في عيني مصطفى - وهو شديد الحساسية سريع البكاء - فانضممت إليه ونصرته وهنا نالني أيضا بعض الرشاش. ونهضت وقلت لمصطفى: هيا بنا. وخرجنا نحن الاثنين ولم نعد بعدها إلى روز اليوسف. . وقال مصطفى ونحن في الشارع: إلى أين؟! . . قلت نتناول الغداء وبعدها نبحث عن مجلة نؤجرها أو نشتريها. . وتوقف مصطفى عن السير وفغر فاه في دهشة وقال: ليه؟! مجلة إيه؟. . فأجبته: مجلة أصدرها باسمي. . قال مصطفى: لا يا أستاذ. . أنا لا أحب أن أكون السبب في زعلك مع روزاليوسف. . وبكرة تصطلحوا. . قلت: ومين قال إنني زعلان حتى نصطلح غدا؟! . . ثم شرحت له الموقف وأذكر أنني قلت له: ألم ترني منذ عودتي لم أخط حرفا واحدا في المجلة وأن مقالا واحدا أو ورقة واحدة من أوراق التحرير لم تعرض على لأخذ رأيي فيها كما كان الحال قبل سفري إلى أوروبا؟! . . إن وجودي في روز اليوسف قد أصبح خطرا على روز اليوسف فلنترك روز اليوسف بكرامة قبل أن نطرد منها. . . . ومن روز اليوسف رئيسا لتحريرها عام ١٩٢٨، لآخر ساعة عام ١٩٣٤ لجريدة المصري التي أسسها عام ١٩٣٦ مع محمود أبوالفتح وكريم ثابت ليبيع نصيبه فيها لمصطفى النحاس عام ١٩٣٨».

وفى عام ١٩٤٦ يعقد الاتفاق بينه وبين صاحبي دار أخبار اليوم علي ومصطفى أمين على بيع آخر ساعة لهما ليتفرغ للكتابة في صحف الدار ومجلاتها.

محمد التابعي محمد وهبة ابن المنصورة الملهمة الذي ولد عام ١٨٩٦، عندما كان أهله يصيِّفون بمصيف الجميل على شاطئ بحيرة المنزلة وجاءه لقبه بركة وتيمنا بمقام أحد مشايخ الصوفية الشيخ التابعي.. طفلا حافيا على أرض الحارة أمسك التابعي بالسيف الخشبي مغطيا صدره بدرع من صفيح مستلهما شخصية الزناتي خليفة ليصارع عدوه الزير سالم ويصرعه في مباراة دونكيشوتية حامية الوطيس وسط حلبة الصفير والتصفيق.. وعلى الدوام يدفع الأهل ضريبة جموح وشقاوة فروسية الطفولة.. محمد رابع الإخوة وأول الذكور من بعد فاطمة وعائشة وزينب، ومن بعده حسين، يرحل عنهم الوالد المهندس، والتابعى لم يزل في السابعة مخلفا تركة كبيرة من البراجل والمساطر والأقلام والأوراق.. صغيرنا لا يهدأ في مكان حتى بلغ من شقاوته رفته من جميع كتاتيب المنصورة، وإذا ما كانت أيام السنة الدراسية تحمل بعضا من الهدوء النسبي لتغيب مصدر العفرتة طول النهار، ففى إجازة الصيف كانت الوالدة تلجأ لوضعه في مدرسة صيفية نافحة له قرش صاغ كاملاً قبل خروجه.. لكنه أبدا لم يذهب للمدرسة بل لمكتبة الشيخ سعيد حلقة في سوق الخواجات نافحا له القرش كله ليأتيه بمقعد يمتطيه لقراءاته المختارة من قصص حمزة البهلوان وألف ليلة وسيف بن ذي يزن، ويعود للبيت في موعد الانصراف متظاهرا بالإرهاق من الدرس، حتى كان يوم بعثت فيه المدرسة خطابا يفيد بتخلفه عن الحضور.. يومها مني بعلقة تركت آثارا لا تمحوها السنون.. ويحصل التابعي على الابتدائية من مدرسة المنصورة، وكان قد تخلف عاما كاملا في النقل من السنة الثالثة إلى الرابعة بسبب رسوبه في الخط العربى، وكان الخط وقتها مستقلا في درجته له نهاية صغرى من لم يبلغها عليه إعادة السنة.. وفي السنة الأولى الثانوية بالبنطلون الشورت بمدرسة السعيدية عندما شيعت جنازة الزعيم مصطفى كامل عام ١٩٠٨ كان يسير في المقدمة أصغر تلميذين يحملان باقتين كبيرتين من الأزهار.. فكري أباظة والتابعي الذي كان ضعيفا جدا في الإنجليزية مما كان يدفع بالمدرس الإنجليزى أن يعطيه صفرا بل يضيف إليه كلمة

(ASS) وتعني «حمار»، وانتفع التابعي بما يتصف به الحمار من صبر ودأب فأخذ في قراءة القصص الإنجليزية حتى صار يوما يكتب مقالاته بالإنجليزية في إجبشيان ميل بتوقيع (M.T.M) فكانت الإنجليزية بداية عمله بالصحافة.

ولا يقل معدل الشقاوة في المرحلة الثانوية بل يزيد وكان بها أول عهده بالحبس في الزنزانة ـ حيث عاش بين جدرانها مرتين، الأولى ومدتها ٤ شهور لاتهامه بإهانة وزير الحقانية، والثانية ٦ أشهر بتهمة العيب في ولي العهد عام ١٩٣٩، وكان عمره لم يزل في الخامسة عشرة وذلك بعدما خطف التذاكر من كمساري الترام وقام بتوزيعها على الطلاب مجانا لعجزهم عن دفع ثمنها، وأبلغت شركة الترام ناظر المدرسة الإنجليز مستر شارمان فتم حبسه انفراديا ثلاثة أيام أرسل بعدها لمدرسة العباسية الثانوية الداخلية في محرم بك بالإسكندرية، حيث لم ينل الدرجات النهائية في السلوك رغم تفوقه، فقد جاء تعليق الناظر له: «أخلاقك زي الزفت رغم أنك الأول». ويظل الفارس يعيش في الوجدان ليستبدل بالقلم في شرخ الشباب السيف الخشبي، ويشبع فروسيته صولانا وجولانا على صفحات الجرائد والمجلات، وبدلا من تصفيق أولاد الحارة وتلاميذ المدارس يحلق ملايين القراء حول كلمات مؤسس الصحافة العربية الحديثة الذي لا شريك له في أبوتها ليصبح الجدير باللقب الذي أطلقه عليه أنيس منصور من أن التابعي ذاته هو صاحب الجلالة الصحافة.. التابعي الذي كان أول من جعل من نفسه مصدرا لتوثيق رأيه، حيث الأخبار تتحلق بين يديه أينما ذهب، إذ هو مشارك فعلي في صنع الأحداث فلا شيء يحدث بعيدا عنه أو خلف ظهره حتى ولو كان مسافرا في رحلة ينزلق فيها رياضة فوق ثلوج الجبال، فقد كان أشبه بمن يبتعد عن موقع الحدث ليزداد اقترابا منه بالرؤية الشاملة عن بعد، والذي كان من جرأة سخريته أن يطلق على الوزراء ألقابا ظلت عالقة بهم حتى بعد الوزارة، فهناك وزير الأذية وقطع العيش، ووزير التقاليد، ووزير الأسبرين، ووزير الفاصوليا، ونونس عين الدولة.

كان يوظف كل شيء في حياته لخدمة الصحافة التي بدأ حياته فيها ناقدا مسرحيا في روز اليوسف باسم مستعار حندس، لكن تكوينه السياسي غلب عليه لتستقطبه

السياسة كاتبا وناقدا ومحللا ثم مشاركا في الأحداث وفي صنع القرار السياسي بصورة أو بأخرى، إلا أن ميوله الفنية ظلت تلح عليه فلم يترك الكتابة في قضايا الفن وشئونه، وكان صاحب الذوق الرفيع في تذوقه للموسيقى والغناء، ورغم صداقته لعبد الوهاب فقد شن عليه حملة قاسية يأخذ عليه فيها اقتباساته.

أما عن فن أم كلثوم فقد كتب عنه لأول مرة أيضا في عام ١٩٢٥، بتوقيع حندس: «ارتفع الستار عن أم كلثوم وحدها لأقول: سبحانه من وهب للنغم أثره وسبحانه من جعل للصوت الجميل سره وسحره.. ويا أيتها الآهة الحزينة شفى الله من أجلك كل مكلوم حزين الفؤاد».. وكثيرا ما سئل التابعي عن أم كلثوم وعبد الوهاب في لقاءاته الصحفية في البلاد العربية فكان يجيب إجابات مختصرة لها طابع الواقع الساخر مثل: «نعم أعرف الاثنين.. وقد لعبت مرة الورق مع أم كلثوم وكنا نلعب البصرة فلطشت مني أم كلثوم في ساعة واحدة ريالا صحيحا.. وإنني كثيرا ما تناولت الطعام مع عبد الوهاب وإنه إذا أكل تكرع طويلا ثم حمد الله وأثنى عليه، وأن فن أم كلثوم كممثلة لا يقل عن فنها في الغناء، وأن محمد عبد الوهاب شخص مرح في الحياة العادية وغير متكلف وتأنس لحديثه ولا تمل من الجلوس معه بعكسه في الأفلام التي يظهر فيها مختلفا تماما كأنه مشدود أو مغطى بطبقة كثيفة من النشا حائرا ماذا يفعل بيديه.. يتحرك كأنه إنسان آلي.. جامد الوجه.. لكن هذا الجمود أو طبقة هذا النشا تزول عندما يبدأ يغني! ومثله تماما فريد الأطرش فهو مطرب وملحن أكثر منه ممثلا، والوحيد الذي يستوي مقامه في الغناء مع مقامه في التمثيل هو عبد الحليم حافظ الطبيعي جدا في تمثيله مع إجادة في التعبير بقسمات وجهه ونبرات صوته ولفتات رأسه وحركة يديه».

وإذا ما كان التابعي قد وقع في هوى أسمهان وقرر أن يتزوجها ووافقت أسمهان فإنه أبدا أثناء علاقته بها لم يهاجم أم كلثوم لصالح حبيبته، التي استدعاه عبد الوهاب لسماعها في بيته وعندما وصل وجد الموسيقار ممسكا بعوده، وأمامه أسمهان يراجعان أوبريت قيس وليلى، وكانت أسمهان تغني لحظة دخول التابعي وما فؤادي حديد ولا صخر.. لك قلب يا قيس فسله يا قيس ينبئك بالخبر..

تسلل التابعي يجلس بجوارها وهي مشغولة بالغناء يتأمل وجهها مأخوذا بحلاوة صوتها الحزين، وتعشق الأذن قبل العين أحيانا، فوجهها ليس فيه جمال المقاييس المعروفة، وأنفها مرتفع أكثر بقليل مما يجب، أما عيناها ـ والكلام للتابعي ـ فكان فيهما السحر والعجب والسر لونهما أخضر داكن مشوب بزرقة، وتحميهما أهداب طويلة تكاد من طولها أن تشتبك، وقد لاحظ أنها كانت تجيد استعمال سحر العيون عند اللزوم.. وتنتهي بروفة قيس وليلى فيقدم عبد الوهاب التابعي لأسمهان فتمد يدها بتثاقل وتكلف ساذج.. تشرفنا.. ويجلس الجميع، فتأخذ أسمهان تصلح من وضع الفراء حول عنقها متعمدة إظهار الخاتم الماسي، وقد احتارت أي ساق تضع على الأخرى.. جميع حركاتها متكلفة، وأدرك التابعي أنها تريد أن تحدث في نفسه أثرا طيبا لكنها لا تمسك بكل الخيوط.

ويلاحظ مصطفى أمين أن التابعي منذ أحب أسمهان أصبح يهمل عمله ويتابع أخبارها لا أخبار الوزارة، وكان له أكثر من مندوب في بيتها يوافونه بتحركاتها ومن يزورها ومن يتكلم في التليفون، ومن ضحكت له وكان يحرص على مقابلة هؤلاء المندوبين أكثر من حرصه على ملاقاة مندوبي الجريدة.. وذهب مصطفى وعلي أمين إلى صديقتهما أم كلثوم يطلبان منها إنقاذ التابعي من الغرق بزواجها منه. بعد وفاته في ٢٤ ديسمبر ١٩٧٦، وجدت السيدة هدى زوجته الثانية التي أنجبت له محمد وشريفة ثلاثة خطابات كتبها إلى أم كلثوم في أوراقه الخاصة داخل ملف كتب عليه كروانة الكراوين، كما وجدت به خصيلات من شعر أم كلثوم وصوراً جمعت بين الاثنين، وقد صرحت الزوجة بأنها شاهدت زوجها يبكي لأول مرة في حياته عند وفاة أم كلثوم، فضحكت الست قائلة لهما: «أنقذ التابعي من الغرق لأغرق أنا؟! التابعي لا يصح زوجا لي!» التابعي تزوج الممثلة زوزو حمدي الحكيم ليغيظ روز اليوسف ولم يدم الزواج سوى شهر واحد وطلقها.. وذهب علي ومصطفى أمين يهددان التابعي باستقالتهما إذا أقدم على الزواج بأسمهان فأصر على موقفه.. واحتفظت الصحافة المصرية بتوأمها التاريخي عندما انكشف المستور للتابعي في نفس اليوم وعرف أن أسمهان قد وقعت في حب شخصية كبيرة من وراء ظهره فمات الحب في قلبه بالسكتة القلبية.. ولكن التابعي كان يخرج من حب إلى

حب، قويا مع الرجال ضعيفا مع النساء، يثق بأية امرأة بسهولة وكان أستاذا في جذب النساء بكل اللغات ومن كل الأجناس، سخيا معهن لدرجة الإسراف ومقتصدا مع الرجال إلى حد التقتير، فهو يجد متعة لا حد لها في أن يقدم لسيدة يعرفها لأول مرة خاتما سوليتير، ويستكثر على صديق حميم قلمًا حبرًا. . وكان يستثني من هذا التقتير رجلا واحدا هو عبد الوهاب، الذي كان يذهب مباشرة في بيته إلى غرفة نومه ويفتح دولاب ملابسه ويأخذ أي كرافتة تعجبه يرتديها على الفور. . وكان حريصا على أن يكتب في أجندة خاصة كل مليم أنفقه، فتجد في صفحات الأجندة مفارقات غريبة مثل خمسة مليمات ثمن الأهرام. . مائة وعشرون جنيها سهرة بديعة مصابني. . خمسة قروش فنجان قهوة في الأنجلو. . مائة وخمسون جنيها ملابس من الخياط ماركو. ثلاثة قروش سكر. . سبعون جنيها هدية لهيرما التي سافر ليعيش معها قصة حب رومانسية قبل تسليم نفسه للحبس ٤ شهور تنفيذا لحكم محكمة الجنايات، حيث وقفت تودعه روز اليوسف وهو يرتدي بذلة زيتية آخر طراز وفي عروتها فلة بيضاء وفي جيبها منديل حريري وعلى عينيه نظارة قاتمة وفي يده كتابان من تأليف إميل لودفيج والضاحك الباكي لفكري أباظة. . وتهرب روز اليوسف للسجين الذي يشرب في الزنزانة ماء فيشي، تهرب له الكافيار والبيتي فور في الروب دي شامبر والسجائر الجولدفليك. . . وكان قلم التابعي أحيانا يشبه أغصان الفل والياسمين وأحيانا يشبه المدفع الرشاش. . لا يحب الذين يدافع عنهم ولا يكره الذين يهاجمهم. لا يحقد على عدو ولا يطمئن إلى صديق. يندفع كالسهم ويصمد كالجبل. يهوى المعارضة ويمقت التأييد، وإذا عارض أشفق وهو يذبح، وإذا أيد سخر وهو يدافع. . وفديٌ متحمس على الورق، ومستقل الرأي في الحقيقة. . صادق الملك وخاصمه، وتحمس للنحاس وانتقده، وأحب النقراشي وعارضه، وطالب بالدستور والديمقراطية ثم طالب بوقف الحياة النيابية في مصر لمدة ثلاثين عاما! . . ركب الحمار والبسكلتة من إدارة المجلة للمطبعة، وامتلك الرولزرايس ركوبة الباشوات أصحاب الملايين، ولم يحدث في تاريخ الصحافة المصرية أن عاش صحفي في المستوى الملكي الذي عاش فيه التابعي الذي عهدت إليه روز اليوسف بكتابة النقد الفني في روز اليوسف رغم

أنه انتقدها بشدة كممثلة، حتى إنها لفّت مقالته حول كعب حذائها، وكان رأيه في توفيق الحكيم كرأي العقاد أنه مدبقاتي وكاتب حوار ممتاز وإن كانت بعض أفكار قصصه معقدة.

التابعي الذي كتب في ١١ أكتوبر ١٩٥٠، يسخر من الظلم بعنوان «نعم يحيا الظلم» جاء فيه: «يحيا ظلم كل جبار عاتية معتز بسلطانه وسطوته يدوس القوانين ولا يبالي.. نعم يحيا الظلم لأنه خير مرب للنفوس.. ونفوس المصريين تجيش اليوم بمعنى واحد.. لقد صبرنا طويلا ولن نصبر بعد اليوم.. وتحملنا كثيرا ولن نتحمل بعد اليوم»... هذا القلم بعد قيام الثورة في أزمة مارس ١٩٥٤، عاد ليكتب «خدعوها بقولهم بيضاء»، يدعو فيه الثورة للقضاء على أعدائها بكل العنف.. ولكن.. يبدو أن الثورة قد اعتبرت العهد البائد ليس سياسيا فقط وإنما صحفيا أيضا، فالتابعي الذي عاش واختلف مع أجواء العصر الملكي والباشوات والإكسلانسات، حيث يندفع إلى مكتب وزير الداخلية يفتح الباب بقدمه ثائرا وجد أن ذلك كان مقبولا في الحياة السياسية الملكية لكنه أصبح مرفوضا في النظم العسكرية، حيث من الصعب عليها تحمل مثل هذا التصرف حتى من أصدقائها، ومن هنا تم اعتقال الكاتب إحسان عبد القدوس عندما كتب العصابة السرية التي تحكم مصر.. لقد اختلف التعامل في النصف الأول من القرن الماضي عن النصف الأخير الذي لم يستطع التابعي التأقلم معه رغم محاولاته.. لكن إذا ما كان عطاؤه الصحفي قد تعطل إلى حد كبير وأصبح لا يخرج عن الذكريات وليس المذكرات فإن ما زرعه قد استمر وأثمر أجيالا كان أستاذها، ولغة جديدة في الصحافة قام ببثها.. لقد كان التابعي نموذجا للصحفي النجم الذي رفعه قلمه إلى منزلة النجومية.. النجم الذي كان نموذجا للشخصية العامة ببريقها الخارجي، لكن المعاناة الداخلية كانت شيئا آخر.. المعاناة التي سقط فيها الكثيرون من جيل التابعي بمنطق ما عدتش تفرق!

مصطفى بك

كلما أحكمت هموم الصحافة قبضتها على مراوحي . . أتذكره .

كلما أصبحنا في دنيا الصحافة جزرا ودوامات وأمواج وأغوار ومتاهات واتهامات وحيتان وأسماك القرش واستعداء واستعلاء واستبعاد واتهام وإزالة وإقالة وتسكين وتجميد وتقليص وتقزيم وتكهين وإحالة للاستيداع ووضع فوق الرف وعلى السندرة وفي الكرار وفي أودة الفيران ووراء القضبان ، وتحت العجل وبين ضلفتي الباب وعلى الأسفلت وبين براثن الغول وفي قلم الهكسوس وعلى الخازوق ، وتحت بير السلم وعلى حبل الغسيل وبين المقصلة والسندان . . . . أتذكره .

كلما تلكأ وتباطأ وتأجل إصدار قانون يحترم الصحافة والصحفيين ويطالب بتنفيذ الوعد . . . أتذكره .

كلما زادنا التصميم قوة بعدما صرنا مثالين للصبر . نحن الصحفيين الذين ينتظرون إصدار قانون يلغي عقوبة الحبس في قضايا النشر التي ينص عليها القانون الحالي ، وهم هناك القضاة في نادى القضاة الذين يطالبون بحقهم في قانون لاستقلال السلطة القضائية . . . أتذكره .

كلما استعدتُ كلمات أحمد بهاء الدين عن الفجوة بين روح القانون المعبرة عن الإرادة العامة والعقل العام والمزاج العام ، وبين القوانين النابعة من السلطة والقوة وحدهما ، تلك الفجوة التي تغدو السبب في الزلازل والبراكين المفاجئة ، والنهايات العنيفة ، والأخاديد التي تشقق المجتمع الواحد وتقطع سبل الحوار وخيوط الثقة وصرح التطور البناء .

كلما استعدتُ بهاء أتذكر مصطفى أمين. أتذكر أيام سطوة السلطة الرابعة وممارستها مهامها الشرعية في المطالبة بحرية الرأي رغم وجود الرقيب. . أتذكر الأستاذ والمدرسة التي تخرج فيها ألمع نجوم الصحافة المصرية على مدى نصف القرن الماضي. . . . . أتذكر صحافة العمالقة. . . أتذكر سنة أولى قسم صحافة.

كان المدرج الجامعي في أيامنا يستوعب عددنا بل يظل نصفه الخلفي شاغرا تتناثر بين صفوفه ثنائيات تتفرق جلوسا كما يحلو لها. . المرة الوحيدة التي حاولنا فيها باستماتة أن نجد لأقدامنا موضعا ولو بالاتكاء على الحائط بين كتل زحام الحضور، يوم أعلن في الصباح عن مقدمه لإلقاء محاضرة علينا نحن طلبة أول دفعة في قسم الصحافة بجامعة القاهرة في الخمسينيات.

دوى النبأ بين جنبات الحرم الجامعي ليترك طالب القانون والهندسة والعلوم والاجتماع والآثار والجغرافيا والتاريخ في الكليات المختلفة محاضرته ويأتي إليه. . إلى الأستاذ مصطفى أمين. . يقول ويقول ويبتسم ويضحك ويدور بعينيه اللمَّاحتين في وجوهنا ليرى تأثير قوله علينا، وتأتي النهاية على كره من الجميع الذي لا يشبع من الذكاء والارتواء والسمع ليطلب معها المحاضر الزائر من طلبة قسم الصحافة فقط من بين كل الحضور، كتابة نبأ محاضرته لنا موجزا في عدة كلمات كنوع من الاختبار الصحفي، بحيث يضم الخبر عناصره البدهية الأولية في الإجابة على الاستفهامات الستة: من ومتى وكيف وأين وماذا ولماذا؟! كنوع من الاختبار الصحفي. . ويجمع الأستاذ شرائط وهلاهيل أوراقنا لأفاجأ في اليوم التالي باستدعائه لي للتدريب في أخبار اليوم بعدما استرعاه ما كتبت وكنت أظن مصيره قبضة الكرمشة للاستقرار في سلة المهملات، وكان في كلماتي ما يغضب أي شخص غير الجواهرجي المعلم صاحب الحس الباحث عن قشة موهبة: حضر الأستاذ مصطفى أمين ليلقي محاضرة لم أفهم منها شيئا، لأنه كان ينفث كلماته بين أنفاس سيجارته التي غرسها بين شفتيه فضاعت مع الدخان.

ذهبت لأخبار اليوم لنكون طليعة إحدى فرق مصطفى وعلي أمين المدرعة في الصحافة - تصحبني فيها زمالة وصداقة الكاتبتين صافي ناز كاظم وسناء فتح الله -

التي كان مصطفى أمين بكل جلالة قدره يهبط إليها من الدور التاسع إلى مكاتبنا في الدور الثاني بقسم الأبحاث يحمل لنا بين ذراعيه جبلا من أعداد الجرائد والمجلات المصرية والأجنبية قديمها وحديثها ـ أتذكر من بينها معاريف الإسرائيلية وأعداد اللطائف المصورة القديمة ومجلة اسمها الصباح وأعداد روز اليوسف الأولى والمصور في بداياته وآخر ساعة عندما أصدرها التابعي وتقارير الوكالات الأجنبية ومجلة اسكوير والرسالة ـ يفتح عيوننا على الثقافات المختلفة والمعلومات العامة كأوليات وأدوات العمل الصحفي.

فئرانا نشطة قرضنا آلاف الأوراق وعشرات المجلدات والدوريات من العلوم والفنون والآداب والشعر والرياضة والتاريخ والتراث. . . وقمنا بتلخيصها كلها في قصاصات لنصنع نواة أرشيف أخبار اليوم والصحافة المصرية جمعاء للمعلومات. . كنا بمثابة الإرهاصة لنظام الميكروفيلم والإنترنت البشري كما استقرأ مصطفى أمين المستقبل في الخمسينيات.

كان تواضع الأستاذ عظيما. . ولأننا كنا مجرد عيال لم نزل نضع في ضفائر شعورنا الفيونكات، وفي أقدامنا الشراب السوكيت القصير مع الحذاء أبو رباط لم نكن ندرك قدر قيمة تواضعه. . تخيلونا ونحن نطلب رقمه الداخلي كل لحظة وأخرى. . مصطفى بك الدبابيس خلصت. مصطفى بك أنا تعبت. مصطفى بك إلحق سناء عايزة تروّح. مصطفى بك تعالى شوف لك صرفة مع بتاع البوفيه.

مصطفى بك أنا خلصت قبلهم كلهم. مصطفى بك الأستاذ عثمان بيعاكسنا وفك لي فيونكتي. مصطفى بك أنا مفلسة. . مصطفى بك أنا اتأخرت وماما حتزعقلي. . . طيب. حالا. أنا جاي. اطلبوا البوفيه على حسابي. . أخلص من موعد السفير والوزير وآجي أشوفكم. . . ذلك التواضع جعلنا نحن تلامذته نعتز بقيمة الصحفي ولا نرضى لها مهانة في ملاقاة أكبر كبير. . كان رحمه الله يقوم لملاقاتنا ـ ونحن الذين لم نكد نخرج من البيضة ـ في منتصف غرفة مكتبه، ويقوم لتوديعنا ليس فقط للباب ـ لا والله ـ بل إلى أن نركب الأسانسير في آخر الطرقة بعد أن يضغط بنفسه على الزرار وينتظرنا حتى يغلق الباب ويبدأ في الهبوط. . علمنا

المتواضع أنه كلما كبر مقامك لا بد وأن تزداد تواضعا وألا تمشي في الأرض مرحا فأنت مهما وصلت معاليك لن تخرق الأرض من تحت السجادة الحمراء، ولن تبلغ مهما صعدوك للأعالي الجبال طولا . . ومن تواضع رفعه الله ياللي في بالي ولا تضع بينك وبين الآخرين سدودا بحكم منصبك الأبهة حتى لا تمكث بائسا وحيدا فوق القمة الجليدية لتفنى كآبة من زمهرير الغرور.

أبدا . . لم أجد أحدا أبدا غيرهما يستحق لقب البك . . علي بك ومصطفى بك. تقوم الثورة وتلغى الألقاب ولا يعود لقب باشا يستخدم إلا في حالة الغزل إذا ما لوحقت الحسناء بمديح الثناء يا باشا يا باشا، وتحتفظ بعض الأسر بلقب البك في خزائنها لتخرجه كنوع من التباهي كقلادة جدتي من الشكمجية في المناسبات، ولكي تقول كنا وكان في نعي الأسرة بصفحة الوفيات، وبعدما ذابت البشوية والبكوية استعضنا عنهما بالباشمهندس والخبير والاستشاري، ووحده سيادة الأميرالاي المتقاعد من ظل محتكرا الباشا، ولاحترام المدرس على الماشي في الفصل يا بك . . لكن كله إلا بكوية علي ومصطفى أمين . . لقد ظل لها شموخها وقدرها ووضعها واحترامها ومنزلتها ودويها وأصالتها ومكانتها ومهابتها وسريانها الأخاذ.

معذرة لقفزاتي السريعة في الحديث عنه، فوالله كان أستاذا لي في كل اتجاه، ومواقفه الإنسانية معي يربكني عديدها عندما أذكره . . تخيلوا الرجل ـ معذرة البك ـ عندما هرولنا لرؤيته في بيته بمجرد خروجه من وراء القضبان بعد سنوات زنزانة العذاب جلست بقربه فمال يعزّيني في وفاة والدتي ـ التي توفيت قبل الإفراج عنه بسنوات ـ يعتذر لي عن عدم استطاعته وقتها إرسال برقية مواساة . . ياه يا بك . . مصطفى أمين . . البك . . احترقت عربة زوجي أمام أخبار اليوم ليلة أحداث شغب ومظاهرات ١٩ يناير التي أطلق عليها السادات لقب انتفاضة الحرامية . . في الثالثة صباحا جاءني صوته يطمئنني بأن عربة جديدة ستكون أمام بيتي غدا وأنام وأنا قريرة العين. الأب الحنون. البك. كان يتابع مسيرتي وكلما أحدثت تلميذته تقدما يداوم على إرسال كلمته السحرية برافو التي جعلت تلامذته في كل مكان عشاق صحافة.

نصحو صحافة ونأكل صحافة وننام ونقوم ونسهر ونحب ونعشق ونتزوج وننافس ونلهث ونفرح ونبكي ونجري صحافة، ونستنشق عبير حبر المطابع في الرئات نسيما عليلا في انتظار برافو جديدة من مصطفى بك، وكانت أحلاها مذاقا وأوقعها في النفس أثرا جائزته التي شمخت بها نوبل الصحافة أكبر برافو في حياتي العملية، وكان الأستاذ لا يمل من ترديد سر النجاح علينا ووصايته لنا بالأخذ به في مسيرتنا. . التشجيع واجب ودين لو قدسه كل مسئول لتخطى بمسئوليته كل السدود. الحافز. الكلمة الحلوة. الأخذ باليد. المساندة. التذكر بأنك بالأمس كنت مكان من يقف على بابك اليوم يرجو منك نظرة إلى عمله. قم. فز. انهض. انزع ثوب مركزك وزيف ألقابك وأقنعتك. قف على حيلك ولاقه، فربما من أهملته يوما وتعاليت عليه وانشغلت عنه ونظرت من خلاله وكأنه خواء يكمن بداخله؛ برعم لنجيب محفوظ الجديد، وتوءم لإحسان عبد القدوس وبعث لأحمد بهاء الدين، وجديد لمصطفى أمين. . البك الذي نهض وقام والتقى واكتشف أعمدة الصحافة والاستنارة في مصر.

عاشق الصحافة خادمها وسيدها مصطفى أمين من وصاياه لنا: إن القارئ لديه رادار على درجة خرافية من اليقظة وقرون الاستشعار التي تتلمس الفواصل غير المرئية بين طبقات اللون الواحد، وذاكرة حديدية محفور على جدرانها كل كبيرة وصغيرة بإزميل من حديد، فلا تحاول غشه، أو تجاهله، أو الضحك على ذقنه، أو التغابي عليه، أو التمثيل عليه، أو تزيين الحال المايل له، أو تزييف الواقع بفرشاة وردية، أو ترقيع الثغرات المتهتكة، أو مد الكباري قبل إقامة الجسور، أو تطويع الحقائق تبعا للأوامر، أو تقديم التأخير، أو تبجيل الخايب، أو ستر المفضوح، أو تجريم البريء، أو النيل من المحترم، أو دفن الحقائق، أو السير على هوى الظالم ضد المظلوم. . وذلك لأن انتقام القارئ عظيم وكبير ويكفيك منه عقابا، إذا ما لمس كذبك واكتشف خواء منطقك أسقطك من نظره، وكلما شاهد توقيعك الصحفي في صحيفة طواها. . وهو بذلك يحكم عليك بالإعدام حيا.

مصطفى أمين العملاق الذي كنا نشاهده يعود تلميذا في صفوفنا عندما يطلبه

أستاذه الكاتب الكبير محمد التابعي وسط الاجتماع ليملي عليه كشف طلباته للغداء فنجده يقطع حديثه عن السد العالي وذكرى طفولته في بيت الأمة ورأيه في انقلابات العراق. . . وليدون ٢ كيلو كباب وكيلو كفتة ونص ريش بتلو وسلاطة بابا غنوج. . ويختم حديثه بالتلبية الفورية للإسراع بالإرسال، وحاضر يا فندم أي حاجة تانية. . . مصطفى أمين الشقيق التوءم لعلي أمين أو كما كنا نطلق عليهما العقل والقلب، أو الذكاء والعاطفة كان يعلم بأمر المرض العضال الذي يعصف بكيان علي أمين وأنه لم يبق له في الدنيا سوى أيام معدودات فكان يدور من حوله كالأم يحنو عليه ويرتوي منه وهو الذي حرم منه طويلا أيام سجنه وبقاء علي في لندن بعيدا عنه، وكان يحثني على الاسترسال في تلبية حلمه الجديد بالتخطيط لإصدار مجلة يزمع إصدارها في القريب العاجل أطلق عليها اسم «هي».

وأذهب لعلي أمين في المستشفى نرسم الصفحات ويخططها لي بالمسطرة الراقدة تحت مخدته ويملي عليّ الأبواب التي أعلم أنها أبدا لن ترى النور ولن يطالعها القارئ، لكن كان يكفيني يومها مردودا معنويا هو حلاوة التلمذة بين يدي عملاقي الصحافة ـ الحديثة وقتها ـ وكنت متوجسة خيفة من أن تحقق تلك الظاهرة الغريبة مسيرتها والتي كنا نلاحظها بوضوح نحن العاملين قربهما، وهي ذلك الخيط السري الخفي الذي يجمع بينهما في المشاعر والأحلام والأحاسيس وحتى المرض، رغم وجود كل منهما بعيدا عن الآخر أو في غرفته الخاصة، فكان مصطفى أمين يكمل خلف مكتبه ما كان علي أمين منذ لحظات يقوله لنا هناك خلف مكتبه، ويتألم مصطفى أمين من داء النقرس وندخل مكتب علي أمين لنجد النقرس قد زادت آلامه عليه في نفس الوقت. . لقد كانت التوءمة التي تكاد تطابق بين طلعتهما وملامحهما وملابسهما تظل تسري بينهما عن بعد، وحمدا لله أن بقي لنا مصطفى بك بعد وفاة توءمه لسنوات منحنا فيها الكثير من الدروس الصحفية، وإن كنا نرى الإطار من حوله شاغرا من نصفه الآخر.

مصطفى أمين الذي قدس القلم صغيرا وكبيرا. شابا. وشيخا. حرا ومكبلا. معافى ومريضا. من سقط وهو يكتب كلمته. من أضاء بالكلمة والفكرة عتمة

العوز وأشرق بنور نفحات ليلة القدر ظلام الصدور، وفتح للعقل آفاق المعرفة . . من أقام للحب عيدا وللأمومة عيدا وشيد للتواصل عرشا، وواجه الطغيان بسلاح السلطة الرابعة، ونادى ونادى ونادى بالديمقراطية . . الذي أخذ بيد الشباب، وناضل من أجل حق المرأة الأرمل والمطلقة والثكلى والمحبطة، والضائع ابنها في مجاهل قانون الجنسية وقاد سكة الصحافة للسفر إلى ما بعد الغد . . . مصطفى أمين الذي ارتدت من وحي قلمه أم كلثوم ملابس التمثيل فظهرت ممرضة في فيلم فاطمة لتغنى الورد جميل وله أوراق عليها دليل من الأشواق . . مصطفى الذي صرخ تحت لذع السوط معترضا «لا» وكانت من أطوار حياته سنة أولى سجن، وثالثة ورابعة، ومصطفى بك الذي زجر مصور جريدته الأخبار عندما خجل المسكين من رفع عدسته في وجهه ليصوره مكبلا بالقيود الحديدية في وضع المذنب خلف القضبان في ساحة المحكمة: أهكذا علمتكم الصحافة . . صورني في الحال . التقط منظر يداي مصفدة في الأغلال . . مصطفى أمين اليوم يا ابني مجرد خبر واجب عليك تغطيته أثناء أداء مهمتك الصحفية .

ونبني السد العالي فيتم الاعتداء الثلاثي، فرنسا وإنجلترا وإسرائيل تهاجم طائراتها بورسعيد تنزل بقنابلها تفتك بالمصريين ويصور الصحفي الراحل مصطفى شردي البورسعيدي رئيس تحرير الوفد فيما بعد أيام عملقته وزمان توهجه وأمنه وسلامه واستقراره الأحداث الدامية، ويهرع مصطفى أمين مع الفجر حاملا صور الاعتداء الوحشى على بلد يبغي النماء ليرى العالم ظلم المعتدين، وتفلح الخطة الإعلامية الوطنية اليقظة .

ويكمل ابني تعليمه الجامعي وقبل شروعه في مشواره العلمى يطالبنى بهديتي له . . لقاء مع مصطفى بك والشيخ الشعراوي . . رفض مولانا الرد على سؤال الابن حول مفهوم: وما ملكت أيمانكم، وطلبت أستاذي أبغي موعدا فأتاني رده: اليوم؟! . . غدا؟! كما يحلو لكما . . ونذهب إليه في بوتقة الدفء والألفة والترحاب الحميم . . ويرتفع معدل صراحة ابني لسريان اهتمام العملاق به . . يقول له: نحن الشباب لم نعد نثق بما يكتب الآن بعد أن أخذ جميع المخضرمين من

أمثالكم كل يكذب الآخر ويسوق الأدلة التي أصبحنا لا نعرف حدود صدقها من كذبها، وهو يريد بذلك أن يصنع لنفسه بطولة على حساب التاريخ وحسابنا نحن الذين لم نشهد هذا التاريخ . . وأدخل في بعضي خجلا : معذرة يا مصطفى بك من تهور ابني وفيما أظن أنه يقصد أن يقول في الحقيقة أن . . . ويسكتني الأستاذ المنصت إعجابا وتشجيعا لصراحة الشاب، بل يعطيه ألف حق وحق فيما قاله، ومن رده المحتوي له العاطف عليه : كتاب زمان يا ابني كانوا جميعا يتوجهون إلى جميع القراء بكتاباتهم . أما اليوم فتوجههم لواحد فقط لينالون رضاه . أما القراء فبلاها القراءة.

مصطفى بك . . كان لنا كل أسبوع عيد معه . اجتماع الجمعة . يوم الإجازة التي نرفض فيها صحبة الأسرة، أو تمضية الساعات بين الخضرة والماء والوجه الحسن وإنما نتوجها بشغف شديد للجلوس إليه ومن حوله ننهل صحافته . . الكل يحضر ويستمع ويشارك ويحاور . الكل مستفيد في إطار روح الأسرة الواحدة التي تظلل والأب الحنون الذي يدير النقاش والتفاعل والنقد والمحاسبة . . اجتماع تعلمنا منه أن الصحافة مهنة أخلاقية بالدرجة الأولى وإذا فقدت التزامها الأخلاقي فقدت أهم أركانها واحترام قارئها ومساندة الرأي العام، وإذا فقدت التزامها المهني فقدت تفوقها وتميزها . والالتزام الأخلاقي كما كان يقول الأستاذ في الصحافة هو الصدق والأمانة والاستناد إلى الحقائق المجردة في كل ما يقدم من معلومات وما تثيره من قضايا وما تطرحه من آراء . . واحترام الرأي والرأي الآخر . . والالتزام الأخلاقي يعني أيضا ألا يكون الصحفي أداة في يد أحد، أو وسيلة للتعبير عن باطل، أو أجرا لأصحاب النفوذ أو الثروة . . ويجب أن يكون قبل كل ذلك فوق الشبهات . . ويعني كذلك أن يظل ولاء الصحفي لجريدته أو مجلته.

محاضر اجتماعات الجمعة مع مصطفى أمين الكنز الذي اختفى سواء بفعل فاعل أو بحكم السنين أو الإهمال، عثر على كنوزها الصحفي القدير علاء عبد الهادي ليهدي بدوره من موقعه في أخبار اليوم دروسها لأجيال الصحافة بلا رتوش . . أستعيد معها ومعكم شذرات مما كان يقوله لنا فيها المعلم :

«في الماضي كانوا يقولون إن فلان بليغ، لأنه يكتب مقالة لا يفهمها في البلد إلا ٣ أشخاص. . وكان يكتبها على ١٦ عمودًا. الآن البلاغة هي السهولة. فكلما كانت الألفاظ سهلة ومفهومة كانت هناك البلاغة، ولا يجوز أن تطغى الكلمات على المعاني بل يجب أن تكون الكلمة بسيطة على قدر المعنى.

سبق أن قلت مرارا إن القصة الإنسانية مهمة جدا في الأخبار، وأنا أعتبر القصة الإنسانية أحسن من خبرين سياسيين. . مثلا: فندق هيلتون نحن اهتممنا به لكن يجب أن نستعد من الآن لافتتاحه. كل واحد منكم يجب أن يضع في ذهنه أنه سيأتي بأخبار من الهيلتون. . هل فكر أحد عن أول شخصية أقامت في الهيلتون؟!!. . لقد كان أحمد عرابي هو أول شخص أقام في هذا المكان لأنه كان معتقلا فيه وحوكم علي أرضه وتشكلت له المحكمة العسكرية في نفس الموضع، وأيضا سعد زغلول والنقراشي وإبراهيم عبد الهادي جميعهم اعتقلوا في هذا المكان، وأول ثورة عسكرية مسلحة حصلت هناك، فقد هجم جنود عبد العال فهمي وأخذوا المعتقلين من هذا المكان!. . دائما وراء كل حجر قصة إنسانية. الأرض لها تاريخ حتى لو كانت مكان معركة لنابليون أو المماليك أو الرومان أو العرب.

الخبر الفاشل هو الخبر الذي لا يستطيع أن يفهمه القارئ إذا قرأه أول مرة! هو الخبر الذي لا يرد على علامات الاستفهام التي تخطر على بال القارئ بعد قراءته. . هو الذي يقرأه القارئ مرتين وثلاث مرات قبل أن يفهمه. يجب أن تضع أمامك هذه النقاط. . هل سيفهم محمد أفندي كعب الغزال الغفير في وزارة الزراعة هذا الخبر أم لا!. . هل سيقول. . وبعدين؟!!. . هل سيسأل بعده عن أشياء؟!!

عندما تصبح مندوبا في وزارة من الوزارات تفهم ما يريد الوزير، وأنا أعتبر بعض مندوبي الأخبار في الوزارات وزراء فيها، لأنهم يفهمون ما لا يقل عما يفهمه الوزير الذي عندما يعلم أن الذي يحدثه يقف أمامه الند للند يكسب احترامه وثقته. . ولكن عندما يدخل محرر على الوزير يقول له إيه الأخبار؟ هل صحيح زوِّدتم ضريبة السكن؟ يقول له الوزير: ده تبع وزارة تانية!! هذا مما يجعل الصحفي

في موضع ذليل، إنما لما يدخل وهو يعلم ما يجري تكون عنده قوة العالم بما يجري لا متسول صحفي! وبهذا يمكنه الحصول على أخبار مهمة كل يوم.

جريدتنا اسمها الأخبار، يعني لا بد أن يبقى فيها أخبار وننظر إلى الناحية الخبرية في الموضوع، فإذا اشترى قارئ الأخبار ولم يجد بها أخباراً فأنت تخدعه!! .. إن الأهرام مثلا معذورة لأنها ترمز إلى حجارة وطوب.. هي جريدة عريقة فيها جرانيت!! وعندما لا يجد القارئ فيها أخبارا لا يغضب، لكنه إذا اشترى الأخبار ولم يجد فيها أخبارا يلومها أكثر.. وأحب أقول لكم إن أخبار اليوم لم يمض عليها أكثر من ٤ أشهر تبيع في القطر المصري وحده أكثر من ٢٠٠ ألف نسخة، وآخر عدد طبع منه ٢٦٣١٨١ نسخة والفضل في هذا لكم جميعا ١٠/١٠/١٩٥٨.

الصحافة لم تعد أخبار الروتين وأخبار الوزارات، ومقابلات الوزراء والموضوعات المتكررة، إنها أصبحت شيئا أهم وأخطر من هذا.. وقد يدهشكم أن أخبار اليوم اشتركت في أضخم حادث تهريب وهو تهريب، حسن توفيق الذي قتل أمين عثمان وعشرات الإنجليز وقدم لمحكمة الجنايات وطالبت النيابة بإعدامه.

الأخبار.. يجب أن تصاحبها دائما الخرائط والرسوم البيانية لتوضيح كل ما لا يستطيع تصوره بالكلام. يجب أن تحرر الجريدة بالعقلية الجديدة. عقلية اليوم وغدا.. في مصر الآن أكثر من مائة وزير.. الوزراء المركزيون، والوزراء التنفيذيون، ووزراء الاتحاد اليمني هؤلاء ٦٢ وزيرا، ووزراء حكومة الجزائر، ووزراء الأردن اللاجئون.. إن كل واحد من هؤلاء خبر، وكل شيء عنه خبر أيضا.. لو سرق بيت واحد منهم خبر. لو سافر واحد منهم خبر.. لو دخل المستشفى خبر. لو تزوج خبر.. لو طلق خبر.. إن الفكرة هي توسيع نطاق الأخبار.. إن القارئ يمل إذا كتبت له كل يوم عن الشيخ الباقوري وسيد مرعي! إنه يريد أسماء جديدة ووجوهًا جديدة. القارئ ملول بطبعه. إن سام جولدوين - أحد ملوك السينما - قال: إن الجمهور لا يطيق أن يرى وجه مارلين مونرو أكثر من ٤ مرات في السنة! ولهذا لا يجوز أن تظهر في أكثر من ٤ أفلام! فإذا كان الناس بتزهق من وجه مارلين مونرو بعد ٤ مرات.. فماذا يكون شعور الناس عندما يرون

صورة الشيخ الباقوري أو رمزي ستينو مائة مرة في العام! . . الصحافة الآن تغيرت ويجب أن يتغير معها المصور الصحفي، ونريد أن تنتهي صور المجموعات، فإذا رأيت صورا بهذا الشكل سأسمي المحرر الأستاذ استسهال».

ورحل مصطفى أمين . . عندما رحل وجدتني أقول بلا وعي أحلى العمر راح. الآن فقط شعرت بالوهن . . بالوقوف في صف الانتظار لتقديم فاتورة الحساب. تلاشى الحلم الجميل بعد أفول نجم الفارس. كان وجوده ولو عن بعد يجعلني أشعر بأنني مازلت صغيرة. بأن مواهبي ما زالت تتأجج. بأن مشجعي ينظر لي بعين راضية. بأنني في انتظار برافو . . كان يكفيني أن أقرأ له. أن أسمع صوته. أن أشاهد موكبه الإنساني بين جموع المنتظرين له لعرض مشاكلهم عليه مع كل صباح أمام أخبار اليوم. أن يذكر اسمه أمامي حتى أؤمن بأن لي ظهرا. بأن لي حق الدلال. بأنه ما زالت لي متعة التأرجح بين الغلط والصح . . بأنني لست وحدي . . بأنني قوية به لا يستطيع أحد أن يدوس لي من قريب أو بعيد على طرف طرف طرفي . . بأن من يطرأ في مخيلته مجرد التفكير في هضم أدنى حقوقي سيلحقه العقاب الصارم إذا ما شكوته لأبي الروحي مصطفى بك . . لكن والدي مات . . البك مات . . وها هي هموم الصحافة تطفو لتعكر صفو جموع الصحفيين تقطع خيوط الثقة وتشقق بالأخاديد صرح حرية الكلمة . . وكلما أحكمت هموم الصحافة قبضتها . . أتذكره!!

أستاذ بهاء

سناء. أنا بهاء. اطلعي عاوزك. حاضر حالا فورا. . أضع كل شيء جانبا لأقوم أفز أطلع له، وأقعد أطلع له، وأطلع له، وأطلع له. . أندفع من مكتبي في الدور الأول لأدخل الأسانسير الجانبي الضيق الذي لا يتسع إلا لشخص واحد مزنوق ومخنوق بعد إغلاق الباب، وعند انفراج الهواء أصعد درجات سلم يقود للطابق الرابع حيث وجوب الالتفاف حول دوران المكتبة الزجاجية الحوائط لأعبر عن يساري مكاتب كامل الشناوي ومجلة الجيل ومجلة آخر ساعة والمكتب الضخم الذي جلس فيه يوما علي أمين ومن بعده محمد حسنين هيكل، ثم صالة التحرير لأمتطى الأسانسير الرئيسي. . ويظل صعودي في مبنى أخبار اليوم القديم، حيث عملت في الستينيات عشر سنوات، حتى الدور التاسع لأتجه يمينا، وأفوت على سكرتارية مصطفى أمين ومن بعدها صالة الاجتماعات، ثم مكتب علي أمين، ومن قبل باب مكتب رجاء النقاش بباب أطرق الباب. . مقصدي.

الأستاذ أحمد بهاء الدين رئيس تحرير أخبار اليوم وقتها من ألقى على كاهلي الهش مسئولية كتابة صفحة كاملة أسبوعية بموضوعاتها المتنوعة وأنا التي لم أتخرج في الجامعة بعد، وأبدا لم أفز منه بكلمة تشجيع، فقد كنت أَلملم إطراءه لي من فوق شفاه الآخرين. . . . يلاقيني أستاذ بهاء كمن يتعجب لحضوري بل جرأتي على اختراق صومعته، فلا يصدمني إطار الجمود السابق عهدي بملاقاته، حيث لا تظهر ملامح وجهه الجاد سعادة بلقاء، أو انتظارا له، أو العناية فيما إذا لم يحدث من الأصل، حتى إنني بقيت لفترة طويلة أشعر بأن من واجبي المبادرة في كل مقابلة بذكر اسمي ولقبي ونوعية عملي معه، هذا رغم أننا في اللقاء السابق أخذ يقول لي وأنا أقول له ولم نخلص من الكلام كله، ولقد أصبحت من قراءتي لطبيعته على

علم بأنه يعطي أذنه وتركيزه وترحيبه لشخص واحد فقط، وأنت مجنب خارج الإطار إذا ما حاولت اختراق دائرة الاهتمام المغلقة على من سبق وأخذ نبق أحمد بهاء الدين منشئ فضيلة الإصغاء الذي يحسن الاستماع كما يجيد النصح، واللقاء معه إذا ما حزته يختصر كل المسافات لتجده معك بالكامل للعثور من أجلك على خيط الحقيقة بين خيوط الغزل الحياتية المتشابكة.

ويتذكر أستاذ بهاء أنه استدعاني لأصعد إليه للكلام في موضوع الذوق والتذوق وإعادة زرع قيم الجمال في الوجدان.. وأذكر يومها تحريضه لي بالذهاب للمتحف المصري والكتابة عن دقة فنون صياغة الحلي الفرعونية وتناسق ألوان قلادة حتشبسوت.. استرسل المسترسل يومها في رحلة الذوق، وقال إن أكثر ما يفزعه أن يزور بيتا فيجد في حجرة صالون صغيرة ثلاثة أفيال ضخمة مكومة مذهبة متزاحمة لا تفسح مجالا لزائر ولا حتى لقط صغير أن يتحرك فيها وكان يقصد الفوتيهات المذهبة.. حفزني أستاذ بهاء للكتابة عن شقة الشباب والعرسان الجدد التي تتكون من حجرة واحدة ومطبخ وحمام، وقال إن أكثر العقد انتشارا في مصر هو استمرار خيال القصور في الشقق الصغيرة، فالجمال فيه عناصر التناسب بين المكان والزمان والحجم والاتساع والارتفاع.. والقبح يمكن تعريفه بأنه انعدام التناسب.

لماذا يحضرني الآن أستاذ بهاء أحد الذين لا نستطيع أن نناديهم باسمهم مجردا، ونجد أنه لا بد وأن يسبقه لقب التفخيم والتعظيم والتبجيل والأستذة لإحساسك بعملقتهم وشعورك بعدم الندية معهم.. لماذا أشعر تجاهه بأن الموت لم يمنعه إلا أن يصبح في حياتنا أكثر حضورا.. لماذا أرفض قولا بأن الحي أبقى من الميت وأهتف لا الميت أبقى من الحي وأفضل إذا كان أحمد بهاء الدين. لماذا لا يحضرني الآن من كان يتم اللجوء إليه لفض الاشتباك بين الفجاجة والسطحية وحق القارئ. من لم يكن من الصارخين حين يكتب بل من الكبار الذين ينطبق عليهم أنه كلما ارتفع عقل الإنسان قلَّت رغبته في الضجة. من لم يكن نقده رخوا مجاملا ولا طائشا هداما ولا مصطبغا بقلة الأدب السائدة الآن. من لم ينضم إلى من يذكرون الديمقراطية

والحرية عندما يقولون، وينسونها عندما يسمعون ويستعملونها استعمالا رديئا كريها يسيء إليها ويجعلها تبدو للناس شيئا تفوح منه رائحة انهيار العقول والذمم.

من لم يكن كاتبا عابرا في تاريخ الصحافة المصرية والعربية، ومن لم يكن مجرد كاتب عمود أو مقال أسبوعي يستهلك سطوره في التسبيح باسم السلطة أو الترويج لحزب أو افتعال معركة يشرع فيها قلمه بعد أن يرتدي ثوب الفرسان.. من سار على نهج فولتير القائل: «إنني أخالفك في الرأي ولكني أدافع حتى الموت عن حقك في إبداء هذا الرأي». من بدع تعبير الكلامولوجيا عن الهراء اللفظي الذي ساد ويسود.. من كان نقطة مهمة في حياة الذين عملوا معه ونقطة فاصلة في الصحافة العربية.. من تقرأه فتشعر في الصيف بأنك تشرب ماء أفيان المثلج طبيعيا بعدما غدا خالص النقاء بفعل مسيرته بين مصافي الصخور على مدى الأميال في جبال الألب، وفنجان شاي إيرل جراي بعطر الليمون البنزهير.. من لم ينضم لمن يجاوبون بصلف وادعاء ثقافة عنترية عن أسئلة مثل: أوتوبيس كام بيروح فين؟.... لماذا يحضرني الآن أستاذ بهاء.. هل هو بمناسبة جمع أعماله الكاملة في كتاب صدر أخيرا.. أبدا.

الإجابة غاية في البساطة. تلك البساطة التي كانت السمة الغالبة على أحمد بهاء الدين في مظهره ومخبره. البساطة الشديدة التي تظنها في البداية تواضعا ثم تكتشف أنها طبيعته بلا أي ادعاء أو تكلف. البساطة التي شكلته بسيطا يأكل ساندوتش الفول في الشارع ويفوت على بائع الجرائد يشتري جرناله. البساطة التي جعلته رئيس التحرير المثقف اللي بيمشي معانا على الأرض ومش طاير في الهواء. البساطة التي جعلته يحتفي بقمع بسكويت يحتضن جيلاتي الدندرمة على الرصيف ويسكن في شقة من حجرة واحدة وصالة ومطبخ بعد توليه أكبر منصب صحفي وقتها في مصر، وهو رئاسة تحرير أخبار اليوم، وعندما تقلد قبلها منصب رئيس تحرير مجلة صباح الخير وعمره ٢٥ عاما لم يشغل سوى غرفة لا تحوي سوى مكتب قديم وكرسي لجلوسه فقط بينما لا يجد زواره لهم مقعدا فاشترى كنبة وكرسيين وكليمًا ومكتبة بالتقسيط بثلاثين جنيها لفرش الغرفة، وعندما عرضت عليه روز اليوسف الغاضبة من فعلته تسديد المبلغ عنه رفض بقوله:

«هذا جهازي كرئيس تحرير جديد، حتى إذا أفلست المجلة آخذ عفشي إلى بيت أبي». . البساطة التي شكلت كيان بهاء البسيط المتواضع النقي البريء من فيروسات المرض العضال المتفشي. . مرض الغطرسة الذي يصاحبه ورم التعصب. . لماذا أحمد بهاء الدين الآن؟! لأنه ببساطة في الليلة الظلماء يفتقد البدر.

أستاذ بهاء من الشخصيات العريضة التي تقرأ عدة قراءات مختلفة، كلما تدور حولها يتسع محيط الدائرة، وتحسب أنك قد ألممت بأبعادها الكروية فتجد نفسك لم تزل تقرأ في الجهة التي تشرق منها الشمس، وتحسب أنك الأكثر قربا وحميمية منه لتفاجأ بأن من هم في منزلتك كثيرون وكثيرات كل يجد لدى بهاء بابا مفتوحا وردا حصيفا ويدا تأخذ بيده. . سألته مرة نصحا حول مشكلة صاحبتني فجاوبني جوابا شافيا فعبرتها وهدأت وسعدت بعد قوله تناسيها أسقطيها ادفنيها وسيري فوق أرضها كأنها لم تكن وأكملي المشوار. . أستاذ بهاء يقرأه الكثيرون كاتبا سياسيا وعرافا للمستقبل العربي، وصاحب مدرسة القومية العربية في الصحافة المصرية المهموم بقضايا الحرية والاستقلال والاستعمار الأمريكي الجديد، الذي رفض انفتاح السداح مداح فخسر رئاسة تحرير الأهرام، وعارض سياسات السلام فخسر مقاله فيه، وهاجم الفهلوة الاقتصادية فحرموه من مصر، وكان أول من دعا إلى إعلان الدولة الفلسطينية عام ١٩٦٩، لكنهم لم يسمعوه.

هؤلاء الذين يقرأونه سياسيا عندما نتوقف لنشير لهم عن رومانسيات بهاء وعاطفته يضعون القرائن بأن رؤيته للحب كانت أيضا سياسية، ففي نظره مثلا أن الأغاني العاطفية إذا ما كانت ناجحة فإن أكثرها نجاحا الأغاني الحزينة التي تملؤها اللوعة والحزن وآلام الفراق والهجر والبعاد، وذلك لأن في كل قلب قصة حب لم تكتمل أو أطياف من حلم لم يتحقق. . لماذا؟ . . لأنك ستجد في أغلبها ـ تبعا لرأي بهاء ـ بصمات الاقتصاد والاجتماع والثقافة، أي أنك ستواجه في آخر المطاف قضايا السياسة ودورها. . لا . . لم يكن بهاء معجونا بالسياسة فقط بل خلطة سرية تضم أيضا فنا وجمالا وشعرا ورسما وحبا. كان لبهاء الوجه المسكوت عنه وغير المرئي.

كانت علاقته بالفن أنه فنان وليس مقتني فن، وكان أحد رواد صالات المزادات ومحبا للفنون التشكيلية ومن أقرب هواياته الإخراج الصحفي فكنت تراه يخرج من جيبه بين وقت وآخر ماكيتًا صغيراً لصفحات الجرنال يخطط ويرسم عليه شكل الصفحات ومكان الإعلانات وتقديراً لحجم المانشتات.

وكان يرتاد المعارض ويقتني لوحاتها ويكتب عن فرسانها، وما زلت أذكر رغبته الشديدة التي أسرها لي في أن يستعيد لوحة ـ مطبوعة ـ اقتناها من أعمال فناني الحملة الفرنسية لمصر القديمة تركها معلقة فوق مكتبه عندما كان رئيسا لتحرير الأهرام في الدور الرابع الذي شغله وقتها يوسف السباعي، وكان من أشد المعجبين بالفن العراقي القديم والحديث، وكتب أكثر من مرة عن زياراته لمعارض بيكاسو في قاعة التيت جاليري بلندن في محاولة منه لفهم فنه مدركا أن كل فنان لا بد وأن يكون له رأي وكفاح وقضية ومعركة، ولم يفز فنان تشكيلي مصري بأبدع مما قاله فيه بهاء مثل صلاح جاهين كرسام كاريكاتير وآدم حنين كنحات، وكان بهاء الفنان الدقيق يكتب كلماته الدقيقة بالحبر الأخضر على الورق الأصفر، فيغدو مقاله وخطابه وقراره وإذن السفر والتلويح بالزعل بمثابة لوحة من فن منمنمات الشرق الأندلسية.. وكان أستاذ بهاء عاشقا للموسيقى يدندن بها في سرحاته، ولم يكن على حد علمي محتفيا إلى حد كبير بالكلثوميات وإنما كان أكثر تجاوبا مع فيروز ونجاة وعبد الحليم، وكان متابعا جيدا للأفلام والمسرحيات وفاتن وعادل إمام الذي عاد من الإسكندرية بعد مشاهدته له في مسرحية الواد سيد الشغال يحكي طويلا عن مدى موهبة عادل وكيفية تجاوب الجمهور معه إلى حد حمله داخل عربته فوق الأكتاف.. ورغم احتفائه الظاهر بأهل الفن المحترمين، لكنني لاحظت في إحدى المرات طول انتظار المخرج يوسف شاهين في مكتب سكرتيرته نادية حتى إنني ذات نفسي شعرت بالإحراج وأنا رايحة جاية أمامه بحكم موقع مكتبي المقابل فدخلت لألفت نظر الأستاذ فوجدت عنده علما بذلك، ومما زاد من عجبي يومها أن أكثر من واحد من أسرة الأهرام كانوا يدخلون ويخرجون عليه مثلي فيجاوبهم إلى طلباتهم، ولكي يخفف من وطأة استفساري الصامت قال لي إن أبناء الأهرام لهم مطلق الحق وفي أي وقت لملاقاته، لأنهم أبناء الدار ولدى بعضهم أسبابهم لسير

دولاب العمل، أما من أتى على غير موعد فعليه الانتظار !! أستاذ بهاء الذي قال يوما عن جمال المرأة «إن هناك من الجمال أنواعًا: الجميلة التي يراها الرجل فيشعر أنه ذاهب معها إلى مغامرة عاصفة، وهناك الجميلة التي يقتحم جمالها الرجل كأنه يدخل في مبارزة، وهناك الجميلة التي تحس إذا نظرت إليها أنها تقودك إلى مرفأ هادئ أو إلى واحة خضراء، وهذا النوع الأخير من الجمال هو الذي يعمر في القلب أكثر من سواه»، وهذا الذي يفضله الإنسان البسيط. . وكان أستاذ بهاء غاية في البساطة والتلقائية، وأذكره في مكتبه المقابل بالدور الخامس بمبنى الأهرام بعدما أصبح ساكنا قصادي وأحبه كثيرا وأقدره كثيرا وأحترمه فدادين الاحترام. . وكان قد خصص أحد أزرار تليفونه الخاص بجواره ليضغط عليه فألبي نداءه من مكتبي على بعد خطوتين فقط ليروي وأسمع، وكان الحكي على لسانه ثقافة ومتعة وتاريخًا وسياسة وناسا وراء الأخبار.

حكى لي يوما عن الكاتبة المتفردة أليفة رفعت. عن أدبها الذي عشقه أحد النقاد الإنجليز الكبار فاختاره لترجمته عالميا وبعدها ـ كما أذكر ـ تزوج صاحبته التي كانت قد ارتبطت قبلها بعمدة في الأرياف لتكتب عن حياة الأنثى خلف الأسوار بأسلوب يشي بمفاهيم وقضايا الجسد. . ولم يكن أستاذ بهاء حتى هذه اللحظة قد التقى بالأديبة الأكثر جرأة والتي تطرقت إلى الأغوار التي تخشى غالبية صاحبات القلم كشف سترها أو الخوض في كهوفها. . وفجأة طلب مني أستاذ بهاء أن أستدعيها في القريب للقائه. . قمت على الفور لألبي طلبه وتوقفت قبل خروجي لأسمع تنبيهه الأخير الذي أضافه في جملة اعتراضية بنغمة هادئة كأنها جاءته عفو الخاطر. . على فكرة لما تجيبيها أديها الفرصة للحديث الشخصي معها. . فهمت بذكائي المدرب وليس الفطري أن أغور بعدما أصحبها لمكتب الأستاذ. . وجاءت الأستاذة أليفة من طارت سعادة للقائها القادم بالأستاذ الكبير ولم يأتها الصبر للجلوس عندي لتشرب أيتها حاجة بل رجتني الإسراع بتبليغه بحضورها، فطلبته حيث لم ينس تذكيري بعودتي لمكتبي فور اصطحابها، وطرقنا الباب أنا وهي لأقول من فتحته للأستاذ في موقعه بآخر الغرفة، حيث كانت حدة بصره لا تحدد الملامح من بعيد: الأستاذة أليفة يا أستاذ بهاء. . طيب طيب طيب متشكر إنت بقى. . .

ولأنني كنت عارفة في سري مدى الإحباط الذي سيتسلل إليه عندما تتضح الصورة عن قرب بتفاصيلها الدقيقة، حيث لن يتطابق الواقع بالخيال جلست في مكتبي وانتظرت الرنين الذي شنف آذاني على الفور: إنت فين ما تيجي تقعدي معانا.. ويتابع أستاذ بهاء أداء فاتن حمامة مقدرا معجبا وصديقا.. فاتن التي أرسل أبوها صورة إلى مسابقة لإحدى الصحف ففازت بجائزة جمال الأطفال وكان محمد كريم يبحث عن طفلة للتمثيل في فيلم لمحمد عبد الوهاب فاختارها ليخرج الناس من الفيلم لا يتحدثون عن البطلات كما تحدثوا عن الطفلة ذات الضفيرتين وكيف كانت تقول لعبد الوهاب: ماما طبخالك النهاردة مشمشية!... أستاذ بهاء اتخذ فاتن نموذجا لمعاناة الممثل وعدم شعوره بالخصوصية شارحا بأنه يعيش في بيت من زجاج.

يكفي أن تخطو خطوة واحدة خارج البيت لتشعر بذلك. ليس من حق فاتن أن تخرج يوما ثائرة أو معكرة المزاج، بل يجب عليها أن تطوي كل مشاكلها كما تطوي منديلها وتغلق عليه حقيبة اليد لتبدو دائما ضاحكة وديعة مشرقة.. ويذكر أستاذ بهاء تعبيرا للزعيم الهندى نهرو حول الابتسامة التي يجب أن يعلقها الزعيم على فمه أمام الجماهير بقوله: إنها لكثرة ما (يجب) عليه أن يكررها.. تنفصل عن قلبه وعن مشاعره.. تصبح الابتسامة مجرد حركة يؤديها بعضلات وجهه، لا علاقة لها بباطنه.. إن الزعيم يحتاج إلى أن يكون ممثلا.. فما بالك بالممثل نفسه.. وأبدا لم يكن أستاذ بهاء زعيما ولا ممثلا ولا بيته من زجاج، لهذا لم يكن مبتسما عندما تراه.

بهاء الذي كان يشعر بأنه ند للثورة وليس أحد أبواقها في علاقة يعكسها المثل الشعبي «يا نحلة لا تقرصيني ولا أنا عاوز منك عسل». علاقته بها هي نفس علاقته بحلمه الكبير، حلم جيله بمن فيهم رجال الثورة من الضباط الأحرار.. لكنه كان صاحب الشخصية التي كثيرا ما كان يضيق بها رجال الثورة وتصل في أنظارهم إلى حد الالتباس: هل هو معهم أو ضدهم؟ أو بمعنى أدق: هل معهم حقا أم أنه بارع في إيهامهم بذلك؟ هنا يسوق الأديب الكبير خيري شلبي معلومة نقلت عن

أم كلثوم عن جلوس رجال الثورة في إحدى المناسبات التي حضرتها حينما داعب عبد الناصر أحمد بهاء الدين بقوله: نفسي أعرف أنت مع مين بالضبط؟ إن عبد الناصر رغم فهمه الدقيق لشخصية بهاء وتأكده من ولائه للثورة فإنه لا شك قد اندهش أو تعجب، وهو الزعيم الذي دانت له الجباه والأعناق من صحفي لا يخلع استقلاله ونديته على باب الدخول، لا يتنازل فيطلب شيئا لنفسه، لا يخطط لمنصب، لايدس بالنميمة في حق أحد زملائه.. من أجل ذلك عندما كان البعض يشي ببهاء لدى عبد الناصر وينصحون باعتقاله، كان عبد الناصر يسكتهم بقوله: سيبوه هو دماغه كده!

الشخصية الثرية غلب على شبابها الطابع الرومانسي، وتلك أبيات للشاعر الشاب أحمد بهاء الدين نشرها عام ١٩٤٧ في مجلة فصول التي كان يرأسها زكي عبد القادر.. يقول بهاء في قصيدة ضيق:

زمني يضيع وكل يوم يطوي لي فيه أمل
وأنا هنا أستعرض الأيام لما ترتحل
لا أستطيع السير في تيارها أو أنتقل
وإذا جرؤت وقلت أمشي كم تضيق بي السبل

وفي قصيدة أخرى بعنوان يا مصر يقول بهاء الشاب:

يا مصر لو شئت الفداء وجدتني
في مطلع الأبرار واسمك في فمي
وكما رويت بنيلك غلتي
أروي ثراك بما تريدي من دمي

بهاء نجل عبد العال أفندي شحاتة الموظف بوزارة الأوقاف ابن قرية الدوير بمحافظة أسيوط الذي ولد في برج الدلو بالإسكندرية عام ١٩٢٧، ونال التوجيهية من المدرسة السعيدية ولم يتمكن بعد تخرجه عام ١٩٤٦، في كلية الحقوق جامعة الإسكندرية من العمل في المحاماة نظرا لصغر سنه.. من كان له في

كل شيء إلا الرياضة، ورث أباه في العناية بمصير شقيقاته الأربع، ومن فرط أريحيته واتساع شعوره بالمسئولية وجد نفسه يحمل هموم الأمة كلها . . وهمومك . . وهمومي . . كان يحكى لي عن طفولته التي تصحبه فيها والدته في زياراتها الخاصة فيجلس ساكنا إلى جوارها ساعات لتقرظ أدبه وحسن تربيته المضيفة، وربما هذا السكون أو السكوت المرغم الطويل معجونا بإرثه الصعيدي قد خلقا بداخله نوعا من العند لتصبح دماغه أنشف من الحجر وليظل صعيديا كتوما. وإن كان أرحم بكثير من صلابة رأس الكاتب فهمي هويدي حتى إنه كتب يستعطفه وهو رئيس لتحرير مجلة العربي بينما كان هويدي مديرا للتحرير لكي يعطي مساحة أكبر للكاتب مصطفى نبيل، أقرب صحفي لقلب بهاء مرسلا له برقية تضم مأثورة لينين:

«رفقا بالرفاق» وليبقى طول عمره مخزنا للأسرار التي اختار أن يرحل ويأخذها معه وإن كان قد باح بالقليل منها في كتابه «حواراتى مع السادات».

بهاء القانوني خريج كلية الحقوق التي زامله فيها الأديبان فتحي غانم وعبد الرحمن الشرقاوي . . عمل في بداياته مفتشا للتحقيقات وذهب مع رئيسه المستشار مصطفى درويش للتحقيق في قضية بأحد بلاد الوجه البحري، ونظرا لدقة جسمه فقد جاءت شكوى إلى الوزير بأن مصطفى درويش اصطحب معه ابنه الصغير على حساب الحكومة . . بهاء حقوقي من طراز خاص تعلم من القانون ما جعل في صدره ميزانا دائما قائما يزن به كل شيء، وإذا كان لم يجلس على منصة الأحكام للنظر في قضايا الناس فإنه اختار بعدما استقال للتفرغ للكتابة في الصحافة أن ينظرها في عموم الشوارع لا في ساحات المحاكم . . طرقت باب القاضي أستاذ بهاء أطلب منه تعضيدا لموقفي في ترشيح نفسي لمجلس نقابة الصحفيين، وكانت الزميلة أمينة شفيق هي المنافسة الوحيدة أمامي، فما كان من أستاذ بهاء إلا أن سلخني على نار هادئة شارحا لي دور أمينة المعروف نقابيا وما يمثله تاريخها المشرف في العمل النقابي، إلى جانب أنها تضمن جميع أصوات الصحفيين من حزبها التي تحشد تلقائيا ولو كانت أمينة في مهمة خارج البلاد أثناء إجراء الانتخابات، وأيضا لأن

مبنى النقابة يقع تحت بيتها أي أنه جزء من حياتها العامة والخاصة . . وسألته بعد دفاعه الانفعالي الحاد المفحم عن الخصم عما إذا كان سيعطيني صوته؟! فأجابني بتكشيرة حنون : أيوه . . . ونجحت في الانتخابات باكتساح .

ويقولون إنه نوع من الاستشعار . . حتما كان ذلك وإلا ما الذي دفعني في إجازتي بمصيف أبوتلات لترك الجمع والذهاب للوقوف أمام بيتك تجاه البحر في تلك الساعة بالذات . . كانت الحادية عشرة تماما من صباح السبت ٢٤ أغسطس ١٩٩٦ . كنت بالداخل قد لازمت فراشك دهرا . قد عانيت من المرض سنينا . قد انقطعت عن عالمك طويلا . قد بلغت من الكرب أشده فأغلقت مصراعيك وأسدلت أستارك وأوصدت تجاويك وبترت حوارك ومحوت غدك وسكبت صبرك وحررت يدك ولملمت أيامك وأطفأت شموعك وسلمت مفاتيحك وطويت حياتك ولبيت قدرك ولفظت سرك . . كانت مركبك في بحر الظلمات قد حطت أخيرا على شاطئ الراحة الأبدية . الدمعة التي تحجرت في عينك سقطت عند إغلاقها . الذكرى التي علقت في تلافيف العقل رفرفت من عقالها بلا موطن . الرأي الذي كان سينير لنا طريقا ترك الطريق بلا هداية . الثقافة والعمق شريط حضاري سكن لتغيب صاحبه . اللفظة على اللسان العذب خمدت فلم تنطق بها . . . من فوق الرمال الساخنة أمام نافذة البعد قلت لك ولم أكن أدري ما سوف أدري ليسكنني الحزن الطاغي . . أوحشتنا . . وما كل هذا الفراغ يا سيدي الذي ندور فيه عندما ابتعدت .

عندما انسحبت . . عندما اشتدت حلكة الظلام فافتقدنا البدر . . أتذكر كأنه الأمس قبل مرضك الأخير بيوم واحد عندما استدعيتني إلى مكتبك فهرعت إليك ألبي . سألتني عما سيكون عليه موقفي إذا ما طلبت مني توقيعا على بيان وضعت فيه خبراتك ورصيدك تحذر وتنبه لجريمة العصر ، وهي هجرة اليهود السوفييت لإسرائيل وتود أن تنشره على صفحة كاملة في الجريدة مذيلا بإمضاءات عديدة . . هتفت . . هاك قلمي وتلك أصابعي أبصم بعشرتها موافقة على أي شيء يكتبه معلمي وأستاذي . . ساعتها انبسط خط في تعقيدة الغضبة فوق الجبين . قمت من

خلف مكتبك لتجلس أمامي ليشكو الأستاذ هذه المرة لتلميذته. يشكو من تسويف البعض وميوعة البعض وهجر البعض وتعالي البعض الذين كانوا في ظنك بالأصدقاء! تصوري الكاتب السياسي الكبير قال: إنه يود قراءة البيان أولا قبل الموافقة عليه!!.. تخيلي الفنانة سيدة الشاشة تقول لي أنا ابعث لي صورة من البيان لقراءته فربما لا يتماشى مع رأيي.

وحمدت الله يومها أنني لم أقل له غير ما قلته رغم تحذير والدي لي منذ الصغر بقراءة متعمقة لكل ما سوف أوقعه بإمضائى حتى لا أروح في داهية.. لكنه يا والدي أستاذ بهاء.. الموجه والمعلم والرائد والصائب واللي كله فهم وبعد نظر.. وغادر أستاذ بهاء مكتبه وعلى سيماه حزن وفي مشيته إحباط وفوق أكتافه أثقال هموم وعلى فمه دمدمات خافتة.. ولم يعد بعدها.. ذهب إلى حضن غيبوبة قال عنها محمد حسنين هيكل: «كان مخطوفا منا في وقت الأزمة ولا يزال رهينة في فراش المرض. أمامنا وهو بعيد. ومعنا وهو ساكت وليس ذلك عهدى به ولا عهد الناس لكنها تصاريف الزمان ومفارقاته التي تفرض أن يبتعد من يحق له الاقتراب وأن يسكت من يقدر على الكلام، وأن يتعطل قلمه ويتوقف عن التنفس قبل أن يلحق به صاحبه».

دخان لم يذهب في الهواء

جلال الدين الحمامصي

عجبت لماذا؟! . . لماذا لم يزل رغم السنين يسكنني؟! . . لماذا يرتفع في أذني ثانية ذاك الرنين البعيد عند توجهي لانتخابات نقابة الصحفيين . . يومها . . مع طلعة الشمس ركنت مولودي عاويا بجواري لأسكت على الجانب الآخر صوت الرنين المتواصل وصرخت: آلووووه . . فأتاني كلامه من بعد سلامه هادئا رقيقا يحمل لي الأثير وقع ابتسامته الدمثة التي لا تغادر أبدا ملامحه وكأن الأستاذ جلال الدين الحمامصي قد ولد في المهد بها . . هنأني بالمولود الجديد وأعقب تمنياته الحارة برغبته في ضرورة حضوري للنقابة للإدلاء بصوتي في الانتخابات التي ستنعقد هذا الصباح، ولم يشأ أن ينهي طلبه الحاسم المشبع بدفء أبوي إلا بحاشية بليغة المحتوى من أن لي مطلق الحرية في اختيار شخصية النقيب.

وكانت المعركة على مستوى النقيب غاية في السخونة بينه ممثلا لأسرة أخبار اليوم، وبين الأستاذ علي حمدي الجمال على رأس أسرة الأهرام . . وكنت أنا في موقع الحيْص بيْص واقعة في مطب المفاضلة بين ممثل منبتي الصحفي ومسقط رأسي في أخبار اليوم، وبين بيتي ونموي وعملي واكتمالي في الأهرام . . وضعني أستاذي الحمامصي برنينه المبكر في منطقة البين بين ما بين مرتع الصبا وجدران الوقار، وكدت أعده بانضمامي لمعسكره مع تقديم جميع فروض الاحترام، لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة بحجة أن ليس هناك من أترك له مهمة رعاية المولود وهو لم يزل لحمة حمراء، فأتتني إجابته العملية الفورية ذات الإصرار بأنه سيرسل لي وبفورية (Nurse) أي مربية تمكث إلى جانبه لحين عودتي . . وأسقط في يدي

وذهبت للنقابة وسلمت عليه وشكرته وتسللت لأنتخب علي حمدي الجمال وفي أذني طنين اصطنعته ليعلو على صوت الأصول وحق الأستاذية ورد الجميل وغض النظر عن هدية الـ(Nurse) وحجتي في فعلتي أن الأستاذ جلال ذات نفسه قد منحني حريتي التي استخدمتها بكامل حريتي في انتخاب الأستاذ الجمال، وأنا في ذلك لم أحد عن مبادئه وما كرسته فينا دروسه الصحفية: نريد جيلا رائدا عملاقا لا يعرف النفاق.

وأعبر بعد ذلك في انتخابات الصحفيين بين صفوف آلاف الزملاء بصعوبة بالغة لأستشعر الفارق في الزمان والمناخ.. عندما كانت الخيارات متعددة والآن شحّت الخيارات.. عندما كان التنافس بين الشخصيات والآن بين التيارات.. عندما كان المرشحون عمالقة والآن هناك مرشحون لم نسمع عنهم من قبل.. عندما كنا محرجين أيا من اليوسفين نمنحه أصواتنا يوسف إدريس أم يوسف السباعي؟!

عندما كانت البلاغة لغة الاستقطاب، والآن وعلى مدخل العملية الانتخابية يدعوك مرشح لانتخابه بمزيكة حسب الله وكنت فين يا علي وأمك بتدور عليك.. عندما يسألونك بريبة: هل أنت مع تيار الحكومة - بمفهوم ضمني أن الانتساب للحكومة من قبيل العار - ولاّ مع التيار التاني؟!.. عندما تصطف أسماء التيار الحكومى في قائمة الواجهة، وترتدي قائمة التيار الثاني - الأشرار في مفهوم أنصار الأول - طاقية الإخفاء.. عندما لم يعد مجديا إلا مع من تعدى السبعين فما فوق ولا مجال لجيل الوسط حتى أصبح هناك ما يشبه عقما في الصحافة.. عندما تقول عمن بداخل الإطار أنا شفته قبل كده، بينما تردد قولك حول غالبية ذوي اللافتات أنا ماشفتهمش قبل كده.. عندما كانت تجذبنا مواقف وأقلام ولم تكن هناك جرعات مالية منشطة للجماعة الصحفية قبل العملية الانتخابية.

جلال الحمامصي.. الصحفي المصري الوحيد الذي تم فصله بقرار مكتوب. رفته عبد الناصر ولم يعتقله في ٣١ ديسمبر ١٩٦٠.. لم يكتب القرار ناصر شخصيا لكنه أوصى به كمال الدين رفعت الذي كان مشرفا على أخبار اليوم في ذلك الوقت، وكانت آخر تعليمات الرئيس من فوق الباخرة (الحرية) المسافرة به

إلى المغرب : «أرسل لجلال الحمامصي خطاب فصل» ، وتلقى الحمامصي القرار من سطر واحد «يعفي جلال الدين الحمامصي من عمله بمؤسسة أخبار اليوم» ، ولم يكن كمال رفعت بدوره من وقع القرار وإنما عهد به إلى سكرتيره الخاص الصاغ علي إسماعيل الذي سلم القرار إلى الدكتور سيد أبو النجا العضو المنتدب للمؤسسة وأرفق بالقرار الشيك براتب شهر ديسمبر لعام . ١٩٦٠ ، ويسألون الحمامصي لماذا؟ ! فتأتي إجابته : «لأنني حاربت الفساد في عهد عبد الناصر» . . ومع السادات أيضا كانت للحمامصي حكاية ورواية . . في ٦ يناير ١٩٤٦ ، أطلق حسين توفيق الرصاص على أمين عثمان وكان السادات وراء هذه المجموعة ، وللاحتياط ولكي يكون بعيدا عن مسرح الأحداث توجه يومها لزيارة جلال الحمامصي ، وفي التحقيق شهد الحمامصي بذلك ، وكانت شهادته أبلغ مبرر لبراءة السادات من الاتهام . . وفي أخريات عهد السادات كان الحمامصي ممنوعا من الكتابة!

وليس هناك صحفي قضى حياته في معارك بسبب أفكاره ومواقفه مثلما فعل الحمامصي . . لم يكن كلامه دخانا يطير في الهواء وإنما نقدا يحرك المياه الراكدة ويعود عليه بالمتاعب . . اختلف مع عبد الناصر ففصله من الصحافة ، واختلف مع السادات فمنعه من الكتابة ومن الظهور في التليفزيون ، واصطدم مع رئيس الوزراء الدكتور عبد العزيز حجازي حول مياه الحنفيات التي تنزل على وجوه الناس طينا ، واصطدم مع حافظ بدوي رئيس مجلس الشعب وقتها بسبب أحد القصور فقال له حافظ بدوي : «لا تنسى أنني الرجل الثاني في مصر» ، ونسي الرجل الثاني أن الصحفي المقاتل اختلف مع الرجل الأول عبد الناصر ، ومع الرجل الأول السادات ، وكشف الحمامصي مبكرا قضية الفساد في شركة «هيديكو» لصاحبتها هدى عبد المنعم التي هربت من مصر ، وكتب متسائلا عن كيفية هروبها ومن ساعدها؟ وضرب مثلا بأن جاسوسا سويسريا هرب من سجنه فاستقال وزير العدل في سويسرا لأنه المسئول عن السجون وبالتالي عن هروب السجين . . وهو صاحب تحقيق العشرة ملايين دولار التي دخلت ذمة عبد الناصر المالية أيام النكسة من الملك سعود ، وانبرى السادات دفاعا عن ناصر ومهاجما الحمامصي في خطبة عامة .

ولم تكن انتخابات نقابة الصحفيين فيما بعد وحدها هي التي استدعت في خاطري جلال الدين الحمامصي، فهناك تاريخنا الملكي الذي أصبح مكتوبا علينا مشاهدته ليل نهار منذ بداية شهر رمضان وحتى الآن على جميع المحطات الأهلية والعربية في مسلسل الملك فاروق الذي أتى على ذكر الكتاب الأسود لصاحبه مكرم عبيد ضد النحاس وكان سببا في اعتقال جلال الدين الحمامصي عام ١٩٤٣، وراء أسوار معتقل الزيتون لمدة ١٨ شهرا مع البكباشي أنور السادات والشيخ أحمد حسن الباقوري وموسى صبري والشيخ عبد المنعم النمر.. الكتاب الذي شارك الحمامصي في وضعه كنتيجة من نتائج الخلاف الأساسي بين الصديقين النحاس ومكرم.. ويسأل زملاء المعتقل الحمامصي عن الكتاب فيجيب: «اتصلت بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي وسألته: ألا من سبيل لوقف هذا الفساد؟ فرد قائلا: لا يمكن أن أتحرك إلا إذا كانت هناك أدلة ووقائع تحت يدي، وفي اليوم التالي رويت لمكرم ما دار بيني وبين حسنين فصمت قليلا وقال: ما رأيك في أن نجمع الوقائع ووثائقها ثم نضمنها عريضة نرفعها للملك.. تلك كانت نقطة بداية الكتاب الأسود».

ويعترف الحمامصي في أكثر من حوار معه في الثمانينيات بأن وقائع كثيرة ذكرت في الكتاب الأسود على أنها خطيرة وتدين النحاس باشا تبدو له الآن تافهة للغاية مثل ترقية موظف من الدرجة السادسة إلى الدرجة الخامسة بصفة استثنائية أو عن طريق المجاملة، أو أن زينب الوكيل زوجة النحاس باشا استغلت نفوذها وأجهزة الدولة في شراء قطعة صغيرة من الفراء، وتم ذلك عن طريق برقية أرسلت بالشفرة من رئيس الوزراء إلى سفير مصر في إنجلترا... يعترف الحمامصي: حينما يقال لي الآن أنت كتبت الكتاب الأسود؟ أقول: نعم.. خجلا.. بينما كنت أقولها عام ١٩٤٢ افتخارا.

في مدينة دمياط في أول يوليو من ١٩١٣، ولد جلال الدين، وفي دمياط التقى وهو في السادسة بالأخوين علي ومصطفى أمين ليصدروا صحيفة طبعوها بالبالوظة، وتنتقل الأسرة للقاهرة ليحصل على الابتدائية من الناصرية وبعدها

السعيدية ليفصل في الثالثة الثانوية لاشتراكه في المظاهرات في عهد وزارة إسماعيل صدقي (٣٠ ـ ١٩٣٤) ويلتحق بالجامعة الأمريكية ليلتقى ثانية بعلي ومصطفى أمين، ويتزعم مظاهرة فتفصله الجامعة في آخر العام الدراسي ويعود للسعيدية ليحصل على الشهادة الثانوية ويلتحق بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول ويتخرج فيها عام ١٩٣٩ .

وكانت رحلته الصحفية طويلة منهكة ومرهقة وسببها التمسك بمثالية قد تكون خيالية . . عمل بجريدة كوكب الشرق لصاحبها أحمد حافظ عوض صديق والده في عام ١٩٢٩ ، ثم محررا رياضيا بجريدة الأهرام في العام نفسه ليوقع بلقب الكرباج، وهو أول من أقام مسابقة بين فرق كرة القدم بالأقاليم على كأس في أول مسابقة بمصر عام ١٩٣٥ . وفي العام نفسه سافر مع وفد مصر للمفاوضات في العاصمة البريطانية، وفي عام ١٩٣٦ ، وهو طالب بالهندسة كان مساعدا لسكرتير تحرير المصري ومحررا بدار الهلال، وفي عام ١٩٤٢ ، انتخب عضوا بمجلس النواب وعمره ٢٩ عاما وأسقطت عنه العضوية لعدم بلوغه السن القانونية، وبعد المعتقل شارك في إصدار جريدة الكتلة لصاحبها مكرم عبيد، وكان يتقاضى راتبا قدره ١٧٠ جنيها شهريا، تنازل عنها منشقا عن حزب الكتلة لأنه لم يوافق على الهدنة مع الوفد وتركها ليصدر مجلة الأسبوع عام ١٩٤٦ ، التي استمرت ستة أشهر فقط، وذلك لضيق ذات اليد وعندما عرض عليه مبلغ خمسة آلاف جنيه من المصروفات السرية رفض الحمامصي وفضل إغلاق المجلة، ثم رأس تحرير الزمان لصاحبها إدجار جلاد من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥٠ . وانتقل لأخبار اليوم كأحد رؤساء تحرير الأخبار التي صدرت عام ١٩٥٢ . ولمدة عام كان وزيرا مفوضا لمصر في واشنطن، وبعدها اختير رئيسا لتحرير الجمهورية وأنشأ وكالة أنباء الشرق الأوسط، وترك الجمهورية ليتولى رئاسة قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية عام ١٩٨٢ ، وبعدها إلى الأخبار مشرفا على التحرير، ثم في مارس ١٩٦٨ ، رئيسا لقسم الدراسات الصحفية بالأهرام، وفي عام ١٩٧٤ ، يعود رئيسا لتحرير الأخبار ليكتب عموده الشهير «دخان في الهواء» . . وتاريخ طويل مدجج بالمواقف الصحفية الحديدية للرجل الذي أقنع والدته سليلة عائلة العلايلي الدمياطية لتبيع

أرض أسرتها في دمياط رغم معارضة الأسرة ليتقدم بالثمن إلى صاحبي أخبار اليوم صديقي عمره علي ومصطفى أمين ليضعا أسس بناء أول دار صحفية مصرية عصرية عام ١٩٥٠ ، وكانت أحلامهما تفوق العصر ، وأبدا لم يذكر الحمامصي طوال حياته أنه أسهم في تشييد هذا الصرح لنظل نقول ويقول معنا الحمامصي أخبار اليوم لصاحبيها علي ومصطفى أمين . . الحمامصي . . من قالت عنه شريكة حياته ابنة عبد الحميد سليمان باشا ووالدتها كريمة إسماعيل باشا سري وشقيقة حسين باشا سري . . الزوجة التي كانت تكتب مقالاتها في مجلات دار الهلال تحت اسم مستعار نوال والتي أنجبت له ثلاثة أبناء : محمد كامل عام ١٩٥٠ ، وفاطمة ١٩٥٢ ، وقسمت . . ١٩٥٤ ، قالت عنه : «صريح واضح وجوانبه كلها ظاهرة . . هادئ عاشق للصحافة . . يهمه أن يعرف أكبر عدد من الأصدقاء والناس ، ووسيلته في ذلك الرحلات ، كما أنه عاطفي وإن كان لا يعتني بإظهار عواطفه ويقرأ كثيرا ويصوم ويصلي ويحترم مواعيده حتى إنهم في عمله يضبطون ساعاتهم على حضوره وانصرافه . . الحمامصي رجل الساعة من شدة انضباطه كان يلتقي على كوبري قصر النيل في التوقيت المحدد مع رجل الساعة الآخر نجيب محفوظ فكلاهما حدد ساعته لرياضة المشي ، فيلتقيان كل صباح عند نقطة منتصف الكوبري بالضبط ، ويلتقيان أيضا كل صباح على صفحات الأخبار عندما يقرأ نجيب للحمامصي مقاله اليومي دخان في الهواء» .

ويقول الحمامصي : و«لقد تابعني الأستاذ نجيب في معركتي مع البنك العربي الإفريقي الدولي عندما كنت أقول إن رئيس البنك أساء إلى اقتصاد مصر ، وأنه يجب أن يخرج ، وعندما حققت حملتي أهدافها وخرج قابلني نجيب محفوظ في هذه المرة في نقطة منتصف الكوبري ولم يتكلم إنما رفع أصبعه إلى السماء مشيرا إلى أن هذه إرادة الله . . . . وتحاول الزوجة أن تثنيه عن موعد مشواره الأخير . . لقد فرغ من غدائه وآن وقت المشي في نادي الجزيرة . . وتلح ويصمم ، فتصحبه إلى منتداه وممشاه ، حيث اعتاد أن يسارع إلى هناك كل يوم متريِّضا ومتأملا ، وبينما يسيران ويتحدثان تصله الدعوة فتلبي روحه في أوانها راضية مرضية» .

وإذا ما كان لجلال الحمامصي جانب من السياسة والصحافة معروف للجميع فله جانب من الإيمان بينه وبين ربه لم يلحظه سوى الراصدين . . ما مضى به فجر إلا وكان بين المصلين في مسجد الحسين، حيث يذهب يوميا من بيته بجاردن سيتي إلى الحسين سائرا على قدميه ليصل هناك قبل الفجر بثلث ساعة، وما يأتي عصر خاصة طوال رمضان إلا ويصليه بمسجد السيدة نفيسة ليمكث قارئا القرآن لا ينصرف إلا قبل آذان المغرب بدقائق . . كان إيمانه بالله قويا عميقا، وكان سره أنه كان يصلي كلما خرج لمعركة طاحنة مع المفسدين صلاة التسابيح في جوف الليل والناس نيام حتى صدق فيه القول الطاهر : عبيد . . ولكن الملوك عبيدهم! عبيد لله وحده . . فلم يول عليهم غيره . . أغناهم عن كافة عباده . . أخطأوا نعم، لكنهم استغفروا . . أذنبوا نعم . . ولكنهم تابوا ولهذا أحبهم ربهم! فالله يحب التوابين .

يمضي السؤال وراء السؤال على مدى ٦٠ عاما صحافة، وأكثر من ٢٠ كتابا في السياسة والصحافة أولها الكتاب الرائد حول جنوب الوادي عام ١٩٤٩، ماذا في السودان . . وتتوالى إجابات الصحفي التليد التي تملؤ مجلدات لا نستطيع أمام قلة حيلتنا سوى اختطاف الشهاب :

«والدي كان شاعرا وأديبا ومستشارا لأحمد شوقي الذي كانت بيننا معه صلة قرابة ونسب . . خالي متزوج ابنته . . وما من قصيدة أو مسرحية شعرية كتبها شوقي إلا وقرأها على مستشاره اللغوي كامل الحمامصي . . أبي . . وكان شوقي كمثال لا يشاهد مسرحيته مجنون ليلى إلا وبجواره أبي فإذا أراد أن يغير كلمة في بيت من الشعر فإنه لا يبدي رأيه للمخرج عزيز عيد أو أحمد علام وفاطمة رشدي قبل أن يُقر أبي هذا التغيير . . أنطون الجميل باشا رئيس تحرير جريدة الأهرام كانت له جلسات في مكتبه يحضرها الوزراء والأدباء والشعراء فكانوا إذا اختلفوا في شيء أو بشأن تفسير كلمة يلجأون لوالدي أو يطلبونه بالتليفون ليسألوه رأيه .

وكان ارتباطي بأمي مختلفا، كانت أشد من والدي تخاف أن تأخذني الصحافة عن دراستي بل كانت مصرة على امتناعي عن العمل الصحفي تماما . . عادتي في الكتابة مع الصباح أن أعمل فنجان قهوة وأخرج أمشي وخلال المشي تتكون خطوط

الموضوع وتطرأ جملة أو فكرة فأدونها في ورقة أحملها في جيبي . . فصلت من الصحافة لأن عبد الناصر لم تكن تعجبه مقالاتي وقال عني إنني ممرور أي مليء بالمرارة . . ما زلت أتمنى بعد الرحلة الطويلة أن أصدر صحيفة مثالية ، والمثالية الصحفية في رأيي هي الحقيقة المحبوسة .

أصدقائي ولله الحمد أكثر من الأعداء ، وعندما أصدرت كتاب حوار وراء الأسوار ناصبني الناصريون العداء بصورة مفزعة متصورين أن السادات هو من أوحى لي بالكتاب ، وهذا غير صحيح ولعله كان دافعا له لمهاجمتي في مجلس الشعب ، وعندما بدأت أكتب في عهد الرئيس السادات ضده آمنوا بأنني أكتب بوحي من ضميري وما أؤمن به فإذا ما كانوا أعداء فهم أعداء رأي . . . عندما كان علي أمين منفيا في الخارج وأراد أن يعود إلى مصر أرسل لي خطابا يطلب فيه ذلك وأردت أن أوصل الخطاب للسادات وكان في ذلك عملا إنسانيا فطلبت فوزي عبد الحافظ سكرتيره وقلت له إنني أريد مقابلة الرئيس ، ولما لم يرد طلبته مرة أخرى ، ولم يرد أيضا فتوقفت عن الاتصال ، وظل خطاب علي أمين في جيبي إلى أن عاد من لندن عن طريق اتصال آخر ، وما أريد أن أقوله إن من طبعي ألا أقترب من الزعامة لأنها تحرمني من حريتي في أن أنتقد ما أشاء ، وأضرب مثالا على ذلك أنني كنت من أقرب الصحفيين لعبد الناصر وكنت أحبه جدا وهو الذي اختارني لرئاسة تحرير الجمهورية وإنشاء وكالة أنباء الشرق الأوسط ، وعندما تقترب من شخص تحبه يجب أن تخلص له النصيحة ، وكان ناصر يستمع لي في البداية ثم تحول إلى شخص آخر ينفر من هذه النصيحة ويضيق بها ، وأنور السادات تجنبني لأنه كان يعلم عني هذه الطريقة في التعامل مع الحاكم . . عيب أنور السادات أنه صبور أكثر من اللازم ، وأن تنفيذ خططه يأخذ وقتا أطول من اللازم ولهذا ظل الناس طويلا غارقين في عدم الفهم . . . نعم كانت لي قصة حب وأنا لم أزل طالبا في كلية الهندسة ، وهل هناك إنسان ليس له قصة حب؟! كان هدفي أن أقيم حياة زوجية ، وصحيح هناك القول بأن الصحفي يتزوج الصحافة لكن إذا جاءت من تقبل أن تكون لها ضرة فلا مانع ، والإنسان إذا وقع في الحب لا تسأله لماذا أحب؟ ، ووقتها واجهتني أزمة شديدة فقد دخلت معترك الحياة السياسية والصحفية ، وهذا مما يقودني إلى المعتقل والحبس مسوقا للمجهول ، ومن هنا حكمت صوت العقل

وضغطت على قلبي وعواطفي فما ذنب تلك الإنسانة التي سأتزوجها، ومعظم أوقاتي في الحبس».

أستاذي. . جلال الدين. . سامحنا. . . سامحنا. . فقد خان معظمنا بنود الميثاق والقلم.

مهندس الصحافة. . إن القراء بالكلمات قد كفروا وبالكُتَّاب قد كفروا وبالصحافة والصحفيين وبالمانشيت والصفحة الأولى وصاحب العمود الرأسي وبالعرض وبالنقد وبالتصريحات والإعلان والنعي والكاريكاتير والصور قد كفروا. . . فلماذا القلم حين يخون لا يستل سكينا وينتحر؟! أمير الحرف. . صاحب القلم الذي لم يمسح الغبار عن أحذية القياصرة.

المغامر العنيد. . من كان يكتب بالسكين ويعلمنا كيف يكون الحرف سكينا. كيف نفجر في الكلمات ألغاما.

مرفوع القامة والهامة. . يا من أردت الحقيقة لا أكثر ولا أقل. . بلا إثارة. ورفضت المانشيت الأحمر، ورأيت أننا نسرق حق القارئ في أوراق صحيفته بالإسراف في ضخامة العناوين.

المحترم. . من اكتسب احترامه من استقلاله فلم يحسب على أحد وإنما حسب على قلمه وموقفه الشخصي.

الناقد. . بالمستند والدليل، الجريء. . في المواجهة

الصحفي. . بالموهبة والهواية والحرفة. . من رفع شعارا بأن الصحفي ملك الشعب، وأن الكتابة ليست أكل عيش، وأن الصحافة مهنة بلا أتعاب، وأنه من العار تحول حقوقنا إلى هبات، وأن حرية الصحفي أن يكتب لحريات الآخرين، وأنه في الصحف القومية حرية صحفيين وليس حرية صحافة، وأن أمانة الصحفي في أن يعبر عن ضمير الناس ويحفظ أسرارهم، وهي رأس المال الوحيد الذي يتضخم دوما مهما خوت الجيوب.

المعلم. . من كان يحب اختلاف تلامذته معه ولا يختلف هو معهم. . الصلب إلى حد العناد. . كنت تكتب وتنقد وتجد من يرد عليك. . الآن يا طويل البال

نحن نكتب وننقد ونكشف ونفضح ويتركنا المنقود نهَوْهْو في ساحة اللاجدوى ونعض في الأرض دون أن تمتد لنا يد ترفعنا من على الأَرض.

صاحب دخان في الهواء.. الذي أطلقته فوضحت الرؤية ولم يكن سحابة مريبة سوداء تخنق الأنفاس والرؤية.

أستاذ أخلاقيات الصحافة.. يا من أرضعتنا حليب التحدي ورددت في مسامعنا أن الكلمة الحقيقية هي الكلمة الناقدة، وإذا ما كان نزار قباني قد قالها بأن الكتابة عمل انقلابي فقد كنت أنت قائد كتيبة الانقلاب في الصحافة الذي ارتأى أن التصفيق قد يغرق بينما النقد يحذر من الوقوع في المطب.

المحارب.. مقاتل برتبة صحفي سلاحه القلم وقلمه السلاح.. من دخل الميدان متبوعا لا تابعا.. يسبح ضد التيار ولا يبالى.. يمارس الصحافة ليعلنها حربا لا هوادة فيها ولا مهادنة ضد المحتل الخارجي والفساد الداخلي.

المستقيم.. مثال للمثل القائل «امشي عدل يحتار عدوك فيك» ولقد عجز كل من حاول الهجوم عليك في أن يجد بقعة سوداء في ثوبك الناصع.

مهندس العبارة خريج العمارة من عهدته يمشي في ردهات الصحافة بأسلوبه الرياضي المشرق مرتديا قفازا طويلا أسود يحمي به أكمام دوق الصحافة من بقع حبر الطباعة المغموس فيها ليل نهار.. من ظل يمشي لنهاية المشوار لا يرى أو لا يريد أن يرى أن جلودنا قد أصبحت ميتة الإحساس، وأرواحنا تشكو من الإفلاس، وأيامنا تدور بين تقديم أوراق الالتماس والنعاس، وأننا أبدا لسنا خير أمة قد أخرجت للناس.. لكنه.. حتما رأى.. بدليل عنوان كتابه الأخير القربة المقطوعة، وبدليل قوله قبل النهاية: «ماليش نفس أكتب.. لا أشعر بأي رغبة في الكتابة ثم أضاف: اللي نبات فيه نصبح فيه!».

المعلم موسى صبري

جلست في الانتظار ساعة من وراء ساعة دون جدوى، بعدما علمت من موظف الاستقبال أن أستاذي موسى صبري سوف يهبط في نفس الفندق الذي أشغل إحدى غرفه لمدة شهور تبعا لعملي في مهمة بواشنطن. . قلت لروحي الفندق جديد ولم يفتتح رسميا بعد، والمطعم لم يزل في دور الإعداد أي خال من الوجبات، ومن هنا لن يجد الأستاذ ساعة وصوله لقمة ليتناولها حتى ظهر الغد مثل الدكتورة سمحة الخولي وزوجها اللذين قدما في طائرة الأمس، وكنت كمصرية من أبناء الوطن في استقبالهما بما يسد الرمق. . . ونظرا لأن المسألة قد خرجت عن أى تقدير لأعذار التأخير تبعا لمواعيد وصول الطائرات توجهت للمدخل في مهمة استطلاع، فعلمت أن الأستاذ موسى كان قد وصل بالفعل في الموعد المحدد.

وتمت عملية إنزال حقائبه على الرصيف وغادر العربة ومشى عشر خطوات متوجها للبوابة. وبعدها نقلوه سريعا لمستشفى واشنطن على نقالة في عربة إسعاف لإيقاف النزيف. . وجريت على المستشفى في الساعات الأولى من الصباح بعدما استدعيت ليلحق بي هناك الزميل الكاتب محمد حقي رئيس هيئة الاستعلامات فيما بعد، وكان وقتها مقيما مع أسرته في واشنطن منذ سنوات ويعمل في صندوق البنك الدولي. . وأخيرا عثرنا على الأستاذ موسى في العيادة الخارجية بعدما أجريت له عملية جراحية غاب فيها تحت تأثير المخدر لخياطة الجرح الغائر في الجبهة من جراء الاصطدام بتلك البوابة الزجاجية الشفافة الجديدة المخادعة التي عبر منها للداخل. . . لكنه لم يعبر!!

ونظرا لتوالي نفس نوعية الإصابة وبالذات لأكثر من مصري منهم فنان تشكيلي

معروف، ذكرت إدارة الفندق أنهم دون أي جنسية أخرى يندفعون في الدخول بذهن شارد، ومن هنا قامت الإدارة بلصق أسهم حمراء تشير إلى وجود الحاجز الزجاجي . . ومكث بيننا الأستاذ موسى أياما غنية بالترحيب به وتلقي الدعوات والمشاهدات واللقاءات والسهرات والتغيير على الجرح، وعندما طلب من حقي اصطحابنا في جولة لشراء بعض الهدايا والاحتياجات عثر ضيفنا على ضالته في حذاء أنيق يليق برئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير له شهرته الطنانة ومركزه المرموق لكنه عندما نظر إلى سعره ألقى به بعيدا وكأن عقربة قد لدغته في باطن قدمه . . ما لها الجزمة يا أستاذ موسى دي شيك خالص وعلى مقاسك وزي طلبك بلسان ورباط؟! . . إنت عارفة يا ست هانم ثمنها كام ١٠٠ دولار إنت شايفاني حرامي؟!! . . وابتلعت ريقي وأنا أراه يتوقف بعيدا لقياس جاكتة غاية في الأناقة والانضباط، يدير بطاقة ثمنها فيخلعها على عجل ويعلقها مكانها فيأتي محمد حقي ليشتريها . . ولأن عودة الأستاذ موسى كانت بطائرة الصباح استحلفته بأريحية أن يمد فترة إقامته بيننا يومين كمان، وانتظرت مساندة حقي في العزومة، لكنه ادعى الصمم والانشغال، فانتحيت به جانبا هامسة: مش كنت تعزم على الراجل من باب المجاملة يقعد له يومين كمان . . فكاد حقي الدمث الودود أن يزغدني قائلا بجدية: بقولك إيه خليه يسافر . . اخص عليك أما يا حقي مالكشي حق صحيح ده قمة في الظرف والتواضع والبساطة والتلقائية والحميمية رغم منصبه إلى جانب أنه علامة في بلدنا ومرجعا لأحداث تاريخية لا نظير له.

ما هو ده السبب بالذات اللي عايزينه يسافر علشانه . . إنت ناسيه ولا إيه إنه كان في وفد السادات لإسرائيل وهو اللي كتب له خطبة الكنيست، يعني ببساطة مهدد بالقتل والنسف في أي لحظة في الشارع أو في اللوكاندة اللي إنت فيها . . . وسقط قلبي في حذائي: الله يطمنك . . يسافر في ميعاده بألفين سلامة . . وسافر الأستاذ موسى والحمد لله بجرح جبهة لا غير، وذلك بسبب انشغال باله الدائم هنا وهناك بالصحافة والجرنال والتعليق والمانشيت والحملة الصحفية صباحًا ومساء، غداء وعشاء، ترفيها وجداً، سفرا وإقامة، موعدا وغراما.

ولن، أنسى قبلها بسنوات عندما ركبنا معا عربته - نصر الرمادية القديمة موديل ١٣٠٠هـ التي ظل يقودها بنفسه حتى بعد أن كان رئيسا للتحرير - نحن الأحبة الأربعة، أنا وزوجي المستقبلي الفنان كنعان في مقعد المؤخرة، وهو وزوجته المستقبلية أنجيل رياض زميلة الدراسة وحبيبة بيتنا ورفيقة العمل في قسم الأبحاث بأخبار اليوم في مقعد المقدمة، ويومها بعد يوم رومانسي قضيناه في مطعم خريستو بآخر شارع الهرم حرص فيه كل من الأستاذين على تزويد أطباقنا أنا وأنجيل بنصف جمبري أطباقهما بعد تقشيره لنا من باب الاعتناء والاهتمام والحب، وفجأة تركنا موسى صبري ليهبط هناك على مائدة حب بعيدة مندسة ما بين الشجر لمح عليها الفنانة شادية والراحل النجم الوسيم ضابط سلاح الفرسان السابق صلاح ذو الفقار، وعاد إلينا منتشيا بعد حصوله على سبق صحفي فحواه ارتباط زوجي قريب في الوسط الفني. . وفي طريق العودة بينما يشرح لنا قائدنا بيديه بعيدا عن الدركسيون وبين أصابعه السيجارة كيف استدرج أصحاب الخبر دخل بنا وسط ميدان باب الخلق في وسط الترومـاي ليتجمع حولنا الخلق ويهل حضرة العسكري. . ونشرت صحف الصباح الخبر وأنا اللي كنت قلت لمامتي إن كدمة ذراعي سببها ضلفة الباب وصدقتني، واطلعت العائلة لأول مرة على اتجاه مؤشر عواطفي من صفحة الحوادث بسبب دخول الأستاذ موسى يومها في الممنوع. . وعدت من واشنطن ليفاجئني الأستاذ موسى بمندوب من تحت الطائرة يستدعيني إليه مباشرة ليخبرني بأن الرئيس السادات في جلسته بالأمس مع رؤساء التحرير قد أبدى رأيه بأن أكون أحد كتاب يوميات الأهرام، وفي الصباح التالي استدعاني الأستاذ يوسف السباعي رئيس تحرير الأهرام وقتها، ليكرر لي اقتراح السادات، فشكرته ممتنة مفضلة مكاني يومها بكتابة عمودي الأسبوعي في صفحة الجمعة تحت عنواني الثابت «هو وهي».

اندفاع الأستاذ موسى كان يؤججه على الدوام. الاشتعال بدرجة دشليون فهرنهايت. العمل ١٨ ساعة يوميا. المسرف في غضبه والمسرف في رضاه. صاحب رحلة الحياة الصحفية الصاخبة المتوترة التي امتدت إلى أكثر من نصف قرن. النموذج لحالة التوتر الدائم إذا تحدث أو كتب أو همس. من عرف عنه أنه في

حوار واحد امتد لساعة تناول فيها خمسة فناجين قهوة وأشعل ١٢ سيجارة، وعقب نهاية الحوار قال لمحاوره: أظن أنني كنت بعيدا عن الانفعال.. موسى صبري الذي ولد بفطرته بالغ التطرف، إذا اقتنع بقضية دافع عنها أكثر من أصحابها.. الرجل المختلف الذي لا يختلف إثنان إلا وكان موسى ثالثهما. من كان في صداقته عنيفا وفي عداوته مستبدا، وفي الاثنين كثير النسيان، وكم انتقل من عداوة إلى صداقة والعكس كان أيضا صحيحا.. أمواجه جامحة تطل هادرة تصفع الشاطئ بزبد الغضب، فإذا ما نالت من خصمها انحنت حنونا تلثم أقدامه تغسلها بدموعها وتعود خجلى مخذولة منكسرة تلملم أطرافها تجاه الأغوار البعيدة، ولا يبقى من المعركة الصاخبة سوى الشاطئ المهجور الذي سالت عليه الدماء وانسكبت الدموع... ورغم الدموع ورغم الدماء لم يكن سهلا أن يكسب منه أحد معركة، فقد كان صاحب قلم بتار كالسيف، وصاحب حجة يصعب على الكثيرين دحضها، وصاحب قدرة خاصة على قول كل ما يريد أن يقوله، وفي خصومته لم يكن يعبأ كثيرا بالجراح ولا بالدماء.. المهم أن يكسب معركته تحت وهج الشمس وفي ضوء النهار.. وبعدها فمرحبا بالندم أو الاعتذار أو الانسحاب.

موسى صبري كامل شنودة سكر بسطوروس منقريوس منصور مليكة المعلم.. سابع جد اسمه المعلم من أنجب حفيدا أصبح معلم صحافة لتغني له صباح آه يا معلم يا معلم.. القبطي أبا عن جد ولكنه وللغرابة كاد أن يحذف كل هذا بجرة قلم ويعقد قرانه على فتاة مسلمة أراد أن يتزوجها على سنة الله ورسوله، وعندها هاجت الدنيا الصغيرة في مدينة الفشن القابعة في أقصى محافظة بني سويف وهددته أمه بالقطيعة، وتدخل أبو الفتاة، وباتفاق العائلتين اقتنع موسى بخطأ المسعى فتراجع عن ذلك المشروع.. الأم مسيحية تحب الكنيسة البروتستانتينية. بنت عز. اسمها في شهادة الميلاد برنسيسة والشهرة أم برنسة، ورفضت أن تكون أم موسى وفضلت أن تكون أم صبري، وحمل موسى الاسمين معا لإرضاء والدته. أبوه قبطي يردد في صلواته أسألك الستر ويبدأ تناول طعامه والأسرة من حوله بعبارة رب دمها نعمة واحفظها من الزوال.. الثالث بين ٨ أبناء منهم ٤ بنات و ٤

أولاد . . كان من بينهم مسيحي يعشق القرآن ويقول إنه قد استهواه ترتيل القرآن كثيرا من راديو خشب اشتراه أبوه بمبلغ ضخم في عام ١٩٢٨ ، وكانت أمه تنهره بقولها آدي آخرة لعبك مع ولاد المسلمين . . وفي رده على ذلك اشترى مصحفا وهو لم يتجاوز العاشرة فطلبت من أبيه معاقبته ولم يستجب لها ، وعندما وجدته في الرابعة عشرة يضع مصحفا تحت مخدته ـ كعادته حتى النهاية ـ وضعت إلى جوار المصحف إنجيلا ، وقبل موسى وقال : كله كلام ربنا . . وفي معتقل الزيتون طلب من جلال الدين الحمامصي مصحفا مفسرا واعترف : حفظت في المعتقل نصف القرآن . . كنت أقرأ في فترة الصباح ، وأحفظ وأجود في المساء . . وتعرف إلى الشيخ الباقوري ونقلا معًا إلى سجن ماقوسة في المنيا ، وازداد تعلقه بالقرآن بعد أن تعلق بالشيخ الباقوري الذي جلب له عديدا من المؤلفات الدينية الإسلامية ، وكان الشاهد على عقد زواجه بأنجيل في عام ١٩٥٨ في كنيسة مصر الجديدة ، كما كان الشاهد على عقد زواج ابنه الأكبر المهندس أشرف في كنيسة الجيزة عام ١٩٨٥ ، ويرجع موسى الفضل في تعمقه في فهم رسالة الإسلام لمعاشرته للباقوري وصهره فضيلة الشيخ عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر السابق وأحد أبطال ثورة ١٩١٩ .

ورفض موسى أن يعمِّد ولديه أشرف وأمجد بالماء المقدس لعدة سنوات ، وطلب إلى زوجته أن تتركهما بدون تعميد حتى لا تفرض عليهما الطقوس المسيحية ولهما الحق في اختيار الديانة عند الكبر . . ويسأل موسى ما رأيك في قيام الحزب المسيحى . . حزب الوحدة الوطنية؟ فيجيب : أنا لا أوافق على تأسيس حزب ديني وهذا رأي قاطع وغير قابل للمناقشة ، ولا يحق لأحد أن يكون حزبا دينيا ، وسوف أهاجم أي حزب ديني . . أي دين . . وأرجو إغلاق هذا الباب . باب إدخال الدين في السياسة لأنه شيء ضد الدين وضد السياسة ، فالدين علاقة بين العبد وربه .

المعلم . . موسى صبري من كان يحترم الموهبة ولا يغار منها بل يسعى إلى إبرازها ، ويحترم من يخالفه الرأى ، وأبدا لم يلحق أي أذى بمن يخالفه الرأي أو يضغط عليه ليحيد عنه ، وعقيدتي أنه كان يكن احتراما عميقا لمخالفيه في الرأي

الذين يثبتون على وجهة نظرهم، بل تلمح في لهجة حديثه إعجابا بالبعض من ذوي الصلابة وكأنه كان يتمنى أن يكون موضعهم. . المعلم أيام ما كان في الصحافة معلمين ومن بعدهم أصبحت هناك أزمة في المرجعية والمعلمين فمن يريد أن يتعلم صحافة الآن قولولي يتعلم على إيد مين؟! . . الفرز الأول راح ولم يعد موجودا إلا الفرز الثاني والثالث يا مولاي. . وإذا ما كانت صحافتنا لم تزل محتفظة بنكهة من طعمها الخاص، ومن مذاقها الخاص فإنما يرجع الفضل في ذلك لبقايا حقبة المعلمين التي كان موسى واحدا من ألمع نجومها الذين أعطوا المهنة ولاءهم كله، وعرقهم كله، بل أعمارهم كلها، فلم تتوزع قلوبهم هنا وهناك، ولم تتبدد جهودهم هنا وفي التليفزيون وعند الإخوة الأشقاء، وإنما كان كل الجهد، وكل الولاء والانتماء للبيت الكبير الذي نشأوا فيه صغارا، ثم انطلقوا يكبرون، ويترعرعون، ويصعدون السلم الصعب درجة من وراء درجة حتى جاء اليوم الذي جلسوا فيه على القمة؟! فمسيرتهم نحوها كانت واضحة، وخطاهم إليها كانت أشد وضوحا. . وكنت أظن وخدعني ظني بالأقوال المأثورة من أن فرسان الكلمة قال إيه لا يموتون وإنما فقط يغيبون بينما كلماتهم تبقى حية تنبض. . وقد خدعوني بقولهم هذا فعندما بحثت في جميع المكتبات على مؤلفات موسى صبري التي بلغت الثلاثين لأتزود بنبضها وأنا بين يدي تاريخه لم أجد كتابا واحدا منها للأسف في جميع المكتبات، حتى مكتبة أخبار اليوم ذاتها، وبعد تنقيب متفان عثرت على نسخة يتيمة على سور مكتبة الأزبكية المرتحلة في كل مكان من مذكراته التي أفنى حياته يصنع أحداثها على صفحات أيامه، وأمضى أعوامه الأربعة الأخيرة قبل رحيله يتذكرها، لتخرج بعنوان ٥٠ عاما في قطار الصحافة. . الكتاب الذي أمسكه قبل أن يموت ووضعه جانبا بابتسامة مريرة كتوهج المصباح قبل أن ينطفئ. . لقد كان صحفيا حتى في موته، فبعد أن اطمأن على أن كلامه قد تم طبعه وأنه كتب ما يريد ذهب ليستريح.

موسى أصغر خريج في كلية الحقوق الذي اضطر للانتظار عامين كاملين حتى يقيد اسمه في جدول المحامين، وكان أصغر رئيس تحرير في الصحافة المصرية عندما تولى رئاسة تحرير الجيل وعندما تولى رئاسة تحرير الأخبار وهو في بداية عقده الرابع كان أصغر من تولى المنصب الكبير بين عتاولة الصحافة وشيوخها.

موسى أول رئيس تحرير وأول رئيس مجلس إدارة لم يعترض على إعارة الصحف الحزبية المعارضة رؤساء تحريرها من بين محرري أخبار اليوم، وقد كانت جميع صحف المعارضة تطبع في أخبار اليوم التي تحتفظ بسرية كل كلمة يقومون بكتابتها: كانت الحجرة التي تجمع فيها الأهالي بجواري مباشرة، وفي نفس العدد تكون الشتائم قد وجهت لي ولا أسمح لنفسي بطلب بروفة للاطلاع عليها، وفي إحدى المرات تأخر صدور الأهالي وعلمت أن بعض العمال كانوا يريدون تأخيرها وتسببوا في ذلك بدافع نفسي فذهبت للمطبعة وسببت لهم أزمة هناك، وقمت بتأخير طبع الأخبار لتطبع الأهالي قبلها، وهذا ممايؤكد أنني أرغب في أن تصدر صحف المعارضة وتنتعش ـ وتكتب الأهالي عند وفاته أنه كان خصما شريفا عنيدا يكتب ما يؤمن به ويدافع عنه إلى النهاية دون خجل أو وجل، ورغم وزنه الصحفي والأدبي لم يرتزق ولم يتربح وظل كاتبا وصحفيا نزيها ومعلما لأجيال من الصحفيين ـ وخصومتي معهم كانت بسبب حملات التشهير الكاذبة، ومثال ذلك أثناء محاكمة عصمت السادات شقيق الرئيس الراحل، وكنت أرفض سواء في حياة السادات أو بعد رحيله مقابلة هذا الشخص، وأعتبره أحد الذين أساءوا للرئيس السادات. . كتبوا وقتها المانشيتات الحمراء بكلمات كبيرة محاكمة السادات يوم السبت. . هناك فرق. . هناك أنور السادات وعصمت السادات. . هكذا كانت الأمور تسير لكن الخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

موسى الفنان بدرجة صحفي من اخترع شخصية محفوظ عجب وقدم للسينما والتليفزيون الجبان والحب وكفاني يا قلب، والحب أيضا يموت، ودموع بلا خطايا ورحلة النسيان، ومسلسل دموع صاحبة الجلالة، وفي بداياته قام بالتمثيل مع عبد الرحمن الشرقاوى في رواية الريحاني كشكش بيه على مسرح الأزبكية، وحصل على الجائزة الأولى في الرسم بمدرسة أسيوط الثانوية وكانت لوحته لمحمد علي باشا. . كان عندما يترنم يردد شعر صلاح عبد الصبور، وعندما يفرح يبكي، وعندما يهيم عشقا يعيش عصر روميو وجولييت، وعندما يسمع فلعبد الوهاب وأم كلثوم، وعندما يموت تمنى أن يموت نائما وأن يكتب على قبره «ولد صحفيا ومات إنسانا». وعانى موسى الفقر في طفولته حتى اكتشف أن والده كان يرتدي

نفس البدلة أربع سنوات، وعندما يشتري للابن بدلة جديدة فإن مصيرها أن تقلب ويعاد تفصيلها، ولقد قلبت له أكثر من بدلة قديمة، وفي الليسانس كان حذاؤه قد تآكل تماما، ولم يكن من البد أن يرتدي حذاء خاله الذي توفي وترك حذاءه إرثا فتقرر أن يكون من حظ موسى، وعندما اشتكى من ضيقه أسكنت الوالدة روعه بأن الجلد سيرتخي مع الاستعمال. . لكنه لم يرتخ وظل يمشي به سنينا فوق الشوك بالأورام والآلام من شقتهم في حارة اليدين في الجيزة، ثم شارع المدارس حتى الجامعة. . ويكبر موسى. . ويعمل موسى ويشتهر موسى. . ويتزوج موسى. . ويظل من عرسه حتى رحيله يسكن شقته الصغيرة بالزمالك التي أنجب فيها أبناءه المهندس أشرف والمحاسب أمجد والدكتور أيمن المكونة من ثلاث حجرات ضيقة ليس بها مكتب، استعان فيها بالدكتور ميلاد حنا الصديق ليقفل له الشرفة حتى تصبح بمثابة حجرة صغيرة لأحد الأبناء، ولو شاء، ولو فتح الشباك من خلال موقعه لكانت له إحدى شقق الحراسة والكياسة والنخاسة. . ونحن نعرف زملاء أصغر منه بكثير حصلوا بصلاتهم وصولاتهم على وعلى وعلى. . كله.

ومضى طويل النفس في الصحافة قصير النفس في الحياة، فقد كان أكثر المدخنين في الوسط الصحفي. . مضى ليتمنى الخصوم من بعده خصومة وخصما واعيا ذكيا مثله. . مضى من التقى بالنقيضين. . المتطرفين في كراهيته والمتطرفين في حبه، وهكذا نحن على الدوام مشدودون على وتري التضاد. . يا إما أبيض يا أسود بلا مساحة في المنتصف لألوان الطيف السياسي. . بلا قدر أو قدرة للتعامل مع الآخر، وأكبر خطايانا وأمراضنا الاحتقان الشديد، وفي تفاوضنا على أي من الجانبين يالبيعة على بعضها ياكرسي في الكلوب، وحتى لو ظهرت بوادر مرونة على أي من الجانبين. . القضاة المدرسون العمال. . . إلخ. . يا ركوع وإذعان يا إما لأ. . يا كله يا يفتح الله. . أحبك موت أو أكرهك موت. . كله ضرب ضرب على رأي علاء ولي الدين مافيش شوية شتيمة!

وهناك في ذلك المستشفى الذي خاط له جرح جبينه في السبعينيات تشاء الأقدار وقسوتها أن يواجه موسى صبري مرضه العضال، ليعالجه نفس الطبيب الذي عالج

زوجته أنجيل، ويرقد في نفس الحجرة التي رآها فيها تتلقى علاجها من البعبع الذي سلبها منه وظل دهرا يخشاه لدرجة إيمانه بأنه حتما سيزوره يوما، ولذلك عندما داهمه كان قد قرأ عنه كل ما كان متاحا فأصبح يتابع غزوه متفهما عارفا بالمصير، ولكن أن يتعرف المريض على خطورة مرضه لهو بلا شك أمر بالغ القسوة، أما أن يعرف موعد النهاية فهنا قمم الزلزلة. . لقد وقف الطبيب المصفح أمام موسى صبري المتداعي في شهر يوليو ١٩٩٢، ليواجهه أمام ابنه المرافق الدكتور أيمن بأن أمامه ستة أشهر فقط. . ويعاتب الطبيب المصري الابن الطبيب الأمريكي الجلف على صراحته اللعينة، لكن الرجل يقذف بطوب الرد: نحن لا نخفي الحقائق مهما تكن مؤلمة على المريض، فهناك بلا شك تجهيزات وأوراق ومهام وترتيبات عليه القيام بها قبل المغادرة. . . وما كان من المريض المدخن إثر لحظة المواجهة إلا أن طلب من الابن إشعال سيجارته، فانبرى الطبيب ينصحه بالامتناع عن ذلك التدخين لأنه يؤثر على الرئتين بصورة تؤدي إلى التعجيل بالوفاة. . ويرد موسى من بين نفثات الدخان الرمادي المحبوس: وما الفارق بين ستة أشهر أو خمسة!! لقد أزفت الآزفة. . . وعادوا بموسى أشد ضمورا وأبلغ ألما وأقل حركة وأكثر تعاطيا للمسكنات، ويسألونه العودة للكتابة كنوع من قتل الوقت المقتول من الأصل فيأتي رده: «لو استطعت الكتابة الآن لكتبت تجربتي مع المورفين، فقد عرفت رغما عني معنى الإدمان وأوجاع المدمنين وأحسست بآلامهم لو تأخرت عنهم حقنة المورفين. . لا بد من حملة قومية لإنقاذ آلاف الضحايا، والمسألة أبدا ليست سهلة أن تقول للمدمن: امتنع عن المخدر. . لقد اجتزت الامتحان الصعب وأخذوا بالتدريج تقليل الجرعة حتى أصبحت حقنة ماء للإيحاء الكاذب. . المدمن لا ذنب له فهو ضحية مافيا المخدرات الشيطانية. . إحساس بشع أن تصبح عبد ا مسلوب الإرادة بلا حول ولا قوة».

في سنين التقاعد ولقاء المرض يعي موسى الفواصل بين الأجيال المختلفة التي أصبحت شاسعة يحذر موسى بأن من يستهين بشرف المهنة فهو يتهرب من المسئولية برص حروف ميتة خالية من النبض كأنها تكتب لقراء في سنغافورة لا في مصر، ومن لا يعقل هذا في هذه المرحلة المظلمة فهو يزيد الأجواء من حولنا ظلاما.

يؤكد موسى أن الكلمة سلاح قد يكون مبضع جراح يشفي الألم، وقد يكون نصلا مسموما يبتر ويمزق ويقوّض، واليد التي تمسك هذا السلاح مفسدة إذا لم تكن رشيدة واعية.

يخرج موسى من تجربة صحافة الخمسين عاما بأننا في مواقع مسئوليتنا عابرون لا مخلدون، نرعى الأمانة لنسلمها لا لنستأثر بها، فالعمل الصحفي وظيفة اجتماعية للتأثير والتطوير والإشعاع، لا إقطاع فردي للاستغلال والمتاجرة والميراث.

يستقطر موسى وعيه بأنه إذا ما كان جيلنا قد ضل السبيل فالأمل ألا يحذو جيل جديد حذونا فيأتي ليطهر آثامنا ويزيل آثارنا ويصحح أخطاءنا. . ولنا وله الله.

في أيامه الأخيرة وبين نوبات الألم الوعر يهمس موسى من بين أنفاس اللهاث لصديقه أحمد عباس صالح: ألم تر أن جيلنا يرحل سريعا. . الآن يا صديقي أفكر في أننا خدعنا جميعا خدعة كبيرة، وأن المتصارعين من أجل السلطة قد استخدمونا لمصالحهم أسوأ استخدام.

فكري أباظة

باشا الصحافة

ولا الدبان الأزرق حيعرف تاريخ مولدي . . السبب . . أن عمدة قرية كفر أبو شحاتة التابعة لمركز منيا القمح تقربا لوالد المولود لم يشأ كتابة اسمه في كشف المواليد تحسبا للمستقبل ليوفر على الأسرة مبلغ العشرين جنيها الضخمة قيمة بدل التقدم للتجنيد فيما بعد . . وظل الولد ساقط القيد يتدرج في التعليم من كتاب الشيخ جاد وزوجته الشيخة صابحة، ليخلع الجلابية ويلبس البدلة عندما يلتحق بمدرسة عابدين الابتدائية، ومنها للجيزة الابتدائية بعد انتقال الأسرة إلى مصر القديمة ليحصل محمد فكري حسين أباظة على الشهادة الابتدائية في يونيه ١٩٠٩ وهو في سن السادسة عشرة . . ظل في عداد اللاموجود حتى دخوله مدرسة السعيدية الثانوية عام ١٩٠٩، عندما أصر حضرة الناظر على أن تكون لكل تلميذ شهادة ميلاد . . فلما لم يستطع فكري جلبها تم فصله ليلجأ إلى عمه في الإسكندرية الذي توسط عند سعد زغلول وزير المعارف، فعاد للمدرسة بفضل تدخله ليزامل محمد التابعي ويحصلا على شهادة الكفاءة في يونيه ١٩١١، وبعدها البكالوريا في يونيه ١٩١٣ . وكان يذهب بالترام يوميا من مصر القديمة للجيزة، ويعترف بأنه طوال السنوات الأربع الدراسية لم يدفع مليما واحدا في الذهاب أو الإياب كنت من رواد سلم الترماي اليمين فإذا أطل الكمساري انتقلنا للشمال بين التلاميذ الذين يكون قد مر عليهم من قبل . . . وجاء اليوم الذي وقف فيه التلميذ نائبا في البرلمان وفارسا للمعارضة داخل الحزب الوطني ليقول سعد زغلول «الحق علي إني رجعتك المدرسة تاني» . . ويأتي عام ١٩٢٦، ليستدعيه

الزعيم مناديا: «يا حضرة السواق» . . وعندما يتعجب فكري من التسمية يطلق سعد زغلول ضحكته المجلجلة التي تبرز ملامح وجهه: نعم سواق! . . ألست سواق الزعماء»؟! . . ويعترض النائب الصغير ليقول في أسلوب احتجاج مكبوت: «أنا يا باشا؟ أنا أسوق الزعماء»؟!! فيرد سعد: «نعم أنت سواق الزعماء. . أنت تلهبنا بسوطك، وقلمك، ولسانك، مشنعا وكاتبا وخطيبا، كل أسبوع، ولا يعجبك العجب ولا الصيام في رجب! ولو كانت يدك في النار مثل أيدينا. . أو كنت في البحر حيث نحن لا على البر، لما سقت الزعماء، ولما ألهبتهم بسوطك وقلمك ولسانك». قال فكري أباظة: «أنا يا باشا لا أسوق الزعماء وإنما ألفت النظر. . ومهمة الذين ليست يدهم في النار، والذين على البر، أن يبلغوا الرسالة في إطارها المؤدب المهذب، وتلك هي حرية الرأي التي جاهدت في سبيلها ودعوتنا إليها». قال سعد: «نهايته. . أنت غلباوي كبير، اذهب إلى أمير الشعراء شوقي، وخذ منه القصيدة التي أعدها، واقرأها جيدا، واضبط نحوها وصرفها عليه، وتدرب على إلقائها مثنى وثلاث ورباع، لأنك ستقرأها في المؤتمر الائتلافي الأكبر ثم احضر إليّ لعمل البروفة» . . وألقى فكري أباظة بصوته الجهوري خطبته العصماء ليهتز سعد اهتزاز المعجب خاصة عندما زأر الخطيب بأقوى قصيدة سياسية لأمير الشعراء وردد البيت المشهور بها:

وجواهر التيجان ما لم تتخذ . . . من معدن الدستور غير صحاح

يكتب فكري أباظة واصفا بنفسه يوم ولادته لحظة أن أنجبته أمه هانم ابنة أحد أعيان ههيا التي عقد قرانها على والده هناك لينتقلا إلى منيا القمح على ظهر ذهبية في النيل. . ولد على يد الداية أم خضرة، التي صرخت عندما التقطت الوليد هابطا من الرحم: «يا مصيبتي الولد مش بني آدم. . الولد عفريت» . . وكانت الداية معذورة، فالشعر الكثيف يملؤ وجه الطفل الوليد. . غابة في وجهه أو وجه في غابة!! أدغال ذات اليمين وذات الشمال، على أن هذه كلها لم تكن المصيبة. . ولكن المصيبة أن الطفل الوليد لا ينوْنو ولا يصرخ. . ولا يبكي. واندلع الجزع والخوف في الدوار وتوافدت من القرى وفود المعزين لا المهنئين. . فاطمة خليل

تلدغ الطفل بإبرة فلا يتوجع ولا يبكي . . وتصيح الداية أم خضرة : ألم أقل لكم ده مش بني آدم ده عفريت؟!! . . وينمو العفريت عابرا زمن الولادة للفطام لا يعرف البكاء، وكان ترتيبه الرابع بين سبعة أشقاء، فؤاد مدير المعارض الملكية الحاصل على رتبة الباشوية ـ وعثمان وكيل وزارة المالية ـ وعبد المنعم الذي مات في السادسة عشرة ـ وبعدهم فكري، ثم شكري أباظة أول مدير مصري للمواصلات السلكية واللاسلكية ـ ثم لطفي وأصغرهم عزيزة زوجة حسن باشا رفعت وكيل وزارة الداخلية ـ وكان فكري فريسة لشقاوة أشقائه الكبار لتظل في جسمه طوال حياته آثار السحجات والخربشات والعاهات الصغيرة المزمنة . . لا يشكو ولا ينتقم . . لا ينعم بحنين خاص، أو عطف خاص، أو حب خاص، إلا أنه كان مجرد شيء لا بد من تربيته والسلام!

يكبر الطفل الذي لا يعرف الوجيعة ولا البكاء من نهاية القرن الـ ١٩ حتى عام ١٩٣٤ ، ليتعرف على الدموع لأول مرة عندما وقع في حب مطربة ذات تاريخ وشهرة وجاذبية . . وكان محاميا ونائبا، فبذل لها من عواطفه وإخلاصه كل ما يملك، وأنقذها من السجن والدمار وربح كل قضاياها ضد مليونير شاب أنكر بنوة ابنتها . . وبعدما استنزفت اللعوب كل خدماته واطمأنت على حاضرها ومستقبلها اكتشف خيانتها فأضافت حزنا جديدا لجراح قلبه الذي عشق ابنة عمه إسماعيل وتدخل المرض العضال ليأخذها منه فتموت عروس الأحلام بالسل ويشقى القلب بعدها في الاختيار ليظل فكري حتى وفاته أشهر عازب في مصر رغم إقدامه على خطبة ١٣ فتاة . . وعاد ليبكي مرة أخرى عندما جاءه خبر وفاة سعد زغلول في لبنان فأقام له مأتما يستقبل فيه المعزين، وكان يقول من بين دموعه : لقد تطاولت كثيرا على سعد في حياته فلأبرئن ذمتي ولأنصفه بعد مماته .

وتأخذ الدموع طريقها إلى المآقي في زمن الكبر . عندما يصل الحكيم إلى أرض الحكمة . عندما يتجمع الطرح في ثمرة، وتأتي خلاصة التجارب في اقتراح، ويضم السياسي الوطني خبرة العمر في وجهة نظر كان ولا بد وأن تؤخذ على محمل الجد والبحث والدراسة وإعادة النظر، لا أن يهاجم صاحبها العريق التليد

ليضرب في مقتل. فكري أباظة الذي شيعت جنازته في ١٤ فبراير من عام ١٩٧٩ تألم وبكى في ١٨ أغسطس من عام ١٩٦١، ليظل نهر الدموع المستتر يسيل على جدار النفس رغم الضحكة والحركة والمداعبة الظاهرية.. لقد حدث الشرخ.. انكسر قدس الأقداس في جوهر الشموخ بعدما اضطر الصرح للانحناء.. والكبرياء للتغاضي.. والأبي لطلب العفو.. والباشا للاعتذار.. طائر الصحافة الذي كان لا يستطيع أن يتنفس إلا نسائم الحرية كاملة في حياته الشخصية وحياته العامة وكل ما يكتب سقط مرة واحدة.. وقع.. في شباك صيادي الأقلام في مصر عندما كتب مقالا في عدد ١٨ أغسطس تحت عنوان الحالة «ج» هاجم فيه حكم الجنرال فرانكو في أسبانيا ووصفه ببساطة شديدة بأوصاف واقعية منها أنه حاكم ديكتاتوري طاغية متجبر، وأورد في مقاله تحذيرا من أن الحرب الباردة بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي يمكن أن تتحول إلى حرب ساخنة، ودعا إلى ضرورة الوحدة العربية، وقيام الدولة الفلسطينية، ونزع الصفة الدينية والعنصرية عن دولة إسرائيل، وأن تندمج إسرائيل مع الدول العربية في اتحاد.. وفتحت أبواب جهنم على فكري أباظة وحكم عليه بالإعدام المعنوي بعد أن منع من الكتابة نهائيا ورفع اسمه من على كل مطبوعات دار الهلال ومن على المصور تحديدا، وسمح له فقط بالخروج من بيته للتوجه فقط إلى مقهى الأنجلو، وكان قد جاوز التاسعة والستين من العمر، ونشر في اليوم التالي بالأهرام قرار فصل فكري أباظة من دار الهلال.. وبعد ٣٧ يوما من قرار الإعدام ـ الفصل ـ أبلغت مؤسسة دار الهلال بأنه قد سمح لفكري بمنحة الاعتذار ـ المهين ـ فمشى الرجل الكبير على خطى قدر أحمق الخطى إلى قصر عابدين ليكتب في دفتر التشريفات اعتذاره للرئيس عبد الناصر عن مقاله، ونشر له اعتذار آخر في الأهرام، ومن يعود لذلك الاعتذار يلمس بعينه ويرى بقلبه ويشق على نفسه نهر الدموع الأباظية الخفية، وكان عنوانه في العدد ٢٥ سبتمبر ١٩٦١، معركة بين «ضميري وقلبي» حيث بدأ سطور الوجيعة بما يلي: «كان الواجب أن أقدم هذا الإيضاح لصاحب الشأن أولا وهو سيادة الرئيس.. ولقد فعلت، والرجل العظيم الذي أعفا المحكوم عليهم بالإعدام من الإعدام، والذي أعفا الذين تآمروا على حياته من الأشغال الشاقة

المؤبدة، هذا الرجل لا يعز عليه أن يعفو عن فكري أباظة لا من الإعفاء وإنما من حيثيات الإعفاء إذا شاء الله، فشاء.. لا يمكن بحال أن يختفي قلم فكري أباظة في عهد جمال عبد الناصر».

وبعد الاعتذار بستة أشهر وتسعة عشر يوما سمح عبد الناصر لفكري أباظة أن يعود للكتابة في المصور في ١٦ أبريل ١٩٦٢. ويرحل جمال ويتولى الرئاسة أنور السادات الذي يصدر قرارا بتعيين الأستاذ أحمد بهاء الدين رئيسا لتحرير المصور ورئيسا لمجلس إدارة دار الهلال، وكان لا شيء يزعج بهاء بينه وبين نفسه في دار الهلال كلها سوى فكري أباظة فهو الصحفي والكاتب والمحامي وأحد أبرع من عرفتهم البرلمانات المصرية، وصاحب المواقف الوطنية الخالصة في كل أزمة واجهتها البلاد.. ويقول بهاء: «وإنه فوق هذا وذاك في مقام الأب بالنسبة لي، فاسمه مكتوب كرئيس تحرير المصور قبل أن أولد، وكنت أتصور أنه سوف ينزعج من وجود واحد في سن أولاده رئيسا له.. وكان الكثيرون يجدون لذة في التحكم فيمن كانوا أساتذتهم.. فمن حقه أن يتساءل بينه وبين نفسه عن هذا الشاب الذي سيكون رئيسا له على آخر الزمن.. وكما لا أعرفه فهو لا يعرفني.. وبعد أن باشرت عملي استشعرت فعلا هذا التخوف لديه وهو الرجل المعتد بكرامته إلى آخر الحدود، ومن اليوم الأول جاءني رسوله ينقل اقتراحه بأن يرفع اسمه كرئيس لتحرير المصور لأنني أنا رئيس التحرير، وأنه يكفيه أن يكون مستشارا للدار».. وكان الأستاذ فكري وهو فوق الثمانين قد تأثر بصره إلى حد كبير ولم يعد يباشر مهام رئاسة التحرير وإن بقي اسمه على المصور، ورفضت اقتراح الرسول قائلا: «إن اسم فكري أباظة كان أول اسم كرئيس تحرير للمصور، وقد أعطى من اسمه شهرة للمصور وهو باق في مكانه دائما، أما أنا فسوف أضع اسمي كرئيس تحرير تال لاسمه».. وتلاقينا بعدها مباشرة حول فنجان القهوة في حجرتي أو حجرته.. وليعذرني الزملاء إذا قلت إن وسطنا الصحفي لا يتميز بالأخلاقيات والمثاليات الرفيعة، ولكنني لم أر في حياتي رجلا في أخلاقيات ومثاليات فكري أباظة الباشا الذي تؤرقه أمور الوطن.. الباشا الذي يحتفظ بكرامته.. لم أسمع منه كلمة ذم في مخلوق حتى من أساءوا إليه، ولم أشعر أنه

كان له يوما هدف في هذه الدنيا منذ خرج إليها إلا الخدمة العامة كما يراها . . ويمضي أحمد بهاء الدين قائلا عن فكري أباظة : إن هناك شيئا فشلت فيه معه تماما ولا أغفر لنفسي هذا الفشل فقد حاولت بكل الوسائل أن أقنعه بكتابة مذكراته لكنه صمم على الصمت .

وذهبت بدوري أبحث عن مذكرات فكري أباظة فوجدت مقولات كثيرة وتعتيما أكثر ، حتى إن الفار لعب في «عبّي» واستشعرت أمورا خفية ، ولم أصدق ما قيل على لسان فكري أباظة نفسه فهو الكاتب الذي تكلم بصراحة بالغة عن طفولته وجولاته وصولاته . . لم أصدق أنه وهو الحريص على تدوين التاريخ وأحداثه يقدم على حرق مذكراته بدعوى أن نشر مذكرات محمد فريد من بعد وفاته قد أدت إلى غضب البعض منه . . لم أصدق أن كاتب تلك المذكرات يقدم طواعية على إعدام وثيقة إنسانية وتاريخية بالغة الأهمية والدلالة مما كان سيلقي الضوء على الكثير من الأحداث السياسية المهمة ، فنحن بإزاء رجل عاصر في مذكراته الحربين العالميتين . . الأولى والثانية وعايش وشارك في ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، وما بينهما ، وعاصر الحروب الكبرى ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، وعاش الحياة الحزبية ثم إلغاء الأحزاب ثم عودة ثانية في عهد السادات . . رجل كان تاريخا بأكمله . . كيف يُقْدِمُ التاريخ على حرق ذاته؟ ! ! !

وعرفت بالأمس أن ظنوني كان لها أساس من الصحة ، فالحقيقة التي توصلت إليها من أقرب الناس لفكري أباظة أنه بينما كان يقضي شهر أغسطس كعادته بالإسكندرية نزيلا في فندق البوريفاج تم دخول شقته في عمارة الإيموبيليا دونما كسر لباب أو شباك ـ الدخول النظيف ـ وتم قلب الشقة رأسا على عقب لتسرق المذكرات المهمة التي تحوي تفاصيل غاية في الأهمية ، هذا بينما ترك الجناة من آثارهم أعقابا للسجائر من ماركة «كنت» في كل مكان ! ! وسجائر «كنت» بالذات لا يدخنها حرامية الشقق العاديون ! ! ! ويطلعني محمد ناصر لطفي أباظة رئيس قطاع بالمقاولون العرب ابن شقيق الباشا على كم كبير من أوراق عمه المهمة يقوم حاليا على دراستها لتقدير قيمتها التاريخية . . ابن الشقيق الذي كان يعيش مع

الباشا حتى وفاته وهو الذي استقبل لجنة الضرائب العقارية التي قدمت بعد ثلاثة أيام لا غير لحصر التركة، فوقف مندوبوها مشدوهين غير مصدقين ما يرونه على الطبيعة من شقة متواضعة لا تضم سوى ثلاث حجرات وحمام صغير ومطبخ أصغر، ولم يكن هناك وقت بين الوفاة وقدومهم ليستطيع أحد إخفاء أو نقل أي شيء بعيدا عن المكان. . لم يصدق أحد أن الباشا الأباظي النائب الذائع الصيت الدكتور المعتذر عن قبول منصب الوزير ثلاث مرات رئيس التحرير على مدى ٤٢ عاما، ونقيب الصحفيين سنوات طوال ومن كان وراء بناء نقابة الصحفيين ودار الهلال، وأشهر المذيعين وصاحب المائة مؤلف موسيقي، ورئيس مجلس إدارة الأهرام ودار الهلال، وأول صحفي يحصل على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. نجم المسرح الذي قام بتمثيل مسرحية يوليوس قيصر وأحد الإعلاميين الستة الذين وجهت لهم الدعوة من هتلر ليحصل على ميدالية أوليمبياد ١٩٣٣، يضعها هتلر بيده على صدره. . و. . و. . لم يصدق أحد من مندوبي الضرائب أن صاحب هذا المجد كان في حياته يكتفي بتلك الإمكانات المتقشفة. . حتى إنه كان يجلس في الصالة أمام ترابيزة السفرة ليكتب مقالاته التي بلغ عددها خمسة آلاف مقال، وأن أشهى الأطباق إلى نفسه الجبن القريش مع عودين من «الكَبَر» كخضرة، وطبق المِرْتة، والحلو عسل وطحينة!!

فكري أباظة الضاحك الباكي الذي سأل صديقة حياته أم كلثوم عن رأيها في الفشل فأجابت: «الفشل؟. . الفشل؟. . الفشل؟. ـ على وزن القبلة القبلة في سلاّمة ـ الفشل نعمة من نعم الله! فسألها: كيف يكون؟ قالت: لقد فشلت في مستهل حياتي فحركت مرارة الفشل في نفسي قوة وروح التشفي والانتقام من الفشل، فقررت أن أنجح وأجدت، وأمعنت في الإجادة في مهنتي وفني اللذين استعضت بهما عن خيبتي في غيرهما، وهكذا ولَدَ الفشلُ النجاح!». . وعندما التقى أحمد رامي بفكرى أباظة سأله رامي عن حبه فأجابه فكري: «انتهى بالفشل. . قال رامي: أنت أحسن مني حالا. . حبي أنا ما إن بدأ حتى انتهى. ما كانت طليعته مواساة حتى تكون نهايته مأساة. . قال فكري: ولكن حبي أنا كان جامحا، فكيف أنساه؟ أجاب رامي: أيحق لك أن تشكو وتئن؟ حبك لا تراه ولا

تسمعه، أما أنا فأرى حبي مرسوما مصورا، ملصقا على كل حائط، في كل شارع وميدان. . أسمعه في كل لحظة. في الليل والنهار. منطلقا أخاذا. . قال فكري: وبعد يا صاحبي؟ . . قال رامي: أنت كاتب وأنا شاعر. فلنقنع بأن تكتب أنت قصة حبك وأن أنظم قصة حبي». وقد نفذ الصديقان ما تعاهدا عليه. . كتب فكري عن حبه في الضاحك الباكي وكتب رامي قصائده في أم كلثوم. . ولعله أوجز عاطفته عندما قال: تصغي لك الدنيا وأبكي أنا! وأوجز فكري أباظة رؤيته في الحب قائلا زجلا: قالوا لي بتحب؟ قلت بحب عقبالكم! الحب مش عيب وأنتم يا غجر مالكم!!

ويظل فكري أباظة محاميا لأم كلثوم وقف يدافع عنها في قضية عبد الستار هلال الذي رفع عليها قضية طاعة دون سند للزواج، وكان فكري هجوميا لم يُضِعْ وقته في طلب ما يثبت هذا الزواج الوهمي، بل انقلب على المدعي يهدده بأنه سيرفع عليه قضايا يطالب فيها بالتعويض الضخم، ويبدو أن هذا أخاف الرجل فانسحب من الدعوى والحياة العامة نهائيا. . واستمرت الصداقة جسرا من المودة مع أم كلثوم، وكان فكري أباظة وراء علاقتها بالنادي الأهلي حيث يعد أشهر المتحمسين له، ودعاها للغناء في العديد من مناسبات النادي، وفي عام ١٩٤٦، كانت تغني في حفلة العيد هناك، عندما حدثت جلبة كان سببها دخول الملك فاروق وكان وقتها شابا في السادسة والعشرين يتعاطف معه الشعب بعد حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، عندما أجبره الإنجليز بالقوة المسلحة على تعيين مصطفى النحاس رئيسا للوزراء. . وأذاع فكري أباظة الحفل وغنت أم كلثوم لتحول شطرا من الأغنية كلمات ترحيب بالملك الذي استقبلها بين الوصلات ليمنحها وسام الكمال.

الباشا المثقف الذي عرف قيمة الميديا الإعلامية بمختلف توجهاتها مقتنعا بأن الحديث الإذاعي للجماهير يساوي ألف مقال فأصبح أعظم مذيع عرفته مصر. . الصحفي الذي كانت رؤاه أن الكتابة لا بد وأن يكون لها وظيفة. . أن يكون الصحفي موقفا. . الكاتب الذي رأى أن الكتابة عمل انقلابي ضد الظلم والتخلف

والجهل . . صاحب الكلمة المدببة الناقدة وليست الكلمة المبططة في خضم الكلام الساكت السائد . . صاحب القلم الساخر ليس بكونه صاحب النكتة والقفشة والتدني ، لكنها السخرية الحبلى بالنقد الاجتماعي البناء . . في بابه التهكمي الساخر كتب فكري أباظة تحت عنوان يغيظني :

الحاتي الذي يأتي بالكباب بعد أن آكل الرغيف بالسلطة !

الطبيب الذي أستدعيه ليلا بالتليفون فيشترط أن أذهب لآخذه !

البوسطجي الذي يضع خطاباتي في صندوق بريد جاري . . وبالعكس !

العربجي الذي ينام على عربته ويترك حماره يمشي كما يشاء !

الخطيب الذي (يعزم) نفسه في بيت خطيبته يوميا !

الإنسان الذي يعرف كل ما يغيظني ويفعل كل ما يغيظني !

الذي يأتي من الريف لقضاء مصالحه هنا ، ولا يبيت إلا عندي !

العربجي الذي لا يقول لى (يمينك) إلا بعد أن يكسر يميني !

الذي يضرب لي موعدا في آخر البلد . . فإذا قابلته طلب مني سلفة !

الذي أصفق للجرسون لكي يقدم له ما يشاء . . فيطلب ساندوتشًا وجاتوهًا وحاجة ساقعة ويحبس بشاي !

الذي يقول لي (فلان ده إيه . . وإيه . . وابن . . .) فإذا قلت له (ليه؟) قال (لأنه تمللي بيشتم)!

الجارة التي تشحت كل شيء ولا ترده إلا بعد أن (يشحته أصحابه منها) !

الرجل الذي يذهب للتوفيق بين زوجين مطلقين . . فيتزوج المطلقة !

* * *

في مصرنا الطيبة التي تعطي أذنها للهتاف العالي والتصفيق المدوي والطبول

الزاعقـة وشلل شيلنى وأشـيلك . . في وسط الموجة الموضـة التي سـادت الفكر المسيطر على الثقافة فيما بعد الثورة. الفكر الاشتراكي المستورد الذي صدر لصدارة الساحة أسماء استمر لمعانها حتى وقتنا هذا بحكم قوة دفع الزقة والزفة الأولى . . في وسط تكاتف الرفاق قـام الاحتفاء النقدى بزفاف الرفاق إلى كوشـة الأفراح تصحبهم الدفوف والصاجات والصفحات والزغاريد والنقطة، بينما أسقط البعض من أصحاب القلم والفكر من قعر القفة أمثال إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي ومحمد عفيفي وعزيز أباظة وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل وفكري أباظة . . لأنهم لا ينتمون لهذا التيار السائد والمسيطر، هذا رغم ندرتهم وريادتهم وقيمتهم وتفردهم ليمكثوا في مناطق الظل والتجاهل والتجنيب والتعتيم النقدى طيلة سنوات عطائهم الجاد، وامتد الظلم والجور إلى ما بعد مماتهم أيضا، فلا الحياة أعطتهم ما يستحقون من حفاوة، ولا الموت أعاد الحقوق، حتى بعدما اتضحت الرؤية وانجلت السحب وخمدت العواصف وتبرأ الرفاق من أمهم ولعنوا أباهم الشمعي المسجى المكشوف للزيارة داخل السور . . ولكن رغم التعتيم والإيداع قسرا في الأدراج وعلى الرفوف وفي دوائر الإغفال والاستهبال ستظل شخصيات فكري أباظة المصرية الصميمة التي اخترعها وكتب بتوقيعاتها خلجاته ونقده وشموع ثقافاته . . ستظل حية بيننا تأتي على ذكر سيرته العطرة معنا وتترحم عليه . . عابر سبيل . . الجاسوسة الحسناء . . حلموس . . خالتي خضرة . . . . إلخ . . و . . الضاحك الباكي . . سيظل قول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته عن فكري أباظة من عرش البيان وردة على صدر الصحافة . . صحافة الباشا :

فكري أذقت القوم عفو بلاغة ... حتى جمعت من الزهور كتابا

تراه أرفع أن يقول دنية ... يوم الخصومة أو يخط سبابا

وسعوا للشناوي بك

كل شيء كان عنده كثيرا بالزيادة . . البدانة والفن والصحاب والجود والعشق والشعر والحضور والظرف والسهر والحزن والضحك والولاعات والكرافتات والإحباط والدمع . . وقليله كان النوم والمال والكتب . . مصطفى كامل سيد سيد أحمد الشناوي، ابن قرية نوسا البحر مركز أجا بمحافظة الدقهلية، رمز الأناقة أزهريا بالجبة والقفطان والعمامة، وبالبدلة أفنديا مطربشا . . كامل الشناوي أسطورة الشعر والصحافة الذي تجنبت في بداياتى الصحفية المرور أمام مكتبه في الدور الثاني بأخبار اليوم وأنا في طريقي إلى مكتب الفنان كنعان «زوج المستقبل» مؤثرة الدوران حول الكرة الأرضية عن طريق الأسانسير الرئيسى والمكتبة والأرشيف وأقسام التصوير مرورا بمكتب الفنان صاروخان حتى لا تقودني الخطى أمام حجرة مكتبه فأقع فيما لا تحمد عقباه من إحراجه أو إغرائه أو قذائفه الموجهة التي تستقر الواحدة منها مغلفة بتشنيعة تظل لاصقة مدى الدهر بمن تقع فوق رأسه، أو من نكتة منه تغدو قولا مأثورا ينتشر موجات على كل لسان كأنها أغنية من أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب . . هذا رغم أن الذي لم يعرفه عن قرب قد فاته الكثير من الحب والأدب . . رغم أنه هو الذي حمل أبناء جيل كامل من الموهوبين إلى مدار في السماء حول كوكب الصحافة فلا زهق ولا ملّ ولا امتن على أحد . . رغم أنه كان بهجة الليالي وخرافة السنين وآخر الظرفاء في مصر . . رغم أنني أحب كلامه في الحب الذي توجه بقوله: «يا حبيبتي حسبي من الوصل أني بالأماني ألقاك حينا فحينا» . . آثرت الدوران بعيدا خاصة وأنه كان يحب البسطرمة يقدمها لخلصائه على مائدة مكتبه العامرة، وأنا البسطرمة بالذات لا أستسيغها . . وكنت لا أجد سوى إيثار الهروب ملاذا من شهرته المدوية من أنه متقلب يحب ثم يكره ثم

يحب من جديد، ويصنع التمثال ثم يحطمه ويقف على أطلاله يئن ويذرف الدموع، ثم يجمع الأنقاض يبني بها ناطحة سحاب من العذاب الذي يؤججه بالاجترار ليشعل شموع إلهامه فيمضي في قصيدته يتعذب ويكذب ويغار، ويتحول من محب لكاره ومن النقيض للنقيض.. أحببته من بعيد لبعيد فقد سمعت أنه يزغزغ أصحابه بالسكاكين، وإذا تكلم جرح حتى لو قام بعدها بدور المداوي، وكان موجعا حتى ولو كان إثر الوجع مواسيا، وكان أصدقاؤه المقربون ضحايا مقالبه الحراقة... تناءيت عنه لاعتقاده أن الناس أربعة: «عالم يعرف أنه عالم وهذا حكيم فاتبعوه، وعالم يجهل أنه عالم وهذا نائم فأيقظوه، وجاهل يعرف أنه جاهل فاضربوه وعلموه، وجاهل يجهل أنه جاهل فهذا حمار فاركبو».. وكان كامل الشناوي مستعدا لركوب كل حمار وكل غبي وكل ثقيل دم وكل أحمق، ويجد متعة لا حد لها في هذا الركوب، وكان أعداؤه يكرهونه على طول الخط، وأصدقاؤه يحبونه على طول الخط لأنه كان إذا أحب يحب بلا قيد ولا شرط، وإذا كره فعلى المكروه السلام.. لقد كان مثل قائد الجيش في ساحات المعارك إذا قاد الهجوم دمر الهدف تماما ودك مفاصله وجميع حصونه وسواتره، وإذا انسحب مضى يجر ذيول اللامبالاة لا يلوي على شيء، وعلاقته بالأشخاص أن يكون الشخص إما فوق في الأعالي أو في الدرك الأسفل، فهو يعشق لامعي الذكاء يتحاور معهم، وأيضا مظلمي الغباء ليركبهم، وكم امتطى كامل من الأبرياء غير الأغبياء، لكن نظرته الخاصة كانت تدين البعض لصالحه!

المرهف الرومانسي الذي غنى أشعاره عبد الوهاب وفريد ونجاة وحليم.. الذي تنازل للحبيبة عن قلبه عن طيب خاطر: «إنها تحتل قلبي وتتصرف فيه كما لو كان بيتها تكنسه وتمسحه وتعيد ترتيب الأثاث وتقابل فيه كل الناس، وتهرب من شخص واحد، هذا الشخص هو صاحب البيت».. صاحب الشعر الرقيق الذي يضج بالهوى والجوى والخيانة، وبطل سيرة الحياة العجيبة التي تقلب في دروبها بين عوالم الصحافة وكواليس السياسة، وبدد معظم أيامها في تذوق مباهج الليل وارتشاف رحيق العشق العذري ـ فقد كان زعيما لطائفة عدم الإمكان ـ والهروب الدائب من مطاردات الأجل والوحدة والموت، وسار وحده شريدا محطم

الخطوات تهزه أنفاسه وتخيفه اللفتات، الذي مزق بعضه بعضا، والذي كان عندما يكلم حبيبته بالتليفون يسمعها بروحه ويصافحها بخياله ويراها بأذنه . . من نهر قلبه قائلا له : احتشم يا قلبي فالحب طيش وشباب، وأنت طيش فقط . الذي مشى باكيا ضمن خمسة فقط من المشيعين في جنازة المنفلوطي، فقد تدافعت الجماهير بعيدا إلى مستشفى الروضة بعد سماعهم خبر إصابة سعد زغلول بالرصاص عام ١٩٣٤ .

كل تلك الشفافية والشجن ورجع الصدى والحب والود والغفران لم تمنع كامل الشناوي منذ طفولته وصباه من المضي في ممارسة مكره ومقالبه الحراقة التي لم يسلم منها حتى شقيقه المعتز بالله الشناوي، الأخ غير الشقيق الذي ما إن تخرج محاميا حتى أعدت له الأسرة لافتة ضخمة كتب فوقها المحامي أمام المحكمة الشرعية فتسلل صاحبنا ليلا إليها ليزيل كلمة أمام ويكتب بدلا منها وراء، وظلت اللافتة أياما قبل انتباه المعتز لما جرى فيها، فذهب يشكو كامل أخاه إلى الوالد الصارم والقاضي الشرعي، لكنه نجا من العقاب عندما فسر تصرفه بأن محل إقامتهم كان بالفعل خلف المحكمة الشرعية وليس أمامها، وزعم أن هذا هو المعنى الذي يقصده . . وبعدما استقر الأب في القاهرة نائبا لرئيس المحكمة الشرعية العليا واختار لسكن أسرته مسكنا من طابقين في منطقة الأعيان بالسيدة زينب في جنينة ياميش، مخصصا غرفة في الطابق الأسفل لابنه الأكبر كامل للتفرغ للدراسة الثانوية في الأزهر الشريف، وكان للحجرة باب يفضي إلى الشارع تأتي منه شلة الصحاب ومن بينهم محمود المليجي وزكي طليمات والدكتور زكي سويدان وعلي إبراهيم وأحمد حسين وفتحي رضوان السياسي . . إلخ . . ويوما دخل والده الغرفة فوجده يلعب الورق مع أصدقائه، وجن جنون القاضي الشرعي الوقور، وبأعلى صوته وسخطه صاح : «بتلعبوا قمار . . وفي بيتي؟!!» وارتج كامل للمفاجأة لكنه سارع قائلا : «أبدا يا بابابا . . إحنا بنلعب بوكر»! وخفت صوت الوالد ليعاوده الحنان السابق : «إوعى يا ابني يكون قمار» . . وقال كامل : والله العظيم بوكر يا بابا . . ! ويعود كامل مع الفجر في ليالي السهر إلى المنزل فيشعر الأب بوقع أقدامه على السلم ـ وكان نومه خفيفا ـ فيخرج من غرفته ليجد كامل

أمامه الذي على الفور كان يتحول من صعود السلم إلى هبوطه، فيسأله: «على فين يا كامل»؟! فتأتي الإجابة حاضرة: «نازل يا بابا أصلي الفجر حاضر في مقام السيدة، فيقبله قائلا مبسملا: ربنا يفتح عليك يابني!».

ولعل في شخصية الدكتور لويس عوض الجادة ما كان يحفز كثيرا طلعات المقالب الشناوية عليه، خاصة وأن يكون مخلب القط فيها ساذجا لا دراية له بتغيرات المجتمع في فترة غيابه الطويل عنه بالسفر خارج مصر، مثلما كان المخرج محمد سالم مقيما لسنوات طويلة في هوليوود وعاد كالورقة البيضاء لا علم له بمن صال وجال ولا من عاش ومات، فانتهزها صاحب المقالب ليصنع معه المفارقة إزاء الرجل الجاد جدا لويس عوض، فشرح كامل الشناوي لمحمد سالم الظروف التعيسة التي يعيشها الدكتور لويس من أنه ممثل عظيم يجيد جميع الأدوار الصعبة، وأنه حاصل على الدكتوراه في الدراما، ولكنه اعتزل السينما والمسرح بسبب مضايقات المخرجين الذين كانوا يقاسمونه أجره والمنتجين الذين يأكلون حقوقه، ورجاه أن يحاول الاتصال به والإلحاح عليه في العودة إلى جمهوره العريض وفنه النادر، وأوصاه أن يجعلها لفتة كريمة منه شخصيا ولا يذكر سيرة كامل الشناوي - حتى لا ينكشف الملعوب - لأنه حساس للغاية ومناخيره في السما. . ويتصل المخرج محمد سالم بالدكتور لويس عوض تليفونيا ويعرض عليه العمل في التليفزيون بأجر مغر.

وإذا به يلعنه ويلعن جهله ويغلق التليفون في وجهه، ويعود محمد سالم يروي ما حدث لكامل الشناوي فيسأله: متى فاتحته في الموضوع؟ فيجيب سالم ببراءة: أمس. . فيرد كامل: له حق يا أخي وده وقت تكلمه فيه. . أنت مش عارف ولا إيه إن والدته اتوفت إمبارح. . ويعود المخرج محمد سالم للاتصال بالدكتور لويس عوض بعد فترة من الزمن ليقول له: يا لويس يا حبيبي أنا عارف إن شعور الفنان مرهف. . البقية في حياتك ومفيش بعد الأم. . لكن يا لويس لازم تتغلب على مشاعرك وآلامك ومتاعبك. . جمهورك بينتظرك يا لويس. . . . وكل هذا والدكتور لويس عوض لا يفهم شيئا عن الموضوع ولا يعرف من الذي يتصل به

ولا ماذا يريد بالضبط؟ فيثور في وجهه ثورة عارمة من خلال التليفون، ثم يغلقه في وجهه مهددا بإبلاغ البوليس إذا عاود الاتصال، ويعود محمد سالم ليخبر كامل الشناوي الذي ينفجر ضاحكا لتهتز كل ذرة من جبال الشحم.

كامل الشناوي الذي كان بسمة على ثغر الحياة، ولا تكاد الذكريات تفتح أوراق لياليه إلا وتقفز إلى الشفاه ابتسامة لنكتة قالها أو بيت شعر طريف قد رواه أو مقلب هيأه لبعض الصحاب، وكأن الله عندما خلق جبال الهموم فوق البسيطة شاء من لطفه بالعباد أن يجعل من البعض باقة موكلة بتبسيط الهموم إلى حد محوها ليزرعوا في أرضها ابتسامات وضحكات من القلب، وكان الألفة على الباقة الندية كامل الشناوى. . وإذا ما كانت شهرة الشاعر في حَبْك المقالب للصحاب قد جابت الآفاق، فقد كانت هناك من تنافسه في هذا الميدان وهي كوكب الشرق أم كلثوم التي أرادت أن تداعبه يوما عندما كانت هناك جلسة تجمعهما مع عبد الوهاب وتوفيق الحكيم ونجمة السينما الفاتنة كاميليا التي أحبها الشناوي إلى حد التدله، قالت أم كلثوم: «إنك يا كامل تتحيز لكاميليا صحفيا ولكن». . وهنا أراد الشناوي أن يقطع عليها الطريق قائلا: «نعم أنا متحيز لها». . وعادت أم كلثوم تكمل مداعبتها وتزيد من إحراجه فقالت له: «إذا كان هذا صحيحا فقل فيها شعرا»، وبادر عبد الوهاب قائلا: «وأنا مستعد أن ألحن هذا الشعر في الحال»، وقالت أم كلثوم وأنا سأغنيه فورا، ولم يجد كامل الشناوي مفرا من الانتحاء جانبا لينظم الأبيات التالية:

«لست أقوى على هواك ومالي أمل فيك. . فارفقي بخيالي
إن بعض الجمال يذهب قلبي عن ضلوعي. . فكيف كل الجمال»

ولحنها عبد الوهاب وغنتها أم كلثوم واستعادها الحاضرون حتى الصباح، ولأن كاميليا لم تكن تفهم العربية الفصحى جلس توفيق الحكيم بالقرب من أذنها ليتولى ترجمة الكلمات إليها بالفرنسية. . وقد عرف الشناوي أول حب قاهري في حياته وهو في مقتبل العشرينيات عندما وقع في هوى المحبوبة «س» ساكنة المعادي، التي ذهب إلى منزل خالها ليتلقى على يديه دروسا في الفرنسية، وهناك قابلها فانفتحت أمامه أبواب أصول الإتيكيت والسيمفونيات العالمية وخطوط الموضة

والحب، إلا أنه صارحها بأنه لم يفكر بعد في الزواج، وكانت المرة الوحيدة التي أقدم فيها عليه عام ١٩٤٥، بعد أن وقع اختياره على حفيدة شقيقة الكاتب الصحفي محمد التابعي ابن بلدته وزميل مرتع الطفولة والصبا وكانت لم تزل في السادسة عشر بينما هو في الخامسة والثلاثين يعمل رئيسا لتحرير آخر ساعة وقتها، ورغم موافقة أهل الفتاة رفض التابعي خالها، أسرع الأهل بتزويجها لغيره ليكتب فيها كامل الشناوي أبياتا جاء في شطر منها على لسان الحبيبة: لا تثر من حولي ضجة فلقد أصبحت زوجة.

ويضيف الشاعر مأمون الشناوي الشقيق الرشيق أن كامل قد أحب نور الهدى وفنانة في صالة بديعة تدعى روزأزوري شاركه التابعي في حبها. . ومن حبيبات كامل التي ودعته حتى المقبرة وبكت طوال مشهد سير الجنازة من مسجد عمر مكرم حتى المدافن الشاعرة لورا الأسيوطي، هذا وقد لفت أنظار الأصدقاء المقربين لكامل الشناوي بعدما نقل في صباح ممطر من شهر نوفمبر ١٩٦٥، إلى مستشفى الكاتب وهو في غيبوبة كاملة أنه لم يكن بجواره سوى شابة حسناء في الخامسة عشرة طالبة جامعية لم تترك يده الذاهلة من بين يديها الحانية، بينما دموعها تفصح عن مشاعر قلب بريء صغير قد هزته الفاجعة.

ويتساءلون عن موقف كامل الشناوي السياسي، فيجيب الكاتب الكبير أنيس منصور الذي يعد مرجعا في كامل الشناوي حيث يقول: «إن الشناوي اختار أن يكون عاشقا للسياسة وعاشقا للقضايا الإنسانية وأنه لم يكن له لون سياسي وإنما هو صديق للساسة، لهذا كان الثناء ينهال عليه من جميع الاتجاهات يقرظه أهل اليمين وأهل اليسار، الذين معه والذين ضده، الجميع يتعامل معه كقيمة عظيمة فوق كل الاتجاهات والميول والأحزاب، والسر أنه معجون بالمصرية المتسمة بالتسامح والمكر وسعة الصدر والحيلة المتمرسة على التعامل مع الطغاة والبغاة والغزاة والجبابرة بمنطق اللي ييجي علي ما يكسبشي دون أن يفقد توازنه أو يفرط في إيمانه بما يؤمن».

كامل الشناوي الذي كان مكتبه على الدوام منتدى لمشاهير رجال السياسة

والأحزاب من وقع عليه الاختيار عام ١٩٥١، ضمن ٢٠ صحفيا للإنعام عليهم بالرتب والألقاب، حيث أنعم عليه الملك فاروق بلقب بك . . ويومها ذهب إلى مقهى الأنجلو ليهتف بصوت عال وسع يا فندي أنت وهو لسعادة البيه . . البك الصحفي الذي كان بداية مشواره في مهنة البحث عن الهلاك والمرض والهموم في جريدة كوكب الشرق عام ١٩٣٠ . وبعدها اختاره الدكتور طه حسين للعمل معه في جريدة الوادي ثم محررا في الأهرام عام ١٩٣٥، وفي الوقت نفسه يكتب في آخر ساعة والاثنين والمصور، ويصبح رئيسا لتحرير الأخبار بعد صدورها عام ١٩٥٢ ، وفي تلك المراحل كتب بأسلوبه اللاذع أشهر المقالات التي هزت المجتمع مثل مقاله عن حادث ٤ فبراير، ومقال هاجم فيه معاهدة صدقي ـ بيفن ومقال عن حرية الرأي الذي هاجم فيه حكومة الوفد وانتصر عليها، وكان في دفاعه المجيد عن حرية الصحافة رائدا وشجاعا ضد مؤامرة الملك فاروق لتمرير تشريعات تقييد الحريات الصحفية عام ١٩٥٠، وتم قتل الأفاعي في جحورها، وعندما قامت الثورة لم يعد لمثل تلك الأمجاد الصحفية مجال ولا مكان، فقد اختفت المعارضة وتحولت الصحافة إلى جوقة تعزف نغما واحدا، وشاع عن كامل الشناوي استخدام لسانه اللاذع في ترويج النكات والشائعات عن رجال الثورة، وكان عبد الناصر يحيط نفسه بجهاز قوي للمخابرات برع فيه صلاح نصر لدرجة أنه كان يرصد النكات التي يطلقها كامل أو غيره في كافيتريا الهيلتون، وبالطبع لم تكن النكات والقفشات تروي في التقارير مثلما ألقيت في السهرات، وإنما كانت تضاف إليها المبالغات وأقوال ووقائع لم تحدث في الحقيقة، وقام أصدقاء كامل بتخويفه بعبارة «حتروح وراء الشمس، فآثر وقتها أن يركن للعزلة الليلية أسبوعا لكنه لم يطق صبرا على البعد عن الناس والمؤانسة واستلهام الجديد في الفن والحب والحياة، فعاد إلى ليالي السهر ولكن هذه المرة في كافيتريا نايت آند داي التي افتتحت في سميراميس لتمتد جلساته في بهو الفندق الأستيل العريق ومطعمه الفرنسي المسك يعوض بها مسلوقات الهيلتون الأمريكي . . وتظل الجفوة قائمة بين الشناوي ورجال الثورة إلى أن توسط البارزون في المجال الصحفي في إزالة الضباب حتى صفت الأجواء، ولأن الشناوي كان أكثر من يجيد الأحاديث الصحفية استجاب له عبد الناصر

وخصه وحده بأول حديث له في الصحافة العربية والأجنبية على مدى أربع ساعات متصلة تناول فيها الحوار الاتحاد القومي والوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في مصر، ومصير المعتقلين السياسيين، وتم نشر الحديث المهم في جريدة الجمهورية عام ١٩٥٦، جرنال الثورة الذي عين فيه كامل الشناوي رئيسا للتحرير، واستمر المبدع في سلك الصحافة التي امتدت إليها سيطرة الدولة، وبقي واحدا من أبرز الأقلام، إلا أنه كان في قرارة نفسه شاعرا بأن عصره يتوارى ويختفي ويذوي تدريجيا.

في حياته العريضة رغم سنواتها القصيرة ٥٧ سنة التقى كامل الشناوي بأهم الشخصيات التي صنعت وجدان مصر الثقافي والفني.. كان لها تلميذا وصديقا ونديما. أحمد شوقي الذي ضمه لصالونه الأدبي في كرمة ابن هانئ وكان يحلو له سماع قصائده بصوت كامل الباريتون المتهدج الفخيم، وكان موضع أسرار أستاذ الأجيال أحمد لطفى السيد الذي أسر له قبل الثورة في فندق سيسل بالإسكندرية بالصفقة التي عقدها عبود مع فاروق لإقالة وزارة الهلالي وتأليف وزارة برياسة حسين سري، وكيف أن الملك تقاضى من عبود نصف مليون جنيه، وأنه بعد كثرة قضايا العيب في الذات الملكية قد رأى القصر الإسراع بصدور الأوامر، بأن يساق إلى مستشفى المجاذيب كل من يتناول الذات الملكية بالعيب أو التجريح.. واقترح الشناوي يوما على الصديق توفيق الحكيم أن يقوم بتأليف دراسة عن آثاره يسميها «توفيق الحكيم بقلم توفيق الحكيم» لكن الأخير لم يتحمس للاقتراح واكتفى بقوله: «أقوم بذلك من بعد طه والعقاد». ويسأل كامل الشناوي العقاد: «هل أصيبت مي بالجنون؟». فيجيب العقاد: «هذا سؤال غاية في الصعوبة فلم تكن مي مجنونة لكن أعصابها انهارت نتيجة شعورها بالاضطهاد والوحدة وتنكر الأصدقاء».

تلك المحنة في هجر الصحاب عانى منها الشناوي من كان بتكوينه التاريخي غير قابل للانصهار في قالب فكتب في مأثوراته ساعات يقول: كلما ضاع مني صديق أبكي عليه كما لو كان قد فارق الحياة وأدفنه في قلبي، واليوم وضعت يدي على صدري فخيل لي أنه مقبرة تضم مئات من الأضرحة.

ويتساءل الكاتب الصحفي يوسف الشريف في مؤلفه الرائع كامل الشناوي آخر ظرفاء ذلك الزمان «هل كان كامل الشناوي صحفيا؟ . . هل كان أديبا؟ . . هل كان شاعرا؟ . . هل كان فنانا؟ . . هل كان فيلسوفا؟ . . هل كان مفكرا أو مؤرخا أو محدثا أو ظريفا؟». ويجيب الشريف بعد ملاصقة حميمة للظاهرة الثقافية الفريدة لمدة دامت أكثر من ثمانية أعوام بأن «كامل الشناوي كان كل ذلك في ذلك كله . . . . هذا بينما يحلل كامل الشناوي ذاته بالأرقام من واحد إلى عشرة فيعطي نفسه في الشجاعة ٦ ، وفي الصدق ٨ ، والخجل ٩ ، والغيرة ٧ . والغضب ٢ والأناقة ١ ، والشكل صفر ، والحب ١٠ » ، وتسأله أقدر المذيعات آمال فهمي ما الشيء الوحيد الذي جاملك فيه الزمن؟ فتأتي إجابته : «سواد شعري» . . فبالرغم من قوله في قصيدته عيد الميلاد وعلا الشيب مفرقي لكنه ظل يحتفظ بسواد شعره دون صبغة حتى النهاية رغم أنه كان يغسله يوميا بالكولونيا . . وربما كان كامل الشناوي أيضا يغسل بالكولونيا جيوبه الخاوية فقد كان كريما لحد السفه لتطارده متاعبه المالية فتغدو لازمة لحياته ، فهو الذي لم يمتنع يوما عن إقراض صديق أو زميل محتاج للعون ، وكان يدفع لكل من يشاركونه السهر ، ولا ينسى في الليالي التي يسهر فيها وهو رئيس تحرير أن يطلب العشاء لمن معه الذي قد يصل لشراء ١٠٠ سندويتش للزملاء وعمال المطبعة ، وهو الذي لم يعرف يوما كيف يحدد علاقته بالمال ولا إذا ما كان يكرهه أو كان يهواه ، فكلما عضه الإفلاس لجأ إلى حقن نفسه بمصل السلف حتى كان الصحفي الوحيد الذي مات مديونا للجمهورية وأخبار اليوم بسبب القروض ، حتى إنه كان يقبض راتب ٦ شهور مقدما ، وبينما كان غيره يحصلون على المال ويحددون إقامته في عمارة أو أرض أو سهم أو سند أو رصيد كان ابن الشناوي ما يكاد يلقي قبضته عليه حتى يطلق سراحه ليركض لا يسأله إلى أين ولا متى سيعود . . ؟ رجل بهذا الحجم الضخم الذي يعد منطقة الإشعاع الكاملة لم يترك لنا سوى القليل من الكتب الصغيرة النحيلة التي لا تشبع من جوع كلما استبد بنا الشوق والحنين إليه ، وكان في أمر الكتب من رأيه : هل هذا الذي أقوله يستحق أن أجمعه في كتاب ، إن الكتاب مسئولية لا يقوى على تحملها إلا قادر عليها أو جاهل بها ، وأنا لا أقوى عليها ، ولا أجهلها .

وبقيت تعبيراته نصطادها من الهواء. . مثلما قال عند لقاء النجمة الحسناء: إزيهم كلهم؟ فردت عليه: مين همه يا كامل بيه؟. . فقال: شعرك. . عينيك. . شفايفك. . صوابعك. . وقال إن الصيدليات ستقفل أبوابها لأن أغاني شادية علاج لكل الأمراض، وأن سلوى حجازي المذيعة بلغ من رقتها أنها كانت قبل أن تفتح درج مكتبها تستأذنه: تسمح لي أفتحك.

ولم تزل زلزلة كلماته الهادرة تهيب بنا تنشد الحرية في لحن لعبد الوهاب ظل محبوسا في أدراج الإذاعة حتى قيام الثورة. . أرضك الحرة غطاها الهوان وطغى الظلم عليها وعليك. . و كنت في صمتك مرغمًا، كنت في حبك مكرهًا، فتكلم، وتألم، وتعلم كيف تكره. . . !!

فتحي غانم

قلم لم ينصفه أحد

ذلك الصوت الآمر لم نكن نستطيع إزاءه إلا أن نطيع . . علي أمين توءم مصطفى أمين صاحبا أخبار اليوم، يستدعي الصحفي الجديد فتحي غانم عام ١٩٥٤ إلى مكتبه الرئاسي ليعهد إليه بكوم من المجلات النسائية الأجنبية قائلا : هه . . دوّر، لي فيها على مادة تصلح بعد تمصيرها لآخر ساعة مع التطوير لعمل أبواب جديدة . . أزياء وتجميل وطب ومشكلات صحية نسائية، وترجم لي من الفرنسية والإنجليزية قصصًا قصيرة لركاب الترام بين المحطات، ورد لي على رسائل القراء، وهات لي معاك شوية أخبار . . ولأن غانم كان هاويًا وغاويًا ومستقيلاً من عمله بإدارة التحقيقات بوزارة المعارف التربية والتعليم مع زملائه أحمد بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوي لصدور قانون نقابة الصحفيين بعدم الكتابة في الصحافة لغير المتفرغ للعمل الصحفي وحده .

لهذا تحول في العام الأول من حياته في شارع الصحافة من وكيل نيابة إلى أديب وطبيب ومترجم وكمساري ومصمم أزياء . . نجح في هذا كله لكن فشله كان ذريعا في جمع الأخبار في دار صحافة الخبر، ومثال ذلك أنه في نفس العام حين أطلق الرصاص على جمال عبد الناصر في المنشية بالإسكندرية، ولأن تعليمات الرقيب تحظر التصوير، استدعاه صاحب الصوت الآمر : ألست قصاصا؟ . . نريدك أن تذهب إلى بيت المتهم بالاعتداء على عبد الناصر في حي بولاق وتكتب لنا صورة قلمية لما تراه . . . . وراح فتحي غانم ووصف ما شاهده ببساطة ووضوح وواقعية : سلم في بيت قديم متآكل . حجرة بها سرير فوقه مفرش كاروهات . مشنة عيش .

ترابيزة خشب متواضعة. امرأة صغيرة السن تحمل طفلا رضيعا في عيونها ذهول وخوف شديدين ومن حولها أعداد ضخمة من رجال الأمن.

وهاجت الدنيا وماجت بعد أن نشرت تلك الصورة القلمية في الصفحة الأولى بأخبار اليوم، بل إن جمال عبد الناصر أشار إلى أن ما كتبه ذلك الصحفي قد أثار التعاطف البالغ مع المتهم... تلك التجربة أوضحت للكاتب أن الصورة الأدبية البسيطة إذا ما كتبت بصدق بالغ تستطيع احتواء مشاعر البشر ومصالحهم وأهوائهم.

وعاد الصوت الآمر يطلب من الصحفي الجديد الذهاب مع الزميلة الصحفية في آخر ساعة إيزيس فهمي إلى فندق مينا هاوس، لمعرفة صحة ما يقال من أن مصطفى النحاس زعيم الوفد قد لجأ إلى الفندق ليقيم به بعيدا عن بيت الأمة بعد إلقائه يمين الطلاق على زوجته زينب هانم الوكيل، والمطلوب معرفة كل ما يحيط بالموضوع من أدق التفاصيل، خاصة أن حزب الوفد وزعيمه بعد قيام الثورة كان مطاردا بعد قرارات تطهير الأحزاب.. في الحال ذهب فتحي وإيزيس إلى مينا هاوس لتنطلق الصحفية النشطة تسأل وتستقصي وتجمع شتات الأقوال. ووقف الصحفي التائه بعيون زائغة لا يعرف من أين يمسك الخيط، وعندما أسقط في يده توجه لصالون الحلاقة في المواجهة ليضيِّع الوقت في قص شعره وتلميع الحذاء.

وقبل أن ينتهي من الحلاقة كان الأسطى الحلاق قد حكى له كل شيء.. من زار النحاس وماذا أكل ومن اتصل به تليفونيا ومن قام بزيارته فور قدومه على عجل إلخ.. باختصار كل ما جرى.... بعدها وطوال عمل فتحي غانم بالصحافة على مدى ٤٠ عاما لم يجر سوى ثلاثة أحاديث صحفية لا غير، أولها مع الكاتب سومرست موم، والثاني مع الكاتب وليم فوكنر، والثالث في استوديوهات فوكس القرن العشرين في هوليوود مع نجمة الإغراء الأمريكية جين راسل التي كانوا يطلقون عليها لقب «الصدر الأعظم»، وكانت قد شاركت مارلين مونرو بطولة فيلم «البعض يفضلونها شقراء».. فوجئ بها غانم أنحف بكثير مما تخيل، وفي مكتب صاحب الشركة العالمية اليوناني الأصل سبيرو سكوراس شاركته الطعام

إلا أنها تظاهرت بالأكل من طبق صغير أمامها به بعض الخضروات، وكانت تتحدث لا عن الجمال والأنوثة وأسرارهما كما كان يرجو، وإنما عن دورها الاجتماعي والإنساني في المجتمع الأمريكي، واهتمامها برعاية الأطفال الفقراء اليتامى بصرف النظر عن لون بشرتهم أو جنسيتهم، وصرحت بالخبر المهم من أنها قد قررت أخيرا تبني طفلة ستعتبرها ابنة لها فكل الأطفال اليتامى أولادها!

في بداية عمله بآخر ساعة انضم إليه الدكتور رشاد رشدي ليعرض عليه أن يصدرا معا منشورا يدين ويرفض جيل الكتاب السابق عليهما بحجة أنه سرق وحده الأضواء لتظل دهرا حكرا عليه، حاجبا بأنانيته بزوغ أي كاتب من البراعم الجديدة، وأمثال هؤلاء الذين يقفون عثرة في طريق الجديد: إحسان عبد القدوس، ويوسف السباعي، ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهم.. وما إن نشر هذا البيان في آخر ساعة حتى قامت الدنيا ولم تقعد.. ويذكر فتحي غانم للكاتب الصحفي مصطفى عبد الله: «بصراحة.. ورّطني رشاد رشدي، وهاج يوسف السباعي لينشر ضدنا مقالا لا أنساه بعنوان ليز ولين القصة المصرية وكانت ليزولين راقصتين يهوديتين ترقصان كل ليلة في الأوبرج بالشمعدان.

وجاء ردي عليه مقالا بعنوان «التلميذ البليد يكتب في فوائد الجريد»!.. وقد كان يوسف السباعي يعرف رأيي في رواياته.. وكنت أصارحه بأن العلب الباهظة التي يضعها للتغليف من الأفيد أن تصبح علب شيكولاتة!! ولم أخفه أنني لم أستطع أن أكمل قراءة رواية واحدة له، ومع ذلك فقد اختارني يوسف السباعي رئيسا لأول وفد مصري يسافر إلى طشقند لحضور مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا، وكان معي سعد الدين وهبة ويوسف إدريس.. وقد حملني يوسف السباعي خطابا للسوفييت يحذرهم فيه من يوسف إدريس، وأعطيته لهم مغلقا دون أن أعرف محتواه».

فتحي غانم الوحيد بين الأدباء المشتغلين بالصحافة الذي طغى مجده الأدبي على مجده الصحفي، فهو الأديب بالسليقة، والصحفي بالدراسة الذي تحايل على الوظيفة والسياسة معا حتى يتحرر في أدبه من كل الضغوط والقيود ليظل في

مختلف مراحل حياته ينظر إليهما على أنهما عملان على الهامش وليسا من الأعمال الرئيسة، التي يمكن أن يشغل بهما نفسه ويعطيهما جهده الأساسي، الذي كان يدخره دائما لأدبه، وكانت رؤيته الدائمة أن الأدب فوق السياسة وأسمى منها مستشهدا بقول أنجلز: «لقد عرفت عن الثورة الفرنسية من قصة مدينتين لتشارلز ديكنز أكثر مما عرفته من عشرات المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الثورة». . ومن هنا وعلى مدى خمسة وأربعين عاما ظل فتحي غانم يعتبر الصحافة عملا هامشيا، ووسيلة لنشر إنتاجه الأدبي والفكري، وموردا أساسيا للشخصيات والموضوعات والصراعات التي صورها في رواياته المختلفة وأشهرها «رباعية الرجل الذي فقد ظله، وزينب والعرش والأفيال» أروع الأعمال الأدبية في ثقافتنا في القرن العشرين. . وإذا ما كان فتحي غانم قد وصل إلى مكانة رئيس تحرير الجمهورية وصباح الخير ووكالة أنباء الشرق الأوسط فذلك بفضل إنتاجه الأدبي، وأيضا لبعده عن الصراعات الصحفية الكبرى كما أنه لم يكن محسوبا على أي اتجاه سياسي كبير معروف فلم يكن من أهل اليمين ولا من أهل اليسار مما جعل البعض يعايره بعدم دخوله السجن بسبب موقفه السياسي المايع الذي ابتعد فيه عن بحر السياسة والغرق فيه وتوسيع علاقته به: «الكتابة بالنسبة لي في السياسة كانت واجبا صحفيا يفرضه علي منصب رئيس التحرير. . وأنا لست شيوعيا ولا رجعيا ولا يمين ولا يسار. . أنا فتحي غانم فقط. . ولقد تنبأ له الأستاذ محمد حسنين هيكل صديق الشباب في هذا المجال بعبارته ذات الشفافية التي رددها فتحي غانم: قال لي هيكل إنه سيكون طول عمره في الصفحة الأولى، أما أنا فسأكون طول عمري في الصفحة الأخيرة حيث النقد والأدب». . وعن كيفية وصول فتحي غانم إلى أعلى المناصب الصحفية فالإجابة الفورية، هي أن الثورة التي دجنت البعض لم تكن تثق في الحرس القديم من أمثال محمد التابعي ومصطفى وعلي أمين وأحمد الصاوي محمد وكامل الشناوى وجلال الدين الحمامصي وغيرهم. . وكانت تريد طاقما وعناصر جديدة تعتبرهم من أبنائها. . وإذا ما كان بعض الأدباء في حاجة إلى العمل بالصحافة لحاجتهم المادية فلم يكن فتحي غانم من هذا البعض نظرا لحالته الميسورة، وما لا يعرفه الكثيرون أن فتحي غانم ولد في شقة فوق مقهى ريش في العمارة التي يمتلكها

جده وكان والده من كبار رجال وزارة المعارف، وكان صديقا مقربا لنجوم الفكر والثقافة في مصر، وكانت تربطه بالعقاد صداقة حميمة حتى إنه ـ العقاد ـ قام بتأبينه بقصيدة ـ عثر عليها الناقد الكبير رجاء النقاش ـ أشار فيها إلى فتحي الذي لم يكن قد بلغ الثالثة عشرة بعد في عام ١٩٣٧ . يقول العقاد رائيا الصديق غانم:

أغانم إني في مصابك ذاهل ... قليل التعزي سافر الحزن مضمر

بذلت دموعي في بكاك رخيصة ... ومثلك من يُبكى ويُرثى ويذكر

أفي كل يوم تبصر العين غانما ... ومن أين؟ والأخلاق في الناس تندر

عرفت أبا فتحي تولاه ربه ... أخا في وغى الأيام لا يتقهقر

وفيًّا إذا شاع الوفاء وإنه ... عليه إذا عز الوفاء لا قدر

كريما إذا صال العداة وزمجروا ... كريما إذا خان العداة وقصروا

ويبدو حقيقة أن الصحافة لم تؤثر على إنتاج فتحي غانم الأدبي أكثر الروائيين إنتاجا وتأثيرا في الرواية العربية فله أكثر من تسعة عشر كتابا ما بين الرواية والقصة القصيرة التي منها الجبل وتلك الأيام ومن أين؟ والبحر والساخن والبارد والغبي وفى خلال ثلاث سنوات من عام ١٩٨٧ حتى عام ١٩٨٩ ، أصدرت له روايات الهلال وحدها ثلاث روايات هي بنت من شبرا وتو وروايته الأخيرة أحمد وداود التي يراها رجاء النقاش أكثر جفافا وأقلها تأثيرا.

ويأتيني العجب لكن سرعان ما يروح العجب مع المثل الشعبي الذي يقول: «إن القط يحب خنَّاقه» فكيف بالله والعمل الصحفي لا بد وأنه كان يسرق وقت فتحي غانم مهما يكن يسدي من معروف في الجمع بين الضرائر الصحافة والأدب والشطرنج. . كيف تفسروا ما رواه لي الأستاذ أحمد بهاء الدين حول استشارة أمين هويدي ـ وزير الإرشاد في ذلك الوقت ـ بشأن تعيين فتحي غانم رئيسا لوكالة أنباء الشرق الأوسط، فأتاه رد بهاء تلقائيا أن أديبا كبيرا له قيمته مثل فتحي غانم لا يمكن أن يوافق بحال من الأحوال على شغل أي منصب مهما يعظم يعطله عن مسيرة إبداعه، وعندما قام بهاء بنقل ذلك الحوار إلى فتحي غانم، كتحصيل حاصل فوجئ بثورته العارمة التي لامه فيها لوما شديدا لأنه لم يرجع إليه شخصيا قبل أن

يدلي برأيه . . وبعد أيام قليلة فوجئ بهاء بتولي فتحي غانم رئاسة الوكالة . . وعلى درب القط والخناق فقد قام الأديب الكبير فتحي غانم بترشيح نفسه نقيبا للصحفيين في فبراير ١٩٦٥ ، ليكتب بيانا يزكي فيه نفسه في أربع صفحات ممتلئة جاء في بعض سطورها : وإننا مطالبون بمهام محددة وعديدة منها النقد والتعليق وإفساح المجال لتبادل الرأي والمناقشة في جميع نواحي المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وما أكثر ما يشيعه مثيرو الشكوك من أعداء العمل السياسي ومن أعداء إرادة التغيير الاشتراكي - رغم قلتهم - بين العاملين في مهنة الصحافة . إنهم يشككون مثلا في مصير رجال الإعلان ، ويلقون في نفوسهم الفزع بلا مبرر حتى ينحصروا في التفكير في مصيرهم دون أن يؤدوا دورهم كاملا في العمل النقابي والسياسي . إن رجال الإعلان لهم أهميتهم الكبرى في جميع المؤسسات الصحفية ، والبحث في تنظيم حصولهم على العمولات أمر واجب حتى تصل إليهم جميعا حقوقهم كاملة بتوزيع عادل . . ولكن تنظيم الحصول على العمولة تحول عن سوء قصد عند مروجي الشائعات إلى مطالبة بإلغاء العمولة ! !

ويرد الكاتب الصحفي محمد جلال كشك ببيان عنوانه : «لهذا لن أنتخبه» يضم ستة بنود اعتراض بدايتها : لن أنتخب الأستاذ فتحي غانم لمنصب النقيب لأنني لم أره في النقابة إلا كمرشح لمنصب النقيب . . وتأتي النتائج بفوز حافظ إبراهيم نقيبا حاصلا على ٢٩٥ صوتا من ٤٨٦ صحفيا بينما فتحي غانم ٧٩ صوتا فقط ! !

أول علاقة لفتحي غانم مع الكلمات كانت في سن الخامسة حين أحضر له الوالد الشيخ محمد البدوي صديقه ليحفظه القرآن فاختار الشيخ بعض السور القصيرة ، ثم دخل مباشرة في سورة يوسف ﴿**الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ آلر كلمة لا تحمل معنى ، ولكنها وضعت أمامه بموسيقى تتجاوب معها النفس بصفاء وجداني من نوع خاص . . وبقي فتحي غانم يذكر حوارا دار بين والده والشيخ محمد حول سورة يوسف بالذات : كنت أجلس بجوار الشيخ وأبي واقف يتكلم من أعلى ويناقش الشيخ فيما إذا كان من الصح أن يشرح لي العلاقة بين يوسف

وامرأة العزيز بينما كنت أدرك أن هناك شيئا ما غامضا . . وتظل سورة يوسف في وجدانه ليظهر تأثيرها في غالبية أعماله الأدبية التي تبدأ عادة من ذروة أو أزمة ينسج منها شخصياته : هناك درس أخذته في الكتابة الدرامية من قراءتي للقرآن الكريم في سورة يوسف . . أتذكر دائما في سرد هذه القصة أنها كانت تنتقل من ذروة إلى ذروة مباشرة ، بمعنى أن القصة تبدأ بأن يوسف مطلوب منه أن يرحل مع إخوته وهناك شك حول هذه الرحلة ، وننتقل من هذا إلى وضعه في الجب ثم إخراجه من الجب ليدخل في قصر العزيز ، وننتقل إلى عملية إغراء امرأة العزيز له ، ومن هذا إلى وضعه في السجن ، ثم إلى خروجه بتفسيره للأحلام وعودته ثم انتقالا إلى المجاعة وقصة السنين السمان والعجاف . . وهناك انتقال مستمر من ذروة إلى ذروة ، وطبعا أنا لا أستطيع أو أجرؤ أن أفكر حتى في الاقتراب من ذلك لكني أتعلم منه على الأقل ، إنه يرشدني إلى أن أفضل الوسائل لتناول القصة مع القارئ هو أن تقدم له دائما الذروة ، أو خلاصة الأمر في لحظته الدرامية ، ذلك درس مستقر في أعماقي بشكل قوي وأعتقد أن له تأثيره . . . . . ودائما اسم يوسف عند فتحي غانم مسيطرا . . في الأفيال والساخن والبارد وفى الرجل الذي فقد ظله . . يوسف عبد الحميد . . السبب المباشر والرئيسي متعلق بقصة سيدنا يوسف التي أحبها منذ طفولة يحفظ فيها آيات القرآن تباعا . . ثم اسم جده يوسف فاسمه بالكامل محمد فتحي غانم يوسف دياب ، ثم تأثرا بتوفيق الحكيم في استخدامه لاسم محسن الذي أصبح من علاماته المميزة . . وقد يكون كسلا من الكاتب في البحث عن اسم جديد . . ولكنه في الأفيال قد اختاره متعمدا للتعبير عن نفسه شخصيا .

صاحب زينب والعرش الذي بدأ حياته كقارئ بإدمانه قراءة آرسين لوبين وشرلوك هولمز وآل كابوني ، ولما كبر انتقل إلى الفرسان الثلاثة وروبين هود وآنا كارنينا ، ثم قرأ مؤلفات كامل كيلاني ، ثم كبر علي كامل وأصبح يقرأ ألف ليلة وليلة . . . . عندما سئل عن جدوى التعليم الذي لا يمنع التعصب الديني والوقوع تحت السيطرة الفكرية ، أجاب ببساطة «أن التعليم في بلدنا لا علاقة له بالتربية الإنسانية التي تعلم كيف أكون إنسانا» ، ومن هنا أصبح الطالب مخلوقا قد يفهم

كتابا لكنه لا يعرف الحياة . . شباب لم يتعود أن يقول رأيا أو يحلل ظاهرة، وإنما فقط اعتاد أن يردد أحكاما مسبقة أو آراء للآخرين لأنها لن تكون مسئوليته وإنما مسئولية الآخرين . . يردد كسلا كي لا يضطر أن يعمل عقله ليكون رأيا خاصا به، ومن هنا كتب روايته الشهيرة الغبي . . الإنسان الخالي من أية تجربة . المخلوق المجوف الفاضي . الأبيض . . السهل برمجته على الهوى المراد ورسم مخه على المقاس المطلوب، وحقنه بما يعهد إليه بتنفيذه . . بالنسبة لنا أصبحنا نستريح لأن أحدا يفكر لنا ويريحنا من تلك العملية المضنية . . التفكير . . أصبحنا نتحرك كقطع الشطرنج . . مخلوقات مبرمجة تؤتمر بالشراء من هذا المكان، والأكل من هذا الدكان، والاستثمار في البنك الفلاني . . مظاهرات لتأييد سلطة ما نندفع فيها كالفوران . . لم نتعلم تعدد الآراء واحترام الرأي والرأي الآخر . . شيء ما يعطل التفكير الواضح في أية قضية من أساسها . . والسبب كمثال أننا أصبحنا نسأل هل أنت ناصري؟ . . ساداتي؟ . . ملكي؟ . . فمن يعلو صوته منهم أكثر ننضم إليه دون تفكير . . ومثال ذلك عندما أثيرت مشكلة الفوائد البنكية هل هي حلال أم حرام؟ واختلف رأي المفتي مع رأي شيخ الأزهر وهو مش عيب أبدا لأن اختلاف الفقهاء رحمة، وبدلا من أن نناقش صلب القضية وهل الفائدة ربا أم حلال؟ أصبح الموضوع هل أنت مع فريق شيخ الأزهر أم مع فريق المفتي؟ لقد تركوا القضية الأساسية واتجهوا للأشخاص . . الشخص وليس المبدأ! لم نتعود على اتخاذ القرار أو المشاركة فيه . . يوم فاجأنا عبد الناصر بتأميم القناة هللنا، وعندما فاجأنا السادات بزيارة القدس منا من رفض ومنا من هلل! ! . . . وكيف لا يكتب فتحي غانم مع كل هذا وأكثر منه رواية الغبي!

ولعله الكاتب الوحيد الذي ناقش قضية الختان في صلب إبداعه عندما أثارها في روايته «زينب والعرش»، التي تم فيها ختان زينب بطلة الرواية بعد صراع ورفض من الجدة التركية دودو هانم وإصرار من الأم خديجة ذات الأصول الريفية، ولكن قانون الأخلاق المزيفة كان هو الأعلى صوتا، ومشرط أم إسماعيل هو الذي وضع نقطة نهاية السطر الحزين . . وتم ختان زينب . ويحكي فتحي غانم عن زينب بعد ختانها بيوم قائلا : « لما رأت دودو هانم زينب منفرجة الساقين، منكسرة الرأس، طلبت

منها أن تتقدم إليها، ولكن زينب وقفت حائرة، وضحكت خديجة، وقالت إنها مكسوفة وكان السرور يلمع في عيني خديجة التي حاولت أن تنقل سرورها إلى حماتها فجعلت تقول لها إنها الخير والبركة في البيت، وأنها لم تفعل ما فعلت إلا ليقينها أن أنوثة زينب لن تكتمل إلا بالختان، وهي لن تتزوج تركيا ولكن زوجها سيكون مصريا، وهو لن يرضى بزوجة بغير ختان. وجعلت خديجة تثرثر بحكايات عن رجال اكتشفوا أن زوجاتهم بغير ختان فكانوا يطلقونهن، أو كما حدث لحكمت الألفي وهي من عائلة تركية تسكن في المنيرة فقد صمم زوجها على أن تجري لها أم إسماعيل عملية الختان وهي عروس جاوزت العشرين، فنزف منها دم غزير وكادت أن تموت، وهزت دودو هانم رأسها لكلام خديجة وقالت وهي تتنهد: إن زمن الرجال الذين كانوا رجالا قد ولى ولم يبق إلا الفلاحون!».

فتحي غانم اشترك الغير معه في كتابة زينب والعرش.. زوجته التي كتبت فصلا في روايته عن أحلامها، والكاتب صلاح حافظ الذي اشترك معه في كتابة سيناريو المسلسل للتليفزيون ولم يعلن للمشاهد عن أي من الكاتبين قد اختص بحلقة ما أو جزء ما فقد بقي الكاتب الحقيقي لأي من حلقات السيناريو وكلمات الحوار في منطقة الظل.. ودائما ما أثارت قضية الظل الكاتب الكبير منذ اللحظة التي كان يشاهد فيها تصوير بعض اللقطات في أحد أفلام عبد الحليم حافظ واستمع للمخرج يقول: «موت لي الظل هناك. اقتل الظل.. مش عايز ظل». فانشغل بهذه الفكرة.. فكرة فقدان الظل ومتى يفقد الإنسان ظله؟!.. وكيف؟! ومن هو الرجل الذي فقد ظله؟! والدلالة العميقة وراء ذلك.. وأن الإنسان يفقد ظله في حالتين: إما لأنه اختار لنفسه طريق الظلام، وحيث لا يوجد النور ينتفي الظل، أو أنه في النور ولكنه غير موجود فلا ظل له!!

وبعد.. لقد سار فتحي غانم على درب الشاعر إليوت في قوله إن الأدباء والكتاب يجلسون في غرفة واحدة، وكلما جاء كاتب جديد فإن الذي يحدث هو إضافة مقعد إلى نفس الغرفة، وبالنسبة لي فأنا كنت أريد أن أدخل غرفة الرواية، فدخلتها وأخذت فيها مقعدا.. عندما دخل غانم الغرفة لم يطرد الجالسين ولم

يحاول أن يسرق الأضواء بحركة أو لفظة لافتة أو الجلوس بالمقلوب . . لكنه سحب المقعد وجلس في هدوء . . الكاتب العملاق المؤمن بضعف الأقوياء الذين لا يقفون على أرض صلبة من الحقيقة ، وقوة الضعفاء الذين يتمسكون بالحقيقة ويدافعون عنها .

أهم روائي في مصر بعد نجيب محفوظ الذي قال عنه نجيب محفوظ إنه أهم الروائيين المصريين . . الذي جرؤ على أن يجمع بين أم كلثوم وطه حسين ويوسف وهبي ومختار ومحمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم وزكي طليمات في كتاب واحد أسماه الفن في حياتنا لم يكن جمْعُهم مصادفة وإنما لاعتقاده أن الصوت والصورة والنحت والكلمة كلها لها ينبوع واحد هو الإبداع البشري ، وهذا الإبداع في أي زمان ومكان بتجلياته المختلفة هو الثقافة سواء كان مصدرها حنجرة أم كلثوم أو أيام طه حسين أو ألحان عبد الوهاب أو حوار الحكيم أو كتل مختار . . المحقق الذي درس الفقه في كلية الحقوق فخرج منه بأن الإسلام يحترم الحوار والاجتهاد وتعدد الآراء في إطار المبادئ الثابتة : «لقد درست الفقه والشريعة الإسلامية على أيدي شيوخ أفاضل مثل الشيخ محمد أبوزهرة والشيخ على الخفيف ، ولم نكن نسمع عن رأي للإمام الشافعي إلا وجواره رأي آخر للإمام أبي حنيفة ، وثالث للإمام مالك وهكذا ، ثم آراء الأساتذة» . فتحي غانم لاعب الشطرنج عاشق مباريات الكرة ومسرحيات فؤاد المهندس وأفلام إسماعيل ياسين الذي يضحك على نفسه لأنه يتابعها . . الذي كتب في مجلة الفصول أول قصة له بعنوان «غليان الماء» وتركنا في غليان الدماء ! !

قف لـ: صلاح حافظ

عندما غزت الراحلة سميرة خاشقجي الساحة الصحفية بمجلتها المصقولة الشرقية في منتصف الثمانينيات، اقتطفت من ميدان الكفاءة الصحفية المصرية خيرة ثمارها، حتى إنها اتخذت من الكاتب الصحفي القدير صلاح حافظ مستشارا صحفيا لها، فلم يقتنع بانحصارها داخل دوائر المجلات الخليجية المخملية وماركات الساعات والبارفانات، فمنحها النفس الصحفي الجذاب، وضخ فيها موضوعات وتحقيقات ميدانية واجتماعية تجذب اهتمام القارئ العربي من الجنسين، ونفخ فيها من الروح المصرية الوثابة الحريفة مثلما نفخ الكاتب رجاء النقاش في مجلة الدوحة. . وبمناسبة تخرج العدد الأول من الشرقية في مدرسة صلاح حافظ الصحفية المعنية بالشكل والمضمون، ثالث مدرسة في تحديث الصحافة المصرية المعاصرة من بعد المدرسة الأولى لمحمد التابعي المهتمة بالرأي والتحليل الدقيق، والمدرسة الثانية لمصطفى وعلي أمين باهتمامها بالخبر الصاعق المثير الذي يتضخم بالعبارات الرشيقة المدربة حتى يتحول إلى أسطورة يستقي منها نجيب محفوظ بعض رواياته مثل اللص والكلاب. . بمناسبة المولودة الجديدة وفي فمها ملعقة الذهب وملك يمينها الفكر والأدب، أقامت سميرة حفلتها في قصرها بالزمالك وذهبنا كمدعوين نجلس في الحدائق الغناء حول موائد عامرة بلا حساب لتشدو لنا ضمن برنامج حاشد المطربة صباح في قمة أنوثتها وبضاضتها ودلالها المتوافق مع الشكل والمضمون. . وتنتهي الشحرورة من الغناء لتهبط توزع أوراق ورد أنوثتها على المعجبين، وتصل إلى دائرتنا فتزيد وتعيد بالهمس واللمس من ترحيبها بالذات بصلاح حافظ الأسمر الرزين الحكيم الدمث شديد العذوبة صاحب الابتسامة التي لا تغيب عنها شمس ولا يختفي عنها قمر في المحاق. . وقسمًا لو أن الجالس بين

رخات تدليلها من حجر صوان لما كان رد فعله إلا مشابها لمجاملة صلاح التي غلفها حذرا مراعيا عاملا ألف حساب وحساب للزوجة الرابضة بجواره هالة الحفناوي التي لم تستطع السيطرة على جماح عصبيتها طويلا، فاندفعت تغادر الحفل تاركة من خلفها في أجواء المساء الناعم أشواكا ورعودا، خاصة بعدما هرول في أعقابها الزوج العاشق المغلوب على أمره ململمًا مخلفاته من علبة السجائر والمفاتيح التي ساعدناه متعاطفين على جمعها، بعدما ودعنا من تحت نظارته بعينين مبتسمتين فيها مزيج من الإحراج والمرارة والسخرية وغرور الرجل المغار عليه.. عينان تكملان وقع ابتسامة شفتيه الدائمة التي لا تعني كلها سعادة!

مثل تلك الابتسامة كانت على وجه صلاح حافظ في أواخر السبعينيات عندما اجتمع السادات بعدد من الصحفيين ورؤساء التحرير والكتاب والإذاعيين ومجلس نقابة الصحفيين لتجديد ولاية رؤساء التحرير ورؤساء المؤسسات في استراحته بالقناطر الخيرية، وألقى السادات يومها بالقائمة التي منها إبراهيم نافع للأهرام ومكرم محمد أحمد للمصور وموسى صبري للأخبار، ثم توقف أثناء قوله بعدما رجع إلى الخلف في مقعده ليشعل تبغ البايب بعد تسليكه بتؤدة: ونأتي لروز اليوسف.. ما رأيك يا صلاح ـ صلاح حافظ ـ في ١٨ و ١٩ يناير.. ها.. انتفاضة شعبية يا صلاح ولا انتفاضة حرامية؟!.. وكان وراء السؤال خلفياته، فعندما خرجت المظاهرات احتجاجا على ارتفاع الأسعار يوم ١٧ يناير ١٩٧٧، واستعد وقتها السادات لترحيل أسرته إلى الخرطوم تخوفا على حياة أفرادها، وانتظر يراقب التطورات في استراحة أسوان.. أثناء تلك الأحداث اتخذت روز اليوسف برئاسة صلاح حافظ موقفا خاصا دافعت فيه عن المتظاهرين، بأنها انتفاضة شعبية وليس كما تقول السلطة انتفاضة حرامية، وبعدها اتخذ الرئيس السادات قرارا بتنحية المسئولين الثلاثة عن روز اليوسف عن عملهم وهم عبد الرحمن الشرقاوى رئيس المؤسسة، ورئيسا التحرير صلاح حافظ وفتحي غانم اللذان كانا قد استمرا في عملهما لمدة أربع سنوات كان فيها فتحي غانم يمثل الإستراتيجية وصلاح حافظ التكتيك، ونجحت روز اليوسف وقتها نجاحا فاق كل تصور.. دوّى سؤال السادات في القاعة وانتقلت الأنظار لصلاح حافظ لتفاجئهم

ابتسامته التي ترسم تعبيرا لا يعني كله سعادة وهو يشرح بلا تلعثم من جديد كيف أن هناك عوامل موضوعية أدت للانتفاضة، وأن دخول بعض العابثين في صفوفها لا يعنى أنها انتفاضة حرامية.. وابتسم السادات في المقابل قائلا: يعني يا صلاح الدوجما اللي في دماغك زي ما هي، طيب أنا كنت حاختارك رئيس تحرير لروز اليوسف.. خليك بقى المرة دي والسيد - يقصد عبد العزيز خميس رفيقه في قضية مقتل أمين عثمان - السيد سوف يكون رئيسا للتحرير.. وابتسم الجميع وترددت النكتة بأن صلاح حافظ قد رسب في الشفهي.

الكاتب الصحفي الروائي الأديب القصصي التليفزيونجي المبتسم دوما كانت الكاميرا سببا في سجنه خلف أسوار معتقل المحاريق في الوادي الجديد تاركا زوجته الأولى الممثلة «هدى زكي» وابنه شريف وابنته تحية ليغيب في بُعد الصحراء ثماني سنوات طوال.. كانت الكاميرا الآثمة من ماركة لوبي اشتراها له الرسام هبة عنايت بستة جنيهات ليمارس بعدستها هوايته في تسجيل والتقاط الوقائع والأحداث، أما علاقتها بالاعتقال فهي أن البوليس السياسي الذي لم تغفل عيون مراقبته لحظة واحدة عن تحركات وخلجات بطلنا صلاح، قرر مداهمة بيته يوما فلاحظ وضع تلك الكاميرا في مكان إستراتيجي فقام بالتحفظ عليها، وعندما فتحها عثر بداخلها على دليل الإدانة، وكان مجرد ورقة صغيرة مطوية عدة مرات كأوراق برشام الامتحانات مكتوبة بحروف غاية في الدقة تم وضعها بين الفيلم الخام بمقاس ١٢٠ الذي ينتج ١٢ صورة بمقاس ٦×٦ وبين شريط الورق الذي يلفه، وكانت الورقة المدانة مسودة لمنشور ثوري سوف يناقش في اجتماع مستوى قيادي لتنظيم «حدتو» الاسم الحركي المتداول سرا من الحروف الأولى لتنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني.. ولم تغب الابتسامة عندما أدخل صلاح لسجنه الانفرادي ولا بعد أن سمح له بمخالطة زملائه ليغني لهم أثناء قيامهم بالأعمال الثقيلة الوطأة كغسل الملابس والأطباق وتنقية الأرز.... إلخ.. وكان يصدر في السجن جريدته المسموعة التي أطلق عليها اسم حميدة قطة السجن التي تموء وتخدش كل مظهر سلبي وتقدم عروضا لغوية كاريكاتيرية ساخرة في فقرات يعلق فيها صلاح بدعاباته على خصومه في المنظمات السياسية الأخرى.. وهناك في تلك الحياة القاحلة كان

يتقبل السجن كأمر واقع كأنه سيعيش فيه أبدا، وأنه المكان الطبيعي للإنسان، وأبدا لم يشاهد مرة وعلى وجهه أية علامة للقلق، ولم يسأل مرة متبرما متى يحين وقت الإفراج؟! . . كان مشغولا بأعماله منشغلا بهموم الآخرين وليس لديه دقيقة تعد فائضا من الوقت، فالأعباء الملقاة على كاهله كثيرة وعليه وحده أن ينجزها، كتأليف رواية أو إخراج مسرحية أو الإعداد لحفل سمر أو إلقاء محاضرات أو علاج زملائه من المعتقلين أو الحرس الجنود. . وحدث أن جاء مأمور جديد صارم لا يتردد في البطش والقسوة بالمعتقلين ولكن. . بعد فترة ابتلع ولداه أقراصا كانت دواء مهدئا له تركها سهوا بجوار فراشه في البيت، فانهار الرجل وسارع يطلب معونة الأطباء المعتقلين، فراح صلاح حافظ وشريف حتاتة لإسعاف الطفلين، وبينما كانا يجريان الإسعافات الطبية كان المأمور يبكي ويتوسل إلى السماء قائلا: يارب. . انقذ لي ولو ولد واحد. . !. . فرد عليه صلاح: وواحد ليه. . ده ربنا كبير ينقذ الاتنين. . وتعجب المأمور من الرد ليقول: الله إنتم بتعرفوا ربنا زينا؟! وجاء رد صلاح: نعم. . ونعرفه أكثر منكم. . نعرفه بالتصرفات لا بالكلام. . وعندما عاد صلاح حافظ إلى الحرية ظل المأمور الذي أصبح لينا متفهما بعد حادثة إنقاذ طفليه ظل صديقا لصلاح حتى النهاية. . وفي معتقل الواحات من عام ١٩٥٤، حتى عام ١٩٦٢، بين الرمال والجفاف والأوامر والنواهي كتب صلاح رواية المتمردون وقدم مسرحيتي «الخبز والحل الأخير»، ورواية القطار وعشرات من القصص القصيرة التي نشر بعضها في مجموعتي «أيام القلق والولد الذي جعلنا لا ندفع».

خرج صلاح من السجن لتتسع مرارة ابتسامته بعد أن أصبح بلا قناعة في الانضمام إلى أي من التنظيمات الشيوعية، فقد كشفت له تجربة السجن مدى التمزق والانقسام في هذه المنظمات، وقرر أن يكون حرا يدافع بقلمه عن كل المظلومين في الأرض ويقول الحقيقة التي يشعر بها وجدانه. . ولم يسلم صلاح من هجوم اليمين ولا هجوم اليسار، فاليمين هاجمه وبضراوة لأنه في عيونهم شيوعي خطير ويساري مغامر وماركسي منذ مولده. . واليسار هاجمه وبشراسة أيضا لأنه في نظرهم يساري حكومي وماركسي مرتد ويساريته من قبيل الديكور والوجاهة السياسية. . وكما أخطأ اليسار أخطأ اليمين بالقدر نفسه، وكان ذلك دليلا على

صحة الطريق الذي اختاره صلاح لنفسه، وقال عنه معبرا عن مغزى وسر الهجوم عليه: قل ببساطة ما تشعر به، فتشارك بذلك وبدون قصد في دفع عجلة التاريخ. لا يهم موقعك من هذه العجلة.. لا يهم مستوى القضية التي أنت منشغل بها.. لا يهم أن تكون زعيما أو رئيس تحرير أو أديبا أو مجرد ريشة تصحح أخطاء الآخرين.. يكفي أن تؤدي مهمتك بإخلاص وحماسة، وأن تعبر عما في ضميرك دون زيف لكي يكون لك دور في صياغة المستقبل.. وعند سقوط الاشتراكية السوفيتية كتب في جريدة الأخبار في ٥ أكتوبر ١٩٩١، يقول بلا مواراة: «سقطت الاشتراكية السوفيتية سقوطا لم يكن بسبب حرب أو كارثة طبيعية أو مؤامرة عالمية، وإنما فشل النظام من داخله ومات بسلام.. ولا يمكن مهما نحاول أن نفسر ما جرى إلا بالتفسير الوحيد الصحيح، وهو أن النظام كان بطبيعته غير قابل للحياة، وأن بقاءه طوال سبعين عاما كان بأدوات غرف الإنعاش وبالمضخات وأنابيب الأكسجين والمنشطات الكيماوية، وإخفاء الأعراض وصور الأشعة ورسوم القلب والمخ عن أهل المريض الذي مات.. سقط لأنه كان نظاما ديكتاتوريا مطلقا ولم تكن لديه نوافذ يطل منها على واقع الحياة.. سقط لأنه كان يعيش طوال الوقت في بيت من المرايا لا يرى فيها غير نفسه وبالحجم الذي يبغيه وفي الضوء الذي يريد».

الفتى الفيومي الذي كان على وشك التخرج في كلية الطب مثل زملائه محمد يسري ويوسف إدريس ومصطفى محمود.. لكنه كان قد فتن بالعمل السياسي من ناحية، وأدركته حرفة الأدب والصحافة من ناحية أخرى، فأجهض بذلك حلم أبيه الفلاح المستنير الميسور الذي أتى خصيصا من الفيوم لزيارة الابن الضال ليقنعه أن يكمل تعليمه في كلية الطب لأن المدة الباقية له لا تزيد على ستة أشهر فقط لا غير، وجلس صلاح كالتلميذ المطيع أمام والده يبتسم مصغيا وكأنه يؤمن على صحة كل ما يقوله الأب المستاء، وينبري الصديق الكاتب سعد كامل في دفاع يقول فيه للوالد إن ابنه صلاح أصبح رجلا مشهورا، وهو من ألمع الصحفيين والكتاب في مصر والبلاد العربية، وأن نفوذه أكبر من نفوذ الوزير. ويقاطعه والد صلاح قائلا بنبرة قاطعة: «كل هذا لا يهمني، ولا يفرحني.. إن الذي يريحني أن يحصل صلاح على بكالوريوس الطب ليحقق حلم الأسرة».. فرد صلاح بأن إجراءات إعادة قيده

ستكون معقدة، أقلها أن يستخرج صحيفة جنائية، وأن تكون خالية من السوابق، وهو صاحب سابقة.. وكما ينبغي أن يعد شهادة حسن سير وسلوك، وهو ليس حسن السير ولا السلوك في رأي الحكومة.. ولم يتركهما والد صلاح إلا بعد وعد من الأصدقاء ببذل الجهد لإعادة صلاح لكلية الطب مرة أخرى.. ووعدوه خيرا لكنهم في الحقيقة لم يستطيعوا إقناعه لأنهم لم يكونوا في حد ذاتهم مقتنعين، فصلاح أصبح دوره أكبر من دور الطبيب التقليدي في المجتمع بعد أن ألهمته دراسته لعلوم الطب معنى آخر أروع وأسمى بأن يكون طبيبا للشعب كله، بعد أن اكتشف القانون الذي يوحد بين جسد الفرد وجسد الأمة والجسد الكوني بأكمله، ورأى أن الأمراض التي تسكن هذه الأجساد واحدة وكذلك علاجها واحد، وهكذا عاش صلاح طبيبا طوال حياته يعالج آلام الناس وآلام أمته، ويداوي جراحا طازجة ومزمنة بالمئات يحملها له بريده الصارخ كل صباح، ولم يمارس عمله العظيم هذا في عيادة أو مستشفى بل على أرض الطبيعة في الشوارع. في المصانع. في الحقول. في التجمعات، فقد كان يحلم بشفاء الجسد الأكبر.. جسد الأمة.

الكتابة الحلوة البسيطة الحافلة بالأفكار العميقة الحية التي قالت لي ولك «قف» عنوان افتتاحية بابه الشهير في مجلة آخر ساعة حيث أسعدني زماني بالجلوس إليهما معا يخططان صفحات العدد القادم.. صلاح حافظ ومنير كنعان.. كلاهما فنان وكلاهما صاحب صوت رخيم يغنيان في لحظات الانسجام دويتو لعبد الوهاب: الجوز الخيل والعربية على راسي يا هانم وعنيّه.. وتمضي أوقات التلاحم والمرح والغناء والابتكار لينهض توزيع آخر ساعة في عام ١٩٦٥، وحده من رقم لا يصل إلى عدد أصابع اليد الواحدة إلى أكثر من مائة ألف نسخة عندما كان صلاح في موقع رئيس التحرير، وفيليب جلاب مشرفا على الشئون العربية، ونعمان عاشور على القسم الثقافي.. لقد كان قديرا على أن يحيي أي صحيفة أو مجلة من بعد مواتها، عندما يعزف على خلايا محرريها فإذا بهم يهبون من سباتهم العميق ليملأوا الدنيا حيوية وشغبا وجدلا وحوارا مثلما فعل بعدها في عام ١٩٧٧، عندما نهض بروز اليوسف - التي يوافق مولده في ٢٧ أكتوبر ١٩٢٥، صدور عددها الأول - من منحدرها وهي توزع ٧ آلاف نسخة ليصل بتوزيعها إلى ١٥٠ ألفا..

وفي أول عهده بآخر ساعة توقفنا جميعا نطالع مقاله الافتتاحي حول حرية الوقوف مع المبادئ الذي كتب في مقدمته: دهش المسلمون منذ ثلاثة عشر قرنا عندما سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذات يوم: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، وكان لهم الحق في أن يدهشوا من مبدأ كهذا، وعبر أحدهم عن دهشته بقوله: «فهمنا أن ننصر أخانا مظلوما يا رسول الله، ولكن كيف ننظره ظالما؟! فكان جواب الرسول صلى الله عليه وسلم بأن تردوه عن الظلم».. وكأنما كان عليه الصلاة والسلام عندئذ يضع الأساس الفكري لما نسميه اليوم سياسة عدم الانحياز.. فعدم الانحياز في صميمه هو الوقوف مع الحق. هو عدم السماح لمؤثرات الصداقة أو المصلحة أو حتى الأخوة الدينية بأن تغيب أمام عيوننا موازين الحقيقة.. وللأسف فإن هناك خلطا في الفهم فالبعض فهمه بمعنى عدم الوقوف مع أحد وأن الناس جميعا خارج حدودنا أعداء.. والبعض الآخر فهم عدم الانحياز بمعنى توزيع الود بالعدل والقسط على الجميع، فإذا قلنا لموسكو صباح الخير وجب أن نقولها في اليوم نفسه وبالحرارة نفسها لواشنطن.. والبعض الثالث فهم عدم الانحياز بمعنى انتهازي خالص فهو عنده نوع من الفهلوة يتيح لنا أن نأخذ من الشرق والغرب بقدر ما نستطيع، والبعض الرابع فهم ـ أو أراد أن يفهم ـ عدم الانحياز بمعنى أن العالم مسرح ونحن المتفرجون، وليس مطلوبا منا إلا أن نقول برافو أو نقول إخص، وأتى عبد الناصر يتناول صيغة المعنى بإيجاز بقوله: «إن عدم الانحياز هو في صميمه الاحتفاظ بحرية الوقوف مع المبادئ».

صاحب الابتسامة التي لا تغيب.. بدأ مشواره العملي في الصحافة عام ١٩٤٨ بنشر قصصه القصيرة في جريدة المسائية التي رأسها كامل الشناوى بجوار نجوم جيله أنيس منصور ومصطفى محمود وحسن فؤاد، وانتقلوا منها جميعا لجريدة النداء التي يملكها ياسين سراج الدين الذي أسند رئاسة المجلة الجديدة القصة لصلاح حافظ، والتي اكتشفت على صفحاتها موهبة يوسف إدريس ونشرت أولى أعماله، ومن مجلة القصة إلى روز اليوسف، حيث تم خطفه إلى أخبار اليوم ليساهم في تأسيس جريدة الأخبار قبل اعتقاله بتهمة الشيوعية، ومن بعد آخر ساعة إلى روز اليوسف مرة أخرى ليتم عزله منها عام ١٩٧٧، ليتفرغ لزراعة حديقة منزله

بالجرجير والملوخية وكتابة سيناريو وحوار رواية فتحي غانم« زينب والعرش»، أروع وأنجح ما قدمه التليفزيون من مسلسلات تعكس وحدة إيقاع روح الفريق المتجانس . . الحلقات بالرقم الفردى يكتبها غانم والزوجي بقلم صلاح ولا تعلم أيها لأيهما، وكانت قدرة محمود مرسي في دور رئيس التحرير وكمال الشناوي الضابط والرقيب تؤكد أنه لا مجال لفصل مياه النهر الواحد المتدفق . . . . وكان يطيب لصاحب الابتسامة المعسلة العزف على العود ليغني مقاطع من أم كلثوم وفريد ووديع الصافي وفيروز، ويمارس هوايته السرية في الطهي رغم أنه لا يأكل كثيرا مثل أي طاه محترف لا يتناول سوى عينات يتذوقها، وربما يكون ذلك سر رشاقته، وفي مكتبته التي ضمت مئات من كتب السياسة والتراث والتاريخ والأدب والكمبيوتر ـ الذي أتقن الجلوس إليه مبكرا ـ والطب كانت هناك مساحة كبيرة لكتب الطهو جمعها من البلاد التي زارها، فقد كان من رأيه أن المطبخ مثل الموسيقى يكشف عن ذوق الشعوب . . وكان لا يميل إلى الشاي ويفضل القهوة السادة، وظل يدخن بشراهة حتى حرمه الأطباء من التدخين، ليظل أسابيع في حالة من الأسى يتساءل فيها كيف تكون الكتابة بلا تدخين؟ ! . . ويستغل صاحب الخبرة عبد القادر التلمساني المخرج والمنتج الجوهرة الكامنة في حنجرة صلاح فيعهد إليه بكتابة العديد من الأفلام التسجيلية والتعليق عليها بصوته المخملي فنستشعر بالمذيع المحنك الذي ضل طريقه إلى الصحافة . . صوت النغمة الصحيحة على طبلة الأذن المرهقة من الضجيج، حيث لا غلظة ولا سرسعة وإنما سلام سلام . . صوت لا بد وأن يستدعيك من غفلتك لا بعنوة إيقاظ، وإنما باستسلام الانقياد لتتفرغ كلية لسرده وتواريخه وشخوصه وأحداثه . . صوت مبتسم يحادثك عن كنوز البحر الأحمر وسفاري الصحراء والخط العربي وآثارنا الإسلامية وكأنه يردد قصائد الشعر . . وقد كان صلاح في أعماقه شاعرا وهو الذي كتب يوما إلى أنثاه قصيدة بعنوان إلى البحر :

أسـبـح فـي مـوجـك

أتـذوق مـلـحـك . .

ويـسـري في لـسـاني الـعـسـل !

حـــــفـــــيـــــفك يتنهـــــد في أذني

يســــــحــــــبني تحت الموج، لأتـنفس

وعــنـدمـــــا أصـل إلـى قـــــاعـك

أســــبح فــــوق ســــحــــاب الدنيـــا!

لكن الســحـــاب يتــبــدد، ويبـــقى مــوجك

مــلــحــك وعــــــــــــــســلــك

ودعـــــــوة إلى أن أتـذوق مـن جـــــديـد

طــعــم الــدنــيـــــــــــــــــا

الرقيق العذب الناكر لذاته الحريص كرئيس تحرير أن تكون مهمته الأولى هي أن يكتب كل المحررين، لا أن يكتب هو. . صاحب الكتاب الفريد عن الروتين بعنوان «يا مكاتب الحكومة» المترجم للتاريخ الجنسي للإنسان من الكهف إلى حبوب منع الحمل ومذكرات شارلي شابلن، من طارده نجاح كتابه الشهير انتصار الحياة حتى بات يضيق به، فبعد خروجه من المعتقل الذي أمضى فيه سنوات مع الشيوعيين بجميع فصائلهم، وبدأ مستأنفا كتاباته القصصية فوجئ بأن قراءه قد نسوه كأديب، وكلما ذكر اسمه أمامهم هتفوا في تلقائية أيوه. . أيوه! صلاح حافظ بتاع انتصار الحياة الأمر الذي آلمه تماما كما حدث ليحيى حقي مع درته «قنديل أم هاشم» وأسامة أنور عكاشة مع ليالي الحلمية. . وكتب صلاح في مقدمة إعادة طبع كتابه ردا على من سأله: «أنت صلاح حافظ بتاع انتصار الحياة؟ إذ قال: يا أخي أنا بتاع حاجات كثيرة من بينها هذا الباب». . صلاح خاطب في مقالاته على مدى تاريخه الصحفي الطويل الكثير من رجالات السياسة والفكر ناقدا ومؤيدا بأسلوبه المحلق بجناحي الأدب والصحافة، فعلى سبيل المثال كتب لرئيس الوزراء عاطف صدقي: «إنني أقدرك يا سيدي. . ويعجبني اتزانك، وحذرك، وحرصك على أن تُقَدّر لرجلك قبل الخطو موضعها، ولكنني أخشى أن يسبق الواقع سرعتك في اتخاذ القرار، وأن نفاجأ بعد كل قرار برد واحد هو: بعد إيه، بعد إيه، بعد إيه. . مع الاعتذار لعبد الحليم حافظ». وكتب في ٧ فبراير ١٩٩٠، عن حسب الله الكفراوي وزير

الإسكان والتعمير يقول عنه: «إنه أعف الناس يدا وأكثرهم إخلاصا وصدقا، وقضية حياته هي بالفعل أن يتيح سقفا لكل مواطن، والمدن الجديدة بالنسبة إليه معركة حياة أو موت، ولكنه لا يجد وقتا يراجع فيه شئون بيته ويكتشف الذين معه والذين ضده». وكتب عن محمد عبد القدوس: «لا أنصح محمداً بالعدول عن مغامرته في صياغة القصة الإسلامية الحديثة، فهذه أول مرة يحاول فيها أديب عربي أن يجعل الإسلام بطلا في دراما معاصرة، وأن يجعله هو الموضوع لا الخلفية التي تجري أمامها الأحداث، وإذا نجح محمد في تطوير هذه المحاولة وتمكن من إنتاج أدب ديني ناجح وقادر على البقاء ببلاغته الفنية والإنسانية وحدها، فإنه سيكون قد حقق ما لم يسبقه إليه أحد وسيكون أول كاتب يخدم في وقت واحد رسالة الأدب ورسالة الدين». وكتب عن موسى صبري: «كثيرا ما يدهش الناس عندما يجدونني أدافع عن موسى صبري، وذات يوم دهش أنور السادات عندما رأى موسى صبري ينبري أمامه للدفاع عني في اجتماع لمسئولي الصحف، قبل أن يجف مداد اشتباك صحفي بيننا سبق هذا الاجتماع بأسابيع قليلة، والحق أن أحدا لم يفهم موسى مثلي، فمشكلته بصرف النظر عن موهبته الصحفية الخارقة وذوقه الأدبي الرفيع أنه ولد بفطرته بالغ التطرف.. إذا اقتنع بقضية دافع عنها أكثر من أصحابها، ويستمر في الدفاع حتى ولو تنازلوا عنها، وإذا أراد أن يهاجم لم يقنع بغزو شارع أو بيت أو مزرعة، وإنما اتجه رأسا إلى قلعة مسلحة وشرع يطعن أسوارها بقلمه وبقلة حيلته.. أليست متعة أن تختلف مع إنسان ويظل يحبك، وأن تتشاجر معه علنا وتظل تحبه، وأن تشعر في قرارة نفسك أنه مخلص في رأيه مثلما أنت مخلص في رأيك، وأنكما في حقيقة الأمر تسعيان إلى الهدف نفسه: تسعيان إلى الحقيقة؟».

وكأنه يعيش يومنا هذا عندما كتب مقاله عن الصحافة المستقلة منذ ٢٥ عاما ليقول فيه: «ليس صحيحا ما يزعمه أقطاب الصحافة المستقلة من أنهم مجرد باعة أبرياء يقدمون للجمهور ما يطلب، فالواقع أنهم يُعَلّمون الجمهور أن يطلب ما لديهم، ولما كان ما لديهم فاسدا فإنهم يتولون إفساد الجمهور، وهذا الإفساد هو جوهر الفن الذي يفخرون به».

في أخرياته كان يموت شيئا فشيئا، وكان القلم الذي أطاعه صاغرا لسنوات طويلة خصبة متدفقة يعصاه ويستعصي عليه، فيلتفت مبتسما لمن حوله يشكو من أن أصبعه لا يطاوعه كأنه ليس أصبعه، وكان هذا العصيان من الأصبع والقلم من علامات المرض الخبيث الذي بلغ المخ الكبير.. وفي صباح الأربعاء الموافق ٦ أكتوبر ١٩٩١، جلس صلاح حافظ يكتب يوميات أخبار اليوم كعادته والتي كانت تتحدث عن ثلاثة موضوعات رئيسة: عن مؤتمر السلام، وأزمة الخليج، ومشكلة مواطن أرسل له خطابا من إحدى قرى مصر.. وفجأة سقط على الأرض لتجرى له جراحة عاجلة لاستئصال الورم من المخ، وتتحسن صحته فترة ليعود تدهورها فيسافر بقرار من الرئيس مبارك للسويد، حيث أعطوه علاجا مكثفا أدى إلى تفاقم حالته، لتكون آخر الابتسامات على شفتيه قبل استسلامه إلى لحظات الاحتضار عندما جلست شقيقته بجواره على السرير، فطلب منها الاقتراب منه وأخذ يسألها مبتسما محتفيا بأروع مشاعر الحنان الأخوي: «خلاص اصطلحتم كلكم مع بعض.. يعني خلاص محدش منكم زعلان من التاني».. عندها بكت الشقيقة تأثرا لتمتد أصابع صلاح تجفف دموعها: «دلوقت أنا بقيت كويس ما دام كلكم متصالحين.. خلاص أنا ماشي».. وأنزل صلاح قدمه من فوق السرير إلى الأرض ولم تمهله قواه ليعقبها بأخرى وسقطت ذراعه بجواره بعد أن فاضت روحه مستقبلا الموت بابتسامته الدمثة.. ومات صلاح حافظ مرتين.. الأولى بالسرطان، والثانية بإهمال إعادة طبع كتبه.. وهو الموت القريب من الاغتيال!

الضحكة الرايقة الراقية

محمد عفيفي

في الليلة الظلماء يفتقد البدر . . في هوجة مدعي الظُّرف غدونا نستوحش الظرفاء الحقيقيين. في خضم ادعاء خفة الدم رحنا في الرجلين. في انحسار عمالقة القلم الساخر طغت على السطح عشوائيات الاستظراف. في ندرة المثقف الساخر لا نجد على الساحة اللهم إلا ثلاثة . . أربعة لا غير، ومن كان يمتعنا بالأمس أصابت قلمه غلظة أو قرصة أذن أو سكتة أو انحسار أو انكسار أو تجريف أو تآكل في شواطئه . . في أوزان الظرفاء لم يعد لدينا سوى وزن الذبابة. في مستوى لغة الضحك سادت لغة القهاوي والحواري. في تشييعنا لجنازة النقد الساخر المثقف رفيع المستوى نقيم السرادقات الدائمة لتقبل العزاء في المازني والبشري والتونسي وفكري أباظة . . ومحمد عفيفي . . . في ميدان السهل الممتنع هبط الثقلاء على مراوحنا بالبراشوت ليكتموا الضحكة في الأعماق ويشنقوا البسمة على الشفاه، وحتى أسلوب الدغدغة المباشر لم يعد مجديا بعدما أصبحت الكواهل تنوء بالرزايا والهموم والنكدات والسرقات والخيبات والقوانين سابقة التجهيز، المسرعات عرضا المسنونات غصبا الممررات قهرا في أربع وعشرين ساعة لا غير . . وفي قدرتنا على الضحك أصبحنا نعجز عن الضحك، ويبدو أن الإنسان منا لا يصدق أنه عاجز عن فعل شيء كان يفعله فيما سبق، فالإمساك بالضحك أصبح من ضروب المستحيل، والمستحيل هو ضحك زمان من الأعماق، حيث لم نعد نصلح له بعدما صدأت الرئات وتكهربت الأجواء وتدنت الفكاهة، وأصبح الشيء الوحيد الذي نجيده هو اجترار ضحكات الماضي مع البعكوكة وأبو حلموس والريحاني وأم

سحلول وعلي الكسار، ونحن نائمون على السرير. . تلاشت البهجة التي تقوم عزائم أصحاب الضمائر وتبعد عنهم اليأس وتشعرهم بعذوبة الحياة ليدافعوا عنها بإصرار.

انهد حيل المحطات المريحة التي تقضي فيها وقتا هادئا لمواصلة السير. اندثرت لحظات الغبطة التي تختطف فيها من مرارة الواقع كي تنساه ولو لحظات لتشعر بقدر من الاسترخاء يساعدك على معاودة السير بهمة أكبر في طريق التوتر الذي نسير فيه جميعا.

ولكي تعاود الآن مسيرة الضحك لا بد من مجاراة هيافة الحداثة في عالم الاستظراف وتقبل ما أصبح من لا معقول الكلام مثل: مرة تنين خرافي بشنب قابل تنين خرافي من غير شنب قال له تعرف ترقص الزتونة ع اللمونة قال له إنت فاكرني قرد راح زق الكومودينو وأخد الشمسية وطار، وتعرف تقول لي الفرق ما بين البطة والوزة؟ الوزة كانت زمان بطة لكن الشيطان وزها، وليه الكتكوت ما بيعرفشي يكدب على الفرخة؟ عشان هي اللي فاقساه، وليه النملة بتقعد جنب البحر وهي بتقرا؟ علشان تبل إيدها كل ما تيجي تقلب الصفحة، وليه هريدي بيلبس عمة؟ عشان يعرف راسه من رجليه، وليه هريدي بيحط جنبه دودة لما ينام؟ عشان الدكتور قال له لازم تنام سبع ساعات معدودة.

من محاسن عصرنا أن وجد فيه محمد عفيفي فمثله من الكتاب قلة، وهذا أمر طبيعي فمتي كان أمثالهم كثرة في أي زمان ومكان. . محمد حسين عفيفي المولود في ٢٥ فبراير ١٩٢٢ في قرية الزوامل بمحافظة الشرقية الحاصل على ليسانس فلسفة عام ١٩٤٣ ودبلوم صحافة عام ١٩٤٥، صاحب السيارة الفورد النبيتي موديل ١٩٥١ الكالحة، التي كان يترك بابها مفتوحا لعل أحد لصوص السيارات يرثي لحالها فيضع فيها صدقة جارية شفقة بمظهرها وصاحبها الذي اتخذها مطية في كتاباته للمفارقة وأحيانا للسخرية من نفسه شخصيا، وكأنها المعادل الموضوعي لحمار توفيق الحكيم. . عفيفي من أطلق عليه محمود السعدني الساخر العظيم

والذي قد لا يعرفه الكثيرون، والكثيرون أيضا لم يقرأوا أعماله، فالعثور عليها يستلزم قارئا من طراز خاص أشبه بصياد اللآلئ يعرف كيف يغوص في الأعماق ليخرج ومعه درة فريدة من تلك الدرر التي كتبها عفيفي بابا أسبوعيا في مجلة آخر ساعة في الستينيات تحت عنوان «ابتسم من فضلك» وفي سبعة كتب تلاشت حتى من سور الأزبكية، آخرها رواية نشرت بعد وفاته ترانيم في ظل تمارا التي تضم تأملات رجل ينتظر الموت يحادث جميع الكائنات المحيطة به من طير وشجر ونسمات هواء.. الرواية التي منحها اسمها نجيب محفوظ أخلص أصدقاء عفيفي في شلة الحرافيش حيث تركها له أوراقا بلا عنوان بعدما لم يمهله المرض اللعين ليرحل في ٥ ديسمبر ١٩٨١، قبل أن يضمها في كتاب تحت أي مسمى.. مضى عفيفي هادئا راضيا متواضعا دون أن نقول له شكرا. قضي ولم يمنح تكريما. انطفأ ولم نوقد في ذكراه شمعة. منحنا عصارة القلم النفيس بينما لم يغره أبدا مال ولا منصب ولا جاه، ولم يضح بشيء، ذلك لأنه لم يطلبه أصلا ولا دخل شيء من ذلك في ساحة اهتماماته.

سنوات الصبا أمضيتها في أخبار اليوم في بدايات طريقي العملي تضمنا أنا وعفيفي الصديق الساحر الساخر حجرة واحدة ما يقرب من عشر سنوات.. أثرى وأمتع ساعات العمر أنصت له فيها يجلو بصيرة ثقافتي ويغسل كدر نفسي ويأخذني عبر الجدة والطرافة إلى رحلات كشفية شفهية، كان يسافر فيها وحده بحكم جنسه الرجولي. من تلك السفرات كانت رحلة الخميس من كل أسبوع التي يستهلها في الثامنة مساء بدخوله متعجلا من الباب ليرميني بنظرة زاجرة مشمئنطة رافضة وجودي في مثل هذا الوقت، فالنساء في عرفه لا بد وأن يهجعن في خدورهن بجوار بعولهن، وإن كان ولا بد من خروجهن للعمل فالكفاية ونهاية المطاف الواحدة ظهرا ليتسنى لهن الوقت الكافي للطبخ ولوازمه، ومع مضي المدة تربت لديه الألفة لرؤيتي عندما يأتي المساء حتى أصبح يقوم بمراسم التهيئة لسهرته الخارجية في المكتب وكأن لا أحد هناك سواه، وكأنني أنا والحيطة سواء.. كان يستهل الخطوات بطلب زجاجة بيبسي من البوفيه وما إن تحضر إليه حتى يوليني

ظهره بعدما يخرج أشياء من جيوبه ثم أسمع أصوات اصطكاك لأدراج المكتب في فتحها وغلقها وسوائل تسكب وأوان زجاجية تصلصل ثم صوت احتساء رشفات جرعات على مهل . . و بعدها تغلق الأدراج لتمر فترة صمت أرفع فيها عيني المتلصصة تجاهه فأجد السحنة المتجهمة المكفهرة قد تلاشت غضونها وتفتحت أساريرها وغدت سهلة منبسطة متسامحة شفاهها المزمومة المتزمنة أصبحت ممطوطة بشق عرضي تبلغ نهاياته الودود منابت الأذنين ليصنع مثلثا مع حاجبيه اللذين يرتفعان من المنتصف برقم الثمانية ليتركا للنظارة الطبية السميكة فرصة الانزلاق الفكاهي فوق أرنبة الأنف لتطل نظرة وادعة مترقرقة مترعة بدمع متحفز للانسكاب مدرارا من فرط الضحك أو شدة الكمد الدفين .

ساعتها . لحظتها أعي أن أبانا الغول ـ الطيب ـ قد تم تمشيط شعره ، وأن صديقي القنفذ البري قد تم استئناسه ، وأن الرافض لمشاركتي إياه المكان مرحب بوجودي ، وأنه قد آن أوان فيضان نهر العبقرية الساخرة التي لن أحظى للأسف منها سوى بالبدايات والقشور ، فمحمد عفيفي لم يكن يأتي مساء كل خميس للمكتب سوى للتأهب لسهرة الحرافيش الأسبوعية ، حيث يتصل بأعضائها واحدا تلو الآخر من تليفون مكتبنا الوحيد الذي تنازل لي بأريحية عن حيازته : «أيوه يا نجيب يا حبيبي أنا حافوت أجيب الساليزون وهات إنت الكباب وهات معاك عادل . . يا أحمد يا حبيبي رايحين عند توفيق . . أنا جاي يا توفيق يا حبيبي» .

وأستحلفه وأستميت في أن يصحبني مرة لسهرة معهم ـ نجيب محفوظ وأحمد مظهر وعادل كامل وتوفيق صالح وعفيفي ـ فينهرني بقوله : «إنها سهرة رجالي ممنوعة على النساء» . لكنها يا عفيفي تقام في بيت أحدكم كما أسمعك في التليفون وكلكم متزوجون؟! . . أيوه لكن مهمة الزوجات فقط إعداد لزوم القعدة والطعام ثم يغادرننا إلى جناح الحريم . . طيب والثرثرة على النيل؟! . . لا أحب لك يا بنت الناس المشاركة فيها حتى ولو من بعيد . . طيب احكي لي . . عن حبيبك نجيب وحبيبك مظهر وضيوف الحرافيش ، وتنحل عقدة لسان أسرار عفيفي بعدما اصطكت أدراج مكتبه بأكوابها وزجاجاتها ليقول ويقول ويقول لأعرف وأعرف

وأعرف وأكتم وأقسم بأن تظل الأسرار الرجولية في بير . . معقول؟!! نجيب محفوظ! يا اختي عليه . . لا ممكن يبان عليه أبدا . . ما إنت اللي كتبت عنه رجل الساعة ليس لأنه بطل الأحداث الأخيرة لكن لأنه منضبط كالساعة.

وتفرقنا الصحافة ولقمة العيش من بعد قرار تأميم الصحافة الذي خلخل استقرار عرش الرعاة مصطفى وعلي أمين . . أذهب هارعة أنا إلى محمد حسنين هيكل في الأهرام، ويرحل عفيفي للكتابة الأسبوعية في مجلة المصور مع حبيبه أحمد بهاء الدين رئيس مجلس إدارة دار الهلال وقتها، الذي كسر حاجز الخوف من ركوب الطائرة لدى عفيفي ليرسله عام ١٩٧١، في رحلة ثقافية بصحبة رسام الكاريكاتير بهجت عثمان - كانت أفكار عفيفي التي صاحبت في أخبار اليوم مسيرة كل من رسومات الفنان صاروخان السياسية، والفنان رخا صاحب نكت بنت البلد والسبع أفندي ورفيعة هانم وحزب أشجار الجميز - ليعيشا كواليس لندن التي كتب فيها يومياته بعنوان «تائه في لندن»، حيث تجول سائحا بين راكبي الرولز وآكلي السمك والتشبس، والخاطبين في هايد بارك، والشحاذين في شارع أوكسفورد، والعجائز المتوقفات عند الأشجار بالكلب العزيز، والمادات أبوازهن العطشى لذكر بارد متردد، والمقاطيع المتقصعين والحفاة، والجريئة عيونهن وأفخاذهن في كل مكان، والحمائم المتخمة والقطط الملظلظة ذات الأجراس، والتماثيل العالية المبتلة لرجال إمبراطورية رحلت عنها الشمس بعدما خرجوا ذات يوم يطاردون بالسيف ضوء الشمس، وأعلامنها كلها إبرة جده المسلة الشامخة على شاطئ التيمز، راوية للناس وإلى الأبد قصة المجد الذي كان مجدنا!

كانت اللغة الإنجليزية عند عفيفي توءما للعربية يجيدها ويهضمها ويردد أبيات أشعارها الكلاسيكية يدندن بها وهو مستغرق في الكتابة أمامي . . يضحكني معه على إبداعات الكاتب الأيرلندي برنارد شو صديقه عبر تبادل الرسائل . . أما إعجابه البالغ فكان للكاتب الساخر مارك توين، وربما من هنا جاء التأثير غير المباشر على أسلوبه التهكمي . . وكنت أحسده على ثقافته الإنجليزية الرفيعة، وهو من تتلمذ على يد العالم علي مصطفى مشرفة - زميل أينشتين - والذي لازمه سنوات في

صومعته بالمعادي. . عفيفي. . له عندي كثير وكثير وكثير، وهو الذي لم تزل نصائحه نبراسا في كيفية الهروب من منادي السيارات الذي يفرض إتاوته وأنت واقف بعربتك في ملك الحكومة وليس في أبعديته الخاصة حيث كتب:

«نعم يحدث أحيانا أن يبذل المنادي بعض الجهد كأن يدفع السيارة التي أمامك ليفسح لك الطريق، ولكنه في الغالب هو المسئول عن وجود تلك السيارة. هو الذي تعمد إلصاقها بسيارتك لكي يضمن أنك لا تخرج من الصف إلا بإذنه، فإذا ما دفع تلك السيارة فهو يأمرك بأن تجيب ورا شوية، قائلا لك طول الوقت هات، هات، هات، بس! كأنه لو لم يقل لك هات لما جبت، ولو لم يقل لك بس لدخلت في السيارة التي خلفك وظللت تدفعها إلى الأبد، ثم هو يأمرك بأن تكسر الدريكسيون كله جهة الشمال وتستعدل الوش، كأنه لو لم يقل لك ذلك لكسرت جهة اليمين وطلعت على الرصيف. تعليمات لا لزوم لها أشبه بالإهانات، تلك الإهانات التي يعتقد أنه يستحق في مقابلها المعلوم.

لذلك لكي تتخلص من هذه المزعجات أنصحك بأن تتبع الطريقة التي أتبعها أنا بنجاح كبير في معظم الأحيان. . عليك في البداية أن تنزل من السيارة التي ركنتها بدون أن تنظر إلى المنادي أصلا، وأن تمر بسرعة وأنت تشيح عنه بوجهك، وذلك لكيلا يعلق شكلك بذاكرته. ومما يفيد في ذلك أن تكون ثيابك ذات ألوان هادئة غير صارخة، لكيلا ينتبه إليك الرجل وأنت تعود إلى السيارة بعد حين.

فإذا عدت فللعودة أصول، خصوصا وأنت تقترب من السيارة. . لا تقترب منها من ناحية باب السائق لكيلا ينتبه المنادي إلى أنك صاحبها، ولا تخرج المفاتيح من جيبك لكي تنتفي عنك تهمة امتلاك السيارات أصلا. فإذا ما وصلت إلى السيارة فلا تتوقف عندها بل واصل السير متجاوزا إياها، حتى إذا ما تصادف أن لمحك الرجل ظنك عابر سبيل عاديًا والتفت للناحية الأخرى. ويا حبذا لو كنت قد رفعت ياقة البالطو لتخفي بعض وجهك مع لبس نظارة سوداء. كلا، لا لزوم لتركيب لحية مستعارة لأن الحكاية لا تحتمل بالطبع كل هذا التعقيد. . وها أنت قد تجاوزت السيارة ببضع خطوات فيمكنك الآن أن تلتفت للوراء للتأكد من انشغال المنادي

عنك. ببطء شديد تعود ناحية السيارة، مقتربا لا من باب السائق وإنما من الباب الأيمن الذي تدخل منه زوجتك. افتح الباب برفق وادخل، ثم لا تقفل الباب بقوة وإنما بحذر شديد، فأنت تعرف أن أذن المنادي لا تغيب عليها أي تكة لباب السيارة مهما تخفت. . بنفس الحذر تنزلق إلى مكان السائق وتضع المفتاح في الكونتاكت دون أن تدير المارش.

عليك أولا أن تلوي الدريكسيون وتستعدل الوش وتهيئ السيارة للخروج، وبعد ذلك تدوس الدبرياج وتعشِّق الفيتيس وتضع قدمك على دواسة البنزين، وأخيرا تدير المارش. بمجرد أن تديره ستسمع صوت المنادي صائحا أيوه! . . ولكن بعد فوات الأوان طبعا. . نسيت أقول لك أن تبقي الزجاج مغلقا، إذ يحدث أحيانا أن يعترض طريقك شيء أو عربة مارقة مما يضطرك إلى الوقوف، فيأتي المنادي جريا ويحصلك. فإذا فعل ذلك فلن يستطيع أن يكلمك لأنك لن تسمع صوته من وراء الزجاج المغلق. حقا إنه قد ينقر على الزجاج منبها إياك إلى نفسه ـ حصلت لي مرة ـ ولكنك تستطيع بالطبع أن تنخرط في موجة مفاجئة من السعال العنيف الذي يشغلك عنه. فإذا مازال الشيء الذي يعترض طريقك وعاودت السير فسوف ترى فم المنادي يتحرك بكلمات ما، لكنك من وراء الزجاج المغلق لن تستطيع أن تميز شتيمة واحدة. ويمكنك الآن أن تفرج عن الضحكة التي ما برحت تكتمها، ضحكة الانتصار على المنادي والخلاص من المعلوم الذي لا لزوم له. فإذا نفذت الخطة فوالله إن المنادين لمعذورون في الكلام عن بهوات آخر زمن!».

محمد عفيفي من كانت المرأة هدفا دائما لدعاباته، وكنا نحرص على قراءته بدون زعل.

الزوجة: إيه رأيك في فستاني الجديد؟

ـ الزوج: موش بطال. . لكن لو قدرت تدخلي فيه لجوه شوية مش يبقى أحسن؟ !

الرجل الذي يتزوج على عجل. . يندم على مهل!

أليس من العجب أن تكون فتاة الأحلام سببا للأرق!

هو: إزاى مش فاكراني؟ أنا من سنتين طلبت منك تتجوزيني.

ـ النجمة: واتجوزتك؟!

ـ النفقة الشرعية أشبه بشرائك العليق لحصان ميت!

ويحاول عفيفي شرح القضية العويصة لماذا تكره زوجتنا كل أصناف الخدم؟ فيقول بأسلوبه المتفرد بالسهل الممتنع: «ليتني كنت من علماء النفس والاجتماع أو الزولوجيا لكي أتمكن من اكتشاف السبب الذي من أجله تكره السيدة زوجتنا كل أصناف الخدم. إنها لا تكرههم بمعنى أنها لا تستخدمهم ـ كلا ـ فإن عندها على الدوام اثنين منهم، فهي تكرههم وتستخدمهم، بحيث إنني لا أدري على وجه التحقيق إن كانت تكرههم لأنها تستخدمهم، أو تستخدمهم لكي تكرههم، أو ماذا.. إذ أسمعها تنادي الخادمة التي أخطرك من البداية أنها هبلة شوية، قائلة:

ـ يا نفيسة.

فأجد في لهجة النداء معنى من السآمة الشديد مع حد أدنى من الغيظ، كأنها في الواقع تقول لها يا مصيبة، أو يا قطيعة، أو يا داهية، أو أي كلمة أخرى بهذا المعنى. حقا إنها ـ نفيسة ـ لم تعمل أي حاجة وحشة، ولكن زوجتنا تعرف حتما أنها ستعمل حاجة وحشة، ولذلك تشعر بالغيظ وتكرهها مقدما.

وتأتي المذكورة قائلة نعم، فتقول لها زوجتنا بنفس الغيظ:

ـ هاتي صحن فاضي ومعلقة وشوكة وحتة جبنة من اللي في التلاجة وإزازة الزيت اللي في النملية ورغيف عيش والملاحة وسلطانية الزبادي وشعرة فلفل أسود وليمونة وكباية مية وتعالي بسرعة.. وهي تملي هذه البيانات بسرعة شديدة تتناسب مع غيظها، بنتيجة حتمية هي أن تغيب الخادمة خمس دقائق ـ وهي كما قلت لك هبلة شوية ـ ثم تعود بالشيء المنطقي بالنسبة لها في مثل هذه الظروف وهو: كباية ميه!

يا بنت الكلب ـ تخاطبها زوجتنا ـ أنا قلت لك كباية ميه بس؟! أنا قلت لك. .
وتسرد القائمة من جديد بسرعة أكثر تتناسب مع غيظها الذي صار أكبر، بحيث تحضر الخادمة الأشياء المطلوبة منها في عشرة مشاوير بدلا من مشوار واحد، وسيدتها جالسة بجوارنا وهي تغلي من شدة الغيظ.

. . ومن المواقف التي تتضح لي فيها تلك الكراهية موقف تسليم فوطة أو قميص متسخ من يد زوجتنا إلى يد الخادمة، إذ تقول لها:

ـ خدي يا بت حطي دي في الغسيل.

فتمد البت يدها لتأخذ الفوطة، ولكن زوجتنا ليست مجنونة طبعا لكي تعطي الفوطة لليد الممدودة، لأن تسليم الشيء يدا بيد يستلزم نسبة من المودة ليست متوفرة لديها، ولذلك تقذف بالفوطة في الهواء بعيدا عن اليد الممدودة، بحيث تحتاج الخادمة في التقاطها إلى قدر من المهارة لا يقل عن القدر الذي يحتاج إليه عبد الجليل وهو يصد كرة مصوَّبة إليه من الجوهرة السوداء ـ المقال مكتوب في الستينيات ـ وبما أن الخادمة لا تحتكم على تلك المهارة فالنتيجة الحتمية هي سقوط الفوطة على الأرض، ذلك الحادث الذي يزعج زوجتنا بالطبع ـ خصوصا وأنها كانت تتوقعه ـ ولذلك تصيح فيها قائلة: حتى الفوطة مش عارفة تمسكيها؟ جتك البلا.

وكذلك الحال عندما يحدث الموقف العكسي موقف استلام زوجتنا الفوطة النظيفة من يد الخادمة بعد غسلها، إذ تمد الخادمة يدها بالفوطة إلى زوجتنا على أمل أن تتناولها منها ولكنها ـ زوجتنا ـ ليست مجنونة طبعا لكي تتناولها بهذه البساطة، بل تجذبها بقوة شديدة في اللحظة التي لا تتوقعها الخادمة، بحيث يختل توازن المذكورة وتوشك على الوقوع، وذلك تحاشيا لقيام ما سلف ذكره من شبهة المودة، وتأتي ساعة تناول الأدوية، إذ تقول زوجتنا للخادمة:

ـ هاتي كباية يا بت.

فتذهب البت وتعود بكباية مية، الأمر الذي يغيظ زوجتنا بالطبع.

ـ يا حمارة ـ تخاطبها زوجتنا ـ أنا قلت لك هاتي كباية مية؟!! أنا قلت هاتي كباية بس . . ابقي افتحي ودانك . . روحي اتنيلي ادلقيها .

فتتنيل البت وتدلقها وتعود بها لكي تقول لها زوجتنا وهي تشير إلى رف قريب .

ـ هاتي قزازة الدوا اللي قدامك دي .

فتنظر الخادمة أمامها على الرف لترى نحوا من عشر زجاجات للأدوية ، تلك المشكلة التي تحلها بأن تستكبر زجاجة وتحضرها لسيدتها .

ـ موش دى يا بهيمة . . القزازة اللي جنبها .

وقد كان يمكنها أن تحدد لها أي الجانبين ، هل هو الجانب الأيمن أو الأيسر ، ولكن المسألة موش فوضى طبعا ، ومن هنا تكون ثورة زوجتنا الكبرى عندما ترى الزجاجة التي أحضرتها الخادمة ، إذ تصيح قائلة :

ـ الله يخرب بيتك . . عاوزاني أشرب بنزين! ده بنزين موش دوا يا عامية . فتحي عنيكي وهاتي قزازة الدوا . . القزازة الخضرة الصغيرة اللي باشرب منها كل مرة .

ـ دي يا ستي؟

ـ أيوه هي . . هاتي ربنا يريحني منك!

وتنْتش الزجاجة من يدها نتْشة عنيفة تترك الفلة في يد الخادمة ، والزجاجة في يد زوجتنا ، والدواء نصفه على الترابيزة ونصفه على السجادة ، الأمر الذي يبلغ بزوجتنا ذروة الغضب ، وينتزع منها عددا من الشتائم لعلك تقدر الدوافع التي تمنعني من ذكرها هنا ، تاركا إياها لخيالك الخصيب . نعم ، لست أدري لماذا تكره زوجتنا الخدم» .

ولشدة رغبتي في أن أوضح لكم من هو الساخر العظيم محمد عفيفي اقرأوا معي خبر نعيه الذي كتبه بنفسه وأوصى بألا ينشر في صفحة الوفيات بالطريقة المتبعة في الأعمدة المؤسفة المقبضة . . كتب من رسم البسمة على الشفاه لتنفذ رغبته بالنشر في خبر ظريف طريف خفيف :

«عزيزي القارئ. . يؤسفني أن أخطرك بشيء قد يحزنك بعض الشيء وذلك بأنني قد توفيت، وأنا طبعا لا أكتب هذه الكلمة بعد الوفاة دي صعبة شوية، وإنما أكتبها قبل ذلك، وأوصيت بأن تنشر بعد وفاتي، وذلك لاعتقادي بأن الموت شيء خاص لا يستدعي إزعاج الآخرين بإرسال التلغرافات والتزاحم حول مسجد عمر مكرم حيث تقام عادة ليالي العزاء. . وإذا أحزنتك هذه الكلمات، فلا مانع من أن تحزن بعض الشيء، ولكن أرجو ألا تحزن كثيرا».

الزي الإسلامي للمرأة

الحكيم

اطلعي اشربي معايا فنجان قهوة. . سمعا وطاعة يا أستاذي. . رهن الإشارة يا راهب الفكر. . أمرك يا سيدي. . حاااالا يا فندم. . ساعة أن يأتيني طلبه دوغري أية حاجة في أيتها حاجة تكون في يدي أضعها جانبا. أسكنها اللا اهتمام. أركنها في اللامكان. تتراجع لموقع الثانوي. . تطوى جنب الحيط. . وأي أمر كنت أظنه ـ من قبل دعوته ـ مهما يصير في التوِّ هامشيا ونسيا منسيا، وأي زائر يجلس قبالتي ـ من قبل دعوته ـ أدلقه بفورية، وأية حاجة ساقعة أو سخنة كنت طلبتها ـ من قبل دعوته ـ أريقها وأهرول إليه ولو كان فنجانها أو كوبها في أول طلعة لفمي . . . . توفيق الحكيم بمنزلته ومكانته وسلامته وظرفه وخفة ظله اللا متناهية يدعوني لأشاركه فنجان القهوة. . . حاااالا جاية.

هل تدركون المعنى أن يدعو الحكيم أحدا لتناول القهوة معه؟! المعنى كبير وضخم وممعن في القرب وله دلالته، فالحكيم الشهير بعدم دعوة أحد على حسابه ـ والذي اعترف لي عم حسين ساعي مكتبه لعشرات السنين بأنه إذا ما كان يقول له هات القهوة بسرعة يعني روح واختفي من على وجه الأرض، وإوعى تجيب قهوة وحسك عينك يبان لك طرف في الأفق، والوحيدة التي كان يعمل لها ألف حساب ويطلب لها قهوتها في الحال هي الدكتورة عائشة عبد الرحمن، عندما يتنازل بالدعوة ويكرر طلبها في حضوري دون أن يعقبها لفظة السرعة، فمعنى ذلك أن لي عنده منزلة، وأمي داعية لي لكوني قد احتسيت على مهل ترياق القهوة المضبوطة مع الحكيم في مكتبه. . وكم من فناجين شربتها.

كان مكتبي في الدور الخامس بالأهرام ومكتب الأديب الكبير يعلونا في برج الدور السادس، وأبدا لا أذكر أني انتظرت إليه مصعدا أو أحصيت درجات سلم أو رددت تحية في سكة اندفاعي إليه . . كنت أجدني جالسة بين يديه لحظة أن يضع سماعته إثر استدعائي . . لم يكن يقطع لهاثي إليه إلا دعائي للأستاذ محمد حسنين هيكل الذي جمع للأهرام وقتها نخبة أهل الفكر في مصر والشرق وأسكنهم البرج، ليكون من بينهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ود. يوسف إدريس ود. حسين فوزى، ود. بنت الشاطئ، ود. زكي نجيب محمود، ود. لويس عوض وعبد الرحمن الشرقاوي، وجاورهم إحسان عبد القدوس وصلاح طاهر وأحمد بهاء الدين وثروت أباظة . . قال لنا نحن شباب الأهرام وقتها: انطلقوا إليهم. جالسوهم. اسألوهم. اسمعوهم. . أنصتوا لحواراتهم ودوِّنوا أدب الحوار. لا تضيعوا الوقت، ولا تهدروا الأيام خواء وسدى، واستفيدوا من تجارب عقول الأفذاذ وخلاصة الفكر، فنادرا، وعلى مستوى العالم أجمع أن اجتمع مثل هؤلاء الجهابذة معا أياما وشهورا وسنين في مدينة واحدة. في شارع واحد. في مبنى واحد. في طابق واحد. . الباب يجاور الباب.

ويا سعدك يا طالب المعرفة إذا ما توجهت إلى صومعة ـ مكتب ـ أحدهم فتجد عنده كوكبا آخر فتجلس ـ كما جلست ـ على سبيل المثال تستمع للدكتور حسين فوزي السندباد البحري يناقش توفيق الحكيم، يختلفان ويتفقان وتعلو نبرة النقاش حول الكثير والطريف مثل تسمية الموجات الجديدة بصراع الأجيال، ورأي العقاد في أنه قلما يرتقي الشاعر بعد الأربعين لأن أخصب أيام الشعر أيام الشباب، ومصادر أحمد شوقي في مسرحيته عن كيلوباترا وإصرار حسين فوزي على أنه استقى مادتها كلها من كتب جورجي زيدان، ومعارضة الحكيم لمسرحيات ناتالي ساروت لاختفاء لفظ الحب منها مع دفاع حسين فوزي من أنه كيف يتأتى لشخص مرهف الحس أن يجمع كل التنوعات المتقلبة لعلاقة عميقة في كلمة واحدة كثيرة الاستعمال أحبك، وعمر محمد عبد الوهاب الحقيقي، وهل كان سعد زغلول من زبائن مقهى «متاتيا» مع الإمام محمد عبده وحافظ إبراهيم وجمال الدين الأفغاني

وعبد العزيز البشري. . . . وفجأة يهل يوسف إدريس ليغمر وادي النقاش المستنير بفيض الجديد في الموضوع القديم.

في طلعتي إليه يقول الحكيم ونادرا ما قلت أنا اللهم إلا بزجٍّ تعبير أو سؤال أو لفظة مقتضبة موحية تفتح أبواب استمرار التواصل لمزيد من البوح والحكي مثل لماذا؟ وكيف ومتى؟ ومعقولة؟ ويا خبر أبيض وطيب وبعدين ويا ساتر ولا مش ممكن وكان إيه رد الفعل؟ وحضرتك قلت له إيه وطبعا سيادتك أفحمته، وأكيد بقى في نص هدومه وهو كان ناسي بيكلم مين؟. . وذلك لكي يستطرد الأستاذ، فخسارة فادحة إهدار الوقت الثمين لأبدد دقائقه فأشغله بصوتي بينما يسعدني زماني أن يملأ توفيق الحكيم تلك الدقائق بأي من قوله أو ذكرياته.

مرات ومرات قال لي واستمعت، وقال لي وكتبت، وقال لي وانبهرت، وقال لي فأسقطت البعض من عليائهم، وقال لي فرفعت البعض من السفح إلى السماء، وكانت ذكرى مقالبه تثري ضحكته المجلجلة ومنها حكايته مع مصطفى أمين عندما كان يرأس مجلة الاثنين: كان يطلب مني باستمرار أن أكتب له في المجلة. وفي إحدى المرات طلبني أكثر من مرة بالتليفون، وكنت في ذلك الوقت أعمل في وزارة الشئون الاجتماعية، ليطلب مقالا كنت وعدته به، لأن المجلة تحت الطبع وهو مصر على ظهور مقالي في هذا العدد بالذات، وكان عددا ممتازا عن العيد.

وأمام إلحاحه كتبت المقال رغم مشاغلي الكثيرة، ولكن فكرة شيطانية راودتني. . كان يعمل معي موظف مغرم بالأدب والأدباء، وكان اسمه طلعت عزمي، فطلبت من طلعت هذا أن يوقع هو المقال وأن يكتب تحت توقيعه جملة تفيد بأنه معجب بأدب توفيق الحكيم دون جميع الأدباء. . وأرسلت المقال، وإذا بمصطفى أمين يعاود الاتصال بي يستعجل مقالي، فقلت له إن أحد الأدباء الشبان قد أطلعني على مقال لا بأس به وقال إنه سيرسله إليك، وقلت لمصطفى أمين انشره في عدد العيد بدلا من مقالي، فإذا بمصطفى يثور مقاطعا: أعوذ بالله!!

أنا قريت المقال مجرد واحد يقلدك لكن دمه ثقيل خالص، ولا بد أن ينسى كتابة أي حاجة بعدها!. . ولم أخبر مصطفى أبدا ولا في أي مناسبة جمعتنا بأنني كاتب

المقال بعد أن وصفني من حيث لا يدري بأن دمي ثقيل لأني أقلد توفيق الحكيم . . لكن هيهات بين الأصل والصورة الباهتة !!

الحكيم إذا ما تبدى اليأس يوما من حوله وعكرت الجو عبارة مافيش فايدة، كنت آراه غاضبا يدافع عن مصر بقوله لا هناك فايدة وعشرات الفوائد ولكى ينهي نبرة الإحباط المرتفعة يقول: أمة أتت في فجر الإنسانية بمعجزة الهرم لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى أو معجزات . . أمة يزعمون أنها ميتة ولايرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء بين رمال الجيزة . . لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش إلى الأبد .

وسألته يوما . . كلنا شعراء يا مولاي لكن غالبيتنا ضل الطريق وإن بقي الشعر إيقاعا للحياة، وقد يكشف البعض عن مكنون أشعاره في مرحلة المبتدأ متقبلا بصدر رحب التريقة على ركاكة المحتوى وضحالة المعنى، هذا على عكس ما أذهلنا من قوة أشعارك في فترة الشباب الأولى خاصة التي كتبتها بالفرنسية . . لماذا هجرت الشعر العربي فقال: أذكر ذات يوم وكان يوم جمعة قبل التحاقي بالتعليم الأميري المنتظم، وقد ارتدى والدي جلبابه المنزلي وتناول إفطاره وقرأ جريدته، ولم يجد بعدئذ ما يفعل بوقته فناداني قائلا: تعالى أمتحنك!

وناولني كتاب المعلقات السبع . . ذلك الكتاب الذي كان يحبه هو ويترنم بأبياته . . وأخرج لي معلقة زهير بن أبي سلمى، وطلب مني أن أقرأها بصوت مرتفع، فلما وصلت إلى البيت:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

سألني عن معنى يصانع فلم أوفق في الإجابة . . وكيف لمن كان في سني وقتها معرفة حقيقة المصانعة في الحياة بينما يجهل الحياة نفسها وعلاقة الأشخاص في ذلك المجتمع المتشابك المعقد، فلما لم أجب بما يقنعه رفع كفه الضخمة وضربني على وجهي كفا أسال الدم من أنفي، لتأتي جدتي على بكائي فصاحت به وأخذتني من يدي إلى حجرتها تحميني منه وأنا ألعن المعلقات وأصحابها . . بل ألعن الشعر

كله . . وكان من الطبيعي والمنطقي أن أحب الشعر كما أحبه أبي، ولكن الدم الذي سال من أنفي بسببه جعلني أمقته مدة طويلة، وكيف والله أحبه وقتها وبيني وبينه دم مسفوك ! . . ولقد أسهمت مراحل التعليم بعدها في الابتعاد عن الشعر بما كانت تفرضه من مقطوعات أدبية وقصائد شعرية ثقيلة لحفظها عن ظهر قلب : مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل . . لقد كانت كتب اللغة العربية التي وضعت بين أيدينا صغارا كتبا غثة المعنى متكلفة الأسلوب الذي كان غايته يطرب الآذان المسترخية . . أيجوز أن نجعل من لغتنا النبيلة وسيلة لهو وأداة براعة كألعاب الحواة؟

إن جلال اللغة العربية في بساطتها وسيرها نحو الغرض، ونجد ذلك في كتابات الفلاسفة والمؤرخين العرب، كابن خلدون، والطبري، وابن رشد، والغزالي . . كيف أن هؤلاء لم يعرضوا علينا قط في دراساتنا للأدب العربي بالمدارس، وكل كاتب عربي بسيط الأسلوب نافع لنا في الحياة، يقصونه إقصاء بحجة أنه غير بليغ أو يأتون إلينا بالكاتب الذي لا ينفع في حياتنا إلا نموذجا لإثارة السخرية . . . . في شعره الفرنسي كتب الحكيم قصائد من نار في نار الحب : قبلاتك يا نفريت عسل من نار . . بل جمر من عصير اللآلئ في كأس من نار! إني أغار . . الغيرة . . جعران مخيف يسير فوق شغاف قلب . . نفريت! رأسك اللامع بين يدي كوكب أسود لا نهار له . . نفريت ! . . جزيرة الهناء الدائم ليست في محيطات الفضاء . . جزيرة الهناء الدائم لا يعرف مقرها غيري . . ميلي بأذنك نحوى كي أهمس لك بمكانها . . أتدرين أين جزيرة الهناء الدائم؟ إنها ليست في محيطات الفضاء . . إنها في محيط عينيك .

عيناك بحيرتان صافيتان . . يسبح في إحداهما الحب . . وفي الأخرى . . الحب .

الحكيم كانت رؤيته أن تراث الأقدمين ليس إلا إفراز عقول وقلوب بشرية عاشت في ظل معطيات حضارية تختلف عن يومنا هذا بما حدث من إضافات الحياة المتجددة، وعليه فلا يجب أن نقف عند حدود تلك المعطيات الأولى وحدها

ونجعلها قيدا لأفكارنا أو حدا لا نتخطاه. . فنظل مئات السنين ندور في حلقة مفرغة حول عصر واحد فقط، فكأن الإسلام لا يصلح إلا له ولأفكاره وظروفه وحدها: وهو عصر الإسلام الأول، نبني عليه كل تفكيرنا، وننسى أن الإسلام صالح لكل العصور والأزمان، لأنه من اليسر بحيث يصلح للحياة والتقدم في كل عصر وزمان ومكان.

وأسأله عن الإسلام والعقل والتفكير فيجيبني في قول السيدة عائشة: قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: بالعقل، قالت: وفي الآخرة؟ قال: بالعقل، قالت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ قال صلى الله عليه وسلم: يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون. . وقال تعالى في سورة الروم ﴿**أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم**﴾ وفي سورة البقرة ﴿ **كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتفَكَّرُونَ** ﴾ «وفي سورة سبأ ﴿ **أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتفَكَّرُوا** ﴾.

وفي الأنعام ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتفَكَّرُونَ** ﴾ وفي سورة يونس ﴿ **كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ** ﴾ وفي سورة آل عمران ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ وفي سورة الأعراف ﴿ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ وفي سورة النمل «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» وفي سورة الحشر ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ لقد خلق الله لنا آلة التفكير فلم نستخدمها كثيرا، واكتفى أكثرنا بالتلقين دون تفكير.

واستخدم بعضنا التفكير داخل جدران التلقين ولم يعملوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عبادة كتفكر.

يوم وفاة ولده الوحيد إسماعيل كانت لتوفيق الحكيم فلسفته الخاصة في الحزن. . دموع على جدران النفس الداخلية. . مؤمن بالرحمن الرحيم الصفة التي وصف الله تعالى بها نفسه، ونكررها في كل ساعة بسم الله الرحمن

الرحيم. . شبه ذهول يجعله يتحرك في إطار طبيعي وكأن المصيبة لم تصبه. كان حزنا يختلف كثيرا عن زلزال اللوعة الذي جرفه يوم ماتت شريكة العمر، ذلك الصامد الساخر المتفلسف المدعي عداء المرأة لم يستطع إخفاء ضعفه بدونها كطفل تركته أمه وافتقد حنانها وغطاء رعايتها.

بعدها كنت معه أستشعر كلمة السر التي أتسلل بها إلى أدراجه الخاصة، وكانت الكلمة أن آتي بإشارة إلى سيرة الراحلة كما لو كان الأمر قد جاء عرضا أثناء الحديث. . ساعتها تنفرج أسارير الحكيم التي تظنها ـ ظلما له ـ غاضبة قاسية ليقول عنها وعن أنسها وحنانها ورعايتها ودقائق حياته معها ودورها كراعية لأدبه ناقدة لسطوره متأخرة لتقدمه متوارية لمزيد من تألقه متفردا. . يحكي لي عنها بسعادة غامرة. . ينهل من نبع لا ينضب ويجرف من تل لا يختل.

يروي عن حسنها وحذقها وتدبيرها وعطائها وألفتها وجلالها وفيضها ووقارها. . وصبرها عليه. . سألته مرة عن أناقتها فأشاد وأطال في حسن الذوق والاختيار في ملابس البيت الأنثوية وخارج الديار المميزة بالاحتشام وعدم الخروج عن الالتزام بتعاليم الإسلام. . وغادرته بأحاسيس أن في جعبة الأستاذ أمورا فتحت شهيته عليها. . عالم المرأة والأناقة في ظل الوقار. . لهذا عندما استدعاني الحكيم بعدها تعالي ـ المتوقعة سلفا ـ إعجابي وانبهاري، هرعت وأنا عارفة أن في الأمر ما يتعلق بالأناقة وزي المرأة المناسب.

وفوجئت بالحكيم ـ والله العظيم ـ جالسا إلى مكتبه باهتمام بالغ ممسكا بالمقص كأفضل ترزى يدور به حول عدة صور للموضة النسائية يفصلها بعناية بالغة من صفحات أحد أعداد المصور ليلصقها وحدها على أوراق بيضاء مع مقال عنوانه الزي الإسلامي للمرأة، كتب فيه رأيه في الأناقة المثالية. . أعطاني الأوراق وابتسم. . سلمني الأمانة ونفض يده من أمرها. . قال رأيه ممهورا بإمضائه ومضى. . واحترت أنا فيما أصنع بها. . لماذا لم تنشر يا مولاي ما كتبت مجاورا لما قصصت من نماذج بعيدا عن مسئوليتي.

يا سيدي العصفور من الشرق لماذا لم تزقزق على الفنن البعيد؟! يا طالع الشجرة

لماذا لم تسدد رصاصتك لقلب هناك؟! يا نائب الأرياف لماذا لم توقظ في غيبة مني أهل الكهف من سباتهم العميق؟! يا سلطاني ظللت طويلا حائرة في توقيت الإفصاح عن مكنون رأيك. . لقد احتفظت بالمقال ولم يسألني الحكيم عن مصيره في حياته، وها أنا بعد ٢٢ عاما من فنجان القهوة السادة أفتح درجي الخاص فيعانقني عنوان المقال يطالب بالإفراج من بعد غياهب الظلمات. . فأمتثل. . وهاكم رأي الحكيم بخط يده في عام ١٩٨٤، حول الزي الإسلامي للمرأة. . الزي الإسلامي الذي للأسف لم يردع بعض شباب انفلت عياره في إجازة العيد الأخيرة عن التحرش الجماعي بالبنات المحجبات والمنقبات على مرأى ومسمع من الشعب وتحت الأضواء ووسط المدينة. . فلا كانت مشية البنت السبب ولا العري السبب ولا عبورها وحدها بدون محرم السبب. . وإنما كان السبب. . قلة الأمن والأدب!!!!

السنهوري.. الإمام الخامس

ذلك الشعور العدائي من الأبناء تجاه مهنة الأب التي تستغرقه بعيدا عنهم إلى حد الابتلاع والدخول وهو بينهم بجسده في شرنقته الخاصة، فيجيب عن تساؤلات الطفولة اللحوحة بغمغمات شاردة، أو يحيلهم إلى ماما، ولا يركز مع صغيره عندما يستعرض أمامه أوليات مهاراته، وينسى الوعود والعهود وأعياد الميلاد وأسماء أصدقائهم ومدرسيهم ونجومهم المفضلين، ويقبل الوجنات كمن يلصق طابع البوستة، ويجلس إلى المائدة ميدان الحراك والتلاحم والتراحم والعتاب والوصال بذهن غائب، وقد لا يتابع في خضم انفصاله الذهني ما إذا كانت الابنة في سنة ثانية ثالث أم في رابعة أول. . الأب المسروق. . بابا الذي قد تُوكل الزوجة إليه مهمة اصطحاب صغيرته في مشوار الدرس الخصوصي أو لخلع ضرسها أو لشراء حذاء جديد لها فيمشي مسيَّرا لا مخيرا برؤية في مستوى نظره للأمام بغض النظر فيما إذا كانت القامة التي تلاحقه في خطواتها الصغيرة المهرولة قد اعترضتها النتوءات والبلاعات وبضاعة الأرصفة فتنكفئ وتعتدل وتلاحق، وقد تغضب وتزمجر وتقف وسط الطريق فينتبه بعد وصوله إلى الناصية لفراغ يده فيعود لمسح دموعها وحث خطواتها، فتطيعه بمجرد ملامسة يده. . وتتشكل الإجابة الجاهزة على لسان الوالد الغارق لشوشته في بحور مهنته: «أنا بموِّت نفسي علشانكم». . لا يا سيدي أنت تفني روحك في عملك لأنك تعشق عملك ليأتي من بعده الأولاد والبيت وكل شيء في المرتبة الثانية.

من براثن الدرجة الثانية، كانت معاناة نادية الابنة الوحيدة لعاشق القانون الدكتور عبد الرزاق السنهوري - أفقه علماء الفقه والقانون في تاريخ مصر الحديث - الذي بدأ حياته موظفا صغيرا عام ١٩١٢، في جمرك الإسكندرية ليحصل على

٦ درجات دكتوراه من فرنسا . . أبو القوانين الوضعية الذي وضع القانون المدني المصري في مؤلف من عشرة أجزاء استغرق في تأليفها عشرين سنة، كل جزء منها من ألف صفحة ويزيد لتغدو الصفحات ١٥ ألف صفحة، وقد أتم الجزء الأخير وهو في مرضه الأخير ليقول عنه أساتذة القانون : إنها تذكرنا بمجلدات فقهاء الإسلام في العصور الأولى التي يفرغون لها العمر كله . . أول من أدب القانون وقنن الأدب في مصر والعالم العربي الذي أطلق عليه أساتذة الشريعة الإسلامية لقب الإمام الخامس بعد الأئمة الأربعة، وفي العراق يلقبه تلاميذه بالأستاذ الإمام . . رب البيت التي قالت عنه زوجته أمينة عثمان شاكر : «قضيت ٤٤ عاما مع رجل يعمل في مكتبه حتى الرابعة صباحا يوميا بلا انقطاع وكان غارقا في التأليف يستنشق الأوراق مثلما يستنشق النسيم، وقد اعتبرها فرحة غامرة تركه للوزارة لأنه سيعود مرة أخرى للتأليف» . . . وأجلس إلى نادية في عام ٨٧، الابنة التي عادت تحمل الدكتوراه من جامعة بافالو في أمريكا في الأدب الإنجليزي لتعمل مدرسة له بكلية البنات جامعة عين شمس . . الابنة التي غضبت فبعدت واختارت لها طريقا يقصيها عن مسيرة قوانين والدها بمشاعر المربوطة على الدرجة الثانية في قلب والدها رغم كتابته الشعر فيها، لكنها الأبيات التي يعترف فيها بأنها لم تكن هي نسله الوحيد فقد كان هناك الولد، الذي ليس بأي ولد :

خلفت بنتا في حياتي	ثم خلفت الولد
فالبنت نادية أتتني	من بعد يأس وكد
وإذا سألت عن الوليد	أباه لم يعزك رد
ولدي هو القانون لم	أرزقه إلا بعد جهد

نادية التي رحلت منذ ثلاثة أعوام بعد حياة أنجبت فيها ابنين من زوجها الأول أستاذ الحقوق الدكتور سعيد النجار لتتزوج من الدكتور توفيق الشاوى الذي شاركها في إعداد أوراق والدها الشخصية . . يومها قالت لي نادية : «في بيتنا الواسع بالجيزة الذي يسوده هدوء تلزمنا به الوالدة كي لا نخدش أجواء الإلهام الهابط على الأب الغارق في التأليف، كثيرا ما حاولت أن أسترعي انتباهه ليحادثني أو يداعبني، لكنها كانت محاولات جميعها تبوء بالفشل، فأبي لم يكن معنا أو بالصحيح لم أكن

معه، ولأنه لم يكن لي إخوة وأخوات أنافسهم على حبه أو أتفوق عليهم في أي ميدان لأغدو الأثيرة عنده، فقد انصب غضبي على أوراقه التي سرقته مني، وفي اليوم الذي ارتفع فيه معدل غيرتي من غريمتي.. أوراقه.. ليصل إلى حد نوبة غضب عارمة اندفعت إلى مذكراته التي ضمتها كراسته الأثيرة لأمزقها شرائح لا تلتئم ثانية وفتحت مصراعي النافذة لأسعد برؤيتها خيوطا يحملها الهواء لتذهب هباء - لم أجسر يومها علي سؤال الدكتورة نادية عن التوقيت الدقيق لفعلتها الانتقامية الهوجاء - وربما من آثار وتداعيات تلك الغيرة أنني لم أشارك والدي حرصه في أن أنحو منهجه في دراسة الحقوق ليراني امتدادا لحياته ووارثة لاهتمامه، بل لقد اتخذت سكة بعيدة تماما لمستقبلي بدراسة الأدب الإنجليزي، ورغم علمي بدواخله، وعدم ارتياحه لخياراتي فإنه لم يبد أمامي معارضة بل تظاهر بموافقته، وانبري يؤكد لي أنني باختياري دراسة الأدب الإنجليزي قد سرت علي دربه، فقد سبقني هو بالحصول من جامعة ليون في فرنسا على الدكتوراه في القضاء الإنجليزي بالذات وحاز على رسالته تلك جائزة أفضل رسالة جامعية التي تخول له الصعود لسلم الأستاذية في الجامعات الفرنسية عامة، ولأن ذلك لم يكن هدفا ولا مقصدا لمستقبله الذي خططه لنفسه فقد تقدم بعدها لنيل درجة دكتوراه جديدة بالفرنسية من السوربون عنوانها «نظام الخلافة في الفقه الإسلامي» وكان موضوع الخلافة بالذات في ذلك الوقت من أكثر الموضوعات المثيرة للجدل في الأوساط السياسية والدولية في الشرق والغرب.. وواصلت دراستي في الأدب الإنجليزي لا القانون الإنجليزي ولا المصري ولا أي قانون في أية صورة من صوره، واعتبرت أوراق والدي بمثابة عالمه الخاص المغلق الذي تسكنه قوة طاردة فقد أخذ مني أبي وطردني منه... ورحل والدي وبقيت أوراقه غريمتي التي أدرت لها ظهري.. ولكن..

ولكن الحنين إلى أبي الذي أعيش في كنف اسمه ولقبه وتاريخه المجيد وجبال من ثناء تلامذته عليه جعلني مدفوعة لأن أحقق له أمنيته الكبرى وهي ترجمة رسالته للدكتوراه عن الخلافة من اللغة الفرنسية التي كتبها بها إلى العربية التي عشقها، وكان فيها أحد علماء اللغة الفطاحل في المجمع اللغوي والذي رجاه الدكتور طه

حسين العدول عن استقالته منه للتفرغ لعمله، وأعطاه وهو في الواحدة والسبعين إجازة لمدة عام فقط. . وعلى هدي تعبيراته الفذة وفي حضن علومه ورواسخ عبقريته نضجت من جديد تحت ظلال الفقه الإسلامي الذي أحبه وسافر في بعثته بهدف النهوض به وإرساء قواعده في رسالته للدكتوراه، لكن لسبب أجهله ما جعله يعجل بحصوله أولا على الدكتوراه في القضاء الإنجليزي ليتفرغ بعدها لرسالته الثانية الأثيرة عن الفقه. . ولأنه الإرث الذي التزمت به وجدتني أتجول في مكتبته لتتفتح مسام عقلي وشرايين قلبي على كنوزه التي خاصمتها طويلا لأقدم لها وله بالغ اعتذاري وعظيم تقديري وأسفي على سنين بددتها لم أنطو فيها تحت لواء قانونه العام ظنا بأن جنوحي سيأتيني به تحت مظلة قانوني الخاص. . وأهدتني روح أبي العظيمة المتسامحة من بين رفوف النصوص المكدسة وردة في يدي. . كراسة تذكرت مثيلة لها يوم نفَّثت فيها يوما عن غضبتي وغيرتي من أوراقه. . كراسة بالخط الرقعة الصغير الحميم الذي لا يغفل التواريخ ويعتني بعلامات التعجب ويضع خطوطا تحت كلمات تضرب في الأعماق، مثلما وضع خطين تحت جملته فقد نشأت يتيما . . كراسة علمت منها ما خفي من أمر جدي الذي بدد ماله وانتهى به المطاف الي موظف صغير في مجلس بلدية الأسكندرية ، وترملت جدتي صغيرة بعد أن أنجبت من الأعمام ستة وعمتي فتحية التي ماتت طفلة صغيرة، وكانت جدتي سريعة الاندفاع بقلب طيب أورثت طباعها لوالدي. . كراسة عنوانها «حديث مع النفس» لم يكن يعلم أيام أيامها أن جميع أيامها سيضمها يوما كتاب كان محتواه طريقا لعودتي لقوانين أبي».

السنهوري صديق الحكيم الحميم وجاره في الجيزة منذ عام ١٩٣٥ ، عندما كان يسيران الهوينى على أقدامهما ساعة العصاري على كوبري عباس يتبادلان الحديث الشجي وفي يد كل منهما قرطاس ترمس، ويتذكر توفيق الحكيم في كتابه «عودة الوعي» عندما همس له السنهوري عن مشروعه الوطني لغرس روح البطولة في نفوس الشباب، وأخذا يستعرضان معا أبطال تاريخنا أصحاب المبادئ العظيمة أمثال عمر بن الخطاب وطارق بن زياد ورمسيس الثاني. . . السنهوري صاحب

الوسيط والوجيز والخلافة وعشرات ومئات المؤلفات والأبحاث العربية والفرنسية في القانون والشريعة والفقه التي يحق لأي عالم ومفكر أن يفخر طيلة حياته بأنه قام بتأليف واحدا منها فقط . . . الواقف بالمرصاد ضد تكميم حرية الصحافة أو تعطيلها كسياج واق من من عبث الحاكمين وطغيانهم .

ولأنها الثورات تأكل أبناءها ، وما طار طير في سماواتها وارتفع إلا كما طار وقع ، لكن «مش كل الطير اللي يتاكل لحمه» ، فهناك قامات كبيرة كانت شامخة قبل قيام الثورة وكان من الصعب مهما جرى لها أن تكسر أو تختزل فالمناصب لم تضف لها شيئا لأنهم دخلوا تحت لوائها كبارا وخرجوا كبارا ، وعندما استعانت ثورة يوليو بفقه السنهوري كان لها مكسبا ، وعندما تم الاعتداء عليه كان سقطة كبرى لها ، فهو من قبلها وبعدها أكبر عقل قانوني أنتجه العالم العربي ، وكتاباته القانونية أرقى الكتابات الأدبية ، ومن قبل ٢٣ يوليو كان قد أنشأ مجلس الدولة وأصبح رئيسا له ليغدو بمثابة البطل القومي لدي كل فئات الشعب في مصر عندما كانت المعركة السياسية على أشدها قبل الثورة وكانت معظم المواجهات السياسية تنتهي إلى مجلس الدولة ، وكان يصدر أحكاما قضائية بلغت القمة في شجاعتها ونزاهتها ودقتها في مراعاة القانون وعمقها في تطبيق روح القانون وهو الأصعب والأهم ، فكانت رئاسة مجلس الدولة أحد التحولات الكبرى في حياة مصر ، ومن بعد الثورة اقترب منه منصب أول رئيس لجمهورية مصر اقترابا شديدا ، بل ولقد رفض منصب رئيس الوزراء الذي أراده له محمد نجيب حيث كانت بينهما علاقة خاصة ، فالسنهوري كان أستاذه بكلية الحقوق وكثيرا ما أشاد نجيب بتلك العلاقة ، وليس مصادفة أن يتم الاعتداء على السنهوري بمجلس الدولة في يوم ٢٩ مارس ، وهو اليوم الذي جرت فيه محاولة الاعتداء على محمد نجيب . . . لقد عصفت تقلبات الثورة في أيامها الأولى بالسنهوري إلى حد الاعتداء عليه وانتهى معزولا معتزلا غير مسموح حتى بذكر اسمه في صحيفة . . . السنهوري القانوني الذي كانت رؤيته أن ليست كل ورقة تحمل ختم سلطة تشريعية أو تنفيذية قانونا ، فالقوانين أحيانا تهطل كالمطر لكن سرعان ما تجففها الشمس وتمسحها الرياح ، فقناعات

الناس في تصرفاتهم تسير في مسالك أخرى تماما، وهناك قوانين تنقل من الكتب أو تؤخذ من بلاد شتى متنافرة كمن ينتقي خلطة من عند العطار لكنها تبقى قوانين غريبة، فمن المستحيل أن تزرع شجرة من البلاستيك لتثمر في أي مكان، فكل نبتة لها بيئة وطقس يحكم عليها بالعقم أو بالإثمار كذلك القانون. . . السنهوري الأستاذ الذي أعطى الدرس لطلبته بأن القانون ليس مجرد نصوص أو أن الدنيا تتغير بتغير تلك النصوص كأن يسن العدل بقانون والظلم يزول بقانون والخطأ يحدد بقانون والصواب يحدد بقانون. . لا . . لقد كان علم السنهوري هو المعبر عن روح المجتمع الصاعد من أعماقه كالتعبير الفني، وعندما طلب من السنهوري - أبو التشريعات - الذي وضع لكل من سوريا وليبيا والسودان والعراق والكويت دساتيرها ورفض أي مقابل مادي على جهده في وضعها . . عندما طلب منه الشيخ زايد في عام ٦٨ أن يضع الدستور الجديد لأول دولة تقوم في الخليج العربي وهي اتحاد الإمارات العربية، واضعا تحت تصرفه كل الإمكانات لتسهيل مهمته في أقرب وقت أوفد السنهوري ممثلين من رجال القانون لزيارة مختلف الإمارات للاطلاع على تقاليد القبائل والبدو وذلك ليجيء الدستور نابعا من الظروف المحلية للبلاد . .

بدأ العميد أوراقه في يوم ١١ أغسطس ١٩٢١، من فوق باخرة رحلته إلى فرنسا بعدما حصل على الليسانس من قسم الانتساب بمدرسة الحقوق عام ١٩١٧، قبل أن تنشأ الجامعة المصرية، ولما كان ترتيبه الأول عين وكيلا للنيابة ثم مدرسا بمدرسة القضاء الشرعي ليوفد في بعثة إلى فرنسا ليعود أستاذا وعميدا للحقوق ووزيرا للمعارف ثم رئيسا لمجلس الدولة الذي أرسي قواعد نشأته إلى جانب تأسيسه لجامعة الإسكندرية - فاروق سابقا - التي وضع مشروع قانونها عام ١٩٤٢، وجامعة محمد علي التي قرر إنشائها وهو وزيرا للمعارف في عام ١٩٤٨ . . والمعروف أنه تولى المعارف أربع مرات ليخرج منها عام ٤٩ قائلاً: «إنه قد خدم التعليم فيها بكل جهده وحاول تخطي الصعاب، لكنه فشل في شيء واحد هو القضاء على ظاهرة الدروس الخصوصية. . وتنتهي أوراقه في ١١ أغسطس عام ١٩٦٩، عندما ترتعش اليد التي أصابها الوهن فتضع القلم وتلزم المرض وتكتب العين على صفحة

الدمع رءوس مشروعات وكتبًا وأبحاثًا يظل العقل ممتلئا بمدادها لكنه الأجل الذي يقطع على اليد والعقل والقلم الطريق عندما يأتي قراره العلوي في عام ١٩٧١ . . . ومن بين أيامه أفرق الأوراق فتختلط الأيام ليتسيد يوم شعاره الفن يجاوره يوم مغموس بهم يطاوله يوم تسوده الروحانية يعقبه يوم كلماته الشعر يسبقه يوم ترسو به الفكر . . وهذه بعض من أيامه:

«ركبت البحر لا أعلم ما يخبئه الغيب لي، ولم يبك لفراقي من غير أهلي إلا اثنان، وآخران لم يبكيا، لأحدهما عندي منزلة خاصة وللآخر منزلة هو عالم بها، وحياة العواطف كلها أشواك . . . شهدت للمرة الأولى سارة برنار التي تبلغ السبعين تمثل دورا يتلاءم معها، وسمعتها تتكلم فألفيت صوتها طبيعيا ليس فيه شيء من التكلف الذي ينهجه الممثلون، إلا أنها لا تدهش السامعين في أول أمرها لكنها تتدرج بهم حتي يمتزجوا في نفسها فلا يشعرون إلا بشعورها ولا يرون إلا بعينيها دون تكلف، ولم تنته الرواية إلا وقمت معجبا بها كل الإعجاب آسفا علي ما فاتني منها في قمة مجدها . . . أرى الصنعة لها دخل كبير في أخلاق الفرنسيين، فالحديث عندهم فن، والتحية فن، حتى الجمال الذي تهبه الطبيعة الفن فيه له المجال الأكبر، ولا أقصد بهذا أدوات التزويق والدهان فحسب بل أيضا فن الملاطفة والبشاشة والمجاملة، وأقول إن البشاشة عندهم لها فنها كأن يصفون شخصا ليس عليه مسحة من الجمال بأنه لطيف (Gentil) وخلاب(Charmant) وجذاب (Sympatique)، ومن هنا يغدو الجميع سعداء . . . أشعر ودائي أني أشعر وهذا هو موضع الضعف عندي . . . لا أحسب أن أحدا قد نفذ إلى دقائق الحياة من بعد الأنبياء أكثر من رجلين: المتنبي وشكسبير . . حتى تكون قويا ليس أمامك إلا أن تريد . . . رأيت فيما يرى النائم أن الغرب تشرق عليه شمس ساطعة حدقت فيها طويلا ثم أدرت وجهي تجاه الشرق فرأيت شمسا أوسع مدى وأسطع نورا وحسبت أني أنا الذي أنقل هذه الشمس بيدي، شمس الشرق للغرب، وكأني وقتها سمعت لفظ العلم يهمس، ثم أفقت من نومي . . . تتوالى من مصر أخبار مكدرة باعتقال سعد ونفر من حوله، وقامت المظاهرات بمقاطعة التجارة الإنجليزية،

إن مصر في مرورها التاريخي تمر على وقت عصيب يصلب فيه عودها، ولأن الحياة قد دبت فيها فلن تموت. . لي صديق لا أختلف معه: إذا شد أرخيت، وإذا أرخى لم أشد. . . ما أنا يا الله إذا لم أؤمن بك. . . حدثت نفسي لو شغلت منصبا قضائيا في مصر بعد عودتي وعرض على أن أحكم في مسألتين لحكمت فيهما لصالح المرأة، رجل طلق امرأة بغير حق أحكم للمرأة بتعويض لأن الرجل أساء استعمال حقه في الطلاق، ورجل تزوج امرأة ثانية على امرأته الأولى، أحكم لهذه بتعويض أن الرجل أساء استعمال حقه في الزواج. . لا أحسب المرأة تدخل في عمل إلا وتلوِّنه بلونها الخاص المزيج من رقة في ضعف في تقلب. .

طربت لصوت الشيخ سيد درويش الموسيقي النابغة في أدواره: ياللي تحب الورد ليه من فوق شجرته تقطفه، والوردة إيه ذنبها لما تفارق غصنها من يوم ما ماتت أمها دبلت يا ناس مش تنصفوا وسمعت منه وسعدت: الأستيك فوق صدرك يضوي وفي قلبي متعلق ساعة. . . وددت لو خدمت القضاء في أن أجعل السلطة القضائية مهيمنة على السلطتين الأخريين التشريعية والتنفيذية بعد وضع الضمانات الكافية للقضاء ونزاهته. . . كلما تقدمت في السن رأيتني أحوج إلى الأخلاق مني إلى العلم والذكاء. . أصبحت لا آمن قلبي على عاطفة إن طال عهده بها. . احذر ممن لا يري فيك إلا مرآة له. . في الأمم القوية يندر العظماء. . نحن في جهادنا محتاجون إلى رجل كواشنطن لا إلى رجل كنابليون. . إنني في حاجة إلى من يشاطرني السرور أكثر ممن يشاطرني الحزن. . من كان جميع الناس أصدقاءه فليس له أصدقاء. . . الإسلام قد أتى لا ليبيح الرق ولا ليبيح تعدد الزوجات، ولكنه أتى ليقيد من الرق ومن تعدد الزوجات. . اللهم إني قد اجتهدت في قضائي هذا، فإن كنت مخطئا فاغفر لي، وإن كنت مصيبا فقد هديتني. . . ما رأيت أنكى من أن يتصدى للدفاع عن الحق رجل قام علي الباطل. . لا نريد ملوكا ولا طغاة. . . الصيام عن الشريعة يؤدي بنا إلى فوضى منظمة، وكذلك الصوم عن التشريع. . . القانون يعدل بيننا لكننا نحن نظلمه. . الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة. . . لرجال الثورة: نحن في حاجة إلى إلهامكم وأنتم في حاجة إلى

معرفتنا، ونحن في حاجة إلى حركتكم وأنتم في حاجة إلى ثباتنا، ونحن في حاجة إلى وثبتكم وأنتم في حاجة إلى تجربتنا. . . نحن أمة فذة: ثلاثون مليونا ـ المذكرات في عام ١٩٦٧ ـ من البشر ينظرون جميعا بنفس العين ويسمعون جميعا بنفس الأذن، ويتكلمون جميعا بنفس اللسان. . . هنيئا لحكومتنا المظفرة، إنها دائما على الحق، وهي دائما تكسب الرهان، فلا ينزل في حلبة السباق إلا حصان واحد، وهي تراهن على هذا الحصان. . . هناك من التجار من يتعمد إحراق متجره حتى لا ينكشف إفلاسه، فهل ترى هذا التاجر هو الذي علم رجال السياسة بعض أساليب العمل؟!».

ويكتب القانوني الذي ولد في الإسكندرية عام ١٨٩٥، وضرب بمدينة القاهرة في ٢٩ مارس ١٩٥٤، يكتب في خواتيم مذكراته: رجال القضاء لا يملكون لأنفسهم رد القضاء!

وفي مذبحة القضاء الأولى عام ١٩٥٤، اضطر بعض المستشارين الذين شهدوا أمام النيابة عما رأوه بأعينهم من الاعتداء على رئيسهم الدكتور السنهوري في مجلس الدولة ومحاولة قتله. . . اضطروا تحت التهديد والإرهاب أن يعدلوا عن شهادتهم أمام المحكمة العسكرية!

وكيل النيابة المحقق وضعت تليفوناته تحت الرقابة وكان المخبرون يتتبعون خطواته أثناء التحقيق. . !!

الشاهد الوحيد الذي تعرف على من ضرب السنهوري عدل عن أقواله.

الذين قدموا للمحاكمة حكم عليهم بالسجن سنة واحدة وخرجوا من السجن يوم الحكم فقد كان هناك حرص على أن تكون المحاكمة بعد القبض عليهم بسنة!

الصحافة أرغمت على الصمت. . . منعت الرقابة أن تنشر كلمة واحدة عنها. . . لا المحاكمة. . . ولا الحكم. . !

ثبت من التحقيق أن أحد المتظاهرين قد حمل قضيبا من الحديد وأراد أن يضرب

به الدكتور السنهوري على رأسه وتقدم المستشار محمد عبد الخبير وتلقى الضرب على ذراعه وبذلك أنقذ السنهوري من الموت المحقق.

شعر السنهوري بأن بعض المتظاهرين يجذبونه من الخلف وآخرين يدفعونه إلى الأمام إلى الحديقة وتوالى الاعتداء على رأسي وكنت أدفعه بيدي ورأيت أحدهم ومعه حديدة طويلة يصوبها إلى عيني.

أصيب السنهوري بكسر مضاعف في ذراعه وكدمات متعددة في جسمه، ولولا أن سكرتيره رمى نفسه فوقه لقضي عليه تماما.

أكدت زوجة السنهوري أنها أبلغت جمال عبدالناصر رفض السنهوري مقابلته.

ردد السنهوري في كراسة السنين قول الرسول صلى الله عليه وسلم: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس.

الدكاترة.. إسماعيل سراج الدين

ما إن كنا نسمع وقع خطاه قادمة من نهاية الممر إلا ويعتدل كل منا في جلسته ليبدو في مظهر المنكب على عمله لا يخرجه عن إطار التجويد فيه كائنًا من كان حتى ولو كان الدكتور إسماعيل سراج الدين ذات نفسه رئيس العمل، ونائب رئيس البنك الدولي، من سعدتُ بالعمل تحت إشرافه في ذلك الصرح العالمي بمدينة واشنطن في عام ١٩٩٨، ضمن أفراد البعثة الفنية المصرية التى استدعاها للقيام بتصميم كتب مناهج التعليم في المملكة العربية السعودية، وأبدًا لا أنسى ذلك الفخر الذى كنا نتجول به، ونتحدث من منطلقه كمصريين فى أروقة الأجانب نعمل مع مثقف مصري وعالمي وصل بمواهبة الخاصة إلى أعلى منصب دولي يمكن أن يصل إليه واحد من العالم الثالث، المنصب الذي يكاد يكون احتكاراً أمريكيًا. . في العمل معه تجده هادئًا كسطح بحيرة. حازمًا كقائد كتيبة على وشك المواجهة. منصتًا باهتمام لآخر ما في جعبتك من ركام. متحدثًا يجبرك علمه العزيز في ميادين المعارف عى متابعته بشغف، والحسرة على أن أي وقت معه يفوت أو فات. مبتسمًا بوجه طفولي جميل القسمات كأن لقاءك به كان في انتظاره، وكأن معرفته بك قد سبقت زمانها، وكأن لا فارق في منزلتك عنده ومكانة عشرات من علماء نوبل من أصدقائه ومعارفه. . محمد إسماعيل أنيس سراج الدين، مهندس الحياة المجامل إلى حد تعليقه الإنساني الحميم عندما اقترحنا أمامه وقتها من باب المداعبة - وكان كل منا قد تم التأمين على حياته كمستشار من قبل البنك بمائة ألف دولار - أن يضحي أحدنا في سبيل المجموع بالموافقة على أن يدفعه زميله من الرصيف لأرض الطريق الجنوبي ليقسّم مبلغ التأمين على حياته في حاله البقية في حياته على بقية الزملاء من باب التكافل والترابط وفك الأزمات المالية، فسارع بقوله المتخم بكرامة

وعـزّة المصـري : «والله ولا مليـون دولار في مـقـابل أن ينال من أحـدكم الأذى» . وصدقناه أو حاولنا تصديقه . . وساعة أن تقدم الدكتور إسماعيل في عام ١٩٩٩ ، بترشيح نفسه لمنصب الأمين العام لمنظمة التربية والثقافة والعلوم العالمية «اليونسكو» استبشرت خيراً من إسناد ذلك المنصب الإنساني إليه ، فقد لمست عن قرب كيف يحول هذا الرجل المنصب الإنسانية دون أن يستخدم لا سيف المعز ولا ذهبه ، فقد ذهب المعز منذ أكثر من ألف عام إلى رحاب الله ، وقد احتكر النظام العالمي الجديد بقواته المحمولة جواً وصواريخه الذكية وأسواق أمواله العالمية كل شيء . . لكنه ترك هامشًا يضيق هنا ويتسع هناك للذين ما زالوا في عالمنا يحترمون الإنسان ، مقدراته كأثمن رأسمال . ويعد إسماعيل سراج الدين واحدًا من هؤلاء . . واحدًا من أبناء مصر الحقيقيين الذين ورثوا أرقى وأنقى ما في تراثهم المصري والعربي والإسلامي من قيم رفيعة أهلتهم للتفاعل مع القيم الكبرى لحضارة العصر . . مصريون خلفهم عمق حضاري وعلم مستقبلي ينتج عنه المصري العالمي هدية مصر والنيل ومياه الأمطار الإفريقية والبحر المتوسط للعالم ، حيث تلتقي عبقرية الفرد وعبقرية المكان وحداثة الزمان . . وتنتهي معركة اليونسكو التى أسفرت عن فوز «ماتسورا» سفير اليابان بفرنسا بعد ما ألقت اليابان بكل ثقلها وراءه ، وكان لها ما أرادت خاصة في غيبة أمريكا عن الاهتمام بمثل هذا المنصب ، ويدلي سراج الدين برأيه : «كان ليّ تصور مختلف في النظر إلى هذا المنصب يقوم على أنه إذا لم يكن للمثقفين رأي في اختيار رئيس منظمة الثقافة فمن يكون له رأي إذن؟ والذي حَرّكني من البداية للنهاية التفاف عدد كبير من العلماء والمثقفين من أنحاء العالم حولي ومن ضمنهم مجموعة من الحاصلين على جائزة نوبل ، وقد طالبوني بالترشيح ، واتصلت بالمسئولين في مصر وأعربوا عن استعدادهم لترشيحي وحصلوا على موافقة الدول الإفريقية على دعمي . . » ، وإذا ما كانت النتائج قد أسفرت عن خيبة أمل مثقفي العالم فإن تلك الانتخابات قد أزاحت الستار عن أعمال وشخصية وإنجازات سراج الدين وشخصيته وإنجازاته العلمية التي لم تكن معروفة في مصر مما لفت الأنظار للأستفادة من خبراته بأسرع وقت . . وكان الدور على إحياء مكتبة الإسكندرية . .

سراج الدين، من مواليد شارع الهرم بالجيزة في ٩ من مايو ١٩٤٤، حتى الانتقال إلى منزل آخر قريب من كوبري الجامعة عام ١٩٥٠ . والده المهندس المعماري والمقاول أنيس سراج الدين المنتمي إلى عائلة سراج الدين الوفدية، فهو ابن عم فؤاد سراج الدين القطب الوفدي البارز، والدته ليلى إبراهيم أستاذة الآثار الإسلامية بالجامعة الأمريكية ابنة الدكتور علي باشا إبراهيم رائد الطب الشهير. . التحق إسماعيل صغيراً بالمدرسة الناصرية الابتدائية الخاصةالتى تقع في شارع شامبليون بوسط القاهرة وأنشأها أمين باشا سامي ناظر المعارف ليتخرج فيها من المشاهير مصطفى وعلي أمين والجراح الكبير إبراهيم بدران. . التحق بها إسماعيل بعد استشارة الأهل عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين عندما لمسوا حب الصغير للعلم فوافق على دخوله المدرسة قبل السن المحدد ليتميز فيها بالخط البديع وحبه للفن والتاريخ، حيث كان يجمع أقرانه لزيارة المتاحف، وما إن فهم أن الهيدروجين والأوكسجين يكونان الماء معا بنسبة ٢ـ١ الذي منه كل شيء حتى سمحت له والدته بأن يقيم في البيت معملاً للتجارب. . وفي تلك السن الصغيرة في المرحلة الابتدائية قام بإصدار مجلة حائط أسماها «المستقبل» وصمم لها شعاراً مكونًا من فلكي يرصد بمنظاره الأفق متابعًا مسار الكواكب والنجوم، ويتسع تبويب المجلة ومساحتها المتصدرة لحوار أجراه ابن السابعة مع الصحفي الكبير فكري أباظة في النادي الأهلي. . وفي الأورمان الثانوية النموذجية كانت كل مجموعة من التلاميذ تتحلق حول مشروع، وكان مشروع سراج الدين «تقطير المياه» الإرهاص المبكر الذي جعله يرى أن المياه هي قضية البشرية المقبلة لتُبرز مجلة «نيوزويك» ومحطة «الـ«سي. إن. إن» في عام ١٩٩٥، تحذير إسماعيل صاحب أول الأصوات التي نجحت في إدراج قضية المياه في أجندة التنمية الدولية، حيث قال: «إذا كانت حروب هذا القرن على النفط فإن حروب القرن القادم ستكون على المياه، إلا إذا قمنا بتغيير أسلوب تعاملنا مع إدارة المياه»، وينجح سراج الدين في إنشاء المجلس العالمي للمياه ليرأسه خلال سنواته الأربع الأولى، ثم يتولى رئاسة اللجنة الدولية للمياه التي جمعت أكثر من مائة منظمة وخمسة عشر ألف شخص حول العالم لتصدر تقريرها المهم «نحو عالم يسوده الأمن المائي» الذي تمت مناقشته بحضور ستة

ألاف شخص في (لاهاي) في مارس ٢٠٠٠، وفي قمة وجوهانسبرج عام ٢٠٠٢ يكون للمياه النصيب الأكبر من المناقشات، وفي عام ٢٠٠٣ يشارك ما يزيد على عشرين ألف شخص في المنتدى العالمي الثالث للمياه الذي عقد في اليابان، وكانت الشرارة الأولى قد انبثقت من مشروع سراج الدين في الأورمان الثانوية التي تخرج فيها وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة بترتيب الرابع على الجمهورية.. ويلتحق بكلية الهندسة جامعة القاهرة ليدرس العمارة ويتخرج أول الدفعة ليتسلم جائزة التفوق من الرئيس عبد الناصر في عيد العلم عام ١٩٦٤ .

وحول تعاطيه السياسة مثل كثير من أبناء جيله يقول الدكتور إسماعيل: «كانت فترة الخمسينيات والستينيات ثرية جداً، فهناك معركة الاستقلال والكفاح ضد الاستعمار المتوغل في الشرق الأوسط وإفريقيا، وقد عشنا بوجداننا قضية فلسطين وجلاء الإنجليز عن مصر وحرب الاستقلال الجزائر والوحدة مع سوريا، ثم الانفصال وأحداث كبرى عديدة، لكن ممارستي السياسة بالمعني الحقيقي بدأت في الخارج، وكنت مسئولاً عن النشاط الثقافي بمنظمة الطلبة العرب في أمريكا مما جعلني في «وش المدفع» وفي صدام دائم مع الطرف «الصهاينة» في الإعلام الأمريكي خاصة بعد النكسة التي كان لها وقعُ قاس علينا لدرجة رغبتنا في قطع البعثة والعودة إلى مصر، لكن الرئيس عبد الناصر طالبنا بالاستمرار في المدرسة، لأن معركتنا تحتاج إلى التسلح بالعلم والحضارة إلى جانب العتاد».

صاحب رسالة الدكتوراه حول «دور التعليم في التنمية» من جامعة هارفارد عام ١٩٧٢، و ٦٠ كتابًا و ٢١ دكتوراه فخرية لم يتم منحه أيًا منها بسبب مناصبه الرسمية بل على إنجازات متفردة، فعلى سبيل المثال حين منحه المعهد الهندي للبحوث الزراعية درجة الدكتوراه، كان إسماعيل سراج الدين ثاني شخصية غير هندية يحصل عليها «الأول كان نورمان بورلاوج الحاصل على جائزة نوبل»، والشيء نفسه مع الكونسرافتوار الوطني للفنون والمهن بفرنسا الذي قام بمنح سراج الدين درجة الدكتوراه مرتين، وهي سابقة لم تحدث طوال تاريخ الكونسرافتوار الذي يمتد لمائتي عام إلا مع سراج الدين وروبرت سولوا الحاصل على جائزة نوبل،

كما منحته الحكومة الفرنسية وسام الآداب والفنون برتبة ضابط، وكانت أحدث دكتوراه حصل عليها الدكتور إسماعيل في عام ٢٠٠٧، في «تنمية المجتمع» من جامعة خازارباكو أذربيجان. . وتعد فرنسا أكثر الدول التي قامت بتكريمه، فإلى جانب رتبة الضابط والكونسرافتوار منحته جامعة «بول ساباتييه» بتولوز عام ٢٠٠٤ الدكتوراه في الآداب، وجامعة نانت عام ٢٠٠٦، دكتوراه مماثلة، وكانت للدكتوراه التي منحتها له الهند عام ١٩٩٨، من جامعة «تاميل نادو» طبيعة خاصة فهي لعلوم الحيوان والطب البيطري، وتفردت دكتوراه جامعة مينسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٥ بأنها في الحقوق. . وكان سراج الدين وثيق الصلة بالعديد من الشخصيات الدولية المرموقة ومنها جورباتشوف وكارتر ومانديلا الذي يصفه بالمناضل العظيم. . بالنسبة للإغريقية في فترة وبعدها العربية، وهذا الأمر لا يضيع الهوية، ولكنه يزيد فرص الانفتاح على الآخر، وأنا ـ والكلام على لسانه ـ كمثال لست متخوفًا، فقد عشت أكثر من ثلاثين عامًا خارج الوطن، لكني ما زلت أحمل جواز سفري المصري، وأقرأ الثقافة الإسلامية العربية، وأمارس شعائر ديني، ولم تضع ذاتي، لكني كسبت انفتاحًا على الآخر.

ونسأله عما إذا كانت الحضارات كائنات تضعف وتهرم وتموت، وعما إذا كان القرن الذي نعيشه مقبرة لبعضها، فيجيب: «إن مثل هذا المصير قد حدث وسيحدث، فقد بدأنا القرن بستة آلاف لغة، لم يبق منها على قيد الحياة في نهاية القرن سوى ٦٠٠ فقط، ولا أتخيل استمرارها جميعا، فغالبيتها محصور في مجموعات ضيقة، بينما الناس تتحرك والانفتاح يزيد، لتتطلب الحاجة لغات تفهمه الغالبية، ومن هنا سيشتد الطلب على الإنجليزية لغة العلم والتجارة، التي ستصبح بمثابة اللغة الثانية لجميع الدول»، وقد يبدو في ذلك نوعًا من الهيمنة لكن علينا ألا ننسى أن الأمر كان هكذا وليس أجدر منها في صحبتنا إلى كواليس الدكاترة إسماعيل سراج الدين. . شقيقته الدكتورة «هدى» رئيس الجمعية المصرية لحماية الملكية الفكرية ـ الشقيقة الثانية «منى» أستاذة التخطيط بجامعة هارفارد ـ التي نبحر معها في رحلة التكوين للأخ الأكبر إسماعيل فنجده كما تقول د. هدى في جميع أطوار حياته نموذجًا للجدية التي لا يدَّعيها في العمل أو البيت، حتى إنه قام

بتعليم نفسه الفرنسية ليجيدها التقاطًا من كتب الشقيقتين اللتين كانتا تدرسان في مدارس الراهبات: «حب المعرفة كان أساسيًا في تركيبته الإنسانية، لا يكتفي بالمنهج الدراسي وإنما يدور من حوله بالاطلاع على الكتب والمراجع التي يشتريها من مصروفه.. لم يلحقه الوالدان بالتعليم الأجنبي بإصرار منهما على المدارس الحكومية ليزداد اهتمامًا بقضايا الوطن من طفولته.. وهو في صحبة الكبار.. قام بحمل المسئولية صغيراً بعد رحيل الوالد إثر حادث سيارة، حيث كان قادمًا من رحلة صيد بالغردقة وشَاء القدر أن يقضي نحبه وحده بينما بقي صديقاه على قيد الحياة.. لم يرث إسماعيل عن والده هواية صيد السمك معترضًا على قسوة انتهاك لوحة الحياة المائية وسكانها، وإن ورث عنه عشقه للماء والغوص في البحر الأحمر ليؤلف كتابًا عن الشُعب المرجانية، وأطلق استغاثة دولية لحمايتها، ولاتساع صدر الماء وأغواره له كشفت له شواطئ المرجان وخلجانها عن كنوزها ليطلق على أحد أنواعها اسمه لتضمه الموسوعة العالمية.. وكان مما لفت نظري أثناء الدراسة أن إسماعيل رغم التحاقه بكلية الهندسة هناك كان يمضي غالبية الوقت بين المحاضرات عندنا في كلية الآداب بحجة أن الكافتيريا عندنا أفضل من عندهم، واكتشفت أن المسألة ليست لها علاقة بمستوى الخدمة أو رحابة المكان أو الإطار العام، وإنما لأن قلب الأخ العزيز قد مال لإحدى الزميلات في قسم الأدب الفرنسي وهي نيفين مدكور ابنة العالم الراحل الدكتور إبراهيم بيومي مدكور رئيس المجمع اللغوي التي نجحت بتفوق لتغدو معيدة بالكلية، ولم ينتظر إسماعيل انتهاءه من الدكتوراه التي سافر في بعثة لنيلها من جامعة هارفارد فأرسل ليتزوج نيفين بالتوكيل من هناك لتغدو شريكة حياة مستقرة واعدة وأُمًا لابن الوحيد «عمر» محامي القانون الدولي في واشنطن وجدة للأحفاد وطارق ومالك.. وسأظل أبدًا أتابع نصيحة إسماعيل عندما قال لي لا تحكمي على كتاب أو بحث عن طريق سماع آراء الآخرين فيه، ولكن قومي بقراءته بنفسك ودققي وتأكدي ومن بعدها أطلقي حكمك..».

إسماعيل سراج الدين رئيس العمل الذي لمست بنفسي دأبه على العمل لمدة ١٨ ساعة يوميًا في عام ١٩٨٨، يعطيه الله العافية ـ وامسكوا الخشب ـ لا يزال منضبطًا على تلك السرعة وذلك المستحيل من الإنجاز، وقلبي على الفريق الذي يعمل معه

ومن قياداته الدكتور محسن يوسف أبرز واجهة لمفهوم الدينامو، الفريق الذي استطاع تحت قيادة المايسترو سراج الدين كمدير لمكتبة الإسكندرية في مدة لا تزيد على خمس سنوات استقبال أكثر من مليون زائر سنويًا وتنظيم أكثر من خمسمائة حدث ثقافي في كل عام. . . لقد كان اسم مكتبة الإسكندرية بمثابة الكلمة السحرية التي لها وقع خاص بوجدان إسماعيل، ولولاها لما ترك منصبه الدولي في واشنطن ليحقق هدفه منها في أن تكون نافذة العالم على مصر ونافذة مصر على العالم، وملتقى للحوار.

مايسترو مكتبة الإسكندرية - التي تقوم مطبعتها الإلكترونية الحديثة - الثانية من نوعها على مستوى العالم وثمنها مليون دولار - بطبع أي كتاب من جميع التخصصات في ١٠ دقائق باستخدام الليزر، كان دائمًا منفتحًا على جميع الثقافات والفنون الرفيعة، فهو ابن الأسرة التي غرست لديه حب الشعر والتاريخ والتراث والفلسفة والعمارة حتى إن زكريا محيي الدين رئيس الوزراء وقتها، سمح له بالسفر للحصول على الماجستير بعد أسابيع من تعيينه معيدًا في هندسة القاهرة - تقديرًا لنبوغه - فالتخصص في رأي إسماعيل لا ينفي توسيع دائرة المعارف، وهو في ذلك الحفيد الذي أورثه الجد علي باشا إبراهيم رائد الطب اهتماماته المتشعبة، حيث جمع بين مهنته وعشقه للآثار الإسلامية، فإلى جانب حمله لقب الجراح الاستشاري للحضرة العلية السلطانية بعد إجرائه جراحة ناجحة للسلطان حسين كامل ليكافئه باللقب ومبلغ ألف جنيه ذهبًا، وتأسيسه لنقابة الأطباء المصرية ليغدو أول نقيب لها، وتشييده لقصر العيني الجديد عام ١٩٨٢، بعد نجاح علاجه للملك فؤاد، حيث أقنعه بالتنازل عن الأرض التي كان قد خصصها لبناء قصر منيف لولي العهد فاروق، وإنشائه لجامعة فاروق الأول بالإسكندرية والجمعية الطبية المصرية. . إلى جانب ذلك كان الجد عضوًا بمجمع اللغة العربية وعاشقًا وخبيرًا في الآثار المصرية خاصة السجاد، وقد أهدى مجموعات نادرة من مقتنياته إلى متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ومتحف الآثار بكلية الآثار بجامعة القاهرة، وكانت له عدة بحوث حول عالم النسيج.

سراج الدين الذى انتخب شخصية العام في مهرجان القرين الثقافي بالكويت عام ٢٠٠٢، المتعدد، المتنوع الاهتمامات. . من المياه إلى العولمة. . من البيئة إلى التنمية. . من العمارة للأدب. . من حقوق الإنسان إلى التراث الإنساني. . من الطاقة للبطالة. . من المرأة إلى الكتاب. . من بنك الفقير إلى حرية التعبير. . من أبي العلاء المعري لوليم شكسبير. . الشاعر الإنجليزي العالمي (١٥٣٦-١٦١٦) الذي ألّف عنه إسماعيل كتابًا فريدًا معجبًا به كواحد من أكبر الأدباء الإنسانيين العظماء الذين حاولوا في كل ما كتبوه أن يعالجوا المشكلات الكبرى للإنسان والحياة. ولو أغمضنا عيوننا بعد قراءة شكسبير وتساءلنا ما هو المختصر الذي يريده الأديب العظيم، فالإجابة الصحيحة سوف تكون أن رؤية شكسبير الكبرى ما هي إلاّ دعوة إلى التواضع الإنساني الصادق، فمنطقه: تواضعوا فلن تكونوا أكبر من ملوك سقطوا عن عروشهم وهم في أوج مجدهم وقوتهم، ولن تكونوا أقوى من أصحاب سلطان تدحرجوا من فوق القمة فجأة وأصبحوا لا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا. . ومن طبع وطبيعة محمد إسماعيل سراج الدين التواضع.

ويبلغ العدد المائة من ندوات «منتدى الحوار» في مكتبة الإسكندرية. . كانت الندوة الأولى في يونيه ٢٠٠٣ بعنوان «تطور علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بالعالم خلال القرن العشرين» التي تحدث فيها الدكتور إسماعيل سراج الدين والدكتور عبد المنعم سعيد، وآخرها هذا الأسبوع بعنوان «حرية التعبير» التي قال فيها الدكتور سراج الدين كلمته الشاملة، حيث يمتلك ناصية الاستيلاء على مجامع سمع الحاضرين كصاحب لقب «أفضل محاضر في العالم» الذي حاز عليه من الدنمارك في عام ٢٠٠١، والتي أورد فيها قبول التراث العربي الإسلامي للتعددية والرأي الآخر حتى لو وصل إلى صور استفزازية، واستشهد بأقوال وأشعار من التراث تجاوزت حتى على المقدسات دون أن يفضي بأصحابها إلى الاعتقال أو الترهيب، وضرب مثلاً باتساع أفق الدولة الإسلامية عن طريق التراجم في مرحلة مبكرة من تاريخها، مما فتح النوافذ أمام العقل المسلم والحضارة الإسلامية على كل مواريث العلوم في مختلف الحضارات التي سبقت ظهور الإسلام - حتى ليذكر ابن

النديم في مؤلفة «الفهرس» أسماء أكثر من سبعين من التراجمة عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلى العربية، وهي لغات العلم العالمي في ذلك التاريخ، ورأينا عند ابن رشد: «إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك. . سواء أكان مشاركًا لنا في الملّة أو غير مشارك في الملّة. . فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان صوابًا قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه». . وحتى جمال الدين الأفغاني قد قال: «إن أبا العلم وأمه هو الدليل. . والحقيقة تُلتمس حيث يوجد الدليل». . ومن قبل جميع هؤلاء قوله صلى الله عليه وسلم: «الحكمة ضالة المؤمن، أنّي وجدها فهو أحق الناس بها». . وتتصارع المنصة في منتدى الحوار حيث لم يستطع الدكتور جابر عصفور القائم بإدارة الندوة بما جُبل عليه من التصدي بروية لتصحيح ما يراه من وجهة نظره خروجًا على نتائج قَد توصل إليها، فيقوم في النهاية بتعقيب فحواه أنه كان قد أمضى أكثر من عام من حياته في رصد الشعراء والأدباء والمفكرين الذين سُحلوا وبترت أيديهم من خلاف عقابًا على تجاوزاتهم فوجدهم بالعشرات، وأنه لم تكن هناك تلك الحرية الواسعة في التعبير المكفولة في التراث العربي كما قد يبدو من كلام الدكتور إسماعيل. . الدكتور الذي يبادر باستعادة الكلمة الأولى والأخيرة ورئيس المكتبة والداعي لحرية التعبير ليقول بأنه عندما ساق بعضًا من الأقوال الشجاعة من التراث قد ضربها كأمثله لها مدلولها لكنه لم يعمم، وهو الآخر يستطيع ذكر عشرات في التراث العربي الإسلامي ممن لاقوا عذابهم عقابًا على تجاوزهم. . وظلت المواجهة سجالاً للذاكرة الحديدية لقمتي الثقافة المصرية، المحفور على جدرانها المعلقات، وقصائد التراث في المديح والرثاء، والفخر والقهر، وتحرر الفكر.

وما بين البداية والنهاية في الندوة المائة للجدال، فعند الحديث عن حرية الرأي فإن مظهره حق الجدال، والجدال في العربية فيه معنى الصلابه، والجدل هو عنف الخصومة في المناقشة، وأكثر ما يُستعمل الجدال والمجادلة في صراع الآراء والأفكار، حيث يحاول كل مجادل أن يحكّم رأيه ويناضل عنه في صلابة، وفي القرآن الكريم في سورة الكهف ما نفهم منه أن كثرة الجدل ظاهرة إنسانية من

الخواص التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾، ومن هنا قدر الإسلام ـ وهو دين الفطرة ـ طبيعة الإنسان التي تختلف عن طبيعة الملائكة وبقية الكائنات فأفسح له وجه العذر حين يكون جداله عن رأي حر وفكر حر ونيّة خالصة، لأن هذا الجدال من لوازم إنسانيته التي حمل أمانتها . . ولقد جادلت امرأة مسلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في زوجها حين ظاهر منها، فلما لم تجد لدى الرسول ما يفرّج كربتها اشتكت إلى الله فسمع سبحانه قولها ونزلت فيها آيات المجادلة: ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ ويُروى عن عمر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا دخلت عليه تلك التي جادلته، أكرمها وقال: «لقد سمع الله لها».

الـ.. يوسف إدريس

أظل من بعده سنينا أدير رقم تليفون منزله لأسمع صوته يقول لي خداعا: إنه حاضر، وهو الغائب، لكنه الحاضر أبدا بكل كلمة كتبها رائدة هادرة ثائرة ومؤثرة، دامية دامعة، تتلمس الجراح وتضع يدها على بيت الداء وتصف الدواء: أهلا.. أنا يوسف إدريس. لا أحد في المنزل. اترك اسمك ورقم تليفونك وسوف نتصل بك بمجرد عودتنا.. ويوحشني فيحنو القرص الآلي على وحشتي ليعيد على سمعي ما قد امتلأ به يوما ليقول لي كاتبي أهلا مرة أخرى ويذكر اسمه ولقبه وعذره وبارقة أمل في عودة عبثية لحديث المستحيل.. لشهادة شجاعة نفتقدها في أيامنا هذه.. لسؤال للنفس وللآخرين: إذا كنا قادرين على العظمة، فلماذا التفاهة؟!

يوسف إدريس.. الكاتب الفنان بكل ما تحمله الصفة من جموح وخروج عن المألوف ورفض للبراويز والإطارات المحكمة.. الكاميرا المشحونة على الدوام بعدسة مفتوحة باستمرار تلتقط بوضوح وحدّة، لا تفرق بين وهج النهار وسواد الليل، وتستطيع التحكم الذاتي لتتحول إلى مرصد يلتقط أسرار الكون، وفي قدرتها الخلاقة أن تتضاءل لتصبح بحجم الإلكترون لتطلع على ما يجري في مجاهل الخلايا البشرية وأحراش النفس البشرية.. يوسف إدريس الدكتور كان يفتح عيادته الفكرية في الدور السادس بمبنى الأهرام، أيام كان الأستاذ محمد حسنين هيكل في برجه بالدور الرابع يستدير بمقعده الدوار ليقول لي ناظرا للأفق من الشباك الزجاجي العريض في قلعته الحضارية: ليس هناك صاحب فكر في مصر لم يحتضنه الأهرام ليكتب على صفحاته. لا تضيعوا الوقت في الثرثرة الفارغة. اذهبوا إلى تلك النخبة من أصحاب العقول جالسوهم حاوروهم اسمعوا لهم واستفيدوا فالفرصة المتاحة الآن لن تكررها الأيام.. في الأهرام نجيب محفوظ

ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم وأحمد بهاء الدين وزكى نجيب محمود وبنت الشاطئ ولويس عوض وحسين فوزي وعبد الرحمن الشرقاوي . . . وأهرع إلى يوسف إدريس الزعيم بلا مظاهرات، الطفل العملاق، المناضل لدرجة السجن، المبشر بشيء آخر غير الموجود على الساحة . . شيء ربما لا يعرف كنهه بالتحديد لكن لا شك أنه شيء جديد يحتاج إليه المجتمع كله .

من يريد أن يغير المسرح كله، فالمؤسسات القائمة في رأيه تحتاج إلى أن تتغير وعلاقتنا بدول العالم تحتاج إلى التغيير، وهناك أشياء كثيرة أخرى في حاجة إلى التغيير . . ! ويغدو العملاق صديقا غاليا وعزيزا، وتدعوني زوجته لجلسة حريمي في بيته لأفاجأ بما لم أتوقعه فأعود إليه عاتبة مؤنبة، وإن لم يكن لي الحق فيما قلته لكنه الكاتب الذي يسقط جدران الحرج ويدعو لحرية القول والنقد والفكر . . كيف بالله عليك وفي بيتك مثل تلك الزوجة الرائعة الحسناء الأنثى الذكية الواعية أن تقول قولا حسنا لأية أخرى غيرها؟ ! ! فيأتيني رده الطفولي المرح مذيّلا بضحكته الصاخبة : «والله لا مانع من بعد الشيكولاتة والمارون جلاسيه من تناول حاجة حرْشة خيارايةمخللة . حتة لفت حرّاقة . زيتونة حادقة» . . وتجلجل الضحكة ونَغفر لشقاوة الطفولة في عيني المارد الخضراوين، فالعائد علينا منه عبقرية ينجبها النيل في التاريخ مرة . . . وأطرق باب عيادته ـ معذرة مكتبه ـ يوما لأجد أمام صاحب العيب، والحرام، وبيت من لحم، وحادثة شرف، والنداهة . . أجد صاروخين . . شقراوين لا تقاومان . . صباح وابنتها هويدا في كامل لياقتهما البدنية التي تنسدل فيها على ظهريهما لحد خط الوسط شلالات من الشعر الذهبي فهتفت في الصبوحة : يا شيخة والنبي حرام الدكتور حيلاقيها منك ولا من بنتك . . ويقهقه يوسف إدريس الفارس الذي لم يضحكه بعدها ما فعلت به وكان قد أوصلني بعربته لبيتي حاملا لي علبة الكعك الذي كنا نشتريه طازجا من كافيتريات الأهرام، فودعته شاكرة متوجسة مما سوف يحمله الغد لنا، فقد كان هناك ردي على ما كتبه بالأمس تدور به في نفس اللحظات تروس المطبعة . . كان الدكتور في مقاله مبهورا بفتاة الكويت التي تركب الأوتوبيس ـ وقتها ـ لتقرأ في مشوارها كتابا يزيدها ثقافة . . كتب معجبا بالكويتية المثقفة التي تبادله النقاش والحوار وتسوق الحجة

بالحجة لتسبق المصرية بمراحل في عالم اتساع المعارف والاطلاع . . اغتظت يومها من الأستاذ فكتبت ردا عليه تحت عنوان لا يا دكتور أسأله عن مدى وقت فراغ المواطنة المصرية صاحبة الملاليم المتبقي لديها من بعد مشوارها اللاإنساني اليومي في الجري وراء لقمة العيش وخدمة العيال ومطالب الزوج والطبيخ والغسيل ورئيس العمل ومواعين الحوض ومذاكرة الأنجال . . سألته أين لها ذلك الوقت المخصص للقراءة والاطلاع والمناقشة والجدل والحوار؟! . . استفسرت منه عن ذلك الأوتوبيس المتحضر الذي تجلس فيه منزهة من أي كوع خسيس أو تلامس ضاغط في الزحام البذيء . . أين لها من فسحة رؤيا تتطلع فيها من النافذة لتفكر وتفكر بعدما تقرأ سطرا في كتاب يمشط خلايا نافوخها ويدعوها للتفكير . . أقسمت للدكتور أنه لو كانت يد بنت النيل فاضية ـ وهو أمر له ندرته ـ فلن تفتح بها من غلبها له أو لغيره كتابا وإنما ستضع يدها تلك على خدها في وضع المصرية المتوارث المقهور . . . قالوا لي في الصباح إن يوسف إدريس قد أصيب في مكتبه بأزمة صحية بمجرد قراءته لما كتبته . . وشعرت بمدى إحساسه بالإحباط ونكران الجميل ممن صنع بها بالأمس معروفه ، فذهبت لاجئة للأستاذ أحمد بهاء الدين أطلب مشورته فنصحني بطرق الحديد وهو ساخن والذهاب الآن ليوسف إدريس للتخفيف من وطأة قسوتي في ردي عليه . . وأمام باب مكتب يوسف إدريس ترددت مرة أخرى خاصة وأنه كان قد أصيب قبلها بأزمة صحية طاحنة ، فهرعت أستنجد برجاء زوجته التي أجابتني بأنه تعبان صحيح ، لكنها وهي الحكم العادل أعطتني كل الحق فيما كتبته وحفزتني للذهاب إليه . . وكان . . وعاتبني أستاذي القارئ لكف الغد . الزاهد فيما هو متبع . المؤمن بنزع ستر الزيف . الرافض للبين بين . المغوار إلى مدى التهور . المحلق في الأجواء البكر . الوطني لحد السيف .

الثورجي حتى تنصلح الأحوال المايلة . . سيد الفرفور وأبو الرجال والبهلوان . . ردد يوسف إدريس على مسامعي رؤيته من أنه ليس مهما إطلاقا أن نكتب فقط ، ولكن المهم ماذا نكتب ، وماذا نقول للناس فليس بعسير أن نخرج إلى الناس كل يوم بعمود أو مقال ، لكن المهم الكيف قبل الكم والتواجد في الأسواق وعلى الأرصفة وتحت المانشتات العريضة . . لا بد وأن نسأل أنفسنا قبل أن نكتب : ماذا

سأضيف؟! . . وماذا سأقدم . . وهذا ما لا يفعله آخرون يملؤون الأرصفة وصفحات الصحف بالكلام الساكت الذي لا يقول شيئا.

عند الشروع في إصدار مجلة نصف الدنيا في فبراير عام ١٩٩٠، نعمت بأقلام ثلاثية الإبداع في مصر الذين طلبوا مني حجز صفحاتهم الأسبوعية فيها. . الأستاذ أحمد بهاء الدين سيكتب مقالاته حول جدية التذوق الفني، والعملاق نجيب محفوظ سيمنحني كل ما يجود به قلمه ليكون حكرا علينا وحدنا، والدكتور يوسف إدريس يحجز من الآن صفحتها الأخيرة: «سأكتب لأول مرة قصة حياتي الحقيقية من بداية مولدي طفلا في قرية البيروم. . سأكتب أخطر أعمالي الأدبية التي فيها تعرية للنفس والتاريخ والأصل والنسب والأسباب والمسببات ودور الأم والأخت والجدة وأصل المعرفة والحب والجنس والنزعات». . وبدأ إدريس يكتب فصلا وآخر وآخر، ونرسل إلى المطبعة بفيض الاعترافات تحت عنوان «ملكة» وتتصل بنا صحف عربية تريد نشر المسلسل الروائي في نفس اليوم والتوقيت معنا، وتعرض عائدا ماديا يصيب أي كاتب بالذهول، وأسارع بتهنئة يوسف إدريس فيسعد ونعقد الاتفاق العربي، ويمتد خيط الاعترافات عن بدايات شعور طفل القرية بدبيب الرجولة، وأقرأ تلك الحلقة ويسقط في يدي فقد كانت عبارات الأديب الجريء تتجول بحرية جامحة في عالم التعرف على الجنس لا أستطيع مواجهة بعض سطورها وكلماتها، ولم أجد لديّ الشجاعة ولا الحق أو الجرأة للتصدي لها وسحب تلك الكلمات المتجاوزة من تحت عيون القارئ، فلجأت إلى رجاء أقرأ لها ما خشيته فشاركتني تخوفي ونصحتني بالتقاط بعض الكلمات ووضعها جانبا وطمأنتني بقيامها بدور المحامي في مواجهة غضب الكاتب الكبير.

وظل يوسف إدريس يكتب أحداث حياته، وفجأة وجدت صوته يعتذر عن التكملة. . أرجوك. . لماذا؟! . . لقد تعلق بها الجميع بشغف بالغ. . حرام عليك. . سرد لي يومها أكثر من حجة لم يطاوعني مخي على تصديقها، وصدق حدسي في أن صعوبة وحساسية كتابة السيرة الشخصية قد صنعت قفلة لدى المتدفق الفضفاض صدقا. . كانت روايته «ملكة» قد فتحت جراح طفولته التي ظل يتهرب

منها دوما . . عندما وضع الكاتب المحلل أحداث حياته أمامه على مسرحه الخاص لم يستطع تحمل زخمها ولا تداعي وتفاقم مواقفها فتوقف . . وذهبت أنا أبحث عن طفولته في قرية البيروم شرقية التي ولد فيها ابنا لبرج الثور في التاسع عشر من مايو سنة ١٩٢٧ . . لاقيته طفلا خلابا يلمع صحة تعكسها شقاوة في العيون الخضر .

عربة الثري صاحب الجاه والمال والسلطان توقفت فجأة على الجسر فأزكت سحابات التراب . صيدناوي باشا يا ولاد . يلفت طفلنا يوسف نظر الباشا ويدهشه جماله . برافو ابن فلاح! . . يقدم الباشا عرضا مذهلا على الأبوين . اعطوني الولد . . لا يا باشا الضنا غالي . سأتكفل بتنشئته وإرساله لفرنسا ليشب على غير حالكم الواقع . . محال . . سيتعلم بجانبي ويأخذ شهادة كبيرة ويرطن بلغة الأكابر . . أبدا لا ممكن . . الهنا هناك صدقوني ، لا أود للطفل الجميل أن يخيب ويرتع مثلكم في الضيم والطين . . النار ولا العار يا باشا سلو بلدنا . . المليونير الأجنبي كان يستكثر على أبوين فلاحين من قرية مصرية إمكانية إعطاء هذا الطفل الجميل . . كان يريد أخذه . نهبه . استلابه مثلما حرص الأجنبي على أخذ كل غال وجميل في مصر .

وحمدت الله على الإصرار بالرفض الذي أعلنه الفلاح إدريس على مفتش الأنفار لحفر القنوات والترع ليشب لنا يوسف إدريس ينطق بالعربية ويكتب بالعربية ويخترع عربية جديدة ، رغم العيون الخضر . وأسأل رجاء الزوجة عن الطفل في يوسف إدريس الزوج فتجيبني : لم أكن أريد له الكبر ولا أن يشيخ ، ولا كان بطبيعته كذلك . . شقاوة طازجة لا تعرف الروتين . . هرجلة قوي قوي قوي . . قوي . . في كل شيء . . «لم يكن الترتيب إحدى خصاله ، لا في حياته ، أو دولابه ، أو وقت نومه أو طعامه أو نشاطه أو . . الجزء الوحيد المرتب فيه مخه» .

يوسف إدريس رغم رحيله الأبدي عن رجاء . . عن حجرتها وبيتها وذراعها ومائدتها ، ما زال صوته يوقظها وأنينه في رجع الصدى تهرع إليه : عاوز حاجة يا يوسف؟! كان مبتغاه حبا ليس ككل حب . احتواء لم ينل من قبل . امتلاكا لم يحظ بمثله أحد . استحواذا يخندق كل أطراف المساحة . ظمأ يجفف مدى المحيط .

نهما لا يبقي لبستان العشق زهرة. حضنا جداره رحم نساء الأرض. . في ذرى حبه لرجاء همس لها تمنيا لو أنه يقلصها. يختزلها. يصغرها لحجم قبضة يده ليواريها جيبه جوار قلبه. تمنى أن يسلسلها لسريره لتبقى ملتصقة أبدا به يقظانا وغائبا، صامتا وهاذيا، مقهقها ومتأوها. . قصتها معه رواية العمر. . لقاء على بسطة السلم: «شقيقتي إسعاد زوجة الكاتب الراحل إسماعيل الحبروك ابتاعت حجرة مائدة جديدة فذهبت لمساعدتها. أدخلنا الكراسي وبقيت الترابيزة الطويلة يعوقها باب المدخل، وما كان مجديا سوى فتح باب الشقة المقابل ليتسع المكان لاستدارتها في مرورها. خرج إلينا صاحب الشقة يقدم خدماته ويديم في عيني النظر فيسرق ناظري حتى تعثرت وكدت أنكفئ فوق الترابيزة. . ومع صياح ديك الفجر هب الحبروك مذعورا على جرس الباب اللحوح وفتح للجار في انتظار تلبية إنقاذ سريع لا يحتمل تأجيلا. . خير يا دكتور يوسف؟!!. . أتى الجار يطلب يد حسناء الأمس الصغيرة صاحبة الضفيرة الشقراء. . ولأنه يوسف، بات ليلة الموافقة على الفرح يوم الخميس القادم سهرانا يناقش خطوته المصيرية الجريئة. كان عنده ٢٩ سنة، وخايف موت من الزواج. . كان بحثه الدائم عن أنثى لها مواصفات خاصة، مخاصمة العنف ممتلئة حنانا. زوجة لا تمتطي الجواد الجامح بل تتركه يرعى بلا مقود في السهول يذهب كما شاء ويأتي كيفما شاء. . وفوجئنا معا أنا وأمي بخطاب طويل في الصباح تعطينا سطوره الحق في التراجع ويمنحنا فيه بنود أحقية الاعتذار. . ساق لنا عذرا بأن فارق السن كبير بيننا، وقال إن تاريخه حافل بالأحداث ومنها السجن والاعتقال، وقال إنه عاشق للحرية ومحال تكسير أجنحته بهموم المسئوليات والروتين؟. وكان شهر العسل أسبوعين فقط على شط رأس البر لضيق ذات اليد. . صحيح كان غيورا لكنني أيضا لم أكن الست الضعيفة أو الزوجة الملقاة كقطعة موبيليا خلف باب الشقة. . وأنجبنا سامح لعشقي لاسم بطل قصته «لعبة البيت»، وبعده بهاء بعامين اختصارا لاسم الكاتب العزيز أحمد بهاء الدين، وبعدها بـ ١١ سنة جاءت نسمة التي قال عنها: لأول مرة أرى أمامي أنثى تتخلق. المرأة بدلالها وأنوثتها ومكرها وذكائها تنمو ويشب عودها. . يوسف ظل معي يحيا حياة العازب. . كان نافرا من المرأة حذرا منها ولا يثق فيها، وقد أتى ذلك من

علاقاته السهلة الكثيرة جدا قبل الزواج، ولأنه افتقد في طفولته الحنان. . الافتقاد والوحشة التي قال لنا عنها يوسف إدريس في جلساته المسترخية البيتية الدافئة: طوال سنوات طفولتي كنت محروما من المرأة كأم وأخت وقريبة أيضا، بمعنى أن المجتمع الذي عشت فيه طفولتي كان يفتقر إلى حد ما إلى وجود النساء! أولا عيلتنا كلها عيلة رجالي، بمعنى أن عدد النساء فيها قليل للغاية! وعدد البنات قليل جدا، يعني يكاد يكون معنديش بنت عم أو بنت خال. . كلهم أولاد خناشير، فكنت أفتقد إلى العائلة النسائية. . منذ سن التاسعة تقريبا كنت أعيش في غرفة وحدي في الزقازيق لأدرس وأتعلم، وكان معنى ذلك تدبير معيشتي من إعداد طعام وغسيل. . . . إلخ. . كان حلم حياتي وقتها أن أتناول مع أخواتي طعاما من طبيخ أمي. . هل يصدق أحد أن أول مرة تقبلني فيها أمي كانت عندما التحقت بكلية الطب؟!. . كانت تؤمن بالتربية الصارمة، وكانت شخصيتها أقوى من شخصية أبي صاحب الطريقة الساحرة في الحديث. . أمي سيدة لا تقرأ ولا تكتب وكانت دعوتها الدائمة لي كلما زرتها: روح يا يوسف يا بني ربنا يتوب عليك من الكتابة. . ويقوم يوسف يتمشى في الصالة تؤججه الذكرى والرغبة في إلقاء درس من دروس العمر: الأم مش بس تديلك الحنان والحب والأمان والعطف، وتحب فيها جنس النساء! الأم تعمل ما هو أخطر وأهم من كل ذلك. . ! إنها أول امرأة تعرفها، فإذا كانت العلاقة بينها وبينك علاقة تفاهم، فإنك فيما بعد ستتفاهم مع بقية صنف النساء! أما إذا كانت علاقة سوء فهم فستظل علاقتك بالنساء جميعهن سيئة في مستقبل حياتك. . وعمرك ما تلقى ست عندها أمومة فائضة إلا إذا كان عندها أنوثة فائضة، ومن فيها جدب في الأمومة محال تشع ولو فولت واحد أنوثة». وتخرج رجاء من صدرها زفرة طويلة طويلة. . وأنصت لحواء عندما تخطط للوصول لمن تحب: «مكثت طويلا لا أعرف كيف أفهمه نفسي. لا أدري كيف أشرحني له. كيف أنا أحبه. لم يكن متخيلا قدر ما يلبسني عشقه، لكن بذكائي البدهي عرفت أن عودة ثقة يوسف في النساء هي مهمتي الرئيسة، وأنه ليس ممكنا أن يغير رأيه فيهن إلا من خلالي وتأكيدي له كل لحظة ودقيقة بالكلام والأفعال، ولم أقبل هامشيتي خارج عالم الفنان السري الموصد على أنها مقدر

ومكتوب خاصة وأنه بدأ في السهر خارج البيت مع شلة كامل الشناوي حتى خيوط الفجر . . وسألته خذني معك؟ . . دورك أم وربة بيت وتربية نشء ومملكة أنت راعيتها، ولأني أحببته أردت أن أشاركه الطعام والفراش والكتاب ومجلس أنسه . . ونجحت . . ذاكرت وأخذت الابتدائية والإعدادية والتوجيهية من منازلهم، وبعدها ليسانس قسم الفلسفة في كلية الآداب، وبعدها التحقت بمعهد التذوق الفني في الهرم ونلت الشهادة مهيأة كناقدة هدفي يوسف وإبداعه ومبتغاي أن أصل إليه وأتسلق جدران معرفته وأسكن عقله وأصادق وعيه وأتفهم رسالته من أجل تغيير المجتمع . . و . . كنت واقعية أعي أنه بمغامراته يريد أن يثبت لنفسه أنه إنسان مرغوب، وأن الزواج لم يطفئ شمعته، ولا سرق منه جاذبيته أو أخمد فيه قوة سحر رجولته . . كان يعصف بي الضيق أحيانا لكن مهارتي كانت في ابتلاع غيرتي وانتظار إياب يوسف لأحضاني يحكي لي دقائق رحلته مع أي أخرى، وبعد كل تجربة كان يحبني أكثر لاكتشافه أن المغامرة عمرها قصير وحبنا الأبقى . . يوسف بحكم قسوة طفولته كان متعطشا دوما لحب المرأة، وكانت مهمتي الأولى كيفية سد فجوة تعطشه الكبير للحنان . . إشباع جوع الطفل فيه . . ونجحت وأتت نسمة تعاونني في المهمة الصعبة، واستطعنا معا أن نوصل له حبنا فارتوى وبرأ من علته المزمنة . . رجاء . . ملحوظة رصدتها عنه . حبه للون الأبيض . . أبيض ديكور بيته . بذلته في لون القطن قبل صباغته . أنت انتقاك ببشرة بيضاء، وفي أدبه كتب روايته «البيضاء» . . أين رماديات يوسف إدريس؟! تجيبني قائلة: «محال تجدين في صحبته الرمادي . ما كان أبدا يعرف الوسط . سمات شخصيته يا أبيض يا أسود . لا يعرف كيف يكتب قصة نص نص، أو يقدم هدية نص نص، أو يأخذ موقفا نص نص . . يا إما يحبني قوي يا ميحبنيش . . صوت الأنين المكتوم لا يصدره بل يصرخ بعزم ما فيه بالآي آي . . حتى في مرضه لا يقف في مرحلة البين بين فلم يمرض أبدا بوعكة طفيفة أو بأنفلونزا أو تحمر عينه من ذرة تراب أو يتورم إصبعه من شوكة فرع ورد . . أبدا . . أمراضه كلها كارثة . . يموت ويدخل في غيبوبة . يفتح قلبه بعملية تكون الأولى من نوعها . يكسر رقبته ويقعد شهرين ثلاثة في الجبس . . يشق الوريد في ساقه ليهرب دمه كله» .

دكتور يوسف. . كلما نظرت إليك شعرت أن الزمان لا يمر عليك وإنما يمر من حولك دون أن يترك أثرا على ملامح وجهك أو على كلماتك!

يضحك لكلماتي معلقا بأنه حينما يمتزج الكاتب أو المفكر امتزاجا عضويا بالحياة فإنه بالضرورة يكتسب من حيويتها وشبابها المتدفق بالعطاء.

دكتور يوسف أنت أحببت عبد الناصر وبشدة؟!. . يؤمِّن على تساؤلي بإجابة فيها أن عبد الناصر لم يكن يعمل بناء على نظرية وأنه كان زعيما وطنيا وهذا ما يغفر له كل شيء. يغفر له الأسلوب الذي لجأ إليه للتبشير بالوطنية، ويغفر له العنف الذي قاد به هذه الوطنية، ويغفر له الشك والريبة في الآخرين بسبب خوفه من العملاء سواء في الداخل أو الخارج، فهو في الأساس رجل وطني يحب الفقراء ويحب ما يمكن أن نسميه العدالة الاجتماعية. . عبد الناصر كان لا ينظر في عينيك وأنت تتحدث إليه، ثم فجأة تنقض عيناه على عينيك في أقل من لمح البصر. . كان لون عينيه غريبا. . كانت غامقة بشكل أقرب إلى لون العسل الأسود. . وتحس أنها نظرة غدرت بك فجأة، نظرة أخذتك وأنت غير مستعد أو مش واخد بالك! فإذا خطر ببالك أن تكذب في وجوده أو تقول شيئا ينتابك خوف مجهول على الفور! وكأنما كانت نظرات عيني عبد الناصر تقول لك: أنا عارف أنت هتقول إيه. . ومع إعجابي بعبد الناصر آليت على نفسي ألا أن يكون بيني وبينه مسافة ألف كيلومتر لأنه كان على النقيض لشخصيتي. . بمعنى أنه كان منظما كتوما مدبرا يأخذ ما يديش في الكلام. . وأنا صريح، فوضوي، ساخط، لا أكتم.

دكتور يوسف. . لأي حزب تنتمي علانية أو في السر؟. . لا أنتمي لأي حزب ولقد استقر رأيي وقناعتي بأن الكاتب صاحب الفكر لا بد وأن يكون هو نفسه حزبا قائما بذاته يمكنه من نقد الجميع سلبا وإيجابا، معارضة وتأييدا.

دكتور يوسف لماذا توقفت عن كتابة المفكرة في الأهرام؟. . وجدت أنه قد أصبح لا بد وأن أكون ذات نفسي جيشا من الحراس الخصوصيين لكي يدافعوا عني بعد كل مقال. . فالكتابة لدينا لم تعد تفسر التفسير الموضوعي وإنما تفسر حسب الأهواء. . مع عبد الناصر أو ضده. مع ٢٣ يوليو أو ضدها. . مع الحكومة أو ضدها. .

وهذه كلها تفسيرات غير موضوعية وحزبية وضيقة جدا . . فقلت في نفسي إنه في هذا الجو تضيع أو تموت الحقيقة الموضوعية، وأنا لا أسمِّي توقفي عن الكتابة انسحابا من الميدان أو تخليا عن القتال الذي هو عادتي ومذهبي وإنما قلت هذا هو أوان القصص .

وصحافتنا يا دكتور يوسف؟ . . القومية لم يزل رأيي فيها تحت عنوان مولد الكتابة في مصر ومطلوب إيقاف هذا المولد لتتحول الصحافة إلى وسيلة تفكير عميق منظم وليس حائط مبكى أو سوق عكاظ، أما صحف المعارضة فالمزعج أنها تحولت إلى لوحة إعلانات لمشكلات الأفراد ونسيت أن تدرج حل هذه المشاكل في برامجها، وحقيقة أنني أفتقد المبادئ في صحافتنا الحزبية .

دكتور يوسف إزي الحال؟ . . أنا . . أنا أحب موسيقى «باخ» وأعشق أشعار محمود درويش وأكره قصائد أدونيس لأنها بلا قضية وأحن إلى أشعار صلاح عبد الصبور، وكلما أحسست أنني أضعف أتناول جرعة من أشعار أمل دنقل فأعود إلى شبابي . أما عبد الوهاب البياتي فهو صديق الليل أقرأ أشعاره بحب وحزن وأرقب نزار قباني في المرحلة الأخيرة، حيث يأخذ شعره ونثره منعطفا خطيرا . . وأتوه في إذاعتنا ولا أدري ما معنى إذاعة الشعب والدلتا وقبلي وبحري وكلها تقلد البرنامج العام، وأيضا صوت العرب ينافس إذاعة القاهرة التي أصبح من الصعب العثور عليها .

الاكتئاب كان رفيق درب يوسف إدريس . . وقد عبر عنه بقوله : «بمثل ما فقدت الرغبة في أشياء كثيرة جدا لا شيء أريد، لا الشوق أريد، لا القلق على ابن أو زوجة أو صديق أو قضية، لا تفكير مطلقا في أية مقاومة، لا شيء غير انتظار النهاية» . زمن الاكتئاب تقول عنه رجاء معاصرته : «إن شرارته تبدأ مع بداية كل خلق فني يكتمل بداخله . كلمة حمل فني بالنسبة ليوسف كلمة هايفة . كان اكتئابه يأخذ أعراضا مرضية خطيرة سيكوسوماتيك . . جلطة في الساق بكل فظاعتها وعملية خطيرة . . صداع نصفي مميت . . كان يعتذر لي عن اكتئابه بقوله : إوعي أضايقك، أنا صحيح مكتئب لكني في عز اكتئابي أحبك . . يوسف عندما

سقط في غيبوبته الأخيرة شعرت بأن ما يحجزه عني ليس سوى قشرة، وأن سقف غيبوبته لم يكن تماما موصدا فانتهزت لحظات انفرادي به في غرفة الإنعاش بلندن لأهمس في أذنه أنه إذا ما كان على شفا الوعي بي أن يضغط بأصابعه المنفرجة على يدي، وكررت، وكررت، وكررت في سمعه طلبي، فإذا كفه يختلج وإذا بأصابعه تنحني نحو يدي؛ ساعتها طلبت من مصر على جناح السرعة جميع شرائط عبد الوهاب وطلبت من نجليّ سامح وبهاء أن يسجلا على شريط نداءهما لوالدهما، ومثلهما سجلنا أنا ونسمة ساعات نبتهل له فيها العودة إلينا، ومكثنا ندير الشرائط أياما وليالي ونجحنا. . وعاد لنا يوسف لمدة ثلاثة أشهر كاملة ليكتب لنا شجنا وحبا على الأوراق، وليحكي أنه كان شاعرا كغريق يصارع جبال أمواج متلاطمة وعلى شاطئ أفق بعيد بعيد يأتي صوت عبد الوهاب يغني يا مسافر وحدك. . ونسمة تدعوه: تعال بقى يا بابا. . وقبل وفاته بأيام وعدني أن يأخذني معه لأداء فريضة الحج، وكنا في عام ١٩٨٦، قد قمنا بمناسك العمرة معا. . وقف يوسف وقتها أمام مقام المصطفى يدعو لنفسه ولنا ولأصدقائه. . طفنا بالكعبة الشريفة وكان مبهورا ببحر البشر الذين يكبرون ويلبون ويستغفرون. . بحر ذابت فيه آلام يوسف ومخاوفه، وراق وصفى وبكي، وما رأيت يوسف يبكي كما بكي في عمرته. . ليس بكاء حزن ولا بكاء إشفاق على النفس ولا مذلة. . كان بكاء المحب لحبيب».

جمال حمدان

درس في عشق مصر

خرست تماما وبلا تعليق على المشهد القصير المرير الذي دارت أحداثه أمامي بعد النكسة، عندما دخل الزميل الكاتب فهمي هويدي مدير تحرير عدد الجمعة وقتها يزف لمسئول التحرير، بشرى موافقة الدكتور جمال حمدان على نشر مقال عن الأخطار التي تهدد قناة السويس في العدد القادم، فهز المسئول رأسه لينهي ما لا يرغب في الاسترسال حوله: إن شاء الله إن شاء الله التي استشعرت في طياتها نيته بمعنى ابقى قابلني لو نشر، وبعد خروج الزميل التفت المسئول ناحيتي مشوِّحا بعصبية من بيده الكشح والنشر: جمال حمدان. جمال جمدان. تلاقيه يا ستي الدكتور اللي بيعالج أولاده وعايز يجامله على حسابنا.

ومن المؤكد أن ردي البليغ بالصمت كان أكثر حصافة مما يجيش به صدري من غليان، فقد كنت على الجانب الآخر من بعد شهور انتظار على أحر من الجمر قد بلغت المنى أخيرا، وحظيت بلقاء الدكتور حمدان في بيته ٢٥ شارع أمين الرافعي بالدقي، بعدما عرفت كلمة السر بدق الباب مرتين والثالثة بعدهما بثوان فانفتحت صومعة الناسك تحت السلم إلى اليمين، التي فوجئت بتقشفها وكأنها حجرة كشف في مستوصف بالأرياف، فالكماليات لا وجود لها بل الضروريات أيضا والأرض خاصمت بساطها، والستائر مسدلة معنويا والأثاث لشقة نوم العازب أو الطالب الريفي المغترب من أجل العلم، بفراش راهب هندي مرقده المسامير.

الدوائر الكهربائية لا تصل بسلك تليفون أو شاشة تليفزيون أو حتى مروحة كهربائية، ولكن وفقط ولا غير جهاز راديو لا بد وأن يستعيد لقبه العتيق. . المذياع

ووعينا بوتاجاز إنتاج المصانع الحربية لا يعرف فرن الصواني تطلان علينا من المطبخ الكئيب، وكرة أرضية يتتبع فيلسوف الجغرافيا على خرائطها الباهتة نبض نظرياته العبقرية في علوم الكون، وحقيبة سفر لم تعرف الامتلاء أو السفر. . تلك كانت مفرداته المعيشية، أما مفرداته الفكرية التي لاقاني بها الدكتور مرتديا الروب المهترئ وفي يده براد الشاي المشوه بالسناج كانت باتساع العالم كله.

جلست إلى صاحب موسوعة شخصية مصر بمجلداتها الأربعة التي يقف وراءها ٢٤٥ مرجعا عربيا و ٧٩١ مرجعا أجنبيا، انصهرت جميعها في بوتقته لتخرج مقطرة تقطيرا، مقدرة تقديرا، بالغة الدقة والفطنة، مشغولة ومطرزة خيطا خيطا على الطريقة الحمدانية ليأتي طرحها خارقا بكل المقاييس، ودائما ما تكون الفكرة مجرد بارقة قد لمعت في الذهن يجلس العالم المستنير يدونها ويمد منها الهوامش، وتستطيل الهوامش وتتفهرس الصفحات لتغدو موضوع كتاب جديد، وهو ما حدث مع كتابه الخالد شخصية مصر الذي مر بثلاث مراحل: الصغير والوسيط والكبير، وتبعه ١٧ كتابا بالعربية وكتابان بالإنجليزية. . وعشرات بل مئات من المقالات والدراسات التي كان يعطي لنفسه إجازة بينها قد تمتد لعام كامل.

جلست إلى المستغني عن كل المغريات، الذي كان يكافئ نفسه كل خميس بطبق مكرونة إسباجيتي على ترابيزة متوارية بكازينو قصر النيل، ويحلي بحتة جاتوه ويحبس بزجاجة كوكا كولا. . التقيت المتحفظ جدا الذي تسكن في حياته مأساة حب أو خيانة قد تكون سببا رئيسًا في تقوقعه وخصامه للجميع، فقد ذكر في تلخيصها جملة عجفاء لا تشبع نهم أذن شهوتها الاستقصاء: من أنه عاش يوما عصيبا كبر فيه فجأة أربعين عاما. . المتابع رغم عزلته لكل كلمة - في خبر أو قصة أو مقال - تنشرها الصحف، وسعدت بقوله لي: «إنني أكتب كما نسيج التريكو الذي لو سقطت منه سهوا غرزة لتداعى السطر كله». . صاحب الميول الفنية الهاوي لسماع الموسيقى وأصوات أم كلثوم وعبد الوهاب ونجاة قال: «إنه تفوق يوما على عبد الحليم حافظ»، ويشهد على ذلك جمهور له في حفل قديم بفرع جامعة القاهرة بالخرطوم، وكان أمهر لاعب كرة قدم في مدرسة التوفيقية، وكان في تذوقه للفن

حريصا في بعثته بإنجلترا على الذهاب لجميع المعارض الفنية، فموهبته في الرسم قد زاملته منذ طفولته ليظل يرسم بها لوحات شخصية له ولمطربيه المفضلين يقتني بعضها الزميل حلمي النمنم، ومنها بورتريه له ولنجاة وعبد الوهاب، وكان يرسم أغلفة جميع مؤلفاته بل خرائطها المعقدة التي يعلو بجبالها ويهبط لوديانها حتى يغيب عن الوعي وتسقط رأسه فوق غابات السافانا أو خليج في محيط، ومضى يحكي لي عن صاحبة البنسيون التي كانت توقظه بندائها المميز مستر هامادان لكي يلحق بموعد الأوبرا المقدس لسماع الموسيقى الكلاسيكية.

غادرته بلا اكتفاء منه وذهبت يملؤني العجب من صاحب شخصية مصرية لم تعرف الحياة الفكرية والثقافية في مصر والعالم العربى في عصرنا الحديث مثلها، من توافرت لديه مثل تلك الطاقة العقلية الهائلة التي تضعها في مصاف أكبر العلماء والمبدعين العالميين، لكنه يقرر في لحظة صدق مع النفس ومع الآخرين تقديم استقالته من المجتمع والناس، بعد أن قدم استقالته من منصب الأستاذ الجامعي وعاش لأبحاثه لا يريد أن يكون طرفا في عالم تغلب فيه قيم النفاق. ولو لم يكن حمدان مستكفيا راضيا بعزلته وعما يقوم به لما نام على سرير الشوك يحيطه صدأ الجدران، بينما شريان الحياة الذي يمده بقوت العقل والجسد بواب عجوز قارب المائة لا يلبي النداء إلا من بعد أن ينبح الصوت ليأتي بجراية العيش والفول والجورنال... ويقول جمال حمدان: «هناك أشياء كثيرة دفعتني لهذه العزلة التي فرضتها على نفسي، ولن أخرج حتى ينصلح حال المجتمع وإن كنت أتصور أنه لن يحدث أبدا!».

وأذكره كما اللحظة، ذلك المساء التعس في الساعة الخامسة والنصف من عصر السبت الموافق ١٧ من أبريل عام ١٩٩٣، عندما اتصل أحد جيران العالم الكبير بالأهرام ليخبرنا بالنبأ الأليم. الدكتور جمال حمدان احترق في شقته بالدقي.. ومات!!.. أيوه.. مات من ساعتين والإسعاف رفضت تشيله، وأهيب بأبنائي أصحاب الأقلام في نصف الدنيا محمد البرغوثي وجمال غيطاس وفنان الصورة محمد حجازي سرعة التغطية الصحفية للحادث المؤلم على مسرح المشهد

المأساوي، وتصدر المجلة وبها الحقائق كاملة مدعمة بالصور النادرة لتغدو مرجعا لحياة وممات عاشق مصر الكبير الذي قال بنفسه: «إن بلادنا قد تخصصت في إهالة التراب على عباقرتها وهم أحياء، وتمجيدهم وهم أموات»، وليس مشهد جنازته الصغيرة إلا دليلاً فاجعًا على صحة ما قاله، فلقد خرجت إحدى الصحف بخبر وفاته في ركن منزو يقول: انفجار أنبوبة بوتاجاز في دكتور جغرافيا، وكان الخبر مليئا بالأخطاء المطبعية والعلمية أيضا، وبدون صورة فوتوغرافية واحدة، والسبب في منتهى البساطة أن المحرر الذي كتبه مثل المسئول الذي أشرت إليه سابقا لا يعرفان قدر الرجل الذي مات ولا أصلا من هو، هذا بينما التفت في جنازته صديق من المشيعين إلى جاره بعد زفرة ألم قائلا: والله هذه جنازة تليق بمواطن شريف.. فلا مسئول، ولا كاميرات، ولا أضواء.. ولا يحزنون!!

المبدع المتخفي في ثوب الجغرافي ذهبت أفتش عنه في أحاديث أسرته.. فوزية المفتشة بوزارة التربية والتعليم، وفايزة الشقيقة الصغرى، ود. عبد الحميد أستاذ التاريخ بجامعة السوربون، واللواء عبد العظيم بطل أكتوبر، والأديب محمد حمدان المنافس لجمال في شراء الكتب: «من شدة نبوغه حصل على منحة تعليم بالمجان رغم عدم وجود المجانية وقتها. كان يقول أنا عندي اللي يجعلني أغنى منكم كلكم وسعيد جدا بهذا، والأستاذ هيكل عرض عليه عقدًا بـ ٢٥ ألف دولار شهريا لو قبل الكتابة فرفض، وعندما تولى الدكتور عبد العزيز كامل منصب وزير الأوقاف بالكويت عرض عليه التدريس في جامعتها مع تلبية جميع شروطه، لكن رده الدائم كان: إنه يسعى للشيء إذا أراده ولا ينتظر الشيء حتى يجيء، وأخبره عبد السلام جلود أن القذافي يطلبك بالاسم لتمسك أعلى مركز بجامعة طرابلس مع تلبية جميع طلباتك، لكنه رفض وفضل حياته بعيدا عن الرفاهية والناس والشهرة بكامل إرادته.. شفافية لا حد لها. ظرف وكوميديا من الدرجة الأولى. أخلاق جدا. حساس جدا جدا. يفهم في الموسيقى أحسن من موسيقار عالمي. يرسم. يكتب الشعر. خطه جميل. يسمع عبد الوهاب ويحرص على حفل أم كلثوم وينصت لنجاة ويردد أغنيتها أسألك الرحيلا، وكان يسمع شهرزاد ويصف محمد قنديل بأنه من أقوى الأصوات وأقدرها، لكنه لم يأخذ فرصته التي

يستحقها. الأبناء علاء ونجوى ونهى علاقتهم بخالهم جيدة، والبنات تحكي له مشكلاتهن. كان كريما يعطي ما يأتيه للناس لإخوته البنات خذي اشتري عربية لبنت منهن. لا أتذكر أن والده عاقبه مرة، بالعكس كان دائما يفخر به، لأنه متفوق.. حبيبي وأخويا ومثلي الأعلى. كان ترتيبه الثالث في الأولاد وكنا أربع بنات بقيت منهن فايزة وبيني وبين الدكتور ١٠ سنين، عشنا مع بعض أحلى طفولة وكان دايما يقول لي يا فوزية أنا مبسوط كده، وعمره ما كان انعزالي بالعكس كان بيجمعنا وإحنا أطفال ويعمل لنا مسابقات في الشعر والرسم ويمنحنا الجوائز ويقعد معانا على الغداء يحكي لنا الحواديت ـ الخمسينيات ـ ونتلم كل خميس نسمع الست، وكنت في الأول أساعده في تبييض كتاباته، ويوم ما استقال زعلنا وناقشناه لكنه أفحمنا بحجته، وحاولت أزوجه لأجل نفرح بأولاده قال إنه خلاص اتجوز العلم.. جمال اتولد في بلدنا «ناي» بمركز قليوب وتبعد عن القاهرة بحوالى ٤٠ كيلو متراً، وأمي تعودت أن تلد كل أولادها هناك بجوار جدتي، وكنا ننادي جمال كلنا باسمه الشهير بين أفراد أسرته وهو لولو، ومن مدرسة شبرا بعدما استقرت بنا الحال أخذ الابتدائية وكان ترتيبه السادس على الجمهورية، والتوجيهية أخذها من التوفيقية ومنها لقسم الجغرافيا بكلية آداب جامعة القاهرة وكان من أساتذته الأفذاذ الدكتور محمد عوض والدكتور سليمان حزين، وبعد حصوله على الامتياز في جميع السنوات سافر في بعثة لإنجلترا ودرس في جامعة ريدنج وأخذ الدكتوراه وموضوعها سكان وسط الدلتا، وفي إنجلترا كان إنسانا آخر يلتهم متع الحياة بعشق وحب. قرأ كل ما وقع تحت يديه من روائع الأدب والشعر، ودرس الموسيقى الكلاسيك حتى أصبح الخبير وكان عاشقا لتشيكوفسكي، وفي إنجلترا عاش قصة حب تحول فيها إلى عاشق مرهف، ولقد رأيتهما معا جمال ومحبوبته الإنجليزية الباحثة في علم المصريات ـ كما يقول شقيقه عبد الحميد ـ كانا يقرآن معا ويسهران معا ويمضيان الإجازات معا، وكانت الإنجليزية مفتونة بعبقريته وإبحاره المتعمق في المعارف العديدة.. وفجأة عاد جمال من إنجلترا. عاد صامتا ولم يفلح في إخراجه عن هذا الصمت أحد، وعاش قادرا أن يحيا بجرحه، واكتملت الضربة عندما تجاوزته الجامعة وقامت بترقية أستاذ مساعد آخر إلى درجة الأستاذية قبله، وكانت

هناك في الستينيات باحثة فرنسية التقت به لتولع بالحديث معه، وندرك أنها وقعت في حبه، وحاولنا إقناعه بمراجعة موقفه من الزواج والتفكير في من ترغبه، لكنه رفض وأتى رفضه بإصرار غريب وعجيب. . رجع لمصر بعد الثورة ليفاجأ بالتغيير الذي تفاءل به لكنه للأسف وقع ضحية أهل الثقة، فقدم استقالته بعد معركة نفسية ـ زاد من حدتها موقف زميلته الجامعية التي جمعت بينهما قصة حب أدارت لها الحبيبة ظهرها تخوفا على مكانتها الجامعية ـ أثرت على صحته وأصابته بمرض في الأمعاء الغليظة وفضل يتعالج في عيادة الدكتور أنور المفتي، وكانت الاستقالة نقطة تحول في حياة جمال فبعدها اعتزل العالم ونظم حياته بصرامة، وتغلب على مرضه بتنظيم الغذاء والرياضة، ولم يستسلم للإحباط فواصل عمله الرائد شخصية مصر، وعندما منحته الدولة وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٨، لم يتسلمه بنفسه وأتى الوسام إليه مع مندوب عند تشييع جنازته، وما زلت أذكر بعد الثورة عندما سألته عن الوظيفة التي يرغب في شغلها فجاءتنى إجابته الفورية: وزير ولو مرة واحدة للشئون البلدية والقروية، فمن يتولى هذه الوزارة يملك في يده نهضة مصر أو تخلفها، فالشئون البلدية هي البنية الأساسية التي بدونها لا تستقيم حياة الناس في المدن، والشئون القروية هي العمود الفقري الذي بدونه ينقسم ظهر مصر».

في حياته يذهب محمد حسنين هيكل إليه ويدق بابه مع مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال السابق، فيدعوهما للدخول فهو أشد المعجبين بهيكل ولغته، ويستأذن منهما لحلق لحيته التي توغلت لكنه يعود مسرعا كي لا يضيع وقتا بدون هيكل الذي طلب منه أن يخرج معهما للهواء الطلق فيعتذر حمدان لمرضه فيدعوه هيكل لمنزله للكشف عليه طبيا فيتشبث المستكفي بعدم الخروج مبادرا هيكل بسؤاله:

ـ كيف تسكت على ما يجري في مصر؟

ـ وماذا تريد أن أفعل؟!

قال فارس بن حمدان: لا تقل لي إن من يحترف الكتابة عادة لا يتقن الحديث،

ولكنك تتقن الكتابة الراقية والحديث المقنع أيضا، أو أنه عادة لا يعرف التفاصيل من هو غارق في الكليات، ولكنك تجمع بين المعرفة الدقيقة بالتفاصيل والكليات معا.. عادة لا يعرف الفيلسوف المسائل العلمية ولا يتقنها وأنت تعرف الفلسفة ولديك قدرة علمية كبيرة، وعادة ما يكون المفكر السياسي غير محترف السياسة وممارسها، ولكنك مفكر وسياسي في الوقت ذاته، فلماذا لا تقود أهل مصر في طريق الخلاص؟!

ويستمع هيكل بإنصات ثم يرد قائلا: «لقد جئت إليك حتى أسمع منك وأنت صاحب كتاب شخصية مصر لكي تفسر ما يجري، وما تفسيرك لتدهور موقف مصر السياسي، ولماذا رحب البعض بهذه الاتفاقية ـ كامب ديفيد ـ وهل تفسيرك حول المجتمع النهري والسيطرة المركزية للسلطة يكفي تفسيرا لما نشاهده؟».

ويرد جمال حمدان في كلمات كالطلقات: «الطغيان هو الذي أوصلنا إلى هذه الحالة مما جعل قبول الرأي الواحد عادة ذميمة، فالطغيان هو المعزوفة الحزينة للتاريخ المصرى مما خنق كل مبادرة، وتاريخنا يعتبر الحاكم إلها حتى يسقط، وتاريخنا يضع الحاكم فيه نفسه فوق النقد حتى يرحل، وهو التاريخ والجغرافيا حتى يأتي غيره».. ويضيف حمدان: «وما زلنا بعيدين عن التعليم الحقيقي الذي يجعل الشعب كله خلية متحركة، ولا يرغب أحد رغبة حقيقية في أن يتعلم الشعب وعندئذ سيعرف حقوقه ويتعلم كيف يطالب بها وكيف يحصل عليها.. ولكن دعني هنا أسألك يا أستاذ هيكل: ما هذا الذي خلفته وراءك في الأهرام؟! وما هذا الذي يكتبه كبار الكتاب وكأنهم يحملون المباخر لكل قرارات السادات؟!.. ويرد هيكل: لست مسيئا ولا أنا دكتور حسين فوزي أو الحكيم أو نجيب محفوظ».

ويكتب هيكل بعدها خطابا لجمال حمدان في ٢٨ من مايو ١٩٧٩، يقول فيه: «لم أتجاسر هذه المرة أن أطرق بابك على غير موعد، وهكذا فإني أكتب إليك لأقول إننا عدنا إلى القاهرة بعد غياب عدة أسابيع، وكما اتفقنا قبل أن أسافر فإني أترك لك اختيار الوقت الذي تراه مناسبا لكي نلتقي مرة أخرى، ولست أعرف ما المواعيد المناسبة لك في الأسبوع القادم الذي يبدأ من السبت الأول من يونيو؟ لكنه يسعدني

إلى أبعد حد أن أسمع منك» . . . ويظل اللقاء بينهما ممتدا والعلاقة بينهما حميمة والمناقشات خصبة وعبد الناصر فوق المنصة ليكون محمد حسنين هيكل أول من يدخل سرادق العزاء في العالم الجليل . . وتصل إلى الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين حكاية حرمان جمال محمود صالح حمدان من المعاش بسبب الروتين الذي لا تسمح لوائحه بمعاش إلا لمن قضى عشر سنوات فأكثر في الجامعة، وكانت شئون العاملين بالجامعة قد أبلغت الدكتور بأنه لم يستوف المدة القانونية لذا لزم انقطاع المعاش، فانبرى الصديق بهاء يكتب مطالبا له بمعاش استثنائي فثار حمدان وغضب وخاصم بهاء حتى النهاية، بينما كانت علاقتهما قبل ذلك ذات أواصر عميقة حتى إن حمدان كان يأتي لبهاء في أول وعكة صحية شديدة أصابته ومنع عنه الأطباء الزيارة، كان يأتي إليه يوميا للسؤال عنه في ساعة محددة، ونقلت السيدة ديزي زوجة بهاء له أمر الزائر المستديم ببذلته ذات الطراز القديم والذي تظنه أحد الموظفين القدامى فسألها عن اسمه فقالت: جمال حمدان. . فهتف: الدكتور جمال حمدان يا خبر أبيض أرجوك أول ما يحضر أدخليه على الفور على الأقل ليستريح، وأتى بعدها الدكتور جمال واعتذر عن الدخول طالبا إبلاغ سلامه للأستاذ بهاء، وكان من بين أوراق حمدان الحميمة خطاب من بهاء يقول له فيه: «لا تبخل بالزيارة حتى بدون سبب ولا أحتاج أن أؤكد لك هذا أبدا، فما بالك إذا كان هناك سبب وإذا ما كان مكتبي بعيدا فبيتي قريب: ١١ ش هارون ـ الدور الخامس ـ شقة ٤ (ت: ٩٨٢٤٦٣)» وكانت في أوراق العالم الراحل خطابات أخرى ظل يحتفظ بها، منها ما كتبه يحيى حقي في ٢/ ١٢/ ١٩٨١، يقول: «أنت كالنجم القطبي لا تتحول عن مبادئك وأصدقائك ليتنا نفلح في أن نسترشد بك ولكن هيهات»، ويكتب له أنيس منصور في ١/ ٣/ ١٩٧٠: «أين أنت وحشتنا جدا، ولكنك لست بعيدا في المكان فأنت في العقل والقلب معا». هذا بينما الآخرون يحتفظون بخطابات وكتابات جمال حمدان لهم التي تشع تواضعا وتلهث بفرط المديح. كتب لناشر كتبه الأستاذ يوسف عبد الرحمن زوج الدكتورة نعمات أحمد فؤاد الذي استمرت علاقتهما ٢٢ عاما يلتقيان فيها كل أحد، وقام فيها بالنيابة عنه بتسلم جائزة التقدم العلمي في الكويت وقيمتها ما يوازي ١٠ آلاف دولار قام بتوزيعها على أفراد أسرته.

كتب الدكتور جمال حمدان: «لظرف طارئ للغاية وبكل الأسف وكل الحرج هل يمكن أن أطمع في مائة جنيه (١٠٠ جنيه فقط) مع حامله، والتفسير يوم نتقابل وأكرر الأسف والاعتذار»، وفي خطاب آخر من بعد الديباجة والتحيات العطرة والسلام والسؤال: «معذرة عن المضايقة على غير انتظار، ولكن نظرا لظرف طارئ عاجل، وإذا لم يكن في ذلك إحراج أو إرهاق، وإذا كان لي أية استحقاقات طرفكم، فهل أطمع وأستأذن في أن تتكرم مشكورا بإرسالها في أقرب فرصة، ولو مع الأسطى فكري منعا لتعبك وإرهاقك. . أما إذا لم يكن لي استحقاقات فأرجو إهمال الأمر تماما واعتباره كأن شيئا لم يكن. . ولك الشكر - ثق - في الحالين على السواء. . وأكرر الأسف للإحراج الطارئ راجيا لك وللجميع كل صحة وتوفيق وشكرا». المخلص جمال حمدان.

الدكتور جمال حمدان لاعب الكرة الشراب في زمن الطفولة وبطل كرة القدم في الثانوية: كان يمكن أن يصل بي الأمر إلى الاحتراف بصورة حقيقية، ولكن هناك ظروفًا كثيرة أبعدتني، جمال حمدان المستكفي الذي كتب تلميذه وصديقه محمود بسيوني في ٢٥ أبريل ١٩٩٣: «أخبرني أنه إلى جانب ما عرضته عليه ليبيا من العمل أستاذا في جامعة طرابلس فإن الرئيس العراقي أرسل إليه يطلب منه قبول العمل كوزير في الحكومة العراقية. . ولكنه رفض بحسم، وقال إنه لن يغادر مصر حتى لو عارض بعض سياسات حكامها، فلن يكون ذلك إلا داخل مصر التي يعشقها بنضج وصدق وإيمان عميق».

ويكتب جمال حمدان عشرات الصفحات من خواطره أتوقف أمام كل منها لا لأنتقي حاشا لله، وإنما لكي تأتي النهاية بما خف وزنه وغلا ثمنه من بدائع حمدان الذي يقول: «العرب بغير مصر كهاملت بغير الأمير. . سيناء ليست مجرد صندوق من الرمال كما يتوهم البعض، وإنما صندوق من الذهب الأسود. . مصر كانت دائما شعبا محاربا، ولكن دون أن تكون دولة محترفة حرب، لأنها محارب مدافع أساسا لا محارب معتد. . إسرائيل ليست عنكبوتا، ولكنها بناء مليء بالثقوب يقوم على أرض أكثر امتلاء بالحفر، والعلل الأصيلة في مجتمعها هي نقاط

قوة لنا في صراعنا ضدها، ونقاط ضعف محققة لها، ولكن إسرائيل لن تهزم بالنقاط كما يقولون في الرياضة، وإنما تهزم بالضربة القاضية. . على المسلم الذي يكتب عن العالم الإسلامي أن يضع نفسه في مكان غير المسلم، خاصة الأوروبي المسيحي، ليس فقط ليكون موضوعيا، ولكن أيضا ليستوعب وجهة نظر الآخر. . نحن والأقباط شركاء وإنهم أقرب المسيحيين في العالم إلى الإسلام بمعنى أو بآخر. . وكما أن مصر فلتة جغرافية فالأقباط فلتة طائفية. . أنقذوا مصر من القاهرة، والقاهرة من نفسها».

العالم الجليل عندما طلب قبل وفاته بشهر معلومة مهمة ليضيفها لكتابه عن الصهيونية ودولة إسرائيل، جلبت له من واشنطن بجهاز الفاكس لترسل إليه في اليوم نفسه، فكتب يسأل عن كيفية حدوث المعجزة، وعندما شرح له الأمر التكنولوجي المتداول بالأزرار قال وكأنه عباس بن فرناس الذي تحقق حلمه في أن يطير الآدمي بجناحين: هي حصلت خلاص!!

رحل جمال حمدان وحيدا وقد احترقت أطرافه بآثار إصابات من الدرجة الثالثة ليحق قول حافظ إبراهيم: «فما أنت يا مصر بلد الأديب، ولا أنت البلد الطيب».

عميد العلم

علي مصطفى مشرفة

أنا كنت فاكرة إن مصطفى هو علي، وإن العالم المصري نظير أينشتاين هو في الوقت نفسه الأديب صاحب الرواية الخالدة قنطرة الذي كفر.. وقعدت أفتي وقعدت أحكي عن السر الدفين في زواج العلم والأدب، وصعدت الحكاية للعلالي بوحدة المعرفة الإنسانية، وأن الأديب الذي لا يمتلك منهجا علميا في كتاباته لا يمكن التفريق بينه وبين كاتب العرائض على باب المحكمة، وأن العقل الإنساني الذي ابتكر العلم قد ابتكر الأدب، وهو عقل واحد في جوهره لو أصيب بأي انفصام أو انفصال فقل على العالم السلام، وأن صيحة أرشيمدس وجدتها كانت العاطفة في قمتها وقد تجسدت في الانتصار العلمي الذي اكتشفه.. نهايته قعدت أقول واعمل المستحيل لأضع العلم والأدب في سلة واحدة من أجل عيون مشرفة، لأني كنت فاكرة إن مصطفى هو علي وإن علي هو مصطفى، وفضلت زمنا أخلط الأوراق وأعك في السيرة المشرفة.. وأضرب أمثالا وأدلل على قولي بالدكتور يوسف إدريس ملك القصة والدكتور مصطفى محمود الفيلسوف والدكتور سعيد عبده ناسج الموال والدكتور إبراهيم ناجي من زاحم الشعراء لتغني له أم كلثوم قصيدته الأطلال ويأتي من بعدهم الدكتور أحمد هيكل لينادي بتضييق المساحة ما بين الاثنين فيما يسمى تأديب العلم أو تعليم الأدب، وكان ابن خلدون في زمانه المبكر قد أدرك الروح العلمية في الإبداع الأدبي لدرجة أنه أسماه علم الأدب، ومن قبلها نجد في ألفية العالم ابن سينا شعره القائل:

والشعراء أمراء الألسن   كما الأطباء ملوك البدن

وربما يعود هذا الالتباس حول علي ومصطفى الذي وقع فيه الكثيرون مثلي إلى أن الوالد الشيخ مصطفى عطية مشرفة قد أطلق على ابنه البكري ـ عالمنا الجليل ـ اسم علي فأصبح علي مصطفى مشرفة، وعندما أنجب آخر العنقود من بعد علي وفوزية وعطية وحسن أسماه مصطفى ليغدو مصطفى مصطفى مشرفة، ليختصر الاسم إلى مصطفى مشرفة فقط، وقد رسخ في الأذهان هذا الالتباس بين الشقيقين لأن شهرة العالم علي وتفوقه الفذ عالميا ومحليا قد تضاءل إلى جوارها ذكر الأديب مصطفى الذي شحَّت المعلومات عنه مع عزوفه عن الأضواء وإقامته لفترات طويلة خارج البلاد، إضافة إلى إصابته بنوع من الالتهاب المفصلي في مقتبل حياته مما جعل حركته تتيبس بالتدريج إلى درجة لم يعد معها قادرا على الحركة فبقي مصطفى بلا سيرة وتاريخه بلا تاريخ، خاصة أنه قد سكت عن أهم منطقة في حياته التي انضم فيها إلى التنظيم السري لثورة سنة ١٩١٩، واشترك في أعمال فدائية موجهة إلى جيش الاحتلال الإنجليزي لم يفصح عنها إلا في عام ١٩٥٧، لصديقه القريب الكاتب محمد عودة: «كنت في التنظيم السري وكان رئيس التنظيم هو سعد زغلول وكنا نتدرب على استعمال أنواع الأسلحة في الغابات المتحجرة في منطقة المقطم وكان لا بد لكل منا أن يحافظ على سلاحه وإلا فمن فقد سلاحه لا بد أن يقتل، وكانت الثورة الشعبية على أشدها وقتها حينما حاول الإنجليز أن يفصلوا بين الأقباط والمسلمين لإيجاد فتنة داخلية تعرقل الثورة، ولما كانت شبرا تضم غالبية من الأقباط فقد وقف الإنجليز عند كوبري شبرا ليمنعوا اختلاط أهالي شبرا ببقية المواطنين، وجاء الأمر من التنظيم إليّ أنا وأبو دومة لنقتل حراس الكوبري وفتحنا الحصار على مجاميع المسلمين والأقباط وعندما انطلق الناس إلى بعضهم عرجنا أنا وأبو دومة على قهوة البوسفور في باب الحديد لنلعب الطاولة.

لقد أمرنا التنظيم في هذه الأيام أن نملأ سجن قرميدان بالناس وفعلا ملأناه بالناس وكنت واحدا منهم ـ وقتها كان علي يدرس في جامعة لندن للحصول على البكالوريوس في الرياضة التي تتطلب شهادتها أربع سنوات اختصرها إلى ثلاث مع مرتبة الشرف، وعند قيام الثورة شعر بحرج موقفه وهو في بلد أعدائه الإنجليز فكتب يستشير أخاه مصطفى في العودة فأشار عليه بالبقاء، وعندما علم علي

بسجن مصطفى كتب من لندن خطابا يفخر فيه بالأخ الذي أدى ضريبة الوطن نيابة عن أسرة مشرفة ـ وقد كتب مصطفى روايته الفريدة بالعامية قنطرة الذي كفر حول موضوع عاش في وجدانه ثلاثين عاما عن ثورة ١٩١٩، حيث لم يضع الثورة عن عمد هندسي داخل الرواية وإنما كتب عن وقعها على نفوس السكان في المنطقة الشعبية المسماة تحت الربع، وقنطرة فيها لم يكفر وإنما كان هناك منفذ أو وصلة نابعة من درب الجماميز اسمها قنطرة كفاريللي وهو اسم عالم كيمياء صاحب الحملة الفرنسية، فقلبها الناس إلى قنطرة اللي كفر ثم إلى قنطرة الذي كفر، وحيث إن أحد أبطال الرواية اسمه الشيخ عبد السلام قنطرة، فقد جاء الاسم من هنا، وجاء ليضيف بعدا سحيقا إلى الرجل باعتباره قنطرة فعلا وقنطرة الذي كفر بالثورة ليعود يؤمن بها».

ولأنه مكتوب على جبيني أن أظل متشعتفة ما بين شقيقين اسميهما مصطفى وعلي، من بعدما قضيت نصف عمري في مدرسة مصطفى وعلي أمين الصحفية، فقد قررت مع الأخوين مشرفة فض الاشتباك.. وعلى أرض الحقائق التاريخية ومع من يعطيه الله طيلة العمر ممن عاصروهما جمعت تاريخا ووثائق وقطعت روحي شظايا وعدت لجمعها بجمعها فتهت ثانية ما بين الأديب مصطفى الذي قرأه يوسف إدريس فأصيب بالذهول، والعالم علي من عاش في عهد العمالقة الذي لم يحمله أحد على كتفه ليصعد به درجات المجد.

من درس مجانا بتفوقه لا بقرار. من وصل إلى مكانته بعلمه لا بصداقة لصاحب نفوذ أو سلطان، من أعطاه علمه ليرفع رأسه، وأعطاه القوة ليصمد، وأعطاه العزيمة ليقاوم وينتصر.. مصطفى وعلي.. البر والبحر، وقد اخترت في يومي النزول في البحر.

علي.. في يوم ١١ من يوليو ١٨٩٨، لم يكن أحد يظن أن الطفل الذي ولد في حي المظلوم بمدينة دمياط سيكون على مدى ربع قرن أحد النوابغ في علم الرياضة البحتة في العالم وأنه سيحتل مكانته بين كبار علماء الذرة.. لم يكن أحد يعلم أن الطفل الصامت بعيونه الثاقبتين ووجهه الذي لا يعبر عن شيء سيأتيه يوم

يقول فيه إن الدكتوراه أعظم من الباشاوية التي خلعها عليه فاروق، ولم يذهب إلى السراي ليقدم الشكر على الإنعام الكريم من المليك المفدى.

لم يكن أحد يعلم أن أينشتاين سيقول عنه يوما: هذا العالم الفذ لا بد أن ترعاه مصر كما ترعى أهراماتها. . لم يكن أحد يعلم أنه سيقول للمندوب السامي البريطاني اللورد كليرن في مقر السفارة البريطانية عندما سأله مستفزا: «أحقا يا دكتور مشرفة أن أغلبية الشعب المصري تكرهنا؟». فرد عليه الدكتور مشرفة بحزم: «وهل هي الأغلبية فقط؟! وماذا عن الأقلية أيضا!!».

علي. . كان والده مصطفى عطية أحمد جعفر مشرفة أزهريا ثريا اشتغل بالمحاماة عامين ثم تفرغ لأعماله يتيه بين أملاكه الزراعية ٢٠٠ فدان مرتديا عمامة ضخمة يقلد فيها عمامة جمال الدين الأفغاني. . أب صعب المراس يحكم العقل في كثير من شئون الدين في وقت أغلق الناس فيه باب الاجتهاد، ويوافق صديقه الإمام محمد عبد ه على أخذ أرباح دفاتر البريد فيرمى بالإلحاد كما رمي الإمام في الجرائد الهزلية كجريدة «حمارة منيتي»، وتأتي أزمة القطن الشهيرة عام ١٩٠٧ فتصيب الأب في مقتل معنوي ليموت بعدها كمدا عام ١٩١٠، بينما علي لم يزل في العاشرة يستعد لنيل الشهادة الابتدائية مع ناظر مدرسته فيرسب الناظر ويأتي ترتيب علي الأول على القطر، وتكون الأم رئيفة بنت أوجا بك قد انفصلت عن الأب العنيف وتزوجت من غيره قبل موته، فيغدو الصغير وهو لم يبلغ العاشرة رب أسرة موردها ٤ جنيهات في الشهر من أملاك صغيرة للأم، وينتقل الصغار لحارة محوبك في عابدين تحت رعاية الجدة فاطمة الحزبية. . وتنفصل الأم ثانية لتعود لأبنائها وتموت وقت امتحان علي في البكالوريا، وهنا يأتي ترتيبه الثاني من الحزن على أمه الحبيبة وليس الأول كالعهد به في القطر كله.

في الجو الغريب المشحون بالمتناقضات نشأ علي بين أب عنيد وآراء دينية جريئة وأم حنون وخلاف بين الأب والأم فكلاهما على طرفي نقيض، وزمجرة من الفلاحين تجاه الآراء الدينية المتحررة، وصراع وعناد وثراء يتبدد في لحظة، وأحداث جسام تهز عقل الصغير فيجري إلى شاطئ دمياط ينظر في الماء ساعات

ليغسل الموج والنسيم اضطرابه ويعود لينكب فوق كتاب يغرق فيه إلى أذنيه ويرقب من بعيد صامتا لا يتكلم . . ويروح علي ويغيب علي ويتغرب عليّ وينجح علي وينجز علي ، ويبقى السؤال العويص ينهش الأعماق بلا جواب فيرسل سؤاله في خطاب طويل في ١٤ أبريل ١٩١٨ ، أثناء دراسته في كلية توتنجهام لصديق الوالد السيد عبد الرحمن رضوان . . جاء في بعضه :

«هذا الخطاب رأيت أن لا بد من أن أخطه إليك وقد حان أن أخطه . . أكتب إليك مستحلفا إياك بالله العظيم ألا شفيت غلتي فأجبت على ما سأسألك عليه من أمر والدي . . أريد أن أعرف آراء والدي الدينية كيف استنبطها وعلام بناها وأريد أن أعرف ذلك مسهبا فيه مفصلا ، وهل كان والدي منتسبا إلى جمعية الـ فري ماسونس (FREE MASONS) ولم ترك والدي الصلاة والصيام في أواخر عهده بالدنيا؟ أريد أن أعرف تاريخ والدي باختصار بحيث تذكر لي كل ما له ارتباط بمعتقداته الدينية ، وسمعت أنه كان قد سافر إلى الشام وإلى القسطنطينية في أيام دولة السلطان عبد الحميد غفر الله له وأن رحلته هذه كان لها شأن كبير في معتقداته الدينية فما حقيقة ذلك وما تفصيله؟ وأنا أعرف أن عندك الخبر اليقين وأنا أعرف أن ذلك ربما كلفك عناء قد تستثقله أو ألما للذكرى قد لا تحبه ، ولكن في إنجلترا روحا هي ابن صاحبك لا تزال حديثة عهد بالدنيا تتوق لتطلع على ما كسبته روح والدها من حياة حوالي الخمسين سنة على الأرض وما تعلمته من دنيانا . . وأناشدك الله والعهد يا سيد عبد الرحمن إلا أن تكون صريحا في تبيان كل أمر لي ، وإن كلفك ذلك أن تذاكر بعض أصحاب والدي ممن قد تحفظ ذاكرتهم وما لا تحفظ ذاكرتك فتفيدني بخبرتهم زيادة على خبرتك وإذا خططت لي الرد فاحفظ منه نسخة عندك أصلية حتى إذا غرقت نسختي في الطريق ـ لا قدر الله ـ كان عندك ما تستنسخ منه أخرى . . بارك الله لك في نفسك وذريتك . ولدكم المخلص» .
علي مصطفى مشرفة .

علي . . باقة الحس المرهف من استقرأ الكون والفضاء وعلوم الأرض وانقسام الذرة والفلسفة وانحنت له جامعات الأرض وتفجرت من عبقريته النظريات

وتوالت الأبحاث، ورأس في إنجلترا بإنجليزيته الضارية جمعية المناقشات، وأجاد لغة الضاد والأرقام والأفلاك وحفظ القرآن ومقام الإنسان في الكون، وتسامى لتسكنه الموسيقى، وشف ليقرأ الشعر ويحفظه ويرسله. . العالم الموسوعي الذي بلغت أبحاثه مائتي بحث كانت تؤهله حتما لجائزة نوبل، لكن الأحقاد أعاقته حتى عن الوصول في النهاية للعلاج من المرض. . علي. . ظلت المرأة في خاطره وباله وإن همشها طويلا وكثيرا في الزاوية. . في عام ١٩٣٦، كتب فيها أنشودته «من هي سيلفيا؟» محاكيا مقطوعة لشكسبير من أغاني شوبرت الخالدة قال فيها:

من هي سيلفيا، ماذا هي؟
التي جمعت قبسا من الحسن والتورية
من أسبغ الله عليها مكنون العشق بين الورى
لكن رحمتها لم تكن كملاحتها
من لجأ الحب الأعمى إلى عينيها
يلتمس معونة
فلم يجد عونا ولا سكنا
فهام يترنم باسم سيلفيا فائقة الحسن
من ليس لها فوق الثرى سابقة

علي مشرفة من استعصت المرأة على فهمه وسط خضم اهتماماته بالعلم يقع في حب ماري ديفي ليكتب عن مشهد اللقاء الساخن بينهما في يوميات دوَّنها خلال عام ١٩١٨ في لندن، وحققها أقدر الباحثين في عالم مشرفة الدكتور محمد الجوادي:

«قابلت مس ديفي في تمام السابعة والنصف على موعد مسبق فقلت لها: أين تشائين الذهاب؟ قالت: حيث شئت يا علي، وإن كنت أفضل التمشي، وكانت ليلة نجومها طالعة فتمشينا الهويني في جهة مابرلي ويدي حول جسمها ويدها حولي، فقلت لها: غني لي يا ماري، فجعلت تغني وتغني وأنا منصت سابح مع

النغم، وسألتني فجأة عن أختي نفيسة فقلت لها: هي متزوجة الآن وحكيت لها كيف أني قبل قدومي في البعثة لإنجلترا قد تركت إخوتي الذين أرعاهم بعد وفاة أبي وأمي منذ أن كنت في الثالثة عشرة في مدارس داخلية . . ثم وقفنا أنا وماري تحت شجرة باسقة فضممتها ناحيتي بين ذراعي وتعانقنا . .

قالت لي: ألن تقبلني؟!

قلت: حتى تقبليني.

قالت: كلا.

قلت: أما تميلين إليّ يا ماري؟

قالت: وهل تميل أنت لي؟

قلت: نعم.

قالت: ولكن لا جدوى من أن يميل أحدنا إلى الآخر.

قلت: لم؟

قالت: لأننا لن نتزوج.

قلت: إني لك.

قالت: نحن مختلفان.

قلت: لا تعلمين الغيب

قالت: وأنا أحبك . . وصمتت صمتا غريبا.

فسألتها وألححت في السؤال: لم صمتك والموقف لا يحتمل؟

قالت: (you are Not English) لست إنجليزيا.

قلت: بالطبع لا.

قالت: لو كنت إنجليزيا لما فاتحتني بشأن الحب إلا رغبة في زواج.

قلت: بالطبع لا.

قالت مرة أخرى: لو كنت إنجليزيا لما فاتحتنى في حب إلا رغبة في الزواج بي.

قلت: لا أفهم في عوائدكم فعذرا.

وعدت أقول لها: يا ماري لقد أخبرتك بما يعالج ضميري دون تقيد بعوائد أو بواجب مجتمعكم.. قلت لها وهي ترفع عينيها الجميلتين نحوي: ولكني مع ذلك قوي الإرادة إلى حد بعيد.

قالت ماري ديفي: فليكن ما بيننا صداقة فقط.

قلت: لك ما تشائين.

وسألتها: هل كان لحديث الليلة أثر سيئ على صداقتنا؟

قالت: لقد وضحت الحقيقة وتبين الأمر.

قلت: نعم.

وفي عرض الحديث سألتني: هل يوافق صديقك الغمراوي على أن تكون معي على ما نحن الآن عليه؟

قلت: وهل نأتي شيئا (not decent) أي نتصرف تصرفا غير لائق؟

قالت: كلا ولكني أظن أنكم لا تفكرون مثلنا أي لا تفكرون بطريقتنا، فالاختلاف شاسع بين الشرق والغرب.

وقالت: لعلنا لا نبحث في هذا الموضوع مرة أخرى..

وذهبت معها إلى أمام منزلها فجرت إليه بعد أن تعانقنا».

ويلتقي بالآنسة دولت ابنة حسن باشا زايد صاحبة الصون والعفاف التي لا تخرج من بيتها إلا في صحبة والدتها، فيعجب ويتقدم ويعقد قرانه عليها في ٣ يناير ١٩٣٢. وبمجرد زواجها منه انطلقا يطرقان معا أبواب العالم الواسع بعد أن عرّفها إلى جميع أصدقائه، وسافرا على أجنحة السعادة لشهر العسل في

أوروبا، حيث كانت ليلة الدخلة على متن الباخرة، ووسط العسل صادف وجود مؤتمر في زيورخ لبحث علاقة العلوم الرياضية وتطبيقاتها في الميكانيكا والفلك والإحصاء والطيران والتليفون والتلغراف السلكي واللاسلكي فقام العريس بقطع موارد العسل العاطفي للغرق في صواميل الميكانيكا والأجهزة. . وتروي الزوجة للدكتور عطية - شقيق زوجها - أنه لما كانا في باريز لاحظت أنه يتباعد عنها ليحضر أوراقه لإلقاء محاضرة مهمة في الرياضيات العالمية، ولما شعر بمتابعتها العاتبة قال معتذرا: المزاحم الوحيد لك في حياتي هو (عملي) لأني أنسى كل شيء إلا هو، وآسف ومعذرة أن أقول حتى أنت. . وما كان يحدث فعلا أنها كانت تذكره بوقت الغداء والعشاء ليتناولهما معها شاردا. . ويسألها عطية: وكيف كان أخي يمضي فراغه؟

فأجابته دولت: «كنا نذهب إلى السينما أو لزيارة أحد أصدقائه أو أقربائه بدعوة مسبقة، أما انكبابه الفعلي على عمله فلا يحدث إلا ليلا، وقد يستمر فيه حتى الفجر أحيانا، وكان نظامه أن يعمل ما لا يقل عن ثلاثة أرباع اليوم، وكثيرا ما كان يكتفي من النوم بثلاث ساعات. ساعة في العصر ما بين الرابعة والخامسة يقوم بعدها ليتناول الشاى مع الأسرة، وساعتين بعد الفجر من الخامسة إلى السابعة، أو من السادسة للثامنة صباحا، وكنت ألاحظ أنه كثيرا ما كان يذهب للبيانو ليعزف عليه من وقت لآخر ليريح نفسه من استمرار العمل المرهق، وكان في عزفه يهيم مع ألحان بيتهوفن وفاجنر وشوبرت ومندلسون، وألحان من الموسيقى الشرقية القديمة التي دفعته إلى البحث عن السلم الموسيقي المصري وإلى بيانو عربي تكون مفاتيحه هي نفس المفاتيح الأفرنجية مضافا إليها ١٢ مفتاحا. . وكان يقيم بمنزلنا حفلات شاي يتبعها عشاء لبعض الأصدقاء يومي عشرة وعشرين من كل شهر ويقول لي: إن هذه الدعوة نعملها للطلبة قبل الأساتذة فاهتمي بهم يا دولت قبلهم، وكان يقوم بنفسه بخدمتهم! . . ولا أنسى فرحته يوم استطاع إقناع مجلس الجامعة بقبول الطلبة والطالبات من البلاد العربية والشرقية، وكان غضبه شديدا من سكرتيره إذا منع أي طالب من الدخول إلى مكتبه لعرض مشكلته مهما تكن. . أما هواياته إلى جانب الموسيقى فكانت التنس والجولف والكروكيه وتعلم قيادة السيارات التي مارسها في

سنوات البعثة الأولى عندما عاش مع عائلة مثقفة في إحدي ضواحي مقاطعة ديفنشر عمادها سيدتان كانتا في سن والدته كما قال لي هما مسز هوسيل ومس ليثبردج التي روت عنه فيما بعد: لقد مكث مستر علي عامه الأول معنا يتصرف كرجل في الخمسين وهو الذي لم يكن قد بلغ العشرين، بعدها أقلع عن ذلك الوقار والاعتكاف وانصرف إلى الموسيقى والتنس وركوب الدراجات وقيادة السيارة وزرع الزهور في حديقة المنزل ورعايتها، وأجاد العزف على البيانو والكمان، وفي إحدى المرات التي كان فيها بصحبتي في إحدى الحفلات الموسيقية في لندن وفي أثناء العزف وقد ساد السكون إلا من النغم المنساب انطلقت فجأة من وسط الصالة صرخة استنكار. . كانت صادرة من المقعد الذي يجاورني. صادرة من مستر علي، ودهش الحاضرون لهذا التصرف من المصري الأسمر، ولكن دهشتهم زالت لتصرف المايسترو الذي ما إن انتهت المقطوعة حتى نزل من فوق المسرح متوجها إليه ثم انحنى أمامه وصافحه شاكرا، فقد كان هناك خطأ في الأداء هو الذي دفع (علي) إلى هذه الصرخة».

وتضيف دولت هانم: «إن حب الفقيد لأولاده لم يكن له نظير، فقد كان يقوم بنفسه بحمام ابنه مصطفى وإعداد ملابسه رغم وجود المربية الأجنبية، وانسكبت دموعه سطورا لا تقف عندما مات الابن منير وعمره تسعة أشهر، ولما رآني قد لمحته أسرع يخفي دموعه قائلا: إنها وديعة ردت لصاحبها، وأذكر وقتها ذهابه إلى شقيقته نفيسة التي كان قد أنكر عليها حزنها البالغ على ولد صغير مات لها، فلما توفي منير بعدها بسنوات وشعر بآلام الفراق أسرع لنفيسة يعتذر لها من قوله الذي لم يرد به يومها إلا التخفيف عنها. . وكان يدلل نادية ويراقب رسومها، أما سلوى آخر العنقود فكان يقول لي عقب عودته من سويسرا في ٢٤ يوليو ١٩٤٧، يوم مولدها، مسكينة هذه البنت مش حالحق أربيها، ومن هنا كان يصحبها معه في كل مكان ولا يتناول طعامه إلا وهي جالسة أمامه».

الدكتورة سلوى آخر العنقود لا تظن أو تعتقد أن وفاة والدها في سن الثانية والخمسين دون معاناة من مرض عضال اللهم إلا شكواه من الأعصاب والكبد

وضغط الدم كانت وراءها أيد صهيونية خشيت أن ينجح العالم المصري في صناعة القنبلة الذرية . . هذا رغم وجود تلميذته الدكتورة سميرة موسى التي لقيت مصرعها في الولايات المتحدة بعد وفاته بأقل من ثلاث سنوات، ولا صحة في رأيها للشائعة التي سرت من أن الملك فاروق كان وراء موت أبيها علي مشرفة بالسم . . لقد تناول الشاي في غرفته استعدادا لارتداء الملابس الرسمية للذهاب لحفل افتتاح البرلمان وبعدها رن جرسه الطويل لعله كان يحثنا به على سرعة الحضور لإنقاذه لكنه كان في غيبوبة النهاية .

ويقف طه حسين في صالة جامعة فؤاد الأول يقول عن حديثه معه قبل الرحيل بساعات : كان صوتك ضعيفا ، أشبه الأشياء بصوت المتحدث حين يتحرك القطار . يتحدث من النافذة ، فيسمع إليه الواقفون ، وإن حديثه ليتناقص شيئا فشيئا . . رحل علي مشرفة وأمثاله قليلون إذا خسرهم الوطن ، فلابد من صبر طويل وانتظار مرير متصل . . مات مشرفة لأنه اشتعل وتوهج أكثر مما يجب فاستنفد ما في مصباحه من زيت !

مات علي مشرفة مع مصحفه الذي لازمه طوال حياته . وقبل انتهاء مهلة الإنذار التي لا تتعدى أربعة أشهر فقط بهدم مقبرته بالبلدوزر عام ١٩٨٨ ، لإنشاء طريق الأوتوستراد سارع الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف بنقل الرفات إلى حديقة مقبرة الخديو توفيق ، ليرحب الحفيد الأمير محمد عبد المنعم بالجوار المشرف ، ويعتذر لعدم حضوره ليشارك في حمل الجثمان بنفسه كي ينقله بيده إلى مقبرة جده الخديو توفيق .

لويس عوض

الشريك المخالف

عشرات القطط تتمسح في الأرجل وتموج فوق المقاعد والكتب وأطباق الطعام وأكتاف الجالسين. . وليتها كانت قططا بيتيّة ناعمة متربية مستحمية. . أبدا. . فمنذ الوهلة الأولى لمظهرها تستدل على مخبرها ونشأتها وبيئتها ومقدمها من ضلال أرض الطريق. . مشهد كانت له غرابته في ذلك الصالون الذي دخلت إليه برفقة زوجي لنقضي سهرتنا في الثمانينيات بمنزل الدكتور لويس عوض بين جمع من الفنانين التشكيليين الأصدقاء بالدور الأول ٤٤ شارع قصر العيني. . وسط هذا الخضم في صالون السهرة الثقافية كان المضيف يلبي زعقة إثر الأخرى تأتيه من باب جانبي ينشق شريطا على قطع طولي لخوجاية عصبية ترطن بالفرنسية كان لوقع حدتها ما أشعرنا بأننا ضيوف غير مرغوب فيهم من صاحبة البيت. . ويسارع الدكتور في كل مرة بإغلاق الباب ومصادرة مصدر الاحتجاج ليعود إلينا بابتسامته المتوترة ومجاملاته المحرجة ونظراته الزائغة معتذرا عن الزوجة التي أسر لنا أنه قد انتهى إزاءها بتخصيص يومين من كل أسبوع يسمح لها فيهما بالتمادي في الشراب.

وعذرت بعدها الرجل عندما عرفت أنه لجأ لعزلة اختيارية في بيت ريفي بدهشور في الفيوم جعله صومعة لإبداعه بعيدا عن صخب زوجة هوايتها استضافة قطط بئر السلم.

ذلك الصبر المرير رغم عدم الإنجاب كان ولا بد امتدادا لعاطفة حب عميق جمع يوما بين الزوجين على أرض الغربة في شرخ الشباب عندما سافر لويس الطالب في

جامعة كامبريدج بإنجلترا إلى باريس لزيارة أصدقائه محمد مندور ـ الناقد الكبير ـ وصفوان ـ الدكتور مصطفى صفوان عالم النفس الشهير في باريس ـ بمناسبة أعياد ١٤ يوليو في فرنسا، حيث تتحول عاصمة النور إلى شعلة من الصخب والرقص في كل مكان.

فى البيت والطريق والمطعم والحديقة.. في قلب الحي اللاتيني وعلى دقات الطبول وعزف الموسيقى انساقت أقدام الرفاق الثلاثة مع الرقصات الجماعية العشوائية التي يسهل فيها التعارف بلا أستار ومقدمات، وتصطدم قدم إحدى الحسان بساق مندور فتميل للاعتذار الذي يتلقاه لويس متدخلا بتعليق يفجر ضحكتها تاركة زميلها في الرقص لتدور معه يبتلعهما خضم الحلقة المتباعدة على أنغام المرح.. ويعود مندور وصفوان ينتظران الضيف الغائب بلا جدوى، حتى خيوط الصباح التي تأتي بطرقات منظومة تقود لويس إليهما بخطوات لم تزل محلقة تهدر بكلمات إعجابه بالفرنسية القادمة لباريس من الريف.. يروي العائد من قلب الحلم أنه قد دعاها بعد إرهاق الرقص لمقهى مجاور لساحة السوربون، وقال لها وقالت له.. خلاص.. وقع لويس في حب الفرنساوية معلنا للصديقين نيته في الزواج بها رافضا رأيهما بأنها مجرد نزوة.

وغاب الحبيب وعاد وقد شبك في ذراعه عروس ليلة العيد في الحي اللاتيني.. وتفرق الصحاب كل في طريق وعادوا للالتقاء في ساحات العمر... وهكذا وقع الدكتور لويس عوض في حب ثلاث معشوقات كل لها لونها.. زوجته الشقراء، والحرية التي وصفها بأنها معشوقته الحمراء، ومعشوقته السمراء التي كان يعني بها مصر مؤكدا على الدوام خصوصية قوميتها واستمرارية جوهرها على الرغم من كل ما مرت بها من محن: لم ينجح غاز في أن يغير اسم (إيجيبت) ـ حت كابتاح ـ أي (قصر روح الإله بتاح)، ولم ينجح غاز في أن يغير اسمها الآخر (مصر) ـ برأ وزير ـ أي (بيت الإله أوزيريس).. لم ينجح أحد في تغيير اسم مصر الولادة إلا ابن من أبنائها (ربما قصد الرئيس جمال عبد الناصر وقت إعلان الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ لتغدو الجمهورية العربية المتحدة) حاسبا أنه يستطيع بذلك أن يصبح إمبراطور العرب.

لكن الاسم عاد . . مصر . . مصر . . مصر المعشوقة السمراء التي كتب بن عوض في حبها عام ١٩٥٤ يقول وكأنها إلياذة هوميروس اليونانية : «حبي منجم لا ينضب ماسه ، خذي الماس في أحشائك ، ولتكن عروقك من عروق الذهب ، لأن دمي الذهبي يجري في عروقك ، ولتكن عظامك من الفضة ، ولتكن غضاريفك من الدر المكنون . . سيدة أنت في العالمين : فوق رأسك السماء زرقاء من زرقة بحر الروم ، وجنة عدن تحت قدميك ، فمن فيض الكوثر نبع ، ومن رحمك يخرج حوريس ماحق الشر . . مهرك هذه الغلالة الخضراء ، فخذيها واستري بها جمالك الوهاج . . أرق من نسيج العناكب الخضر غلالتك الخضراء . . غلالتك الخضراء ساترة كاشفة بادية خافية . . خذيها فقد غزلتها وحدي على نول الزمان . . هي مهرك يوم الزفاف ، وادخلي البيت العالي يا معشوقتي السمراء» .

لويس حنا خليل ميخائيل عبد المسيح حنا عوض ـ أنا كنت دايما بتضايق من الجزء الوسطانى من اسمى لأني كنت دايما حاسس إنه طويل وبايخ ـ الشهير بلويس عوض من مواليد قرية شارونة مركز مغاغة محافظة المنيا في ٥ يناير ١٩١٥ ، وتبعا لشهادة الميلاد المتأخرة عن ميلاده الحقيقي في ٢٠ ديسمبر عام ١٩١٤ ، كما ذكرت له أمه هيلانة عوض التي كانت هي وأبوه أبناء عم وأبناء خالة ، وقد جاء زواج الأقارب بنتاجه المحتوم في نسل العشرة أبناء ـ لويس واسطة العقد ـ فهناك ثلاثة ماتوا أطفالا ، واثنان ناقصا القوى العقلية ، مع ظاهرة حالات العقم .

وأيضا الإفراط في الخصوبة . . وأتى الانطباع العام حول عائلة عوض على لسان الدكتور لويس عوض إننا أسرة مفككة والطريف السخيف أنه تبعا للأوراق الرسمية قد سجل اسم الدكتور خطأ على أنه أنثى لويز وليس ذكرا لويس ، رغم أن هذا الاسم الأخير أيضا كان يعايره به البعض : كان العقيد القذافي وبنت الشاطئ والأستاذ محمود شاكر يعيرونني باسمي ، فهم يحسبون أن كل من سمي لويس في مصر إنما سمي كذلك تمجيدا للويس التاسع ملك فرنسا أسير دار ابن لقمان في المنصورة أيام الحروب الصليبية ، وقد عرفت من أبي ما يخيب توقعات هؤلاء ، فقد أسماني لويس لفرط إعجابه بالعالم لويس باستير ، وقد كاد اسم لويز الأنثوي أن

يتسبب في إلغاء بعثة الدكتور للخارج عام ١٩٣٧، بعدما شاف الويل من الروتين والكومسيون الطبي وتغيير النظارات والإفلاس في سكة الانتظار والتحايل عليه بإعطاء دروس خصوصية لطلبة الكفاءة وكلية الآداب قسم انجليزي . . واضطر لويس عوض أن يؤنث نفسه في إقرار البعثة تبعا لشهادة الميلاد لينهي أوراقه مصحوبا بوشوشة موظف قلم المراجعة في بدرونات إدارة الجامعة: «عملت طيب يا أستاذ لويس . . تعرف لو كنت صممت ع الاسم الثاني الذكر كانت راحت منك البعثة».

مشوار لويس عوض بدأ بعد حصوله على البكالوريا عام ١٩٣١، في سن السادسة عشرة، بانتقاله إلى القاهرة حيث نسج ملحمته المتميزة التي جعلت منه مثقفا معروفا في أوساط المثقفين، وأستاذا جامعيا معروفا في أوساط الجامعيين، وأديبا معروفا في أوساط الأدب يجرب فنون الترجمة والشعر والنقد والرواية والدراما والسير والمذكرات والمحاورات والدراسات، ومفكرا معروفا بين مفكري مصر والعالم العربي . . وفي جميع مراحل معارفه وشهرته كان قلقا ثائرا . . في كل هذه الميادين اقترن اسمه خطأ وصوابا بالدعوة الصارخة للجديد وبالعداوة الضارية للقديم . . عاشق التطور الذي تجرأ تلميذا في الآداب عام ١٩٣٤، على الجلوس عاري الرأس في مدرجات الطلبة أثناء إلقاء منصور فهمي محاضرة موضوعها احترام التقاليد وضرورة اقتداء الأبناء بالآباء والآباء بالأجداد . . إلخ . . وبعد أن سدد المحاضر للطالب المخالف النظر قال: فإن كنا في مجتمع اصطلح على لبس الطربوش فقد وجب ألا نشذ عن المجتمع ونسير برءوس عارية . . . . وفي نهاية المحاضرة أتى السؤال التقليدي: مفيش حد عنده سؤال؟ . . هنا رفع لويس يده طالبا الكلمة فأذن له، فسأل: «إذا ما كان من الواجب على كل جيل أن يخضع لتقاليد الجيل السابق وعاداته وأفكاره فكيف يحدث التطور في المجتمع يا دكتور؟!» . . عندها بدا على منصور فهمي التأمل العميق وكأنه أمام معضلة فلسفية، وذهب يمسح شاربه بأصابعه، وبعد صمت دام دقيقة أجاب: «هذه مسألة عويصة . . هذه مسألة عويصة . . الزمن وحده يحلها . . وعلى الدوام كانت تلك قضيته . . قضية الصراع بين القديم والجديد».

قضية المجتمع المصري بصفة عامة، وكانت الحلول التي اهتدى إليها تقوم على ركل كل تراث أخذناه عن عصور الانحطاط والاستفادة من تجارب الحضارات الراقية في جديد الحياة من كل الوجوه.. وهكذا بدأ اللاتفاهم الكبير بينه وبين المجتمع التقليدي.

لويس عوض من أطلق عليه نقاده أكثر من لقب.. نهر العناد، وقاطع الطريق، والشريك المخالف، وآخر التنويريين العظام، ومثير الجدل، والمتكامل التضاد، ووريث طه حسين الذي ملأ النصف الأخير من القرن بمثل ما ملأ العميد النصف الأول، لكن الأول ملأت الريح الطيبة أشرعته لتدفع بها إلى الجزر السعيدة والشواطئ الآمنة وبينما أخطأ تلميذه الذي أبحر في خضم العاصفة فمزقت أشرعته وقلبت زورقه، وأحاطت به من كل جانب، وهددته في حريته وكرامته، وفي رزقه وحياته حتى مات مكروبا مقهورا بعد رحلة عمر بلا اتكاء قال عنها يوما: «إنني لم أنجب لكن حياة الفكر قد عوضتني الإحساس بأني عاقر وجعلتني أشعر بأني قادر على ولادة الأفكار والمعاني في كل وقت». وقد كان.. كان الدكتور الذي شيد مجده الأدبي بأظافره ليظل شعاعه النقدي نافذا في عظام الكلمات يشخص ما وهن من قواها، ويكشف عن مواطن القصور ومواضع الكسور في بنائها الفني.. وحده كان تيارا امتزجت في كتاباته الخصومة بالخصوبة.. خصومة الرأي وخصوبة الفكرة.. المتهم بالشيوعية رغم منعه من دخول الاتحاد السوفيتي، المعتقل بسببها في الواحات، الذي هاجمته البرافدا جريدة الحزب الشيوعي متهمة له بمحاولة التخريب في الحركة الماركسية المصرية، وكان قد نشر روايته العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح منددا فيها بديكتاتورية البروليتاريا وبالجماعات الشيوعية في مصر.. المعتنق فلسفة أخلاقية بسيطة: أكره العنف وأعتقد أنه يخلق من المشاكل أكثر مما يحل.. وإن جنحوا للسلم فاجنح لها، أما إذا كان من قدر الإنسان ألا يستخلص حقه وكرامته إلا بالعنف، فليحمل الإنسان قدره في شجاعة، وإذا كان العنف لعنة على بني الإنسان فقبول الذل ألعن وألعن وألعن.. ذلك المنطق قد يبدو بسيطا في ظاهره ولكنه في ضميري كان مصدر معاناة عظيمة ربما مبعثها أني كنت أحمل بعض رواسب المسيحية التي ربيت عليها، فقد لقنتني منذ طفولتي أن من لطمك

على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر، لكن لا أظن أن هذا الباعث الحقيقي، وإنما إدراكي أن قوانين الأخلاق ليست قومية بل إنسانية، فليست هناك أخلاق مصرية وأخلاق إنجليزية وأخلاق ألمانية وأخلاق أمريكية. . وإنما الأخلاق لجميع البشر. . فلو سلمنا بالعنف جوازا كحكم بين الإنسان والإنسان وجب أن نسلم أيضا بالعنف جوازا كحكم بين الحاكم والمحكوم في أي وطن من الأوطان، أقول جوازا، أي إذا اختفى حكم القانون: لا القانون الجهنمي المتمثل في عقود الإذعان السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يفرضها شعب على شعب أو طبقة على طبقة أو دين على دين أو مذهب على مذهب أو فرد على أمة.

لويس عوض ابن الطبقة البرجوازية المتوسطة التي عاشت في السودان حياة ميسورة قبل استقالة والده في سن الأربعين لصدور قرار نقله عام ١٩٢٠، بعد عشرين عاما من العمل في الخرطوم إلى وظيفة باشكاتب في بحر الغزال. . كانت أمه دميانة يدللونها في السودان باسم حسن، وكانت الأسرة تعيش الصداقات الحميمة مع عديد من الأسر المصرية المسلمة، ولم تكن هناك حواجز بين قبطي ومسلم في مجتمع مختلط، وفي أعياد المسلمين والأقباط في المنيا بعد الانتقال كان التزاور وتبادل الكعك والغريبة والمنين مع الجيران المسلمين طقوسا مرعية، وكانت ملابس النساء مسلمات وقبطيات الحبرة والحذاء الأسود، وكان الأب حنا رغم عدم اشتغاله بالسياسة صاحب وعي سياسي كأكثر المصريين، يقول لأبنائه حول العلاقة بين الأقباط والمسلمين: كل تطرف من عمل الإنجليز، وفقا لسياسة فرق تسد التي اتبعوها في الهند بين المسلمين والهندوس.

ويكتب لويس عوض في مذكراته حول نشأته الدينية: «لم يكن أبي متدينا بالمعنى المألوف. لم يكن يصلي أو يصوم حتى في يوم الجمعة الحزينة. . ولا أذكر أني رأيت أبي أو أمي يذهب أي منهما إلى الكنيسة في المنيا أيام الأحد، أو حتى في أيام الأعياد لحضور القداس، ولكن ربما دخلاها في المناسبات الحزينة وفي مناسبات زواج أبناء معارفنا وكانت نادرة. . كل هذا لم يمنع أن أبي عمدنا كسائر الأطفال المسيحيين، وعلمنا قبل أن نبلغ الخامسة أن نصلي قبل النوم ـ أبانا الذي في

السماوات. . . . إلخ. . . ومن أجل هذا يجب أن نحذر من التصور أني نشأت في أسرة قبطية أرثوذكسية نموذجية. . ولست أشك في أني وجدت بعض الأقباط على شاكلة أبي. . وأنني أزعم بأنك لو استوقفت عشرة أقباط أرثوذكس متعلمين وسألتهم عن الفرق بين العقيدة الأرثوذكسية والعقيدة الكاثوليكية لما عرف ذلك منهم أكثر من واحد. . ويسأل لويس عوض عن المصرية والحجاب في عام ١٩٨٥ فيقول: أنا أتابع تزايد عدد المحجبات، ولست منزعجا بل إنني متفائل، ما دام هؤلاء المحجبات يذهبن إلى المدرسة والجامعة والعمل، فهذا هو المطلوب أن تتعلم المرأة وتعمل وتحقق الاستقلال الاقتصادي وتتحرر من التبعية للرجل، وما دام الأمر كذلك فلا خوف على مستقبل المرأة. . ويكتب عن حصيلته المعرفية في المرحلة الثانوية من عام ١٩٢٦ إلى ١٩٣١: كنت أجد متعة كبرى في استظهار بعض صور القرآن كاملة أو مجزوءة بحسب الحالة، وأعيش في جرس القرآن وبلاغته ومعانيه، أتخذ منه مثالا يحتذى في التعبير الأدبي، وقد قوى ذلك إحساسي باللغة العربية، وانعكس فيما بعد على أسلوبي العربي. . ولقد وجد لويس عوض ضالته في بيت شعر شوقي:

فما عرف البلاغة ذو بيان

إذا لم يتخذك له كتابا»

لويس عوض النخبوي ـ نسبة إلى النخبة ـ وليس الجماهيري. . من كنت تلتقط على وجهه دائما تعبير الاندهاش وربما الذهول. . الذي يضع في جيبه خمس ولاعات فإذا ما أراد إشعال سيجارته يقول لك ولع لي. . الماشي وفي مخه حاجة وكأنه يحمل حول جمجمته ستائر برجه العاجي. . من لا تشعر به يخب بجوارك على الأرض وإنما طاير في الهواء. . لويس عوض دائما ما كان جمال شعر الأنثى هو الطريق إلى قلبه. . زار فؤاده الحب لأول مرة ببطلة مسلمة بنت الجيران واسمها وجنات التي لفت نظره فيها شعرها النحاسي الذي لا هو أسود ولا أشقر، وربما كان الكستنائي. . الثانية في الحب عايدة أبو سيف بشعرها الكثيف الفاحم التي كانت تقف في بلكونة الدور الثاني من بيتها تصلح شعرها، وكنت أسمع من زملائي في

مدينة المنيا الثانوية أن إصلاح الشعر في البلكونات شفرة في رسائل الغرام عن بعد، ولكني استبعدت أن عايدة كانت تصفف شعرها لترسل الرسائل لأحد في النوافذ المجاورة لأن بلكونتها بالفعل كانت ملقف هواء.. وتأتي ثالث الحبيبات المسلمة زميلة الجامعة المتخرجة عام ١٩٣٩، قسم اللغة الفرنسية، بشعرها الأسود المرسل اعتماد طه منصور النوري.. الحب كان عذريا ويائسا منذ البداية بسبب اختلاف الدين، وأعتقد أنها كانت من جانبها تحس بمشاعري دون أن تكون هناك مصارحات أو إيحاءات واضحة، فقد كانت تتعمد في رفق عدم تشجيع هذه العواطف وإن كانت من وقت لآخر تمد الشباك عملا بأصول لعبة الحب.. كان جمالها من جمال نفرتيتي، جمالا بلا جنس، عليه مسحة رقيقة من الحزن. وكنت أنظم فيها شعرا عموديا ملفقا لكثرة ما به من بديع، وانقطعت أخبارها عني تماما حتى قرأت نعيها في الأهرام نحو عام ١٩٨٠، أي بعد أربعين عاما وتحركت الأشجان القديمة لحظات وأرسلت إلى أهلها برقية تعزية، ولا أدري إن كنت قد أخطأت أم أصبت بهذا التصرف، ولم أعرف من النعي أكثر من أنها كانت من كبيرات موظفات وزارة التربية والتعليم.. وكان لويس عوض معجبا بزميلته في الجامعة ماري سلامة ـ أشهر ناظرات التعليم الإنجليزي ـ وأرسل يسألها رأيها في الزواج به فلم ترد بكلمة، ولا تمضي أوراق العمر للويس عوض دون أن يدون فيها أن أمينة السعيد زميلته الطالبة الوحيدة في قسم اللغة الإنجليزية كانت محور اهتمام الجميع بسبب جمالها الطاغي.

الناقد المفكر المؤرخ الذي كان يدعوه محمد حسنين هيكل رئيس مجلس إدارة الأهرام للسفر صيفا في جولة ثقافية يعود منها لنا بذخيرة الاستغراق في المشهد الثقافي العالمي، وأحدث ما يراه الغرب من فنون في جميع الاتجاهات، هذا بينما غيره يعود بكيس لب كبير وثرثرة من لغو الكلام.. الدكتور لويس عوض دعاني إلى مكتبه المقابل بالدور الخامس بمبنى الأهرام ليسألني يومها سؤالا وجدته قزما في حضرة العملاق.. تعرفي تقولي لي نص أغنية النايلون؟!.. أدركت مقصده فذكرت أن العتبة جزاز والسلم نايلو في نايلو.. فبدت على وجهه المندهش دوما ملامح السرور الطاغي والامتنان العظيم راجيا أن أملي الكلمات

على قلمه ببطء ليعيد من ورائي دندنة جرس موسيقى الأغنية الشعبية الأولى والثانية الطشت قال لي قومي استحمي . . وقتها لم أكن أعرف أن من اهتمامات الأستاذ جمع تراث الفولكلور الشعبي ، وأنه الرائد الحقيقي للحركة الشعرية الحديثة التي تجسدت فيها روح العصر وتنفست همومه وصوره ورددت إيقاعاته ، وكان يستطيع أن يبلغ في الشعر المكانة المرموقة لو أنه تفرغ له ، لكنه فضل أن يكون مبشرا بالشعر الحديث لا قارضا له ، والذي كانت دعوته إليه في بيان يحمل العنوان المثير حطموا عمود الشعر في مقدمة ديوانه بلوتولاند . . وكان التطور الذي دعا إليه لويس عوض تطورا جذريا شاملا لا يقف عند حد الدعوة إلى تجديد الأوزان والمفردات ، بل يدعو أيضا إلى الكتابة بالعامية المصرية التي قدم منها محاولات عدة ضمها ديوانه كان لها أثرها الواضح في شعر صلاح جاهين فيما بعد . . . ومنها مقطوعته التي أسماها تابلوه أي لوحة :

جنية لها ريش
اتمددت عريانة
تتشمس ع الحشيش
وطبقت خجلانة
ستاير الرموش
حر الجنوب لفحها
قالت تعالى حوش !

لويس عوض الذي هرب تلميذا من الصعيد للإسكندرية كي يتسلل في بطن باخرة في الخفاء لهوليوود في أمريكا ليناطح على الشاشة الفضية كلارك جيبل أعادوه مفلسا للبيت على يد محضر . . ذلك المغامر كان أهم المستكشفين العظام الذين ينذرون حياتهم للكشف عن مناجم الإبداع بينما هم في حد ذاتهم سرة الإبداع ونهر فيضه . . دكتور عوض الخبير المثمن لقيمة الجواهر المندسة وسط زيف الحجارة والزلط آثر التراجع للصفوف الخلفية ليجلس خلف الكاميرا في مقعد المخرج ، ليقدم على شاشة الفكر والفن والشعر المصري أبطال الحداثة في الثقافة

المصرية من أمثال صلاح عبد الصبور وأمل دنقل ومحمد أبو سنة، وفي القصة القصيرة الواقعية يوسف إدريس. . قام المعلم بتدشينهم في مدرسته ومنحهم جواز وصك المرور العوضي، وربما لو لم يكن موجودا لتأخر طويلا اعتراف القارئ بهم ولتأخر تطويرهم لأنفسهم، فقد كان بمثابة معبد طريق الشوك بالنقد البناء وتقديم وتسهيل وترجمة أحدث الإبداعات للحصول على التجارب جاهزة مدعمة بالتغلغل في الجوهر وهضم المحتوى. . قام لويس عوض بتجنيب اكتشافاته الأعاصير التي تدك وتسوى بالأرض، ولولا صلابته لكانوا قد أصبحوا عرضة لعنف نقد شخصية عارمة مثل العقاد الذي كان من الصعب إقناعه بهم، ولو كان شعر صلاح عبد الصبور كمثال قد ضل طريقه إليه لقام بتحويله إلى لجان النشر مصدرا حكما بإعدامه شاعرا.

وإذا ما وصلت القسوة في قلب الوسط الثقافي الذي قدم له لويس عوض حياته بتوجيه الاتهام الخسيس إليه بأنه باع نفسه للسلطة، وهو الاتهام المعلب الجاهز الذي يجهزون به على أي مثقف في بلدنا غافلين مشوار التحصيل وتاريخ العطاء وأزمان المعاناة ورفض شراء القلم بالدولار والدينار. . وحتى لو كان لويس عوض من موقع صاحب المعارف الذي قدم خمسين كتابا قد ساعد يوما صاحبة القصر في حياة زوجها الراحل بعلمه وخبرته لنيلها الدرجة العلمية، فمن الممكن تفسير جنوحه للمساعدة بأنها كانت تستحق كغيرها، أو أنها لحظة ضعف الانبهار التي من الممكن أن يمر بها أي مثقف.

ويا عالم الجلد والترهيب والتعذيب والطعن والإقصاء ونضوب الغفران والحكم بالإعدام البطيء بالتجاهل والصمت. . لقد غلب الغلب في القول بأن العبقري شخصية لها تركيبة أخرى غير تلك النمطية التي ندور فيها وتدور حولنا. تركيبة غير طبيعية صاحبها ليس ذلك التقليدي الذي ينتظر العلاوة الدورية ويعود ظهراً لأم العيال حاملا بطيخة على صدره وفي بطنه مسبقا بطيخة صيفي. . العبقري مبدع. . والإبداع يأتي عبر نماذج مختلفة غير البشر العاديين تطرفهم من نوع خاص لصالح المجتمع وليس ضده. . العبقري لم يكن أبدا وسطيا لكنه صاحب الجنون أو الجنوح

إلى أي من الجانبين . . اللمحات التي قد تبدو شاذة في حياته ربما كانت ذاتها من أسرار عبقريته . الإبداع سلوه ألا يأتي إلا من بعض الشطط ، والأمثلة واضحة في قوائم التاريخ القديم والحديث : بيكاسو . . بيتهوفن . . أينشتين . . بونابرت . . ولويس عوض من كان عبقريا وكان مرجعا ، وفي مصرنا الحلوة لم تعد هناك ـ لا مؤاخذة ـ مرجعية لا في الثقافة ولا النقد ولا ولا ولا حتى في السياسة . . جيل الأساتذة انقرض ودخلنا خلاص مرحلة جيل التلامذة ، حتى النوادر الباقية في الأرض الشراقي غارقة لشوشتها في ذاتها متوحدة في جزيرتها واهتماماتها بنفسها ، وبقية منها يحكمها تصلب شرايين الكبر تنسى دورها السابق في العطاء لتعلو في مونوجها الأنا . . ومرجعية النقد تحولت إلى مجامل كبير وليس الناقد الكبير . . هناك بلا شك من حولنا الكثير والكثير من السادة المحترمين ، لكن سيظل الفارق شاسعا بين واحد محترم وواحد يعد مرجعا . . عند الشيعة هناك آية الله بما يعادل الشيخ أو المفتي وهؤلاء منهم العديد ، لكن هناك واحدا فقط هو آية الله العظمى أي المرجع الأعلى . . خلاص . . جيل المراجع انقرض وأنزل الستار بعدما ظهرت على الشاشة كلمة النهاية . . أضيئت أنوار الصالة وخرج الجمهور متخبطا إلى الشارع . . خلاص . . القوالب نامت والانصاص قامت . . أصبحنا نتنفس في مناخ جيل الفرز الثاني والثالث . . خلاص . لم يعد هناك فرز أول ! !

سليم حسن.. عاشق المحروسة

قالت له أمه الملهوفة على مستقبله بعد أن باعت مصاغها قطعة وراء الأخرى ليتمم دراسته: «اسمع يا سليم يابني لا بد تكمل علامك والراجل بيعيش مرة واحدة ومن أجل ده لازم يعيشها دكر». . وكان الملك فاروق يكرهه موت ويقول عنه: «الفلاح ابن الكلب أخد مال أبويا». . بينما قال عنه الملك فؤاد: «سليم حسن شاب يعمل ويجتهد غير أنه لا يرغب أن يرى إفرنجيًا في البلد، بل يريد أن يكون هو المسيطر على المتاحف والآثار المصرية». . وإذا ما كان الدكتور سليم حسن ـ عميد الأثريين المصريين ـ قد سمع كلام أمه وعاش «دكر»، فإنه لم يغضبه كلام الملك فؤاد ولكن أخذه العجب منه كل العجب، لأنه وهو الملك الجالس على عرش مصر لا يريد لأبناء بلده أن يكونوا هم المسيطرون على وظائف الحكومة!!. . أما ما نطق به فاروق من سباب فقد كان عالمنا الجليل يتوقعه بعد أن دخل حربًا خفية معه كان فيها يطلق على فاروق لقب «لص الآثار الجريء» وأبدًا لم يتنازل عن اتهامه له بسرقة عصا توت عنخ آمون، التي أذيع أنه لم يعثر لها على أثر. . «قبل وفاة الملك فؤاد جاءني أحد أمناء القصر وأنا وكيل مصلحة الآثار ومعه مجموعة آثار كانت في حوزة فؤاد وقال لي إنه يرسلها هدية منه إلى المتحف المصري، وعندما أصبح فاروق ملكًا أراد استرداد هذه المجموعة الثمينة فأرسل لي مراد محسن باشا ليقول لي إن الملك يريد آثار المغفور له والده، ولما كنت متوقعًا أن يُقْدم فاروق على هذه الخطوة فقد سجلت المجموعة في سجلات المتحف، وأصبحت بذَلك ملكًا للدولة لا تخرج من المتحف إلا بقرار من البرلمان، وعندما عرف فاروق بذلك لم يكف عن المطالبة وأرسل لي محسن باشا مرة أخرى فقلت له: أنا مستعد أسلّم لكم الآثار بشرط أن تكتبوا إيصالاً بأنكم تسلمتموها بصفة أمانة، ومنذ ذلك الوقت أعلن فاروق الحرب

ضدي وأخذ يعمل على إبعادي عن المتحف واتهمني بكل ما شاء من التهم التي تحولت إلى قضية أمام النائب العام ياسين أحمد باشا، ولما فحصها أدرك أنها باطلة ووصفها بأنها «بنت سفاح»، وطار ياسين باشا النائب العام في هذه الزوبعة التي أثارها فاروق ضدي، وفي عام ١٩٣٩، حاول النقراشي باشا إعادتي إلى عملي فثار فاروق، وكان قرار الإعادة يوم الأربعاء فاجتمع مجلس الوزراء ليصدر قرار إبعادي يوم الخميس!!».

ولا ينتهي الصراع الخفي بين الملك الحرامي وحارس الكنز الذي وجد ٢٣٠٠٠قطعة مفقودة ومسجلة من المتحف عندما قام بجرد محتوياته في سبعة أشهر انتهت في أبريل ١٩٦٠، ويروي سليم حسن كيف أحرج فاروق في عام ١٩٤٦: «كان المتحف المصرى مغلقًا بسبب الحرب، وفي هذه الأثناء كانت بعثة من الفرنسيين تعمل في (صان الحجر) لاكتشاف ملوك الأسرة الـ١٢، واكتشفت البعثة آثار كاهن مات في سن الثامنة رغم أنه كان كبير الكهان واسمه (حورنحت) وتقدر آثاره بنصف مليون جنيه، وكان مدير المتحف فرنسيًا اسمه (دريتون) فاتفق مع البعثة على نقل هذه الآثار إلى متحف اللوفر في فرنسا، وتم الاتفاق أيضًا على التقدم إلى الملك أثناء حفل افتتاح المتحف بعد الحرب ومشاهدة الآثار المكتشفة بطلب منحها لهم مكافأة علي اكتشافها، واستعانوا بامرأة حسناء أوقفوها عند جناح تلك الآثار في انتظار وصول الملك.. وجاءني كبير أمناء المتحف محمود علي حمزة ليبلغني بالمؤامرة، فطلبت منه الإسراع بتسجيل التحف فورًا، وفي يوم الاحتفال فوجئ الجميع بحمزة يعلن أنه سجّل تلك الآثار وأنها أصبحت ملكًا للدولة.. وثار فاروق في وجه حمزة قائلاً: «هو أنا سألتك سجلتها ولا لأ».. لقد كان فاروق يريد إجابة البعثة إلى طلبها، ولكنه أحرج، ويومها جمعت مندوبي الصحف وأعلنت أمامهم أن مولانا المبجل يفتخر بهذه الآثار، وبأنها أصبحت ملكًا للدولة فأحرج فاروق وقال يومها لرجال السراي: هو برضه الفلاح ابن الكلب اَللى عملها فيّه!».

سليم حسن ابن قرية ميت ناجي بمركز ميت غمر من رأت عيناه النور في ٨ أبريل

عام ١٨٩٣ من أبوين فقيرين: «والدي فلاح يعمل بيديه وأسنانه ويكسب لقمة العيش بالعرق والدم والكثير من أعصابه.. وأمي الفلاحة الشامخة بجلابيتها السوداء التي قدمتُها بفخر للسفير البريطاني السير مايلز لامبسون ـ اللورد كيرن فيما بعد ـ عندما كان يحلو له زيارتي أثناء عملي في الحفائر الأثرية فانحنى لها ـ وهو من كان بمثابة نصف إله ـ شاكرًا أمومتها التي أنجبتني عالمًا».. في السابعة تربع سليم أمام الشيخ محمد القادم من كفر الجهنمي ليعلم عيال الكفر فك الخط، وبعدها ذهب سليم مع لوح الاردواز للكتّاب الذي خرج منه حافظًا للقرآن الكريم.. ثم أكثر من مدرسة انتهت إلى مدرسة المعلمين العليا قسم آثار التي كان يتقاضى فيها جنيهين راتبًا شهريًا من وزارة المعارف يقتسمها مع شقيقته ليتبقى له جنيه للأكل والمواصلات والكراريس، وعشتُ أيامًا مريرة أنام على الطوى يصفق الجوع بطني بينما أنتزع من الجنيه قروشًا أشترى بها كتابا أحتضنه ككنز ثمين، وظلت مكتبتي التي تحوي آلاف الكتب تضم بعضا من كتب اشتريتها يومًا بدلاً من الطعام.. ويتخرج سليم في سن الـ٢٢ مدرسًا للتاريخ واللغة الإنجليزية متنقلاً بين أسيوط وطنطا، ونتيجة لنبوغه في مادته طلبت منه وزارة المعارف القيام بتأليف كتب التاريخ لمراحل التعليم الثانوي، وكان وراء ذلك حكاية «أنني كنت أشرح أحد الأحداث التاريخية للطلبة وإذا بالباب يقرع ويدخل منه رجل بوجه أحمر يرتدي البرنيطة ويمسك بنوتة صغيرة.. لقد كان مفتشًا إنجليزيًا.. ولم أظهر له اهتمامًا واستطردت أكمل الشرح، وخرج الرجل وهو يشد على يدي بابتسامة عريضة، ومرت الأيام وتلقيت خطابًا كان نقطة التحول في حياتى، فقد علمت أن ذلك المفتش قد أثنى على معلوماتي وشرحي وسعى ليجعلني أكتب تاريخ مصر وكنا في عام ١٩١٥، وكتبت التاريخ المصري من الفتح العثماني، وكتبت تاريخ أوروبا في جزءين، وتاريخ الدول العربية، ودُرِّست كتبي في جميع المدارس الثانوية والعالية في ذلك الوقت المبكر».. وتقوم ثورة ١٩١٩ وتمنعه السلطات هو وزميله فكري أباظة من مبارحة أسيوط لمدة سنة كاملة، ومع نهاية عام ١٩٢١ يعين مع محمود علي حمزة أمينين مساعدين للمتحف المصري بإصرار من أحمد شفيق باشا وزير الأشغال صاحب موسوعة «مذكراتي في نصف قرن».

ولأن السفر كان حلمًا فقد ادخر سليم حسن كل قرش يأتيه من تأليف الكتب حتى توفر لديه ما يسَّر له السفر في عام ١٩٢٢ على نفقته الخاصة لحضور الاحتفال بمرور مائة عام على حل شامبليون لرموز اللغة الهيروغليفية، وهناك بدأ رحلة البحث والتسجيل للآثار المصرية في الخارج راصدًا واصفًا القطع المسروقة، وفي أحد المتاحف يقترب منه رجل ليهمس في أذنه ضاحكًا: «انظر إلى التحفة التي أمامك. . إنها رأس نفرتيتي، من آثار قدماء المصريين، إننا لم نعثر عليها في أوروبا، ولكنها من مصر. . أتعرف من الذي سرقها. . أنا الشخص الواقف أمامك. . إن المصريين لا يعرفون شيئًا عن آثارهم. . إنهم لا يعلمون شيئًا عن رأس نفرتيتي وما زالوا جهلة بقيمة آثارهم. . وفي اليوم التالي أخذ سليم صورة لرأس نفرتيتي ليرسلها للقاهرة مرفقة بعدة مقالات نارية نشرت في جريدة «الأهرام» تحت عنوان «الآثار المصرية في المتاحف الأوروبية» كشف فيها عن أسرار سرقة الآثار ودور الأجانب في ذلك، مما أثار حملة عالمية وقومية للوقوف ضد السرقات الفاضحة لثروتنا القومية وكان له رد فعل سلبي لدى المستشرقين وأصحاب المصلحة - من الأجانب والمصريين - في استمرار عمليات نهب الآثار وسرقتها، وكان مما كتبه من المضحكات المبكيات في تاريخنا المجيد، أنه في عام ١٨٥٥، عندما قام الأمير النمساوي الأرشيدوق «مكسمليان» في زيارته إلى مصر أن اصطحبه الخديو عباس الأول إلى دار «الدفتر دار» في الأزبكية ليشاهد مخزنًا كان محمد علي قد خصصه للآثار. . وهنا يروي سليم حسن «إن باشا مصر أراد أن يحتفل بالأرشيدوق فأعد له جوادًا عربيًا مطهمًا بلجام من الذهب الخالص وسرجه مطعم بالجواهر والأحجار الكريمة، فطلب الأرشيدوق بدلاً من ذلك الجواد شيئًا من الآثار المصرية القديمة، فقام عباس المعطاء بإهدائه جميع آثار الدفتر دار، وخرج النمساوي بالهدية التي لا تقدر بمال وهو لا يكاد يصدق نفسه خاصة وأن الجواد الذهبي قد تهادى في المقدمة ليركب السفينة مع الأرشيدوق في طريقه للنمسا».

ويسافر العالم إلى فرنسا في بعثة ليمكث أربع سنوات ونصف السنة لدراسة الآثار المصرية القديمة في السوربون، حيث اشترى بيتًا بحوالى ٤٠٠ جنيه كان مهبطًا

وملاذًا ومضيفة للطلبة المصريين الوافدين، حتى إن أحمد الصاوي محمد كتب عنه «أنه بيت الأمة في فرنسا». . و«طوال مدتي هناك - كما يقول سليم حسن - لم أسهر مرة في ملهى، وحدث مرة أن مكثت أحد عشر شهرًا دون أن أبرح بيتي استعدادًا لامتحان السوربون، وكان الجيران يلاحظون اختفائي فخشوا أن أكون مريضًا، فكانوا يدقون بابي ليجدونني جالسًا بين الكتب. . وعدت لقاهرتي أحمل دبلومًا من المعهد الكاثوليكي في اللغات الشرقية وهي المصرية والقبطية والعبرية والسريانية والحبشية، وأيضًا دبلومًا من السوربون في الديانة المصرية القديمة، ودبلومًا آخر في الهيروغليفية».

الأثري المكتشف الذي حصل على الدكتوراه من جامعة فيينا عام ١٩٣٥، وفي يناير ١٩٣٦ أنعم عليه برتبة البكاوية لم تنله لعنة الفراعنة التي حذره منها الإنجليز لتكون الكشوف وكنوزها حكرًا عليهم، فعندما رفع الفأس بيده ليبدأ الحفر بأول معول بجوار أبو الهول مباشرة وضرب الأرض وأزاح التراب التقى بالوعد. . حجر كبير باسم «رع ور» تحته أكبر مقبرة ظهرت في الدولة القديمة كلها، وظل الكشف حديث الصحافة العالمية عشر سنوات، واستمرت الكشوف لتبلغ ١٧١ مصطبة ومقبرة، وكان يقول بصدد اكتشافاته: «غايتي في الكشف أن أبلغ إلى أصل الشيء، والكشف عندي ليس مسألة تخمين أو مصادفة بل هي مسألة مبنية على معلومات صحيحة»، وكان يرى أن الطريقة المثلى لكشف الآثار أن تكون بريئة من الجري وراء الكنوز الذهبية، بل يكون غرضها الأسمى إماطة اللثام عن الفجوات الناقصة في التاريخ وإظهار ما كان لمصر من حضارة. أما عن أسلوبه في التأريخ فقد وصفه في الصفحة الأولى من الجزء الأول من موسوعته العملاقة «مصر القديمة»: «هذه محاولة جريئة أردت بها أن أجمع في مؤلف واحد تاريخ شعب عريق قديم، له عقيدته وفلسفته في الحياة. وله ثقافته ونظامه وطرائق معيشته. ولم أتخذ من تاريخ الملك «الفرعون» نموذجًا لتاريخ شعبه كما جرت العادة بذلك في الكتب، ولم أجعل حياته وعاداته ونظمه وثروته ومعتقداته مقياسًا للحكم على أحوال رعيته، فقد يكون الفرق بينهما كبيرًا والهوة سحيقة. بل جعلت حال الشعب أساسًا لما كتبت، وفي ذلك ما يقربنا من الحقيقة ويجنبنا مزالق الخطأ

والضلال». . لقد اختار سليم حسن أن يفسر تاريخ مصر تفسيراً شعبيًا. . فالشعب يفسر الملوك، وليس الملوك هم الذين يفسرون حياة الشعوب.

ولأنه درس التاريخ الذي كُتب علينا أن نحياه لا أن نقرأه فقط من جديد، فقد دوَّنه سليم حسن كما جاء في بَردية ليدن مع نهاية الأسرة السادسة عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد الذي صور فيها الحكيم إيبو-ور عصر الفوضى والتدهور الداخلي. . عصر الانحلال: «لقد اختفت مصر من الأعين فجأة وصارت في ظلمة كأن مصيبة عظمى قد نزلت بها. . قُضِي على الضحك ولم يعد يُسمع، بينما أخذ الحزن يتمشى في طول البلاد وعرضَها ممزوجًا بالأسى، وكره الناس الحياة حتى أصبح كل واحد منهم يقول: ليتني مت قبل هذا. . والأطفال الصغار يقولون: كان عليه ألا يجعلنا على قيد الحياة. . والأطفال حديثو الولادة يُلقَوْن على قارعة الطريق، وأُلقي المواطنون على أحجار الطواحين الخامدة، وتولى الغوغاء مراكز الطبقات العلَيا، والقلوب صارت ثائرة، والمصريون أصبحوا أغرابًا وأهملوا جانبًا، وأصبحت الأرض تدور كما تدور عجلة الفخار، وفارق النُبلُ الدنيا، وأصبحت ربات البيوت يقلن أنّى لنا ما نأكله، وذبلت أجسادهن في الأعمال، وتحطمت قلوبهن من ذل السؤال، وأصبح الذين كانوا يرتدون الكتان الجميل يجلدون بالسياط. . وأصبح اللص صاحب ثروة، وتحول النهر إلى دماء عافتها النفوس، وأصبحت البلاد مليئة بالعصابات حتى إن الرجل يذهب ليحرث أرضه حاملاً درعه، وشحبت الوجوه وكثر المجرمون ولم يعد هناك رجال محترمون، وصارت النساء عاقرات». . ويوجه الحكيم إيبو-ور في عام ٢٥٠٠ق. م رسالته في البردية التاريخية للحاكم: «إن الصدق والقيادة والفطنة معك، ولكنك لا تنتفع بها، فالفوضى ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها، ولكنك مع ذلك تتغذى بالأكاذيب التي تتلى عليك رغم أن البلاد أصبحت قشًا ملتهبًا».

وفي محاولة لقراءة عالم الآثار الكبير ذهبت في جولة لزيارة مكتبته لأقترب من أوراق كتبَها وقرأها وهضمها. . ذهبتُ إلى مكتبته التي انتقلت عن طريق ورثته للجامعة الأمريكية في عام ١٩٨٠، فوجدت مؤلفاته قد بلغت نحو ٣٥ مؤلفًا بالعربية والفرنسية والإنجليزية تتصدرها موسوعته «مصر القديمة». . هموم ٤ آلاف

سنة، وخمسة آلاف صفحة في عشرة آلاف يوم إلى جانب موسوعة باللغة الإنجليزية من ٦١ جزءا عن حفريات منطقة الجيزة لم تتم ترجمتها بعد . . والتي استوقفتني في مكتبته ومن كتب التاريخ النادرة «رحلة إلى بلاد النوبة» من تأليف الفرنسي «كلييود» عام ١٨٢٦ مصحوبًا بالرسوم والخرائط التفصيلية التي استعان بها سليم حسن عندما أسندت إليه مهمة المشاركة في نقل آثار النوبة ومنها معبد فيلة وأبو سمبل أثناء بناء السد العالي ليجتمع بعدها المجلس الأعلى لأكاديمية العلوم في نيويورك، وينتخبه بالإجماع عضوا في الأكاديمية التي تضم ١٥٠٠عالم من ٧٥دولة، وهي أكبر أكاديمية علمية في العالم، وجاء في قرار الانتخاب أن الأكاديمية قد رشحت الدكتور سليم حسن لعضويتها لما له من فضل على العلم وما بذله من جهود متصلة لتنمية العلم وتقدمه، ويعد سليم حسن أول عالم عربي يدخل الأكاديمية العالمية التي أنشئت عام ١٨١٧ . . وخرجت من مكتبة سليم حسن مؤمنة بموسوعية المعرفة لدى الرائد الراحل عاتبة ألا تكون هذه الكنوز في الجامعة المصرية وليس الأمريكية، وأبتلع عتابي عندما أعرف من السفير أحمد سليم حسن الابن والوريث الوحيد ـ من بعد وفاة شقيقه لواء الجيش وأربع شقيقات ـ الذي ظل يعرض مكتبة والده على جامعة القاهرة عشر سنوات بلا مقابل فلم يلق ردًا، وعندما عُرضت على الجامعة الأمريكية أتت في اليوم التالي مرحبة لتخصص لها قاعة كبرى باسم سليم حسن، الوحيد الذي لم يأت ذكره في الاحتفال بمرور مائة عام على إنشاء المتحف المصري وكان أول مصري يعمل به في منصب الأمين، ولا يقبل مبدأ القسمة، أي قسمة جميع أعمال الحفر الذي يقوم بها الأجانب بينهم وبين مصر، وعندما أراد الإنجليز اقتسام آثار توت عنخ آمون وقف في وجههم مطالبًا بتقدير المبلغ الذي أنفقوه في الحفر، فقدره كارتر بـ٨٤ألف جنيه، دفعتها له مصر، وبقيت آثار عنخ آمون كاملة بدون قسمة، لم يفقد منها إلا العصا.

العملاق طولاً وقدرًا عاش في بيت رومانسي صغير شيّده بالقرب من الأهرامات مما يتيح له أن تكون على مرأى من ناظريه، تحيطه حديقة صغيرة غنّاء يجمع فيها ألوانًا من الزهور يرعاها ويسقيها بنفسه، يصحو مع الفجر للصلاة ويجلس ليكتب ويفتح كتبًا قديمة صفراء ليكتب صفحات منيرة بيضاء، وفى الأنحاء

نسخ من تماثيل فرعونية تردد وتجدد حكاياتها، وعلى الحوائط لوحات رائعة من نسيج ناعم طرزتها أنامل زوجة فنانة شاركته عشق التاريخ، ونقلت مواقعه ومعاركه بالتطريز في دقة بالغة . . . العالم الذي تزوج مرتين وعاش في دفء الاحتضان لم تكن العواطف مركزًا لاهتمامه ولا كانت المرأة شاغله الشاغل، اللهم إلا إذا كانت مرتبطة بالتاريخ والأثر كاعتنائه بشخصيته كيلوباترا التي خرج برأي قاطع فيها بأنها لم تكن مبتذلة كما صورها خيال الأدب وإنما كانت سياسية داهية، وأعف نساء عصرها، وكانت تريد الخير لمصر الوطن الذي تأثرت بثقافته ونهضته وشربت من نيله المقدس.

وعندما كتب سليم حسن عن الأدب المصري القديم في الجزء الثامن عشر من موسوعته العملاقة كان ولا بد له من الاستغراق في ترجمة أشعار الغزل فكان أمينًا بل كأنه بذاته العاشق الذي قال على لسان الحبيب في عام ١٣٠٠ق.م لساكنة الفؤاد:

«عندما تأتي الريح فإنها تتوق إلى شجرة الجميز
وعندما تأتين . . . فإنك تتوقين إليّ

حبيبتي إذا ضممتها وذراعاها مفتوحتان خيّل إليّ أني امرؤ من بلاد بنت نبع العطور . . آه ليتني خادمتها لأجلس عند قدميها . . خاتمًا في إصبعها . . ليتني الحارس حتى تؤنبني وعندها يمكنني سماع صوتها وهي غضبى لأكون أمامها كالطفل أرتعد فرقًا».

وإذا ما كان لا بد من الأنثى المعاصرة في حياة مكتشف مقبرة الملكة «خنت كاوس» - آخر ملوك الأسرة الخامسة، وأول امرأة حملت لقب «ملكة» في التاريخ التي صُمِّمت مقبرتها على هيئة تابوت أقيم فوق صخرة مما جعل مكتشفها يطلق عليها اسم الهرم الرابع - فقد كانت هناك الأنثى المعاصرة وإن كانت أيضًا مسكونة بحب الفراعنة . . حسناء إنجليزية شغوفة بالفراعنة منذ الطفولة وقعت في صباها في حب مدرس مصري أثناء بعثته لإنجلترا، وتزوجت منه وأنجبت ابنها «سيتي» لتحقق أملها من بعد انتهاء البعثة في القدوم لمصر، ولما اشتد بها هوس الفراعنة،

وظهر جموحها في عشق الحيوانات وتقديسها لآلهة قدماء المصريين ومنهم العجل أبيس، وتقديمها الطعام للثعابين، قام زوجها بتطليقها لتذهب يوميًا لمنطقة الأهرامات لاستنشاق عبق التاريخ فتلتقي هناك بالدكتور سليم حسن لتعيش معه مرحلة حفائره في منطقة الجيزة بجوار «بول حول» الاسم الحقيقي لأبي الهول ومعناه مكان عبادة الشمس، وتعيش عاشقة الفراعنة في إحدى المقابر الأثرية وتقوم بعمل السكرتيرة للعالم الأثري المصري، وتغدو بمثابة ذراعه اليمنى في مراجعة مسوداته وكتبه. . وبعد رحيل سليم بك تهجر أم سيتي مقبرتها وأهراماتها لتذهب إلى منطقة العرابة المدفونة في الصعيد لتحيا بقية أيامها وتموت لتدفن بها كما أوصت.

سألوه قبل رحيله بخمسة أيام وكان يعمل وقتها لمدة ١٢ ساعة يوميًا متى تنتهي من تأليف موسوعتك عن النيل التي طلبها منك جمال عبد الناصر؟. فأجاب وابتسامة غامضة على شفتيه: بعد أن أنتهي من كتاب كيلوباترا.

- ومتى تتم كيلوباترا؟

- لا أدري فهناك شعور داخلي يهمس لي بأني لن أتم كتابتها. .

- لماذا تشرد بعيدًا. . هل هو التحليق مع روح أخناتون؟

- لا وإنما أحلّق مع أحزاني لما لاقيته من عقوق وما زلت ألاقيه من البعض، حتى من هم في سن أولادي يستدعونني الآن إلى مكاتبهم لأتلقى أوامرهم بطريقة فظّة تشعرني بالمهانة.

ويمسح الكبير جبهته بيده عند قوله: «في أوروبا يحترمون العلماء إلى أقصى حد. . كنت أقف في صف طويل لأحد البنوك في باريس، وفي حديث عابر مع الرجل الذي يتقدمني أني عالم الآثار المصري، فما كان من الرجل وغيره من الواقفين إلا أن ألحوّا لأتقدم الصف كي أنتهي وأنصرف لعملي. . وقبلت منهم هذا التكريم الذي أثر في نفسي».

وتبقى كلمات سليم حسن التي قالها بسخرية مغموسة بالحزن: «الحياة كوميديا للذين يضحكون، ومأساة للذين يتأثرون»!!

رجاء النقاش.. صياد اللؤلؤ

مكثت أغار منه لقربه الشديد من الأستاذ أحمد بهاء الدين رئيس تحرير أخبار اليوم وقتها، كان موقعه في الحجرة الملحقة لمكتب الأستاذ الذي يقوم إليه فجأة ليحادثه طويلا على انفراد ثم يعود إلينا ليلقي علينا ملاحظاته المبتسرة كمجموعة . . ولم أمكث زمنا تحت مظلة غيرتي من رجاء النقاش بعد ما اجتمعنا معا علي محبة بهاء، وبعدما لمست فيه الحكاء الذي يجيد السرد ويمتلك ذاكرة تحتشد بحكايا الثقافة وطرائف المبدعين عبر الزمان، ويسيل منه عذب الكلام عن الذين يملؤون حياتنا أدبا وشعرا أمثال نجيب محفوظ ويوسف إدريس ونزار قباني وكامل الشناوي وزكي نجيب محمود. . وغيرهم. . وغدونا أصدقاء، فرجاء هو من يصادق ولا يعرف العداء. من يثق في نفسه فيمجد مواهب الآخر. من ينقد ولا يجرح. من كلامه الهمس وصوته رنين العقل. من يصيبك بالفرح كلما التقيت به ويترك لك أغلى الذكريات كلما غاب عنك . من يقرأ بتجرد ويكتب بتجرد. من ينقد فتتجدد طاقة الكتابة لدى من كتب عنه. من له لغة مختلفة عن اللغة التي تتردد على ألسنة المثقفين المتقعرين الذين يدججون كلماتهم بالشعارات. من أعتذر عن أي جمع قبل أن أعلم بقدومه إليه وعندما أعلم أكون في مقدمة كشف الانتظار . . من تلقاني ابتسامته فأحظى بتوقيع الشطارة والمهارة والنجاح والفلاح واستمرار الكفاح. من أسمعه وأقرأه فأشعر بطمأنينة الغريب العائد إلى وطنه. من لم يكف عن صيد اللآلئ الحقيقية وأبدا لم تخدعه الشباك. من يتحدث بنوع من الصدق أقرب ما يكون للتقوى. من يمتلئ بطاقة هائلة من التواضع أمام النص الذي يتحدث عنه ويكشف أسراره مستخدما لغة لا يتعاظم فيها ولا يستعرض ولا يقحم الأسماء الأجنبية ولا

يختلس مكان الكاتب . . من يعشق التاريخ فأعشق تفانيه في كشف كنوزه لأصبح على رأس طابور زيارة متاحفه الثرية وحدائقه الغناء .

من ينقب عن الجمال فيكتشف عشق شكسبير لامرأة في لون الأبنوس وخطابات شعر الغرام بين أنور المعداوي وفدوى طوقان . . ابن النقاش ابن قرية منية سمنود بالدقهلية صاحب العيون الخضر الذي دعاه عبد الناصر عام ١٩٦٣ ، ضمن أعضاء المؤتمر الأول لكتاب آسيا وإفريقيا فدخل قصر عابدين للمرة الأولى لينبهر بناصر وبعابدين : «وقفنا في صفوف متراصة ومر علينا عبد الناصر وصافحنا واحدا واحدا فرأيناه من قرب وأدركنا صحة ما كان يقال عنه من أن له هيبة وسحرا وجاذبية وعينين مليئتين ببريق استثنائي يأسر القلوب . . كان هذا كله صحيحا ، فقد مستنا كهرباء عبد الناصر فاهتزت منا الأعصاب والمشاعر ، وأدركنا جميعا أننا في حضرة رجل عظيم . . وبعد أن انتهت المصافحات انتقلنا إلى قاعة العشاء التي تبهر العيون وتخطف الأبصار من فرط جمالها وبهائها ، وكان سقفها كله مطليا بالذهب . . .

وكلما نظرنا إلى هذا الجمال وهذا الجلال شعرنا كأننا نعيش ليلة من ليالي ألف ليلة ، مع فارق واحد ، هو أننا لم نكن أمراء ولا أصحاب مال أو سلطان ، بل كنا في معظمنا فقراء أبناء فقراء ، ومن كان منا أفضل من ذلك فهو في أحسن الفروض من متوسطي الحال ، وكنا ندرك جميعا أنه لولا عبد الناصر الذي فتح لنا الأبواب وقال لنا : ادخلوا ، ما كان لنا أبدا أن ندخل هذه القاعة الذهبية في قصر عابدين ، ونحن آمنون بأن الشرطة لن تقبض علينا وتسيء بنا الظنون ، فقد كان قصارى ما نحلم به هو أن نرى الأسوار الخارجية لقصر عابدين ثم نعود إلى بيوتنا سالمين غانمين» .

رجاء . . الخجول الذي يشتد خجله كلما تكاثرت من حوله أمواج الثناء فيُسقط فوق وجهه قناعا من الجدية والوقار لا يُرى ولا تسمع أصداء الإعجاب ، وينظر بعيدا وكأنه يبحث عن ذلك الشخص الذي يزجون إليه عبارات الثناء وكأنه ليس رجاء . . وكأنه ليس رجاء النقاش الذي غادر مقعده بجواري في مدينة دبي عام ٢٠٠٥ ، متعثرا في خجله متقهقرا في سيره كطفل يساق عنوة إلى سبورة الامتحان ليحل مسألة حساب مستعصية ، وكان رجاء يومها مدعوا للصعود إلى منصة التكريم

العربي الكبير، حيث قام الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم - ولي العهد - بتسليمه جائزة شخصية العام تقديرا لدوره الثقافي العربي الكبير. . ويومها بحثت عن صورة المحتفى به لنشرها فلم أجده سوى متواريا في آخر الصفوف لا يكاد يُبين. . وتلك هي أخلاقياته وتصرفه ونهجه الذي لا يحيد عنه بالفعل أو بالقلم: «كن عبقريا في عملك أو شخصية مهمة هنا أو هناك بما تملك من ميزات وجهود تبذلها ولكن عليك أن تعيش كإنسان طبيعي يتعامل مع الذين حوله تعاملا هادئا يسيرا بسيطا لا تكلف فيه».

ونمت بيننا أنا ورجاء زهور الوداد زمنا أدفع فيه عنه أي قول يخدش شفافية الصفاء، لكني عدت غصبا عني أغار ثانية منه بسبب اقترابه من نجيب محفوظ إلى حد الجلوس إليه لمدة عام ١٩٩٠ - ١٩٩١، مع خيوط الصباح ثلاث ساعات يوميا ليسجل معه ما يقرب من خمسين ساعة كاملة في مقهى علي بابا الصغير بميدان التحرير في وسط القاهرة ليخرج بعدها بكتابه المذهل الذي حشد فيه الأفكار والآراء الجريئة بل والمثيرة أحيانا التي سمعها من نجيب محفوظ أضواء جديدة على أدبه وحياته، ورغم اقترابي من صاحب نوبل سنينا مديدة على الجانب الآخر حيث خصني وحدي بجميع أعماله منذ عام ١٩٩٠ حتى عام ٢٠٠٦، وكان لي في مكتبه درج خاص بي، وأحتفظ بكنوز لا مثيل لها من خطاباته ومسوداته وأوراقه، إلا أنني من بعد أن أهداني رجاء النقاش كتابه المرجع الفريد عن محفوظ سامحته وعدت إلى موقعي منه شغوفة أبدا لحلو حديثه وعذوبة نقده وتجليات تواريخه واجتمعنا معا علي حب محفوظ.

وتعكس لفظة المشروع عند رجاء النقاش مفهوم الإيجاز في رؤيته للزعماء، فيرى أن المشروع الناصري كان في أن تصبح مصر الصغيرة بلدا آخر قويا له تأثير محسوس على المحيط الذي تعيش فيه، ومشروع السادات كان في نظرته الواقعية التي تقوم على رفض الأفكار السابقة والاعتراف بالحقائق الموجودة أمام العين، وفي تلك النظرة يرى النقاش جوانب إيجابية لأنها تقلل من تأثير الأوهام والخيالات والأحلام على المواقف والقرارات، ولكن السادات فيما بدا للنقاش قد بالغ في

واقعيته وأضاف إليها لزوم ما لا يلزم . . أما عن الرئيس مبارك فلا يملك النقاش أن يقول عنه شيئا : لأنني من المحبين له والمقدرين لجهوده كما أنني أثق في وطنيته وإنسانيته ، وأنا مدين له كثيرا فلولا رعايته لي بعد محنة مرضي منذ أكثر من عامين لكنت الآن في عداد الموتى منذ وقت طويل ، والحمد لله الذي قدر لي أن أكون موضع رعاية الرئيس مبارك وعنايته .

ويأتي مشروع رجاء النقاش نفسه بدخوله عش الدبابير حيث يطالب بالإصلاح الديني وتحرير القرآن من قيود منها انعدام وجود تفسير عصري سهل للقرآن ، ومنها الإصرار على عدم كتابة مصحف بالخط العصري المعروف ، والإصرار على أن تكون كل المصاحف مكتوبة بالخط القديم مما يشكل عقبة رئيسة أمام كل الأجيال الجديدة التي تريد أن تقرأ فتجد في كتابته عناء شديدا قد يصرفها عن القراءة ، ففي المصاحف الحالية نقرأ هذه الكلمات : الصرط بدلا من الصراط والصلوة بدلا من الصلاة والزكوة بدلا من الزكاة وأبصرهم بدلا من أبصارهم وظلمت بدلا من ظلمات والسموات بدلا من السماوات وجنت بدلا من جنات . . . إلخ . . ويرى رجاء أنه من واجبنا ولا شك أن نحتفظ بالمصحف القديم بخطه المعروف .

فذلك أثر عزيز من آثارنا لا يجوز أن نهمل في المحافظة عليه ، ولكن يجب أن تكون لدينا الشجاعة الدينية الكافية لكي نطبع مصحفا خاليا من هذه الحروف التي تجعل قراءته صعبة إلا عند المتخصصين في قراءة القرآن ، وليس هناك أي نص ديني مقدس يحرمنا من هذه الخطوة بل إن روح الدين تتمثل في أن الدين يسر وليس عسرا ، وكل ما ييسر الدين بدون الخروج على جوهر مبادئه أمر مطلوب . . ويمضي رجاء في قوله : «إنني استفدت من القراءة المتأنية للقرآن الكثير من المعرفة باللغة العربية ، لا من حيث الألفاظ فقط ، ولكن من حيث التذوق والتصوير الفني القادر على التأثير الكبير في النفس ، وكنت شغوفا بحفظ القرآن الكريم في السن المبكرة وقد ساعدني والدي المرحوم عبد المؤمن النقاش على ذلك لأنني كنت أجد صعوبة في قراءة أي سورة وحدي ، ولا أتصور أن هناك من يحب الثقافة ويريد أن يكسب لنفسه ذوقا رفيعا سليما يمكنه من أن يصل إلى شيء من ذلك دون أن يقرأ القرآن

قراءة فهم واستيعاب من الناحية اللغوية والأدبية والأخلاقية، أما الناحية الدينية فمن البدهي أنها واجب على الجميع . . . ولقد ساعدني على تذوق القرآن أن جدي كان مقرئا للقرآن في القرية وكان صاحب صوت جميل» . . النقاش صياد اللآلئ في بحور الفن والثقافة من كان بالنسبة للشعراء والأدباء الشبان المثقفين الواعدين بمثابة الحبل السري الذي يربطهم بالحياة الأدبية فيطلون من خلاله عليها وعلى آخر منجزاتها، ومن خلاله يتصلون بالقارئ . . صاحب النصيب الكبير في تلميع وتثبيت أقدام كل الكبار المشهورين على الساحة الأدبية في مصر والعالم العربي والسودان، ويكفيه حفنة من لآلئه خطفت الأبصار فيها جاهين والطيب صالح وحجازي ومحمود درويش .

رجاء الشقيق الأكبر في الأسرة الريفية الكبيرة العدد - ثمانية - التي حاربت من أجل تعليم أبنائها ولاحقتها البلهارسيا لتخطف الأم في شرخ الشباب، ورغم أميتها فإنها كانت تميز اسم رجاء ابنها في قصاصات الصحف والمجلات فتلملمها لتضعها في خبيئتها تحت الوسادة لتنثرها زهورا من حولها ساعة الصفا، وحين ماتت اكتشف الأنجال أنه ليس بحوزتهم لقطة تعكس ملامحها لتبقى صورتها القدسية في مخيلتهم خالدة محفورة على جدران القلب . . ويحوم الموت بسبب البلاء المستوطن في ريفنا المصري الذي يسدد خنجره للكبد ليخطف وحيد الموهوب الشقيق الأثير لدى رجاء وتوءم روحه وجرحه الغائر الذي لم يندمل أبدا . . وتعبر الشقيقة الكاتبة الناقدة فريدة النقاش - رئيس تحرير الأهالي - عن مسارات العائلة المستنيرة: «زرع بؤس الفلاحين فينا وفي رجاء على نحو خاص خوفا طاغيا من المستقبل، وكان قد تراكم في الأصل من تجربتنا القاسية كأسرة فقيرة كبيرة العدد حاربت من أجل تعليم أبنائها وحين افترقنا علي الطريق كان من أجل أن يؤسس كل منا حياة مستقلة فاخترت أنا أن أخوض في عالم السياسة، واختار رجاء أن يتفرغ للأدب، وغضب مني لا لأنه يرى ألا جدوى من السياسة وإنما خوفا علي من البطش، ولهذا اعترض على زواجي من حسين عبد الرازق لأنه هايوديني في داهية . . وسرعان ما أصبحا صديقين» . . . . طالعتني بين أوراق النقاش ورقة صفراء نيتها صفراء تاريخها يعود إلى الخامس من سبتمبر عام ١٩٧١، سطورها

ثلاثة لا غير: «تقرر نقل رجاء النقاش رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون إلى وظيفة أخرى بعيدا عن أجهزة الإعلام، حيث إن كبار المتآمرين في مؤامرة مايو كانوا قد وضعوهم في مواقع رئيسة ليقوموا بتنفيذ خطة التآمر». . سطور تهد الجبال، لكن النقاش الجبل ظل شامخا. . حاملا سلاحه. . قلمه الشريف. . ليشد الرحال إلى قطر ليؤسس ولو على الضفة الأخري رواسخ المعارف التي ارتفعت بينها راية مجلة الدوحة.

وفي جميع المحن فالنقاش محظوظ، رفعت والدته يوما يديها للسماء ودعت له أن يرزقه ببنت الحلال الهادية النادية فمنحه الله خيرة الزوجات طبيبة الأطفال الدكتورة هانية عمر التي أنجبت له سميح المخرج التليفزيوني، والابنة لميس.

النقاش الغواص في بطون التاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي المصري البعيد والقريب، من يلومون عليه انصرافه الآن عن الواقع الثقافي والأدبي المصري الراهن الذي في أشد الحاجة إلى قلمه الصادق لفرز الغث من الثمين. . لكنه يا سادة الغوص المطلوب أيضا بإلحاح وبشدة لمهارة صاحبه في اصطياد أحداث لها دلالاتها. . إنه الشوق إلى الماضي الذي يطابق الحاضر. . العودة لتراث خفي عنا بفعل فاعل، وبجهل إلقاء الكراكيب القديمة بدعوي شغلها للمكان الذي سوف تزف إليه العرائس الجديدة، والشقة زحمة، والمطرح ضيق وإحنا أولاد النهاردة. . بالله عليكم من كان منا بدون رجاء يعرف كمثال أن أم كلثوم التي صاحبها رجاء في أكثر من جولة فنية في السودان وليبيا ونسج من لقاءاتهما الحوارات أنها كانت أول فتاة تمشي بين الرجال في الشارع تشيِّع جنازة رجل من تسعين عاما عندما قررت أن تمشي خلف نعش أستاذها الشيخ العظيم أبو العلا محمد.

أو أن الإمام محمد عبده كان في منفاه بباريس يدخل الأوبرا الفرنسية بصحبة الأميرة نازلي فاضل وهو بالعمامة. . أو أن الشيخ طه حسين في فترة تعليمه بالأزهر لم يجد حرجا من دينه ولا أخلاقه في كتابة أغنية يقدمها للموسيقار كامل الخلعي لتغنيها منيرة المهدية وتسجلها شركة الفونوغراف في إسطوانة مكتوب عليها من كلمات الشيخ طه حسين وتقول عباراتها الرقيقة:

أنا لولاك كنت ملاك، غير مسموح، أهوى سواك. . سامحني
في العشاق أنا مشتاق أبكي وأنوح بالأشواق. صدقني
عهدك فين يا نورالعين بالمفتوح تهوي اتنين. . جاوبني
واحد بس، يهوى القلب، قلبي يبوح له بالحب. . طاوعني
أنا أهواك ومين قساك أنا مجروح وغايتي رضاك. . واصلني
ما أحلاك وقت رضاك، لما تلوح ما أبهاك. . كلمني

ويقطع النقاش الشك باليقين في أمر تقبيل طه حسين ليد الملك فاروق بنشره رسالة طه إلى رئيس تحرير روزاليوسف: «أنت لا تعلم أن فاروق أرسل إلى الرسل بالمغريات سنة خمس وأربعين (١٩٤٥) فلم يجد إلى إغرائي سبيلا، وإنما رددت رسله ردا رفيقا كريما فيه كثير من ارتفاع عن الصغائر، ولو شئت لبلغت من فاروق وسلطانه وماله وجاهه ما أردت، ولكني لم أرد، لأني رأيت الكرامة والوفاء والصدق في خدمة الوطن أغلى من المال والسلطان، ولأن الشيء بالشيء يذكر فقد شهد شاهدان أمام محكمة الثورة بأني قمت مع غيري من الوزراء بتقبيل يد فاروق، والله يشهد ما قبلت يد فاروق ولا يد أبيه ولا يد عمه السلطان حسين ولا يد ابن عمه عباس حلمي الثاني حين كان أميرا لمصر، ولا يد ملك من الملوك الذين لقيتهم قط والله يشهد أنني ما قمت بتقبيل يد أحد من الناس إلا أن تكون يدي أبوي أو يد بعض شيوخنا في الأزهر رحمهم الله، ولا أستثني من ذلك إلا يد سيدة أجنبية كانت ترفع يدها بشفتي إلصاقا واضحك من ذلك إن شئت، واعبث به إن أحببت، فليس عليك في الضحك والعبث جناح». . ومن كان سيعلم إذا لم يخبرنا رجاء بأن الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت عندما قام بزيارة جامعة القاهرة الأهلية التي يرأسها الأمير أحمد فؤاد في عام ١٩١٠، اعترض في خطابه على وضع دستور للبلاد بحجة أن المصريين ليسوا أهلا بعد لأن يحكموا أنفسهم وأن يحمدوا الله على نعمة الاحتلال الإنجليزي، وعليهم الانتظار سنوات طويلة حتى يمكنهم التفكير في حكم أنفسهم. . واشتعلت البلاد بالغضب وقاد محمد فريد مظاهرة الاحتجاج إلى فندق شبرد محل إقامة روزفلت مطالبين بسقوطه، وانهالت عليه

رسائل السخط ومنها رسالة بالفرنسية كتبها ثلاثة من المحامين المصريين جاء فيها: «إنك أردت مجاملة الإنجليز على حساب المصريين ومن كان خليفة واشنطن العظيم يجدر به أن يقدر الحرية حق قدرها». . وسارع روزفلت بالهرب، ولم تكن الطائرة قد ظهرت حتى ذلك التاريخ ١٩١٠، فاستقل القطار من محطة مصر الثائرة لمحطة الإسكندرية الهادرة إلى الباخرة حيث لم تستغرق زيارته للبلاد سوى ثلاثة أيام مهرولاً ليغادرها غير مأسوف عليه.

وعمره بالعمر الصديق الغالي رجاء النقاش لا أسمع منه إلا كل جميل ولا يهديني كتابا جديدا له إلا مكللا بمشاعره العطرة. . المرة الوحيدة التي لم نتفق فيها كانت عندما كتبت في الأهرام بتاريخ ١٩/ ٥/ ٢٠٠٧، مقالا حول عرابي المفتري والمفترَى عليه. . لقد عاد الصديق من إجازته المرضية ليجد في بريده رسالة عتاب من أحد قرائه الأفاضل حول ما كتبته مدعما بالوثائق والمراجع الموجودة في دار الكتب المصرية والتي لم تخرج إلى النور من قبل، فقام رجاء بنشر الرسالة معقبا بأن عرابي قد تعرض لاتهامات ظالمة وملفقة وحرب لا هوادة فيها وحرمان من ممتلكاته حتى عاش في سنواته الأخيرة في عسر عظيم ويكفي الإشارة إلى واقعة مرضه بسرطان المثانة وما أدى إليه هذا المرض من وفاة الزعيم الكبير، ولم يكن لدى أولاده من المال ما يكفي لتجهيزه ودفنه فاضطروا إلى عدم إعلان نبأ وفاته إلى اليوم التالي حتى قبضوا معاشه. . . إلخ.

ولم أكن أعلم بأنني عندما جسرت على الكتابة عن عرابي قد تعديت خطوط النقاش الحمراء، وأنني بدون قصد قد دخلت عش دبابيره، وأنني عن جهل قد لمست وترا حساسا لديه لم يكن لديّ علم به حتى قرأت سيرة رجاء النقاش الشخصية وقوله على لسانه: «عملت في مجلة الإذاعة الأسبوعية مراجعا لكل المادة التي تنشر وكنت لم أزل طالبا في السنة الثانية بكلية الآداب، وكان أول رئيس تحرير لها اسمه عبد العزيز أحمد عرابي وهو النجل الأصغر للزعيم عرابي، وسبحان الله كان عبد العزيز صورة طبق الأصل من والده العظيم، وكنت كلما رأيته أهب واقفا وأحيانا مذعورا لأني كنت أتخيل أن ما أعيشه ليس حقيقة وإنما هو

وهم وخيال، وكان الرجل يسعد لمعاملتي له وإن ظل مندهشا من شدة مبالغتي في إجلالي واحترامي له!».

رجاء النقاش.. الذي كان يتمنى أن يكون أكاديميا مثل أساتذته.. ورغم رسالة الماجستير التي قدمها في سكة الدكتوراه تحت إشراف الدكتورة سهير القلماوي فإن الصحافة سرقته من الحلم الذي ظل منطويا عليه لا يفارقه.. من بنى لنفسه في جدية وصرامة مكانته كناقد أدبي حيث يقول تعبت على نفسي.. جميل الخلق والخلقة صاحب الموهبة الفذة التي أفنت عمرها بين فكي المطبعة. أحد الذين عشقوا الكلمة وأخلصوا لها. من انطلق من منتصف الخمسينيات يقدم القصة والرواية والديوان الشعري والمسرحية والعمل السينمائي والتليفزيوني محتفيا بالجاد والأصيل والجديد، لا يفرق في اهتماماته بين مكتمل الأدوات مثل نجيب محفوظ أو شاب يخطو أولى خطوات المسيرة.

الناقد المبدع الذي جلس عشرات مئات آلاف الساعات يكتب لننهل منه وننتظر رأيه وتقييمه العادل الذي لا يجامل، ولا يخلط الخاص بالعام، ولا يتعالى على القارئ بعبارات اللوغاريتمات، ويكتب بأسلوبه السهل الممتنع الذي يظهر الإيجابيات من قبل السلبيات، الذي يتقي الله فيما يكتب، المثقف المتواضع البسيط دون إفراط أو تفريط.. النقاش الذي عاش واقع صحافتنا المحنة وليست المهنة.. صحافة لا تقوم على تقاليد راسخة مهما قيل فيها وعنها من مواثيق وعهود ولوائح.. مهنة محنة ليست مثل غيرها من المهن، فلا مكان للسن أو الخبرة، وليس هناك من يفرض عليها أن تحقق الراحة والوقت لمن بذلوا فيها جهدا كبيرا وأضاعوا عمرهم عليها، فأنت في الجامعة كمثال إذا ما وصلت إلى منصب الأستاذ لا يستطيع كائن ما كان أن يعيدك فجأة إلى منصب المعيد أو إلى مدرج الطلبة أو لتقديم صينية القهوة لسيادة العميد، ولكننا في صحافتنا لا نتهيب من شيء أو نضع في عيوننا حصوة ملح.

فأنت تصل إلى منصب مرموق ثم فجأة تجد روحك خاضعا «لشلوت اطلع لي برة».. فجأة تعود إلى مقاعد صغار المحررين، فلا مكتب لك، ولا تحية لك ولا

سيارة لك، بل إنك بعد الجهد المرير والعمر الطويل في خدمة المحنة قد تجد صعوبة بالغة في نشر كلمتك والتعبير عن نفسك.. إنها مهنة بلا وفاء لأهلها خاصة من بعد سقوطهم في جب التعب.. وتظل كلمات رجاء النقاش شاهدة على هذه المحنة المهنة.. كلمات قالها وهو لم يزل في الستينيات في وقت لم يكن يعرف فيه أن مشوار التعب لم يزل طويلا طويلا ليدركه فيه المرض، ويجعلنا جميعا في لهفة عليها نبتهل إلى الله له بالشفاء والعافية ليظل يتعب على نفسه: «صدقوني إذا قلت إنني أعمل في الصحافة الآن كما كنت أعمل عندما بدأت حياتي الصحفية وأنا طالب في الجامعة.. نفس الجهد.. نفس التعب.. نفس المعاناة. أبدا لم تحفظ لي هذه المهنة قيمة الجهد الكبير الذي بذلته بحيث أجد من حقي أن أعمل بهدوء وبكمية أقل ونوعية أرقى».

وليس هذا حالي وحدي فهو حال الكثيرين غيري.. ألهث في ساحة العمل الصحفي كما يجري أي شاب صغير من أجل لقمة العيش!.. وحق قولك فينا يا رجاء فهي المحنة التي تأكلنا لحما وترمينا عظما.

ورحل صيّاد اللؤلؤ في نفس يوم نشر هذا المقال، ولم يقرأ سطورًا وددت لو قرأها.. لكن القدر كان قد اختاره قبل دوران ماكينة الطباعة بلحظات... وليس منّا من يقرأ الغيب.

المسيري.. على الجانب الآخر

دق الجرس لينشق الباب عن الوفد المسيري الحريمي القادم بقيادة أم العريس لطلب القُرب ومعاينة العروس، ابنة البيت الشابة التي خرطها خرّاط الصبايا وأصبحت مؤهلة لتفتح بدورها بيتًا تغدو سيدته. . وبعد الاستقرار في مقاعد الصالون المذهبة والتأهيل بالقادمات مرّات ومرّات وزارنا النبي وسلامات وعاش من شاف وتناول المرطبات وأطباق الخشاف ودور الشاي في أكواب الخمسينة بحلقاتها الذهبية، حدث فجأة مس من الاضطراب لتميل إحدى عضوات الوفد على أذن جارتها تهمس لها بحقيقة الموقف المحرج اللائي وقعن فيه، وله في ذلك حكمة: «على فكرة يا أختي باين علينا غلطنا في العنوان وكان لازم نروح البيت اللي بعده ده». . وتفشى الهمس إلى طنينَ تحول فجأة لحالة من الوجوم استشعره أهل البيت وتفهموا أسبابه، فانبروا بطريقة غاية في اللباقة والمودة ليوضحوا للزائرات العزيزات أنهن بالفعل قد أخطأن في العنوان ولا بد أن مقصدهن كان بيت «الكاتب» وليس عندنا هنا «بيت حلبي». . وعمومًا كلنا أهل وجيران وشرفتونا وآنستونا وحصلت البركة. . ولكن. . وبعد مداولات لم تستمر إلا دقائق معدودة قرر الوفد التغاضي عن كل التباس، وهنا زي هناك، ومنزلة آل الكاتب عندنا لا تقل ولا تختلف ألبتة عن منزلة آل حلبي. . ومن ثم لم تشرع واحدة منهن في المغادرة، بل لقد انبثق السؤال الملائم للموقف: واسمحيلي يا حبيبتي عندكم شابة في سن الجواز! . . بنتنا زينة البنات. . تعالي يا بنت قدمي الشربات. . وانطلقت الزغاريد على خيرة الله. . وهكذا تم زواج محمد المسيري من ابنة آل حلبي نتيجة خطأ في الأعتاب!

وتنتقل العروس ابنة آل حلبي وشقيقة إبراهيم حلبي الشخصية السياسية الوفدية

البارزة في دمنهور إلى منزل الجد الكبير الحاج أحمد علي المسيري صاحب الضحكة المجلجلة لتعيش في إحدى شقق عمارته الكائنة بشارع الأنصاري، حيث يسكن كل واحد من أبنائه الأربعة في شقة بينما الأب الروحي يحتل الدور الأرضي، وفي هذا الجو المسيري تميزت القادمة الجديدة على سلفاتها «زوجات الإخوة» أنها أمٌ لأولادها، ولأولاد العم، ولكل من في طريقها، بل للخادمات اللاتي كانت من فرط أمومتها وتواضعها تأكل معهن على أرض المطبخ، لكنها ظلت محتفظة بولائها الكامل لأسرتها آل حلبي، ودامت تؤكد لنفسها وللجميع - بإصرار شديد - أنها ليست مسيرية وإن أنجبت المسيريين، وأنها دخلت بيت المسيري تعيش فيه تؤدي واجبها، لكنها أبدًا ليست منه، وظلت تحكي لابنها عبد الوهاب عن أجداده الذين عاصرت بعضهم قبل ولادته، وكيف أن هيبة أحدهم «جده المباشر الحاج أحمد» كانت تبث الرهبة في قلوب الجميع، وأن جده علي كان يأكل الكبد نيئًا بعدما يطشه في الزيت الساخن لمدة ثانية واحدة، وكانت زوجته المسيرية أكثر بطشًا منه، فكانت قادرة على أن تحمل برميلاً زنته لا تقل عن مائة كيلو جرام وتسير به لعدة كيلومترات. . وأخبرت الأم ابنها عن أحد أجداده التجار بأنه في تجارته كان يتنقل بين المدن والقرى، ويتزوج في كل مدينة ربما ليؤنس وحدته، ولم يُعرف بأمر زيجاته إلا بعد وفاته، عندما حضرت الزوجات يطالبن بنصيب كل منهن في الميراث، وكان بينهن زوجة من جنوبي السودان لا تعرف العربية. . ويبدو أن تجربة ابنة حلبي وسط المسايرة كانت تجربة فريدة إذ تحول آل المسيري في وجدانها إلى عالم أسطوري عظيم مخيف تحكي عنه لابنها عبد الوهاب المسيري ليتأصل الصدى في نفسه ويسكنه الخوف خاصة من العفاريت التي كان يولدها في خياله ليخرجها في حكاياته ليخيف بها الأطفال الآخرين خاصة شقيقته « فادية». . وكانت هناك عفريتة خاصة اسمها «الشجاعة» - ربما أسقط عليها أوصاف صاحبة البطش حاملة الأثقال - تفنن في وصف سماتها المرعبة ونسب إليها قدرات عجيبة مما جعل منها زعيمة العفاريت قاطبة. . والمشكلة - كما يروي صاحبها بنفسه - أن عفاريته قد انفصلت عنه بعد قليل لتغدو - من كثرة ترديده حكاياتها - كيانًا مستقلاً تتصرف بحرية شديدة بلا سيطرة منه، بل لقد أصبحت تظهر له شخصيًا، لترتعد منها

فرائصه، وبدلاً من أن يخيف بها الآخرين ليشعر بالاطمئنان من أنه خارج دائرة الخوف لأنه خالق عفاريته، إلا أن الأمر انتهى بأنه كان أكثر من بقية الأطفال خوفًا منها، فقد كان يعرف أدق تفاصيل حياتها وملامح وجهها، فهو الذي رسمها وشكّلها وأنطقها وأطلق جماحها. . ومن الطريف أن الأستاذ والدكتور الجامعي عبد الوهاب المسيري لم يتغلب على خوفه من العفاريت والأشباح إلا في سن متأخرة من حياته «بعد الأربعين» رغم الرؤية المادية الفلسفية التي كان من المفترض أنه يؤمن بها آنذاك. . لقد كان يجلس مع نفسه لمناقشة المسألة بشكل عقلاني وبدون انفعالات، ولكن هيهات، فما أن يقدم الليل حتى يبدأ هلعه ورعبه، فإن كان بمفرده في شقة يدور على جميع حجراتها ليضيء جميع الأنوار، ويخطو إلى دورة المياه على أطراف أصابعه في حذر شديد متوجسًا مما خلف الأبواب وتحت الفراش. . ولم يُشف من هذا الهلع إلا في عام ١٩٨٧، حين تركته الزوجة الدكتورة هدى في المملكة السعودية ليعيش ـ لأول مرة في حياته ـ بمفرده، حيث يغلق عليه الباب ليصفِّر الهواء، وكان حلول الليل هو العذاب والهول بعينه. . ولعل طول واستمرار الجزع كان له أثر يهدد جهازه العصبي، وأخيراً كخط دفاع عن النفس قام بطرد مخاوفه. . عفاريته. . لكنه العالم الذي بقي حقيقيًا في حياته مدة طويلة مما شجعه على إعمال خياله ورؤية الواقع بحسبانه قابلاً للتشكيل، وربما من تلك النقطة شديدة الخصوصية انبثق دخوله عالم الأطفال المليء بالدهشة ليشاركهم حواديتهم ويكتب لهم قصصهم.

عبد الوهاب محمد أحمد علي غنيم سالم عز المسيري، ابن بورجوازية الريف في دمنهور عاصمة البحيرة التي يشطر بعض من أهلها اسمها نصفين لتغدو «دم نهور» بدعوى فولكلورية أن الدماء قد سالت فيها أنهاراً في إحدى المعارك الحربية في تاريخ الفتح العربي. . عبد الوهاب الذي نشأ في مدينة تجارية من سماتها المتنزهات وموسيقى البوليس، والباشا مدير المديرية الذي يجلس وسط كبار الموظفين في ساحة نادي البلدية، وطرق معبدة أسسها الاستعمار لربط مدن مصر لتيسير عملية الانتشار السريع لقواته. . دمنهور مدينة النشاط التجاري الذي يمتد إلى أنحاء مصر من الشلالات للواحات، والنشاط الصناعي لأنها أكثر المدن تصنيعًا

في العالم في النصف الأول من القرن العشرين بسبب وجود عدد ضخم من محالج القطن فيها. . دمنهور وابنها الدكتور عبد الوهاب عاشق المكرونة التي كانت بالنسبة له هي السحر بعينه، حتى كان يتصور في طفولته أنها طعام الجنة، وكان تناوله لها يعني تجربة شبه روحية لا علاقة لها بإشباع الحاجة البيولوجية للطعام، ومن هنا جاء تفهمه لحالة الخديو عباس الثاني الذي يقال إن مستشاريه الأجانب قد سيطروا عليه من خلال المكرونة، واستيعابه لحالة الملك فاروق الذي يقال إنه أصيب بأزمة قلبية بعد تناوله كمية هائلة من المكرونة. . المفكر العملاق الذي شبّ في بيت لم يسمع أم كلثوم مرة واحدة، ولم يعلق لوحة لمنظر طبيعى على جدرانه!! العربي الوحيد الذي درس الظاهرة اليهودية والصهيونية دراسة أكاديمية كان من نتاجها موسوعة «اليهودية واليهود والصهيونية». . أستاذ الأدب الإنجليزي الذي عمل مستشاراً ثقافيًا للوفد الدائم للجامعة العربية في الأمم المتحدة. . واحد من النخبة العربية التي بدأت حياتها الفكرية والعلمية وهي ترقص على ألحان الغرب وتوجت رحلتها بالخروج عن هذا اللحن، بل بقيادة التيار ضده والسباحة عكسه. . أحد كبار المثقفين العرب الذي خلع قبعة العم سام وطوح بها ليستظل بالمظلة الإسلامية شأنه في ذلك شأن عدد آخر من المثقفين المصريين منهم د. محمد عمارة، والمستشار طارق البشري، والكاتب الراحل عادل حسين. . صاحب المواهب المتعددة والمعرفة العميقة و٢٢كتابًا باللغة العربية من ٢٥ مؤلفًا من بينها موسوعته التي استغرقت ربع قرن من الزمان من عمر بلغ السبعين عامًا، منها ٨١ شهراً قضاها في الشارع خارج صومعته في حركة كفاية.

قالتها له أمه خالصة مخلصّة. بهريز السنين ونهج المرجعية ولوزة مقشرة. . قالتها الأم نصيحة لفلذة كبدها. لابن بطنها. لسيد مشاعرها وبوصلة أملها ومهبط دعائها وحبيب قلبها. قالتها للغالي الذي أتاها بالسؤال المنتظر. . القادم بالبشارة. طفلها الذي نضج وصار رجلاً يبحث عن نصفه الآخر ويختار شريكة حياته. . اللاجئ إليها. . إلى من تستشعر رغباته قبل أن يرغب، وتقرأ خريطة مشاعره وهو لم تتكون خريطة تكوينه بعد، وتعرف اتجاه رياحه قبل أن تهب العاصفة. . قالتها الحاجة أم يوسف لابنها عبد الوهاب عندما جاء يأخذ رأيها ـ ونادراً ما كان يأخذ

رأيها - في نيته للزواج من زميلته الدكتورة هدى التي حدث لقلبه ما حدث عندما قابلها لأول مرة، وكان قد أخذ رأي مسئولي الحزب الشيوعي بكونه أحد أعضائه فنصحوه بالامتناع عن ذلك الارتباط بحجة أن زواج الماركسي بالبرجوازية يخلق منازعات لا نهاية لها . . وردت عليه الأم بالجواب المستكفي في صيغة السؤال الشامل الذي يضع كل النقاط الشاردة على الحروف الشاغرة: «استفت قلبك يا ابني بيفرح لما بيشوفها!» ياه!! . . يا نقاء وصدق الرد المتسائل الذي سدد لجميع الأيديولوجيات رصاصة في مقتل، ونزع جميع متاريس الطريق، واعتلى قمم جبال الشوك، وفك أغلال قيود العقل، وأطلق عصافير القلب تغرد في بساتين البساطة والصراحة والحب . . ويقدم عبد الوهاب على الخطوة الكبرى في حياته بطلب يد الدكتورة هدى وتتبادل الأصابع طوق الاختيار ليشهد الدور الثاني من ترام الرمل في الإسكندرية مشاهد الحب الجميل فوق عجلات الهويني ليغدو الكمساري وكأنه توءم صورة سائق العربة الحنطور الذي تطرقع حوافر جيادها بالنغمات فوق الأسفلت ليحثه محمد عبد الوهاب على السير إلى ما لا نهاية: «سوق يا اسطى لحد الصبحية» فيجيب الأسطى «على راسي يا هانم وعنيه»، وكان إذا ما ركب المسيري ترام الرمل بمفرده يسأله كمساري الحب «أُمّال فين المزمازيل»؟! . . وكان فارس دمنهور يرى في الحب الرومانتيكي أنه يوجد خارج الزمان، وبالزواج قد دخل الزمان، وقد دخل المسيري العش بقدميه إلا أنه زرجن طويلاً في أن يقدم على «الفعل البرجوازي» بارتداء بذلة الزفاف واصطحاب عروسه إلى الاستوديو لالتقاط صورة الزفاف الرسمية، واستمرت حالة تأمله في وضعه الجديد سنوات لم يقف فيها «الوقفة الرسمية» عند المصوراتي إلا بعد أن حملت الزوجة، وظل طويلاً متخيلاً أنه باختياره للدكتورة هدى قد ابتعد في كثير من النواحي عن شخصية أمه، لكنه اكتشف بمزيد من التأمل أنها شبيهتها في كثير من النواحي، وأنه كالمصاب ببعض من ملامح عُقدة أوديب، فهي الأخرى فيها شمولية الأمومة وتتسم بهذا الإيمان الريفي الصارم بالعدل والمساواة، وهي مثلها تمامًا تحب النظافة والنظام بشكل كان يراه متطرفًا وتراه أقل من المعتاد.

ولأن الأمثلة الشعبية صحيحة الرصد دقيقة التأصيل، فقد صدقت ولا بد عندما

قالت «اكفي القدرة على فُمها تطلع البنت لأمها»، و«هذا الشبل من ذاك الأسد»، ولقد ورث عبدَ الوهاب المسيري الكثير من والديه معًا فقد كانت أمه على سبيل المثال لديها خبرة وراثية في عملية التدوير - التي يعطيها أستاذ المصطلحات الإنجليزية اسم (ريسايكلنج Recyclinge) كواحدة من أبناء المجتمع الدمنهوري الذي يرفض تبديد نعمة الله، فإذا ما وجدت في طريقها قطعة من الخبز تلتقطها لتقبلها ثلاث مرات ثم تضعها إلى جوار الحائط، وكانت صفيحة القمامة لا تستقبل إلا أقل القليل، فكل شيء يمكن تدويره وإعادة توظيفه كأوراق الجرائد وعلب الطعام الفارغة وأغطية زجاجات المياه الغازية وقشر البطيخ وقلب المحشي من بعد تقويره الذي يطهى وحده ليقدم أطباقًا شهية يطلق عليها اسم «الشقانق والمقانق». . وكانت الحاجة أم يوسف في مسألة التدوير تلك قد بلغت حد التطرف، فعلى سبيل المثال تعلمت في الحرب العالمية الثانية مع أزمة الكبريت الاحتفاظ بلمبة «سهّاري» «وبجوارها قطع من الكرتون هي في واقع الأمر علب سجائر فارغة تم قصّها، وكان أفراد الأسرة حينما يرغبون في إشعال وابور الجاز «البريموس» يضعون قطعة الكرتون في اللمبة لإشعالها لتستخدم الشعلة بديلاً عن للكبريت، وقد ظلت الحاجة التي أعجبتها الفكرة تمارسها لحين وفاتها في منتصف السبعينيات، وإن كان البوتاجاز قد حَلّ محل البريموس. . ويبدو - كما يعترف الدكتور المسيري بلسانه - أنه قد ورث شيئًا من تلك الطباع سواء في حبه للأشياء القديمة، أو استخدامه للورق الذي سبق استخدامه بالكتَابة على ظهره، أم ارتدائه للملابس حتى تُبلى تمامًا لتغدو شكوى زوجته الدكتورة هدى من أن بعض الفقراء ممن تعطيهم ملابس الزوج القديمة كانوا يهتفون بها: «بلاش والنبي حاجات البيه». . وفي زفاف الابن ياسر تجسد التدوير عند الدكتور عندما ذهب لمسئول الفندق يسأله عما سيحدث لبقايا البوفيه، فأجابه بعجرفة (جاربيج garbage) فطلب منه ألا يلقيها لأنه سيحضر حللاً وكراتين لتوزيعها على المحتاجين، وإزاء إصرار الدكتور الذي لمحه كبير الجرسونات، فأخبره أن العاملين يأخذون تلك البقايا، فاتفق معه الدكتور على اقتسام القمامة، وتحوّل الزفاف في رأي المسيري المدوّر من لحظة تبديد وقمع، إلى تدوير ورخاء ومشاركة، وإذا ما كانت مهارة الأم الدمنهورية قد بلغت الذروة في

عملية التدوير، فقد كان الوالد الدمنهوري الحاج محمد المسيري أستاذا وصاحب مدرسة في هذا المجال، وكانت له تجارة واسعة وعقارات ومصنع ضخم أممته الثورة عام ١٩٦٤، كان يحرم على أسرته استخدام سيارته الخاصة مصراً على أن يعيش أولاده كأبناء الموظفين. . كان الاختلاف بين الأبوين جذريًا فالأم تنزع للتراحم بينما الأب للتعاقد وروح المساومة التي شب عليها الدكتور عبد الوهاب المسيري ليروي لنا من خلال رحلة أيامه مثالاً لمهارة والده في هذا المجال الخصيب: «برغم كرهي لشئون التجارة فإنني أجيد المساومة عند الحاجة ـ الشبل والأسد ـ وأذكر مرة أننا كنا نبحث عن مكان لنعقد فيه عرس إحدى أخواتي وذهبت إلى أحد الكازينوهات في الإسكندرية وكان جديدًا وأنيقًا، ونجحت في استئجار المكان بسعر تصورته ساعتها زهيدًا (ووافقني الجميع على ذلك) وذهبت لأزف البشرى لوالدي، وكان مريضًا ولكنه بدلاً من أن يفرح بإنجازي تجهم وجهه واتجه إلى التليفون متوكئًا عليّ، ثم طلب صاحب الكازينو وأخبره بأن الأستاذ عبد الوهاب قد عقد معه اتفاقًا غير عادل بالمرة، وبدأ يعدد المزايا التي سيجنيها من عقد عُرس إحدى بنات المسيري في الكازينو عنده، ثم قرأ عليه قائمة المدعوين وأخبره بأن هذا في حد ذاته سيكون أكبر دعاية له، وأنه لهذا يجب عليه أن يدفع لنا، لا أن ندفع له. فسقط في يد الرجل واضطر إلى أن يخفض السعر حتى وصل إلى حد دون الأدنى!!». . النابغة الذي استشعر الدكتور أسامة الباز تفوقه عندما قرأ بعض ما كتبه عام ١٩٦٤، حول الصهيونية فاقترح عليه التخصص فيها والتفرغ التام لدراستها، وعند عودته من بعثته لمصر عام ١٩٦٩، قدمه الدكتور الباز للأستاذ هيكل الذي قام بتعيينه مستشاراً في مكتبه عندما كان وزيراً للإرشاد، ليرسله بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن وضع تحت تصرفه عدة آلاف من الدولارات «مبلغ رهيب آنذاك» طالبًا منه شراء ما يريد من كتب عن الصهيونية وإسرائيل لمكتبة مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، حيث أسند إليه منصب المسئول عن الفكر الصهيوني به، ومن هنا بدأ رحلته مع اليهود والصهيونية. . ويعين المسيري من عام ١٩٦٩، حتى عام ١٩٩٠، للتدريس في الجامعة بكلية البنات جامعة عين شمس وجامعة الملك سعود وجامعة الكويت وبعض الجامعات في الولايات المتحدة، ويستفيد من تجربته

الإنسانية بتدريس الإنجليزية في كلية البنات كعضو وحيد رجل وسط هيئة التدريس، حيث يتفهم الكثير عن المرأة إلى حد لم تعد تراوده أحلام التسوية بين الجنسين، إذ أدرك يقينًا أن المرأة مختلفة عن الرجل، وأن المساواة بينهما لا تعني التسوية بأية حال، ولعل الإثارة الوحيدة في حياته العلمية بالكلية كانت في تعيين الدكتورة لطيفة عاشور رئيسة للقسم حيث كانت لا تكل ولا تتعب في إثارة المشكلات له ومن حوله إلى حد التحقيق الإداري معه مما جعله يقترح نشر نعيها في الأهرام لتنشغل عنه بعض الوقت في محاولة تكذيب خبر وفاتها، ورغم تعيين الدكتورة لطيفة الزيات بعدها فقد كانت كما جاء في رثائها تترك الفكر عند بوابة الكلية.

الدكتور المسيري. . المنكب دومًا على عمله ينجز داخل الزمان ما لا يمكن إنجازه، محافظًا على كل دقيقة وثانية. . كان بالنسبة لي مثالاً ورمزًا للصمود. كان كلما ضاق صدري وطلعت روحي وتخشّبَ ظهري وتيبست مفاصلي، وأصبحت أصابع يدي عنيدة لا تَطاوعني على ضم القلم لتقبيل الأوراق، معتذرة عن جمع الأصدقاء الحميم، وحفل المعارف البهيج، ووليمة مما لذّ لمذاقي وطاب لتذوقي بفعل الريجيم، وحديث له من السحر ما له، وقرب له من الشوق جبال، وانطلاق له من الحنين جنون. . كنت كلما تذكرت المسيري جاري في حي مصر الجديدة وجهده الخارق على بُعد ثلاثة شوارع وعبر عشرات السنين، أنكسف على دمي وأترزع أكمل ما كنت فيه، واكتفي بغذاء الكتب المعنوي، ورياضة التجول بين الأرفف، واستنشاق نسيم التراب، وتزاوج الفهارس وإنجاب النتائج ورعاية نشء التفاصيل. . المسيري من عاش منقِّبًا وسابحًا في بحور المعرفة ومراسيها منكبًا على الأوراق على حساب عظامه، ينظم الشعر الحديث ويترجمه ويمارس تحليله ونقده وينخرط في الكتابة للطفل ليحصل في عام ١٩٩٩، على الجائزة الأولى للتأليف للأطفال ضمن جوائز السيدة سوزان مبارك. . ويقبل على الأوبرا والمعارض الفنية والفنون الشعبية، ويكتب مقالاً عن «الواد التقيل» في السينما المصرية بعد «خللي بالك من زوزو». . حتى في مرضه كان يخصص يومًا لتجوال المعارض ليرتاد كل

يوم ميدانًا جديدًا للمعرفة في عالم التشكيل حتى في دنيا الأزياء قد صمم المسيري لنفسه في هذا المجال الابتكاري قميصًا يتفق وأوضاعنا البيئية والثقافية، فالقميص لا رقبة له «ما فائدة الرقبة في بلادنا سوى أن نضطر إلى غسلها وكيّها؟» وهو قميص مفتوح من الأمام مثل الجلابية، وبه جيبان كبيران أسفل القميص وجيب صغير في النصف الأعلى. . وينام المفكر الباحث المؤرخ على سرير «أنتيكة اقتناه لإحدى أميرات الأسرة المالكة ليوظفه جماليًا داخل إطار أثاث لا يتبع غلظة طراز «لوي فاروك» نسبة إلى الملك فاروق بدلاً من «لوي سيز» نسبة إلى لويس السادس عشر، رافعًا راية الذوق الإسلامي والعربي بحيث يحاكيه ولا يقلده ويكون ملائمًا مريحًا لا يسقط في قبضة تقليد القديم أو الغرب، وأبدًا لا يترك المسيري ذوقه الخاص دون تأشيرة هوية، وإنما يخلعها عليه من خلال رؤيته الفلسفية في التنظير والأدلجة مثل كل ما يقابله في طريقه من الأشياء والأفعال والأفكار، حتى داء النسيان الذي كان يصيبه اسماه «الحمام الطقوسي»، وليس أبلغ مثال لحمامه هذا عندما استدعاه أحد كبار المسئولين في الثمانينات ليخبره أن مصر على وشك أن تتقدم باقتراح لهيئة الأمم لنزع الأسلحة النووية، وطلب منه القيام بترجمة الاتفاقية المقترحة نظرًا لخطورتها وسريتها لحين عرضها على هيئة الأمم، وقبل المسيري على الفور لكنه مع هذا ذهب لزيارة ابنته في الجامعة الأمريكية، ونسي المعاهدة السرية المقترحة على كرسي هناك ولم يكن أمامه سوى الانتظار لليوم الثاني وربنا ستر ولقاها. . ولقد أطلق على ذوقه في الديكور اسم «الأسلوب الاستيعابي» أي المنفتح القادر على استيعاب الأساليب الأخرى شرقية كانت أم غربية، ومن هنا تستقبلك في مدخل عمارته مرايا الصدف ودرجات الفسيفساء ونوارج الريف، وبعدما تعبر للداخل تفاجأ بكوز الكنافة ورحاية الحبوب وبرواز لفرمان عثماني ونافذة من الزجاج المعشق، ولوحة ضخمة في الصدارة للفنان الإكوادوري «جونزاك أندريا كاو» الذي أبدى المسيري إعجابه الشديد بها في معرض الفنان في الأوبرا فأهداها له في مقابل أن يترجم إعجابه في مقال، وغاب المسيري ليعود بعد ستة أشهر يحمل مقاله بيده، فأخبره سفير إكوادور بأن الفنان قد مات منذ شهر مضى. . وكان حزنه عليه

عظيمًا . . ويموت المسيري في مستشفى فلسطين مختتمًا حياته الحافلة المثمرة، وكأنه اختياره الشخصي لتعلق قلبه بالقضية الفلسطينية حتى آخر دقة في صدره . . ويكون حزننا عليه أعظم .

ويسألونه : أصبحت مشهورًا بأنك صاحب الموسوعة ، ألا يضايقك هذا التحديد؟! . . فيجيب : «لا أدري وربما يرضيني بعض الوقت باعتبارها إنجازًا لا بأس به على الإطلاق، وإن كنت بصراحة أحب أن يقال عني المفكر الإسلامي فأنا أتصور بعد طول بحث دام عشرات السنين أنني قد وصلت إلى محطتي الأخيرة» .

وكان . . وكان . . وكان عبد الوهاب المسيري قد كتب في أربعة سطور للكرة الأرضية :

«لو كان لي ألفُ ذراع
لو كان لي ألفُ قدم،
لضممت الأرضَ إلى صدري
وأغمضت عينيَ في شغفْ» .

جلال أمين في جلباب أبيه

هل هناك أمل حقيقي في أن ينقل أي جيل تجربته للجيل الذي يليه؟ أم أن من المحتم على كل جيل أن يمر بالتجربة بنفسه وأن يستخلص كل جيل بنفسه ما يستطيع استخلاصه من تجربته هو دون أي أمل في أن يحصل على أي مساعدة من الأجيال السابقة؟! سؤال طرحه المفكر الدكتور جلال أمين في أحدث كتبه «ماذا علمتني الحياة؟» سيرة ذاتية استعرض فيه دروس حياته الحافلة على مدى سبعين عاما كتبها على نهج والده الأديب والكاتب الكبير أحمد أمين ١٨٨٧ ـ ١٩٥٤ ، الذي تميز بين رفاق جيله الكبار أمثال العقاد وطه حسين وهيكل بالمنهجية العلمية والحرص على الموضوعية والتفسير الاجتماعي والاقتصادي والحضاري لأحداث التاريخ وشخصياته ومواقفه مما جعل لكتبه (فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام) مذاقا يختلف عن الآخرين الذين كتبوا في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية باعتباره أقرب إلى روح العلم وأبعد عن التأثير الوجداني.

وقد كان في كتابه «حياتي» قدوة بالغة التفرد ودرسا في كتابة سيرة الحياة.. الكتاب الذي قال عنه الابن جلال أمين: «ظل كتاب أبي دائما بجواري أعيد القراءة فيه المرة بعد المرة حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب».. وبذلك أجاب جلال عن سؤاله بنفسه بأن تجربة الوالد الرائدة قد ساعدته ودفعته كثيرا للسير على خطاه وفي بعض الأحيان اتجه بحياته إلى مسار آخر تماما، وإن كان هذا الاختلاف في حد ذاته نابعا أيضا من نفس التجربة الأبوية، حيث حاول الابن - إزاء بعض سلبياتها - أن يبحث عن إيجابياتها هناك على الناحية الأخرى.. وإذا ما كان في تساؤل جلال أمين الآن ـ وقد بلغ السبعين ـ عجبا وملامة واستنكارا على الشباب الذي لا يتخذ من تجارب الآباء هديًا للخطاوي وبوصلة للأمام والضرب بها عبر الحائط، فقد كان

يوما ذلك الشاب الأرعن الذي أجاب والده وهو في الخامسة عشرة عندما كان يملي عليه بعض فصول كتابه بسبب ضعف بصره واعتماده عليه للإملاء بد لا من الكتابة بيده، كانت إجابته عندما سأله عن رأيه فيما أملاه عليه قوله: «إني أفضل عليه كتاب الأيام لطه حسين! إجابة مراهق سخيف يريد فقط أن يتحدى أباه!».

وإذا ما كان د. جلال أمين قد حرص على اتباع نصيحة أستاذه الإنجليزي المشرف على رسالته للماجستير ليونيل روبنز: يجب أن تتعلم كيف تقفز في القراءة؟ (you have to learn how to skip) الذي رأى فيها تمام الصواب إلا أني مع كتابه هو بالذات ماذا علمتني الحياة؟ لم أتبع تلك النصيحة ولم أقفز خلال قراءتي الشغوفة لكل سطر على مدى ٤٣٠ صفحة في سيرته الذاتية التي لم يحاول فيها أن يتجمل أو يرسمها كلوحة شجية الظلال، تؤججها لمسات الإضاءة والموسيقى المصاحبة لرفع الستار لكنه التقط صورا واقعية من المرآة وكتب لنا ما رآه في المرآة بدعوة عامة للجميع لكتابة سيرهم فهو يرى أن لا حاجة لأن يكون كاتب السيرة الذاتية شخصا عظيما أو سياسيا خطيراً، أو أن يكون قد قابل في حياته بعض الكبراء والمشهورين، أو أن يكون كاتبا مرموقا أو فنانا موهوبا.. إلخ. فكل منا شخص متميز بل متميز جدا ولديه في مسيرة حياته ما يستحق أن يروي، وحياة كل منا تشبه قطعة الحجر بداخلها تمثال جميل كامن، والمطلوب فقط استخراج التمثال المختبئ في مكمنه.

وفي سيرته الذاتية التي بدأت من قبل أن يولد باستماتة أمه في الاحتفاظ به في أحشائها مقاومة أبيه الذي لم يكن يريد أكثر من ثلاثة أولاد بالكثير فانتهى به الأمر إلى أن يصبح أبا لعشرة مات منهم اثنان في المهد وكان جلال هو الابن الثامن.. ستة أولاد وبنتان أشقاء نشأوا جميعا في نفس البيت وواجهوا ظروفا عائلية تكاد تكون متطابقة وذهبوا إلى نفس النوع من المدارس وقضى أغلبهم عدة سنوات في أوروبا ومع ذلك فكل منهم عالم مختلف تماما عن الآخر وقد يكون من الممكن اكتشاف علاقة القرابة بينهم من مقارنة شكل العين أو حجم الأنف، أما الشخصية والميول فلا يشبه أحدهم الآخر قيد أنملة.

وتضم السيرة الذاتية الحافلة ذكر الأصدقاء ومباهج الصبا والحياة السياسية وتجربته الأولى والأخيرة في الانضمام لحزب سياسي - البعث - التي وصفها بأنها تكاد تكون صبيانية أكثر منها تجربة جادة إذ لم يكن قد بلغ العشرين وقت انضمامه وقد تركه وهو في الثالثة والعشرين مأخوذا مبهورا بشخصية زعيمه السياسي ميشيل عفلق الرجل الوسيم الرقيق الذي يبدو وأنه تجرحه النسمة العابرة، ويكتب جلال أمين فصلا من كتابه الثري عن سنوات البعثة في إنجلترا من (٥٨-٦٤) وزواجه بالحسناء الإنجليزية جان: «هل تأتين معي إلى مصر عندما أنتهي من الدكتوراه؟». فتسأله بدهشة وسرور عما يعنيه فيوضح لها أنه عرض بالزواج فتقبل بلا تردد. ويحصل على الدكتوراه مشكلة الغذاء في مصر وعلاقته بالتنمية وتنشر الرسالة في كتاب وهو أمر نادر لمصري في أوروبا ويرسل الكتاب الفخم لكل من يهمه أن يعرف بأمره ولكني لا أذكر قط خلال السنوات الكثيرة التي مضت منذ صدوره بأية رغبة في النظر إليه أو إعادة قراءة أي جزء من أجزائه وسيظل في نظري رمزا باقيا لثلاث سنوات من عمري كان من الأجدى بلا شك أن تنفق على شيء آخر.. وعندما يكتب جلال أمين عن ثورة يوليو في سيرته الذاتية في أحدث إصدرات دار الشروق يقول: «على الرغم من أني بدأت كتابة مذكرات عن الأحداث السياسية وأنا في الثانية عشرة فإن عمري السياسي الحقيقي هو عمر ثورة يوليو ١٩٥٢، لكنه يعود ليكتب في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، لا عجب أن تلقيت خبر وفاة جمال عبد الناصر بهدوء شديد وبمشاعر فيها من دهشة المفاجأة أكثر مما فيها من حزن.. مشاعر أقرب إلى مشاعري نحوه عندما غضبنا على طريقة معاملته لمحمد نجيب وكانت أشعار أحمد فؤاد نجم التي غناها الشيخ إمام بعد النكسة تعبر بالضبط عما كنا نشعر به من سخرية مريرة من النظام وشعاراته ومن حزن إزاء ما حدث للوطن. كان انفعالنا شديدا ورضانا كاملا على سخرية نجم وإمام مما حدث في ٥ يونيو.

الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا

ياما حلى عودة ضباطنا من خط النار

يا أهل مصر المحمية بالحرامية

الفـول كـتـيـر والطعـمـيـة والبـر عـمـار

كما كدنا نبكي حزنا لدى سماع أغنية نجم وإمام:

ناح النواح والنواحـة على بقـرة حـاحـا النطاحـة

والـبـقـرة حـلـوب تحـلـب قـنـطـار

لـكـن مـسـلوب مـن أهـل الـدار

والـبـقـرة تـنـادي وتـقـول يـا ولادي

وولاد الـشـوم رايـحـين فـي الـنـوم».

وأبدا لا ينسى جلال أمين في كل مناقشة سياسية موقفه المناهض للسادات، وفي هذا لا يشفع له عنده لا انفتاح ولا انتصار ولا ثورة تصحيح ولا سلام ولا كلام، ولا حتى ما قاله عندما سئل عن أهم ماقرأه من كتب، فذكر كتاب الأب أحمد أمين فيض الخاطر.. حتى في هذا هبط عليه جلال بمعوله، لقد ذكر اسم الكتاب خطأ فيسميه خواطر ويقول أيضا لكي يدلل على سعة اطلاعه، إنه قرأ المراجع التي ذكرها أبي في نهاية كتاب خواطر والكتاب بحكم طبيعته لا يذكر اسم أي مرجع على الإطلاق.. وجلّ من لا ينسى يا دكتور جلال!

ويظل جلال أمين رغم تعلقه بالثقافة الغربية لا يفقد هويته الوطنية وهو أهم ملمح في شخصيته: «أتعامل مع الغرب لكنني لم أزل مصريا.. وما يقلقني في العولمة أن تعصف بسهولة بالهوية الثقافية والحضارية لنا بعدما لوحظ أن الكثيرين يستهينون بمسألة الهوية هذه ويعتبرونها مرادفا للتخلف، والهوية في نظري هي كل ما يميزك عن غيرك: دينك ولغتك وقيمك الأخلاقية وما يطربك وما يهز مشاعرك ورؤيتك للعالم وفلكلورك ونظرتك الفلسفية وموقفك من الموت.. فإذا كانت العولمة سوف تفيد بسلع واستثمارات كما يقول أنصارها - وهذا مشكوك فيه - فإنها تهدد الهوية في الصميم وسوف تتعرض اللغة العربية في ظل العولمة لمهانة لم يسبق لها مثيل وأخشى أن يأتي يوم لا نجد فيه أحمد شوقي ونزار قباني والمتنبي، فالعولمة مضمونها أنك ممكن أن تكسب العالم كله وتخسر نفسك».

ويذهب د. جلال للعمل في الكويت بإدارة الصندوق الكويتي الذي بلغت ميزانيته أكثر من ثلاثة بلايين دولار مثلما ذهب غيره ممن كانت لديهم قوة الحجة وفصاحة الأسباب وسلامة الخطاوي والتنائي عن منابع الكدر، ومكثوا هناك سنين بعدها عادوا إثر ترحال قصير لا بد لأوروبا المزيد من الاستجمام أو ربما لشراء شقة في كمبريدج يؤجرونها معظم شهور السنة، ويسافرون إليها لقضاء عطلة الصيف يعودون ليسقطوا فترة الكويت والخليج من حساباتهم ليكملوا معنا مسيرة أيامنا المرهقة، التي لم يشعروا بإرهاقها مطالبين بحقوق الترقي التي تجاوزتهم في غربتهم ويحصلون عليها كضريبة الغربة عن أرض الوطن.

وقد نقل د. جلال أصدق وصف لمصري التقاه رأيه في الحياة بالكويت بعد إقامة طويلة الدخول إلى الكويت كدخول فأر صغير في زجاجة رأى بها قطعة جبن كبيرة أسالت لعابه فجرى إليها دون أن يفكر فيما إذا كان سيستطيع الخروج من الزجاجة بعد أن يلتهم قطعة الجبن. . وقد استمرت إقامته في الكويت أربع سنوات ونصف السنة انتهت في الشهور الأخيرة من ١٩٧٣، ولم تعد له بعد تركه لها أية رغبة في العودة إليها إلا لحضور ندوة أو مؤتمرا ليوم أو يومين، بدا لي الأمر أقرب إلى حال من أعطى حقنة مخدرة تبلد بسببها إحساسه، فقبل أشياء لم يكن من المتصور أن يقبلها لو كان في حالته الطبيعية، ويضرب د. جلال مثلا بخلو البال والفكر وحقنة المخدر التي تبلد الإحساس راعني بعد بدء عملي في الصندوق بأيام قليلة أن مر على زميلي المصري الذي يحتل الحجرة المجاورة لحجرتي وكان اقتصاديا كبيرا ذا مقام كبير في مصر، وكنت أعتبره أستاذي بحكم سنه وعمله فقال لي بمنتهى الجدية وهو يشير إلى إناء نحاسي كبير موضوع على الأرض بالقرب من المصعد وفيه نبات أخضر جميل يسقى وينظف بعناية كل صباح: «ألا تعتقد يا جلال أن هذا الإناء يكون من الأفضل كثيرا لو تحرك لو عشرين أو ثلاثين سنتيمترا إلى اليمين؟» لم تصدق أذني أن تصدر هذه العبارة من الأستاذ الكبير، إذ لا بد أن كان لديه من الفراغ في الوقت والذهن ما يجعله يهتم بشيء كهذا، بل أن يترك مكتبه ويأتي إلي لكي يقول لي ذلك. . ولكن الأستاذ كان قد انقضى على مجيئه إلى الكويت أربع أو خمس سنوات فخطر لي أننا جميعا لا بد وأن نصبح مثله دون أن نشعر. لقد تبلد

الإحساس ووصل مفعول المخدر إلى المخ، وكان لا بد أن نبحث عن شيء ننشغل به بدلا من كل تلك المشاكل اليومية التي كانت تشغلنا في بلد حقيقي كمصر، أوليس الكويت بلدا حقيقيا؟! . . قال لنا مرة أستاذ مصري ظريف ممن عاشوا في الكويت مدة طويلة إن الكويت تذكره بما كنا نفعله أحيانا ونحن أطفال، إذ يقول أحدنا للآخر تعال نلعب مدرسة أو تعالى نلعب دكتور وعيّان، هكذا الكويت في نظر هذا الأستاذ، مجموعة من الناس قرروا أن يلعبوا أو قرر لهم أحد أن يلعبوا فأنشأوا دولة لها علم وسلام وطني وحكومة وبرلمان وجامعة ومستشفيات وبوليس ومحاكم. . . . إلخ.

والتشبيه مبالغ فيه بالطبع ولكن من الممكن فهم المقصود منه عندما ترى الشوارع الرائعة بالغة الاتساع والمضاءة إضاءة باهرة، ولكن دون أن ترى شخصا واحدا يسير فيها أو مطاعم ومحلات فاخرة فيها كل ما تجده في مطاعم ومحلات وفنادق باريس أو لندن ولكنك تشعر فيها بوحشة شديدة لقلة من فيها من الناس، وأنت حيث ذهبت على الأقل طوال السنوات التي قضيتها في الكويت تفتقد بشدة منظر امرأة من أي نوع ومن أية جنسية، فكل من تراهم رجالا وهو أمر مثير للأعصاب ويبعث بعد فترة على الاكتئاب سواء أدركت السبب أم لم تدركه.

وليس أبلغ من د. جلال أمين في نقل الصورة الحقيقية لمشاعر المدرس فقد قضى معظم عمره في رحاب مهنة التدريس الجامعي» أكاد أن أكون قد ولدت مدرسا. كم هي مهنة رائعة. والمدرس ليس دائما شخصا فاشلا كما يقول برنارد شو في عبارته الساخرة: من يعرف كيف يقوم بعمل ما يقوم به بالفعل ومن لا يعرف يقوم بتدريسه. . المدرس الناجح يحتاج إلى توافر صفات تقرب من صفات الممثل الناجح. . لا بد أن يهمه أن يحصل على إعجاب الناس وتصفيقهم وتسره بشدة رؤية المتفرجين وقد علت وجوههم تعبيرات الدهشة أو الانفعال. ناهيك بالطبع عن قوة الصوت ووضوح نبراته وبعض الفصاحة، وقد قال لي أستاذي روبنز مرة إن الاشتغال بالتدريس يشبه الزواج من امرأة دائمة الشباب، قاصدا أن الأستاذ قد يستمر عاما بعد آخر في تدريس نفس المقرر لتلاميذ من نفس العمر، فإذا به يجدد

شبابه باستمرار من اتصاله بتلاميذ لا يشيخون أبدا». وقد وجدت ملاحظته صحيحة وبوجه خاص إذا كان بين التلاميذ فتيات جميلات.

صورة زفاف أمه وأبيه لم يرثها د. جلال أمين لسبب بسيط هو أن والده المفكر الكبير أحمد أمين فضل أن تكون صورة زواجه له بمفرده بعد أن ذهب بمجرد إتمام عقد الزواج للمصوراتي يلتقط له صورة فريدة في وضع استند فيه على بضعة كتب بدلا من العروس.. وكتب خلف الصورة وأرجو من الله أن يوفقني إلى عمل عظيم أنفع به أمتى ولم يشر فيما كتبه وراء الصورة ولو إشارة عارضة إلى عروسه التي كان قد عقد لتوه زواجه عليها.. وفي مسيرة حياة جلال الابن يلتقي بمذكرات والده أحمد أمين اليومية التي كتبها خلال عام ١٩١٧، والتي يدور أغلبها حول علاقته بزوجته بصراحة لافتة للنظر، وإن كان يكتب أحيانا بعض الجمل المتعلقة بالزوجة باللغة الإنجليزية خوفا من أن تقع المفكرة في يدها فلا يسرها ما تقرأ فيها مثلما كتب في ٩ يناير ١٩١٧، أشعر كثيرا من الأوقات بأنني سعيد لأنني رزقت (WIFE) مدبرة ونظيفة ذات عواطف مخلصة لا تقول غير ما تضمر وإن كنت أحيانا...

(Feelra Ther Pain Ful For Sheis not Very Beautful)

ويعود في ٢٣ يناير ليقول: لي نحو ثلاثة أيام أحس فيها بشيء من الضيق:

(for My Wife Is Not Ver Y beautiful) وألوم نفسي على هذا الألم على إثر ماحدثتني به أختي عن فتاة كانت قد خطبتها لي وكانت (Verypretty) وفي ٣١ ديسمبر يقول لا تزال تأتى بعض لحظات أقول فيها لنفسي ليتني رزقت (more Be Autiful Wife) عندما كتب أحمد أمين تلك المفكرة الخاصة جدّا لم يكن يتنبأ بأن ابنا له سوف ينشر على الملأ هواجسه المستترة الحزينة من باب الكشف عن التاريخ الحقيقي لأسرته بلا تزييف، لكن أحمد أمين عندما كتب للقارئ سيرته الذاتية في كتاب حياتي غمسها بقلم طابعه خفة الظل والروح في وقت كان يسود فيه أسلوب الجدية والجهامة.. كتب الأزهري عن الإنجليزية الشابة الجميلة ذات العينين اللتين تبعثان في النفس معنى الثقة: «كنا نقضي ساعتين في الدرس مرتين

في الأسبوع ساعة تعلمني الإنجليزية وساعة أعلمها العربية كنت أحدثها يوميا، وقد قامت الحرب العالمية الأولى فزل لساني ونقدت الإنجليز نقدا خفيفا أمامها فما كان منها إلا أن دمعت عينها وقالت في رقة؛ أتعيب قومي وأمتي فخجلت خجلا شديدا وقدرت طينتها التي يجرحها النسيم ولم أعد بعد لمثلها، وكان يصعب عليها النطق بالعين فكانت تقول إن عينكم تؤلمني وكنت أقول في نفسي مثل قولها . . ويشهد نادي الجزيرة ببطله الشيخ المعمم أحمد أمين في عام ١٩١٤، ذهبنا إلى نادي الألعاب الرياضية بالجزيرة واشتركنا فيه وكانت عمامتي أول عمامة اشتركت في النادى وربما كانت آخرها أيضا وأخذت خزانة فيه ككل عضو أضع فيها الفانيلا والشورت والجزمة الكاوتش فإذا حضرت خلعت عمامتي وجبتي وقفطاني ولبست الشورت وما إليه، وتسابقت في العدو مع العدائين ولعبت كرة القدم والعقلة مع اللاعبين حتى إذا تعبنا جلسنا على الحشيش في الهواء الطلق نتحدث ونضحك، وقد كنت أول الأمر ألهث إذا جريت وأخفق إذا لعبت ثم استقام أمري وإن لم أبلغ في خفة الحركة مبلغ صحبي لأنني أحمل من أوزار تربيتي الأولى ما لا يحملون، فإذا فرغنا من ذلك كله ذهبنا إلى خزائننا وخلعت الشورت ولبست الجبة والقفطان والعمامة وخرجت من النادي شيخا وقورا».

كان طابع الأم ـ كما كتب عنها ابنها جلال أمين ـ التدبير وادخار القرش فوق القرش تقتطعه من مصروف البيت، والأب يعطي بلا نقاش وهو يعرف أن ما يعطيه لها يفوق حاجتها، وفاجأته بأنها تملك ما تشتري منه نصف البيت وبعدها النصف الآخر، وتمر سنوات وإذا بأمي تقول لأبي ضاحكة إنه يسكن في بيتها دون أن يدفع لها الإيجار ثم تتحول النكتة إلى جد فيقبل أن يعطيها إيجارا عشرين جنيها، ولم تقنع أمي بل ظلت تتندر سنوات بتفاهة الإيجار في مقابل مزايا المنزل وجمال حديقته بما فيها من أشجار الجوافة وشجرة المانجو، فإذا بها تطلب كل بضع سنوات زيادة الإيجار ويقبل أبي عن طيب خاطر، ولقد استطاعت في النهاية بما كونته من مدخرات أن تظفر بقدر كبير من الحرية، وكان هذا في السنوات الأخيرة من حياة أبي مع تدهور صحته واضطراره إلى التنازل عن الكثير من سلطاته . . ورأت أمي في أحد المحلات التجارية لوحة معدنية صغيرة كتب عليها الآية القرآنية

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ففرحت بها واشترتها وعلقتها فوق سريرها لترددها كلما يحلو لها أن تقارن بين حالها في مقتبل حياتها مع أبي وحالها بعد أن أصبح لديها ممتلكاتها الخاصة، واكتسبت حريتها في تصريف أمورها هل تطرد هذا الخادم أو تستبقيه؟ هل تؤجر أحد أدوار البيت الذي تملكه أم لا تؤجره؟ وتكرر ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ بإشارة خفية إلى أبي، فكأن الله لم ينصرها إلا عليه، وكأن العلاقة بينهما لا بد أن تنتهي بغالب ومغلوب مما يثير التساؤل عما إذا كانت العلاقة الزوجية بين شخصين متحابين أم كثيرا ما تكون أشبه بالعلاقة بين متصارعين؟.

الأخوان حسين أمين وجلال أمين الفارق بينهما جوهري.. بين المثقف والمفكر بين حسين أمين الذي قرأ كثيرا وخزن المعلومات وحفظ التاريخ فاعتقد بأنه شخص فريد في نوعه، لم يأت أحد مثله من قبل ولن يأتي أحد مثله من بعد، ووسيلته في إثبات أنه أعظم الناس كان تحصيل أكبر قدر من الثقافة، وقد نجح ليتجاوز بمسافة شاسعة الكثير من المثقفين المصريين.. وجلال أمين رجل الاقتصاد الذي حفظ وهضم وطلع لنا بأفكار لامعة.. الفارق بينهما أنه عندما أراد حسين أن يكتب عن والده كتب عن نفسه، وعندما جلس جلال ليكتب عن نفسه وماذا علمته الحياة كان والده هو البطل، وفي رحلته التي كان فيها صادقا مع نفسه شجاعا في تناوله لمسيرة حياته، معتزا بإسلامه اعتزازا ثقافيا وليس عقائديا لم يتحرج من الاعتراف بأن والده أحمد أمين صاحب أهم كتابات في التاريخ الإسلامي الذي وصف البيت الذي نشأ فيه بقوله: «إنك إذا فتحت بابه شممت فيه رائحة الدين ساطعة زكية.. لا أتذكر أني رأيت أبي وهو يصلي ولا أذكر أني رأيته وهو يقرأ المصحف ولا أتذكره وهو ينتظر حلول المغرب ليتناول إفطاره في رمضان، أما أمي فلم تكن أكثر تدينا من أبي، كانت تكره مثل أبي أن تسمع أي قول ينم عن أي شبهة كفر بالله ولكني لا أتذكر أداءها لصلاة أو صوم، ولا هي أدت فريضة الحج أو عبرت عن رغبة شديدة في أدائها، وما أكثر ما كانت تستخدم عبارة إنما الأعمال بالنيات لتبرر تقصيرها في أداء شعائر الدين».

أحمد شوقي

شوقي إلى شوقي

أخيرا عرفنا أحمد شوقي الإنسان، فنحن على الدوام نضع النجوم خارج نطاق جنس البشر، تشدنا إليهم موهبتهم فلا نرى الإنسان فيهم وإنما نحملق من بعيد بانبهار للممثل والشاعر والرسام والسياسي، إلى أن يأتي واحد من أهله ليهبط به من عليائه بعد إزاحة الستار الأثيري ليقدمه لنا على مسرح عالمنا الواقعي، فنجده يأكل الجبن القريش والملوخية بالأرانب مثل عبد الناصر، ويدعك بشرته بفص ليمون بنزهير ليزيل السمار مثل السادات، ويفتش خفية حقيبة يد شقيقته الإمبراطورة مثل الملك فاروق، ويتلصص بالنظر من خرم المفتاح على حمام النساء مثل الفيلسوف برتراند راسل، ولا يخلع بنطلونه المهلهل سنينا مثل بابلو بيكاسو . . . تلك الرؤية ما بين التحليق في السماء والهبوط للأرض، ذلك المدلول يأتي مكبرا في الإدراك العام مع فكرة الزعيم الذي لا نراه إلا في الصور وفوق المنصة وأثناء استعراضه حرس الشرف حتى ننسى في ظل هذا الإطار المصنوع السلوك البشرى، خاصة في بعض النظم غير الديمقراطية التي يتحول فيها بعض الزعماء إلى آلهة تصعد ولا تنزل لتبقى معلقة في الهواء، بينما البعض ما إن تنتهي مدته إلا ونراه قد هبط ليمشي مع الناس على الرصيف الأسفلت مثل الرئيس الأمريكي الأسبق «هنرى فورد» الزبون الدائم الآن لمحلات البيتزا الشعبية، ورئيس وزراء إنجلترا السابق هارولد ماكميلان الذي فوجئت به أمامي في لندن داخل طابور السينما يحجز تذكرته لمشاهدة فيلم «الأب الروحي» . . ولا نعرف الكثير عن طه حسين إلا من خلال الزوجة سوزان في مؤلفها «معك»، وعندما استضاف البيت بيتك نجل

الموسيقار محمد عبد الوهاب دخلنا معه عالم الأب المصري الحنون وليس الأميرالاي موسيقار الأجيال . . . وغاب عنا الكثير من أحمد شوقي الإنسان إلى أن اصطحبنا ابنه حسين للتفاصيل الصغيرة الحميمة في حياة أمير الشعراء في مذكراته أبي شوقي التي جاء فيها ذكر حفل زفاف شقيقه علي علي بنت خالته في كرمة ابن هانئ بالجيزة . . الزفاف الذي حضره الزعيم سعد زغلول وغنى فيه عبد الوهاب في الزفة على دقات الطبول من كلمات الأب شوقى : إن شالله تفرح يا عريسنا وانشالله دايما نفرحبك/ الشمس طالعة في التللي وردة ع التوب الفللي/ ملحة في عين اللي ما يصلي/ وتشوف عيونك وعيونها دخلة ولادك والحنة/ دنيا جميلة قوم خدها/ ستك وبالمعروف سيدها قوم يا عريسنا بوس إيدها/ ادخل ع الدنيا الفللي .

وكان ظننا جيلا من بعد جيل عندما تشدو العبقرية بكلمات العبقرية النيل نجاشي حليوة أسمر/ عجب للونه دهب ومرمر/ أرغوله في إيده يسبح لسيده / حياة بلادنا يارب زيده . إن شوقي يقصد بالنجاشي حاكم الحبشة كما عرفه المسلمون الأوائل ، أي أن المعنى يذهب إلى أن نهر النيل قد جاءت مصادر مياهه ولونها وشموخها من هضبة الحبشة ، وترسخ في مفهومنا هذا المعنى الذي وجدناه بالفعل سطحيا أمام زخم ما قاله لنا فيه فاروق شوشة شاعر الكلمة المنطوقة والمكتوبة ، من فسر المعنى في بطن الشاعر بأن النجاشي ملك الحبشة لم يكن مجرد ملك أو حاكم في الذاكرة العربية الإسلامية ، لكنه الحاكم المسيحي الذي أحسن استقبال أول هجرة إسلامية قام بها المسلمون إلى الحبشة قبل أن يؤمروا بالهجرة إلى المدينة المنورة هربا من عسف قريش وفتكها واضطهادها لهم ، وبهذا الموقف الكريم من النجاشي ـ المسيحي ـ إزاء أتباع ديانة سماوية جديدة هي الإسلام يؤمنون بالله الواحد المعبود ، الذي يؤمن به النجاشي نفسه ، أصبح النجاشي أول رمز للوحدة الوطنية ، لأن وادي النيل يضم شعوبا مسيحية وإسلامية يرويها جميعها دون تفرقة وتعيش على عطائه بغض النظر عن الجنسية أو اللون أو الدين .

وهكذا في كلمتين اثنتين بالعامية لا غير ، استطاع خالد الشعر أن يفجر بأقصر

جملة في التاريخ جبالا من المعاني والإيحاءات والظلال والدلالات والإشارات التاريخية والدينية، فحقيقة إذا ما كان شوقي أميرا لشعراء الفصحى فأين من ينافسه أيضا على عرش العامية التي تفجرت شلالا ولآلئ تترى عند التقائها بعبد الوهاب.. عند عثورها على أرض الميعاد.. عندما عقد قران الكلمات بالنغمات والآهات والترنيمات.. عندما تبدى عبد الوهاب الشجي لصاحب النص العبقري المولود بباب الخديو إسماعيل الذي استنطقه شجن الصوت وبدرته بلاغة العامية فكتب من أجله ليغني له الموال والمونولوج والطقطوقة: توحشني وإنت ويايا/ واشتاق لك وعينيك في عينيه/ واتذلل والحق معايا/ وأعاتبك ماتهونش عليّ، وفي الليل لما خللي، وهيلا هوب هيلة صلح قلوعك ياريس، وجت الفلوكة والملاح ونزلنا وركبنا حمامة بيضاء بفرد جناح تودينا وتجيبنا، والفجر شأشأ وفاض على سواد الخميلة لمح كلمح البياض من العيون الكحيلة، والليل سرح في الرياض أدهم بغرة جميلة.. هنا نواح ع الغصون وهناك بكا في المضاجع.. ليه تشتهي النوم عيون وعيون سوالي هواجع، وروح غرق في الشجون ودوح ما شافشي المواجع... ولم يأت أحد لا قبله ولا بعده في وصف الحب مثله.. وبصوت عبد الوهاب.. صورة للوردة التي خلق ظلها من الخفة، والتي كسيت طبقات ملفوفة من الأوراق تشبه القبل التي ولّفت - وخدوا لي بالكم من كلمة ولّفت بالذات - شفة على أخرى عندما يغني عبد الوهاب لشوقي:

تبارك اللي خلق ضلك من الخفة
واللي كساك الورق ولفه دي اللفة
زى القبل ولفت شفة على شفة

ولقد لمحت ما بين السطور في كتاب حسين بن شوقي تلك المسألة.. الشائكة.. المضفرة بالحساسية البالغة ما بين الاب وابنه. استشعرت بعضا من غيرة ضمتها حنايا صدر الابن تجاه غريب الدار الذي يفضله الوالد عليه.. حسين الابن الأصغر للشاعر أحمد شوقي لسعته نيران الغيرة من محمد عبد الوهاب الذي اختاره شوقي ربيبا له يقربه ويشجعه ويعتني بصحته وأناقته ومزاجه وإطاره، ويكتب له بالفصحى

وبالعامية أغانيه ويسافر به ويقدمه في صحبته الملتصقة لمجتمعات الأبهة والرفاهية والثقافات الرفيعة في مصر والبلاد العربية وأوروبا . . هذا بينما . . وتلك السينما سيأتي ذكرها فيما بعد . . المهم والملاحظ أن حسين قد أخذ بثأره من عبد الوهاب عندما كتب مذكراته التاريخية، حيث لم يأت على ذكره إلا في سطور معدودات دون تركيز مباشر عليه، بل بوضعه في دائرة الظل ودور المؤدي فقط، وذلك عند سرده تفاصيل صحبته لشاعر الهند العظيم طاغور في سيارة من فندق شبرد لزيارة بيتهم في كرمة ابن هانئ حيث أقيم حفل كبير في تلك المناسبة : «غنى فيها الأستاذ محمد عبد الوهاب لأول مرة القطعة التي لحنها في رواية مصرع كليوباترا والتي كان أبي يعدها إذ ذاك : أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ما لروحينا عن الحب غنى . . والمرة الثانية والأخيرة التي اقتحمت فيها سيرة عبد الوهاب مذكرات الابن حسين مضطرا كانت بوصفه واحدا من الشخصيات التي التقاها شوقي في حياته ومنها سعد زغلول ومصطفى كامل والزعيم التونسي السيد الثعالبي الذي قام بنفسه بإعداد طبق الكسكسي في مطبخ كرمة ابن هانئ، والدكتور محجوب ثابت و . . وعبد الوهاب الذي لا يذكر حسين إلا موقفين له كلاهما لا يحمل انتصارا للمطرب الكبير . . ولقد علمت من عبد الوهاب أن أول مرة قدم فيها لأبي كان سنة ١٩٢٤، خلال حفلة أقامها معهد الموسيقى الشرقي في كازينو سان استيفانو بالإسكندرية، وقد كان أبي سمع عبد الوهاب قبل ذلك ببضع سنوات عندما كان يغني في مسرح برنتانيا وكان حدثا في ذلك الوقت فتألم أبي لأن إرهاق الصوت في مثل هذه السن الصغيرة قد يقضي عليه . . لذلك اتصل بحكمدار العاصمة ورجاه أن يمنع غناء الأحداث على المسارح .

وجاء مرة الأستاذ عبد الوهاب وعلى وجهه مسحة من الحزن والألم، فسأله أبي عن السبب، فأخرج عندئذ محمد من جيبه بعض مجلات كانت تهاجمه، فقال له أبي لا تحزن، بل يجب أن تسر من ذلك، لأن النقد يرفعك ويزيدك شهرة، وسأثبت لك ذلك بالعمل . . ضع هذه الصحف على الأرض وقف عليها بقدميك، ففعل محمد : فقال له أبي باسما : ألم أقل لك إن النقد رفعك؟» . ولا يكتب حسين أن محمد عبد الوهاب قد غنى له في الثلاثينيات مقطوعة كان مطلعها : سهرت منه

الليالي ما للغرام ومالي/ إن صد عني حبيبي فلست عنه بسالي/ يطوف بالحب قلبى/ فراشة لا تبالي . . ولا ندري إذا ما كان اللحن نوعا من المهادنة من جانب عبد الوهاب لحسين، أم أنه قد رثى لحاله بسبب عدم اعتراف الأب بشاعرية ابنه، وهناك الواقعة التي تثبت ذلك والتي أوردها بنفسه حسين في مذكراته وكان شاهدا عليها الشاعر حافظ إبراهيم: «كنا نذهب إلى مقهى صغير منعزل أمام فندق مينا هاوس في عصبة بوهيمية مرحة كثيرة الصخب من أدباء وفنانين وكان يحضر معنا في هذه الرحلات المرحوم حافظ بك إبراهيم الذي كانت صحبته جد مسلية، غير أنه كان يضايقني بالسيجار الذي كان يفرض عليّ تقديمه له وكان الواحد منه بثلاثين قرشا . . سألني حافظ بك مرة في أثناء هذه الرحلات، وكنا قد فرغنا من تناول الطعام وشرعنا نتمشى في الطريق المؤدي من الهرم الأكبر إلى أبي الهول قائلا: أتقول الشعر يا حسين؟ فأجبته: أجل ولكن قليلا . . فقال: إذن قل شيئا في الهرم أو في أبي الهول فقلت: أيا هرمي مصر سلام عليكما . . ولكني لم أتمكن من تكملة البيت، عندئذ فكر حافظ بك لحظة ثم قال: سلام مشوق منذ خمس إليكما . . وهو يقصد بالخمس، السنوات الخمس التي قضيناها مع والدي بالمنفى قبل عودتنا . . كما أنشدته بضعة أبيات كنت نظمتها في مناسبة أخرى، فالتفت إلى أبي وقال: أتعلم يا شوقي أن ابنك يرجى منه؟ عليك أن تتعهده ليصير شاعرا مطبوعا. فأجاب أبي: إني أفضل أن يعنى هو بالنثر لا بالنظم، لأن الشعر لا يتحمل الوسط، وحسين لا يبلغ فيه القمة . . فقال حافظ بك موجها إليّ الخطاب: لا تطع مشورة أبيك يا حسين، إنه يقول ذلك لأنه غيران منك. إذ يخشى أن تسبقه في يوم من الأيام! فقال أبي في مرارة: لماذا بربك تريد منه أن يكون المسكين شاعرا؟ لماذا؟ أليشقى مثلنا ويحرق أعصابه؟!».

هذا وقد سجل حسين أنانية والده بخط يده عندما قال عنه: «كان سريع التقلب كالمحيط، فطعام لم يهيأ كما رغب يعكر مزاجه، على أن أهم عيوبه أنانيته الشديدة التي منها مثلا أننا لم نكن نستطيع أن نتغدى في ساعة معينة، بل كان لزاما علينا أن ننتظر إلى أن تأتي شهيته، وكثيرا ما كان يطول هذا الانتظار، لأنه كان يصحو من نومه متأخرا فيفطر بطبيعة الحال متأخرا أيضا، وسبب هذا التأخير في النوم أنه

يراجع بعدما يعود من سهرته ما نظم من شعر طوال النهار . . ومن أنانيته أنه عندما كنا في أوروبا وكنا نذهب إلى أحد المطاعم كان يغضب منا، من علي شقيقي ومني، حين نختار الأصناف المألوفة، بل كان يجب علينا على حسب رأيه هو أن نختار أصنافا جديدة مجهولة الأسماء، كي يختار منها هو في المرة القادمة إذا راقته! فكانت اقتراحاته هذه تفسد علينا الأكلة، لأن تلك الأصناف المجهولة كانت مقالب في معظم المرات فقد كان حظي مرة ضفدعا لم آكله رغم ما يقال إن طعم الضفدع كالحمام السمين!!». ويمضي الابن في سرد تفاصيل أنانية الأب أحمد شوقي الشاعر متسائلا وإن كان مؤكدا: «ألم يكن أبي أنانيا عندما تخلى عن الخديو حين سافر سموه إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج، ذلك العاهل الذي كان هو شاعر بلاطه الذي يحبه ويعطف عليه كل العطف؟! وكان أبي كلما روى هذا الحادث فيما بعد يضحك ملء شدقيه ويقول: إنه أقنع سموه بأنه ذاهب معه إلى الحج، ولكن ما إن بلغ ركب الخديو بنها حتى اختفى منه أبي، فجعل سموه يبحث عنه بدون جدوى. ويقول أبي إنه اختبأ إذ ذاك في منزل أحد أصدقائه، ولما عاد سموه من الحجاز وأخذ يلوم أبي على فعلته. اعتذر قائلا: كل شيء إلا ركوب ظهر الجمال يا أفندينا! ولكي يعوّض سموه عن هذا التقصير، نظم له قصيدة ترحيب وتهنئة بالحج طويلة عامرة الأبيات كان في مطلعها: إلى عرفات الله يا ابن محمد/ عليك سلام الله في عرفات. . ويؤكد حسين في رأيه عن أبيه من أنه كان بوهيمي النزعة إلى حد كبير: لقد كان الكثير من تصرفاته يدل على ذلك. . ألم يكن بوهيميا حين كان يعاونني على الهروب من المدرسة في المطرية؟ كذلك الحادث الذي وقع لنا ونحن في برشلونة وكان دليلا على ذلك، فقد ركبنا الأوتوبيس - أنا وهو - فصعد رجل عملاق بادي الترف والثراء، يعلق سلسلة ذهبية بصدره وفي فمه سيجار ضخم، ثم ما لبث أن استسلم للنوم في ركن من العربة، وراح يغط غطيطا يرهق الأعصاب، وصعد نشال في مقتبل العمر جميل الصورة وهم أن يخطف السلسلة ولكنه أدرك أن أبي يلمحه فأشار إليه إشارة برأسه مؤداها: هل آخذها؟ فأجابه أبي برأسه (خذها) فنشلها الشاب ونزل بعدما حيا أبي برفع قبعته له! ولم يكد ينزل حتى التفتُ إلى أبي قائلا: هل يصح أن تترك النشال يأخذ سلسلة الرجل وهو نائم؟

فأجاب: شيء عجيب يا بني! لو كنت مقسما الحظوظ فلمن كنت تعطي السلسلة الذهبية؟ أكنت تعطيها عملاقا دميما أم شابا جميلا؟ فقلت: كنت أعطيها الشاب الجميل، فأجاب ببساطة: ها هو ذا قد أخذها!».

ولا ينسى حسين أن يسرد جانبا من بوهيمية الأب الحاني الذي لا تعنيه التقاليد إذا ما تعارضت مع شطحات صغيره: «كنت أرغمه على الجلوس في الحنطور في المقعد الصغير الأمامي، على حين أجلس أنا أمامه في المقعد الكبير، وقد رآه مرة سمو الخديو على هذه الحال، وكنا نسير إذا ذاك في ضاحية المطرية، وكان سموه قادما من قصر القبة في طريقه إلى مسطرد، فاستدعى أبي ولامه على ذلك، سائلا: لم تفعل هذا؟ فأجابه: سله هو يا أفندينا لم يفعل بي هذا!!». هذا ولم يغلق شوقي ليس على حسين فقط أبواب الشعر لكنه أوصدها أيضا بالضبة والمفتاح في وجه (علي) الابن الأكبر منذ لحظة مولده ليبقى وحده شاعر الشوقيات، ولم يفته أن يشير في تلميحة ذكية إلى أن أيا من أبنائه لن يكون وريثه في الشعر، لأن العبقرية لا تورث وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي هيأ شوقي فقط لهذه المهمة:

رزقت صاحب عهده	وتم لي النسل بعدي
إن يحسدوني عليه	ويغبطوني بسعدي
ولا أراني ونجلي	سنلتقي عند مجد
وسوف يعلم بيتي	أني أنا النسل وحدي
فيا (علي) لا تلمني	فما احتقارك قصدي
وأنت مني كروحي	وأنت من أنت عندي
فإن أساءك قولي	كذَّب أباك بوعد

وتبقى ماثلة أمامي ملامح الحفيدة نعمة الله عندما تتجلد غضبا تحاذر سقوط الدموع من عينيها تشكو ما كان منهم - المسئولون عن متحف شوقي جدها في كرمة ابن هانئ - حيث لم تعلم بأمر الاحتفال الرسمى إلا مصادفة من إحدى الصديقات فأرسلت تطلب دعوة جاءتها في اللحظات الأخيرة لتجلس في موقع ناء بينما وحدها من بقيت على وجه الدنيا من نسل أمير الشعراء، حيث لم يبق من الأحفاد غيرها سوى أحمد شوقي نجل (علي) الذي يقيم في هولندا للعلاج، وأمينة مؤنس

حفيدة طه حسين تقيم في باريس. . الكل مات، ولم ينجب خالي ـ شقيق جدتي أمينة ـ حسين شوقي وأتصور أن شخصية والده (كتمت) شخصيته، ربما لأن الوالد كان شاعرا كبيرا حقق شهرة واسعة في حياته، وكان لدى حسين طموح إلى أن يغدو كاتبا أو شاعرا أيضا.

«لكنه منذ صغره كان نافرا وعزوفا عن الآخرين، لم يكن يشرك أحدا من الأطفال معه في اللعب، وحين ينتهي من لعبة ما يحفر في الحديقة ويقوم بدفنها بد لا من أن يعيرها لطفل آخر يلعب بها مثله. . خالي حسين لم يمتهن أية مهنة ولم يشغل وظيفة ما، وكان من هواياته منذ الصغر طوابع البريد، وكان يكتب القصص والروايات بالألمانية وأتصور أنه نشر عددا منها في ألمانيا. . لكنه للأسف لم يحقق شيئا من شهرة والده. . كان منظما جدا ومواعيده دقيقة، يخرج في الصباح لمدة ساعتين إلى أين؟! لا نعرف، ويعود في دقيقة وساعة معينة. . في العاشرة والنصف. . كان منضبطا كالساعة حتى إننا كنا نضبط الساعة عليه، وكان عزوفه ودقته الصارمة سببا في أن يخيفنا عليه نحن الكبار بل نخاف منه، وحين اقتربت أنا منه في سنواته الأخيرة خلال فترة السبعينيات اكتشفت أنه إنسان طيب جدا ولم يأخذ حظه في الحياة ولا من الحياة، عاش في ظلال شخصية والده، وأعتقد أن هذا لم يكن مصدرا لسعادته. أما خالي (علي) فقد عمل بالخارجية وصار سفيرا لمصر في الفاتيكان وكان خجولا أيضا. . نحن جميعا لدينا صفة الخجل».

شوقي الجالس بتمثاله النصفي في حدائق البروجيزي بمدينة روما إلى جوار الفردوسي شاعر الفرس وصاحب الشاهنامة ومن حولهما فيكتور هيجو ولورد بيرون وجوتة. . أحمد بك شوقي الذي رشحه الخديو ليعمل في الأهرام، والذي وضع الصحافة في أكرم منزلة عندما جعلها آية هذا العصر في قصيدته التي ألقيت في الاحتفال بإنشاء نقابة الصحفيين، لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصحف. . حامل لواء البعث الشعري بعد البارودي ووريث المتنبي في الحكمة وأبي نواس في عمق المعنى وعذوبة اللفظ. . صاحب الريادة الأدبية التي طوعت الشعر لأغراض شتى من المجتمع إلى السياسة إلى الطبيعة إلى الغزل إلى الفكاهة إلى قصص الأطفال إلى مسرحيات شعرية ورواية عذراء الهند بأصلها الفرعوني

ونبضها الحديث في عهد محمد علي وابنه إبراهيم وحفيده إسماعيل . الذي كتب قصيدته عن النيل في ورقة صغيرة في يوم واحد وهو سائر على كوبري قصر النيل لتعد طليعة الشعر العربي العمودي كله .

شوقي الذي ذاق الفقر فنعى حظه : «أنا لم أغنم من الناس سوى فنجان قهوة» . شوقي ربيب القصر وقلب الوطن الذي صعدت فوق أكتافه الأجيال فلم يبق لواحد منهم في الشعر ما بقي لشوقي رغم الهجوم وتنوع الآراء بل تضاربها من حوله ، حتى بلغ الهجوم عليه وصفه بالازدواجية ـ دكتور جيكل ومستر هايد ـ الذي أطلقه عليه الدكتور محمد حسين هيكل قائلا : «إنه مؤمن وهو المحب للحياة ولذاتها ، وهو الزاهد والمستمتع معا» . وهاجمه العقاد والمازني وطه حسين وبيرم التونسي . . لكنه الفنان الذي ظل حياته كالبحر يرمي بالدر ويُرمى بالصدف . . . الشاعر الملهم الذي نقبل منه سلبية كليوباترا التي اختار لها أن تضحي بحبها لا أن تحارب ، وأن تنتحر لا أن تعيش وتجاهد ، من أنستنا عذوبة شاعرية أبياته مواقف أبطاله الشاذة في مجنون ليلى ، فهناك ورد الزوج الذي يحب ويعف ولا يقرب زوجته ليلى احتراما لحبيبها قيس ، وليس هذا فقط بل يأذن له الاختلاء بها ليناجيها ، ونبتلع تساؤل قيس الشاذ عندما يسأل وردا : «بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح أو قبلت فاها» ، فيبلغ بنا الإعجاب نسيان الشذوذ فلا نستنكر السؤال لكننا نقول يا للوعة العاشق المجنون . . هل يعقل أن يكون هذا في قبيلة عربية بدوية؟!

لكنه شوقي الذي لا يتركنا أمام روعة شعره لنسأل هذا السؤال؟!

فهو الذي أشار إليه سعد زغلول قائلا : «هنا الخلود» .

شوقي الذي كره الكرافتة كأنها حبل المشنقة . من أصيب بالكوليرا وشفي . . الذي حذفت له الثورة من الشوقيات ٣٦٠ بيتا عن الأسرة المالكة من عهد محمد علي والخديو إسماعيل ، كما حذفت له ٢٤٣ بيتا من ١٣ قصيدة تمجد الدستور وتدافع عن حرية الصحافة والديمقراطية . . من غنت له أم كلثوم «وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا ، والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء» . . شوقي القائل : «قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا» .

من نقش على ضريحه امتثالا لرغبته من قصيدته نهج البردة: «إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل/ في الله يجعلني في خير معتصم». شوقي راعي الرياضة الذي تقدم حملة نعشه سيد نصير - بطل أوليمبياد أمستردام ١٩٢٨، في رفع الأثقال - الذي نظم فيه لنصرة الأوليمبى أبياته:

يا قـاهر الغـرب العـتيـد مـلأته   بثناء مصر على الشفـاه جميلا

إن الذي خلق ا الحـديد وبأسـه   جعل الحديد لساعديك ذليلا

لم لا يلين لك الحـديد ولم تزل   تتلو عليـه وتقـرأ التنزيلا؟

الموهبة الشعرية الفذة التي تركت لنا من النثر دروسا وحكما منها: «أبى الله أن يتساوى عباده إلا في النوم والموت، وأساطين البيان أربعة: شاعر سار بيته، ومصور نطق زيته، وموسيقي بكى وتره، ومثَّال ضحك حجره، وما نعيت الآداب مثل تشاؤم الكتاب، ومن نقد على غضب أسخط الحق، ومن نقد على حقد احترق وإن ظن أنه حرق، ومن نقد على حسد لم يخف على أحد.

والطير لا تقرب أفقا فسد فضاؤه، والحرية تهرب من بلد اختل قضاؤه

واخـدع من شـئت.. إلا التـاريخ

والسـجـون إذا امـتـلأت.. انفـجـرت!».

صلاح عبد الصبور.. قال لكم

ذاك من زمان عندما كان بوفيه كلية آداب جامعة القاهرة محطتنا وناديننا وملهانا وأرض الحب والحوار، وجوار ضيوف يأتون إلينا لنعقد من حول مجلسهم الثقافي الندوات. . أذكرهما ضيفي الندوة المزدحمة بطلبة كل الكليات الأخرى. . الشاعر صلاح عبد الصبور والكاتب يوسف إدريس. كلاهما أتى للساحة البكر الظمأى للتلقي نبث السؤال طي السؤال، فيجيب عبد الصبور الضيف الأسمر الساكن بسمات الحزن الطيبة البادية، ويغرز فينا إدريس المتأجج الذي يرفض بعضه استقرارا على بعضه، يغرز نظراته الخضراء الثاقبة يسبر بها أغوارنا وعلى فمه شبه ابتسامة متهكمة، قبل أن يمنحنا وجهة نظر يلقي بها حجرا يطرطش في مياهنا الراكدة. . فنمضي في استيعاب جديدهما. نهضم معهما الكتابة بلغة أخرى، بالنكهة الجديدة والصيغ الجديدة والفكر الجديد في لغة لم تفقد هويتها المصرية، وكأن من أتانا لندوة الزيارة في بوفيه الآداب امرؤ القيس وابن المقفع قد بعثا من جديد بلغة العصر ومنجزاته وصواريخه وطياراته ودباباته، بعدما مللنا لغة صارت مثل الصيغ القانونية والأقوال المأثورة والخطابة المنبرية وخطابات الكتبة أمام المحاكم الشرعية. . عثرنا عندهما على لغة كنا نبحث عنها وسط بحور السأم ولا تطاوعنا مواهبنا على النطق بها. لغة تتنفس على أوتارنا، وتبحر بذات مجاديفنا. لغة تحمل منظارا مقربا يكشف ما وراء الأفق من أشياء تستحق أن ترى، وأن نتأملها في بلد لا يحكم فيه القانون. في بلد يمضي فيه الناس إلى السجن بمحض المصادفة. في بلد لا يوجد فيه المستقبل. في بلد يتمدد في جثته الفقر كما يتمدد ثعبان في الرمل.

في بلد تتعرى فيه المرأة كي تأكل . . . ضيفانا أتانا زمان لنناقش نقطة الالتقاء والاختلاف بشأن فيينا . . نفرش أمامهما فدان لماذا؟ وننصت لإجابتهما حول لأن . . ضيفانا كانا قد سرقهما الحلم الرومانسي على أنغام الفالس الأوروبي بصوت أسمهان في ليالي الأنس في فيينا ، فسافر الحالمان إلى أرض الأحلام ليكتب إدريس قصته بعنوان السيدة فيينا ، ويعود عبد الصبور بقصيدته امرأة من فيينا . . الموضوع واحد والبطلة الأجنبية هي هى ، والمرتحل إليها المصري المغترب في بلاد الجن والملائكة الذي لم يعثر هناك على مفتاح الكنز ولا كلمة السر ولا ارتواء ظمأ الوجدان ولا الغاية أو المرتجى ، بل كانت الأصداء مغايرة للمتوقع لتبقى الغربة سدا بين طرفي النقيض . . بين الشرق والغرب ، رغم زيف ليلة الحلم وقناع الحب الآلي في بلاد اللقاءات العابرة . . فيينا التي وصف عبد الصبور لقاءه العابر بها بقوله :

تعانقت شفاهنا ، وافترقت
تفرقت خطواتنا ، وانكفأت
على السلالم القديمة
ثم نزلنا الطريق واجمين
لما دخلنا في مواكب البشر
المسرعين الخطو نحو الخبز والمؤونة
المسرعين الخطو نحو الموت
في جبهة الطريق ، انفلتت ذراعها
في نصفه ، تباعدت ، فرقنا مستعجل يشد طفلته
في آخر الطريق تقت ـ ما استطعت ـ لو رأيت
ما لون عينيها
وحين شارفنا ذرى الميدان ، غمغمت بدون صوت
كأنها تسألني . . من أنت؟

وفي الستينيات ذهبت للعمل في الأهرام لألقى هناك صلاح عبد الصبور الذي

أوسع له محمد حسنين هيكل الصفحات، بعدما صدر قرار إقالته من عمله الثقافي الرسمي مع الدكتورة سهير القلماوي.. وقع صلاح بين براثن مراكز القوى التي ألقت به في الطريق، وعندما وصل الخبر لعبد الناصر أرسل على الفور من يعيده لعمله قائلا: الوطن الذي يفصل شاعرا لا صدق في أحلامه وليست مصر هذا الوطن.

بينما كان ابن عبد الصبور طائرا مغردا يأتي ليحط عفويا وبلا كلفة على طرف المكتب، يدخل في نسيج الضجيج، ويحلق مع سحب الغضبات، ويشارك في أفكار الموضوعات، ويخطف لهفات صديقات.. يقعن في شرك دماثته وطزاجته وسمرة جبهته السمحة والشجن البادي في عينيه، وطلة طفل يحوم ويبحث عن ملجأ، والأنثى بطبيعتها حضن تفتح صدفتها كملاذ، لهذا وقعت في شرك الحزن الرفيف أكثر من واحدة، ولا بد وأن شاعرنا الفريد في عشقه قد لمست قلبه واحدة أعلن لها منذ البداية أنه إنسان بسيط بلا ثروة ولا جاه ولا مال، ولا بد وأن يكون قد اعترف لها صادقا بأنه قد جاب الليالي باحثا في جوفها عن لؤلؤة يقدمها لها، إلا أنه عاد ببضعة من الحصى والمحار دون العثور على اللؤلؤة ونسمع ونشارك قصته مع صاحبة الصوت الدافئ عبر الميكروفون. نشهد دقات حذائها المرح في موعدها إليه وهزة من شعرها اللازمة الأنثوية عند نطقها اسمه ممتدا على شفتيها بتوزيع موسيقى، وسفرة هيام لآخر الملكوت في عيونها إذا ما رددت أمامنا أبيات شعره.. لكننا فجأة نسمع عن حفل زفافه على الأخرى (نبيلة) في مساء الغد بشارع نوبار.. وتمضي فترة.. فترة تعد قصيرة في عمر الزواجات لنسمع عن الطائر الذي هجر العش.. الذي كتب تعليقا على فشل قصة زواج الحب الذي جمع بين الراقصة الشهيرة إزادورا دنكان والمخرج المسرحي جوردون كريج.. كتب وكأنه اعتراف ذاتي على لسان الزوج الذي أدار ظهره للارتباط: هل تستطيعين أن تغفري لي كل سوء فعلته، هل تغفرين لي محاولتي أن أعيش بدونك.. إنني لا أستطيع، فهل تستطيعين أنت؟! وعاد صلاح يتساءل: «هل كان ما بينهما رغم تلك الحرارة المتأججة حبا؟ أم كان لقاء بين نجمين تماسا واشتعلا ثم سرعان ما انطفأ ما بينهما؟»... لقد كانا مختلفين، ولم تكن هي كما قالت: «إن كلا منهما نصف

كان يبحث عن الآخر. نصف روح هائمة ظلت في سفرها حتى تجد النصف الذي خلقت له، فإذا وجدت ذلك النصف الشارد اندمجت فيه». لا.. لم يكن أحد منهما نصفا، كان كل منهما كلا، يريد أن يستوعب الآخر، وكان هو أكثر ذكاء ومعرفة بالإنسان حين عرف أنها كيان مستقل، وأنها تستطيع أن تمضي في حياتها، بل من الخير لها أن تمضي في حياتها مستقلة عنه.

ونسمع من صلاح عبد الصبور عن ليلى والمجنون وعن أغاني الخروج وعن أحلام الفارس القديم وعن مسافر ليل وعن شنق زهران وعن مأساة الحلاج وعن الصوفي بشر الحافي وعن الأميرة التي ظلت تنتظر.. وعن السندباد الذي أوغل ثم عاد...! ورغم الحزن البادي في الأشعار وفي الخلجات وفي القسمات وفي قصيدته التي صنفت الحزن إلى أنواع وإلى درجات منها الحزن الضرير والحزن الصموت والحزن الطويل حتى بات صلاح جديرا بالتسمية التي أطلقها عليه الأصدقاء خبير الأحزان.. رغم كم هذا الحزن قال عنه صديقه كامل زهيري: «إنه كان أكثرنا حبا للفكاهة وأكثرنا حماسة للضحك، وكان يستطيع أن يقضي ليلة كاملة من الضحك المتواصل، وكان يجيد لعبة الاشتقاقات اللفظية ويطرب لفن القافية في مباريات الفكاهة.. لقد كان يضحك معنا، وقد يكون سبب حماسته للضحك أنه في شوق إليه لأنه أكثرنا حزنا وشجنا، خاصة حين ينفرد بنفسه ليكتب أو لينسج أشجانه شعرا».

ابن الزقازيق محافظة المواهب وفيض العطاء، الشراقوة الطيبيون الملهمون.. صلاح عبد الصبور وعبد الحليم.. لم يلتقيا في مسقط الرأس لكنهما تلاقيا هنا مع الصعلكة القاهرية في سكة الفن والإعجاب بالسنيورة سعاد.. في بدايات ابن شبانة بعد أن طوى يومياته في الحلوات تباطأ مرسي جميل عزيز في الكتابة له لدفعه إلى ساحة الشهرة الغنائية، فلجأ إلى بلدياته عبد الصبور يطلب منه غنيوة يفتح بها عكا الغناء في بلد آذانه مبرشمة على عبد الوهاب وفريد الأطرش ومحمد عبد المطلب، فشمر صلاح عن قريحته ليكتب الأغنية الوحيدة في حياته التي دخل بها حليم عالم الطرب معتمدا على كلماتها التي قام بتلحينها كمال الطويل زميل

الصعلكة . . ويكتب على الأغنية اليتيمة أن تظل أبدا من أغاني الظل ، فالإذاعة تقصر على تقديمها في الفترات الواقعة مثل الصباح الباكر مع تمرينات الصباح ، وربما يعود ذلك لأنها من أداء عبد الحليم شبانة وليس حافظ ، والأغنية كما بقيت على شاشة الذكرى كان مطلعها يقول : بعد عامين التقينا ها هنا . . . . . وتبقى العلاقة بين صلاح وحليم حميمية دافئة لمدة أربع سنوات : كنا لا نكاد نفترق إلا على موعد ، ونشق طريقنا في الحياة جاهدين مجهدين !! . . وتظل بعدها قصة حب سعاد وحليم خلف غلالة من الأستار . . الشفافة حينا والمحكمة غالبا . . ولأن الآخر كان مرهفا ومسافر ليل وخبيرا بالأحزان وشاعرا ، فكان لا بد وأن يكون سحر السنيورة قد مس أبياته ، فقد كانت بحضورها الطاغي رمزا شعريا وتيمة جمالية واستعارة إبداعية ، حتى لقد قال عنها الشاعر محمد الماغوط ؛ ليس في مصر سوى شعر العامية وسعاد حسني ، ولا يستبعد الشاعر الأديب حلمي سالم أن تكون سعاد من خاطبها صلاح عبد الصبور بكلماته :

صـــافـــيـــة أراك يا حـــبـــيـــبـــتي

كـــأنما كـــبـــرت خـــارج الزمن . .

وحـــينمـــا التـــقـــينا يا حـــبـــيـــبـــتي أيقنت أننا

مـــفـــتـــرقـــان

وإنني ســـوف أظل واقـــفـــا بلا مكان

لو لم يعـــدني حـــبك الرقـــيق للطهـــارة

فنعـــرف الحب كـــغـــصني شـــجـــرة

كنجـــمـــتـــين جـــارتين

كـــمـــوجـــتـــين توءمـــين

مـــثل جناحي نورس رقـــيـــق

عـــندئذ لا نـــفـــتـــرق

يـضـــمـــنا مـــعـــا طريق !!

ولكن لم يضمهما معا الطريق ليموت صلاح ويسألون سعاد قبل وفاتها بشهور عن علاقتهما فتقول: «صلاح عبد الصبور كان لي صحبة رائعة وقلبا خالصا نقيا، ومعلما أضاف لي الكثير. . ومن خلاله قرأت وفهمت وعشت بالقرب من الشاعر عندما يهبط عليه الوحي، فازدادت مداركي نحو الأشعار وأصحابها ومعاناتهم. . أما الحب فكان خيال الشاعر، وأنا كنت أذنا صاغية، وكنت الملهمة التي تستمتع بدورها في جمع زهور الإلهام لتقدمها باقات للشاعر الملهم».

فى السادسة صباحا يوم الأحد ١٧ يوليو ١٩٦٦، يمزق الرنين السكون في بيت الشاعر فتهرع إليه الزوجة ـ الثانية والأخيرة ـ سميحة غالب مذيعة البرامج الثقافية في التليفزيون وأم ابنتيه مي ومعتزة. . يأتيها منفعلا صوت يوسف السباعي الذي ولا بد أن حافزه قد أذاقه الأرق طوال ليله: مدام سميحة أرجوك وبسرعة كلمي صلاح أو ابعثي له تلغرافا فورا قولي له ألا يسمع كلام لويس عوض وألا يجري وراء شطحاته. قولي له يوسف بيقول لك الجايزة تأخذها في المسرح وليس في الشعر. . . وتأتي السادسة مساء برنين التليفون. . لويس عوض منفعلا للزوجة الحائرة التي قال لها يوما أنا أخاف على صلاح من الزواج منك! صلاح أمامه رسالة أهم وأكبر بكثير من مسئولية علاقة زواج وأسرة وأطفال. . لماذا لم تتركيه للشيء الأهم: اكتبي لصلاح تلغرافا فورا أو كلميه في التليفون قولي له يسحب مسرحيته من لجنة المسرح. صلاح لازم ياخد الجايزة في الشعر مش في المسرح. القضية الآن هي قضية الشعر الحديث وموقف الدولة منه، وليست مفاضلة بين المسرح والشعر عند صلاح عبد الصبور!

ـ أيوه يا دكتور. . لكن. . ماذا لو لم يأخذها في المسرح؟

يعود لويس عوض ليؤكد أن صلاح عبد الصبور عليه أن يتحمل قدره، فهو قضية وليس فردا، وكان صلاح المرشح وقتها لجائزة الدولة التشجيعية عن مسرحيته «مأساة الحلاج» قد سافر قبل انعقاد جلسات الجوائز إلى أمريكا تلبية لدعوة من جامعة هارفارد لحضور مهرجان ثقافي لأدباء العالم، وفي القاهرة كانت المعركة قائمة في لجان الشعر والمسرح خاصة وأن ألفريد فرج كان مرشحا لجائزة المسرح. .

وحاز صلاح على الجائزة وبعدها بعام على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، وفي عام ١٩٨١، حصل على التقديرية ثم وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى في نفس العام. . وكان العقاد من أبرز المعارضين لمنحه الجائزة التشجيعية منذ البداية خاصة وأنه كان رئيسا للجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب، وهو الذي أحال شعر عبد الصبور إلى (لجنة النثر للاختصاص) حسب تأشيرته الشهيرة، وهو الذي منعه من السفر إلى دمشق للاشتراك في مهرجانها الشعري ما لم يكتب شعرا عموديا حسب المواصفات التقليدية، وكانت لجنة القصة في نفس الوقت قد رفضت منح الجائزة التشجيعية ليوسف إدريس لأن المجموعة التي تقدم بها للمسابقة قد احتوت على سبع كلمات بالعامية. . وتعد واقعة المذكرة السوداء التي أصدرتها لجنة الشعر بالمجلس في زمن العقاد هي المثل البارز على رفض القديم للحداثة، المذكرة التي احتاج الأمر إلى ثلاثين عاما ليعترف زكي نجيب محمود علنا بأنه صاحبها الذي كتبها وصاغ فيها أفكار أعضاء لجنة الشعر برئاسة العقاد، والتي اتهمت جميع شعراء الحداثة من السياب ونازك إلى عبد الصبور وحجازي بأنهم وثنيون كافرون، وهكذا كانت هذه المذكرة أول وثيقة في التكفير المعاصر. . ودائما ما كان العقاد يوجه النقد القاسي لصلاح عبد الصبور متسائلا في أمر أشعاره الحديثة: أهي مجرد شقاوة يا سي عبد ه؟! أيظن سي عبد ه أننا نقلب الأوزان والأسماء التي نميز بها قصائد شعرائنا منذ القدم لأجل هذه الشغلانة التي لا تفلح ومن أجل هذه اللعبة التي لا تسلي. . ويعترف صلاح بأنه كان فرحا مختالا بالجدل الذي دار على صفحات الصحف بينه وبين العقاد: «من أنا في آخر الأمر حتى يسألني سائل ما أخبار المعركة بينك وبين العقاد؟ وكيف أنكر أيام حياتي حين كنت أقرؤه مرتعد القلب والعقل؟».

لقد كنت أتتبع التعليق الذي يكشفه العقاد لخلصائه دون أن يدونه في الأوراق، وكنت أسعد بهذا التعليق الذي اعتبرته وساما كريما قد نلته منه وذلك عندما ذهبوا إليه لعقد مناقشة تليفزيونية له مع أحد شعراء الحداثة والتيار الشعري الجديد وسألوه عمن يختاره لكي ينهض بمناقشته، فاختارني العقاد قائلا: «أريد أن أناقش هذا

الولد، فهو قد قرأ بعض الشيء! فيما يبدو . . هو ليس جاهلا !! وفرحت بالخبر لكن العقاد مات قبل اللقاء».

صاحب النظرات الوسنانة الشاردة الحيرانة التي تشي بأن بينه وبين الكون قضية سينظرها فيما بعد، وأن بينه وبين الكون عتابا لكنه سيأتي فيما بعد، وأنه قد توصل بعد هذا البعد إلى أن العتاب لن يأتي في النهاية بالحل، لذا سيترك الأمر برمته فما بقي لديه من جبال الصبر قد نفد . . أدانه البعض بحزنه نكدي مطالبين بإبعاده عن مدينة المستقبل السعيدة بدعوى أنه أفسد أحلامها وأمانيها بما ينذر من بذور الشك في قدرتها على تجاوز واقعها: «ينسون أن الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعارا للخطر، ولكن الفئران حين تستشعر الخطر تعدو لتلقي بنفسها في البحر هربا من السفينة الغارقة، أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس ويصرخون بملء الفم (النجدة) حتى ينقذوا السفينة أو يغرقوا معها».

ولأنني لست مولعة بإثارة غبار قد استقر منذ سنوات طويلة فلن أنكأ الجراح حول ظروف وفاته الملتبسة التي تضاربت حولها الروايات المتشفية، والحكايات الثأرية والشائعات الجارحة في حضرة الموت ورهبته، ولا أنا مع استطاعة كلمات قليلة في جلسة أصدقاء مهما تكن شدتها الجارحة استثارة الأزمة القلبية التي أودت بحياة صلاح عبد الصبور في ليلة الشاعر الذي تنبأ بمشهد نهايته: «الله لا يحرمني الليل ولا مرارته، وإن أتاني الموت فلأمت محدثا أو سامعا . . أموت . . لا يبكي أحد . . وقد يقال بين صحبي في مجامع المسامرة مجلسه كان هنا . . وقد عبر فيمن عبر . . يرحمه الله».

نحبه لأنه

وأسأل النفس وأسأل الناس في بلادي عن سر حبهم الدائم لعبد الصبور فأجد من لأنه العشرات والمئات، وقوائم لا تحصى من الأسباب . . منها: لأنه: غامر بشعره الحديث في بقاع لم يسمع فيها وقع لقدم عربية من قبل.

لأنه: «القائل بأن الشعر لا يحتاج إلى أمير، وإنما يحتاج إلى خدم يخدمونه

ويخلصون في حبه». لأنه: الذي قال حول غموض الشعراء الجدد: «كل قصيدة لها مدخل أحاول أن أفتش عنه، أقرأ القصيدة للمرة الأولى فإذا لم أفهم شيئا أحاول قراءتها للمرة الثانية، وإذا فشلت فلا أرجع ذلك إلى غبائي ولكن لقصور الشاعر عن إظهار فكرته». . لأنه: كان يرى في التكرار أفظع أنواع (الإفلاس الفني)، وعلى الفنان دائما أن يطوي صفحة ما كتبه ويتأمل داخله، وقد تطول مرحلة التأمل إلى ما شاء الله، فالفن دائما رهان بين الفنان والزمن. . لأنه: عندما هوجم من اليمين واليسار بقي مخلصا للقصيدة يرى فيها أن كلا من اليمين واليسار يريد الفن حصانا هزيلا يركبه نحو غايته، بينما يؤمن هو بالديمقراطية التي لا يؤمن بها الجانبان. . لأنه: وعى منذ بداياته الشعرية أنه لا يوجد ما يسمى بالقصيدة الطويلة، فجوهر القصيدة الحديثة هو التركيز والتكثيف البالغين، لأنه: تشبع بالتراث العربي عبر مختلف حقبه القديمة والمعاصرة، وتثقف واطلع على كل شاردة وواردة في لوحة الشعر الغربي المعاصر، ثم قام بعدها ليخرج بصوت خاص مستقل قدم من خلاله لوحاته الشعرية الراسخة.

لأنه: كتب بلغة الحياة بلا تعال عليها، وبموسيقى أشبه بفوضى أصوات البشر. . لأنه: في تحوله إلى المسرح كان تعبيرا عن تمام النضج واكتمال الخبرة والأدوات إلى جانب الإيمان الذي لا يتزعزع بأن المسرح الشعري هو فن العصر. . لأنه: سأل نفسه وأجاب لنا وله عما سيبقى للتاريخ من هؤلاء طه حسين والعقاد والحكيم والمازني مفرقا بين الأديب الكبير والأديب التاريخ، فالأخير يرتبط اسمه بتغيير جوهري في تاريخ الأدب وينسب هذا التغيير إليه، ويستطيع الأدباء الذين يأتون من بعده أن يستفيدوا من كشفه الأدبي فيسيروا على هداه ويتجاوزوه بعد أن مهد لهم الطريق. . لأنه: تساءل - بابتسام العارف بالجواب الخبيث - عن زيادة عدد النساء الأرامل على عدد الرجال الأرامل، ولماذا تكثر بين الرجال أمراض الانفعال مثل ضغط الدم والجلطات والذبحات الصدرية، وتقل جدا، بل تكاد تنعدم بين النساء !! . . . لأنه الشاعر الوحيد الذي نذكر اسمه غير مسبوق بلقب الشاعر، فأنت حين تقول صلاح عبد الصبور فكأنك قلت الشاعر، وحين تقول الشاعر، فكأنك قلت عبد الصبور. . . ونحبه لأنه. . لأننا خسرناه في لحظة ليس فيها سواه.

صلاح الشاعر قال لنا قبل أن يغادرنا:

انصرفوا يا أبنائي.. دون وداع
وسأبقى وحدي لحظات كي أجمع أوراقي
ثم أزور.... في السجن
وأعود إلى بيتي
كي أنتظر غدا قد يأتي أو لا يأتي
لا.. لا.. دون وداع.. أرجوكم
دون وداع
يا حاج علي
لا تنسى أن تغلق باب المكتب
أن تغلق باب الشقة
أن تغلق باب المبنى
(أن توصد أبواب مدينتنا بالضبة والمفتاح)
هذا زمن لا يصلح أن نكتب فيه، أو نتأمل
أو نتغنى أو حتى.. نوجد
يا حاج علي
أغلق كل الأبواب
أغلق.. أغلق.. أغلق
ستار
تم الإغلاق
وأنزل الستار
وظهرت كلمة النهاية
و..
ولم يزل الغرقى
أحياء في الأعماق
يا عم صلاح..!

أحمد رامي

رامي كلامه السحر

لأن لقبه كان شاعر الشباب، فقد ذهبت للشاعر أحمد رامي وأنا على أعتاب الشباب لأجري معه حوارا صحفيا، ولأن الأستاذ مصطفى أمين كان يجلس إلينا كطلائع في عالم بلاط صاحبة الجلالة يمنحنا خبرته، وينقل لنا وجهة نظره وتجاربه، فقد كانت من أولويات نصائحه أن نقرأ ونعلم ونستفسر وننقب في معالم وجوانب الشخصية التي سنلاقيها من قبل أن نلتقي بها لنستطيع من خلال معلوماتنا المسبقة عنها أن نخرج منها بأدق خفاياها فتجدنا أمامها محاورين، ولسنا فقط ناقلين نتلقى كحملة الحقائب إجابات القوالب السابق تحضيرها. وما زلت أذكر قوله: «لا يمكن أن تسأل الشخصية مثلا عن تاريخ ميلادها، ولا عن عدد أولادها، ولا أين نشأت وترعرعت، فكل تلك الإجابات موجودة مسبقا في سجلات الأرشيف، ومعروفة في دوائر الأصدقاء، ومجرد السؤال عنها مضيعة وهدر من وقت صاحب الشخصية، ومن وقت لقائك بها».

من هذا المنطلق ولعلمي باقتراب مصطفى بك الشديد من دائرة سيدة الغناء - وهو الذي كتب لها فيلم فاطمة - أردت معرفة رأيه فيما إذا كان سؤالي المزمع لرامي عن علاقته بأم كلثوم من قبيل استفسارات الأرشيف، فتوجه بي مصطفى بك إلى شريان آخر في نهر الإجابة قائلا: «لم يكن رامي من رفض الزواج بأم كلثوم، لكنها هي التي رفضت لأنها خارقة الذكاء، حيث أدركت أنها لو وافقت على الزواج به كما تمنى لفقدت شاعرا فياضا بالعاطفة كان بالنسبة لها كنزا يمكن أن يضيع ويتبدد لو تزوجته. كانت تؤمن بأن الحرمان يشعل عواطف الفنان، والشبع يأتيه بالنوم

والكسل والخمول، وبهذا كان رفضها هو السبب الذي أجج عاطفة رامي وعذاباته مما جعله يعبر عن ذلك بأروع وأخلد قصائد وأغاني الحب والحرمان، ولو كان هو الذي رفض الزواج لما استطاع أن يكتب كلمة واحدة مما كتب، إذ أين هي دوافعه وعذاباته، ما دام الرفض جاء من جانبه هو؟ كيف كان يمكنه أن يكتب مثلا: ما بين بعدك وشوقي إليك.. وبين قربك وخوفي عليك دليلي احتار وحيرني.. تغيب عني وليلي يطول.. وفكري في هواك مشغول.. أقول إمته أنا وأنت ها نتقابل مع الأيام.. ولما القرب يجمعنا.. أفكر في زمان بعدك.. وأخاف يرجع يفرقنا.. وأقاسي الوجد من بعدك.. وبين بعدك وشوقي إليك».

وبين قربك وخوفي عليك دليلي احتار وحيرني.. من أين هذه العاطفة الجياشة والحيرة والعذاب الذي يعبر عنه إذا كان رفض الزواج قد جاء منه؟ ومن غير المنطقي أن يكون رفضه خوفا على إلهامه لأن إلهام الشعر ما كان يأتيه إذا كان العذاب والمعاناة أمورا مصطنعة ولسبب منه هو لا لسبب خارج عن إرادته.. من أين له أن يقول مثلا في أغنية أخرى: ياقاسي بص في عيني.. وشوف إيه انكتب فيها.. دي نظرة شوق وحنية.. ودي دمعة بأداريها.. وده خيال بين الأجفان.. فضل معايا الليل كله.. سهرني بين فكر وأشجان.. وفات جوه العين ظله.. وبين شوقي وحرماني.. وحيرتي ويا كتماني.. بدي أشكي لك من نار حبي.. بدي أحكي لك عاللي في قلبي، هل يمكن أن يقول الشاعر هذا الكلام ويعبر عن ذلك العذاب الذي يعانيه ويعاتب حبيبته بكل هذه العاطفة والأشواق إذا كان الرفض جاء من جانبه هو؟

وذهبت قبل المواجهة.. من قبل الحوار مع الشاعر أحمد رامي أدرس تواريخه، وأجمع أحواله، وأسافر على رباعياته، وأتملى بنوره، وأجوب معه القطر المصري على ظهر حمار بشمسية على امتداد ٢٥ سنة، أتعرف على قرى مصر، ومدنها، ونجوعها، وذلك عندما قام بتحقيق ومراجعة وإخراج قاموس البلاد المصرية من أيام الفراعنة إلى اليوم لصاحبه محمد رمزي مفتش المالية الذي كانت مهمته تقدير الضرائب على مستوى القطر، فاتخذ من عمله منطلقا إلى وضع موسوعته الضخمة

وتوفي من قبل طبع الكتاب فاشترته دار الكتب بمبلغ ثلاثمائة جنيه وضعتها في خزانة حديدية مفتاحها مع مدير الدار التي كان يعمل أحمد رامي وكيلا لها من بعد عودته من بعثته العلمية في باريس عام ١٩٢٢ . وحدث أن غاب المدير فكان رامي مديرا بالنيابة وتسلم المفاتيح ليظل أربع سنوات من ١٩٥٠ حتى ١٩٥٤ ، تاريخ خروجه للمعاش يحقق ويراجع ويرتب العمل الضخم الجليل ليخرج به إلى النور . . وأتعجب لزهد رامي في المال الذي لم يتقاض منه مليما واحدا مقابل أشعاره وأغانيه وقوله فيه : «النقود مستديرة علشان تجري بسرعة ، وأروح معاه في انطباع بسمة الوجه والكلمة المرحة ، وحب كل شيء في الحياة حتى الهجران : ولما بعدك عني طال حنِّيت لأيام الهجران ، ولا تشغل البال بماضي الزمان ولا بآتي العيش قبل الأوان . . واغنم من الحاضر لذاته فليس في طبع الليالي الأمان» .

وعدت لمصطفى بك لأبدي له شجاعتي في اختلاف وجهات النظر ، نظره ونظرى بشأن زواج الفنان من حبيبته . . قلت له إنني لمست من عذابات رامي أنها كانت موضة العصر والموروث في الشعر العاطفي في العالم كله ، الحبيب الذليل عندما يبكي عند قدمي حبيبته التي تتأبى عليه اعتزازا بجمالها ورغبة في فرض سلطانها : عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك ، النموذج السائد والقالب الذي يصور الحبيب جمرة من نار شديدة الاشتعال ، ويقدم الحبيبة بوصفها كتلة ثلج لا يذوب ولا يعطف ولا ينعم بالوصال ، والحبيب الغلبان راض بناره ، مستعذب بألمه ، غير قابل لأي نصح من صديق أو عزول ، أو حتى من الحبيب نفسه ، وعدت أتغالب على أستاذي في أن رامي من هذا المنطلق ، أي بأخذه قالب الذل ، كان يتخذه فقط لقول الشعر ليتماشى مع الموضة وإلا لما كتب أغنيات لأسمهان المنافسة لأم كلثوم ، ولليلى مراد الصوت الجميل الواعد ، ولا لمحمد عبد الوهاب المنافس الذي له كل الثقل ليغني ويردد الجميع من ورائه : الميه تروي العطشان وانسى الدنيا وريّح بالك ومشغول بغيري وحبيته ، ومن وجهة النظر هذه تزوج رامي وغنت أم كلثوم للعروس : اللي حبك يا هناه الزوجة التي عاشت معه في التبات والنبات وخلفوا صبيان وبنات ، الدكتور محمد ، والمهندس توحيد ، وإلهام المهندسة . . الزوجة الحبيبة رفيقة مشوار العمر التي جلست تهدهد مولودها البكري محمد لينام

على حجرها مشيرة بأصبع التزام الهدوء لرامي الجالس في محرابها : النوم بيلعب في عينه، فألهمته : النوم يداعب عيون حبيبي، ثم كيف يا مصطفى بك لا يغضب رامي عندما يعلم بمن يحب ثومة ويريد الارتباط بها؟! بل على العكس يكتب قائلا : ولما أشوف حد يحبك يحلالي أجيب سيرتك وياه. لم يجبني مصطفى أمين، بل أحالني لحواري مع رامي . . . . ورحت أقابله في بيته بحدائق القبة، كانت شبكة التجاعيد ترسم ظلالها وأغوارها على وجهه، لكن حيويته الدافقة يدوب لابن الثلاثين، لا والله بل كنا معا، يدوبك على مشارف العشرين.

لكن رغم شبابنا المتبادل كان التهيُّب إزاء محدثي وفي حضرته هو موقفي الخفي والمعلن، وما بدد إطار الرهبة هو عودته أمامي إلى طفل هبط يلهو مع حفيده الذي أتى ليعيش في البيت الكبير لحين عودة أمه الابنة إلهام أو ابنه محمد من بعثة الخارج - على ما أذكر لأمريكا - أصر الحفيد في لعبه على اعتلاء ظهر جده وكانت لقطة العمر التي فزت بها، بعدها بعفوية التجول المرتاح خرجنا معا إلى الشرفة نجلس وحدنا وبيننا كراسات فوق بعضها على الترابيزة، فاستأذنت أن أتصفحها، خطوطها بالقلم الرصاص، الذي وجدت توفيق الحكيم يكتب به ويمسح ويبري القلم، سطور رامي فيها كواجب تلميذ متعثر في الإجابات، لكن كلماتها، وللعجب، ما نردده في الصدور الحالمة، وما نصفق من ورائه بعدما تشدو به سيدة الغناء ومليكة قلب وعقل وقلم وإلهام شاعر الشباب.

سألته . . من كان قد تجاوز وقتها الخامسة والستين عن سر شبابه المتدفق فأتت إجابته قهقهة بروشتة للمستقبل :

- لأني أمارس رياضة المشي كل يوم ساعات.

ولم يكن المشي بعد رياضة، ولا كان كبار القوم يأتون وقتها بالمرسيدسات من باب النادي لحد مدخل التراك ليهبط السائقون يفتحون الباب لذوي الترنجات المستوردة للانضمام صفا مرتفع الهامات يلف الدائرة الخضراء مرات . . فسألت رامي عجبا :

ـ وأين سيارتك؟

وعادت الضحكة المجلجلة تدوي على مشارف إجابته :

ـ منين أجيبها . . الستر ما خرجت به من دنياي .

فعدت أسأله والإطار من حولنا وقتها مظاهر ثورة اجتماعية وصناعية واشتراكية وعمال ومصانع وأراض تنزع من أصحابها بدعوى أنهم إقطاعيون .

ـ لماذا لم يتطور شعرك مع الحركة الثورية فلا نسمعك تتغزل في عاملة مصنع ولا دخان كثيف يخرج من مدخنة متأججة بنار العمل!

أجابني الشاعر الصبور على جنوح من لم تكن تعلم حقيقة الأمور :

ـ الشعر تعبير عما يشعر به الإنسان، والإنسان يستجيب فقط لما تنفعل به النفس، ومن أجل ذلك سماه العرب شعرا لأنهم شعروا به، كل من كتب الشعر يتحدث عن بيئته، ولا يمكن لشاعر مثلا أن يتكلم عن الغزل ولا يحب، أبو فراس الحمداني تكلم في أبياته عن الشجاعة في عالم السيف والنزال لأنه كان محاربا، وأنا هنا في الرد على سؤالك لم أتخصص في الكتابة عن المصانع والمداخن، فلا أقدر أن أقول فيها أشعارا، لقد تخصص فكري وقلمي فقط في الحب .

ـ لكنك كتبت القصيدة السياسية؟

ـ قصيدة وحيدة وأنا تلميذ ثانوي حول الخناقة بين وزير المعارف المصري وقتها سعد زغلول ومستشار وزارة المعارف الإنجليزي دانلوب قلت فيها :

أيا دنلوب كف عن العناد قد هاجت وقد ماجت بلادي

وقد سئمت بسيرك كل نفس أتحسب أن مصر في رقاد

ـ أكثر من مائة وثلاث وأربعين أغنية حب غنتها لك أم كلثوم بدءا من : الصب تفضحه عيونه، من ألحان الشيخ أبو العلا محمد التي كتبتها عام ١٩١٥، وكنت لم تقابلها بعد، وقام السنباطي وحده بتلحين ١٥٠ أغنية منها .

ـ الحب . . كيف تشعر به؟

ـ لا أصفه إلا بعد أن أجربه وألاقيه ويوجعني ويحرق فؤادي.

ـ متى وكيف ولماذا وهل؟

ـ لحظة أن يستجيب قلبي للحب أترجم أحاسيسه بالشعر.

ـ كيف تستمع لكلماتك تشدو بها سيدة الغناء؟! ولم أنتظر له إجابة، فقط أعدت عليه ساردًا كلمات أغنيته النثرية كيف: أستمع إلى.. روحي.

ـ إني أحتشد لسماعها كما أستقبل عيدا من أعياد الدهر، أحب أن أقضي وقتا قبل سماعها وأنا وحدي، لينمحي كل جرس من أذني عدا صوتها المنتظر، ثم أدخل قبل رفع الستار بقليل، حتى إذا رفع الستار ملأت عيني منها في لحظات، ثم تبدأ الآلات تعزف، فأزن مبلغ هشاشتها إلى استماع النغم، ولست أعرف أحدا ممن يغنون يطرب لسماع أول انبجاس الأوتار بالنغم كهذه الشادية، فإنها إذا سمعت رجع الأنغام أصابتها رعشة، ثم تدب بقدميها دبا خفيفا كأنها تنقر بهما على أوتار خفية، ثم تبلع جيدها وترمي بعينيها نظرة سابحة إلى آفاق بعيدة.. حتى إذا خفت النغم، انساب صوتها لينا رقيقا، فكأن الأوتار الصادحة لم تكف عن العزف ثم ينبثق صوتها كما تنبثق الزهرة تحت الندى، ويخرج من فمها كما ينبعث النور من الشرق. ويشتمل رنين هذا الصوت العجيب على قائمة الغناء، حتى كأن جوها مضمخ بعبير من اللحن الساري، وهي في كل هذا تدور بقدميها تحت ثوبها الفضفاض، كأنها تدعك عود الريحان حتى يشتد أريجه. فإذا بلغت القمة في الغناء، سبحت بنظراتها إلى... لا شيء، ونسيت أنها تغني للناس، وكأنها وحيدة مع الشفق في برج فسيح تغرد مع الأطيار.

وكان على لساني سؤالي: هل الصب تفضحه عيونه؟ لكني بعدما انتظرت تعليقا منه على ما قرأته له من كلماته اكتفيت ببلاغة صمته، ربما لذكرى داعبت خياله عندما غنت أم كلثوم له وحده في مركب برأس البر، أو عندما قدم لها أغنية جددت حبك ليه خلال استراحة بين وصلتين فقالت له بعد قراءتها: إيدك يا رامي، ولما رفض أن يعطيها لها جذبتها وقبلتها قائلة: إنني أقبل اليد التي كتبت هذا الكلام.

ـ هل لديك شيطان للشعر يزورك كلما تراءى له؟

ـ هناك حالة غير طبيعية تلبسني عندما أسكن لكتابة الشعر، لكني أبدا لا أنسبها لشيطان، بل إلى ملاك حارس يوحي إليّ بفقرات وأبيات فيما يشبه البرق الخاطف أو الخطرات، ولو كانت تلك الخطرات لا تومض كالشهب وتختفي على الفور لقبضت عليها وزرعتها على طرف قلمي. ذات مرة سألني ابني: ما لك يابابا؟! وقتها كنت سارحا فيما يشبه الغيبوبة أو الغيب التام عن الوعي، ومرة قالت لي أمي حزينة وهي تشاهدني أتمرغ على أرضية الغرفة دون وعي مني: يارب يا ابني يتوب عليك من الشعر وسنينه! ـ وحبست لساني حتى لا أنقل له قول أمي أنا نقلا عن جار لبيتهم وهو شاب من أنه كان عندما يبحث عن مكان هادئ مظلم كرحم الأم ليستقبل وحي أشعاره لا يجد سوى تحت السرير ليمكث ساعات طوال ـ وفي تاريخه أنه كان وهو طالب يقف في مناحات خمسان الموتى ليسمع نظم المعددين على الراحلين ويبكي، وكان يهيم وراء البائعين المتغنين في الشوارع والحارات، لدرجة أنه قد مشى يوما وراء عربة جميز من بيته في حي السيدة لبولاق.

ـ لحظة الإلهام؟

ـ لا أكتب في النور المباشر ولا أنظم إلا إذا سمعت الموسيقى أو الغناء، فإذا ما نظمت أترنم بالأبيات، وإذا قمت بتأليف أغنية أظل أتقلب شمالا ويمينا أرددها حتى أنتهي منها، وفي ذاك ربما غرابة، لكنها الغرابة التي كانت لدى بعض الشعراء، فمثلا الشاعر الإنجليزي كيتس كان يطلي فمه من الداخل بالفلفل الحامي وهو يكتب قصائده، والشاعر دانزيو كان يهرع إلى لبس الحرير إذا ما أتاه ملاك الشعر.

ـ وأين يأتيك؟

ـ أفضل قصائدي نظمتها في الترمواي، أو على شط النيل، لأني ساعتها أغنيها بصوت عال ولا أريد أن ينصت لي أي أحد، وعجل الترمواي والهيصة يبددان صوتي، وعلى شط النيل الهدوء الذي ليس فيه مخلوق غيري أخجل من أن يراني ماشيًا أغني ـ هذا الهدوء المفتقد كان في أوائل الستينيات ـ خلوتي في غمرة الناس

وأنا أشعر أنني لست معهم وإن كنت بينهم، وخلوتي مع نفسي وأنا بين أحضان الطبيعة.

سألته عن لقائه بشوقي وحافظ إبراهيم وناجي ثلاثية عباقرة شعر الفصحى فوجدته قد لاقى أمير الشعراء مرات ومرات، أولاها في باريس عام ١٩٢٢ . وفي عام ١٩٢٤ التقيا عن طريق الغناء، فقدم شوقي بلبل حيران وفي الليل لما خلي وقدم رامي إن كنت أسامح وأنسى الأسية وأخذت صوتك من روحي، والتقيا في المسرح إذ قدم شوقي مجنون ليلى ورامي غرام الشعراء، ومثلت المسرحيتين فاطمة رشدي، وكان رامي يؤثر من قصائد شاعر النيل حافظ إبراهيم «ولا تلم كفي إذ السيف نبا»، وكتب شوقي مقدمة شعرية وضعها رامي على صدر ديوانه جاء فيها:

يا راميا من الكلام يعيبه لك منزع في السهل ليس يرام
خذ في مراميك المدى بعد المدى إن الشباب وراءه الأيام

وقال لي أحمد رامي في لقاء عمري معه: «إنه لم يقدم على الزواج إلا بعد أن استشار أحمد شوقي بك الذي شجعه بقوله: تزوج لترى خلق الله في خلقك، وكان يعني أن أصبح أبا وأرى نفسي في أولادي».

وبعد وفاة الشاعر إبراهيم ناجي قام رامي بجمع قصاصاته وأوراقه المبعثرة ليخرج منها ديوانا جديدا له انتقى منه لأ كلثوم قصيدة الأطلال ليلحنها السنباطي.

وعدت بهيافة شطط السؤال: يقال إن أم كلثوم تشرب الطحينة حتى تجلو حنجرتها قبل الغناء؟

- أجابني من اعتاد الأرجحة يمينا وشمالا - وإن كان ذلك في عالم القصيد والغناء: من جوانب الطرافة في شخصيتها أن تعودت طلب فنجان القهوة الذي تتركه يبرد ثم تشربه قبل الغناء مباشرة باردا كالماء، فهل هذا هو السر في حلاوة صوتها. . الله أعلم؟!!

طرت إلى مصطفى أمين أحمل لأستذته ما أخذته من رامي وعنه. . وعلى الفور قام بنشر التحقيق في صدر الصحيفة مدعما باللقطة الفريدة للجد رامي الذي يمتطيه

حفيده... شاعر الشباب الذي غزاه المشيب والوهن وجفت ينابيع إلهامه بعد نكسة ١٩٦٧ . وبعد ما طار حمام البرج الذي كان يربيه في منزله عندما أطلقه في جولة ساعة العصاري.. طار ولم يعد إلى برجه، وأتت الكارثة الكبرى برحيل ملهمة القصائد والأغاني التي كان يهديها روائعه ويكتفي فقط بسماعها منها... عاش بعد رحيل أم كلثوم ست سنوات لم يكن راغبا في أن يعيشها:

«عشت أسمعها تشدو فتطربني واليوم أسمعها فأبكي وأبكيها».

صلاح جاهين.. كتيبة الإبداع

أصبح من العبث وذهاب أي مجهود سدى البحث في جرائدنا الغفيرة الأميرة والمريرة عن نكتة حراقة مؤثرة فيها من العمق جانب، وفيها من الضحك النبيل جانب، وفيها ما فيها من التعرية والتورية والهمزة واللمزة وبدون تعليق، وفيها خطّان يلخصان موقف جيل من جيل، وبساطة عبارة تغني عن جهبذة خطبة مؤتمر عصماء، ونكتة على طرف عمود خلاصة رغي مضبطة لجنة منبثقة من لجنة، وفيها شخصيات تدخل في نسيج الشعب ووجدانه كما تغلغلت شخصيات صلاح جاهين الكاريكاتيرية؛ التي كانت لسان حال البسطاء من الموظف للخادمة للبائع والعامل وفي قهوة النشاط ومع رجعشلي باشا ودرش والفهامة وقيس وليلى... إلخ لماذا صلاح الآن؟!.. لماذا اندحرت حالة التزاوج ما بين الكاريكاتير والشعر في صور كاريكاتورية كان العبقري قادرا فيها على التحليل وتحريك الأشياء بريشته قبل خياله وقلمه مثلما قال في قصيدته بعنوان عيون البقر:

يا حـــلاوة عـــيـــون الـبـــقـــر
شـــعـــرا شـــبـــهـــوا عـــيـــون حـــريمـــهم بهـــا
وأنا شـــاعـــر وله واحـــدة بيـــحـــبـــهـــا
إنمـــا يـــســـتـــحـــيـــل
ســـيـــبنا من الـشـــعـــرا
إحـــنـــا نـــاس فـــقـــرا
واللي يعـــشق فـــتـــاة فـــيـــهـــا من البـــقـــرة
يـبـــقـى لا مـــؤاخـــذة تـــور

أتذكره مع مانشتات أحوال إيران وفي كل ما يحدث الآن في العراق من آلام جرحى وجراح طائفية في الرواية الأمريكانية:

في الرواية الأمريكانية: العصابة
تقتل اللي تخاف ليفتن للنيابة
الزعيم يأمر بسحبه جوه غابة
والرصاص يعمل عزومة للديابة
أصله كان يعرف حاجات فوق اللزوم
والقتيل عمره ما ينطق أو يقوم
والعصابة الأمريكية العالمية
مش بتسرق مية ولا خمسمية
لا دي بتقشط شعوب م الإنسانية
والسلاح ذرة وقنابل ميكروبية

يحضرني جاهين بكثافة هذه الأيام التي وصلت فيها عبثية الحياة الصحفية إلى ذروتها ليغدو الشعور مستنفرا محموما بلون الدم و:

على رجلي دم.. نظرت إليه ما احتملت
على إيدي دم.. سألت.. ليه؟! لم وصلت
على كتفي دم.. وحتى على راسي دم
أنا كلي دم.. قتلت ولا انقتلت؟!

لماذا صلاح الآن؟!.. أتذكره في تخلي الكاتب الساخر أحمد رجب عن مقعد السيادة الكاريكاتورية بعد عطاء أربعين عاما حفاظا على كرامته.. يحضرني فن صلاح جاهين الكاريكاتيري المؤثر لدرجة إحداثه أزمات سياسية عديدة كان من أبرزها اختلافه في الرأي مع فضيلة الشيخ الغزالي بالكاريكاتير عند مناقشة مشروع الميثاق عام ١٩٦٢، فاستبيح دمه ووصلت المظاهرات ضده أمام مبنى الأهرام مطالبة بالقصاص، ولولا تدخل الأستاذ محمد حسنين هيكل وقتها لحدث ما لا تحمد

عقباه . . صورته الآن على شاشة عقلي مع غليان نقابة الصحفيين مطالبة بتنفيذ الوعد بقانون يجرم حبس الصحفيين .

أتذكره عندما كان رسمه مؤشرا لدرجة تقديمه للتحقيق أمام مكتب المدعي العام الاشتراكي الدكتور مصطفى أبوزيد فهمي بسبب كاريكاتير انتقد فيه تقريرا حول نتيجة التحقيق في شأن تلوث مياه القاهرة، وحدثت وقتها أزمة طاحنة بين الصحافة والمدعي العام الاشتراكي . . أتذكر عبارة صلاح جاهين الشهيرة في عام ١٩٦٧ : «أنا حاسس إن مخي حيطرقع كل ما افتكر اللي حصل للبلد!!» . . أتذكره عندما قامت الأجهزة بالوشاية به لاعتقاله فرد عليها ساخرا بقوله :

أنا قلبي كـان شـخـشـيـخـة أصـبح جـرس
جلجلت بيـه، صـحـيـوا الخـدم والحـرس
أنا المهـرج، قـمـتـوا ليـه، خـفـتـوا ليـه؟!
لاف إيدي سـيـف ولا تحت مني فـرس

صلاح لي معه حواديت . . في مرة زمان دخلت عليه حجرة مكتبه في بيته كان غضبان . . مالك يا صلوحتي؟! . . البرطمة زادت، وكان عليك إذا ما كنت من المقربين إليه ودرست طبعه ولمست قدر ما ترسم ريشة المشاعر بداخله انفعالتها على الخارج إن صلاح الصريح بلا زيف . . صلاح الفيض . . فيض الكريم . . عندما يهبط بشنبر النظارة لينزلق إلى تحت ويبص لك من فوقه وتتداخل الشفة السفلى مع العلوية لتبرز الذقن المسمسمة للأمام فيتضخم من تحتها اللغد مع كتمة الأنفاس . . تعرف إن صلاح زعلان : تصوري . تخيلي . . إني بعد ما زهقت من اللف والدوران والبحث عن جلبابي المريح ألقاه لم يزل منشورا على حبل الغسيل!!

ولأني وجدت وراء الأكمة ما وراءها تركت شعري لسامية أمورته الصغيرة تسرحه شخابيط، ورددت عليه مدعية عدم التوقف عند البدهيات : «شيء طبيعي إن الهدوم تنغسل وتنعصر وتتنشر . . زعلان ليه؟! . . تخيلي تصوري إني لقيت بداخل الكم عش عصافير . . عدت أرد على البدهيات : عصافير يا سلام خير اللهم اجعله فال خير . . لا خير ولا . . ده إهمال من من مراتي تنسى تشيل جلابيتي من

على الحبل لغاية ما تعشش فيها العصافير؟!!» . . هنا لمست حساسية المشكلة المنزلية ودعيت في سري ألا أكون قد نسيت أنا الأخرى غسيلي فوق الحبال خاصة وأنني أسكن الدور الأول وليس الخامس مثل جاهين في المهندسين، أي أن بيجامة كنعان قد تختفي نهائيا بفعل فاعل ينط على السور المقابل، وقد فعلها مرات. . اندفعت أدافع عن الزوجة «منى قطان» وأدفع في مرافعتي بأننا كلنا عرضة للغزو الخارجي والهجوم السريع في تلك الضاحية النائية الهادئة مرتع الحمام والعصافير حتى إن ماسورة السخان في حمامي بالأمس فقط التي لم أكد أستخدمها قبلها بساعة إلا وقد فوجئت بداخلها بزوج حمام ساكن في عشه وأنثاه راقدة على البيض في انتظار الفقس، أي أنه لم يمر ما بين استخدام الماسورة لطرد البخار الساخن وتحويلها لمستشفى وسرير ولادة سوى ساعتين فقط. . ووالله يا صلاح. . . منى مش غلطانة. . كفاية عليّ منى يا حبيبتي إنها واقفة على حيلها لخدمة فنان زيك، ولأنني كنت أيضا في المقابل تاركة في بيتي زوجًا فنانًا وجدتها فرصة للتنفيس لما لا أستطيع أن أنبس ببنت شفة به هناك، واقتنع صلاح خاصة بعدما أشرت بقصد وكأنه بدون قصد إلى حكاية سرعة بناء عش الحمام في مدخل غار حراء، وقعدنا نشتغل في مسلسل هو وهي الذي اخترنا حلقاته من بين القصص التي كنت أكتبها في الأهرام وقدر لها أن يكون بطلاها سعاد حسني وأحمد زكي مع باقة من المحال أن تجتمع في عمل درامي مرة أخرى فقد كان من بينها كمال الطويل وعمار الشريعي ويحيى العلمي وأبوبكر عزت وتحية كاريوكا وحسن عابدين. . ورروحت بيتنا أنام أنا وصلاح نهاره ليل وليله نهار.

وفي وسط الليل والسكون يغلف الإطار والنوم يقارب الإغماء انشرخ الصمت برنين طويل في الصالة بعيد، أيام لم يكن فيها هناك سماعة لاسلكي تأخذها مطرح ما تروح، ولا موبايل تخرس صوته وتتركه يرعش وحده تحت المخدة يصحيك بدغدغة. . قمت ألطش لحظات فيها التفكير مشلول مع الشعور بعدم الحضور كلية ولا أين القدم من الرأس. . قمت للتليفون وأنا لم أزل مبعثرة على مسرح الأحلام العبثية التي تحيي الأموات وتقصف عمر الأحياء وتجعل من العدو أعز حبيب

والجبان صنديد. . يأتيني صوته: سناء. . أيوه يا صلاح. . إنت نايمة؟!. . معقولة أنام دلوقت دي الساعة لسه تلاتة صباحا!!

معقولة يركبني الكسل والفجر لسه ماشقشقشي؟!. . أنام دلوقت وصلاح جاهين سهران بيوزع كلامي سيناريو. . سهرانة طبعا وهو ربنا مش جعل الليل قياما والنهار نياما. . . اتفضل. . تحت أمرك؟! سناء عايز أسألك حقيقي إنت لما بتحبي تدلعي وتتدللي على جوزك بتقولي له إيه؟!. . حاولت أنسى إني في بيتنا خاصمت الدلال وأيضا الدلع من بعد ما ركزت ـ من غبائي ـ كل اهتمامي على ابني؛ من اعتبرته معجزة عمري. . عدت للخلف للوراء. . عدت لصلاح أقول له: لما أحب أدلع على جوزي أقول له قوم هات لي شيكولاتة. . وتغني سعاد حسني من كلمات صلاح جاهين بعدها: قوم هات لي شيكولاتة يا بلاش يا وله، قوم رجع البطاطا يا بلاش يا وله. . الشيكولاتة ساحت راحت مطرح ما راحت.

صلاح من كان يعلق في صالة بيته صورة ضخمة لنيللي التي كان يكتب لها الفوازير. ويوم ما دخلت علينا سعاد في بداية المسلسل نظرت بطرف العين للحيط فهم صلاح الرسالة، وذهبنا في اليوم التالي نكمل ما بدأنا فيه لقيت صورة سعاد ع الحيط وصورة نيللي اختفت.

وعلى فكرة إياكم من الظن بأن القعدة في مكتب واحد مع فنان وعبقري يوصف خارجيا بأنه مفجر المرح أو باعث الضحكة للقلب الحزين إنها تبقى قعدة آخر أنس تحسد عليها والملايين يتمنونها بدلا منك. . لا والله. . ليس الجلوس الطويل الممتد مع هؤلاء الصفوة والندرة حدوتة سعادة ولا هي لحظات ممتدة من القهقهة والفرفشة والفشة العايمة والصهللة. . لا. . والله. . فقد زاملت في مكتب واحد أيام العمل في أخبار اليوم وبعدها في الأهرام الكاتب الساخر محمد عفيفي، وأكاديمية مرح الكلمة والقصيدة والكاريكاتير صلاح جاهين، وصاحب العبارة الساخرة المندسة في توليفة الجدية الكاتب أحمد بهجت. . زاملتهم ساعات وأياما وشهورا وسنين فلم أضحك كثيرا، ولم يكن الزمان معهم يمضي في أنس ولا مرح، اللهم إلا سويعات خارج تجهمهم كمثل ما كان يرويه لي عفيفي عن جلسة الحرافيش،

وعندما كان جاهين يقوم فجأة تعتريه نوبة رقص الباليه، ولما كان أحمد بهجت يسرد الأفعال الذكية لكلبه في البيت معه . . . من هموم جاهين كان سؤاله اللحوح لي بعد زيارات المعجبات إذا ما كانت الواحدة منهن حقيقي حقيقي لديها عواطف صادقة تجاهه، فكنت أسهب بأغلظ الأيمان وسرد البراهين عن مدى ملاحظاتي حول اهتمام الأولى به، وتنافس الثانية عليه، وكيف أن الثالثة حريصة على إرضائه بإحضار الساندوتشات المغرية له كي لا يشعر بالجوع إذا ما طال به وقت العمل . . بعدها كانت دندنة الجميل بصوت كأن بداخله ميكروفونًا مكتومًا لكنه منضبط بعدما جربوا في سماعته آلوووه آلوووه واحد اتنين تلاتة :

حـــــــــضـنـت عـــــــــــودي بـاغـنـي
عـــــود الحـــــبـــــيـــــبـــــة فـــتـني
أغـــنـي غـنـوة حـــــــــــــــزيـنـة
والا تـبـــــــــــعـــــــــدهـا عـنـي

لكن على الدوام كانت هناك مسحة حزن دفينة تسكن صلاح جاهين. تسكن نظراته وما يعبر عنه فنان رقيق شديد الحساسية في بحث متلهف عن مأوى دافئ للنفس، وذعر من الحياة التي يعانيها المبدع وسط عالم صاخب مليء بالضجيج لا يعبأ بمشاعر تبحث عن التجاوب :

خـــبـــيـني في شـــعـــــورك يا بت
أحـــسن عـــروقي اتخـــشـــبت
شـــعـــرك خـــشن زي الحـــرام الصـــوف يا بت
خـــبـــيـني فـــيـــه م الزمـــهـــرير
ونـيـــمـــيـني ف الســــــرير

سوسن زكي حب صلاح جاهين الأول . . زوجته أم ابنه الشاعر بهاء جاهين وابنته أمينة زوجة الشاعر أمين فؤاد حداد، من التقاها في بداية عملها رسامة في دار الهلال . . كان اللقاء صدفة لكنه شغل القلب، بعدها فر صلاح للعمل في السعودية سنة كاملة عاد بعدها متعبا لا يلائمه العمل هناك، ودوغري تقدم لطلب

يدها، وفي حفل الخطوبة ما بين الناس كان صلاح خجلان حتى ظنه المدعوون ثقيل الظل، وفجأة وبدون مقدمات استبد الفرح بالعريس فقام من على الكرسي يضرب شقلباظًا فوق سجادة الأرض ليفجر الضحكات.

وتم الزواج وانقضى شهر العسل في ثلاثة أيام نزل العريس بعدها لشغله لأن مجلة صباح الخير وقتها كانت في بداية صدورها، ويبدو أن الرقص كان لازمة مع أفراح جاهين، فعندما علم بأن أول مولود له جاء ولدًا رقص في ردهات المستشفى وسماه بهاء على اسم الصديق المكتشف أحمد بهاء الدين، ولما كان صلاح يخلص شغله يرقص ويتنطط في البيت ويقول لسوسن شعرا يسكنه الشجن:

ليـــه يا حـــبـــيـــبـــتي مـــا بيننا دايمـــا ســـفـــر
ده البـــعـــد ذنب كـــبـــيـــر لا يغـــتـــفـــر
ليـــه يا حـــبـــيـــبـــتي مـــا بيننا دايمـــا بحـــور
أعـــدي بحـــر ألاقي غـــيـــره اتحـــفـــر

لكنه كان عند الكتابة أو الرسم يغدو عصبيا حاد المزاج رافضا أي صوت يسمعه، فكانت سوسن تأخذ أولادها بعيدا في غرفة تقفلها عليهم حتى لا يخرج للفنان أي صوت. . وكان صلاح واضحا منذ البداية مع سوسن لكنه الوضوح القاسي الذي يدك صلابة الجبال. . من سذاجته همس لسوسن حبيبته في شهر العسل. . قال لها لما حاعرف واحدة ثانية حقولك. . وقال لها بالفعل وإن كانت آذان استشعارها كزوجة شعرت به قبل ما يقول لها. . هنا قررت الهجر سوسن، وأخذت أولادها معها لأحضان والد صلاح وأمه. . وأبدا لم تنقطع بينهما الأواصر، فالانفصال لم يؤثر على علاقتهما ولا على تورتة عيد ميلادها كل عام يتمنى فوقها صلاح بكارت مرسوم سنة طيبة يا سوسن، وعاد المأذون في عام ١٩٧٦، ليوصل ما انقطع، لكنها عودة فقط على الورق لتظل سوسن تحتفظ في حجرة نومها بملابس صلاح ونظارته وساعته ومنديل يده وفوطة وجهه الخاصة، وترفض قراءة أي سطر كتب في رثائه، فصلاح في أعماقها ما زال حيا. . وصلاح لما عشق زوجته الثانية أم سامية. . عندما أحب منى قطان كتب لها على أول نسخة من كتبه إهداء معبرا عن عواطفه تجاهها: «منى . . أول كتاب أهديه. . أهديه لمين غيرك وأنت نغم قوافيه».

ويمنحنا صلاح جاهين أغانيه العاطفية لترددها أجمل أصوات الحب في ثلاثية العشق . . تغني نجاة بان على حبه، وتشدو صباح أنا هنا يا ابن الحلال، وتغرد فايزة ياما قلبي قاللي لأ، ورغم هذا الزخم العاطفي في القلم والقلب يردد صلاح: وأنا ليه بيمضي ربيع وييجي ربيع، ولسه برضك قلبي حتة خشب؟!! ويحكي عن الحب الجياش الذي يحسد فيه حرية أفعال لا يقدم عليها البشر . . حرية خنفسة وجعران:

حدوتة عن جعران وعن خنفسة

اتقابلوا حبو بعض ساعة مسا

لا قال لهم حد اختشوا عيب، حرام

ولا حد قال دي علاقة متدنسة

ويظل أبدا صلاح في وجدان أبناء الفن وأصحابه . . كل واحد له حكاية مع صلاح . . أحمد زكي لما سمع بموت صلاح قاده الزعل للجري صارخا في الطرقات حتى أصيب بقرحة شديدة في المعدة لم تشفها سوى الجراحة، وحكاية شريف منير عازف البرامز الذي اكتشف فيه صلاح ممثلا عظيما من نوع جديد فخلع عليه عباءة التبني، وروى لنا هبة عنايت عندما كانا زملاء في كلية الفنون واستمعا مرة إلى صوت أسمهان تغني: دخلت مرة في جنينة أشم ريحة الزهور .

فعلق صلاح قائلا: «ريحة الزهور ممكن نشمها من غير دخول الجنينة، ثم إن أي واحد ممكن يدخل جنينة، يعني مافيهاش شطارة! . . قلت: طيب قول لي عاوزها تقول إيه علشان يبقى فيها شطارة؟! فسكت برهة وقال: دخلت مرة ف قزازة أشم ريحة الكازوزة، قالوا حلوة بلزازة لقيتها حلوة بلزوزة. . كده يبقى ليها طعم وريحة كمان . . ها ها!» .

جاهين كان يتيه فخرا بأصله ونسبه . . كتب والده بدقة القاضي في مذكراته أن النجل صلاح ولد بالمنزل رقم ١٢ بشبرا مصر الساعة السادسة من مساء يوم الخميس الموافق ٥ من شهر شعبان ١٣٤٩ هـ، ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠ م، ١٩ كيهك ١٦٧٤ قبطية . . يستدير صلاح في كرسي مكتبه المقابل لي يشير من النافذة بأن

في الشارع القريب هناك من أخبار اليوم بعد المحكمة بشوية قرب محطة مصر موقف أحمد حلمي . . جده . . الكاتب السياسي في جريدة اللواء مع الزعيم مصطفى كامل ، وعندهم في البيت صورة للزعيم ذاته مكتوب عليها إهداء بخط يده ، وكان البوليس يقبض على جده من أجل مبادئه ، وللجد كان تمثال لحد قريب في مدخل نقابة الصحفيين . . صلاح ابن القاضي الذي رفض والده أن يعمل بالفن ، لكن من المفارقات الغريبة بعدها عندما عين رئيسا لمحكمة الاستئناف العليا وذهب ليؤدى اليمين الدستورية أمام عبد الناصر همس وزير العدل في أذن الرئيس بأنه والد الشاعر صلاح جاهين فانبسطت أسارير عبد الناصر وعاود من جديد مصافحة الرجل بكلتا يديه وبحرارة شديدة ، ومن النادر أن يحدث هذا من عبد الناصر ! فلما عاد الأب إلى المنزل قال لابنه صلاح وكان في غاية السعادة : «يا ابن الإيه معقولة أن يصل الأمر أن أعرف بك» . ومات الأب ليرثي صلاح أباه بقوله : «وقفت أنا ع الشط أنده عليك لقيت عبايتك ع الرمال . . نفضتها . . ولبستها ومشيت ما بين الرجال . . . وأنا كنت شيء وصبحت شيء ، شوف ربنا قادر على كل شيء . . هز الشجر شواشيه ووشوشني قال : لا بد ما يموت شيء عشان يحيا شيء» .

فى الثالثة تعلم صلاح القراءة والكتابة بعدما استقالت والدته من عملها مدرسة لتتفرغ له ، لكنه قال بعدها إنها من هنا جنت عليه من حيث لا تعلم ، فالطفل في داخله ظل حبيسا لا يجد منفذا حتى إنه بعد التوجيهية ثار وهرب من الدراسة ودخل غصبا عنه الحقوق نزولا على رغبة والده ، وقبل ما يتخرج فيها بسنة تركها وخرج ، ومثلها كلية الفنون الجميلة قعد فيها سنتين لا غير : «كان عمري ٤ سنين وأحمل فوق عنقي دماغا ضخما كأنه دماغ رجل ، وأذكر أن أبي كان قاضيا في ملوي وسافرت مع ماما ممددا على كنبة في ديوان القطار ، وقد غطتني ببطانية ثقيلة حتى لم يعد ظاهرا مني سوى دماغي وأطراف أصابعي التي تمسك بمجلة روز اليوسف أقرأ فيها ، وجاء الكمساري تذاكر ، فأعطته ماما التذكرة فأشار ناحيتي وكأنه ضبطها متلبسة : والأستاذ تذكرته فين؟! . . ولم يقتنع الكمساري إلا بعد ما كشفت الوالدة الغطاء ليكتشف أنني عود كبريت في آخره بطيخة . . لم أكن سمينا

وقتها حتى سن البلوغ لكني بعدما قمت من التيفود جلداً على عضم شعرت إني جعان جوع القملة في رأس أصلع، نزلت على الأكل هتتك بتتك حتى وصل وزني إلى ١٣٦ كيلو جرامًا وكل ما أخجل من مظهري أطلع همي في الأكل». وتظل سنوات الطفولة محفورة في مخيلة الجميل والبسيط والعميق والبدين ببدانة ليست بدانة الشحم واللحم، لكنها بدانة الموهبة.. صورة كاريكاتورية رسمها صلوحة من زمن طفولته بعنوان طرزان يحكي فيها عن يوم الخميس في السينما عندما كان يجلس مستمتعا ليشاهد فيلم طرزان مع قرطاس اللب وأحداث الفيلم:

طرزان بيصرخ: عاعاعاه

خنق الأسد

صرخت أنا كمان وراه

ولما قال لشيتا: يا أمه زغرطي

وحط رجله على التعيس فوق التراب

حطيت معاه رجلي بدون جزمة وشراب

ورسمت بعيون الخيال بدل الأسد

محمود أفندي حسين مدرس الحساب!

مصطفى كامل، ومحمد فريد، وجدي أحمد حلمي، كان امتدادهم عندي عبد الناصر الذي أصبح لي هو أبويا وجدي وهو مصطفى كامل وهو محمد فريد.. عبد الناصر علمني مشية الرجال، سلمني راية النضال، وفضل ليومنا هذا بيلهمني وكل ما أقع يقومني.. وأبدا لم تكن العلاقة ما بين جاهين وثورة يوليو وقائدها علاقة العبد بالسيد أو التابع للمتبوع، كما أنها يقينا لم تكن علاقة الأرزقي بالسبوبة، لكنها كانت ولاء خالصا للوطن وللجماهير.

وقف جمال يسأله كما كان بيسأل زمان السلطان الشاطر حسن شبيك لبيك تطلب إيه؟!.. سأله جمال بعد ما منحه وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى: «إنت عمرك ما طلبت مني حاجة يا صلاح نفسك في إيه أحققه لك؟!

نفسي يا ريس في مسرح أكون أنا مسئولاً عنه أعيد عليه أمجاد المسرح الغنائي والاستعراضي . . حاجة كده زي مسرح بريخيت» . ووعد ناصر بتحقيق الحلم لكن سرعان ما حلت النكسة وضاع الحلم والوعد . . النكسة التي وظفها مصطفى أمين في عبارته اللاذعة عن صلاح جاهين مقسما حياته لمرحلتين : مرحلة فيها كان مخدوعا بالبلاغات الرسمية الكاذبة التي صدقها ، ومرحلة ثانية كان فيها جاهين مكتئبا من مرحلته الأولى . . وكتب صلاح رباعية ترفض التعالي والكبر وتعترف بأن كل ابن آدم أصله من طين ، وللطين مصيره مهما يرتفع :

يا طيـــر يا عـــالي في الســمـــا طظ فـــيك
مـــا تفــــتكرش ربنا مـــــصطفـــيك
برضك بتــــاكل دود وللطين تعــــود
تمص فــــيـــه يا حلو . . ويمص فـــيك

ومن بعدما نجح في إنقاص وزنه من ١٢٥ كيلو جرامًا إلى ٧٠ كيلو جرامًا نظر في المرآة بحسرة وقال : «جزء من نفسي عزيز عليّ راح . . فقدت نصفي . . فقدت نصف جاهين» . في اكتئابه ونظرته للموت وحد صلاح ما بين الصفوف وشجب شرخ الطائفية في جبين الوطن :

الكل مـــصـــريين . . الكل نفس الهـــوية
نعي المطارنة جنب نعي الشـــيـــوخ
فـــي وحــــــــــــدة أبـــديـــة
مـا تعرف الطايفة المسيحية م الإسلامية
تشـــهـــد صـــورهم جنب بعـــضـــيـــهم
بـــأن دي هـــيـــــــــا ديـــا

ومات صلاح . . مات زي ما كتف الجبل ينهدّ . . مات باقتدار وفن . . ما قالش لحد ! !

حسين السيد

السهل الممتنع

طول بعرض بجمال تركي أصوله من اسطنبول يفوق الوصف في جميع حنايا الجسم والصورة . . ابن ذوات . . من نوعية الفتى الأول الوسيم الذي يهل بطلعته المشرقة وطلته الرشيقة المديدة الأنيقة على المكان فتسر الأعين وتنشرح الصدور وتبسمل الشفاة لبديع عطاء الرحمن لساحة الإنسان ، وتدعو للأب الذي زرع والأم التي طرحت . . قطعية من رجالات عصر كادت تنقرض إلا فيما ندر ، أمثال رشدي أباظة وكمال الشناوى وأنور وجدي . . عكست له المرآة صورته فانطلق راضيا لاختبار النجوم ، متأكدا من أن النجاح لا بد أن يكون حليفه في عالم التمثيل ، لكن حسين السيد كان تفوقه في عالم الفن على الجانب الآخر في الشعر وليس في التمثيل ، لتظل كلماته في أكثر من ألف أغنية على مدى أربعين عاما رددتها أجمل حناجر الغناء في مصر والعالم العربى تسكننا ، تعيش فينا ، نتنفسها ، نرددها حتى غدونا من شدة الالتصاق بها نظن وكأننا قائلوها ، وأن ليس هناك شاعر عملاق تفاعل فاندمج فتأجج فكتبها قصائد نواكب بها أفراحنا وأشجاننا ومشاعرنا العاطفية والوطنية وأواصر روابطنا العائلية ، وها نحن هذه الأيام جميعنا ننهل من عطائه عندما أحال حبه لأمه إلى كورال جماعي مصري نسجه على أرض النيل ، تراث الماضي ومشاعر الحاضر وتعاليم الأديان ، فتحتفل بالأم التي وضعها حسين السيد في إطارها الحميم المقدس : ست الحبايب يا حبيبة يا حنيِّنة وكلك طيبة يا رب يخليكي يا أمي .

رغم أنها ٦٣ عاما لا غير ، تلك الفترة التي عاشها حسين محمد السيد من ١٥

مارس ١٩٢٠، حتى رحيله في ٢٧ فبراير ١٩٨٣، إثر إصابته بأزمة قلبية فسقطت رأسه فوق الأوراق وبين أصابعه قلمه التركواز الأخضر.. رغم شهاب وجوده بيننا ورسوخ ما ترك لنا، فإن ما بين مولده ورحيله عوالم لا نهاية لها، عجزت عن الإلمام بجوانبها وتضاريسها وحدودها في خضم أحاسيسها ومشاعرها، فلم يتسع لي المجال سوى لطرق أبوابها لأحييه على أعتابها وأمضى في رحلة الاستكشاف عن صاحب التاريخ العريض المؤثر في تاريخنا الذي كان أولى به أن يغدو مقررا لا كنزا مختبئا وراء جدار اللامبالاة في انتظار شرذمة من المستكشفين الهواة.. حسين السيد ذهبت إليه أستنجد به لأستزيد منه وعنه:

«بدأت مشواري الفني في عام ١٩٣٩، أيام تصوير فيلم «يوم سعيد» عندما تحيّنت فرصة الإعلان عن طلب وجوه جديدة فتقدمت كممثل، لكنني نجحت كمؤلف أغاني بأغنية إجري إجري التي وعدت المخرج محمد كريم وعبد الوارث عسر ومحمد عبد الوهاب بإحضار كلماتها في الصباح التالي، ويومها مكثت حتى أوشك الفجر دون طائل لكتابتها وكانت تمثل في أهميتها للفيلم أنها النهاية، وازدادت معاناتي بمرور كل لحظة إلى أن أنقذني حصان أو بمعنى أصح بغل عم بيومي الذي أسدى لي معروفا لا أنساه.. كان عم بيومي بائع لبن متجولا يمر على البيوت منذ زمن لدرجة أن البغل أصبح يعرف طريقه وحده، وخلال السكة الروتينية ينام عم بيومي فوق عربة اللبن، حتى إذا توقف البغل عند بيت معين استيقظ من نومه ووزع اللبن ليعود إلى النوم ويعاود البغل مسيرته الصباحية اللبنية، ولدى اقتراب عربته من بيتنا سمعت وقع حوافر البغل العزيز.. لقد ألهمني وقع أو إيقاع حوافره حركة موحية بكلمة: إجري.. إجري، فكانت فاتحة الخير.. وظللت هاويا من ١٩٤٠ حتى ١٩٦٠، لأنني كنت خلال هذه المدة تاجرا أتولى عمليات التوريدات في الجيش، ويوم اعتزلت نشاطي التجاري أصبحت محترفا.. في فترة الهواية كتبت في جميع الألوان. ففى الوقت الذي كتبت فيه حياتى إنت ماليش غيرك والصبر والإيمان وعاشق الروح، كنت أكتب أيضا ذهب الليل طلع الفجر، واللي يقدر على قلبي، وحكيم عيون حضرتك طيب اقرأ لي

اللي في قلبي، واللي يقدر على قلبي يخطفه وأنا أعيش وياه. . وبعد الاحتراف وجدت وقتا للانطلاق إلى ميادين جديدة في الأغنية لا مش أنا اللي أبكى وحبك انت شكل تاني وحارة السقايين وماما زمانها جاية والراجل ده ح يجنني وإنت أهلاوي ولا زملكاوي وأغاني عبد الحليم: توبة وظلموه وجبار وعقبالك يوم ميلادك ويا قلبي خبى. . وفايزة في تراهنى وحمال الأسية وقدرت تهجر. . ونجاة في شكل تاني والقريب منك بعيد. . ووردة في يوم وليلة وبعمري كله حبيتك. . إلخ.

التمثيل في حياتي هواية ظهرت ثلاث مرات في أدوار متباعدة أولها في فيلم يوم سعيد، عندما أسند لي المخرج محمد كريم دور المذيع الذي يقدم برنامج الحفلة الخيرية التي تظهر فيها المونولوجست عفيفة اسكندر، لكن طول أغاني الفيلم خاصة أوبريت مجنون ليلى، أطال مدة الفيلم نحو ١٥ دقيقة، مما اضطر المخرج إلى حذف الحفلة وعفيفة والمذيع. . المرة الثانية مع شادية في فيلم امرأة مجهولة والثالثة مقطوعة شعرية ألقيتها مع شويكار مَطْلَعُها إنت مسافرة. . الأرقام في أغنياتي مثل أغنية واحد اثنين وخمسة في ستة وتراعيني قيراط أراعيك قيراطين استعملتها كشيء جديد، وإذا كان لي عشر أغنيات فيها أرقام فلي مئات الأغاني بدون أرقام. . وحول الأغاني التي تعالج المشاكل الاجتماعية، كتبت أغنية عن الطلاق في رسالة موجهة من ابنة لوالدها المزواج تقول:

هذه الأغنية وغيرها من مثيلاتها بقيت تتسكع في أدراج المخرجين والملحنين لأن كبار المطربين والمطربات لا يميلون إلا إلى الألوان العاطفية التي تذوب شوقا وهياما. . هذا في الوقت الذي نجحت فيه أغنياتي الوطنية مثل ساعة العمل الثوري وناصر، والجيل الصاعد، ووالله وعرفنا الحب، وصوت الجماهير لعبد الوهاب، والمسئولية وحكاية شعب لعبد الحليم والمارد العربي لفريد. . كتبت في صوت أم كلثوم أكثر من مقطوعة شعرية، لكني تجنبت اللقاء الفني معها لأنني كنت أعلم أنها تحب التدخل في الكلمات، وكنت أقول هي أم كلثوم وأنا حسين السيد وسأظل حسين السيد حتى بدون أم كلثوم، إلى أن جاء يوم اتصل بي صديق العمر

الأستاذ عبد الوهاب وكان متوجها في اليوم التالي إلى بلودان بسوريا قائلا: اتصل فورا بأم كلثوم.. فقلت له: أنت تعلم أننا لا نتفق أبدا.. قال: لقد استمعت إلى بداية الأغنية الدينية التي كتبتها وقالت لي إنها تريد أن تغني عملا دينيا كبيرا، فأسمعتها المقدمة الموسيقية فأعجبت بها وطلبت مني الاتصال بك لمقابلتها.. اتصلت ووعدتها بالحضور وكالعادة كان هناك العتاب الذي أسمعه لسنوات عديدة منها، أو كما تقوله عني لعبد الوهاب: حسين السيد عنده كبرياء شديد ومعتز بنفسه جدا.. وكانت في تلك الفترة تستعد لترك الفيلا بالزمالك قبل البدء في عملية طلائها، فتواعدنا على اللقاء بعد يومين بفندق الشيراتون، وذهبت إليها في الدور الثاني والعشرين قبل وفاتها بأربعة أشهر بالتحديد، فكان لقاء الوداع، ولأول مرة نجلس معا على انفراد لمدة استغرقت نحو ساعة ونصف.. تحدثنا في كل شيء، وقرأت عليها نص الأغنية فقالت لي: عظيمة جدا.. لكني أتمنى لو.. لحظتها قلت متحفزا: لكنه إيه؟!.. ردت:.. لا.. مفيش تغيير.. كانت تعلم أننا كثيرا ما اختلفنا على مسألة التغيير هذه، فأكملت قولها: أنت طعمت الأغنية بالعربية الفصحى إلى جانب الزجل، وأتمنى لو تضيف شطرين، ولا داعي لعرضهم بعدها عليّ وكتبت هي على ورقة النص للأستاذ عبد الوهاب أن يلحن نص الأغنية كما هو.. وكان الشطران هما:

وأعوذ بك من غفلة نفسي وأعوذ بك من لحظة يأسي

نظرت لي بعدها أم كلثوم طويلا وقالت: خسارة.. قلت في دهشة متسائلا: أية خسارة.. إحنا ليه يا حسين ما اشتغلناش مع بعض كتير؟!.. رددت: كل شيء بأوانه.. كله بإرادة الله.. يمكن نشتغل مع بعض قريبا إن شاء الله.

وفوجئت بردها الغريب: إمتى.. الله يجازيهم!.. استغربت واعترتني الدهشة بقدر أكبر: من هم؟!.. قالت: لأ.. ما تسألنيش عن حد.. قلت لأم كلثوم: أنت سيدة تقية جدا.. وتعرفي ربنا.. بدون ما تقولي أسماء قولي السبب، لأني دائما كنت ألمس منك تجاهي نزعة هجومية، ولهذا لم نتفق. دارت أم كلثوم حول معنى تريد أن تقوله فهمت منه أنني وقت أن ظهرت في سماء

عبد الوهاب خطفت الكرة من أقدام أساتذة كبار، وبدا الخوف أيضا من أنه يمكن أن أخطف الكرة أيضا من أقدام مؤلفي أم كلثوم».

غنى له عبد الوهاب الكثير في الحب حتى غرقنا معهما في بحور العسل:

«لك عندي كلام أحلى من أجمل رواية قل لي أجيب مين يقرا ومين يسمع كلامي اسمح وقل لي يا نور العين إنت الآه اللي بغنيها ويغنوها الناس ويايا أنت بتحلف إنك لي وعينك بتكذب حلفانك قل لي عمل لك إيه قلبي احترت أنا بين قلبي وبينك والحيرة عذاب ما اعرفشي الصادق مين فيكم ومين الكداب إجري إجري إوعى يا قلبي تكون حنيت للي شكيت منه وبكيت ياما قسيت ياما حبيت أنا روحك وإنت قلبي واحنا الاتنين تايهين ليه ليه يا عين ليلي طال.. مين إنت؟! ما أعرفشي.. فين إنت؟! ما أعرفشي.. حياتي إنت ما ليش غيرك إنت النار اللي محوطاني أحبه مهما أشوف منه ومهما الناس قالت عنه حبيبي يا للي خيالي فيك حقولك إيه عن أحوالي كان أجمل يوم عمري ما أنسى يوم الاتنين أتاريه لغيري مش ليه، إنت إنت على إيه بتلومني اسمح وقوللى إيه جرى يا قلبي إيه، أنور شمعتي لغيري بيظلم في وباحبه ماقدرشي أنساك حاشوفك إمتى وأقابلك فين ياللي نويت تشغلني قلبي لك ميال حبيبي لعبته الصد والجفا حيحبني وحاشغل قلبه وحايكون لقانا بعد الغياب من أد إيه كنا هنا قالوا لي هان الود عليه، خي خي فين طريقك فين؟! ياللي شغلت البال افتكرني في غروب الشمس والليل بيناديها توعدني واقعد أستناك بيقولوا لي توب عن هوى المحبوب قلت هاتوا قلوب من حجر ما يدوب علشان الشوك اللي في الورد باحب الورد، وإن غدر بي هواك أعمل إيه وياك تراعيني قيراط أراعيك قيراطين وحاسبت روحي على الأيام اللي انقضت من حبي معاك لقيتها أكثرها أوهام ضاعت مابين صدك وجفاك يا خسارة عشرة الأيام عاهدني لو تخاصمني تحوش لي أمل عندك والقلب يفرح زيّ زمان وإن عشق القلب يهون الجرح يا تجيني يا تقول لي أروح لك ياتقول أروح منك فين من قد إيه كنا هنا؟! يغيب ويفتكر ويجيني بشكوته يكدب ويعتذر وأصدق حجته وإزاي أكذبه وأنا روحي تعشقه والقلب لو عشق الكدب يصدقه وأرجع وأقول نتقابل فين؟!

حياتي إنت ما ليش غيرك وفايتني لمين؟ شبكوني ونسيوني قوام غيروك علموك أنا راح زماني هدر مش دي راحة قلبي جماله جمال بيقول لي كلام وإنت بتقول لي كلام وعلى إيه بتلومني يا قريب وبعيد أحبك وإنت فاكرني يا مسافر وحدك ليه تبعد عني وتهجرني فين طريقك فين؟! الله يجازي اللي ظلمني كل الستات جمالات وجمالهم ساحر فتان لكن اللي جمالها في عنيها النظرة مابتهونشي عليها من بعد ماتشغل قلبك إن جيت ناحيتها تقولك بلاش تبوسني في عنية البوسة في العين تفرق دلوقت بس صدقتك خدعوني قلبي وعنية عايز أشكي وحاقول يامين شوقي لك بيزيد قللي كان مالك ومالي فين طريقك فين قالوا لي أوصفه قلت لهم القمر يحب الآه أقولها له ولما يغيب أحوشهاله لكن اللي بيحبك ما لوش تمن عندك ودي قسمتي ويّاك يا تجيني يا تقول لي أروح لك وأعمل إيه يا خي وده قاسي عليه وبحبه يا ريتني كنت ماشفته احكي له ع اللي جرى واللي بيجرالي وعشق الروح مالوش آخر لكن عشق الجسد فاني وإنت اللي طفيت يا جلاس ناري وعايزني أرجع تاني لا . . لا . . لا . . لا».

وليس كمثلها من تستطيع أن تأخذنى إليه الدكتورة حمدة الابنة طبيبة التحاليل آخر عنقود إمبراطورية حرف الحاء التي أنجبها حسين السيد من الزوجة والحبيبة الدكتورة نعيمة محمد الحاصلة على أول دكتوراه في التعليم الأجنبي في مصر من جامعة عين شمس . . الإمبراطورية التي تخصص أفرادها في طب الأسنان، فالبكري حسام والأوسط حاكم طبيبا الأسنان اللذان لحق بهما الحفيد أحمد ابن زواج الحب الذي جمع بين حمدة وطبيب العظام يسري الهواري لينجبا من بعد أحمد الابنة يسمة أي برعم الياسمين الطالبة بالجامعة الأمريكية . . أذهب إليها ـ حمدة ـ أتعرف إليه وإليها . . هي من حققت بقدومها أمنية والدها في أن يهبه الله البنت لتغدو أمورتي الحلوة التي غنت لها صباح بلسانه : أيام عمري اللي راحت علشانك عشتهم وسنين عمري اللي جاية عشانك حشتهم . . وأكلك منين يا بطة حبيبة أمها . . التي جلس يسليها مع شقيقيها في غياب والدتهما في عملها فقال : «ماما زمانها جاية وذهب الليل . طلع الفجر والعصفور صوصو».

كان على الدوام محتفيا بأسرته ومعظم أغانيه كتبها بإلهام من أفرادها ساكن قصادي فاتحة أغنيات الحدوتة التي كتب على نسقها فاتت جنبنا لعبد الحليم كانت في حب والدتي ابنة الجيران، وعندما سافرت للحصول على الماجستير من لندن قال فيها: حبيبي ياللي خيالي فيك فين إنت: معرفشي. . وكتب في زفاف شقيقي حاكم: «زفوا الخبر زفوا الخبر الشمس رايحة للقمر». وإلى جانب أشهر أغاني نجاة وفايزة وليلى مراد وعبد الحليم وصباح المعروفة كتب لأصوات كثيرة تعد كل منها علامة في حياة أصحابها. . البوسطجية اشتكو لرجاء عبده، وعايز جواباتك لنجاح سلام والسنباطي، وعلى رمش عيونها ودار يا دار لوديع الصافي، وكعب الغزال يا متحني لمحمد رشدي، وأهو أنا وهن هن لإسماعيل ياسين، وخدني معاك لياسمين الخيام، وبت يا دوسة لسمير الإسكندراني، ولسعاد حسني عم حزنبل ومانتاش قد الحب يا قلبي، وأنا واد خطير لفؤاد المهندس. . إلخ. . وإنني لأستشعر الحس التهكمي موجودا حتى في أغانيه العاطفية مثل أغنية، عايز جواباتك لنجاح سلام والسنباطي التي أخرجها محمد سالم للتليفزيون والتي تقول فيها:

«القصور اللي خيالك كان بانيها. . واللي كل جواب فرش لي ركن فيها. . هو ده كان حب وللا كنت بتسلى إيديك. . مش كتبته بقلب والاّ حد كان غاصب عليك». أما طابع الفكاهة في أعماله فتجده كثيرا كمثال ما قدمه في استكتش اللي يقدر على قلبي لليلى مراد، وأغاني مسرحيات فؤاد المهندس وشويكار، التي حثت فيها شويكار في حواء الساعة ١٢ زوجها على الانتحار ليلحق بها في العالم الآخر بقولها: «على حبل غسيل ما يكونش طويل تتشعلق فيه ما تصوتشي، أو في الحمام تفتح سخان تخش عليه تنام ماتقومشي. . والدى زمان ذهب في بداية حياته الفنية للشاعر الكبير أحمد رامي يسأله رأيه في أعماله فقال له انتظر عشر سنوات لنرى فيما إذا كانت أغانيك لم تزل صامدة، وعندما استمع لكلماته بافكر في اللي ناسيني وانسى اللي فاكرني قال له: أنت السهل الممتنع».

«وكان والدي حسين السيد له مذاق خاص في كتاباته للدويتو خاصة في أفلام عبد الوهاب ومن ينسى رجاء عبده في ممنوع الحب تجذب عبد الوهاب من أذنة

لتريه عقارب الساعة بقولها: بلاش مغالطة تعالى بص دي مش دقيقة دي دقيقة ونص، ويكتب والدي خريج مدرسة الفرير الفرنسية أغانيه لمطرب القصور والأمراء محمد عبد الوهاب لكنه كان شديد الالتصاق بالروح والعبارة الشعبية فكتب مين قال لك تسكن في حارتنا لشادية، وولـه ياوله ارحمني يا وله لعبد الغني السيد، وكايده العزال أنا من يومي لعايدة الشاعر، وكعب الغزال لمحمد رشدي، وحارة السقايين لشريفة فاضل: مافيناش حاوريني ياطيطة مافيناش لف ودوران.. لك ماضي كله سوابق في الحب مالوهشي أمان.

أنا عايزة حب يطمن مش حب يودي لومان.. عندما استشعرت ضيقا في صدري لم أعلم سببه لحقت بزوجي في زيارته لوالدي في مكتبه بوسط البلد.. طرقنا الباب بلا جواب رغم صوت البغبغان المرتفع الذي يدل على أن صاحبه بالداخل، فكسرنا الشراعة.. كان غائبا عن الوعي ممسكا بيدة القلم ويده الأخرى مفتوحة لم يزل كفها يحمل آثار عقاب والده القاسي عندما أجبره في طفولته على احتضان البيض الخارج بنار الفرن لأنه لعب بالكبريت».

حسين السيد كان متدفقا كشلال قادم من جبل العطاء لوادي النماء فأنبت نخيلا وأعنابا وزرعا وأزهارا ورياحين وشدوا.. شاعر الغناء الفذ من لمس بسحر قلمه الأخضر حناجر المواهب فأنطقها سحرا لا يفنى.. أعطى ومضى.. ليستأثر أصحاب خبرة العلاقات العامة بالواجهة فجلسوا وحدهم على القمة وفرضوا أنفسهم على المشهد، وكان عبد الوهاب كمثال في تاريخ حياة حسين السيد من الشخصيات العريضة الطاغية التي تجيد إلى جانب الموهبة العظمى قدرة فريدة في العلاقات العامة تبتلع معها كل من سواها في الصورة، فملأ الكادر وحده تماما مثل الجنرال ديجول عندما كان رئيسا للوزراء فلم يعرف وقتها اسم رئيس جمهورية فرنسا، وعندما أصبح رئيسا للجمهورية لم يذكر أحد اسم رئيس الوزراء.

ولقد كان من حظ حسين السيئ ظهوره في فترة كان التركيز فيها على كل من استولى على الابن ورعاه وألبسه ثيابه وخرج به إلى الشارع، بينما لا ذكر للأب الشرعي الذي أنجبه، ولم يعش حسين في أيامنا هذه التي يتقافز فيها مغنى هجص

الكلام الفاضي في دقيقة، لتختتم الكارثة بقائمة أسماء طويلة من أول اللي كتبها واللي أخرجها واللي زوقها واللي رقصها واللي قصقصها واللي مصمصها واللي وزعها واللي قطعها واللي له حقوق في إعادة عرضها ع الخلق.. حسين السيد الذي ولد في أيام ربيعية وغادرنا تاركا أريجه في مثلها.. حسين السيد الجندي المجهول في عالم الطرب والشجى والشجن، من لم يمت في ساحة الوغى لكنه مات في بحور الجحود والنسيان.. حسين السيد قال قبل أن يغادرنا: «وافتكري يا جدران يا أوفى من الإنسان صوتي مع الأذان حيقول في كل أوان يا ظالم لك يوم مهما طال اليوم.. يا ويلك يا ظالم يا ويلك»!!!

محمود شكوكو

السندباد البلدي

زهـــقـــت مـــن لـــعّـــل	وطهـــــقت من عـــــسى
ودمـــــوعي تملّي حلـة	من الصـــبح للمســـا
مــــعلشي يا عنيـــــة	لـعـل وعـــــــسى
يا قلبي اصـــبـــر شـــوية	لـعـل وعـــــــسى

محمود شكوكو إبراهيم إسماعيل موسى من نصف قرن زهق وطهق وفاضت دموعه أنهارًا ليعلن على الملأ بمصاحبة فرقة للعزف بالرق والعود والكمنجة أن صبره قد نفد رغم جميع المسكنات اللفظية، هذا بينما وزير تجارتنا الهمام الدكتور يوسف بطرس غالي قد طمأننا هذا الشهر إلى أن الأمور ستنفرج وينصلح الحال وتصبح الدنيا ربيع والجو بديع بعد ٥٢ سنة، لهذا وجب التقفيل على كل المواضيع المحبطة انطلاقًا من اطمئنانه الأريب إلى أنه بعد ربع قرن لن يكون أحد منا موجودًا ليحاسبه أو يعاتبه أو يأخذ منه حقه، ليغدو الرد البليغ على معاليه «يا خرابي» تلك اللفظة التي كان محمود شكوكو يعبر بها عن بالغ أسفه واستيائه، وكنا وقتها نظن أنه قد تجاوز حدود اللياقة واللباقة خارجًا بها على الآداب العامة، لكننا نكتشف بالمقارنة بما ينبغي أن يقال الآن إنها تعد درسًا في الفضيلة وردًا دبلوماسيًا جدًا بل ومفرطًا في الرقة والمجاملة.

الظاهرة الفنية المتفجرة محمود شكوكو التي أثبتت أن موهبته الحقيقية كانت أعظم من ثقافته، فهو لم يدرس مناهج معاهد الفنون، ولا دربت حنجرته مدام رطل، ولا سافر في بعثة للاحتكاك بحضارة الغرب ليعود حاملاً لقب الزمالة

والدكترة. شكوكو في الكتابة عنه تقفز الذاكرة بفورية عبارة قالها يومًا الأديب الفرنسي الكبير أندريه موروا في باريس في قوله: «ليس من الضروري أن يمنحنا الفن دائمًا شيئًا، بل يكفيه أحياناً أن يسلبنا شيئًا»، وكان يعني بالشيء الذي يمكن أن يسلبنا الفن إيّاه هو هموم الحياة ومشاغلنا المضنية.. رائد فن المونولوج ومبتكر مسرح العرائس عرفته مصر كلها وبلاد العرب كفنان شعبي أصيل خرج من أعماق الحارة المصرية ليحقق نجاحًا جماهيريًا لم يسبق له مثيل، وآية ذلك أنه كان الفنان الوحيد الذي صنع له الناس تماثيل كانت تباع في كل مكان بقزازة أيام كان الزجاج عزيزاً بعد الحرب العالمية الثانية، ولم تكن هناك بعد مصانع ياسين للزجاج التي كانت بمثابة الطفرة في الصناعة المصرية.. وقد لفتت الظاهرة نظر الأستاذ الكبير العقاد فهاجم صانعي التماثيل معتبرًا صنيعهم دليلاً على التأخر، وقرأ أحد أصدقاء شكوكو ما سطره العقاد فأسرغ يخبره به ليتساءل شكوكو لائمًا: إزاي يقول كده.. إخص عليه.. ده لحم كتافه من خيري؟!.. فسأله الصديق هل تعرف العقاد؟! فسارع شكوكو يجيب: «طبعا ده عازف قانون في فرقتي!».. فابتسم الصديق قائلاً: لا يا حبيبي. ده كاتب كبير اسمه العقاد برضه!.. فضحك شكوكو - المثير للإعجاب أنه كفنان أصيل قد علّم نفسه القراءة والكتابة بعد ذلك وأتقن بعض اللغات الأجنبية بل وكان من عادته قراءة جميع الصحف بمجرد استيقاظه صباحًا - وأضاف: إني أسأل العقاد سؤالاً واحدًا مباشراً: هل تستطيع قريحته الفذّة أن تخلق بيتًا كهذا، ثم أنشد شكوكو:

بصيت في قلب الحبيب ... من تحت عقب الباب
لقيت حدا شر نفر ... شرطًا كلهم عزّاب

وصدق شكوكو فلم تستطع قريحة العقاد أن تخرج بمثل هذا البيت بأي حال من الأحوال!

الكونت دي مونت شكوكو المتفرد الذي اعترف الملك فاروق ذات نفسه بتفرده بل وقام بتشجيعه عليه وذلك عندما عاد شكوكو من جولة فنية له في إنجلترا بسيارة جديدة إسبور ماركتها «رالي» ولونها أحمر فاروقي بمقعدين وفيتيس صغير وكابورليه أي بدون سقف.. وما إن ظهرت في الجمرك بالإسكندرية حتى تم الحجر

عليها ومنعها من دخول الأراضي المصرية بسبب لونها الملكي الأحمر الذي كان حكرًا على الملك فاروق وحده، فقام شكوكو بالاتصال برئيس الوزراء النحاس باشا، الذي أبلغ بدوره الملك رافعًا له استغاثة شكوكو لإنقاذ الرالي، فأجاز ملك البلاد السيارة الحمراء بفرمان: «محمود شكوكو بس اللي يركب عربية حمراء»، وهكذا كان فاروق الملك وشكوكو المونولوجست وحدهما يقودان السيارة الحمراء بطول البلاد.. وتقوم الثورة ويؤدي شكوكو نمرته في ميدان عابدين احتفالاً بإعلان «الجمهورية» ضمن الفنانين المشاركين أمام رجال قيادة الثورة، ولأن لفظة «الجمهورية» كانت حديثة التناول على الألسن لم يستوعب بعد مدلولها فقد قام شكوكو بإدخالها في سياق كلمات مونولوجه الجديد من وحي الاحتفال ليقول فيه: يا جمهورية يا يا رز على ملوخية يا...».. ولحق شكوكو يومها روحه أو بمعنى أصح لحقوه.. ويرحل عبد الناصر ويحكم السادات ويكون شكوكو قد كتب لنفسه تاريخاً فنياً طويلاً قام فيه بالمشاركة في أكثر من ١٦٠ فيلمًا قام ببطولة خمسة منها، وأربع مسرحيات، وقدم ٤٠٠ مونولوج، وأسس أكثر من عشرة مسارح، وحصل في جولاته في دول الغرب على لقب شارلي شابلن الشرق، وكان المؤسس الحقيقي لمسرح العرائس و.. ومن أجل تاريخه الفني الحافل وتفرده على عرش الفكاهة عبر نصف قرن قام الرئيس السادات بمنحه جائزة الدولة التقديرية في عيد الفن، وكانت فرحة الفنان الشعبي عارمة بالتكريم ليمكث أياما قبل الحفل يستحضر ويحفظ كلمات الشاعر التي سيقولها في حضرة الرئيس أثناء استلامه للجائزة.. لكنه.. لحظة أن مد يده بالسلام لليد الرئاسية الممدوة ضاعت الكلمات المحفوظة لتلهمه سرعة البديهة ارتجالاً يقول: «ساعة ما بشوفك بيروح مني الكلام وأنساه».. وتعالت الضحكات واحتضنه السادات مهنئًا: «محمود هتشكوكو» كما كان يطلق على نفسه في حياته الفنية الطويلة، الذي حصل على شهادات التقدير من عبد الناصر وبورقيبة وكتب عنه يحيى حقي وجلس يجري حواراً شيقًا معه الدكتور الناقد محمد مندور وقرّظه أنيس منصور ومنحه النادي الأهلي عضويته الشرفية ولقبه السيرك «صديق السيرك الأول» لم يقلد أحدًا سوى أم كلثوم، وكان يستأذنها ليقرأ عليها ما أدخله على أغنياتها من عنده مثل «حب إيه

اللي إنت جاي تقول عليه هو فيه في الدنيا أحلى من الجنيه» و«أراك عصي الدمع وعصي الدمع أراك اشمعنى أنا سايل دمعي . . يا مدوخني وراك» فتضحك موافقة بقولها : «طيب يا شكشك» . . ويروي لي ابنه سلطان ـ ريج مدارس الليسيه الحاصل على ليسانس الآداب ويعمل طالبًا في وزارة الطيران المدني ـ عن خميس أول الشهر الذي لجأت فيه أم كلثوم تطلب من والده استئجار مسرح الأزبكية التابع له في الخميس المقبل بسبب إجراءات التصليح القائمة وقتها في سينما ريفولي وقصر النيل التي اعتادت تقديم حفلاتها الشهرية على مسارحهما، ورد عليها شكوكو : «مش عيب ده المسرح والعمال والفراشين وبتوع البوفيه كلهم تحت أمرك وما عليكي يا ست الكل إلاّ التوجه مع فرقتك يوم الخميس لتلقي كل حاجة على سنجة عشرة وجاهزة، وكان من ضمن تجهيزاته القيام بإعادة طلاء غرفته بالمسرح لتكون جديرة باستقبال سيدة الغناء لتستريح فيها وتُصلح ماكياجها بين الوصلات، ووضع في الغرفة بوكيه ورد على هيئة الطاقية رمزاً لشكوكو، وعندما دخلت ثومة الغرفة وسط موكب الصحفيين والمصورين ووقع بصرها على بوكيه الورد سارعت تعلق ببديهيتها الحاضرة : «البوكيه ده مشكوك فيه!» .

وحول ألحان محمد عبد الوهاب لمحمود شكوكو فقد غنى له كأحد المتقدمين لطلب يد العروس ليلى مراد في أوبريت «كلام جميل» ضمن أحداث فيلم «عنبر» مع عزيز عثمان وإسماعيل ياسين وإلياس مؤدب :

من ناحيــة قلبي ونار قلبي وأتحــب مــوت
وحـبيـبي لو جــه يوم عندي حــرقع مــيت صــوت
بلدي ومدردح وأدارجي وقنيت من الفول والطعمية أربع عمارات
ندر عليّ لو قلت أيوه لأخللي روحي في إيديك شــمــعــة

وبعد أن تم تصوير الأوبريت في استوديو الأهرام بالهرم قال له عبد الوهاب : «يا محمود صوتك فيه بحّة عاجباني وعاوز ألحن لك حاجة تانية» فسارع شكوكو يعرض عليه كلمات كان يحتفظ بها أعجبت عبد الوهاب ليطلب منه الحضور في اليوم التالي بفيلته الضخمة بشارع الهرم . . ويروي سلطان عن تلك المقابلة :

«قعدت ألعب وأنا صغير مع بناته فتفت وإش إش وتم تم في الجنينة وطلع بابا قعد مع عبد الوهاب يلحن له مونولوجه (يا دابحة قلبي بقزازة لماذا الظلم ده لماذا)» . . وغنى شكوكو لزكريا أحمد «بنت البلد يا ولد يا محلى قيافتها» ، وكتب له بيرم الكثير الذي منه «صيد العصاري يا سمك صاحي بيلعب في الشبك» . .

أما عن فريد الأطرش فلم يقم بالتلحين لشكوكو وإن ظل حريصًا على الائتناس به . . «طلب والدي وقال له تعالى لي بكرة وهات سلطان معاك ، ورحنا له في عمارته على النيل في شقته بالدور الأخير التي لا تفرغ من الضيوف ليل نهار» . قابلنا فريد وحيّانا أجمل تحية واصطحبنا إلى قعدة خاصة في التراس فيها ما لذ وطاب سائلاً الوالد عن مشروبه فقال له ولا لي دعوة بالسيجارة أو حتى السيجار ، واستأذن فريد ربع ساعة وعاد يحكي عن الكازينو الجديد الذي افتتحه في عمارته بالروشة في بيروت تحت الأرض . . وعايزك يا شكوكو تقدم على مسرحه نمرتك عشرة أيام وتنزل في ضيافتي مع سلطان في دور كامل بالعمارة ومن الآن اكتب ما بدالك عن أجرك وأنا موافق على طول الخط ، قال له شكوكو : ده شيء يشرفني لكن أنا عندي نقرس وفى الوقوف استحالة ، فاستأذن فريد عشر دقائق لا غير عاد بعدها يقول : خلاص يا سيدى إنت تقدم نمرتك على القاعد ثلاثة أيام ، وبعدها تسافر بالطائرة للندن محجوز لك في مستشفى هناك عند أكبر دكتور عظام ، وترجع لبيروت تكمل الغناء وأنت معافى بمشيئة الله . . وسافرنا ولقي شكوكو ترحيبًا من الجمهور اللبناني ليس له نظير رغم تأديته لنمرته جالسًا على المقعد ، وسافرنا للندن لقينا طبيب العظام المعالج ورئيس القسم شابًا لا يعدو الخامسة والثلاثين يتحرك على مقعد إعاقة متحرك ، فتوكلنا على الله وقرأنا آية الكرسي والمعوذتين ، واستسلم الوالد للدكتور الذي أعطاه حقنة في سلسلة ظهره وقال له قوم أُقف ، قام شكوكو بعدها يمشي ، ورجعنا بيروت وأكمل الأداء واقفًا مع عمر خورشيد وزيزي مصطفى» .

ولا أترك سلطان قبل استجوابه ـ بغلاسة ـ عن علاقة أبيه بالبرنسيسة عائشة فهمي صاحبة السلطان والجاه والثراء والقصر المنيف الواقع على شط النيل في الزمالك

الذي استقبل أهم الأحداث التشكيلية عبر ثلاثين عاما ويعد حاليًا ليكون متحفاً لروائع الفن المصرى الحديث بلافتة «مجمع الفنون» . . يجيبني بالغ الصبر بعدما أكدت له أن مصادري الجانبية قد أكدت زواج شكوكو بعائشة شهوراً معدودة فقال: «لم تكن بينهما علاقة وإنما كانت تحب فنه فقط، وتذهب لمسرح بديعة لمشاهدته على المسرح، وتملأ خمسة بناوير على الأقل بخدمها وطباخيها وسائقها ليغدو المسرح كومبليه، وفى إحدى المرات اشترت جميع التذاكر وجلست وحدها متفرجة في البنوار بعد أن أنزلت على شباك التذاكر لافتة «كامل العدد» لكنه ليلتها لم يوافق على الظهور لعدم وجود جمهور يتجاوب معه . . العلاقة الحقيقية كانت بينها وبين يوسف وهبي، وعندما طلبت السيدة من والدي الحضور لقصرها في السابعة لأمر مهم سارع يبلغ ذلك ليوسف وهبي سائلاً إذا ما كان بينهما خلاف ما ليسارع بإزالته، فشكى له ما يغضبه منها، فقال شكوكو إذن انتظرني خارج القصر في الساعة السابعة والنصف لأكون قد فاتحتها في أمرك فإما بعدها أناديك أو أروّح معاك . . وتعجبت البرنسيسة من هذا الذي أرادت التودد إليه فأخذ يقنعها بالعودة لصاحبه قائلاً: «أنا ما أنفعكيش، ويوسف من توبك وابن باشاوات وبيحبك . . ووافقت أخيراً، وخرج وجاب يوسف من إيده وصالحهما على بعض، وكان دائمًا على لسانه أنا ابن بلد لا أقبل بحال من الأحوال إن واحدة تصرف عليّ مليم واحد . .»» .

وأتمادى في استغلال سعة صدر الابن لسؤاله عن مثول والده أمام النيابة مرتين فأعرف أن المرة الأولى كانت في عام ١٩٦٥، بعد عودته من إحياء ثلاث حفلات بمناسبة عيد استقلال الكويت مع عدد من كبار الفنانين، وكانت التهمة الموجهة لهم هي تهريب النقد، حيث بلغت أجورهم في الخارج ٣٠ ألف جنيه . . واستمع عبد الرحيم نافع وكيل أول نيابة الشئون المالية إلى أقوال المتهم محمود شكوكو الذي قرر أنه استلم من كمال الطويل ١٥٠ جنيهًا في القاهرة و٢٥٠ديناراً في الكويت ودار التحقيق كما يلي:

س: لماذا لم تحضر ما تبقى من النقود معك؟

ج: لم يفضل شيء.

س: لماذا؟

ج: لأني راجل مجدع لا أقبل أن يستضيفني أحد. وشرفي أنا كنت نازل في الأوتيل على حسابي بستة جنيهات في الليلة، وكمان حاجة، كان معايا مساعد علشان الأراجوز دفعت له من معايا والدنيا هناك غالية نار.

المرة الأخرى مع النيابة كان فيها شكوكو عائدًا من حفل في لبنان حيث التقى في الطائرة براكب معجب فكتب له على ظهر صورته «ورد عليك فل عليك إن كنت بتحبني هات اللي عليك» ولسوء الحظ كان هذا المعجب مهرب مخدرات ما إن هبط على أرض المطار حتى تم القبض عليه، حيث عثروا على الصورة الممهورة بالعبارة المُدينة، فقد كان المهرب يحمل خبيئة مخدرات اسمها «ورد عليك» ومن هنا اشتبه في العلاقة بين شكوكو وبينه مما استدعى اصطحاب شكوكو للمحافظة، حيث تمت تبرئته بأقوال المهرب والشهود، ومن بعدها توقف شكوكو تمامًا عن كتابة أى إهداء لأي معجب أو حتى معجبة.

شكوكو ابن البلد الساخر من كلامه قال: «معنى شكوكو» صوت صياح الديك اللي كنت أقلده وأنا صغير، وفيه جزيرة في اليابان اسمها شكوكو ويمكن إحنا من هناك.. الأرتيست زي النار يولّع للآخر وبعدها ينطفي.. عملت مع إسماعيل ياسين وأنور وجدي وحسين رياض ومحمود المليجي وزكي رستم وسليمان بك نجيب وكلهم اتعلموا تمثيل من غير ميكروفون من غير كهرباء، لكن الفنان الآن يصبح مشهورًا في أربع وعشرين ساعة بفضل التليفزيون والتمر الصناعي وتلك الأجهزة تحقق الشهرة العظيمة إن قال الواحد للناس ريان يا فجل «المونولوجست النهاردة باعتبر الواحد فيهم حكاييست كل واحد بيكرر الآخر ولا تعجبني منهم السخرية الدائمة على الصعايدة.. الموال أقوله عشرين سنة لكن النكتة تقال مرة واحدة. ما فيش شق في مصر أم الدنيا معرفتوش مع الطبلة والرق والمزيكا النحاس. لا يمكن للأرتيست يدير فرقة يبقى بيشتغل وقاعد يعد اللي قاعدين. أنا إنسان رُويّح يعني مشاكلي أحلها بنفسي. أنا ابن بلد مولود في الكحكيين وأهم

حاجة في ابن البلد الذوق والأدب، ولما يشرب شوية مية يشبع، وشجاع وطيب وخجول لما يشوف واحدة ماشية مايرفعشي عينه فيها.. لما باطلع للجمهور ويسقف أحس إني باصغر وأعيَّط من الفرحة وأنا دمعتي قريبة ويا ما عيطت على فراق إخواننا من الأرتيست. غالبية الأغاني تصلح مونولوجات يعني لما شريفة فاضل تقول «إذا كنت من الحسينية أنا برضه يا واد بولاقية» بقى بذمتكم ده مش مونولوج؟!، وحليم في غنوة «بلدي» اللي بيقول فيها «ونزمر لك كدَهُه ونطبل لك كدَهُه» مونولوج طبعًا!.. في سنة من السنين جاني منافسين للنحاس باشا وطلبوا مَني أرشح نفسي في دايرته على أساس إن شهرتي حتقلل من أصواته لكني رفضت تماماً لأن العمل السياسي ليس مهنتي والفنان اللي عايز يسلكه لا بد من أنه يتفرغ له. زواج الأرتيست صعب لأن له معجبين وتليفونات، واحدة تكلم مراتي تشيل السماعة تبقى تبويزة وقلبت مزاج وطلاقًا، سافرت مرة في واحدة في رحلة للأقطار الشقيقة وأثناء زيارتي للعراق فوجئت بالجمهور هناك يطالبني بمونولوج «أهلاً بالزعيم الهمشري» لأن كلماته كانت تنطبق على زعيمهم اللي كرهه العراقيون «عبد الكريم قاسم» وكنت نسيت المونولوج لكن العراقيين كانوا يحتفظون لي بنسخة منه وكانت كلماته بتقول: أهلاً وسهلاً بالزعيم الهمشري.. الأسمري العبقري المفتري.. يا خير من فينا حكم.. وبك المواعظ والحكم.. ولكم شنقت.. وكم.. وكم.. لخبط في كل القيم!!».

شكوكو الرائد ابن الدرب الأحمر والكحكيين ودرب المحروق أول من غنى الفرانكو آراب قبل داليدا وسمير الإسكندراني«أشوف وشك تومورو يا دهب والباقي كورو»، وأول من ردد مفهوم صَنَع في مصر»، وإن قالها بالإنجليزية «حبيبي شغل كايرو ما فيش في القلب غيره»، من ولد في أول مايو من عام ١٩٢١، ليحتفل بعيد ميلاده مع عيد العمال كواحد منهم، نجار ابن نجار والجد نجار وكانت حجرة نوم جهازه من صنع يديه وظلت أدوات النجارة بالشاكوش والكماشة والمنشار بجواره ليستأنس بهوايته في أوقات فراغه.

من وجه طعنات نافذة للأغنية العاطفية المتجمدة بخفة ظله وأدائه المتميز في مونولوج «الأباريق الأباريق» الذي قال فيه:

«والـلـه غـلـبـت أحـن فـيـك
وادعـي وأقـول الـلـه يـهـديـك
يـعـني يـا سي المحـبـوب يـرضـيـك
أشـكـي تـقـول الـهـئ المـئ
الأبـاريـق الأبـاريـق
اتـعـطـف واسـمـح بـرضـاك
يـالـله اخـتـشي عـلى دم هـواك. . إلـخ».

وهذا المونولوج وأمثاله كانت مهمته شك بالونة الزيف العاطفي الذي يختفي بداخله الأغنية العاطفية، وإنزال عواطفها المتجمدة من سماء الخيال إلى بلاط الواقع، لهذا كان الناس يرحبون بها لأنها ترحمهم من سخافة الافتعال وزيف العواطف ودموع التماسيح، ولقد قامت بفضلها شهرة شكوكو وانتشر اسمه وفنه الشهير وأصبح هناك إلى جانب تمثاله قماش لشكوكو ولازمات كلام شكوكو «يا خبر أبيض، حاجة أنتيكة، يا خرابى»

ويعجب بأدائه مع الأراجوز وزير ثقافة رومانيا فيستضيفه ليدرس هناك فن عرائس المارونيت ليعود محققًا حلمه عام ١٩٣٦، في مسرح شكوكو للعرائس الذي قدم «الكونت دي مونت شكوكو» و«شكوكو في كوكب البطيخ» و«السندباد البلدي» حيث قام بتدريب كوكبة خريجي المعهد العالي للفنون المسرحية منهم يوسف شعبان وصلاح السقا، وحمدي أحمد وشفيقة سمير أحمد، وسيد راضي.

شكوكو أول من غنى السح دح إمبو قبل عدوية، كانت له مواقف وطنية رائعة منها في نكسة ١٩٦٧، عندما استأجر سيارة لوري حولها إلى مسرح على عجلات يزور جميع المحافظات للتبرع للمجهود الحربي، آخر أفلامه «شلة الأنس» مع نور الشريف إخراج يحيى العلمي، ومسرحية «زقاق المدق» مع صلاح السعدني ومعالي زايد من إخراج حسن عبد السلام وألحان بليغ حمدي واشترك فيها الفنان فاروق فلوكس الذي روى عنه أنه لم يستشعر فعالية لظهوره عندما يدخل المسرح

منذ البداية قائمًا بدور «سنقر» فاقترح أن يُدْخل على دوره أغنية خاصة سهر على حفظها طوال الليل ليقدمها في اليوم التالي فعالة مؤثرة، ومن خشبة العرض ينتقل شكوكو للحجرة رقم «٦٠١» بمستشفى القاهرة التخصصي ليقضي عشرين يومًا فقط قبل الرحيل في ١٢ فبراير ١٩٨٥، لتغني عرائسه في صناديقها وتطالب الضرائب أسرته بمبلغ ١٢٠ ألف جنيه وهو الذي لم يترك إرثًا لهم سوى الثمانين لاغير!!

و.. ألم يستقرأ ابن البلد محمود شكوكو مستقبليًا بعد نصف قرن حين صعد على المسرح ليردد مواله العبثي الشهير الذي قال فيه:

كان فيه تلاتة من حارة الطنبوكشي
اتنين عُميّ وواحد مابيشوفشي
قام اللي ما يشوفشي لقى تلاتة ريال
اتنين برّاني وواحد ما بيروحشي
قام اللي ما بيروحشي اشترى بيهم تلات وزّات
اتنين طاروا وواحدة ماقعدتشي
قام اللي ما قعدتشي حطوها في تلات طواجن
اتنين اتكسروا وواحد مافيهشي
قام اللي ما فيهشي دخّلوه الفرن
اتنين اتحرقوا وواحد ماطلعشي
قام اللي ماطلعشى قعدوا ياكلوا فيه
اتنين غضبوا وواحد ما أكلشي
قام اللي ما أكلشى راح يغسل إيديه
إيد زفرة والتانية مانشفتشي
لكِن حيغسل إيه من إيه
إن كان كل اللي اتقال ما حصلشي

شرير الشاشة.. محمود المليجي

الطيبون والأشرار خرجوا كلهم وراء نعش يوسف بك وهبي العظيم يودعونه لمثواه الأخير. . بين صفوف المشيعين تساند محمود المليجي على توفيق الدقن يهمس له: «الظاهر خلاص الدفعة مطلوبة وباين الحكاية بالدور يا تيفة». ويرد الدقن مجففا دموعه: «كله على ودنه يا بو حنفي». ويسقط خط الدفاع الأول والثاني يا مولاي، ويتمشى اللي ما يتسماشي بعشوائية منجله المرصود يحصد ما يحلو له من بين الصفوف بغض النظر عن مسألة السن أو الاختلاف ما بين الأخيار والأشرار، حقيقة أو تمثيلاً. . ولقد كان محمود المليجي هو الشرير الأعظم في تاريخ الشاشة إلى أن سطع نجم فريد شوقي، ليتقلص دور المليجي لحسابه حتى دخل الساحة أشرار جدد من نوعية حسن حامد بطل المصارعة خريج المعهد العالي للتربية الرياضية.

لكن نجاحه كان محدودا لتستقبل الشاشة بالحفاوة شريرا أرستقراطيا أنيقا من أبناء الذوات يشد أزره بكأس من السم الذهبي. . رشدي أباظة. . وظل المنتجون يحرصون على تلاقي المليجي ورشدي في أفلامهم إلى أن استقرت مكانة رشدي عند جماهيره، ومثلما كان على المليجي تقبل العلقة الأخيرة قبل كلمة النهاية من شوقي أصبح يتلقاها من أباظة ليسقط مدحورا من كل منهما لتسعد الجماهير، وربما كان فريد رحيما به أكثر لأنه كان يدخل المعركة فائقا مدركا وفي كامل وعيه وهو ما لا يفعله رشدي بطل الملاكمة الذي لا بد وأن لكمته كانت الغائمة في الصميم الدامي. . وعموما أصبح المليجي ملطشة الأبطال حتى لو كان متفوقا في الأداء.

ومضت الأعوام ويتراجع المليجي للمركز الثاني ليترك سباق المقدمة لمعترك شوقي ورشدي، وفي دورة الأيام يأتي عادل أدهم صاحب اللون الخاص في أداء الشرير ليزاحم الثلاثة الأصل والصورة والتقليد. . كل هذا بينما أستاذية المليجي لم تعترف بالتفوق عليها سوى لممثل واحد فقط هو العملاق زكي رستم عندما كان الشريران يجتمعان في لقاء السحاب إذا ما كان للشر سحاب: «كنت أنا إذا ما حملقت بعيني في وجه فتاة فإنها تنصرع وقد أقتلها بنظرة عيني، ورغم ذلك فإن زكي رستم إذا تطلع لي مضمرا الشر فإن ركبي تسيب ومفاصلي توجعني مقدما لأنه فنان يستغرق في الدور حتى يغدو من الصعب أن تخرجه من الشخصية التي تقمصه أو يتقمصها، ومن هنا كانت خشيتي لأننا لو كنا في معركة قاتلة فقد يقترف فعل القتل في نوبة اندماج أو شطحة صدق وتبقى مصيبة».

المليجي. . كانت في قدرته وقدرة عيونه أن يرسلها وهو قابع في مكانه وراء زناد البندقية أو في مخبأه بين أعواد الذرة أو خلف باب موصد فتشل أوصال الضحية لتتصنم موضعها في انتظار قدومه من بعد اشعاعات نظرات عيونه. . عيون حذر الممثلون بعضهم البعض من التطلع إليها أثناء التصوير، فمن ينظر في هاتين العينين لا بد وأن يتلعثم ويتعثر وتضيع منه كلمات الحوار. . عيون لها سطوة ونفوذ وإملاء، تأمر فتطاع، وتحكم فيتم تنفيذ الإعدام، وتبلبل الاتزان فيجن الإنسان. عيون كأنما فانوسان مشتعلان بقوة ألف حصان ترمح عصابتها تجاهك فتستسلم من لحظة طلتها وطلعتها. . عيون صاحبة إرادة فولاذية تتسع في لحظات التحفز والانقضاض للنهش المرير. . عيون تشرخها الشرايين الحمراء كأنها سجحات سيوف في معارك طاحنة لم تستطع النيل من أصداف الدروع الصلبة.

عيون يخيل لي أنهما كانا زاد وزوّاد المليجي في التمثيل، فيكفيه أن يؤدي بهما ليستريح هو. . عيون جعلت النجمة الشابة ترتجف وتنخرط في البكاء ليوقف المخرج التصوير ويتنحي بها جانبا يسألها ما بها فتقول: خايفة من الأستاذ محمود. . . . وتفر زبيدة ثروت مرتعدة الأوصال في مشهد جحظت فيه عيناه ليهدئ حسين رياض من روعها قائلا: إوعي تخافي منه، لأنه شخصيا لو شاف فرخة بتندبح

حيغمى عليه. ولم يكن في القول تشنيعة أو مبالغة على شرير الشاشة الضعيف أمام لون الدماء، ففي المرة التي كان فيها في نقابة الممثلين عندما كان مبناها مكان سينما القاهرة، وكانت لها حديقة أمامية يجلس فيها الفنانون في ليالي الصيف وحديقة خلفية يدلفون منها للمطبخ والمرافق، طلب المليجي دجاجة للعشاء وقام من بين أفراد الشلة للحديقة الخلفية فإذا بالجرسون يهرول بعدها صائحا للشلة إلحقوا الأستاذ المليجي مات، فهرعوا ليجدوه ممددا فاقد الوعي وأمامه تقفز دجاجة مقطوعة الرقبة ودمها يسيل، ولما أفاق شرح بانفعال أنه رأى الطباخ المجرم وهو يذبح الفرخة، ورغم حبه للملوخية بالأرانب فقد كان يغادر البيت حتى لا يكون في نطاق أرض المذبحة.

صاحب العيون بليغة الأداء تتجسد على سطحها صورة الشر، وعلى الجانب الآخر تعكس الانكسار ومهانة الضربة القاضية. . وتلك النظرة المنكسرة قال عنها الكاتب والمخرج رأفت الميهي: إن نظرة عيني محمود المليجي في نهاية فيلم (غروب وشروق) مع سعاد حسني حولت مجرى أحداث الفيلم لتجعله من فيلم مؤيد للثورة إلى فيلم ضد الثورة ورجالها، فلقد حدث أن الكاميرا في مشهد النهاية ركزت على نظرة المليجي الذي كان يلعب دور رئيس البوليس السياسي في لحظة انكساره وهو يودع ابنته سعاد في طريقه إلى السجن، ومن شدة الاندماج وبلاغة تصويره للحظة الانكسار تلك شعرنا نحن في العرض الخاص بأننا تعاطفنا مع شخصية رئيس البوليس السياسي الظالم، واضطررنا إلى حذف هذه اللقطة حتى لا تحدث أزمة ويصبح الفيلم ضد الثورة.

واكتفينا بلفتة منه تجاه الابنة ثم المغادرة منكسا دون أن يرفع عينيه إلى الكاميرا بنظرة الأسد الجريح. . عيون سريعة الدمع لم تلجأ في عمر تمثيل صاحبها إلى الجلسرين، فالبكاء عند المليجي لم يكن أبدا صناعة وأدوات فقد كان يعتبر أن الماكياج يخفي صدق التعبير ويصبح قناعا غشيما فوق قسمات ذكية. . البكاء كان في مفهومه انفعال جياش يتولد بالاندماج داخل الدور، وكان أبلغ دليل في مسلسل نادية، عندما بكى المليجي وأبكى جميع عمال الاستوديو في مشهد يرى فيه ابنته

وقد احترق وجهها الجميل، وظل لا يستطيع الخروج من دوامة بكاء تقمصته لمدة ساعة كاملة تعطل فيها العمل تماما حتى هدأ.

قال وقال وقال الكثير على الخشبة وفي الشاشة وبلسان الحقيقة: «أنا قلت كل كلام التمثيل.. الأدوار التي أصبحت تطلب مني تشبه الطعام البايت لا أشعر بقابلية لتناوله.. أنا تماما مثل السيجارة التي شربها المدخنون نفسا بعد الآخر وعندما أصبحت عقبا ألقوها على الأرض وداسوها بالأقدام.. في أوروبا عصر النهضة والعصر الفيكتوري وفي مصر الآن يسود عصر الكوميديا، والموجودون حاليا كوميديانات منهم ١٠٪ ممثلين.. مذكراتي لا أريد نشرها إلا بعد عمر طويل حتى لا أحرج من أحد وعندما انتهي منها تنتهي حياتي.. التليفزيون أصبح المكان الوحيد الذي أعمل فيه لمجرد دفع إيجار الشقة في بداية كل شهر.. عايزين الناس تموت من الضحك.. طيب ليه.. مش عارف؟!... يوسف وهبي كان يكن لي تقديرا لا يوصف وكان يعتبرني الامتداد الطبيعي له وكان يشركني في معظم أفلامه مثل فيلم برلنتي، حيث لعبت دور الصحفي الذي يبحث عن الفضائح ويشوه سمعة الناس بنشر أسرار خافية من حياتهم الشخصية.

كذلك أشركني في غرام وانتقام مع أسمهان، حيث لعبت دور ابن عم زوجها القتيل أنور وجدي الذي تمكن من كشف القاتل الذي لم يكن سوى يوسف ذاته.. ربطت بيني وبين فريد شوقي علاقة طيبة هو وحش الشاشة وأنا شرير الشاشة وظهرنا في عدة أفلام فلم يطغ أحدنا على الآخر.. لن أنسى سيدنا في كُتَّاب باشتك في شارع الجماميز الذي نشأت فيه، كانت لديه عصا طويلة جدا إذا مدها لمس أبعد تلميذ في الفصل وبذلك كان يتمكن من عقابنا جميعا دون أن يتحرك من فوق مقعده، وكذلك هناك البعض الذين يجرحون الجميع بلسانهم الطويل جدا.
.. الخروج على النص ليس سوى ابتذال وتهريج واستهتار بالجمهور والقيم المسرحية، في فرقة فاطمة رشدي تقدمنا لنيل جائزة المسرح وكانت مضمونة لنا مائة في المائة، ومضى كل شيء على ما يرام إلى أن قال أحد الممثلين لبشارة واكيم: الهكسوس على الأبواب يا مولاي فأجابه وهو في شدة اندماجه في التمثيل: على

الأبواب؟! يا أم هاشم.. وبسبب هذه الكلمة فقدنا الجائزة.. نظام الأجور في مصر جدعنة اللي يفاصل يأخذ أكثر.. عن دوري في فيلم الأرض أخذت ١٥٠٠ جنيه تمامًا زى نجوى إبراهيم.

أنا أصلع من سن الشباب والمعروف أن الصلع من الوراثة أو من الدفتيريا، لكن ولا واحد في عيلتي أصلع، ولا أنا أصبت بالدفتريا لكن الحكاية أني سهرت وأنا طالب مع أصحابي ليلة للصبح وفي الشارع اشترينا جمبري وقمنا به كله، ورجعت البيت أعض في المرتبة من وجع البطن لغاية ما كسرت أسناني وكنت باضرب راسي في الحيط وما حدش كان هناك يسعفني لأني كنت عايش واحداني وشفت شعري بعيني وهو بيقع على المخدة من التسمم الشديد، لأن الجمبري كان فاسدًا ومات منا تلاتة، وفي المستشفى قالوا لي إن الليمون البنزهير هو اللي أنقذني، ومن يومها وأنا أصلع وعلشان كده أخجل موت من نزول البحر لأن سيقاني زي راسي مافيهاش ولا شعرة.. قمت ببطولة تمثيلية تليفزيونية اسمها «نحن لا نشرب القهوة» وكان دورًا غير عادي قعدت أمثل فيه وحدي لمدة ٨٠ دقيقة، وأدركت المخرجة أني قمت بجهد غير طبيعي فطلبت لي في مذكرة خاصة أجرا استثنائيا فجاء الرد موقعا عليه بالآتي: لم يجر العرف على أن يتقاضى الفنان أجرا لمثل هذا السبب.. يغضبني من السينما ضعف إمكانات الاستوديوهات وكثرة الإنتاج الرخيص وفي المسرح التعليقات السخيفة ومسابقة قزقزة اللب، وكل الدنيا المسرح فيها تطور بالتكنولوجيا إلا في مصر، وسمعت من المعاصرين للشيخ سلامة حجازي إنه كانت عنده آلات ترش الثلج على المسرح وأنه بنى كوبرى فوق مسرح الأوبرا ليمثل أوبريت «الولدان الشريدان» كل ده في أوائل القرن العشرين.. وفي الإذاعة يغضبني نظام الدورة وعدم احترام مواعيد التسجيل والبروفات، ومن التليفزيون عدم التقدير والمعاملة اللاإنسانية، ومن الزملاء الفنانين نظرتهم السطحية للعمل، ومن فريد شوقي تصديقه لكل ما يقال عنه، ومن رشدي أباظة بسبب تهوره واندفاعه، ومن صلاح أبوسيف تخصصه في نوع واحد من الأفلام، ومن فاتن حمامة ما يقال من أنها لا تحب العمل معي، ومن عماد حمدي رغيه الكتير، ومن عادل إمام اهتمامه برفع أجره ونشر ذلك في الصحف، ومن أمين الهنيدي التمسك

بالفردية المطلقة على المسرح، ومن توفيق الدقن أشياء كان يفعلها وتوقف الآن عنها، ومن شكري سرحان أنه لما بيلعب الزمالك بيفقد أعصابه، وغاضب من نفسي لإني مش عامل حساب لبكرة.

في أول عمل بالسينما كنت أمتلك عربية قديمة وكان الزميل والصديق أنور وجدي عنده عربية أقدم منها وكنا قد أمنَّا على العربيتين في شركة جينفواز للتأمين.

ودخلت في أزمة مالية احتجت فيها لفلوس، وفي نفس الوقت كان أنور بيمر بأزمة مماثلة، وبمجرد ما شكيت له حالي قال لي الحال من بعضه، طيب نجيب منين يا محمود؟! نجيب منين يا أنور؟! وطقت الفكرة في مخنا في وقت واحد، ركب كل واحد عربيته ورحنا شارع الهرم ودبرنا حادث تصادم دخلت فيه العربيتان في بعض، وبعد التصادم المزيف كسر كل واحد قزاز عربيته وخلع أنور فردة كاوتش ورماها بعيداً في عرض الشارع، وجاء البوليس وكتب المحضر ورحت مع أنور لشركة التأمين وقبض كل واحد منا المبلغ . . أنا على الشاشة زي ما بيقول علم الاجتماع مجرم بالسليقة، لكن فريد شوقي مجرم بالملامسة فشكله طيب لكن ظروف المجتمع هي اللي رمته على الجريمة، أما إجرام رشدي أباظة فهو من نوع إجرام الشباب الطايش الذواتي، أما توفيق الدقن فهو المجرم الجعجاع أبو قلب طيب اللي يهدد ويثور وينزل على فاشوش . . وأنا في المغربلين أفلست وحجز صاحب البيت على عفشي وتم الحجز وبدأ البيع بالمزاد العلني وكان المطلوب ١٨ جنيهًا، وفضل الرجل يدق الجرس على باب البيت والخلق تسأل عن الساكن المفضوح وعرفوا أنه عفشي فاستنكروا مني عدم لجوئي لهم وكان أكثرهم غضبًا عم عبده بدره بياع الطعمية والحاج عز الجزار ومتولي بتاع اللبن، وأصروا على دفع المبلغ وبعد ما لميت عفشي ورحلت ما حدش من أهالي الحي سكن مطرحي عقابًا لصاحب البيت على قلة مروءته . . أمي عاشت حياتها مريضة قلب لغاية ما ودعت الدنيا وكنت جنبها على طول إلا يوم وفاتها كنت على المسرح ومات أبويا يوم ما ماتت أمي لأنه كان بيعشقها، صحيح أنه عاش بعدها سنتين، لكنه كان اتعمى من البكاء واختل ومات مجنونًا . . عملت منتجًا بعدما كونت شركة سنة ١٩٤٧،

بالفـردية المطلقـة على المسـرح ، ومن توفيـق الدقن أشيـاء كـان يفـعلهـا وتوقف الآن عنهـا ، ومن شكري سـرحـان أنه لما بيلعب الزمالك بيـفـقد أعـصـابه ، وغـاضب من نفسي لإني مش عامل حساب لبكرة .

في أول عـمل بالسينمـا كنت أمتلك عـربيـة قديمة وكـان الزمـيل والصـديق أنور وجدي عنده عربية أقدم منها وكنا قد أمنَّا على العربيتين في شركة جينفواز للتأمين .

ودخلت في أزمة مالية احتجت فيها لفلوس ، وفي نفس الوقت كـان أنور بيمر بأزمة مماثلة ، وبمجرد مـا شكيت له حـالي قال لي الحـال من بعضه ، طيب نجيب منين يا محـمـود؟ ! نجيب منين يا أنور؟ ! وطقت الفكرة في مـخنا في وقت واحـد ، ركب كل واحـد عربيته ورحنا شارع الهرم ودبرنا حـادث تصـادم دخلت فيه العربيتـان في بعض ، وبعـد التصـادم المزيف كسر كل واحـد قزاز عـربيته وخلع أنور فـردة كـاوتش ورمـاها بـعيداً في عرض الشـارع ، وجاء البوليس وكتب المحضـر ورحت مع أنور لشـركة التـأمين وقبض كل واحـد منا المبلغ . . أنا على الشـاشة زي مـا بيقـول علم الاجتمـاع مـجرم بالسليقة ، لكن فريد شـوقي مجرم بالملامسة فشكله طيب لكن ظروف المجتمع هي اللي رمتـه على الجـريمة ، أمـا إجـرام رشدي أباظة فـهو من نوع إجـرام الشـبـاب الطايش الـذواتي ، أما توفيـق الدقن فـهـو المجـرم الجعـجـاع أبو قلب طيب اللـي يهـدد ويثور وينزل على فـاشـوش . . وأنا في المغـربلين أفلسـت وحـجـز صـاحـب البيت على عفشي وتم الحجز وبـدأ البيع بالمزاد العلني وكـان المطلوب ١٨ جنيـهـًا ، وفـضـل الرجل يدق الجـرس على باب البـيـت والخلق تسـأل عن السـاكـن المفضوح وعـرفوا أنه عفشي فـاستنكروا مني عدم لجوئي لهم وكـان أكثرهـم غـضبًا عم عبده بدره بياع الطعمية والحـاج عز الجزار ومتولي بتاع اللبن ، وأصروا على دفع المبلغ وبعـد مـا لميت عـفـشي ورحلت مـا حـدش من أهالي الحي سكن مطرحي عـقـابًا لصاحب البيت على قلة مروءته . . أمي عاشت حياتها مريضة قلب لغاية ما ودعت الدنيا وكنـت جنبهـا على طول إلا يوم وفـاتهـا كنت على المسرح ومـات أبويا يوم مـا ماتت أمي لأنـه كان بيعشقـهـا ، صحـيح أنه عـاش بعـدهـا سنتين ، لكنه كان اتعمى من البكاء واختـل ومـات مـجنونًا . . عـملت منتجًا بعدمـا كـونت شـركـة سنة ١٩٤٧ ،

وقدمت مجموعة من الأفلام منها الملاك الأبيض والأرملة القاتلة ونحن بشر وسوق السلاح وغيرها، لأن فيها أدوارًا لا أستطيع إقناع المنتجين بها، أنتجتها لأعطي الدور كل أبعاده اللي بتنبع من كياني وعلشان أكون حرًا في الحركة والتعبير، ونجحت أغلب الأفلام لكني أفلست وقعدت أشتغل ليل نهار أسدد ديوني بعد فيلم «آلو أنا القطة» و«مدينة الصمت» وطالبتني مؤسسة السينما بتسديد ٦ آلاف جنيه ديونًا وعجزت، ومن جهة ثانية حكمت علي الضرائب بمبلغ ٢٢ ألفًا، شمرت وبعت كل ما أملك وشحت من الزملاء أسدد علشان الهروب من السجن».

وتظل حاضرة شهادة أدلى بها ابن أخيه إيهاب المليجي الممثل ومخرج الإعلانات: «كان عمي محمود يعتبر علوية زي والدته، وكانت أكبر منه وشخصيتها أقوى منه بكتير، ينصاع لجميع أوامرها وطلباتها خاصة بعد اكتشافه كما أخبره الأطباء بعد فترة من الزواج بأنه لا يستطيع الإنجاب. كانت علاقته بإخوته طيبة خاصة مع والدى حسن المليجي مدير مصلحة الضرائب، وكان يزورنا شايل الهدايا، وبعد وفاة والدي سنة ٧٠ تبناني لأرافقه حتى وفاته، وفضلت علاقته جيدة بأبناء عمه حسين وأنور وسعد وفاطمة أخته في الرضاعة، وكان كل دخله يحطه عند علوية وهي تشيل الفلوس في البيت، ولما توفي كان عليه قسط العربية الداتسون البيضاء، وكانت له شركة إنتاج في شارع شريف اسمها «الفضي» قدام شركة فريد شوقي، وكان يشرف على الشركة محسن إسماعيل رضوان، وكانت علوية ترفض زيارة أي واحد له في البيت فكان يقابل أصحابه في القهوة أو على الكازينو، وأهم أصحابه المخرج كمال الشيخ وسعد الشيخ والمخرج المسرحي أحمد زكي والممثل عبد الله الحفني، وكان يواظب على صلاة الجمعة في مسجد باب اللوق مع الممثل عبد المنعم إبراهيم. كان عمي بيدخن سجائر مارلبورو بشراهة ويوصل معدله لأربع علب في اليوم ويحب البطاطا ويعمل منها صواني هي والمكرونة الباشاميل، وكان له أودة منعزلة في شقته ٧١ شارع البرازيل بالزمالك يسميها «أودة المزاج» لا يجرؤ أحد على دخولها يقرأ فيها السيناريوهات ويكتب مذكراته وأفكاره ورؤيته لمجلس الشورى، وفي مرة طلع يجيب الأسانسير من فوق انحشر ما بين الباب والحيطة وتعرض لموت محقق، وكنت تحب تسمع منه ضحكته

المجلجلة المميزة والكل كان يحبه، وخصوصا إيزيس بنت علوية جميل اللي رباها وجوِّزها وخلفت يسري واتعلق به وكان طول الوقت رايح جاي معاه، ومن هوايات عمي محمود الصيد في الفيوم يروح كل شهر بالبندقية يصطاد هناك».

ويظل نابليون إمبراطور المعارك والملك المتوج للقول البليغ فهو الذي قالها فتش عن المرأة. . . . فتشت أنا عنها في حياة نجمنا وهتفت وكأني أرشميدس: وجدتها!! وجدتها!! الياصابات خليل مجدلاني من أصل لبناني بقى اسمها الفني علوية جميل. امرأة قادرة وقوية وزميلة فرقة رمسيس وأكبر من ابن المليجي بكتير حطته في دماغها من بعد ما كانت قد أنجبت من زوجها الأولاني بنتين. مدت له شباك الحب كعبلت محمود وكان فصل الختام في رحلة للفرقة لتقديم عروضها في دمياط لما أتاه خبر وفاة أمه وقعد يبكي فراقها ويبكي الفلس. دوغري علوية الذكية قامت بحركة شهامة ما يقوم بها أعتى الرجال، أعطته في السر عشرين جنيها مصاريف الجنازة والسفر، فضحى ببطولة فيلم العزيمة وأعطاها في المقابل حريته وروحه وزواجًا أبديًا استمر ٤٥ سنة يا ولداه.

وكان لا بد فيها من أنه يلعب بذيله، لكن على مين؟!! علوية القوية مصحصحة من موقعها العلوي طيرت من أحضانه بالأمر السلطاني كل من سولت لها نفسها الاقتراب من نجمها الشرير، بداية من لولا صدقي في عام ٥٣ ملكة الإغراء في السينما المصرية ذات القوام الرشيق واللثغة المحببة، فاختنق الحب أمام عدم القدرة على الزواج علانية أو سرا تحت نفوذ الرقابة المستمرة. . وتعلق قلب شريرنا الدون جوان بزميلته درية أحمد والدة سهير رمزى في أواخر الخمسينيات فقام باقتراف الخطأ الجلل وهو لا يزن ضعف مقاومته كدونكشوت. . تزوجها في السر. . ووصل الخبر لعلوية القوية لتجبره على طلاقها على الفور، وقام إسماعيل ياسين صاحب الفرقة بفصل درية لإرضاء علوية. . ويقع محمود في غرام سميحة توفيق نجمة صف الإغراء من بعد ميمي شكيب. . تزوجها في السر. . بلغ الخبر علوية القوية طلقتها منه، ولأن من خصال محمود قلبه الضعيف أمام فتنة بطلات فرقته عقد قرانه أمام شاكر عبد الباقي المأذون الشرعي في إمبابة على فوزية الأنصاري

خريجة الحقوق وزميلة نبيلة عبيد في فرقة إسماعيل ياسين، ودفع لها مهراً ألف جنيه ٣٠٠ مقدمًا و ٧٠٠ مؤخراً، وبلغ الخبر أسماع علوية القوية فحددت إقامة البعل العزيز جنبها في البيت، ورفعت سماعة تليفون الصالون تعلن فرمانها لأبوالسعود الإبياري مدير الفرقة بأن محمود لن يغادر مطرحه بجوارها، وأبدا لن يخطي عتبة المسرح إلا من بعد تسريح فوزية، وبالفعل قام عبد الله فرغلي بأداء دور المليجي لليلة واحدة كانت كافية للطلاق والطرد وإزالة جميع الآثار . . . ولأن الزمار يموت وصباعه بيلعب لعب محمود وعرف يلعب ويداري سره في بير عندما مكث سنوات في الخفاء متزوجا من نجمة الكوميديا الراحلة سناء يونس، التي لامست فيما بينهما شرارة الحب فاندفع متأججا في مسرح البالون مع زيارات سناء المعجبة بأدائه الفذ في مسرحية «زبائن جهنم» . . وعرفت علوية القوية فخرجت سناء من اللعبة بعدما رمت عليها الولية يمين طلاق بالتلاتة وكسرت من وراها القلة، ومات محمود وقعدت علوية من بعده في البيت دستة سنين بقدر السنين التي كانت تكبره بها!!

محمود المليجي عضو مجلس الشورى، صديق عبد الناصر والسادات، زميل مصطفى وعلي أمين وفتحي رضوان ويوسف حلمي وكامل الشناوي وعبد الحميد يونس وعبد الرزاق صدقي في الإبراهيمية الثانوية، من جلس على تختة واحدة مع أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة ليدفعهما حب التمثيل لعزيزة أمير للظهور في فيلمها الأول الصامت ليلى ويشتركا معا في أدوار الكومبارس بفرقة رمسيس. محمود المليجي حكاية مصرية لكفاح فنان لم يصل إلى مكانته بكارت توصية أو بقرار وزير وإنما من البدروم وأول السلم. من تحت الصفر. من دور كومبارس لا ينطق بكلمة. من عشرة قروش إلى ٧٥٠ فيلما و ٧٤ مسرحية. . وصل من تواضعه رغم عظمته. من بساطته رغم مجده. . محمود المليجي أحد نجوم فرقة الإخوان المسلمين المسرحية التي قدمت أول عروضها جميل بثينة من تأليف عبد الرحمن البنا شقيق حسن البنا من إخراج لجنة تشجيع التمثيل في وزارة المعارف عام ١٩٣٤، واشترك فيها مع المليجي كل من جورج أبيض وأحمد علام وعباس فارس وحسن البارودي وفتوح نشاطي.

ومن الممثلات فاطمة رشدي وعزيزة أمير، واستمر مسرح الإخوان حتى أوائل الأربعينيات بنجومه: محمود المليجي وعبد المنعم مدبولي وإبراهيم الشامي وسراج منير ومحمد السبع وشفيق نور الدين وإبراهيم سعفان وسعد أردش وحمدي غيث وعبد الله غيث.. محمود المليجي المطرود من الغناء على يد محمد عبد الوهاب: «صوتك يا أستاذ نشاز مينفعشي ولا حتى في الكلام اتفضل اطلع بره». محمود المليجي المطرود من الموسيقى على يد بديعة مصابني، لأنه قطع في عزفه أوتار الكمان.. محمود المليجي المطرود من البيت لغضب والده عليه.. محمود المليجي ابن ٢٢ يوليو ١٩١٠، تلميذ عزيزة الفحلة، فتوة المغربلين حاملة الشومة صاحبة اللسان الطويل وسرعة الخاطر والحذاء الرجالي التي تنطح برأسها وتصيب بركبتها وتصرع بكفها ليشجعها زوجها معلم القهوة وهو يسمع صفعاتها لأحدهم أو طرقعة روسيتها لثان، فيعالج الفحم فوق التبغ على عمامة الشيشة هاتفا: عفارم إديله يا عزوز.

محمود المليجي بئر الحرمان والاختيار وإضراب الشحاتين.. محمود المليجي عودة الابن الضال. محمود المليجي غروب وشروق. محمود المليجي الأرض. محمود المليجي الناصر صلاح الدين وسلامة ووداد. محمود المليجي الله معنا.. محمود المليجي شريب القهوة. محمود المليجي أمنيته أن يموت أمام الكاميرا.. مات وفي يده فنجان القهوة في انتظار دوران الكاميرا ليحتضنه عمر الشريف.. أيوب... محمود حسين المليجي حامل أختام علوية قالت كده!!

الشحرورة

سألت عنه مشرف الدور السادس بالأهرام فأجابني بانفعال يكاد يدفعه إلى أن يترك مقعده ليصحبني بنفسه إليه . . وعجبت للرجل الذي أعهده هادئا لا مباليا مكتفيا بهز رأسه للأمام بمدلول الإيجاب، وعلى الناحيتين في إيجاز النفي أو عدم العلم أو لا تسألني من أصله . . عجبت من أنه واقف مش على بعضه متطلعا بهيام إلى بعيد لباب حجرة مكتب الكاتب الكبير الدكتور يوسف إدريس الواقع في نهاية الممشى على الشمال، حيث طرقت الباب ودخلت فوجدتهما . . هي وابنتها مرة واحدة . . صباح وهويدا . . جالستان تلمعان بوضعهما الفتان تحت شلال الشعر الأشقر أمام الفنان الغلبان الذي لا حول له ولا قوة في مسار قوة الإغراء الثنائية فما كان مني إلا أن تفوهت غصبا عني أقول حرام عليكم واحدة واحدة عليه . . الرجل ليس حملكما معا خاصة وأنه لسه خارج من جراحة كبيرة في القلب . . وكنت صادقة، فالجو مشبع بمغناطيسية الانجذاب والمثول وأتاني رد الثلاث ضحكات مرتفعة، ولما لم أدع للجلوس أخذت الباب ورائي ورحت لحالي وتركت يوسف إدريس الخارج من النقاهة في مركز الدوامة وصاحبتها التي تحبها وتغني لها .

من قبلها بعديد من السنوات قام رئيس التحرير صاحب القلم السياسي التليد والنقد الفني الفريد وقصة حب نتداولها سرا وعلانية، بطلتها الشحرورة التي غنت له : آه يا معلم يا معلم . . قام بعقد قرانه على زميلتنا الخجول التي تتدرج وجنتاها بدماء الكسوف لمجرد كلمة إطراء أو سماعها عبارة تخرج عن مألوف هزارنا المدرسي الطابع، وحضرنا حفل الزفاف في الكنيسة، وبعد عودة العروسين من شهر العسل ذهبنا للتهنئة ففوجئنا بالزميلة التي كانت ترتدي الثوب المتزمّت المغلق

حتى الزور مع الجزمة الزحافي والشراب السوكيت القصير تستقبلنا بروب أحمر شيفون شفتشي وشبشب ساتان بورد ريش، وكعب نايلون مع روج شفاه فاقع يرسم شفاها فوق شفاهها و: أعمل إيه يا ولاد لازم أكون قدّها. . قد المسئولية. كلكم عارفين أنا جاية بعد مين!!

شمس الشموس بعدما غربت عنها الشمس أصبحت تتحسس الخطى، فالوقوع في مثل عمرها لا تحمد عواقبه، مع جسد رهيف نحيف حافظ على رشاقته رجيم الزيتون والجبن حتى بات مجففا تتخمه زيتونة يهوي إلى الأرض لمجرد الالتفاف، كما حدث لها أخيرا في مجمع بورتميليو السياحي على شاطئ جونية حيث وقعت وكسر كتفها لتداري صباح أسباب الوهن الحقيقية بأنها قد حسدت بصيبة العين. . في عزلتها القسرية تخرج الصبوحة إلى شرفة غرفتها بفندق الحازمية بشرق بيروت حيث المستقر الأخير بعدما فقدت بيتها وخسرت أثاثها وضاعت فساتينها وتبدد حلمها في أن يضم تراثها السمعي والبصري وتمثالها الشمعي بالحجم الطبيعي معرضا دائما مثل كبيرات نجوم هوليوود الذي كاد زوجها السابق فادي لبنان أن يخرج به إلى حيز الوجود. . ريشة تقف في مهب رياح الزمن الزاحف بسرعة تعوض تباطؤه المسبق مع أول فنانة عربية وقفت على مسرح الأولمبياد بباريس في منتصف السبعينيات وعلى مسرح كارناجري هول في نيويورك ودار أوبرا سيدني في أستراليا وقصر الفنون في بلجيكا وألبرت هول في لندن ومسارح لاس فيجاس وعواصم العالم العربي وصنعت الدويتو الغنائي مع أنريكو ماسياس في التليفزيون الفرنسي. . رحلة حياة ابنة الحلاق جانيت فغالي المولودة في ١٠ نوفمبر ١٩٢٧، قرب وادي الشحرور الذي أتى منه لقبها الشهير الشحرورة، والتي جاءت إلى مصر لمقابلة المنتجة آسيا تحمل خطابات توصية من شخصيات لها وزنها في لبنان مثل رياض الصلح رئيس الوزراء، والشيخ بيار الجميل لشخصيات لها وزنها في مصر مثل إحسان عبد القدوس وعلي ومصطفى أمين، وتعاقدت معها آسيا على بطولة فيلمين من إنتاجها «القلب له واحد، وهذا جناه أبي» نظير أجر قدره مائة وخمسون جنيها عن كل فيلم، وتحولت جانيت الفتاة التي تبحث عن فرصة للغناء إلى الفنانة صباح، وكان من اختار لها هذا الاسم الشاعر صالح جودت الذي اشترك في كتابة

أغاني الفيلمين، لأن وجهها كان مشرقا كنور الصباح ويرتفع الأجر مع فريد الأطرش إلى ثمانية آلاف لفيلم بلبل أفندي، ثم عشرة مع يوسف وهبي لتمثيل دور ابنته في فيلم شمعة تحترق، عندما أسندت البطولة لعزيزة أمير ومن فيلم القلب له واحد الذي غنت فيه وشوشة للسنباطي من إخراج بركات عام ١٩٤٣، إلى آخر أفلامها «ليلة بكى فيها القمر» عام ١٩٨٠ مع حسين فهمي، الذي تروي فيه قصتها مع وسيم طبارة الزوج قبل الأخير، وما بين الفيلمين قدمت ٨٥ فيلما وأكثر من ثلاثة آلاف أغنية والعديد من المسرحيات الغنائية بلغت الـ ١٦ مسرحية.

العاشقة الغلبانة بالقوي قيل الكثير عن حبها للحياة، وقد يصح القول بأن الحياة كانت هى التي تحبها فمبدأها كان طنش تعيش ويا دلع دلع ويمينك لف شمالك لف لحد حبيب القلب وقف ـ الأغنية التي ترجمت للروسية لتكون الأسطوانة الأكثر مبيعا هناك ـ وقد توقفت صباح عند أكثر من حبيب لتتزوجه.. نجيب الشماسي والد ابنها صباح الذي طلقت منه عام ١٩٤٧، وأنور منسي والد ابنتها هويدا، وأحمد فراج الذي تزوجته عام ١٩٦٠، لمدة ثلاثة أعوام، ورشدي أباظة الذي لم يدم زواجها به أكثر من عام، ووسيم طبارة، وفادي لبنان ودام زواجهما لمدة ١٧ عاما.. وتزوجت من الأمير خالد سعود في عام ١٩٦٩، ولم يدم الارتباط سوى شهر واحد ثم كان الانفصال بسبب طلبه منها اعتزال الفن، وقيل عن زواجها لمدة ساعات من الملحن بليغ حمدي الذي عقد قرانه عليها في إحدى السهرات.. تزوجت فادي وكان عمره ٢١ عاما وعمرها ٧٥ عاما، ليطلق من أجلها إليان خوري ملكة جمال لبنان التي رزق منها ابنته رنين وقال عن زواجه بها: «تزوجتها لأني أحببتها وأقسم أننا طوال زواجنا لم نختلف على حبة زيتون لكن ارتباطي بصباح بدل أن يأخذني للأمام سحبني للوراء».. ويسألون عمر محيو ملك جمال لبنان ابن الـ ٢٥ ربيعا آخر حبيب في مسلسل رجالات صباح: «هل حدث وأنت تراقص صباح أن حمل النسيم شعرها إلى وجهك؟». فأجاب ضاحكا: «هذا جائز لأن أحدا لا يتحكم في النسيم حتى مصلحة الأرصاد التي تعجز بذاتها عن تحديد حركات النسيم أو تغييرها». وتخلع الصبوحة على عمر الوسيم فلسفتها الخاصة جدا بقولها: «أحببته لأنه صادق وأفكاره جميلة، وعلى الرغم من فارق السن فأنا

طفلة أكثر منه وأستطيع أن أثبت للناس أنه باستطاعتهم الحب حتى آخر رمق، وتجربتي معه جميلة جدا لم يجرحني فيها بكلمة واحدة، ولقد كان يريدني أن أوصله للشهرة وعندما حدث انتهى ما كان بيننا».

صاحبة الأغنية التي أثارت رقابة المصنفات الفنية باحبك بشدة من ألحان الموجي في فيلم «الأيدي الناعمة» وأجيزت بعد طول جلسات ومناقشات، كانت لها الكثير من الأغاني التي دخلت كلماتها وألحانها في نسيج التعبيرات المصرية الحميمة مثل الغاوي ينقط بطاقيته، والبساطة، وحبيبة أمها، وبين الأهلي والزمالك احترت والله، وحسونة ما ترد علي، ولأه لأه يا مدِّوبلي قلبي خصام وفرقة، وجينا الدار نسأل ع الحبايب، ويانا يانا لبليغ حمدي وعالضيعة التي لحنها لها عبد الوهاب، والراجل ده هيجنني، وفي عام ١٩٦٦، وأثناء العمل في فيلم نار الشوق الذي ظهر فيه حسين فهمي لأول مرة بطلا وشاركت هويدا في التمثيل، أجبر رشدي أباظة تحت تهديد السلاح الملحن بليغ حمدي أن يتنازل كتابة لصباح عن أغنية «عاشقة وغلبانة والنبي» من كلمات محمد حمزة التي كان قد لحنها لمطربة أخرى.. وتعود صباح للقاهرة بعد غيبة أربع سنوات أثيرت فيها أقاويل وشائعات لتغني في حفل أضواء المدينة تعبيرا عن شوقها للقاهرة من كلمات الشاعر الكبير فاروق شوشة :

«راجعة والشوق في العيون جاية للصدر الحنون»

وتظل صباح فارسة الأوووف الطويلة حتى وقتنا هذا على مقدرة مذهلة في غناء التراث اللبناني الأصيل بالصوت الجبلي الممتد باتساع الفضاء: أوووف.. ويا هويدا هويدا لك ع قلبي يا حلوة لا تتدللي.. وأبدا لم تكن أيام صباح كلها زي العسل لكنها امرأة لكل العصور الحلوة والمرة، ويكفيها في حياتها حادثان مفجعان أولهما عندما كانت مع شقيقاتها عائدات من مدرسة الجيزويت وقت الظهيرة وكانت جولييت الأكبر سنا تمشي كعادتها في المقدمة، وإذا بصوت فرقعة مرتفع ولوهلة لم يدرك أحد ماذا حدث إلا بعد الإفاقة على مشهد جولييت مضرجة في دمائها على الأرض بعد إصابتها برصاصات قناص مجهول.. والحادث الآخر راحت فيه أمها وأخوها معا، وذلك عندما كبرت في مخ الابن بأن والدته على

علاقة بأحدهم فما كان منه إلا أن أردى الأم والرجل بالرصاص ليهرب بعدها إلى البرازيل . . وتنسى صباح أو تتناسى المشهدين وتغني وتغني، ويضع الناقد الكبير عبد القادر القط أغانيها في ميزان النقد ليقول : «جميع أغاني صباح هادفة ويجب الاستماع إليها لأنها تعبر عن روح العصر». وإذا ما كانت الصبوحة قد عرفت كيف تعيش حياتها الخاصة والفنية فهي لم تعرف كيف تدبر أمورها المادية ولا أن تضع تحت البلاطة شيئا للزمن، وها هي اليوم مضطرة في شيخوختها إلى القبوع في حجرة فندق يدفع إيجارها أحد الأصدقاء بعد أن أهدرت الكثير من المال من جراء سخائها وزواجاتها، والآن تجلس وحيدة أمام جبال الذكريات وماض كان شيقا ذات يوم: «لم يعد معي من الأصدقاء سوى مصفف شعري جوزيف غريب . . عايزة أموت فرحانة والعزاء بالدبكة وعدم ارتداء السواد. في أمريكا رغم وجود أولادي صباح وهويدا أشعر بالوحدة بعيدا عن أرض فني وجمهوري وجبل لبنان . عندما يكون الفنان في بداية عمره يمشي زي الديزل وبعدها يقعد في السبنسة شايل على أكتافه عمره ومرضه. قلبي تعب من كثرة الحب. أنا ست واضحة وغيري كثيرات يتزوجن عشرين مرة في الخفاء. تجاربي كلها معلنة ومطروحة لمناقشة ودردشة وشائعات الجمهور. بعد فادي أنا تعبت. الفنانة المشهورة عندما تكون بمفردها بدون حماية يطمع فيها الناس ويسرقونها. لم يكن عندي وقت لكي أكبر، فالشيخوخة في حاجة إلى وقت، وأنا كنت أنتقل من عمل لآخر حتى فقدت الإحساس بالوقت. لم يتركني رجل في حياتي أنا من تركتهم جميعا . لو عاد بى الزمان لا كنت تزوجت ولا خلفت لأن الواحد بيفضل شايل هم الأولاد لغاية ما يموت. أنا اتعذبت كتير بسبب أولادي هويدا وصباح. البنت أخذها أبوها أنور منسي وحرق قلبي عليها وهي طفلة تمام زي ما حصل مع نجيب شماسي وابني صباح ـ الطبيب النفسي الآن ـ فهو ملاك لم يغضبني يوما وأسعدني بأربعة أحفاد الله يخليلي إياهن. . فشل زيجاتي السبع سبعة الكارات يعود إلى حقيقة الزوج الشرقي الذي لا يستطيع التفاهم مع فكرة الزوجة الأكثر شهرة وغالبيتهم ساوموني على الاعتزال، لأن الشرقي بطبعه أناني يريد زوجته له وحده، وهو ما كنت أرفضه فتتحول حياتنا إلى صدام. رشدي فضل يحبني حتى بعد انفصالنا، وكان يرسل لي

في كل مناسبة وردًا أحمر، وعندما زرته في مرضه الأخير قال لي أول ما أقف على رجلي حاخدك نلف الدنيا معا. بكيت عندما زرت أحمد مظهر في أيامه الأخيرة وتذكرت عنفوانه وجماله في الأيدي الناعمة. . أنا أول من قدم الأغنية السريعة البسيطة فكنت الشرارة الأولى للأغنية الشبابية. كنت على علاقة طيبة بكل رجال ثورة يوليو وأحادث الرئيس جمال عبد الناصر بشكل مباشر ويسألني عن أموري وأشعر بالاطمئنان في وجوده، ويوم رحيله بكيت كما لم أبك في عمري، وارتبطت بصداقة مع الزعيم الراحل أنور السادات الذي أعطاني بيده جواز السفر المصري تكريما لفني، وعندما اعتذرت في عام ١٩٦٥، عن مقابلة فخامة الرئيس شارل حلو في مهرجان بعلبك بأني تعبانة كان بسبب تجاهل القصر الجمهوري طلبي بتحديد موعد لي لمقابلته هذا على الرغم من أن لي علاقات حميمة بكل الزعماء والملوك العرب. . بصراحة لم يعرض علي أي دور سينمائي منذ سنوات طويلة. لم أتعمد أن تصل الأغاني التي قدمتها إلى ٣٠٠٠ أغنية وأكثر لكني تواجدت في زمن الفن الجميل الذي توافر فيه الشعراء الجادون ومؤلفو الأغاني ذات المعاني المعبرة التي تمس القلوب والملحنون الذين يعرفون كيف يوصلون الكلمة والمعنى بالصوت حسب إمكاناته، فهل كان من الممكن أن أرفض كلمة حلوة أحسها، الرفض كان غير منطقي، ولهذا غنيت الكثير ببساطة ويا عيني ع البساطة. . غنيت لزكريا أحمد أروح ما أروحشي، ولرياض السنباطي راحت ليالي وجت ليالي وإنت يا غالي دايما في بالي. رشدي كان أقصر زواج لكنه الأعمق ومن لم تتزوج رشدي لم تعرف يعني إيه زواج. . الزمن خارج ساعتي ومحمد عبد الوهاب سجل من غير ليه بعد الثمانين. . أحب اللون التركواز في فرش البيت والأبيض في الأزياء. لا أتدخل في اللحن لأني غير ملحنة. أنا كده دلوعة دايما. في حفل تكريمي الأخير بالأوبرا في مصر قابلني الجمهور واقفا مصفقا، وفي لبنان لا يكرمون الفنان إلا ميتا. اللي تقول إني أخذت جوزها يبقى ماكانشي عندها ثقة في نفسها. الحسابات تورثني الرعشة والقلق. الشهرة يقاسي منها المشهورون أكثر من تذوقهم لذاتها. لماذا أعتزل طالما الفن لم يعتزلني. حكاية البودي جارد للفنان حركات استعراضية لا معنى لها سوى لفت الأنظار، ثم إن الفنان ليس عضوا في

عصابة المافيا والله هو الحارس الوحيد. الفارق بين فريد وعبد الحليم زي أكلتين واحدة تغذي زي الفراخ المسلوقة وأكلة لا تغذي زي الطرشي والإنسان دائما يقبل على الطرشي رغم أنه مضر على الصحة والفراخ المسلوقة أسلم للصحة. فيروز حبيبة قلبي إنسانة عظيمة وفنانة كبيرة ودائما أنا وهي على اتصال. أحب من أفلامي شارع الحب مع عبد الحليم، وليلة بكى فيها القمر لأني قدمت فيه ساعات ساعات الأغنية التي عبرت بصدق عن حياتي. سعيد فريحة كان السبب وراء تركي لرشدي أباظة لأنه راح ينشر صورا لسامية جمال وهي بتكنس وتمسح وتعيط عليه وراح الناس يقولوا إني السبب في بعده عنها ومن هنا صممت على الطلاق، وشاءت المصادفات أن أسافر للمغرب لإحياء حفل بدعوة من الملك الحسن فأغرمت بزوج أخت الملك مولاي على وكان بيجنن، وهكذا انتهت حكايتي مع رشدي أباظة، أغرمت بمولاي علي وتركت مولاي رشدي، والله يقصف عمر الحب. . عندي أربعة أحفاد من ابني صباح هم دانيا ونجيب وتوأم أسماهما صباح وجانيت التي بلغت ٢٤ سنة وأدللها جانو. هويدا طول عمرها طبعها أجنبي وحياة بيروت لم تستهوها. المطربة مادونا ترعرعت في بيتي وهي صديقة لهويدا وعندما أراها أشعر بأن أمامي العروسة باربي. أؤمن بالمثل اللبناني في مد يد العون دون انتظار لرد الجميل مبارح راح وبكرا بعد وبعيد. لا يهمني سوى أن أنام على ملاءة سرير نظيفة. كان البيت الذي أعيش فيه ملكا لهويدا فاستأذنتها في بيعه فوافقت خاصة أنها لن تكون في حاجة إليه من بعدي لأن عندها في أمريكا شقة من حجرتين. عمري ما كان عندي رصيد أو شركات باسمي وعندما ولدت ابني صباح لم يكن معي أجرة المستشفى واستلفت من أحد المنتجين في لبنان ألف ليرة. سأموت في الفندق مثل أحمد زكي. في مصر رقابة حريصة على المشاهد، أما في لبنان فأي مطربة تستطيع أن تظهر عبر الفضائيات بالشكل الذي تراه. الفرق بين المطربة في زماننا والمطربة الآن أنها زمان كانت تغني وهي واقفة والآن تغني وهي نايمة. مصر في دمي وهي التي صنعت اسم صباح. أحب شيرين وشيرين وجدي وأنغام وعمرو دياب وأحب جدا نانسي عجرم، وهذا عصر هيفاء وهبي. ما يقدم الآن مونولوجات تشبه ما كان يقدمه إسماعيل ياسين وثريا حلمي. إذا أردت أن أتزوج

الآن فما على سوى أن أشير بأصبعي والغاوي ينقط بطاقيته. زواري الآن أختي لمياء وابنتها وابنة أختي سعاد ولي أخ في أمريكا والثاني في البرازيل. ابنة زوجي السابق وسيم طبارة في إيطاليا ولا تتصل بي، وابنة فادي مفهومها أني أخذت منها أباها. كان فادي يناديني مدام ريشة. حب ينسي حب. في دندنتي أغني زي العسل، والحلو ليه تقلان قوي، ويانا يانا التي غنيتها لرشدي، من لم ولن أنساه حتى آخر دقة في قلبي وآخر نفس من عمري. أنا آخر فنانة تقابل الأستاذ عبد الوهاب وكنت مدعوة على العشاء في بيته بمناسبة عيد ميلاد زوجته نهلة القدسي، وفي اليوم التالي سمعت خبر وفاته، وأتذكر في أحد أعياد ميلادي أنه قدم لي أغنية سنة حلو يا جميل. من شقاوتي في سن الرابعة أني حطيت شطة في فم شقيقتي لمياء ورميت أختي سعاد الصغرى من البلكونة من علو طابقين وكادت تموت، ودفعت جولييت على السلم فدخلت المستشفى. كانت أول قبلة على الشاشة وأنا في سن الثامنة عشرة من أنور وجدي في فيلم سر أبي. لا أتعامل إلا مع الشخصيات المتفائلة وأكره النكد. أسافر كثيرا ودائما أعود. في حياتي أكثر من أمير عربي أحدهم كان ينزل في فندق طانيوس، وفي نفس الليلة التي كنت أغني فيها كان سموه قد حجز لنفسه المائدة الرئيسية في الحفل وأرسل إلى حجرتي بوكيهًا فخمًا من الزهور النادرة تقديرا لفني وصوتي كما قال سكرتيره الخاص، وفي بدء الحفل دخل الأمير محوطا بحاشيته الكبيرة، ولم يكن يدور بخلدي أن هذا الأمير العظيم الجالس أمامي في الصدارة على استعداد أن يضع بين يدي جاهه وسلطانه وثروته، ولكي أرد على تحية الأمير ارتجلت موالا لبنانيا، وتطورت قصة حب جديدة في حياتي أهداني فيها الأمير في أوائل الخمسينيات سيارته الكاديلاك، واشترى لي فيلا في صوفر، وأفقت بعد أسبوعين لأجد نفسي غارقة في بحر الهدايا والمجوهرات الثمينة، وبعدها عرض عليّ الزواج وكانت مفاجأة وكأن الحياة من صنع ساحر يقول لي شبيكي لبيكي كل ما ترغبين ملك يديك، وتخيلت نفسي في زي الأميرات محاطة بالخدم والحشم، وكادت الموافقة تخرج من بين شفتي، لكني توقفت طويلا أمام العرض المذهل فقد كان يطلب مني الاعتزال ولم أكن أقوى على فراق الفن. وغادرني الأمير وعاد وفي عينيه نظرة تأكل قلبي، لكن العطار على

رأي المثل لم يكن قادرا على إصلاح ما أفسده الدهر خاصة أنني كنت قد صرت زوجة أنور منسي الفنان عازف الكمان. أمنيتي أن أموت مستورة. المفروض أن الست لما تغني يبقى في أغانيها رقة لأنها مش واقفة تخطب».

صباح.. مسيرة حياة متفردة عريضة واسعة بالطول والعرض وكل يوم بحال وكل دقيقة بموال، ومع كل حركة عقرب لثانية جديدة تتغير الألوان والأشكال.. غالبيتنا يقول: آهي عيشة وخلاص، لكن هناك فرقًا بين العيشة والحياة، وصباح عاشت الحياة في قمة نجوميتها، ومع مرارة الشيخوخة غدت الصبوحة مجرد سنيدة للست رولا التي تسلقت على جبال شهرتها الغابرة لتغني أغانيها في حضورها الثانوي... وفارق بين بطانة الأبناء التي تسند الأب وديع الصافي وتملؤ بالموهبة ما بين فراغات الآهات الجبلية ويا عينيع الصبر، وبين أن تغدو المطربة الأي كلام في الواجهة ليتقلص أداء الصبوحة في خلفيتها الباهتة.. وكما تغني الشحرورة بلغة أهل الشام شو فيها الدنى!!

رياض السنباطي

القيمة والقمة

أزيح الستار عن رياض السنباطي عازف العود الشاب الموهوب ممسكا بريشته ليرتجل تقاسيمه بفيضها المتدفق السريع الزاخر حينا . . الهادئ حينا كأنه الهمس الرقيق الرفيق إذا أراد له أن يتسلل عبر براعته في الترويق، متنقلا بخبرة الدارس مع الخيال الخصب والإلهام المسترسل وفهم المقامات، من مقام الرست ليعرج على مقام البياتي والصبا والعجم . . تقاسيم كأنها السحر خلقة ربنا يطعمها صاحبها بالزخارف أينما يحلو له لتتمايل الرءوس . . الله . . الحفل كان بمناسبة تغيير اسم نادي الموسيقى إلى معهد فؤاد الأول للموسيقي العربية ويحضره فؤاد ملك مصر وحاشيته وكبار القوم .

وما إن بدأت ريشة اليد اليمنى تقرع الأوتار مرات لتعفق اليسرى بالعود من رقبته لتضيف زخارف تزيد العزف جمالا ورونقا، وما إن بدأ روقان العازف ينجلي ويتجلى في حضور الملك حتى انبثقت ضجة الجارسونات وصولات وجولات تقديم الأطباق والمرطبات فوق موائد الضيوف ليهرب وحي الموسيقى مما أعاق سرد الأنغام الملهمة لساعتها، وأهان الفنان في أوج عطائه فلزم الصمت الفجائي ووضع الريشة جانبا وحمل عوده وقام مغادرا ليس إلى البهو الخارجي وإنما إلى بيته رأسا ليقدم استقالته من المعهد الملكي مع الصباح التالي .

محمد رياض السنباطي أعظم وأبرع عازف عود ظهر على مدى التاريخ . . من كان عندما يجلس إلى عوده تشعر كأنه فرقة موسيقية مستقلة . . الذي غادر قاعة يترأسها الملك فؤاد الأب ليعزف بعدها للملك فاروق الابن لتغني على ألحانه

أم كلثوم كوكب الشرق في ليلة عيد الفطر مساء الأحد ١٧ سبتمبر ١٩٣٦، في حديقة النادي الأهلي بالجزيرة طقطوقه «يا ليلة العيد آنستينا» لتحول تشكيل كلمة الكوبليه الأول عند دخول الملك القاعة من هلالك هلّ لعنينا إلى هلالك هل بعنينا ليتحول المعني احتفاء بالملك الذي هلّ على الحفل، ولهذا أنعم فاروق على أم كلثوم بوشاح الكمال لتغدو بموجبه صاحبة العصمة، وليلتها نادى على مصطفى أمين من بين الحاضرين وطلب منه أن يصعد معلنا نبأ حصول أم كلثوم على منحة نيشان الكمال من الملك المفدى. . وكانت أم كلثوم قد غنت في عام ١٩٣٢، في معهد فؤاد للموسيقي العربية أمام الملك فؤاد الذي صفق لها كثيرا خاصة حين غنت له «أفديه إن حفظ الهوى وملك الفؤاد». . وقامت بترديد ملك الفؤاد بتوزيعات حنجرتها الذهبية أكثر من مرة، وقد سبب هذا الحفل الملكي أزمة داخل الوسط الفني بسبب عدم دعوة سلطانة الطرب منيرة المهدية للمشاركة، ووقتها تبارت المجلات الفنية في تناول القضية وأسباب إبعاد الست منيرة واختيار الآنسة أم كلثوم. . وتواكبت ألحان السنباطي بصحبة حنجرة أم كلثوم تاريخ مصر منذ عام ١٩٣٦ فيقدمان من كلمات أحمد شوقي بمناسبة تولي فاروق سلطته الدستورية قصيدة مطلعها: الملك بين يديك في إقباله عوذت ملكك بالنبي وآله وفي عيد ميلاد الملك عام ١٩٣٧، يقدمان من أشعار أحمد رامي الأغنية المسجلة التي مطلعها إجمعي يا مصر أزهار الأماني، وبمناسبة زفافه إلى فريدة تترنم أم كلثوم بألحان السنباطي أشرقت شمس التهاني تملؤ الدنيا بهاء وضياء، وفي ميلاد الأميرة فريال يكتب رامي:

يا ربوع النيل طيبي بالأماني أنجب الفاروق للوادي السعيد
واطمأن البال بالميلاد لما نال فاروق المفدى ما أراد

ومن كلمات بديع خيري يلتقي اللحن والصوت - أم كلثوم والسنباطي - في أغنية الزفة ليلة فرح الإمبراطورة فوزية وإمبراطور إيران الشاهنشاه محمد شهبور، حيث طلبت الملكة نازلي من أم كلثوم أن تزف العروسين بعد أن رأت الخروج عن تقاليد العائلات الكبيرة التي تلجأ في زفة أي عروس إلى فرقة بديعة مصابني أو فرقة ثريا

سالم، ووقعت أم كلثوم في حرج شديد حيث كانت قد وضعت مبدأ لا تحيد عنه وهو غناء وصلتها فقط في أي زفاف مع عدم الاشتراك في السير وراء دفوف العروسين للجلوس فوق الكوشة ونزولا على أوامر الأسرة الحاكمة قبلت على أن يكونا أول وآخر عروسين تزفهما، وقد أعدت سريعا للمناسبة الإمبراطورية فستان «سواريه» من الدانتيل الأسود، وعلمت نازلي - كما ذكرت الدكتورة رتيبة الحفني - من الخياطة ريتا بأمر اللون الأسود فسارعت تطلب فورا تغيير الأسود إلى البمبي، وكانت أول مرة يبطن فيها فستان غامق باللون الفاتح حتى إنها أصبحت موضة أطلقت عليها ريتا الخياطة اسم موضة ثومة. . وتولد الأميرة فادية عام ١٩٤٣، لتغني أم كلثوم من ألحان السنباطي وأشعار محمود حسن إسماعيل «زهرة هلت على فجر الحياة» وتبث الإذاعة بمناسبة عيد ميلاد المليك في ١١ فبراير ١٩٤٦، أغنية السنباطي بصوت كوكب الشرق الآنسة أم كلثوم «أيقظي يا طير نعسان الورود» وتغني أم كلثوم «سلوا قلبي» لأمير الشعراء أحمد شوقي من ألحان السنباطي بعد أن أضاف لها الشاعر محمد الأسمر خمسة أبيات احتفاء بضيف البلاد الملك عبد العزيز آل سعود ومضيفه جلالة الملك فاروق لتظل القصيدة تذاع - كما جاء في مذكرات المؤرخ عبد القادر صبري - يوميا طوال أيام تشريف عاهل السعودية في مصر وإلى ما بعدها بأيام لتحذف الإضافة من بعدها وكانت بعد البيت الأخير في قصيدة شوقي:

وما للمسلمين سواك حصن ... إذا ما الضر مسهمو ونابا،

فأضافت الأبيات:

وكيف ينالهم عنت وفيهم رضا ملكين بل روضين طابا

إذا الفاروق باسم الله نادى رأى عبد العزيز قد استجابا

فصن يا ربنا الملكين واحفظ بلادهما وجنبها الصعابا

هما فجر العروبة أنجبته فقالت يومي المرجو آبا

إذا اتحدت أسود الشرق عزت عروبتهم وصار الشرق غابا

ويواكبان معا ـ السنباطي وأم كلثوم ـ أحداث تاريخ مصر لتغني من ألحانه ـ التي بلغت ٩٦ طقطوقة وأغنية وقصيدة منبعا ـ منها ٣٣ أغنية سياسية ووطنية كان منها طوف وشوف وهي الأغنية الوحيدة التي حضرها السنباطي بنفسه إذ قاد الفرقة الموسيقية أمام جمال عبد الناصر في احتفالات ١٩٦٣، عندما أبدى ناصر لأم كلثوم رغبته في ملاقاته، وغنت من أشعار صالح جودت أيضا بعد الهزيمة من ألحان السنباطي:

أنت الناصر والمنصور ابق فأنت حبيب الشعب

قم للشعب وبدد يأسه واذكر غده واطرح أمسه

وهي أغنية تناشده فيها البقاء في الحكم أذيعت لمدة يومين فقط، وغنت من ألحان السنباطي عند موت عبد الناصر قصيدة لنزار قباني رسالة إلى عبد الناصر وبعدها لم تغن أية أغنية سياسية أو وطنية، هذا مع أن الثورة عندما قامت ألغت جميع الألقاب بما فيها لقبها الملكي «صاحبة العصمة» فخلع عليها الأصدقاء لقب كوكب الشرق تخفيفا عليها من فقدان التميز، وبلغ الغضب منتهاه بأم كلثوم عندما منعت الإذاعة جميع أغانيها باعتبارها من آثار العهد الملكي، لكن عبد الناصر عندما بلغه الأمر من مصطفى أمين سارع يعيد الكروان إلى سماواته قائلا: إذا كانت أم كلثوم من رموز العهد الماضي فلماذا لا نردم النيل ونهدم الهرم؟!

وإذا ما كان الفنان كإنسان ينفعل بشخصية حاكم أو رئيس أو ملك فهذا من حقه وليس مطلوبا منه أن يكون معارضا سياسيا، وإنما الفنان هنا يعبر عن انفعاله الخاص الملتزم به أمام فنه وقناعته الخاصة وليس أمام السلطة السياسية، وأعماله الفنية تعبر عن رؤيته في لحظة تاريخية معينة فلا تحسب عليه كمنافق أو معارض، وفي هذا الصدد روى عن أحد العلماء وكان مديرا لمعهد ديني معروف بالقاهرة عندما قرر الملك فؤاد أن يزور المعهد فطلب من مديره أن يأتي في موعد الزيارة بجبة لائقة، وهو ما أغضب العالم ليمتنع عن الذهاب من أصله لمكتبه في الموعد المحدد، وأرسل في الموعد بجبة جديدة مع رسالة تقول: «إنكم قد أردتم جبة جديدة فها هي بين أيديكم، وطالما أنكم لم تعتنوا بوجود العالم فإنني لن أحضر الاحتفال». وربما نجد

في هذا التصرف ما يشابهه في عزة نفس موسيقارنا الشامخ رياض السنباطي عندما أراد السادات تكريمه بمنحه جائزة الدولة التقديرية في عام ١٩٨٠ ، وحدث أن انتظره السنباطي على مدى ساعتين، غادر بعدها قائلا : «ابقوا ابعتولي عندما يحضر» . وطلب السادات منه الغناء والعزف أمامه في إحدى الحفلات لكنه رفض الأمر مما أثار استياء السادات منه حتى وفاته في ٩ سبتمبر عام ١٩٨١ ، ورغم ذلك منحه السادات التقديرية ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى، والدكتوراه الفخرية عام ١٩٧٧ ، لدوره الكبير في الحفاظ على الموسيقى العربية عام ١٩٧٧ ، وفي العام نفسه ١٩٧٧ ، حصل رياض السنباطي على جائزة اليونسكو العالمية باعتباره مبدعا وخلاقا ومؤثرا بموسيقاه في شعوب المنطقة، وهو الوحيد في الوطن العربي الذي نال هذه الجائزة، كما أنه كان واحدا من خمسة فقط في العالم الذين حصلوا عليها . . وأبدا لم يحضر السنباطي حفلة واحدة من حفلات أم كلثوم كمستمع في الصف الأول مثل الشاعر أحمد رامي ليرقب تأثير فنه على حنجرتها، ولا مثل محمد عبد الوهاب الذي كان يقف خلف الستار يتلمس إعجاب الجمهور بألحانه في لقاء السحاب مع أغنيته لثومة إنت عمري .

كان زاهدا في مثل هذا الموقف، ومنذ بدأت معه أم كلثوم كان يفضل الانفراد بصوتها في حجرته الخاصة حيث لا يقطع خلوته ومتعته أحد .

بلبل المنصورة رائد النهضة الكلثومية حارس الموسيقى العربية الصارم الذي ألغى تسجيلا مع إحدى الفرق لضبطه عازفا يدخن . . اللائذ بالصمت لأنه يمتلك بصيرة الأعماق فن استماع القلب للكلمات فن تواصل الذهن بجنين الخلق فن التلقي فن التوحد في سكون واستغراق يسمع فيه نداء الكلمة وصوت اللحن ونبض الآلات . . وحسبوه بصمته متكبرا، وفات عليهم الخيط الدقيق بين التكبر والكبرياء . . بين الشموخ وعزة النفس لمن لم يتهافت على الظهور ولم يشتر رياء الثناء أو رياء النفوذ أو ابتغاء المنفعة أو اشتهاء المال، بل كان متوحدا عزيزا معتزا .

فنان القيمة والقمة صاحب العطاء الموسيقى بتراثه الخالد، والخالدون كما قال شوقي أربعة : شاعر سار بيته، ورسام ضحك زيته، ونحات نطق حجره،

وموسيقي بكى وتره . . ولقد بكي وضحك وعشق ورق وهجر وذاب وأذاب وسهر وأطال السهر وتر رياض السنباطي على مدى ٥٠ عاما قدم فيها ١٠٠٠ لحن و ١٣ أوبريتًا كتب كلماتها أحمد شوقي، ومحمد إقبال، وصالح جودت، وحسين السيد، وأحمد رامي، وبيرم التونسي، ومحمد على أحمد، وعبد الفتاح مصطفى، ومحمود حسن إسماعيل، ومرسي جميل عزيز، ومأمون الشناوي، وعزيز أباظة، وفتحي قورة، وصلاح جاهين، وأحمد شفيق كامل، ومصطفى عبد الرحمن، وأحمد فتحي، وإبراهيم ناجي.

وعباس العقاد الذي كتب له أغنية يا نديم الصبوات أقبل الليل فهات والتي أذيعت لأول مرة مساء الأحد ١٤ نوفمبر ١٩٤٣، ألحان يقول عنها صاحبها: تأثرت بالملحنين القدامى . . بأداء عبده الحامولي ومحمد عثمان وعبد الحي حلمي، وبموسيقي سيد درويش، كما تأثرت بالشيخ محمد رفعت والشيخ علي محمود والشيخ محمد صبح، وكان لهؤلاء جميعا أثرهم في تكويني الفني، وما بين بلد المحبوب لأم كلثوم والثلاثية المقدسة استطاع مع كوكب الشرق سريعا التخلص من جاذبية أسلافه في التلحين لينطلق كالصاروخ في الفضاء الفسيح لهذا الفن العظيم، فن تلحين القصائد الذي فتح له صوت أم كلثوم أبوابا سحرية لم تكن تخطر له على بال، فتفتحت موهبته ليظل حريصا على تلبية متطلبات صوتها ويرتفع إلى مستوى الإمكانات العبقرية لهذا الصوت النادر التي كانت صاحبته بدورها لا تناديه باسمه وإنما بلقب العبقري . . العبقري الذي لم يستخدم جملة موسيقية آتية من أي اتجاه، فموسيقاه نابعة من زخم عطاء عبقريته . . من السنبطة في أوج قدرتها على الكشف عن أجمل مناطق كل صوت.

والغالبية لا تعرف من السنباطي إلا كلثومياته، مع أن من يغفل ألحانه غير الكلثومية يكون قد أسقط - ظلما - أكثر من نصف ميراثه الموسيقى الضخم في الموسيقى العربية المعاصرة، فهناك ٩٧ أغنية لم تشدُ بها كوكب الشرق، و ١٢ أغنية غناها بنفسه، إلى جانب ٣٦ معزوفة كانت تبثها الإذاعة المصرية في بداياتها لمدة ساعتين مرتين في الأسبوع أشهرها معزوفة رقصة شنغهاي وعرائس البحر وإليها ورحيل الفلك.

وقد لحن لفيروز أغنيتين، ولنجاة ثلاث، وغنت له أسمهان خمسا منها «ليت للبراق عينا»، ولسعاد محمد فتح الهوى الشباك، ولشادية تلات شهور ويومين اتنين، ولعبد الحليم لحن الوفاء، ولشريفة فاضل ساعة واحدة، ولصباح راحت ليالي، ولفايزة أحمد لا ياروح قلبي ولميادة أشواق ولنادرة اعطني الناي وغني، ولنجاح سلام عايز جواباتك ولوردة حاقول لك حاجة. وكان ذلك في فترة عامي الخصام بينه وبين أم كلثوم حول أجر التلحين. وأغنية يا حبيبي لا تقل ضاع حبي التي لم تنجح جماهيريا، ومحمد قنديل أتحدى، وكانت ثومة ترى مثله أن محمد قنديل أجمل الأصوات المصرية خصوصية على الإطلاق وغنى له وعبدالمطلب شفت حبيبي.

وغنى بنفسه سبع أغنيات من تلحينه منها كل شيء راقص، البهجة حولي ها هنا وأيها الشادي. . وظهر رياض السنباطي في ثلاثة أفلام أولها في فيلم الوردة البيضاء بطولة محمد عبد الوهاب وسميرة خلوصي، ولم يتعد ظهوره نصف دقيقة فقط كعازف للعود في التخت المصاحب لمحمد أفندي، حيث يبدي في المشهد الميني اعتراضه وتذمره من تأخر محمد أفندي ليغني بعد أن طال انتظار أفراد التخت، والفيلم الثاني بعنوان حلم الشباب ظهر فيه يقود سيارته وهو يغني قصيدة حلم الشباب، والثالث قام فيه بدور البطولة أمام هدى سلطان لتغني من ألحانه قتلوني يا بوي ويشترك معها في دويتو من الغناء السريع الخفيف. . وقد غنت له أم كلثوم على بلد المحبوب وديني، زاد وجدي والبعد كاويني على أسطوانة وكان قد وضعها أصلا لها لفيلم وداد فلم تعجبها ليغنيها عبده السروجي، وندمت بعدها لعدم ظهورها في الفيلم، ويقول السنباطي إنها كانت من أندر هفوات أم كلثوم في تقديرها للألحان.

ورغم ندرة أحاديثه يقول السنباطي عن بداياته: «ولدت في الثلاثين من مارس عام ١٩١١ ببلدة فارسكور، وفي سن الثامنة رحلت مع والدي إلى المنصورة، وحدث لي ما يحدث لكل هاو للفن. . كنت أهرب من المدرسة إلى دكان نجار من هواة العزف، ولكن معلمي الحقيقي كان أبي ويلتقي السنباطي وهو في الثالثة عشرة

بسيد درويش الذي يعجب به فيصحبه إلى حلواني المنصورة الشهير راندو بولو ليعزمه على الجاتوه والآيس كريم، ويزداد اقتناعه به عندما يغني أمامه أغانيه الشهيرة أنا هويت وانتهيت وضيعت مستقبل حياتي، وأدرك سيد درويش بحاسته الموسيقية أنه أمام موهبة نادرة فأراد أن يصحب رياض معه، لكن الوالد محمد السنباطي لم يكن في استطاعته الابتعاد عن الابن الذي أصبح بلبل الفرقة، ولا يسافر رياض السنباطي في صحبة والده إلى القاهرة إلا في عام ١٩٣٠، ويقول: قبلت في معهد الموسيقى العربية كأستاذ عود وليس كتلميذ.

وفرحت لأن هذا سيغطي نفقات دراستي بل سيكون لي راتب، وقد رشحني مدحت عاصم للتعاون مع شركة أسطوانات أوديون لتلحين عدد من الأغنيات لعدة مطربين، وكان أول لحن لي مع أم كلثوم النوم يداعب عيون حبيبي وكانت أصعب ألحاني الأطلال.. كنت خائفا من الأداء.. لم أكن واثقا لأول مرة في حياتي من أداء أم كلثوم، ولما أخبرتها بالتليفون بمخاوفي قبل الحفل قالت لي: ماتخفش يا جدع، وحتشوف حاعمل إيه في العمق اللي إنت عاوزه وخايف عليه وطغت الأطلال ولم يعد هناك سواها، لتتضاءل أمامها كل الألحان التي أتت بعدها بما فيها ألحان السنباطي نفسه».

وتلتقي الشهرة مع الحب مع مالكة القلب والدار.. الزوجة.. كوكب عبد البر المنوفي، من التقى بها في قعدة بمنزل الوجيه حافظ بك بهجت من عشاق الطرب الأصيل، ويبتسم الإعجاب الفوري ليسألها صاحبه: تحبي تسمعي إيه؟ فترد باستحياء وبساطة شديدة: «أحب أسمع الجندول»، ويأتي رده الدبلوماسي برقة بالغة: «والله الجندول دي مش بتاعتي، وأنا مش حافظها أنا حاسمعك حاجة تانية». وتتلاحق مقدمات وقرارات الإعجاب ليتم الزفاف مساء الأحد الموافق ١٧ مارس ١٩٤٠، الذي تشترك فيه أم كلثوم بالحضور والغناء بوصلتين منها يا طول عذابي واشتياقي» وينتهي الحفل مع خيوط الفجر بوصلة محمد عبدالمطلب «شفت حبيبي وفرحت معاه ده الوصل جميل حلو يا محلاه». وفي إنصاتي العميق لراوية رياض السنباطي الابنة الكبرى للموسيقار التي ولدت كما يحسب والدها السنين

في موسم سلوا كئوس الطلا وهناك شقيقتها رفيعة التي ولدت مع قصيدة كيف مرت على هواك القلوب، وميرفت التي جاءت في عام جددت حبك ليه، ومحمد الذي ولد في موسم سهران لوحدي، وأحمد من ولد مع قصيدة ولد الهدى، وناهد صغرى كريماته من جاءت مع أغنية يا ظالمني.. مع راوية البكرية ألمس حرص والدها على الحس الشعبي في موسيقاه الشعبية وكأنها من تلحين الشعب كله.

وكأن البلاد كلها تغني اللحن بصوت واحد متعدد الطبقات مثل أغنيته وحوي يا وحوي وعلى بلد المحبوب التي تمثل الحنين الجارف للديار.. والدها الذي يعود إليه الفضل في تعويد اللسان العامي في الشارع المصري على نطق المفردات العربية الفصيحة في سلاسة ومرونة لو ظللنا دهرا ندرسها في مراحل التعليم لما استطعنا حمل اللسان على نطقها بهذه السلامة والسلاسة والفخامة.. الأب ذو المواعيد المقدسة حتى يقال عنه مواعيد سنباطي أكثر من مواعيد إنجليزي، وقد أتى أحد الصحفيين إليه بعد موعده بثلاث دقائق فخرج إليه يقول: «أنا مش موجود»، وكان إذا لم يجلس إلى عوده يعزف على جميع الآلات الموسيقية في غرف البيت: الماندولين والبيانو والناي.. وكان مصيفنا الأول في هانوفيل العجمي عندما كان الشاطئ شاغرا ليجلس متأملا بحور الماء والرمال.

.. وأقول لك إيه عن الشوق يا حبيبي عايزة أعرف لتكون غضبان أو شاغل قلبك إنسان حيرت قلبي معاك دليلي احتار وحيرني أطفئ لظي القلب بشهد الرضاب فإنما الأيام مثل السحاب لست أنساك وقد أغريتني بفم عذب المناداة رقيق عوِّدت عيني على رؤياك من أجل عينيك عشقت الهوي سهران لوحدي والموج يناغي النسيم يحكي له قصة هوانا والقلب يعشق كل جميل واثق الخطوة يمشي ملك اظالم الحسن شهي الكبرياء أولى بهذا القلب أن يخفق وفي ضرام الحب أن يحرق ما أضيع اليوم الذي مر بي من غير أن أهوى وأن أعشق أين مني مجلس أنت به؟! كيف ذاك الحب أمسى خبرا وحديثا من أحاديث الجويحتى الجفا محروم منهأنا اللي أخلصت في ودي وفضلت طول العمر أمين ياللي كان يشجيك أنيني بفكر فيك وأنا ناسي ثورة الشك.

أغار من نسمة الجنوب على محياك يا حبيبي أكاد أشك فيك وأنت مني وما أنا بمصدق فيك قولا ولكني شقيت بحسن ظني كأنما لم يدر طعم الهوى والحب إلا الرجل الفاجر وإذا ما التأم جرح جد بالتذكار جرح جرح الأحبة عندي غير ذي ألم هجرتك قصة الأمس قصة هوايايال ذكراك التي عاشت بها روحي على الوهم سنين اذكرياتي عشت فيها بيقين وهي قرب ووصالا ذكريني كلما الفجر بد يصعب على أقول لك كان وأفكرك بليالي زمان وأوصف في جنتها وأصورحديث الروح يا فؤادي لا تسل أين الهوييقول الناس إنك خنت عهدي ولم تحفظ هواي ولم تصني أجبني إذا سألتك هل صحيح حديث الناس خنت؟!.. ألم تخني؟!.. هجرتك والأسى يدمي فؤادي وصنت كرامتي من قبل حبي لما إنت ناوية تهجريني أمال دموعك كانت ليه.

أروح لمين وأقول يا مين ينصفني منك؟! وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا لا يا حبيبي أنا لن أعود إليك لسه فاكر قلبي يديلك أمان أراك عصي الدمع شيمتك الصبر آه من قيدك أدمى معصمي يا حبيبي كل شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعدما عز اللقاء، فإذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء ومضي كل إلى غايته لا تقل شئنا فإن الحظ شاء فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تعفو أقبل الليل ويسهر المصباح والأقداح والذكرى معي وعيون الليل يخبو نورها في أدمعي.. الحب كده!

وبصوته الرباني المعطر بالموهبة الخصوصي بنعومة الحرير وملمس الابتهال ورهبة المحلق في دعائه لخالقه يغني السنباطي ما لم تستطعه جميع الحناجر التي خلع عليها ألحانه تنساب العبارات والعبرات في الأعماق وعلى الأسطح عندما يغني حاشدا مجامع حرقته ولوعته وورعه وصلاته ونسكه وتقواه ليرفع رسالته الوجدانية في خشوع للسماء: «إله الكون سامحني أنا حيران».

تحية إلى كاريوكا

كاريوكا . . الراقصة اللولبية الحسناء «لعبة» بنت البلد وفاتنة السينما المصرية التي وقع في غرامها الريحاني قبل غدرها به في فيلم «لعبة الست» لتغدو «فاتينيستا» . . المعلمة توحة . . شرارة البدء في هجمة الإعصار المكتسح لمعلمات المدابح والمدابغ والقهاوي والشيشة من بعد موجات بنات الفقراء والأغنياء والريف والمدارس وطاقم التمريض، وراقصات الكباريهات اللائى يرتمي في أحضانهن كل ذي مشكلة زوجية . . تحية كاريوكا . . التي وقفت في حي الحسين تطبخ بيديها موائد الرحمن في رمضان .

كاريوكا . . والأصل بدوية محمد على النيداني كريم، من مواليد قرية المنزلة دقهلية وسجلت على أنها من مواليد الإسماعيلية في يوم ٢٢ فبراير ١٩١٩ . . خرجت إلى الحياة لتجد نفسها أختا لستة عشر شقيقا . . بعد وفاة الأب استغلها شقيقها أحمد وامرأته المالطية للعمل في بيتهما كخادمة، وعندما حاولت الهرب قيدها بسلسلة من الحديد في رجل السرير، وذات ليلة تسللت لحضور فرح صديقتها فكرية الذي غنت فيه المطربة السورية سعاد محاسن من تلحين داود حسني أنا عندي ميعاد في الدهبية، انفلتت بدوية ترقص بعفوية ومهارة أذهلت الجميع خاصة المطربة التي صفقت لها طويلا قائلة : «قديش كنت حلوة يا بدوية . وش مليح وشعر حرير وقوام بديع سبحان من صور . لو اشتغلت رقاصة يا بدوية حتاكلي الشهد . فكري ولو جيتي مصر اسألي عني في صالة البيجو بالاس بشارع عماد الدين حتلاقي ألف مين يدلوكي» . وعلم الشقيق السجان بأمر الخروج والرقص فحلق لها شعرها على الزيرو كي لا تفكر ثانية في الهرب وقيدها مرة أخرى في رجل السرير بالحديد، وعندما تحسست بدوية رأسها فوجدت الشعر قد

غطاها من جديد هربت في وش الفجر وركبت القطار من غير ولا مليم فجمع لها الركاب ثمن التذكرة ليتبقي معها قرشان . . ووصلت الموهوبة اللهلوبة لمحطة مصر .

ندهتها النداهة . . وباندماجها في حياة الملاهي الليلية بين القاهرة والإسكندرية تذوَّقت قواعد الرقص وأصوله من شهيرات الراقصات في صالات سعاد محاسن ، وببا عز الدين ، وبديعة مصابني ، وماري منصور ، ورتيبة وإنصاف رشدي ، ودخلت السينما لتشاهد في قاعة ديانا فيلم الطريق إلى ريو بطولة ألفريد إستير وجنجر روجر ، الفيلم الذي يتضمن أحدث الرقصات كاريوكا بعد شهرة الرومبا والسامبا والسوينج والفوكس تروت والشارلستون ، وعادت في الصباح لتصحب مسيو إيزاك مدرب فرقة بديعة للرقص لمشاهدة الفيلم ، فقام بتدريبها على الكاريوكا بإشراف دقيق من المعلمة الكبيرة الست بديعة التي كانت لا تكاد تبلغ مكتبها في موعدها تماما حتى يهرول إلى الكواليس أحد السعاة صائحا : «الست وصلت» . ومعنى هذا أن يحترم كل واحد نفسه ويحفظ مركزه ويؤدي عمله على أكمل وجه ، ومن هؤلاء العاملون مع تحية وقتها فريد الأطرش وإبراهيم حمودة ومحمد عبد المطلب ومحمد فوزي وسامية جمال ، وأكبر الرواتب لا يتجاوز ١٢ جنيها ، وممنوع على أي فنان أن يبصبص لأي فنانة وإلا خصمت منه الست أجر ليلة ، أو أجر أسبوع حسب حجم المخالفة ونوع البصبصة . . ولما كانت بدوية قد استبدلت باسمها تحية محمد فإنها بعد تقديمها رقصة كاريوكا واستعادة الجمهور لها صائحا : كاريوكا . . كاريوكا . . أصبح اسمها تحية كاريوكا ، وكان آخر عهدها باسم تحية محمد عندما ظهرت تشارك في بطولة أجنحة الصحراء أول إنتاج وإخراج لأحمد سالم وبطولة حسين صدقي وراقية إبراهيم وتحية محمد .

كاريوكا التي هرعت للجراح الدكتور على إبراهيم تشكو له إصابتها بالمصران الأعور مرتعبة من التشويه الذي قد يظل ندبة ظاهرة في بطنها مسرح أكل عيشها ، فقام بعمل جراحة مبتكرة سميت باسمها عملية كاريوكا ، الجرح فيها لا يكاد يظهر للعين المجردة . . صاحبة الـ ٣٠٠ فيلم التي تعاقدت معها شركة فوكس للقرن

العشرين في هوليود، لتلعب بطولة أنا وملك سيام، لكن مرض والدتها جعلها تعود إلى مصر بعد عامين من عقد الاحتكار أجرت فيهما بروفة واحدة فقط فتركت أحلام العالمية، ولم تكن المرة الأولى التى عاشت فيها في هوليود فقد كانت الأولى في عام ١٩٤٦، عند زواجها من الليفتنانت كولونيل جلبرت ليفي الذي أشهر إسلامه، وأمام القاضي الأمريكي جودوين نايت في مكتبه بالطابق الخامس عشر من مبنى السيتي هول بمدينة لوس أنجلوس، تم الزواج في حفل صغير بعد أن وقف القاضي الأمريكي بردائه الأسود يوجه عبارته المألوفة للعريس الأمريكي كما في الأفلام: «هل تقبل هذه السيدة زوجة لك بالمحبة والإعزاز حتى يفرق بينكما الموت؟ فنظر العريس لتحية بهيام قائلا: «yes I do»، وعاد ليسأل تحية نفس السؤال ليسمع نفس الإجابة: «yes I do»، وكانت تحية ترتدي ثوبا باهت الزرقة يجمله عند الوسط أبليك من الزهور البيضاء، أما العريس فكان في زيه العسكري الرسمي تلبية لرغبة العروس، وفي المساء أذيع الخبر لتسمعه الآلاف من محطة الإذاعة المحلية، حيث عقّب عليه المذيع بأن العروسين قد استقلا سيارة شيفروليه مفتوحة بيضاء إلى حيث يقضيان شهر العسل في فندق بل إير الذي يتوسط الطريق ما بين هوليوود والمحيط الباسيفيكي بعد أن صرحت العروس بقرب عودتهما في زيارة قصيرة إلى مصر... وكتب عباس محمود العقاد وقتها يرد على الشائعات الكثيرة التي تنتقد زواج مصرية بأمريكي قائلا: «لعلها مسألة ذوق قبل أن تكون مسألة أخلاق، والمسألة فيها ما يدعو إلى الأسف والمؤاخذة وفيها ما يدعو إلى الغبطة والارتياح، فمن دواعي الأسف أن يتمادى الناس في حب الشرثرة إلى الحد الذي يخلق لهم موضوع اهتمام، ومن دواعي الغبطة والارتياح أن يقال إن الراقصة التي صنعت هذا الصنيع لم تجد زوجا من المصريين ووجدته بين الأمريكيين!».

ولقد كان الليفتنانت أحد الأزواج الـ ١٣ لكاريوكا التي تتزوج في النور محتفظة بالعصمة في يدها. وكان أولهم أنطوان عيسى عام ١٩٣٩، وفي العام نفسه تزوجت من أكبر أثرياء مصر وقتها محمد سلطان باشا لمدة ستة أشهر وانفصلت عنه عندما طلب منها اعتزال الفن، ثم من بعد الأمريكي أتى المخرج فطين عبد الوهاب

زوجا، ثم تلاه الفنان أحمد سالم الذي ضحى بزواجه من أمينة البارودي، وعندما ترددت الشائعات حول علاقته بأسمهان قررت الانفصال عنه لتتزوج من طيار الملك فاروق الخاص حسين عاكف، ولم يستمر الزواج أكثر من شهرين بظهور رشدي أباظة، وبطلاقها منه ارتبطت بالضابط مصطفى كمال صدقي ودارت في فلك نشاطه السياسي مما وضعها في سجن مصر لمدة مائة يوم وواحد، وبعد الإفراج عنها ظلت تشعر بأن تليفونها تحت المراقبة وأن حركاتها مرصودة وأن هناك سيارات من ماركة الستروين تراقبها، وذات ليلة طال رنين التليفون وكانت المتحدثة شقيقة إحدى المونتيرات الشهيرات في السينما التي قالت لها: «والنبي يا ست تحية ما تقدريش تخلصي نمرتك بدري». فسألتها عن السبب فكان جوابها: «أصل الواد ابني اتعين جديد في المخابرات ومهمته يراقب الزباين عندك لكن يا حبيب أمه عضمه طري ومش واخد على السهر وبينام على الترابيزة وإنت لامؤاخذة بتطلعي متأخرة، وويله دلوقت ويلين يراقبك فوق ولا يراقب الزباين تحت». ومن بعد انفصال كاريوكا عن صدقي بقيت على ذمة الثري الوسيم عبد المنعم الخادم خمس سنوات، ثم التقت بزوجها العاشر البكباشي طبيب حسن حسين وانفصلت عنه بسبب المطربة صباح، وأتى الزوج الحادي عشر محرم فؤاد ولم يكتمل الستة أشهر حتى تم الطلاق إلى أن بلغت الرقم الثاني عشر من الزواج لمدة عام من أحمد ذو الفقار، وبعده أتى الزواج الطويل من الكاتب فايز حلاوة الذي دام ١٨ عاما انتهى في قاعات المحاكم.

«فايز حلاوة الإنسان الذي اقتربت منه في أقسى ليلة من عمري عندما مرض قلبي ولم يجد له مداويا سوى مشرط الجراح في مستشفى كليفلاند في أمريكا، حيث أمضيت ليلة العملية تؤرجحني المشاعر ويساورني الشك حول غد ليس في الحسبان فيما إذا كان له من غد.. ولم يخرجني من متاهة أفكاري سوى زائري الذي أمسك بيدي حتى قيام موعدي وجعلني أموت من الضحك وأكركع من حلاوة النكات المتوالية وأنسى كابوسي وأدخل معه في ود الحوار المرح.. فايز حلاوة الذي كان قد أتى لعلاج قلبه العليل في نفس المستشفى وفي نفس الفترة ولم يجد الأطباء جدوى من علاجه بعد أن كان قد أجرى مسبقا في قلبه أكثر من

جراحة. . لكنه نسي حالته الميئوس منها أو تناسى حكم الأطباء وجاء ليشد من أزري رغم أنه لم يكن لنا سابق معرفة. . وفتحت عيني بعد الإفاقة في حجرة الإنعاش لأجده أمامي معاودا تشجيعي، ولم نلتق بعدها رغم حياته التي استمرت أكثر من ثمانية أعوام عشنا فيها على أرض الوطن كل في عالمه يدور، ليظل فايز حلاوة كلما عاودتني الذكرى يمثل إنسانا نبيلا قد لمس قلبي».

كاريوكا. . كانت جزمتها بتنقح عليها. هكذا كانت دوما عندما تغضب. تغضب بلسانها ويدها وحذائها ولا يهمها في هذا المعترك أكبر كبير أو نبيل. . أثناء عملها كراقصة في كازينو بديعة مرت في طريقها لأداء نمرتها على المسرح بمائدة يجلس عليها طاقم من النبلاء والأمراء من هواة السهر والفرفشة، فإذا بأحدهم يجذبها من ذيل بذلة الرقص قائلا بعربية مكسرة. «تعالي هنا يا بت يا فلاحة. . فالتفتت إليه تحية مزمجرة: سيب ديلي يا ابن الدايخة! . . وكانت ردة الفعل أن غرقت الصالة في صمت بالغ التوتر، وتطلّع الزبائن إلى حيث يجلس النبيل عباس حليم إلى نفس المائدة منتظرين معرفة السبب الذي دفع إلى هذا الانفلات بصوت مرتفع. . وأتت بديعة مسرعة تسأل: فيه إيه؟! . . فأجابتها تحية: شوفي ابن الـ . . . مسك ديلي وراح بيشدني. . وهتفت بديعة زاعقة: إنت عارفة ده مين؟! . . فردت تحية: واعرفه منين ابن الـ . . . فأخرستها بديعة بقولها: ده النبيل حسن ابن الأميرة عين الحياة يا جاهلة. . فأتى رد تحية ساخرا: والله لو كان الحياة ذات نفسها». وكادت بديعة أن يغمى عليها لولا تدخل النبيل عباس حليم ليتدارك الموقف طالبا من تحية الاعتذار، لكنها رفضت وذهبت لتؤدي نمرتها، وعاشت بديعة بعدها على قمم التوتر بينما تحية لا تبالي بالأمر على الإطلاق، وانتشرت القصة في الأوساط العليا حتى وصل النبأ إلى مسامع الملك فؤاد شخصيا فأصدر أوامره الفورية بحظر ذهاب أي أمير أو نبيل إلى الأماكن السوقية التي يطرقها أفراد الشعب العاديون، ولولا خوف الحاشية من غضبة الجماهير ضد الأسرة المالكة في ذلك الوقت الدقيق الذي تغلي فيه المظاهرات مطالبة بالدستور لقدمت كاريوكا للمحاكمة. . وفي إحدى ليالي عرض مسرحية «ياسين ولدي» عندما كان الجمهور مستغرقا في مشاهدة ما يحدث على خشبة المسرح فجأة ارتفعت

تعلو ضحكة نسائية من الصالة تشرخ الهدوء المنصت للحوار الدائر، فتوقفت تحية عن التمثيل تماما لتدخل في مشادة كلامية حامية توجهها إلى السيدة التي ضحكت: «الست قليلة الأدب الـ (. . . . . .) والـ (. . . . .) تطلع بره»، وساد السكون ولم يرد أحد، وعادت تحية: «باقول الست قليلة الأدب اللي قاعدة في الصف الرابع واللي فاكرة نفسها جاية في كباريه تطلع بالذوق أحسن ما أطلعها بالقوة وإلا حانزل الستار ومفيش عرض الليلة». واضطرت السيدة إلى الخروج هي ومن معها وتابعت تحية التمثيل. . وفي موقف آخر قذفها أحدهم من الصالة بتعبير وقح فما كان منها إلا أن خلعت فردة حذائها وهي فوق المسرح وسددتها نحوه طائرة فوق الرءوس، ومن العجيب أنها أصابت الهدف، وضحك الجمهور وتعاون على إخراج المتفرج من الصالة، ووقفت كاريوكا تضحك وتضرب كفا بكف متسائلة: «كيف أصبت الهدف؟» ولأنها على المسرح كانت مضطرة إلى خلع نظارة النظر أجابت على نفسها بقولها: على فكرة العميان وضعاف النظر بيشوفوا بودانهم!».
وتنشر جريدة الديلي إكسبريس في لندن أن مستر جون ميللز صاحب الفنادق العالمية المشهورة قد رفع دعوى ضد الراقصة المصرية تحية كاريوكا يطالبها فيها بتعويض قدره ١٢ ألف جنيه لأنها خلعت حذاءها في فندق سميراميس وضربته به على رأسه. . حتى النجمة العالمية ريتا هيوارث لم تسلم من قذائف كاريوكا أمام جمهور عريض على أرض مهرجان كان عام ١٩٥٦، عندما أدلت ريتا بتصريحات تسيء للعرب فوقفت كاريوكا تردح لها بالإنجليزية. . وكانت تحية قد رشحت في هذا المهرجان للجائزة الأولى عن فيلم «شباب امرأة» في منافسة مع سوزان هيوارد بطلة فيلم «سأبكي غدا» وحصلت سوزان على الجائزة. . ومن أحداثها الشهيرة في حل مشاكلها بالضرب العلقة الساخنة التي أعطتها للمطربة فايزة أحمد في حفل صباح عندما أصرت على أن تغني قبلها، ونال الفنان سعيد صالح منها أيضا عقابه عندما وضع يده على كتفها في أحد المشاهد السينمائية بشكل فجائي مما أفزعها.

وكانت تمر في شارع الهرم فشاهدت عربجيا يضرب الحصان بسيخ من حمولته الثقيلة فسارعت تخطف السيخ الحديدي من يده لتنهال عليه به ضربا. . ويعود سر اللقب الثلاثي الذي خلعه عليها الكاتب والناقد الفني الشهير جليل البنداري المهذبة

المؤدبة المتربية، يعود إلى علقة أصرت أن تعطيها له عام ١٩٧٣، كي تقبل اعتذاره على ما كتبه عنها وجاء في بعضه: تشاجرت كاريوكا مع زوجها فايز حلاوة وحولت كورنيش النيل الشاعري، حيث اختار أحمد شوقي أن يقيم كرمة ابن هانئ جنة لشعره وحياته.. حولته إلى حوش بردق وعشش الترجمان.. اشترطت تحية: أضربه الأول وبعدين أصالحه.. ولمحته مصادفة في ستوديو مصر، فلما شعر بها أسرع إلى سيارته منطلقا لا يلوي على شيء، فلاحقته في مطاردة جنونية حتى تجاوزته لتسد عليه الطريق مما اضطره إلى التوقف بينما أسرع يغلق عليه زجاج النوافذ متشبثا بمقابض الأبواب. فهددته من الخارج بتحطيم الزجاج إن لم يفتح لها الباب لتنفيذ حكمها الصادر عليه.. وتجمع الخلق في شارع الهرم يتابعون أحداث المشهد المثير الذي ظنوه مشهدا تمثيليا لا تنفيذا للأحكام على أرض الطبيعة.

كاريوكا.. من عاشت في نهاياتها حالة الاكتئاب.. هل وقعت في الفخ السياسي الفني الذي وقعت فيه نجمة النجوم سعاد حسني؟!.. هل حملت كلتاهما دورا عقائديا أكثر مما تحتمل؟!.. هل كانت الواجهة الجديدة لكل منهما أقوى من طبيعتها؟!.. هل كانت البنية الأساسية غير مهيأة ثقافيا واجتماعيا وسياسيا؟!.. هل هو البريق لطرق الميدان البكر والريادة الأنثوية في سكة المرأة الطموح؟!.. هل ألغي الدماغ لتصبح الشهيرة القديرة بمثابة بوق وأداة؟!.. هل استُخدمت كلتاهما لحضورها الطاغي لزرعها في ثوب المناضل السياسي لتقديم أعمال لم تعد تحتفظ بها الذاكرة إلا لماما؟ هل؟!!.. إن الجماهير التي خرجت تودع سعاد حسني اندفعت خلف الفنان الذي هو أكبر من الأحزاب والمنابر والعبارات الطنانة، وأكبر من أي انتماء سياسي أو مذهبي.. جماهير لم تبك على وفاة بطلة فيلم الاختيار وأفلام شاهين وبدرخان، وإنما بكت على سعاد حسني في رونقها الأصلي.. البنت الجميلة الخفيفة الشقية بطلة خللي بالك من زوزو، وأميرة حبي أنا، وصغيرة على الحب.. وتظل تحية كاريوكا في الأذهان رغم مسرحياتها السياسية يحيا الوفد، والبغل في الإبريق، هي فاتينيستا في لعبة الست وصاحبة السرجة في شباب امرأة، والعالمة نعيمة ألمظية في زوزو، هذا إلى جوار

تاريخ طويل من المواقف الشجاعة العفوية التي تصدر من بنت البلد ذات النخوة التي لا تهاب إرهابا أو عصا، ففي داخلها كانت تسكن المتمردة التي عندما طفح بها الكيل في طفولة مريرة معذبة انطلقت هاربة في قطار المصادفة.

المصادفة التي قادت أقدام المفكر العربي الكبير إدوارد سعيد مع سمير يوسف صديق الدراسة في عام ١٩٥٠، إلى كازينو بديعة، ليجلسان إلى ترابيزة على النيل يشاهدان رقص كاريوكا على واحدة ونص، بينما لم تلحظ وجودهما ملكة الرقص الشرقي.. وتظل كاريوكا تعشش في ذاكرة إدوارد الذي هاجر مع أسرته إلى أمريكا قبل أن تطولها قرارات التأميم الناصرية.. ويعود إدوارد للقاهرة في عام ١٩٨٩، ولم تزل في الفكر كاريوكا، فيذهب إليها يجري معها حوارا قام بمثيله من قبل أديب إيطاليا الكبير ألبرتو مورافيا مع رمز الأنوثة في شبابها بريجيت باردو، وحوار فرانسوا ميتران رئيس وزراء فرنسا مع الأديبة الوجودية فرانسواز ساجان صاحبة صباح الخير أيها الحزن، ولقاء صاحب نوبل الأديب العالمي ماركيز مع المطربة شاكيرا لانجذابه البالغ إلى مجالها المغناطيسي كأنثى تغني وتتلوى.. كانت جلسة إدوارد الطويلة مع تحية طابعها الاعتراف والحميمية طرزتها ذكريات مفكر وراقصة، ليخرج من عندها لكتابة مقاله الشهير بعنوان تحية إلى تحية الذي ضمه إلى كتاب تاريخ حياته تأملات حول المنفي ٢٠٠٤. ومن بعدها قامت قيامة الأقلام تتساءل كيف تكتب قامة من قامات الثقافة العالمية كإدوارد سعيد عن الراقصة تحية كاريوكا؟ وكي يهضم المتقعرون الأمر دخل موضوع الرقص بؤرة اهتمام المثقفين العرب ليحملوا المقال الجميل أكثر مما يحتمل من معان واستنباطات.. لقد كتب ابن سعيد ببساطة في بعض من سطوره حول المرة الأولى التي شاهد فيها كاريوكا ترقص: «لمحت على فمها المفتر قليلا نعيم النشوة في ابتسامة تنم عن لذة متفلتة السخرية والتمنع تصلان إلى حد الاحتشام تسمرنا أمام ذلك التناقض الفتّان.. رقصت تحية ثلاثة أرباع الساعة، ترقص والمطرب عبد العزيز محمود يغني. كان ردفاها وساقاها ونهداها أبلغ بوحا من كل ما حلمت به أو تخيلته في نثري.. وكانت تنضح بشهوة فردوسية.. إن أداء تحية نوراني وشهواني إلى حد مستبعد

التصديق. . رقصت مؤدية تأليفا طويلا ومتواصلا يتكون معظمه من الدوران البطيء. . تدور حول محورها في اتزان محكم إلى حد الكمال فيما الموسيقى تعلو وتهبط بنغماتها المتجانسة فتكتسب معناها من أداء أعظم راقصات زمانها لا من تكرار تفاهة كلمات المطرب. . وصلة من الجنس الغامض والمؤدي والمنظم ببراعة هائلة، لكنه جنس عصي على المنال وعلى التحقق والاكتمال، جنس مرجأ على الدوام ومستبعد بصورة نهائية». . . ويأتي نقاد الكونفوشوسية يكتبون عن مشاعر الإعجاب الصادقة البليغة بكلاكيع الكلام مثل: . . بروز تيار ما بعد الكولنيالية في دراسة بولطقيا الجسد في السطح الذي أولته النظرية النقدية المعاصرة للكيانات المقموعة والمهمشة من الحياة الاجتماعية والثقافية مثل الأقليات الدينية والعرقية والإثنية، والترابط بين النصوص وبين الوقائع الوجودية للحياة التي تبتدئ من الفرحان وتنتهي بالرقص كنص كامل ومنجز في الإطار النصي الثقافي الخطابي المتجانس من التاريخ الثقافي العربي في تلك المرحلة من الحياة السوسيو ثقافية المصرية داخل نص يمكن ترحيله وتقديمه في إطار علائقي عبر استخدام نظام استاطيقي عفوي معبر عن التواتر اللااتساقي في الموروث الشعبي لشخصية العالمة القادمة من التاريخ العربي الإسلامي ولاسيما العصر الذهبي للإمبراطورية العباسية، وشيئا فشيئا يقترب مفكرنا من الميدان الميثادولوجي بعد أن هزته الحماسة الفائضة للثقافة الشعبية التي كان كل من ليوتار وبورديار يشجعانها. . و. . ولا مؤاخذة الله يخرب. . . . . . هل فهمتم شيئا؟! . . . والله ولا أنا. . إنما ما كان قد وصلني من تحية إلى تحية هو بلاغة المفكر وتدفق مشاعره في أي أرض قادته إليها قدماه، وبأي فعل تأثر، وبأي من بني البشر أبدى إعجابه.

تحية كاريوكا. . راقصة مصر العالمية الخارجة من باب الحمام وكل خد عليه خوخة. . التي لم تعرف موضع قدمها إلا في الرقص. . بدوية محمد علي النيداني كريم. . الحب والمعارك. المصادفة والحبكة. الخطة والقدر. الجوع والتخمة. الحرية والسجن. الصحة والمرض. الزواجات والطلاقات. الملاءة اللف وفستان السهرة. الإتيكيت والردح. الذكاء والهبل. الفول المدمس والمارون

جلاسيه. السفح والقمة. عميدة الرقص الشرقي المتهمة بمحاولة قلب نظام الحكم. الأرتيست وسجادة الصلاة. الدنيا والدين. الأمومة مع إيقاف التنفيذ. المعتقلة سياسيا مع رؤساء أحزاب ووزارات. . من قال عنها نجيب الريحاني: «تحية قارة مجهولة». . . . كاريوكا التي قالت بعد سنوات من قيام الثورة: «كان هناك فاروق واحد والآن نعيش عصور الفواريق!!».

زكي رستم

المشخصاتي ابن الباشوات

بدهي أنك إذا ما وجهت حديثك لمن يفقد حاسة السمع تدريجيا من جراء التقدم في السن أو المرض أو من صفعة مدوية على الصدغ أو خلقة ربنا . . بدهي أن يسألك الإعادة فتستجيب له مرة واثنتين وثلاثة . . بعدها لا بد وأن تحرص على رفع نبرة صوتك كي تصل به إلى طبلة أذنه، وهذا الرفع عادة ما تصحبه تعبيرات قد ترسم على ملامح وجهك لا شعوريا طابع النرفزة ، مما يجعل صاحبنا يرد على نفس الموجة فيصبح الحوار بمثابة خناقة .

وذلك كما كان يحدث داخل البلاتوه بين المخرج والممثل الكبير زكي رستم في سنواته الفنية الأخيرة . . يا أستاذ زكي تعالى لي من فضلك شوية لورا علشان الصورة تطلع حلوة . . ويأتي الاستفسار مهذبا ملبيا ابن باشاوات : أفندم حضرتك بتقول أروح فين؟ . . فيختصر التوجيه مع ظلال حدة دخيلة : باقول ارجع لي ورا . . أفندم بتقول فين؟ . . هنا بالذات يدوي الأمر بما يشبه الصرخة التي تنعكس أصداؤها سلبيا على جميع العاملين في المكان : ورا يا سيدنا قلنا ورا ورا ورا . . وقد يشوِّح المخرج لمزيد من الشرح المستنفر بيده مما يعطي انطباعا بأنه خلاص قد زهد ولم يعد يرغب لا في الأمام ولا في الوراء، مما يضاعف من توتر النجم المخضرم الرافض لوضع السماعة الطبية المكبرة للصوت في أذنه اعتقادا بأن سمعه الثقيل ما هو إلا مجرد عارض دخيل سيزول مع الأيام، وأنه بحفظه جيدا لدوره وقراءته لشفاه الممثلين أمامه قد حل المشكلة، ولأن السماعات في ذلك الزمن المتقدم كانت لم تزل بأسلاكها وبطاريتها ظاهرة للعيان، إلى جانب أنها تقيد من تحركات

الاندماج التي لا بد وأن تتدخللها معركة، وبطل الجماهير محال أن تخدش صورته المثالية سماعة طبية.

من هنا.. ومن بدري.. آثر زكي رستم حياة العزلة ومعه كلبه يحيا تحت غلاف الصمت خلف أسوار بيته بعيدا عن الضجيج الذي لا يسمعه. في عزوفه عن الناس فضل الحديث مع النفس على مذلة استعادة السؤال واستقبال جواب يحمل لأذنه أصداء الامتعاض.. استعذب أن يناقش بلغة العين.. أرهف حواسه لموسيقى الكلمة المكتوبة.. استمع بشغف لحوار الصفحات وتلاطم المواقف وأمواج الأحداث وهدير الانفعالات العالمية على ضفاف مكتبته الزاخرة بكنوز الفرنسية والإنجليزية.. الممثل النجم غير النمطي الأسطورة صاحب الوجه السبورة الذي تدرس وتشخص ملامحه ونظرات عينيه جميع الأدوار. العظيم مسرحا وشاشة. الذي لم يكن يمثل دورا وإنما هو الدور ذاته. المختلف الذي لم يشابهه أحد. الطاغية والوزير الألعبان والباشا الوقور والموظف الغلبان والعمدة واللص وتاجر الخضار فتوة الحسينية وباب الشعرية، وأبو البنات الحنون الذي يدور معهن حول ترابيزة السفرة يردد وراء فايزة أحمد بيت العز يا بيتنا.. قبع صامتا ينتظر النهاية، فإذا ما اضطر للخروج فالسير تجوالا في منطقة محدودة من شارع سليمان وعبد الخالق ثروت، وإذا ما اضطر إلى تلقي السلام فضغطة على اليد في عجلة ورده على التحية: «مستورة والحمد لله».

ويقوده مشواره للحلاق يجلس فوق مقعده المرتفع تاركا أقدامه لمن يلتف حول حذائه بلمعة لا تعنيه، مستسلما في نفس الوقت لمن يدور بموسه حول رأسه يهذب شعره أو يلغيه، مرسلا عينين تسافران إلى البعيد.. ومع الانتباه لنهايات المهمة الحتمية يفتح كيسا داخل كيس تغلقهما السوستة الثالثة ليمنح المقابل ببقشيش محسوب لا يحيد، وغالبا ما تكون وجبة الغداء في مطعم الأونيون، وفنجان القهوة في الإكسلسيور لا يلبي فيهما عزومة أحد ولا يدعو من جانبه أحد.. وبمرور الفناجين والجلسات الشاردة أصبح يؤثر بالود جرسونا معينا، رآه في إحدى الليالي بادي الحزن فسأله عن السبب فقال الجرسون: أصل والدي توفي.. وهز الفنان

زكي رستم رأسه أسفا، ثم شرد قليلا وقال بعدها للجرسون: البقية في حياتك هو المرحوم والدك يقربلك إيه؟! . . وقد يصل زميل إلى قلب القوقعة ليستمع لأشهر عازب لا زهدا في الزواج وإنما لأن الحظ قد جانبه في شبابه فعجز عن الاهتداء لبنت الحلال التي يكمل معها نصف دينه: «كنت سيئ الحظ على طول الخط. كلما سمعت عن بنت حلوة في أسرة كريمة سارعت محاولا الظفر بها فيصدمني أن عريسا آخر كان أسرع مني! وهكذا مرت الأيام حتى أصبحت أخاف إن تزوجت أن يضن عليّ القدر بفسحة من العمر لأربي أولادي».

زكي رستم: دمعة في بئر الحرمان يتمالك الباشا فيها نفسه فيبتلعها. . الجد محمود رستم باشا والأب محرم بك رستم عضو الحزب الوطني وصديق الزعيم مصطفى كامل. . لو لم أكن ممثلا لوددت أن أكون ممثلا. زكي رستم: ٢٤٠ فيلما و٤٥ مسرحية. . رئيس عصابات نيازي مصطفى في حميدو ورصيف نمرة خمسة. . باشا الإقطاع في صراع في الوادي وعمو عزيز في أين عمري والموظف المطحون ونصاب التلات ورقات. . اتجوزت ميتين مرة في السينما. ٦ صفحات في مجلة لايف تشهد بأنه أعظم ممثل في الشرق وتقارن بينه وبين العالمي شارلز لوتون. . المؤرخ والناقد العالمي جورج سادول يقول إنه النسخة المصرية من أورسن ويلز.

يرفض التمثيل العالمي لأن قصة الفيلم ضد العرب. . قام بدور جليلة الحسناء في رواية الحلاق الفيلسوف على مسرح مدرسة البنات فخرجت البنات في زفة من ورائه. . صفق لأدائه الزعيم سعد زغلول في مسرحية العبرة على مسرح الأوبرا. . زكي رستم: عدو المرأة. ليلى بنت الصحراء. السوق السوداء. هذا جناه أبي. النائب العام. معلش يا زهر. أنا الماضي. عائشة. بائعة الخبز. نهر الحب. الخرساء. بقايا عذراء. الحرام. . زكي رستم: حسن في فيلم زينب الصامت عام ١٩٢٨، الذي ناء بحمل زوجته دبدوبة التخينة بهيجة حافظ من على الأرض وتعثر لاهثا بها في سيره وهو بطل حمل الأثقال فاعترض المخرج محمد كريم على أدائه طالبا إعادة المشهد أكثر من مرة ليغدو أكثر رومانسية، فما كان من زكي رستم إلا أن

قام بإلقاء البطلة السمينة المفروض في دورها النحافة والهزال لأنها مريضة بداء السل، ألقاها فوق السرير الجريد ليتداعى بها صارخا في وجه كريم: اتفضل شيلها أنت!! . . زكي رستم: عزول محمد عبد الوهاب في فيلم الوردة البيضاء عام ١٩٣٣، الذي دوخت فيه البطلة سميرة خلوصي الشعنونة ذات الـ١٦ ربيعا بمرحها وضحكها المخرج محمد كريم في باريس ليعيد المشهد المحزن عشرات المرات دون جدوى من أن تهدأ، فأوعز إلى زكي رستم أخيرا أن يتولى أمرها، فما كان منه إلا القيام بنهرها مستخدما إشعاعات سحنته النارية فأجهشت مذعورة بالبكاء الحقيقي، ودارت الكاميرا. . زكي رستم: قمة درجات الاندماج الذي جذب صباح في بداياتها من داخل قفص الاتهام وأعطاها علقة ساخنة فأنقذوها بصعوبة بالغة من بين يديه لترقد شهورا مضعضعة، وتمضي الأفلام والأيام ويعاود بطولته أمام صباح في فيلم إغراء المأخوذ عن قصة الملاك الأزرق، حيث لم يلحظ وهو يجثو أمامها مندمجا يبثها غرامه أن ساقها عارية فالتفت بعد التصوير إلى حسن الإمام قائلا بصوت عال: أستاذ حسن ده فخذها عريان مش كنت تقول لي يا ابني علشان أعمل حسابي قبل ما أندمج قوي. . زكي رستم: خولي الوسية القاسي الذي تغلب عليه طيبته فيستر جسد الضحية الفلاحة فاتن حمامة في الحرام. . زكي رستم: تاجر قطن حرضني على الاحتراف عام ١٩٢٦، بقوله: البلد فيها ألف دكتور وألف مهندس وخمسميت صحفي لكن ما فيهاش إلا زكي رستم واحد.

وأذهب إليها أسألها عنه بحكم أستاذيتها وخبراتها وصلة الدم. . أسأل المذيعة المتفردة الرائدة ليلى رستم عن عمها زكي رستم فتمتد ساعات الكلام الذي يخرج عفو الخاطر إلى مساحات ثقافية شاسعة وددت حصرها فتهت في اتساعها وزخم معلوماتها وانفراط عقد بعضها غصبا عني، فسارعت أجمع فقرات لها صلة وثيقة ببطلنا: «حقيقة. . المعلومات عن عمي زكي رستم قليلة وغالبيتها غير صحيحة، فهو لم يكن يختلط بأحد ليعرف عنه شيئا. حتى أسرته نادرا ما كانت تلتقي به. كان شخصية جادة صارمة وفي نفس الوقت دمه خفيف لكنه لم يكن يدري أن دمه خفيف. كان يحب مظهر القوي حتى أمام أسرته، وكان يجيد التقليد ويترك لنا الضحك، أما هو فيظل مظهره جداً في جد. كان عصبيًا جدا ودائما غير راض.

عمري ما قطعت تذكرة علشان أروح السينما أشوف عمي زكي، وأفلامه تابعتها فقط على شاشة التليفزيون. كان يقول أنا لا أطاق وعارف إني صعب العشرة. كان قاسيا على نفسه وعلى من حوله ويعلم أن اللي يعاشره يتعذب معاه. كان لا يزور ولا يزار ولم يستقبل أحدا في صومعته. عندما كبر قالت له عماتي يا خويا تعالى نجوزك عروسة من سنك تخدمك، فكان رده: لا أنا ما أظلمشي معايا ولاد الناس. كانوا ١٤ أخًا وأختًا من ثلاث زوجات في الوقت الذي كان الرجل فيه يجدد حريمه كل عشرة خمستاشر سنة بعد ما تكون زوجة منهن قد ترهلت فيجيبوا له شابة جميلة بدلا منها.. عمي الكبير وجيه رستم سفير مصر في باريس من أم تركية أرسلها الخديو هدية لجدي وهو في العشرين أيام الجواري الهدايا.. جدي كان رب أسرة تمتلك ١٦٠٠ فدان تزوج ثلاث مرات الأولى جارية الخديو وكانت أكبر منه بـ٨ سنوات إلا أن جمالها كان غير عادي، شقراء بعيون زرقاء أنجبت له عماتي فائقات الحسن، ومن نسلهن جاءت عائلات الترجمان والبتانوني ومرزوق وسلطان بنسائها الجميلات وجها وقواما بدرجة تلفت النظر.. الابن الثاني زكي الذي خرج عن العرف والتقاليد ليسبب حرجا لأسرته لدخوله عالم الفن.. الابن الثالث عبد الحميد بابا خريج كمبردج المنفتح على العالم الذي يتركنا نلعب التنس ونرقص ونرتاد البلاج بالمايوه ولكن في نطاق لا يخرج عن التقاليد وتحت أنظار الأهل.. في زيارات عمي زكي لنا لم يكن الكلام أبدا يدور حول الفن وإنما موضوعاته عن العزبة والدودة عاملة إيه السنة دي يا حميد؟ وإيه أخبار ناظر الزراعة؟.. كنت أتأمله جالسا يحادثنا عن الرياضة وعن أحلامنا المستقبلية فأستشعر بأنه إنسان يحيطه الإحساس بالذنب. حاسس إنه عامل عملة رغم احترام العائلة له. كان قاسيا على نفسه وعلى الناس وكانت قسوته أكثر على نفسه. عمي زكي من مواليد عام ١٩٠١ نفس السنة التي ولد فيها كل من عبد الوهاب وأم كلثوم. كان الفن عنده هو البلاتوه ولحظة خروجه منه تنقطع الصلة بينهما تماما لهذا لم يكن له أصدقاء.. صديقه الوحيد سليمان نجيب ابن الباشاوات، وكان يحترم ويحب عبد الوارث عسر، والتقى جورج أبيض الذي شجعه في أول حياته.. عمي زكي عشق الفن كما يعشق الرجل المرأة وتنازل من أجله عن كل شيء كما تنازل إدوارد الثامن عن العرش من

أجل مسز سمبسون، والعاشق إنسان متفرد له مواصفات خاصة سواء أكان عشقه للعمل أو للفن أم للمرأة. أدوار الباشوات كان يتقنها لأنه عايشها على الحقيقة، لكن الأدوار الدخيلة كان يشربها ويتقمصها ويتداخل فيها حتى إن فاتن حمامة قالت لي إنها كانت تخاف من اندماجه عندما يستولي عليه: يندمج لدرجة أنه لما يزقني كنت ألقى نفسي طايرة في الهواء.. عندما طلب منه كمثال القيام بدور النصاب بياع التلات ورقات ع الرصيف راح العتبة وانتقى النموذج المثالي للشخصية وسأله عن مكسبه اليومي فظنه الرجل في أول الأمر من الشرطة ولما تعرف إليه اعترف بأن دخله جنيه ونصف الجنيه.

فقال له عمي لك عندي خمسة جنيهات على أن تسافر معايا للعزبة تلقمني أسرار الصنعة وتشرب لي الدور من كيعاني، وبالفعل قعد معاه ثلاثة أيام يتعلم ويدرس الشخصية من الداخل والخارج، وبعدها رن التليفون عند الريجسير بصوت زكي رستم: أنا جاهز.. زياراته لنا كانت تعتبر حدثا مهما، وغالبا ما يكون وراءها مشكلة، ولابد من قبل الزيارة من الاستئذان بموعد سابق.. كان والدي يحبه ويحترمه ويقول لوالدتي: يا سونة من غير ما أقول لك اعزمي أخويا زكي يوم ما أرجع من العزبة لأنه بيوحشني.. وتطلبه والدتي: يا أبيه.. أيوه.. أنا سونة.. ديدي بعت لي سمان من البلد تحب نعمله لك بالرز ولا بالفريك.. أنا جاي بس لازم الهانم بنتك تكون موجودة.. حاضر بس هي بترجع من الجامعة متأخر على الساعة خمسة.. وينتظرني العم للخامسة عائدة من بروفات المسرحيات الكلاسيكية والمودرن التي نمثلها مرتين في السنة بالجامعة.. كانت الصحافة أيامها تكتب عناوينها المثيرة مثل ابنة زكي رستم فاتن حمامة جديدة وجينات التمثيل في الجامعة الأمريكية.. يقرأ الحاجات دي والبطاريات عنده تولع وتضرب ويقبل عزومة السمان بالفريك، وأرجع أستقبل كورسات التأنيب... ذكرياتي معه محملة بالعتاب والقسوة والدروس والزجر والنهر.

يقوم ويمشي ويشاور ويشيح غاضبا ووالدي ووالدتي قاعدين بدون كلام، وأنا أتأمله أدرسه لأتقمص دوره وطريقته في الحوار لأقلده فيما بعد. كان خايف إني

أحترف التمثيل. إن البنت يلعب في عقلها الصحفيون. . خايف عليها من التنازلات. خايف من إغراءات قولهم إنها بارعة بالسليقة وبدون تدريب. خايف قوى إن تيار التمثيل يجرفني خاصة بعدما أصبحت جاهزة للشاشة بظهوري في التليفزيون. بابا كان سابق زمانه. شقيقتان على طرفي النقيض. واحد تفكيره قبل زمانه وواحد نظرته لقدام يربط بينهما الحب والاحترام. إنت ساكت إزاي على البنت. يا أبيه عيال بيتسلوا. الخوف من كده ما أنا ابتديت تسلية وقلبت معايا تراجيديا. . وبقي الأمر على هذا المنوال إلى أن دعاه والدي ليراني على خشبة المسرح أقوم بدور الجدة في مسرحية من فصل واحد تدور فكرتها حول صراع الأجيال، ويروي والدي أن عمي زكي كان قاعدًا منجعصًا على مقعده في أول الأمر ولم يتعرف على بحكم الماكياج وبعد ربع ساعة سأل بابا: هي ليلى حتطلع إمتى؟. . التاني سكت. وأخيرا تعرف على ليطلع في مقعده لقدام ويحط رجل على رجل ويرتكز بكوعه على ركبته ويقعد يبحلق متجهما ولونه مخطوف وعينه طلعت لبره، وبعدها رجع للوراء وانجعص مبلما حتى أسدل الستار ودوى التصفيق فاضطر أن يصفق بطراطيف صوابعه ووقف يرد من تحت ضرس على الصحفيين: أيوه أيوه هي موفقة. لبست الدور كويس. حاسة بالدور. جدة كويسة. . . وضبط أعصابه حتى أخذت لنا الصور الجماعية مع رئيس الجامعة، والتقت نظراتنا فاستشعرت بتهديده. . ورجعنا. وبعدها قضينا ساعتين في مسرحية تانية جمهورها أنا وماما وبابا من بعد ما صرفت ماما كل الشغالين. . دادة حميدة اطلعي شوفي الستاير فوق. . عبده تقدر تشوف شغلك لغاية ما نضرب لك الجرس. . . إزاى يا إحسان تسمحوا للبنت تمثل على مسرح. البنت لازم تتجوز وهي عندها بالكتير ١٨ سنة. جرى لك إيه يا حميد مش عايز كلمة هواية على لسانك. انت ناسي اللي حصل لي في سرايا الحلمية؟!

وما حصل في سرايا الحلمية التي كانت تقع على مساحة خمسة أفدنة ومكونة من ٥٠ غرفة بأغواتها وجواريها السود والبيض واللونجيات الطلاينة والأروام أن الجد محمود رستم باشا ما إن كان يأخذ قطاره للمنصورة يشوف أمور الأرض حتى ينزل عمي زكي للبدروم بعد جمع الترابيزات والملايات لعمل مسرح، والممثلين فيه

إخواته يحفظهم الدور وفي النهاية يمنحهم الدرجات . . خديجة تاخدي تسعة على عشرة ، وأمينة ثمانية أما عبد الحميد ياخد عصايتين لأنه مش عارف يحفظ جملة واحدة هي لقد وصل الملك أيها الشعب . . وتهرع اللونجية الإيطالية للهانم الكبيرة جدتي أمينة هانم عبد الرازق سليم فهمي تشكو لها زكي بيه عمل تياترو في البدروم ولخبط كل حاجة ، وتؤنب الهانم ابنها فيعتذر : معلش يا نينة إوعي تقولي لبابا حيحبسني في العزبة . . إنت ولد أراجوز . . حفيد رستم باشا وابن محرم بك تبقى نهايته أراجوز . . يا جوزفين هاتي لي الهدوم اللي زكي كان بيلعب بيها ، وتنزل فيها بالمقص .

عمي زكي كان الفن متأصلا جواه . راكبه عفريت اسمه الفن . غُلبت والدته تؤنبه وأقسم والده يحبسه في البلد يطلع فلاحًا يشوف الأرض . بعد وفاة الأب دوغري التحق عمي بفرقة جورج أبيض فطردته جدتي من السرايا لأنه مثل سيئ لأخواته بعدما خيرته بين سكة الفن والحقوق فاختار المسرح لتصاب بالشلل حتى وفاتها ، ولما يئست منه خافت على ابنها الصغير والدي عبد الحميد من تأثير شقيقه الذي أصابه فيروس الفن فشحنته إلى إنجلترا في سن ١٢ سنة ، ليمكث هناك ١٢ سنة ، وأوصت شقيقه وجيه سفير مصر في فرنسا بمراعاته . . عمي وجيه تزوج على كبر عام ١٩٥٢ ، من نعمت هانم كريمة علي باشا إسلام من بني سويف ، وكانت قد حققت ذاتها في الأمومة من زوجها السابق وأنجبت منه ابنها الدكتور محمد اللوزي ، لكنها لم تنجب نسلا لعمي وجيه ، وكذلك لم ينجب عمي زكي لأنه لم يتزوج من الأصل ، وبذلك آلت ثروتهما لأبي عبد الحميد وكانت أملاك الأسرة ١٨٠٠ فدان وصلت إلى ٨٠٠ فدان . . عمي زكي ترك ثروة ضخمة لكنه لم يكن يحب أن يُطلع أحدا على مدى ثرائه . . والدي تزوج بعد إتمام دراسته في كمبردج بإنجلترا وعودته عام ١٩٢٨ ، وانتقلنا معه للإسكندرية ، وبعد وفاة عمي محرم عام ١٩١٥ ، بيعت السراي وسكنت الأسرة فيللا بالزمالك عنوانها ١ شارع الكامل محمد ، أيام ما كانت جزيرة الزمالك وسط النيل لم تعرف العمارات التي تفضح الخارج والداخل ، وكان يراعي في تخطيط الفيلات أن مساحة كل منها ٦٠٠ متر

مربع، الثلث مبان والثلثان للحديقة. . عمي عزيز كان عنده شعور بالظلم. إنه ممثل عظيم لم يأخذ حقه لكن عبد الناصر وحده هو الذي قدره في أواخر الستينيات، طلب من الياوران الخاص أن يستدعى له زكي رستم، فقال له في التليفون: الريس عايز يشوفك. . منحه وسام الجمهورية. . . في الزمن الجميل كانت التقاليد أن يحترم الصغير الكبير ويسمع كلامه، والكبير يعطف على الصغير. . الدنيا كان فيها كل واحد له كبير. . دلوقت ماحدش له كبير. . الكل بيقول براحتي. . تسد الشارع بعربتك وتقول براحتي. ومن هنا تبدأ الفوضى.

وتظل مطاردة الصحافة سجالا مع زكي رستم من لا يزور ولا يزار. . في عام ١٩٦٨، يدوي بجواره رنين التليفون في شقته بعمارة يعقوبيان بعد أن مات كلبه الوولف ومرض خادمه المسن. . فوق الأذن يضع السماعة فيسمع ثنيات الكلام وحطام الحروف فيثور: عايزين مني إيه. أحاديث وصور وتعب قلب. عن السينما. سينما إيه. أنا من زمان بطلت كل حاجة. هي فين السينما اللي عايزين أتكلم عنها. شوية جهلة. مخرج كان بيشتغل صبي بيشيل البالطو للمخرج شاف له كام صاحب على كام صاحبة وعمل مخرج. اتلم على كام واد كومبارس على كام واحدة عمل فيلم. . واحد ناقد اتكلم عني من غير ما أعرفه. يتكلم عني ليه. كل واحد يفشل في حياته دلوقت يشتغل صحفي أو ممثل، وكل واحدة إما تشتغل ممثلة أو صحفية. . مش هي دي الحقيقة. . زكي رستم خلاص مش عاوز سينما ولا صحافة ولا حاجة أبدا. أنا كفاية عليّ إن مجلة لايف قالت عني سنة ١٩١٩، إن زكي رستم أعظم ممثل في الشرق. أنا تاريخي معروف ومش ناقص صحافة. أنا ابن محمود بك رستم وحفيد محرم باشا رستم. السرايا بتاعتنا في الحلمية القديمة اتباعت بأربعين ألف جنيه أيام ما كان الجنيه جنيهًا. . مطلعين على إني بارفض التعامل مع الحياة ومقاطع المجتمع. . أنا لا أنا معتزل ولا أنا مقاطع، أنا بازور أصحابي وأصحابي بيزوروني، يروحوا يشوفوا لهم واحدة في مايوه أو واحدة لابسة ميني جيب يعملوا معاه الحديث. . مالكم ومال زكي رستم. ـ ويلمس زكي رستم جرحه الحقيقي في قوله التالي ـ حجة بتوع السينما إن زكي رستم بقى

عجوز خلاص يروحوا يشوفوا الشباب. يشوفوا لهم سهرة يسهروها. يشوفوا لهم ست يجروا وراها. عايزين تكتبوا عني ليه.. تصوروني ليه. ما تروحوا تشوفوا فيلم الفتوة بتاع سوق الخضار. شوفوا الأفلام بتاعتي وشوفوا إيراداتها واكتبوا عن النجاح اللي يستحق وطلعوا صور زي ما إنتم عايزين.. لكن.. صور معايا لأ.. كلام معايا لأ.. واحد ما بيفهمشي حاجة ينقدني ليه. مابيقراش حاجة يكتب في إيه.. كان فاكر إني رايح أخاف منه فأقوم أعزمه مرة وأسهره مرة.. لأ.. لأ.. لأ».

زكي رستم هنا عبر عن رأيه في الصحافة وقت أن كانت مهنة لها شيوخ وناس في مثل حجمه.. كان فيها مصطفى وعلي أمين وهيكل وإحسان وموسى وأنيس وبهاء وفكري أباظة.. من أربعين سنة قال ما قال، فماذا يقول ابن رستم لو شاف جرائد هذه الأيام.. ماذا سيقول؟!!

بديع خيري.. يعوّض الله!

فوق مقعده المتحرك بعدما بترت أصابع قدميه العشر من تأثير مرض السكر لم يعطله شيء عن الاستمرار في العطاء. كان يدير العجلات بيديه ليخرج إلى الشرفة، حيث مستقره خلف المنضدة الصغيرة التي أصبحت حدودها نطاق عالمه ليكتب ويكتب المقال والزجل والحوار والفيلم والمسرحية، ويندمج في كتابة الحوار فيتقمص الشخصيات لينطق بلسانها ولزماتها فيسمع من بعيد مقلدا ضحكة حسن فايق ودلال ماري منيب ولثغة ميمي شكيب وانفعال سراج منير وصفايح السمن السايحة للقصري. . و يتحرك أفراد العائلة عن بعد بهدوء تاركين للفنان القدير المساحة اللازمة للاندماج ليستشعر بنفسه وقع الكلمات على أذنه أولا قبل سمع المشاهد.

وعندما يضع القلم بعد ساعات يطلب وجبته وفنجان قهوته السادة، بعدها يذهب إلى الحمام للاغتسال والوضوء ليصلي موضعه، وعندما يستدعيه الأمر يذهب محمولا لمسرح الريحاني ليشرف بنفسه على ما يدور فوق خشبته التي كتب لها في حياة الريحاني ١٢٢ مسرحية وأوبريت، شكلت مسيرة فن الريحاني بدءا من الجنيه المصري عام ١٩٣١، حتى مسرحية سلام اليوم مرورا بأفلامه العشرة من أول صاحب السعادة كشكش بيه عام ١٩٣١، إخراج إستيفان روستي، وحواديت كشكش بيه وياقوت الذي صورت مناظره بباريس، وبسلامته عايز يتجوز من إخراج نيازي مصطفى، وسلامة في خير وموسى عمر وأحمر شفايف ولعبة الست وأبو حلموس وأخيرا غزل البنات الذي تقاضى فيه مع نجيب الريحاني أتعابا قدرها ٣٠٠ جنيه مشاركة من المنتج والمخرج أنور وجدي، وعقب وفاة الريحاني في يونيو ١٩٤٩، قام بتلبية حاجة فرقة الريحاني التي أراد لها الاستمرار، فكتب ٣٥

مسرحية كان من بينها ابن مين بسلامته والرجالة ما يعرفوش يكدبوا وحماتي بوليس دولي، وآخرها يا سلام على كده المسرحيات التي تعاقب على بطولتها أكثر من نجم كان أولهم الابن عادل خيري وفريد شوقي وحسن يوسف . . إلخ . . أفتش عنه يا خجلي منه في كل كتاب . . بديع خيري . . فلا ألقاه يا أسفي إلا نادرا داخل شذرات وقصاصات وكتيبات لم تشبع نهمي لفتح الباب بمصراعيه على الأديب المتفرد والزجال البارع والصحفي القدير والمؤلف الغزير الغزير الغزير .

الحيي الخجول عف اللسان المتواضع رغم عظمته المتراجع رغم ندرته، وفي مصرنا العظيمة يظل الخجول أبدا في الصفوف الخلفية بينما يتصدر الجسور المقتحم ليجني كل الثمار، وفي مصرنا الذاهلة رغم قولنا إننا نعشق المرح وخفة الظل فنحن فيها لا نحتفي إلا بأصحاب المنادب بينما نضع صناع الكوميديا في المرتبة الثانية بتراث خفي يسكن الأعماق يزاوج ما بين الكوميديان والبهلوان فأين بديع خيري صانع مجد نجيب الريحاني؟!! وأين أبو السعود الإبياري صانع تاريخ إسماعيل ياسين؟!!

يظل بديع خيري العملاق جامعة الفن قابعا في الظل في حياته وبعد مماته، فإذا ما أتى ذكره فعلى سبيل السنيد للبطل الذي ملأ الساحة والعين والواجهة والصدارة، وعندما يتذكره النقاد يأتي اسمه بعد الصفحات المدبجة والمكانة الرفيعة لمن سبق وأكل النبق بل لهط الوليمة كلها . . يأتي في سطرين وقبل الختام والنهاية مثلما قرأت عنه في رحلة البحث عنه : وتاريخ نجيب الريحاني لا يكمل إلا بالحديث عن بديع خيري الذي بدأ معه مشواره الفني بالمشاركة في كتابة مسرحياته المقتبسة عن المسرح الفرنسي . . هكذا . . فقط لا غير!! يا نهار أسود على من ينكب على العمل في هذا البلد عمرا حتى يقطعوا رجليه!! وإذا ما كانت الحقيقة الأزلية أن السالب ينجذب إلى الموجب، فإن بديع خيري أبدا لم يكن سالبا ولا سلبيا بل كان موجبا وإيجابيا، وربما قد بلغت درجة إيجابيته حداً أن رأى بوضوح من نظرة فوقية ألا سبيل لترديد كلماته إلا عن طريق وساطة لها منزلة جماهيرية لا نظير لها، ومن هنا جاء ارتباطه بأعلى قمتين فنيتين أنجبتهما مصر :

سيد درويش ونجيب الريحاني، حيث ذاب فيهما ناكرا ذاته ليقدما عصارة أفكاره وأقواله وأدبه، وليس أبلغ من قول الريحاني نفسه حول خجل بديع خيري: بديع شخص خجول، ولطالما أضاع هذا الخجل حقوقا، ولكنه لا يأسف على شيء فاته، ولو كان كغيره ممن يحسنون الدعاية لأنفسهم، لأضحى اسمه ملء الأفواه والأسماع، ولتوارت من خلفه أسماء كثيرة نراها تحتل مكان الصدارة من غير استحقاق أو جدارة.

بديع المبدع الذي ترك فيض تراث لم يحفل بجمعه في حياته ليتركنا من بعده شبه عاجزين عن متابعة مسيرته المذهلة في أي مجال طرقه من روافد الفن، حتى في عالم الأغنية التي لم يترك فيها طائفة من طوائف الشعب إلا وكتب من أجلها وعبر عنها ودافع عن حقوقها، وتحولت تلك الأغنيات إلى ألحان تسللت إلى المسام لتجري في دماء الأجيال بعدما مستها عبقرية سيد درويش فرددها الجميع ناسين أن كاتبها بديع، ذلك لأنه عندما عبر عن الشعب ذاب في الشعب فأصبحت الأغنيات وكأنها من تأليف الشعب نفسه لا من تأليف واحد من هذا الشعب.. وكم سألتني الحفيدة عن مؤلف النشيد القومي بلادي بلادي الذي تردده في طابور الصباح فكان الخجل يتنابني لجهلي بصانعه إلى أن علمت بشبه يقين من أقرب الناس إليه أنه بطله ومؤلفه الذي منحه لحنجرة سيد درويش من ردد نشيدا مماثلا له أيضا من نظم بديع: «قوم يا مصري مصر دايما بتناديك، خد بنصري نصري دين واجب عليك». وعرفت أيضا مؤخرا أن بديع خيري هو المؤلف لأجمل أغنيات فيلم غزل البنات، وهما أغنيتا أبجد هوز حطي كلمن شكل الأستاذ بقى منسجم وعيني بترف وراسي بتلف وعقلي فاضل له دقيقة ويخف، هذا بينما لم يذكر سوى حسين السيد كمؤلف لجميع الأغنيات، وكان شرط الريحاني أن يقوم بديع بكتابة أغنياته في الفيلم بينما تمسك محمد عبد الوهاب بحسين الذي وقف أمامها عاجزا فأهداهما بديع له.

وهل سيتذكر أحد في دندنته ذلك المتواضع المتراجع المستكفي الذي كتب لسيد درويش أمجاده: علشان ما نعلى ونعلى ونعلى لازم نطاطي نطاطي نطاطي، والحلوة دي قامت تعجن في البدرية والديك بيدن كوكو كوكو في الفجرية ياللا بينا

على باب الله يا صنايعية يجعل صباحك صباح الخير يا اسطى عطية ويهون الله يعوض الله ع السقايين دول شقيانين، وطلعت يا محلى نورها شمس الشموسة ياللا بينا نملا ونحلب لبن الجاموسة، ومليحة جوي الجلل الجناوي رخيصة جوي الجلل الجناوي وياما ليه تبكي عليا وأنا مسافر الجهادية وعين الحسود فيها عود يا حليلة على عريس الليلة اسم الله عليه، وهز الهلال يا سيد كرماتك لجل نعيد ويا حلاوة أم إسماعيل في وسط عيالها زي النجفة عم بتلعلط في جمالها وسرجوا الصندوق يا محمد لكن مفتاحه معايا، ويا ورد يا فل وياسمين الله عليك يا تمر حنة وهف أهو طلع النهار وبقينا فوق وش الفجر والبحر بيضحك والله للخفة وهي نازلة تدلع تملا الجلل.. وأغنيات طالما رددناها في أوتوبيس الرحلات يا مدام نفوسة أنا نفسي في بوسة إنشالله أبيع الفدانين والكام جاموسة.. اللي يشوفك يا بيه يحطك جوه عنيه مش عارفة أنك دايخة ليه فيك ولا في الجنيه.. جنيه اتنين جنيه يا أجلاسيه يا مدام نفوسة.. وسالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة.

بديع الذي لم يظهر في الصورة التي يحتل الريحاني واجهتها في فيلم لعبة الست ليغني كلماته فيسم بدن العريس عزيز عثمان في زفافه على تحية كاريوكا: بطلوا ده واسمعوا ده ياما لسه نشوف وياما.. الغراب يا وقعة سودة جوزوه أحلى يمامة.. هي كانت فين عنيك يا يمامة لما دورت بإيديك ع الندامة.. الصدامة.. اللمامة.. إنت عاجبك فيه جنانه ولا لخبطته في كيانه ولا تعويجة سنانه ولا لو حطوا في ودانه جوز أرانب لم يبانوا.. بطلوا ده واسمعوا ده.. ولم يأت ذكر للعبقري الذي كتب بيت الشعر الحلمنتيشى الذي ردده الريحاني في رواية سلامة في خير لجاره شرفنطح المدرس البائس الخبيث: إذا لم تكن لي والزمان شرم برم فلا خير فيك والزمان ترللي.

بديع خيري ابن الدرب الأحمر من تفتحت موهبته في الشباب الباكر ليمد فرقة الريحاني بأزجاله عن طريق جورج شفتشي الذي انتحل كتابة هذه الأزجال باسمه للريحاني وعندما اكتشف نجيب مصدرها الحقيقي كتب مع بديع خيري عقدا بشرط أن يكتب اسميهما معا على أي عمل، وذلك بعدما كان قد اختلف مع كاتب أعماله

السابق كامل صدقي - والد النجمة لولا صدقي - فلملم جميع الأوراق وذهب بها لمسرح علي الكسار المنافس عندما كانت الفرق المسرحية تتطاول على بعضها بأسماء المسرحيات فيعرض كازينو دي باريز مسرحية إحنا اللي فيهم فترد فرقة الريحاني برواية فشر فتعرض فرقة علي الكسار مسرحية راحت عليه ليرد مسرح الإجبسيانة باستعراض رن، ويتهكم الكسار بمسرحية ولسه فيعلق الريحاني باستعراض ولو، ويقدم الكسار روايته البربري في مونت كارلو فيرد الريحانيُ غناء في مشهد من تأليف بديع خيري: ده وقت عايب بالذمة والدنيا لغز صعب حله ابن الأصول يبقى في غمة والبربري في مونت كارلو.

وأتشبث بأي حديث يأتيني من صلبه.. من بيته.. من نسله.. من أفراد عائلته ليثري معرفتي بالرجل العظيم بديع خيري.. الابن نبيل يأخذني الكلام معه عن الوالد في كل اتجاه وأتركه يتذكر ليحيطني علما ولا أضع متاريس أو حدودا بأسئلة قد تقطع خيطا أو توقف تدفق الاسترسال: «أنا خريج أول دفعة في معهد السينما ومن أساتذتي محمد كريم وصلاح أبوسيف ويوسف شاهين وتوفيق صالح، وعملت مساعدا للمخرج محمود ذوالفقار في فيلمين: ثلاثة يحبونها وامرأة في الظل لشادية وصلاح ذو الفقار عندما كان يناديها مني وتناديه أحمد، بعدها استقلت للعمل مديرا لمسرح الريحاني.. كان بيتنا الأول في شبرا عند حارة سيد درويش الذي أتي من الإسكندرية مع والدته ليسكن بجوار أبي، ثم بعدها كان عنواننا ٦١ شارع روض الفرج بعد الدوران في الدور الثالث، ثم في باب اللوق عمارة رقم ٥٤ شارع الفلكي فوق الحاتي في آخر دور.. الوالد كان غاية في الحنان يضع لي الحلويات فوق الكومودينو لأخذ منها وأنا رايح المدرسة.

توفي وسني ٢٨ سنة.. عمره ما شرب سيجارة.. هو أول من كتب للسينما في مصر صامتة وناطقة ومن أفلامه الصامتة المندوبان، أما أفلامه الناطقة فمئات فقد كانت جميع الأفلام المصرية الأولى من نتاج قلمه.. كان عاشقا للصحافة أصدر جريدة النهاردة في عام ١٩٣٠، بالاشتراك مع توفيق دياب، وهدفها الأساسي الجهاد من أجل الدستور ولم يستمر صدورها سوى ١١ يوما، وأصدر مجلة ألف

صنف وجرنال الغول. . . كتب أغنيات تسد عين الشمس ومنها في الأفلام أغنيات الماضي المجهول لليلى مراد: أنا قلبي خالي واللا انشغل بك مش عارفة مالي يمكن بحبك وحيران في دنيا الخيال محروم من الذكريات، وكان يثني كثيرا على المطرب محمد فوزي الذي كتب له في فيلم ورد الغرام: لي عشم وياك يا جميل وأغنية شحات ومد إيديه وكسر خاطره حرام وترد ليلى قلت على الله على الله. . اديني ميعاد لله. . فوت بكرة خمسة تمام، من قدم شيء بيداه يلقاه وكله على الله، ولا أدري السبب في عدم إذاعة أغنياته الدينية العديدة خاصة رائعته بصوت أسمهان: أمانة لله يا رايح مكة ونيتك بالكعبة تطوف تبوس لي فيها تراب السكة، أمانة من مؤمن ملهوف بينما يكتفون بإذاعة أغنية لليلى مراد: يا رايحين للنبي الغالي هنية لكم وعقبالي. . كان دائما مجددا في الحوار الكوميدى للمسرح وكان أول من قام بتكرار الإفيه في الحوار عندما جعل ماري منيب تكرر سؤالها لعادل خيري: إنت بتشتغلي إيه؟! فيجيبها عشرات المرات سوااااق وتنتشر بعدها مدرسة التكرار في مسرح مدبولي وفؤاد المهندس.

بديع كتب فيلم انتصار الشباب وأغنياته في مطلع حياة فريد الأطرش وأسمهان. . سهرت معه أكثر من مرة عند الشيخ زكريا أحمد في الفجالة فوق الكنب البلدي، وكانت القعدة جميلة مرح ودندنة وفن وعلى فكرة بديع خيري هو صاحب أول دور لحنه زكريا أحمد وغنته أم كلثوم مقام زنجران الذي أحدث صدى واسعا عند المستمعين، ويعد أعظم دور للشيخ زكريا على الإطلاق، فضلا عن كونه كما يقول الخبراء من أعظم الأدوار في تاريخ الغناء المعاصر وكلماته تقول:

هــو ده يــخــلــص مــن الــلــه

الــقــوي يــذل الــضــعــيــف

حــتــى يــبــخــل بــالمطــلــة

شــيء ولــو دون الــطــفــيــف

لــيــه دا كــلــه لــيــه دا كــلــه

مــين يــقــول لــه. . مــين يــقــول لــه

اتـهـــــــــــدى وخـلـيـك لـطـيـف

قـلـبـي كـل مـــــــا تـقــــــوى نـاره

وإنـت فـــــيــــــه بـنـخــــــاف عـلـيـك

حـــــــــد يـحــــــــرق بـس داره

إوعـى تجـنـيــــــهـــــــا بـإيـديـك

والدي ووالدتي جذورهما تركية تعود إلى عبد الرحمن كتخدة الخربوطلي واسم خربوط نسبة إلى مقاطعة في تركيا نصفها الشرقي مسيحي أرمني والغربي مسلم تركي، وطول عمرنا لم نشعر بأي حساسية في مسألة الدين لدرجة أن الكثيرين يظنون من اسم بديع خيري أنه مسيحي، حتى الجمعيات الخيرية المسيحية مثل جمعية التوفيق كانت ترسل لوالدي تطالبه للتبرع للأيتام فكان يلبي قائلا كلهم أيتام، ومن أيام جدتي ونحن جيران مع عائلة عطية حنا التي تهرع للعزال وراءنا مطرح ما نروح لتظل بقربنا، وللآن أحفاد العائلة يقومون بزيارتي لألبي أي حاجة تشغلهم، وأليس والدي من قال: إن كنت صحيح بدك تخدم مصر أم الدنيا وتتقدم لا تقول لي نصراني ولا مسلم يا شيخ اتعلم اللي أوطانهم تجمعهم عمر الأديان ماتفرقهم، وأليس هو مؤلف مسرحية حسن ومرقص وكوهين. . .

ووالدي كان طوله وسط وشعره غزير كستنائي وعيونه عسلية وقبل هزال السكر كان مليان وأنيق وكان شقي ومن حبيباته المطربة ملك، وفي حياته حب أول ظل طاغيا قال عن صاحبته إنها صنعت منه أديبا وكان يدرس لشقيقها مادتي الإنجليزي والجغرافيا فأهدته ساعة ظلت معه وكانت شاعرة تجيد الفرنسية ويجيد هو الإنجليزية فتبادلا الرسائل بالشعر والزجل وعندما أراد زواجها اعترضت والدته وهو وحيدها وخيَّرته بينهما، ففضل قتل قلبه وطلب نقله للصعيد فذهب إلى طهطا يعمل مدرسا. . ماري منيب كان طبعها متقلبًا تركت مسرح الريحاني لفترة من بعده لمسرح التليفزيون وقدمها بهجت قمر وسمير خفاجي على مسرح الهوسابير في ملكة الإغراء لكنها لم تلق نجاحا كبيرا كانت تظنه فعادت من جديد للريحاني لأن السمكة لا تستطيع العيش إلا في مياهها. . في زمان الريحاني كانت بناوير المسرح

محجوزة كلها طوال السنة للباشوات أمثال فرغلي باشا وعبود باشا يعزموا عليها عملاءهم وأصدقاءهم، حيث لم يكن هناك مكانا للتسلية والمتعة أجمل من حضور مسرحيات الريحاني وجمال بطلاته ميمي وزوزو شكيب التي كانت تتجمل بسلسلة في قدمها وكانت زوجة للواء علي باشا نجيب الذي يركب عربة مزودة ببيرق أي بعلم يرفرف في الهواء وكانت صورته تتصدر الجيوش المصرية الذاهبة إلى فلسطين، وكانت هدى شعراوي من المعجبات بأزجال والدي في مجلة الكشكول وكانت تشجعه ماديا وأدبيا عندما أصدر مجلته ألف صنف واستدعته ليشرف على حفل البنات اليتامى اللاتي يرعاهن الاتحاد النسائي الذي كانت ترأسه، وأذكر أنه عندما كتب والدي لمنيرة المهدية رواية الغندورة وبدأت في البروفات في رمضان أنها لاحظت أن بعض العاملين من المسلمين معها مفطرون يدخنون السجائر بينما بديع لا يشرب ولا يدخن فقالت لمن حولها: مش مكسوفين من روحكم عمالين تشربوا وتدخنوا قدام بديع. يا سلام على أخلاقه هو اللي بيجاملكم ومش راضي لا يدخن ولا يشرب احتراما لرمضان وهو مسيحي.. وبأدب جم قام والدي بتنبيهها إلى أنه مسلم وصائم والحمد لله، وهنا خبطت على صدرها بيديها: يا ندامتي يا سي بديع والله أنا لغاية الساعة دي فاكراك مسيحي».

وألجأ إلى آمال خيري زوجة الابن الراحل مبدع خيري الذي عمل مستشارا في مجلس الدولة فتفنِّد لي نسل بديع خيري موضحة «أن له ثلاثة أبناء كبيرهم مبدع الذي أنجب من الأحفاد عادل بالخارجية وأحمد المحامي، وثاني الأبناء عادل خيري زوج السباحة إيناس حقي -زوج عمتها طلعت حرب- التي أنجبت لعادل ثلاث بنات عطية المهندسة والمخرجة للرسوم المتحركة. وعزة طبيبة الأطفال في هولندا وعبلة خريجة التجارة وعابرة المانش ٤ مرات.. وكانت لبديع ابنة واحدة هي شويكار التي أصيبت في طفولتها بالحمى الشوكية مما أعاق حركتها لتغدو بمثابة الألم المزمن في حياة والدها».

وتأخذني إيناس حقي زوجة الابن عادل خيري لمكتبة الذكريات التي تحتفظ في أدراجها بالكثير من تراث بديع خيري ومنه سيناريو وحوار فيلم العزيمة وإن بدت

آسفة على فقدان خواطر كثيرة كتبها بخط يده واستعارتها الدكتورة ليلى أبو سيف تستعين بها في رسالتها عن نجيب الريحاني ولم تعد الخواطر لأصحابها. وتروي إيناس أنها أحبت بديع خيري قبل التعرف بعادل وذلك من طريقة إلقائه لأبياته في الراديو بلثغته المحببة والتقت به لأول مرة عندما كانت مع عادل يقدمان على المسرح الجامعي ليلة حريق القاهرة ٢٦ يناير مسرحية حسن ومرقص وكوهين.

وقالت لي إيناس: «إذا لم يكن بديع خيري قد رحل فقد مات بالتقسيط في خمس مرات أولها يوم مات نجيب الريحاني فأبكى الناس وهو يذيع زجلا يقول بين فقراته: قوم يا نجيب شوف مطرحك خالي وأنا وحدي يتيم لا خل ولا سمير، وأنهى زجله طالبا من نجيب أن يشفع له كي يلحق به سريعا، ولكن اللقاء تأخر سبعة عشر عاما، وبعدها بثماني سنوات أصيب بالذبحة الصدرية فجلس في الفراش ليكتب رغم تحذيرات الأطباء مسرحية ابن مين بسلامته رافعا إصبع يده مع تعليقه الساخر معلش يموت الزمار وصباعه بيلعب، وفي نفس ليلة الافتتاح الذي لم يحضره كتب زجلا مطلعه: يا عم بلا فيتامين بلا خلين. . . المسرح المسرح يا مؤمنين، ومرة ثالثة كانت عندما قرر الأطباء استئصال أصابع قدميه العشرة فقال لهم: يعني أموت حتة حتة بالتقسيط، حتى الموت بالقطاعي. يعني لازم تسبقني رجلي للقبر تشريفاتي للموت، ومرة رابعة عندما ماتت روحية هانم شريكة عمره وابنة خالته التي فقدت بصرها قبل وفاتها بثلاث سنوات، وفي الخامسة لم يعرف بوفاة عادل ابنه إلا عن طريق التليفزيون في نهاية نشرة الأخبار، وكان قد قام بقطع سلك التليفون تحاشيا من مفاجأة وقع النبأ عليه، وفي المقبرة أطل على فوهة القبر قائلا في هدوء موجها كلامه يحدث زوجته: وسعوا لي مكان بينكم وخدي بالك من عادل ده جاي لك عيان.

كان دائما كلبه معه يصحبه في جولاته ويقبع بجانبه في الترام وفي كواليس المسرح ليقول لنا دائما: صدقوني فيه وفاء أكثر من بعض البني آدمين، وقد تقلب على حياة بديع خيري أكثر من كلب، وحينما ينفق واحد منها كان يحرص على الإشراف على دفنه بنفسه، ويخيم الوجوم والحزن على البيت لأيام قد تطول حتى

يصل وافد جديد يمشي على أربع وهو في ذلك الحب مثل الشيخ المقرئ محمد رفعت وكانا يقضيان معا لحظات روحانية فوق مستوى الناس العادي يتذاكران الله وإعجاز قرآنه الكريم في بيت الشيخ بالبغالة، حيث اكتشف بديع أن الشيخ يحب المسرح حبا عميقا، ومحصوله الذهني في المسرحيات كبير، وكانت عنده كلبة لولو بيضاء لطيفة قلما تغادر حجره، وكان يحنو عليها حنوا يدل على أنه ليس حنبليا.

وأروح لبديع نفسه أتوقف عند مشهد واقعي كان أيام كفاحه مع سيد درويش: أذكر يوما ضاقت بنا فيه سبل الرزق ولم يكن ما معي وما مع الشيخ سيد يتجاوز عشرة قروش، فاقترحت عليه أن أعكف أنا على التأليف وهو على التلحين ثم نذهب إلى ميشيان تاجر الأسطوانات ونبيع له إنتاجنا، وجلسنا ليلة كاملة وضعت فيها ١٢ دورا لحنها الشيخ سيد كلها وذهبنا في الصباح إلى ميشيان يحدونا الأمل، وشعر التاجر الخواجة بأزمتنا فطلب سماع ما عندنا فاخترنا ثمانية أدوار سمعها ثم بدأ المساومة بعرضه عشرة جنيهات، وحاولت معه رفعها إلى ١٥ جنيها دون فائدة فاستبد الغضب بسيد صائحا في وجه الخواجة: إيه ده يا ميشيان ٨ أدوار تأليف بديع وتلحين سيد درويش بعشرة جنيهات هو إحنا بنبيع ترمس، فرفع الخواجة السعر إلى ١٢ جنيها فتنفست الصعداء، لكن الشيخ سيد زادت ثورته فجمع النوت كلها ومزقها وألقى بها أمام الخواجة وسحبني من يدي وخرجنا أشد جوعا، ولم تر هذه الألحان النور لأنها ضاعت في ثورة كرامة، وضاقت الدنيا في عيني فقلت لسيد أعاتبه: عملت كده ليه وناكل منين؟! فإذا به يقول لي: اسمع يا بديع. الجوع مش عيب. لكن خدش الكرامة هو اللي عيب. لازم نحافظ على كرامة الفن. ناكل تراب. نسف رمل. ناكل من صفيحة الزبالة لكن يجب أن تكون لنا كرامة.. الدور بجنيه وربع.. تأليف.. وتلحين.. وغناء.. دي بلد يجوع فيها العباقرة».

ويكتب بديع خيري في مقدمة الغول جريدته الأسبوعية السياسية:

«أنا غول وجيت لك أقلق منامك

يا مصري ياللي وطيت مقامك

صـبـحت عـيـضـة . . بعـد احـتـرامك
وفـاح حـشـيـشك وباخ غـرامك
لـولا سـلامك غـلـب كـلامك
لأكـلت لحـمك قـبل عظامك
فـضـحت روحك فـضـيـحـة وحـشـة
وبعت ناقـتك وجـبت جـحـشـة
ولك حكومـة تـغـوي المجـاحـشـة
الحـمق فـيـهـا جـريمة فـاحـشـة».

فريد الأطرش

بنادي عليك

قال لشقيقه فؤاد روح هات لي ورقة وقلم . . سند الشقيق لفريد ظهره بمسندين في وضع الجلوس ، ولأن تحريكه فيه من الخطورة الكثير وضع له حبّة تحت اللسان لتوسيع الشرايين ، وجاب له القلم والورق ووقف يستطلع الأمر خاصة بعد رفض فريد لجميع الحلول المطروحة بالنسبة لافتتاح الفيلم الجديد ومن ينوب في الحفل عنه ، وكان من عادته الإطلال من مقصورة خاصة في صدر البلكون ليواجه الجماهير أثناء استراحة ما قبل العرض ليرد على تصفيقهم بالتحية ونثر القبلات في الهواء وإمطارهم بصوره الممهورة باسمه . . سند فريد ظهره وكتب سطرين موجهين لمن؟!! . . لجمال عبد الناصر ذات نفسه : «سيدي الرئيس . . من عادتي أن أحضر ليلة العرض الأول لأفلامي لكنني في هذه المرة مريض . . لذا أرجو أن تحضر «عهد الهوى» بدلاً مني وأن تحيي الجماهير نيابة عني» . وكان التوقيع : فريد الأطرش . . وعاش الجميع متخوفًا من رد فعل جرأة فريد على قائد الثورة . . وأتت ليلة العرض الأول في السابع من فبراير ١٩٥٥ واشتد الزحام المعتاد أمام سينما ديانا التي لم يكن فريد يرضى عنها بديلاً لعرض أفلامه ، وحضر جميع نجوم الفيلم وعلى رأسهم يوسف وهبي ومريم فخر الدين وعبد السلام النابلسي وإيمان . . وفجأة حدث الهرج والمرج ودبت الحركة غير العادية في شارع عماد الدين ومن بعده الألفي وبدأت الموتوسيكلات البخارية ترسل أزيزها المستمر ليتبعها رتل من السيارات الرسمية السوداء ، وأمام السينما توقف الموكب ، ومن باب السيارة الأولى هبط . . السيد رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر . . وبرفقته المشير عبد الحكيم عامر . . جاء الاثنان بصفة شخصية بالملابس المدنية - أوائل الثورة - ليصافحا الجميع ويصعدا

للجلوس في مقصورة فريد حتى نهاية العرض. . تمامًا تمامًا كما تمنى فريد. . وتمامًا كما توقع فنان يثق في نفسه وفنه. .

ولأنه ابن أصول. . لا. . ابن أمراء. . أمراء بحق وحقيقي ونشأ في قصر كبير فيه الخدم والحشم ولولا الظروف الطين كان من الممكن أن يظل اسمه يسبقه لقب الأمير. . الأمير راح والأمير جاء والأمير فريد ماكانشي هنا ومشي. . لكن ورغم الضنك وما كابده من شقاء لحد الجنيه للقوت في شهر كامل. . رغم ذلك ظلت دماء الأمراء تجري في عروقه لتجعله دومًا لا يتنازل عن الأفضل والأحسن والأجمل ومنزلة القمة على جميع المستويات حتى في اختياره لنساء قلبه اللاتي إذا لم يكن ملكات وأميرات من قبل فإنه يرفعهن برعايته وعنايته وكرمه وحلو كلامه لمصاف الجالسات فوق العروش ليغني لهن وعليهن: نورا نورا، وما تقولشي لحد، وإنت اللي كنت بادوّر عليك، وإياك من حبي. . وعلى درب اختيار الأحسن فقد اشترى فريد يومًا من عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين روايته «دعاء الكروان» بألف جنيه ليحولها إلى فيلم غنائي يقوم فيه بدور المهندس الزراعي العابث الذي اعتدى على شرف هنادى والذى أحبته آمنة بعد أن دخلت بيته للانتقام. . ولم يقتنع فريد طويلاً برأى المخرج هنرى بركات بأن الدور لن يليق عليه، وأن أحداث الرواية الجادة لا تحتمل الاسكتشات الغنائية، وبأنها بذلك ستحيد عن فكرتها الأصلية مما يجعل طه حسين إزاء التعديلات الدخيلة على المتن الدرامي يأخذ موقفًا من الفيلم ويمنع عرضه مما سيؤثر على وضعه ومكانته كفنان. . اقتنع فريد في النهاية لكنه ظل محتفظًا بالرواية متمسكًا بحيازتها وحقه فيها إلى أن عرض عليه بركات شراءها بالألف جنيه التي دفعها ليشرع على الفور في إنتاجها وإخراجها لتلعب بطولتها فاتن حمامة وأحمد مظهر في عام ١٩٥٩، وحمدًا لله أن لانت رأس فريد وظل الغناء في «دعاء الكروان» في حيز الكروان وحده ليرشح الفيلم لجائزة الأوسكار ويصل من خلال العديد من لجان التصفيات إلى أن يكون بين أربعة أفلام عالمية فقط مرشحة للفوز بالجائزة. . ووقتها أقام الأستاذ أحمد بهاء الدين رئيس اللجنة المصرية التي قامت بترشيح الفيلم للسفر أقام حفلا لتسلم شهادة أكاديمية الفنون والعلوم

العالمية التي تعترف بأن «دعاء الكروان» كان أحسن فيلم ناطق بلغة أجنبية . . وكانت أول برقية تهنئة تصل للحفل من الموسيقار فريد الأطرش .

وألقاه . . فريد . . في مكتب الصحفي الكبير كمال الملاخ بالأهرام . . فريد بعظامه وبدون لحمه عندما قرر العودة مرة أخرى ليجعل القاهرة مقرا لإقامته بعدما أنهى ارتباطه بالملهى الليلي الذي أقامه في بيروت ودعا إليه عبد الحليم حافظ ، وإذ شرع يعزف له على العود قال له حليم : «لا يا فريد مكانك وغناؤك ليسا هنا» . فريد . . لقيته مبتسمًا شاردًا مرحبًا مجاملاً متحملاً لقذائف أسئلة الملاخ السريعة المتلاحقة الهابطة كالمطر . . فريد : سامية ولاّ مها؟ ! فيرد فريد : ما اقدرشي أقول آه وما أقدرشي أقول لأ على أي منهما ، وعموما أفضل خفيفة الروح والظل . . المرأة الأنثى . . الشخصية الآسرة . . وأهم من هذا وذاك أن تكون وفية ، والحمد لله وعادة وكثيرًا ما وجدت كل هذه الصفات في واحدة ، ولكن عندما يفتر المزاج يفتر كل شيء ، وإذا ما زهد الرجل في امرأة أو زهدت فيه هي انتهت العلاقة بالطبع . . ويلقي الملاخ بقذيفة أخرى : فريد لو صنفت المطربات لفواكه؟ ! أقول إن أم كلثوم جنينة فاكهة ، وصباح حموي يا مشمش ، وفايزة جوافة ، ونجاة كريز ، وشادية رمان لذيذ ، وشهرزاد عنب ، وليلى مراد مانجة ، وهدى سلطان شمامة اسماع لاوي ، ونازك تين شوكي ، ونجاح سلام بطيخة طلعت حمراء ، ونورالهدى فاكهة نادرة الوجود ، ومها صبري مذاق من نوع جديد . . وتأتي القذيفة الثالثة على صاحب القلب المجروح : فريد «أنا وانت لوحدنا» كانت خصيصا لناريمان؟ وهنا لا يصبح وحيد مبتسمًا ولا مرحبًا ولا متحملاً وإنما منفعلاً غاضبًا : هذا كذب فلم يحدث أن التقيت بالسيدة ناريمان في مقابلات خاصة بعد الشائعات التي أثيرت حولنا ولا صحة لما رددته هذه الشائعات . . وتعود ملامح الطيبة والاحتمال لمواقعها على وجه فريد الأطرش عندما يسأله كمال الملاخ : «قالوا إنك طلعت في إعلان معجون أسنان؟ !» فيبتسم فريد بشق شفتيه التي لا ترى من خلالهما له أسنان : «أيوه ودعكت أسناني قدام الكاميرا وقلت استعملوا هذا المعجون على الدوام ، لأنه عذب وممتاز وسريع التنظيف ويدوم طويلاً عن غيره ، ولم أكن وحدي الذي وافق على الظهور في الإعلانات فقد جاءت من بعدي أم كلثوم وعبد الوهاب وماجدة

وفاتن حمامة وعمالقة الفن الغنائي والسينمائي وقتها بعد انتهاء الحرب العالمية والركود الاقتصادي الذي امتد لصناعة السينما . . وافق هؤلاء على الظهور في الإعلانات الملكية أي المرتبطة بالبضاعة التي تحمل اسم الملك فاروق . . ولتخفيف وطأة قذائف أسئلة الملاخ تسللت بسؤالي الطيب للفنان الأمير الطيب عن السر وراء اسم الأطرش فأجابني من يزهو بلقب أمراء عدم السماع : إنها قصة لها تاريخ طويل فأنا أنحدر من قبيلة «المعنيين» من اليمن التي دخلت في حرب مع قبيلة التونوخيين» وانهزم المعنيون وفر ثلاثة من جدودي وهم : إسماعيل، ونجم، وحمودة، لقرية بقاع سما بجبل لبنان واشتروا القرية وسمع الحاكم فحقد عليهم واستدعى جدى إسماعيل فذهب إليه خائفًا متوجسًا فما أن رآه صاح في وجهه : اسمك إيه؟ ومن شدة خوف جدي تظاهر أنه لم يسمع فأصدر الحاكم أمره : خذوا الأطرش ده من هنا . . ومن هنا حملنا اللقب . . الأطرش . . وشعرت بعدها بأن فريد أمير التحمل أمام سؤال الملاخ التالي : وإيه حكايتك مع المخدات؟ وذلك عندما أتى رده طبيعيا وكأنه يدلي برأيه في حوار سياسي . . من عادتى ألا يغمض لي جفن إلا والمخدة فوق رأسي، ولا تزورني الألحان إلا وأنا مستند بظهري إلى مخدة، وأحسن ألحاني سمعتها ودني في نومي وعلشان كده أنام وعودى جنبى فوق المخدّة فإذا حلمت بلحن أصحو بسرعة وأعيده على أوتار العود ولا أعود للنوم إلا إذا سجلت اللحن الطارئ، أما إذا كنت صاحي وداعبني لحن هيأه لي المناخ والجو أجري أتمدد على السرير لأنتقل مع اللحن والكلمات إلى جو تانيًا . . وهوايتك المفضلة يا فريد؟! . . صيد العصافير والنظر من بعيد للبحر» .

وصدق فريد الأطرش عندما ركز على لفظة «بعيد» في النظر للبحر لأنه والبحر كانا على عداء وكان يرى في البعد عنه غنيمة بعدما رأى من هوله في طفولته ما سجلته مخيلته لآخر العمر، ذلك لأن الحرب عندما اندلعت بين تركيا واليونان وعرف والده فهد الأطرش أن اليونانيين قد يرحمون التركي إذا وقع في الأسر ولكنهم لا يرحمون الغريب لأنهم يتصورونه انكشاريًا مأجورًا لقتلهم، وكان الحكم العثماني وقتها جاثمًا على صدر الشام، ومن هنا فر فهد مع أسرته في مركب ضلّت طريقها وسط عاصفة عاتية وتأرجحت كريشة في ريح صرصر، وبكى كل من عليها

وهم لا يرون براً ولا طيراً، وفي هذا المناخ المخيف كانت الأم علياء المنذر تعاني من آلام المخاض فتصرخ في دفقات يحملها رذاذ الموج العاتي والإعصار لآذان فريد كأنها تأوهات الكون من حول الصغير. . وأنجبت علياء بنتًا كفلقة القمر. . فسكن الموج وهدأ البحر وماتت الريح وكركرت المولودة بثغاء كأنه البشارة لعليك صلاة الله وسلامه. . واتفق كل من على ظهر السفينة على تسميتها آمال. . لأنها ولدت والآمال في النجاة معها. . . . ويظل البحر الهائج والمركب الشارد يعيشان في مخيلة فريد الأطرش ليظل يكره البحر ويراقبه من بعيد كأنه يقيِّم مسافة البعد عن العدوان وفاصل الأمان خاصة بعد أن كاد يهلك في صباه عندما رأى صديقًا له من أولاد الحي في بيروت يصيد السمك ليرتزق، فقرر فريد صاحب الشهامة المبكرة أن يساعده، وعندما توغل الصديق مع شبكته بحكم خبرته في الماء لاحقه فريد بغير خبرة مسبقة، وفجأة ضاعت الأرض من تحت أقدامه وأصبح الماء سقفًا بعيدًا من فوقه. . وأنقذه أولاد الحلال بعدما أفرغوه مقلوبًا من الماء وحملوه إلى أسرته مقطوع الأنفاس.

فريد فهد فرحان سلطان الأطرش (١٩١٠ـ١٩٧٤) فارس اللحن والنغم الذي قررت والدته وسط أجواء الخراب والحروب الفرار بأولادها إلى أرض الأمان. . إلى مصر. . إلى الثقافة والأدب والطرب. . إلى سعد زغلول الذي تقرأ عنه في الصحف أنه شديد التعاطف مع ثورة سلطان باشا الأطرش الشبيهة بالثورة المصرية. . فرت علياء من بيروت قبل ساعات من تحرك الفرنسيين للقبض عليها واستقلت من يافا قطاراً إلى مصر، فلما سألها رجال الجوازات عن تأشيرة الدخول أجابت: سعد باشا يعرفنا قولوا له. . وأتى الإذن من سعد لتسكن مع أولادها في شقة متواضعة في باب البحر عام ١٩٢٣، وتبدأ قصة الكفاح بعد ما نفد ما في الجيب واختفى ما في الأذن والصدر وأثاث البيت، وأخذت بنصيحة الجيران بشغل مناديل بأوية للرأس، ودار فريد يوزع المناديل، ونما إلى علم حبيب جاماتي الصحفي بدار الهلال حكايتها وهو الذي عاش أسابيع مع ثوار جبل الدروز فعرض عليها الغناء في مناسبات بيوت العائلات السورية فقبلت حتى سنحت لها الفرصة في ملاهي روض الفرج لتذهب في حراسة فؤاد وفريد، ووجدت الأم عنتًا في

إلحاق أولادها مجانيًا للتعليم بالمدارس الفرنسية تخوفًا من لقبهم الأطرش فدخلوا المدارس تحت اسم «كوسة». . فريد كوسة وآمال كوسة. . واصطحب حبيب جاماتي فريد ابن الرابعة عشرة بالبنطلون القصير ليعزف على العود ويغني في حفل جمع التبرعات للأبطال الدروز الذين حاربوا الفرنسيين فأبدع الصغير ليرتجل أحد الشعراء العرب قصيدة من فرط إعجابه به يقول فيها:

غنى الفريد فأحكم الأوزانا والعود فاض عواطفًا وحنانًا
فكأننا في أرض مكة سُجَّدا وكأنه وحي الإله أتانا

وأمام رقة الحال وعدم السؤال ذهب فؤاد ليعمل في مصنع للأسنان في شارع حبيب شلبي بالفجالة، ودار فريد على الباسكلتة صبي إعلانات في محلات اليهودي «بلانش» في قلب القاهرة. . دار يوزع الإعلانات في الأحياء القريبة والمتطرفة يضعها في صناديق البريد وتحت عقب الباب ليتعرض لا محالة لمطاردة البواب، ووقتها كانت محطات الإذاعات الأهلية تملؤ القاهرة مثل محطة إلياس شقال فغنى أغنياته الأولى في مقابل جنيه مصري واحد وهي الأغنيات التي جلبت له الشهرة فيما بعد. . وبدأ الفتى العربي القادم من جبل الدروز أولى خطوات طريق المجد، عندما غنى في مساء الأربعاء من إذاعة القاهرة أغنيته الخالدة «ياريتني طير لأطير حواليك» التي نظمها ولحنها الفنان الفلسطيني يحيى اللبابيدي. وفي عام ١٩٤٠، كان أول فيلم سينمائي لفريد وأسمهان هو فيلم «انتصار الشباب» بعدها أصبح عدد أفلامه ١٣ فيلما آخرها فيلم «نغم في حياتى» مع ميرفت أمين عام ١٩٧٣ . . وإذا ما أدخلنا الفنان صاحب الأحلام والهيام والانسجام في قالب الأرقام سنجد فريد قد قدم ٤٨٠ أغنية وأوبريت ودويتو وقصيدة وأنشودة، ولحن لشقيقته أسمهان ٢٠ لحنًا أولها «ياللى هواك شاغل بالي» وآخرها «الشمس غابت» وأن ٥٢ مطربا ومطربة غنوا من ألحانه على رأسهم صباح وشادية وطروب وأسمهان ونورالهدى ونازك وفايزة أحمد «يا حلاوتك يا جمالك» وشهرزاد، ومها صبري، وليلى مراد، وشريفة فاضل، وفدوى عبيد، ونجاة علي، وفتحية أحمد، ووردة، والفنانان فهد بلان الذي غنى له من شعر صلاح جاهين «ماقدرشي على كده ومقام

السيدة يا بنات بلدى يا نوارة يا كايدين العدا»، ولمحرم فؤاد عدة أغان منها «يا واحشني رد عليّ»، ولعادل مأمون» «إنت واحشني»، ومحمد رشدي «عشرية»، ولإسماعيل ياسين مونولوج الكذب، ولحسن فايق إحنا التلامذة وجلا جلا ولعبد اللطيف التلباني وكمال حسني ووديع الصافي وعصام رجي أغنيته التي شهرته» «هزي يا نواعم»، وكانت هناك ست قصائد غناها فريد بالفصحى: «لست وحدك»، و«أضنيتني بالهجر» و«عش أنت» و«وردة من دمنا» و«لا وعينيك» و«عدت يا يوم مولدى» «هذا إلى جانبَ ثمانية أوبريتات أشهرها الربيع»، و« بساط الريح»، و«يا عم يا سهار» و«سندريللا والملاح». . وقد حدث يومًا اللقاء المستحيل على أرض مدينة «برن» بألمانيا وذلك في عام ١٩٨٨، في حفل أقيم بشقة أنيقة في ضاحية هادئة صاحبها الدبلوماسي وفاء حجازي الذي كان وقتها قنصل مصر في برن ليشغل بعدها منصب مساعد وزير الخارجية. . جلس محمد عبد الوهاب يغني أغنية فريد الذائعة الصيت «حكاية غرامي» فرد فريد الأطرش التحية بأحسن منها عندما أمسك العود وراحت أنامله الذهبية تجري على الأوتار بمقدمة لحن عبد الوهاب لينطلق صوته: «قالولي هان الود عليه».

ثلاثة على قمة الطرب قام فريدنا بتلحين أغنية لكل منهم لكن ثلاثتها لم تخرج إلى النور لتغدو من روائع الفن الخالد. . أولها كان للمطربة نجاة قيثارة الغناء من كلمات مرسي جميل عزيز ويقول فيها: «تعالى قبل ما يخلص نور الشمعة تعالى قبل الحب ما يصبح دمعة»، وثانيها لعبد الحليم حافظ من كلمات محمد حمزة تقول: «مفيش في عمري زمان من قبلك إنت. . ومافيش في قلبي مكان لغيرك إنت يا هدية الزمان والعمر إنت». . وكان السبب في عدم اكتمال الخلق الفني رغم قيام فريد بتلحين الكلمات تدخلَ أولاد الحلال أو أولاد. . . . الذين لم يكن يسعدهم مثل هذا اللقاء الفذ، وكانوا قد تدخلوا بين فريد وحليم من قبل ليعتذر عبد الحليم عن أداء أغنية «أنا هنا وقلبي هناك» من ألحان الأطرش بحجة أنها تصلح لمطربة وليس لمطرب فأعطاها فريد للمطرب كمال حسنى فصنعت شهرته، وتم فض الاشتباك بين المطربين الكبيرين في حفل الربيع عام ١٩٧٠، الذي كان مقصوراً على فريد فزاحمه فيه عبد الحليم. . تم احتواء الأزمة بإذاعة حفل فريد الأطرش

تليفزيونيًا على الهواء بينما حفل عبد الحليم على الهواء إذاعيًا بشرط تسجيله لإذاعته في اليوم التالي تليفزيونيا . . وذهب عبد الحليم بعد الحفلتين وعتاب التليفون لبيت فريد: أنا جي أتغدى معاك يا فيري . . ويأتي الإحباط الفني الثالث عندما لا يُكتب للحن الخلود ألا يولد بينما كان خلوده في عقد قران موسيقى فريد بحنجرة أم كلثوم، حيث ظل العقد أمنية حياته حتى النهاية لتقديره البالغ لها هو وشقيقته أسمهان الشغوفة العاشقة لصوتها والتي ما كان يجمعها بها مكان إلا وتختار أسمهان الجلوس عند قدميها كي ينساب صوت «الست» أول ما ينساب إلى أذنيها . . ويروي فريد بنفسه: «ذهبت بخطاب شقيقتي أسمهان التي كانت قد مكثت إلى جوار زوجها الأمير حسين الأطرش ثلاثة أعوام وأرسلت تقول لي إنها تريد زيارة القاهرة بشرط أن ترى أم كلثوم... وجاءت الشقيقة وأمضينا معا أم كلثوم وأسمهان وزوجها وأنا والقصبجي والدكتور عمر شوقي وعبده صالح سهرتنا وغنت أم كلثوم (سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها) فزحفت أسمهان إلى موضعها عند قدميها، تردد آهات الإعجاب وتقول معها كأنها الكورس، فما إن وصلت إلى البيت الذي تغني فيه الست (حمامة الأيك من بالشجو طارحها ومن وراء الدجى بالشوق ناداها) حتى استبد بها وبنا الطرب فاستعدناها حوالي خمسين مرة حتى صاح القصبجي «حرام عليك يا ست الكل إنت ذبحت تحت قدميك كل الحمام في الحجرة . . وكان يقصد شقيقتي أسمهان لأنها استسلمت للبكاء من فرط التأثر» . . ويسافر الشاعر أحمد شفيق كامل الذي نظم أول أغنية قدمتها ثومة من ألحان عبد الوهاب، حيث كان قد التقى بها في السعودية وهما يؤديان معًا فريضة العمرة، وفي إحدى المناسبات بعدها راحت تستمع لبعض من نظمه فاختارت أغنية بعنوان «كلمة عتاب» وسألته عن الفنان الذي يرتأيه لتلحينها فتم الاتفاق بينهما على أنه فريد، وعندما عادا للقاهرة اتصل شفيق بفريد وأبلغه الخبر وسلمه كلمات الأغنية فانكبّ على تلحينها، وبعد فترة اجتمع بأم كلثوم ليسمعها اللحن فأعجبت به للغاية وقالت له على بركة الله . . لكنها في اليوم التالي اتصلت بفريد لتقول: «في الحقيقة لحنك رائع لكن إيه رأيك لو غيرته من مقام النهاوند لمقام الراست

علشان أتسلطن فيه أكثر وأكثر». وهنا شعر فريد ببوادر الانسحاب بدبلوماسية، كما شعر بأنْ أولاد الـ. . . . قد دخلوا على الخط بينه وبينها مما جعلها تعتذر عن لحن أعجبت به، ومن يومها أدرك فريد أنه لا ارتباط بينه وبين سيدة الغناء. فريد الذي رحل دون الحصول على التقديرية المصرية رغم ترشيح اللجنة الموسيقية العليا المصرية له نال وسام الخلود من فرنسا في مطلع ١٩٧٦، باعتباره موسيقيًا رائعًا وصوتًا عبقريًا ليغدو في مصاف بيتهوفن. . واختار له الموسيقار العالمى فرانك بورسيل مقطوعات زمردة و«حبيب العمر» و«نجوم الليل» و«ليلى» ليعيد توزيعها وتسجيلها على أسطوانات، لتقوم بعزفها أشهر الأوركسترات العالمية ووضعَ اسمه في سجل الفنانين الخالدين في الموسوعة الفرنسية، وطبعت له في الاتحاد السوفيتي أغنية «يا زهرة في خيالى» لتباع منها اسطوانات بمئات الألوف، وفي تركيا فاز بلقب أحسن عازف عالمي على الآلات الشرقية في عام ١٩٦٢، وترجمت غالبية أغنيات فريد لتغنى باللغات السبع الحية وهي الفرنسية والإنجليزية والألمانية والتركية والفارسية واليابانية والعبرية، وفازت أغنية «نورا نورا اسمك على رسمك صورة يا قمراية يا أمورة» بالجائزة الأولى في مهرجان القدس الغنائي، وغنى كل من كبار المطربين العالميين مقاطع من العديد من أغانيه المعروفة مثل «وياك» و«مش كفاية» ليجملوا بها غناءهم بعبق الشرق وسحره. . ويحق لفريد الأطرش أن يحمل لقب «مطرب العروبة» فهو الذي يحمل الجنسية السورية بحكم ميلاده بقرية القُريَّة في جبل العرب بسوريا، واللبنانية بمواطنة والدته، والمصرية التي منحت له وكان دائم القول «لحم كتافي من مصر»، بالإضافة إلى الجنسية السودانية التي منحها له الرئيس جعفر النميري عام ١٩٧٤، وظلت الوحدة العربية عقيدته وأمنيته أطلقها غناء في أوبريت «غناء العرب» ثم في بساط الريح عندما حلَّق به عبر أجواء العالم العربي من مشرقه إلى مغربه وتنقَّل بالنغم والإيقاع وكلمات بيرم التونسي ليغنى لتونس «غزلانك البيضاء، وفي المرسى وحلق الواد» وهي أماكن تونسية لا يعرفها إلا التونسيون، ومن سوريا ولبنان بألحانهما الشعبية الشجية إلى بغداد حيث الموال «يا دجلة أنا عطشان» ومن بغداد لمراكش «بلاد الحور والغلّة والزيتون» إلى تونس الخضراء ليؤدي لهجتهما الغنائيتين ومن قبل ومن بعد مصر، حيث يعاوده الحنين إلى وادي النيل.

ويزورني وأزوره. . فيصل فؤاد الأطرش من فوجئت به حريصًا متواريًا يسكن فيللا نائية بضاحية المعادي يرفع أسوارها كالمتاريس ويعلق سيوف الدروز المرصعة على حوائطه ويجلس إلى بيانو عمه فريد الأطرش فكأنك عشت من جديد مع الصوت والصورة والنغم. . مع فريد. . تنصت للحن الخلود وتستعيد وتقول لفيصل الله يا فريد. . حارس الكنز الذي يخاف عليه من الضياع فيخفيه دهراً لحين التوقيت المثالي للكشف عنه، وفي ظني بعد اطلاعي على مكان مخبئه أن طول انتظار فيصل قد أضاع الكثير من التوقيت والمثالية. . عشرات. . مئات. . آلاف الصور من قلب تاريخ لبنان وفلسطين وجبل الدروز والاستعمار الفرنسي وجد فريد وأبو فريد وأم فريد وأسمهان «الأميرة آمال» «لقطات لها بالذات تملؤ حقائب مترعة للسفر تشاهد لقطات منها لترى أسمهان أخرى غير التي نعرفها توزع صينية القهوة في «غرام وانتقام» ويكتب عنها التابعي مذكراته في «آخر ساعة»، ويلحن لها شقيقها فريد عليك صلاة الله وسلامه. . أسمهان بين قادة ورتب عسكرية عالية المنزلة. . أسمهان مع ديجول في لقاءات حميمة. . ديجول ينحني ليُقبل يد هيفاء ليالي الأنس. . وأحاول عبثًا مع فيصل كتابة تاريخ جديد نستخدم فيه الوثائق النادرة واللقطات الفريدة فيدخلني في متاهات ذكريات تشفق عليّ فيها زوجته جميلة الجميلات سليلة سلاطين الأتراك.

ويزور الكاتب الصحفي سامي كمال الدين مقبرة فريد الأطرش في البساتين ليلتقي بأم حسين حارسة القبر الذي ناله حريق مريب. . سألها عن زوار المكان الموحش فقالت إن شقيقه فؤاد لم يأت منذ وفاة فريد إلا مرة واحدة، وكانت قبل وفاته بستة أشهر. . أما من تزوره على فترات متقاربة فهي سلوي القدسي السيدة الحسناء التي خطبها فريد ولم يمهله القدر لإتمام الزواج منها وكان وجهها آخر وجه رآه قبل وفاته.

فريد

عـــودك المشتـــاق لعـــبـــقـــرية لمســـاتك ينادي عليك:
لاكتب عاوراق الشجر. . أضنيتني بالهجر. . وغدا يومي بلا غد.

جمهورية فيروز

فيروز وقفت يومًا ما على المسرح في حضرة أكثر من خمسة آلاف مشاهد تصرخ في وجه الوالي بجامعة عمان قبل إسدال الستار صح النوم . . وياريته صحي . وياريته سمع كلامها وقام يفز ينهض يغسل وشه وينضو عنه ثوب الخمول والكسل وكآبة الإدمان والاتكال والشجب والتربسة والخصخصة وفتاوى من قبل ما يعرف الإنسان إيده اليمين من الشمال حول الحلال والحرام، وإيداع كل ما عنده وديعة تفرخ فلوسها وحدها بلا جهد ليلتفت باحثا له عن دور في الخناقة التحتاوي على من شاف قبل التاني طلعة الهلال . . صح النوم .

المسرحية القديمة الجديدة الساخرة التي يصحو فيها الحاكم من النوم ليلة واحدة في الشهر ليلبي ثلاثة مطالب فقط لشعبه ثم يعود للنوم في العسل . . المسرحية التي حركت بصرختها من جديد دعوة فيروز لكي تصبح رئيسة لبنان بعدما لم يعد هناك على الساحة غيرها . . من تتفق حولها جميع الطوائف والاتجاهات، وتنتهي مع شدو صوتها جميع الصراعات . . ولم لا؟ . . ففيروز من كانت القضية اللبنانية صاحبة النصيب الأكبر في فنها، وهي التي حملت منذ البداية لبنان في قلبها وأبت أن تبارح أرضها إلا لتزرع في قلوب المغتربين حب الوطن الأم وتذكرهم بلبنان : «بحبك يا وطني بحبك بشمالك بجنوبك بسهلك بحبك . . ولم لا؟» .

ففيروز من وحّد صوتها ما عجزت حناجر السياسيين كافة عن تحقيقه . . ولم لا؟ . . ففيروز التي لو شاءت الإقامة في قصور هونولولو أو جنات جزر البهاما لأقامت وعاشت بالطول والعرض والشهرة والصيت والمجد، لكنها المصرة على البقاء بين الروشة والرابية رمزا لوحدة بيروت وصمود لبنان، وحولها يتصارع أكثر

من ١٨ ميليشيا لا تتآلف قلوب رجالها إلا على عشق إبداع فيروز . . ولم لا؟ . . ففيروز المرأة الشجاعة الصلدة التي حين ماتت ابنتها الشابة ليال لم تملأ الدنيا مواء ولم تشق ثوبها بل ذهبت تبدع حزنها ترتيلا وتشارك به آلاف النساء المكسورات في وطننا الحزين .

ولم لا؟ وهي التي أعلنت موقفها الأبى أنها لن تغني لأى حاكم عربي ولن تشارك في أي زفة فنية لأي نظام، حتى عندما طلب منها الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة شخصيا الغناء له فرفضت مما أغضبه لينتقم بمنع بث أغانيها من الإذاعة التونسية . ولم لا؟ وقد اعتبرها الإسرائيليون خطرا على أمنهم حتى إن صحيفة يديعوت أحرونوت كتبت في تقرير لها «أن فيروز تمثل خطورة بالغة على الاستقرار داخل إسرائيل لعدة أسباب أهمها : تأثر العديد من الشباب العربي بها وبثورية أغانيها ، وذهبت الصحيفة تتهمها بأنها الجاني الأول وراء مقتل العديد من الإسرائيليين في المواجهات العسكرية سواء مع الفلسطينيين أو اللبنانيين» .

ولم لا؟ وقد أسس لها الصحفي الكبير الراحل سعيد فريحة حزبا غنائيا اسمه «حزب الفيروزيين» . ولم لا؟ وفيروز التي شدت بالعربية والسريانية واللاتينية والإنجليزية قد غنت لميلاد المسيح والسيرة المحمدية من ألحان توفيق باشا . . السيرة التي لم يسمع بها غالبيتنا بعدما طواها الإهمال والتجاهل في غمرة النسيان الإعلامي في أرشيفات إذاعتنا . . ولم لا؟ وهي سفيرة لبنان على مدى خمسين عاما في عواصم العالم العربي تغني لمصر : عادت شمسك الذهب ، ولفلسطين سنرجع مهما يمر الزمان وتنأى المسافات ما بيننا ، وغنت بشوارع القدس العتيقة ، وغنت لبعلبك : أنا شمعة على دراجك . ووردة على سياجك . أنا نقطة زيت بسراجك ، بعلبك يا قصة عز عليانة وبالليالي حليانة . . وكانت في وعدها هادرة : سنرجع خبرني العندليب . . وهتفت للحبيب : حبيتك بالصيف حبيتك بالشتا . . وغنت للقمر الساطع في سماوات العرب يا قمر أنا وياك . . نحنا والقمر جيران .

ولم لا؟ . . لا تكون فيروز رئيسة لجمهورية لبنان في مسيرة الزحف النسائي الرئاسي العالمي بعدما أصبح عددهن في مقاعد الحكم ١١ امرأة بفوز كريستينا

فرنانديس أخيرا برئاسة الأرجنتين . . في القارة الأوروبية وحدها والصلاة ع النبي خمس نساء في عين العدو : أنجيلا ميركل التي انتخبت في عام ٢٠٠٦ ، مستشارة لألمانيا لأول مرة في تاريخ الألمان، وميشيلين كالمي راي من انتخبها البرلمان الفيدرالي عام ٢٠٠٦ ، رئيسة للاتحاد السويسري، وهيلين كلارك التي تولت حكومة نيوزيلانده منذ عام ١٩٩٩ ، كذلك ماري مالكيز في أيرلندا، وهاتاريا هالونيس في فنلندا . . وفي إفريقيا السوداء لويزا ديوجو رئيسة الوزراء في موزمبيق عام ٢٠٠٤ ، وإيلين جونسون سيرليف التي فازت فوزا مدويا في الانتخابات الرئاسية في ليبيريا عام، ٢٠٠٥ . . وفي أمريكا اللاتينية انتخبت ميشال باشليه عام ٢٠٠٦ ، رئيسة لجمهورية شيلي أما في جارتنا القارة الآسيوية فقد انتخبت براتيبها باتيل رئيسة للهند وهو منصب شرفي حازت عليه لتصبح أول امرأة تشغل هذا المنصب في تاريخ الهند، وفي الفلبين هناك الرئيسة المنتخبة جلوريا أرويو التي تزاول مهام منصبها الرئاسي من بعد ثلاث سنوات من تعيينها نائبة للرئيس . وفي آسيا منذ عام ١٩٩٦ ، وصلت ثلاث نساء إلى منصب رئاسة الوزارة في ثلاث دول إسلامية هن : بنظير بوتو رئيسة وزراء باكستان، والبيجوم خالدة رئيسة وزراء بنجلاديش، وتانسو تشيلار رئيسة وزراء تركيا لتلحق بهن ميجاواتي سوكارنو رئيسة لأكبر دولة إسلامية في إندونيسيا حيث مكثت على مقعد الرئاسة منذ عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠٠٤ .

ويسألون فيروز إذا ما كنت صانعة القرار السياسي في لبنان فماذا سيكون قرارك الأول؟ فترد فيروز : «يي ما بيصير وما بدي، ما تعودت أنو أحكي هادي الحكي» . ويعاودون الإلحاح بإطلاعها على نتائج الاستفتاء الافتراضي حول اختيار رئيس جمهورية لبنان حيث كانت النتيجة إجماعا عليها فترد فيروز : «دوري في الغناء كافيني ومطرح ما أنا منيح . . مش ممكن أبدا إني كون لحزب مش ممكن كون زلمة جدا . أنا مع كل مظلوم مش مع كل ظالم، أنا مع كل لبنان من موقعي هادا . مش لبنان خاص لشخص واحد . هما بدن يقسموني يصنفوني ليش ومنشان شو . إنت مش راح رد عليك» .

وتظل فيروز تغني لبلادنا التي لا تعطي مجدها إلا للموتى، ولا تعلق الأوسمة إلا على التوابيت . . لبلادنا التي تميت أحياءها وتحيي أمواتها . . لبلادنا التي تطعن في الظهر وتطعن في القلب . . فقدر فيروز أن تتابع الطريق، وقالوا لها إلى أين تتجه قالت: «ما بعرف هلق مافي قول . . ضاق خلقي ياخي من ها الجو العصبي، شو مابتفهم عربي . . يسألونني كيف لم ترحلي عن لبنانى مع الذين رحلوا فهل يرحل التراب وإلى وين أرحل ويجب أن يبقى حدا ليبقى وطن، قد نخسر كل شيء ونبقى وليس فني بأعظم من وطني إذا حدث ووقع فني ووقع وطني أترك فني».
وكانت فيروز قد غنت لابنتها ريما وهي لم تزل طفلة في المهد غنيوة قبل النوم: «ياللا تنام ريما/ ياللا يجيها النوم/ ياللا يجيها العوافي كل يوم بيوم/ ياللا تنام لدبحلها طير الحمام، وروح يا حمام لا تصدق بضحك ع ريما تنام، ياللا تحب الصلاة ياللا تحب الصوم/ ياللا تنام ريما ياللا يجيها النوم».

والآن تكتب ريما حسناء العشرينيات لأمها فيروز أشعارا تقول فيها: «صوتك للناس كلها عم بيغني/ صوتك عم ينده للعيد/ صوتك عم بيشتي ثلج وفرح ع الكل بس أنا بيزعلني بيذكرني بحزنك العميق/ وحدي أنا من بين الناس بعرف أنك حزينة / وحدي بعرف أنو الغنية غنية ومش حقيقة/ تضيع السنين اللي راحت ويمكن تضيع السنين اللي جاي/ ويمكن تضيعي إنت بين السنين اللي راحت وبين السنين اللي جاي».

فيروز ابنة عام ١٩٣٥، التي غنت في بداية الرحلة لمكتشفها حليم الرومي: من أحبك مهما أشوف منك ومهما الناس قالوا عنك ومن بعده الرحلة الطويلة مع الأخوين رحباني التي بدأتها بألحان راقصة من تأليف عبد الله الخوري نجل الأخطل الصغير، وغنت لمدحت عاصم وسيد درويش ومحمد عبد الوهاب الذي وضع لها عدة ألحان منها لحن أسهار: أسهار بعد أسهار تا يحرز المشوار/ كتار هو زوار شوي وبيفلوا وعنا الحكا كلو.

وكثير من عشاق فيروز يستعصي عليهم إدراك معنى الكلمات فأسهار بمعنى أسهر، ويحرز بمعنى يستحق، وكتار أي كثيرون، ويفلوا أي يذهبون، ومن بعد

أسهار وضع لها عبد الوهاب سكن الليل التي حضر غناءها في غابة الأرز وتبعها إلى دمشق حيث أنشدتها في مهرجانات المعرض الدولي، وانتهى المشوار القصير الذي بدأ مع جارة الوادي من أشعار أحمد شوقي، المشوار الذي استعد معه المستمعون لسفر طويل فتوقف القطار في أول الطريق. . . وقيل إن فيروز لا تتقن فن الحديث وعذرها أنها ليست ثرثارة ولا تتقن حمل لافتات الإعلان عن شخصها في سهرات المجتمع اللبناني الصاخبة. . إنها كالمبدعين الحقيقيين جميعا، ليس لديها ما تقوله غير إبداعها. . نتابع أقوال فيروز على مر عشرات السنين لنجده كلاما كالشعر بعضه محاط بسياج اللغة اللبنانية الحميمة مثل: بصير الفنان مثل الشخص. وكله بيصير خاطره قزاز. الحكي اللي في لوين بيروح! بيقعد بينطر. . . بتمر الريح وهوه ناطر، وبيخاف يخدشها بكلمة. . . وبعضه كلمات نجمعها كما تجمع الرياحين من حقول الصدق ومن فوران العاطفة:

«حياتى قطار يركض ما بين الأحباب والأعداء. ناس غيروا قطارات. ناس نزلوا من قطاري بنص الطريق. ناس لغموا السكة من بعد ما كنا صحاب. ناس حاولوا خطف القطار. ناس اتعربشوا وطلعوا مش محبة بالقطار ولا بالسفر، بس تا يوصلوا. وناس ظلوا صحاب قراب، ململمين حوالي مثل الوطن. القطار وطنه أحبابه لا محطاته وسككه. . . ما عندي حكي. اللي بدو يفهم علي مابخلليكى تحكي. نفسي انبرت مثل القلم داخل البراية. مثل حبة بن بشي مطحنة جبلية. . . . مين أنا وليش جيت وليش صرت هيك؟! . . . . . ما يحزنني هو أنهم جميعا يحبونني ويكرهون بعضهم بعضا. . . إيماني بأن بلدي مكتوب عليه ألا يموت. . . بيتنا بزقاق البلاط، كان في خزاين، بالخزاين كان في مراي، بالمراي كان في غراضي، بين الغراض كان إلى تنورة وصورة مليانة ضحك وسعادة. . . . يوم اختاروا الحرب على اخترت أنا الصمت. أخرجت من بيتي ولم أخرج منه. أبعدوني عن العمل ولم أرفض التعاون. قد يأتي اليوم الذي أحكي فيه، لكني إلى اليوم ما زلت أفضل الصمت. هناك بشر للحكي وآخرون للإصغاء، وأنا من فئة المصغين. أنا من أهل الصمت. . . . في مسرحية صح النوم

غنيت في فقرة حوار روح ياللي ما مربي واحتج الكثيرون ففيروز ما بيلبق لها ها الحكي. غنيت كيفك أنت وفي نفسي رغبة داخلية بكسر الوقار البطريركي الذي يلبسني. يخيفني هذا القالب الذي أجد نفسي مصبوبة فيه. يرعبني هذا الرمز الذي صرته. في مسرحية «جبال الصوان» رفض الكثيرون فكرة موتي على البوابة في آخر المسرحية، كان على البطل المتسلط فاتك أن يقتلني في المشهد الأخير، وكنت أسمع أصوات الجمهور تصرخ تنكسر إيدك فيروز ما بتموت. في الفن كما في حياتي العادية أشعر بأنني سجينة القالب. صارت حياتي مثل لاعب السيرك الذي يمشي على الحبل، مطلوب منه أن يمشي بلا وقوع. عندما صار اللي صار وانفصلت عن عاصي قال لي البطريرك طلاق ما في.. أنت لست امرأة.. أنت نموذج للمرأة ورمز لها.... عاصي كان طفلا يمتلك نفسية مفتوحة كالكف. أعطاني كل الأشياء التي كنت أحبها. مرة كنا جالسين مع ليال ابنتنا في الشرفة المطلة على البحر سألها فكانت إجابتها مثل ما أردت أنا أرد عليه. سألها: بتحبينى قد إيه؟ قالت له: شايف البحر شو كبير قد البحر بحبك، فتحولت في اليوم التالي إلى أغنية.... أنا لست عنيدة أنا أفكر كثيرا وثقتي قليلة بالغير كما أنني أنفذ قناعاتي، وأحبذ المرأة العنيدة بحق ومش عالفاضي.... سوف أغني وأغني وأغني واعطني الناي وتعال غني معي حين يستعيد لبنان عافيته، حين يسترد لونه المخطوف، وأرزه المحترق، وتفاحه المقطوف وأزهاره الذابلة.... السعادة والحزن ممتلكات شخصية لا يجوز لأحد الاطلاع عليها. لا توجد حياة بدون حب حتى لو اختبأ تحت الجلد. أعيش حياتي كما عشتها منذ ولدت بين الموسيقى والتأمل والسهر والنوم، لا شيء يتغير عندي لأنه لم يوجد المبرر الذي يغيرني.

في انشغالي أجدني أغني كيفك أنت، وهو صحيح صحيح الهوى غلاب معرفشي أنا، ودخلك يا طير الوروار، وياما أرق النسيم، وزوروني كل سنة مرة، وشط إسكندرية، ومرسال المراسيل، وكيفك أنت، وهيك مشق الزعرورة، ويا شادي الألحان، ويا عاقد الحاجبين، وبتريدي تحاكينا أم لا.. لا.. لا.. وتكتك يا أم سليمان.... على الإنسان أن يملأ عينيه بالذين يحبهم قبل أن يملأها

التراب. قبل الفراق يظن الإنسان أنه شاهد الذين يحبهم بما يكفي، ويأتي الفراق ويعرف أنه ما شافهم كفاية . . . . . . المحبة أحيانا قيد، وباسم المحبة تجد نفسك أحيانا ممنوع من المشي خطوة خارج صورتك المكرسة، لقد أحسست بذلك دائما ولكن بصورة غامضة، ثم اتضحت الصورة حين قمت مع ابني زياد بخطوات جديدة في الحقل الفني. المحبة ليست ترفا. المحبة بحاجة دوما إلى جهد لتنمو وتتطور.

أنا لم أغن في أي يوم نوعا واحدا، قدمت ألوانا كثيرة وكان الناس يتجاوبون بصورة مختلفة، أغان أحبوها من الصرخة الأولى وأخرى أحبوها بعد اكتشافها مرات. أريد أن أنمو وأنّ ينمو جمهوري معي. لا أريد أن أقدم له رشوة من تكرار ما ألفه. أتمنى أن نمضي معا صوب الجديد الذي ينبثق باستمرار عن تراثي كتطوير حي له . . . . ما بافهم في السياسة أنا ضد الحرب أيا كانت وضد الظلم، وحياة الإنسان قصيدة على الأرض، قصيدة حب أو قصيدة قهر، وها الإنسان مجروح ومقهور وين ما كان. اللي بقى واللي سافر. بس المجروح مطرحه مش مثل اللي بينقلوه لبعيد. في رحلتي لأمريكا غنيت لأهل المهجر: شو ما صار، بس ما تنسوا وطنكم. . وراح أغني كتير كتير لحد العصفورة ما ترجع تعشش بالقرميد. . . . أنا ما بسوق عندي شوفير . . . . أنا لست مرهما مخدرا للأحزان. . . . أنا جاهزة دائما للمسرح الغنائي شرط أن يكون هو أيضا جاهزا لي.

في الغربة يفرحون بحضور الوطن في ذاتي، وأشعر بالأمان في وجود أي عربي في قاعتي. لا أريد دور حفار قبور الذكريات في حياتهم أريد أن نستمر في الحياة، والحياة هي الماضي والمستقبل معا. . . . . الحسد مثل الجمرة الحارة بتمر على وجهي. هيك بشعر بها. الحسد عشته وقاسيت منه وبصلي كتير الله يحميني منه. . . . . الإنسان مخير ومسير بنفس الحين، قدامه أشياء بيختارها وقدامه أشياء ما بيقدر يغيرها كالمرض والموت. ما بعرف إذا ما كان الزواج قدر أم اختيار؟. هو مثل الحياة قدر واختيار: بحياتنا أشياء بتروح وأشياء بتيجي وغياب ها الأشياء عني بيؤلمني. دائما أسأل نفسي: ليه فيه ظلم كثير بالدنيا ما لاقية جواب ليه بقت الدني

غـيـر الدنى . . . . . الخـجل جـزء مني بقـدر الهـروب منه، لكـن شيـئًـا من الخـجل ضروري مثل نتفة بهار . . . . . بخاف من الارتفاع وأخاف من البلكونة ما أحب أقف فيها خاصة قريبة من السور ولما كنت أحمل أولادي صغار كنت فزعانة حتى أقرب من البلكونة . . . . لما راح نصر شمس الدين في شيء بفني نقص لأنه رحل، وهناك شيء مني مع عـاصي، وهناك شيء من عـاصي بـاق مـعي . . . . . أنا أكـبـر إخوتي جوزيف من بعدي لكني أشجع منه وعندي ثلاث شقيقات. في المدرسة كنت شيطانة أذكر أني كسرت ذراع تلميذة ولم أقصد هدا لكني كسرته. كنت عاقلة بالصف وشيطانة بالملعب، لكني اليوم عقلت وكترت العقلنة. والدي وديع حداد، زلمة درويش كـان عـامـلا في مطابع لـوجـور، أمي ليـزا بسـتـاني من بلدة الـديبـة في الشـوف، وجدتي كـانت طيـبة تأتي بـالأعـيـاد محـملة بأكـياس اللوز ترتدي تنورة بجيوب واسعة وفي نهاية الزيارة أروح معها لبلدتها في البوستة أنط جنبها وأنا لا أعـرف لوين رايحين. في سنة ١٩٥٥، جـاء عـاصي لبـيـتنا وتم أمـر الـزواج أشـبـه باسكتش عالمسرح وفضلت طول عمري أسأل ليش عمبيصير هيك؟

دعـوناه للغداء وطبخت له بطاطا وكفتة مع السلاطة وبعد الغداء قال لي اتركينا شوي يا نـهاد أنا وأبوكي بدنا نـحكي كلمتين. غـادرت وسـمعـته بيقـول له: أكـون ممنونلك لو جوزتني بنتك، فرد والدي: على بركـة الله . . . . بيتنـا بيت معـاناة وفي رحلتي العـائلية زلزل كـياني أربـع مـرات وبتضل الزلزلة لـلآن. . الأولى لما أصيب هلي ابني وصار مقعدا يتحرك على كرسي أطعمه بيدي، والثانية لما ماتت أمي وهي في الثانية والأربعين، والثالثة لما رحل عاصي، والرابعة لما ماتت ليال ابنتي. في كل المصائب والصدمات ظل إيماني بالله قويا . . . . . طفولتي كـانت معثرة ما عـرفـت فيها لعب ولا حضنت لعبة ولا تذوقت حلوى.

عشت غـريبة عن أحلام الصبايا أمنيـاتي تجمدت عند عتبة الدار. دخلت كـورس الإذاعة وعندي خـمسـتـاشر سنة، اختـارني مدرس الموسـيقى سليم فليـفل من بين الطالبات ونصح أبي بإلحاقي بمعهد الموسيقى وفي يوم استدعاني مدير الإذاعة أسعد الأسعد وطلب مني أغني في حضور حليم الرومي وغنيت لفريد الأطرش «يا زهرة

في خيالي» ولأسمهان «يا ديرتي مالك علينا لوم» وحين اقترح حليم الرومي اسما لي غير نهاد حداد خيرني ما بين فيروز وشهرزاد فأصبحت فيروز. ويوم ورا يوم اشتريت جهاز راديو مستعمل وانتقيت من السوق لفستاني قماشًا أبيض مطبوعًا عليه السلم الموسيقي بالأحمر.

كان بيتنا حجرة ببساط فوق الحجر وحمامنا مشتركًا مع الجيران، بعد الزواج كنت أسد الثغرات المفتوحة بما يتيسر. يريحني جو البيت الحي غير المحنط الذي يشبه أجواء المتاحف، وأخذت عن أمي ميلها للحلي والخواتم لكن عملية الشراء لم تزل عندي تتم من خلال موازنة دقيقة، فليس من السهل نسيان العوز الذي عشته في طفولتي. . . . . بالقاهرة جاءني مولودي الأول زياد وضلوا يقترحوا يسمونه ياقوت أو زمرد مادمت أنا فيروز قلت لهم شو الأسامي تبع المجوهرات. . . . أنا أقف في الحياة كتلميذة لأتعلم من سائر الأشياء، من الطبيعة والناس، ومن عيون الأطفال وشهقات الأمهات، ومن الكتب والقصائد، ومن الآخرين ولا أتمنى أن أهاجر من تلمذتي ومن ضفائري ومريلتي، ولو فعلت ذلك لصرت عجوزا شمطاء. . . . . لا أعتبر نفسي أمثل بالمعنى الكامل للكلمة بل أقوم بأدوار قريبة من نفسي، وكثيرا ما أعود إلى أدواري في الاسكتشات القديمة لأتذكر مدى خجلي وخشيتي من الحركة، فيتأكد لي أن حب الناس هو الذي يفجر في الفنان طاقات لم يكن هو ذاته يتوقعها، وليت الجمهور يدرك مدى المجهود الذي بذلته حتى استطعت بخجلي يوما أن أضرب على الدربكة في مسرحية هالة والملك. المسرح سيف ذو حدين ومجهر يكبر السيئات والحسنات في وقت واحد، إنه المجازفة الكبرى بالإضافة لكونه لا يخلق الحضور عند الفنان بل العكس فحضور الفنان هو الذي يملؤ المسرح حياة وحرارة.

أحمل اعتزازا خاصا بشهادة الزعيم جمال عبد الناصر الذي كتب عنه الأستاذ محمد حسنين هيكل يقول: إنه كان يحب سماع صوتي ويعتبر من أخطاء المصادفات أنني ولدت خارج مصر. . . . يسعدني أن ينجح الفن حيث تفشل السياسة كما يسعدني أن صوتي أو صوت فنان غيري يغدو جامعة دول عربية تجمع

ولا تفرق. . . ليش عمبيصير هيك القمر بيضوي عالناس والناس بيتقاتلوا. . في القصف أثناء الغارة أختار أصغر مكان في البيت، مكان يشبه الرحم أو الصدفة وأركن فيه وأبقى بلا حول ولا قوة. . . . أنا لست مطربة أرستقراطية والناس تعلم ذلك فأنا لا أغني لطبقة بل أغني للإنسان في لبنان وكل العالم العربي وأغني للعالم. أغني للبنان الموحد. أغني للمغتربين في بقاع العالم.

أغنى لمكة وللقاهرة ولعمان ولبغداد وأغني لدمشق وبيروت وبعلبك. لحظة عاجزة أنا عن وصفها لا يعيشها سوى الفنان حين يعتلي المسرح ويرى الموسيقيين يعزفون والعيون كلها شاخصة إليه. لحظة ينتقل فيها إلى عالم النشوة ولا يدانيه سموا عالم دنيوي آخر. غنيّت على أعلى جبال لبنان في الأرز فلفني الضباب وغطى الجمهور فتحول الليل إلى زمن من أزمنة الجنة . . . . أم كلثوم لن يجود الدهر بمثلها، عندما أستمع إليها أحس بأستاذيتها وأشعر بأنني أمام صوت جبار وعقل وذكاء نادرين، والفن الأصيل لا يموت وأم كلثوم صاحبة فن لا ينسحب من المناطق المحتلة به. . . . أشعر بالحزن في ليلة ختام المسرحية مهما تكن ناجحة. أشعر أن حياة كاملة تطوي زمنا يرحل.

أحببت دائما الذين يعملون معي. قد لا أعرف الأسماء، وقد لا نتحدث إلا على خشبة المسرح ولكن صلة إنسانية خاصة ووشائج لا يعرفها إلا أهل المسرح تنشأ بيننا. صلة تشبه التواطؤ على الإبداع وبعدين بيفلو وتطوى الديكورات، وتختفي أسرة أخرى من أسر حياتي بل حيواتي المتعددة. . . . عندما أغني من ألحان زياد فأنا أغني لفنان كبير ليس لأنه ولدي وصحيح أنه نشأ في بيت الرحبانية وأن ذلك رعاه فنيا لكن من يستطيع أن يهب عبقرية لأحد؟ زياد الزمن الطالع من الزمن الرحباني والسائر في اتجاه فريد. زياد لم يأت من الحائط فأبوه عاصي. طالع كعشبة برية في حقول الرحبانية. . عاصر المسيرة كلها. . الوارث الذي لا يكمل الجملة بل يكمل الطريق ليس بالاتجاه الذي رسمه الأب بل بالاتجاه الذي ترسمه الحياة لمستقبل القادمين».

ولأنها فيروز . . من تغني في منطقة يتحول فيها الأعداء إلى جوقة إنشاد واحدة فلهذا ارتفع السؤال يومًا ما في لبنان ولم لا؟! . . لم لا تكون فيروز هي رئيسة لبنان القادمة؟ ! . . بينما فيروز وحدها تغني :

أنا صـــار لازم ودعكـن . . وخـــبـــركن عـني

غنينا أغــاني عــاوراق . . غنيــة لواحــد مــشــتــاق

ودايما بالآخــر فــيــه آخــر . . فــيــه وقت فــراق .

فاطمة رشدي... شلال الأنوثة

عمرك شفت عيِّنة بيِّنة على الأنوثة الطاغية عندما تتفجر طوفانا من كيان امرأة، مثلما رأيناها في ذلك المشهد التاريخي الذي قامت بأدائه إمبراطورة الأنوثة على درجات سلم بيتها الشعبي في الفيلم المصري الخالد العزيمة، عندما ارتقت فاطمة رشدي درجة واتنين وتلاتة بسرعة تهربا من مطاردة الحبيب مندفعة بالتفاف جسد اعتاد تثني الالتفاف في لفات الملاءة اللف، بعقصة المنديل أبو أوية فوق جبين مرمر تلهو به تصرفات الحواجب الرعناء، فوق عيون تجذب رجلها مسيًّرا لا مخيرا أمام نظرات تقبل وتدبر وتضم وتلفظ وتجذب وتبعد وتؤانس وتسامر وتجرجر وتنحر وتجرح وتهدهد وتهدد وتشرق وتغرب وتخاصم وتصالح. . وخلخال خطر في القدم كل المفاتن فيه، وطرقعة كعب عال تذيب دقاته فوق الحجر صخر القلوب، ثم عودة للهبوط بتلك الزفة الأنثوية الصاخبة درجة واثنتين وثلاثة تلبية لدعوة محال الرد عليها بالرفض، مانحة ذراعا غضا بضا مشخللا بالأساور الموسيقية، لتتساند على كتف الجدع تخوفا من الوقوع، جالسة في النهاية إلى جواره على أول درجة تاركة للانزلاق المدروس خطته ليأخذ مجراه فتنزاح الأطراف المشاغبة ليتبدى نور الأكتاف وكشافات الصدر وثريات الثنايا وكنوز الخبايا. . وأخذ ورد وعتاب ومناجاة وأنا خايفة موت يا سي محمد.

وعمرك شفت حروفًا تنفرط كحبات اللؤلؤ المنثور لتتجمع على طبق بنور بين تلاقي وردتي شفاه الفم اللعوب لتنطق كالقبلة، كالضمة، كالحضن، كدعوة جماعية لجواري هارون الرشيد، كمظاهرة كمنجات: وبعدها لك يا سي محمد. . له الله محمد أو حسين صدقي وإن كان المشهد تمثيلا!

فاطمة رشدي سارة برنارد الشرق النجمة العظيمة الرائدة التي صالت وجالت ونالت وأفلست قبل رحيلها، وتمنيت لها من قبل الرحيل رحيلا حتى لا أرى القمر في أفوله والأوج في السفح والمرايا شروخ، والجمال غضون، والعجوز تطلي وجهها بالألوان تشبثا بالزمن الذي كان. . فاطمة رشدي - فاطمة خليل قدري - كانت لها منزلة خاصة عندي فهي إلى جانب انبهاري بأدائها التمثيلي الفذ الفريد والدة للرسامة الشاعرية الرومانسية التي كانت توقع رسومها في مجلتي المصور والهلال في الخمسينيات والستينيات باسم «عزيزة» وكنت أدور حول رسوماتها بالمقص للاحتفاظ بها في ألبوم خاص أعيش فيه مع شخصيات التاريخ كما رسمتها ريشة عزيزة الفنانة الناعمة مثل أرمانوسة المصرية الرواية التي قام بتأليفها كدراما تاريخية جورجي زيدان لروايات الهلال.

فاطمة رشدي النجمة التي كتب اسمها في الأفيشات أكبر من اسم المخرج وكل النجوم، والتي اختير فيلمها العزيمة من بين أهم عشرة أفلام في تاريخ السينما العالمية، والتي قام الطلبة بفك أحصنة عربتها في شارع عماد الدين ليجروها بأنفسهم حتى باب المسرح، والتي كتبت فيها قصائد الشعر في عواصم العرب فقال فيها شاعر العراق جميل الزهاوي:

ما شاهدت عيني ممثلة كفاطمة الشهيرة
جمعت إلى الفن الجميل جمال طلعتها المنيرة
لله أنت وللبراعة من ممثلة خطيرة

فاطمة. . مكثت عشرات السنين أخبئ في درج أسراري أسرارها وهي لا تعلم ولا أحد يعلم ولا أنا أريد أن أنبش ماضيا ظل مغلقا. . فاطمة رشدي في حوزتي مشاعرها الخاصة جدا جدا. . عندي مذكراتها يوما بيوم. . لم تكتبها بعد الاعتزال أو في الحكي لأحدهم ليدونها في شيخوختها، أو هي مجرد تفريغ لشريط مسجل لحديث صحفي معها. . أبدا. . إنها يوميات بخط يدها كتبتها بالقلم الرصاص ما بين الأعوام ٤٣ و ٤٤ و ١٩٤٥ . . دونت فيها كل شيء. . من حسابات المكوجي والخياطة ويوسف وهبي وأحمد شوقي وأرض فيللا الهرم والملك أحمد

فؤاد ودستورها في الحياة والحب وذكرياتها عن السينما . . والكثير . . جزء من تاريخ الفن في بلدي لم أتدخل بحرف في صياغته الصادقة .

كتبت فاطمة في فبراير ١٩٤٥ ، دستورا لمستقبلها لم تنفذ منه الكثير جاء فيه : «الشباب رأس مال الممثلة وثروتها وإذا قدر لي أن أعيش حتى سن الخامسة والأربعين فأول ما أتمناه أن أهجر المسرح والسينما قبل أن تدركني هذه المرحلة من العمر وينصرف عني المعجبون الذين لا تظفر منهم الفنانة بالتقدير إلا لشبابها وجمالها وأخيرا فنها ، ولست أطيق أن أرى مكانتي تتضاءل وتنكمش حتى يضطرني جمهوري إلى اعتزال المسرح لأعيش في فني الماضي وذكريات مجدي الغابر . . والجمهور قاس لا يرحم ولا يترفق وهيهات أن يشفع عنده ماض للممثلة إزاء حاضرها وأبسط ما يمكن أن يرميها به : مسكينة راحت عليها . ولست أؤمل إذا بلغت الأربعين أن أكون ذات زوج وأطفال بل أقصى ما أتمناه ثروة صغيرة تمكنني من أن أحيا حياة هادئة بسيطة متواضعة بعيدة عن الوسط الفني الذي تلألأ فيه الشباب» .

في ٣ أبريل ١٩٤٤ ، كتبت : «كوني متفائلة يا فاطمة وواثقة بالله فهو الذي سينصرك إنشاء ، وفعلا نصرني ، فبعد أربعة أشهر وقعت عقداً بـ ٢٥٠٠ جنيه مع جميعي واشتريت أرضا في شارع الهرم وابتدأت البناء عليها واتفقت مع يوسف بك ـ يوسف وهبي ـ على فيلم بـ ٢٧٥ جنيهًا» . ومن قبل تلك الفيلا قامت فاطمة رشدي ـ من خلال مذكراتها ـ بشراء مقبرة لها ، والغريب أنها عندما توفيت في ١٠ يناير ١٩٩٦ ، لم يجد جثمانها مستقرا إلا في مقابر الصدقة وهي التي كتبت بتاريخ ٥ يونيه ١٩٤٣ : رخصة التربة الجديدة والتسليم والرخصة القديمة استخرجتها من شارع الشيخ بركات بمعرفة الباشمهندس زكي عثمان بوزارة الأشغال قسم الجبانات .

في ١٨ أغسطس ١٩٤٤ ، كتبت النجمة التي تقمصت على المسرح أدوار الرجال مثل قيس وهاملت وأنطونيو وأرمان ولويس الحادي عشر : «قال لي قارئ كف إنه سوف يتغير حظي من الآن علوا وصعودا ، وإنني سأسافر وسأنجح إن شاء الله في هذا السفر وإنني سأصادق شخصا عظيما» .

ـ وبين صفحات يومياتها كتبت عدة أرقام تليفونات منها الرقم ٦٢٧٢٧ لفردوس إبراهيم الدكتورة، و ٤٩٦٦٦ فاطمة سري، و ٤٣٨٨٥ لفتحية أحمد، و٩٦٥١٨ لمحمد عبد الجواد، و ٢٦٠٠٠ سعيد الحلواني الملوكي ميدان سعد زغلول رقم ٣.

في ٢٦ فبراير ١٩٤٥ احتلت عبارة واحدة يوما كاملا: «رفت عيني اليمنى كثيرا ولم يحدث شيء وأنا في الانتظار».

ـ في أول يناير ١٩٤٥، كتبت تحت عنوان عجيب هذا: «مضت عشرة أعوام ولم يتقدم لي من بعد إيلي الدرعي ـ مليونير معجب أنفق على مطالبها نصف مليون جنيه ـ أي أحد يقدر ينفق عليّ كما يجب من حيث المسكن والملبس والمأكل ولست أقول مثل إيلي من حيث الغنى فقد كان لا ينافسه أحد في الثراء، ولكن لم يتقدم لي أحد أستطيع أن أقدمه للناس كشخصية تليق بي وهذا ما يدهشني ويضايقني، ولست أفهم السر في هذا ولعل في هذا حكمة لا تدركينها يا بت يا فاطمة».

وكانت فاطمة رشدي تدون أحلامها كل صباح فتكتب مثلا تحت عنوان خير إنشاء الله: «حلمت في ١٨ يناير بأن لون شعري يتغير من اللون الأسود إلى اللون الذهبي وأصبح شعرى طويلاً وغزيرًا». وفي ١٥ أبريل ١٩٤٥ كان حلمها: «حلمت بوجه جميل مهيب من الوجوه المكرمة المحبوبة عند الله سبحانه وتعالى وكان جليلاً عظيم الهيئة جميل السمرة ثم بدأت أذاكر قطعة غنائية سأغنيها ثم ضحكت من مطربة مشهورة وإن شاء الله خير». ومن الأحلام التي تذكرتها فاطمة بالتفصيل حلم سجلته يوم الجمعة ٢ مارس ١٩٤٥، جاء فيه على لسانها: «حلمت يوم الجمعة وهي مباركة عند الله إن شقتي الصغيرة في الداخل ذات الغرفتين الصغيرتين بدلت إلى شقة كبيرة ذات أربع غرف وثلاث ردهات كبيرة وبها خدم ينظفون الشبابيك وكذلك خلق كثير. وهذه الرؤيا كانت واضحة تماما». وفي ١٨ فبراير ١٩٤٥ كتبت: «حلمت بأني وجدت تاجا أبيض كان ضائعًا مني ثم وجدته ولبست ثوبا مطرزا»، وفي ٢٧ فبراير كان الحلم: «حلمت بأني أخذت جوز أساور وحلقًا مرصعًا» وتتسلل الأرقام بين فقرات المذكرات مثلما دونت: «بعت صالوني

والسرير الأبيض بمبلغ ١٢ جنيهًا في ٢٤ يناير ١٩٤٥ ، وطلبت من شركة نحاس مبلغ ٥٠٠ جنيه من أصل نقودي لأدفع قسط الفيللا فرفض طلبي رفضا باتا في ١٣ يناير ١٩٤٥ ، ووعدني يوسف بك أن يكلم نحاس ليعطيني ٥٠٠ جنيه، وأكد لي أنه لا بد أن يعطيني ، وذهبت لمقابلة نحاس ويوسف معا فجاء يوسف بك يعتذر لرفض نحاس ثاني مرة و ٢ جنيه ليد محمد مبروك المحامي الشرعي لاستخراج الشهادات إن شاء الله على خير ، و ٦٧ جنيها لتسجيل فيلا الحدائق في أواخر أبريل ١٩٤٤ ، بعد أن حكمت المحكمة العسكرية بأن يسلمني الفيلا محمد أبوالنجا في أواخر أبريل ١٩٤٥ ، وها هي تسعة أعوام وأنا في قضايا هذه الفيلا المتعبة والحمد لله الذي استجاب دعائي. يوسف بك وهبي يأخذ ٣٠٪ من عموم الدخل وليس لي دخل في عمولة السينما ولا التوزيع ولا أي شيء من هذا».

وتعود فاطمة لكتابة دستور جديد لمستقبلها تحت عنوان: ضروري بإذن الله وإرادته وإن شاء الله هذا يجب أن أسترد مكانتي الفنية في الوسط الفني ، وهذه المدة بالضبط شهر كفاية وأن أكون نحيفة القوام، وهذه المدة شهر كفاية ، وأن أسترد صحتي وهذه المدة شهر يارب وأن تكون عندي فرقة تمثيلية ، وأن أستريح لمدة شهرين في المصايف ضروري.

وكتبت في خلوتها عن ذكرياتها مع السينما من عام ١٩٤٠ ، حتى نصف أبريل ١٩٤٥ : «منذ أن اشتغلت في السينما وبالأجرة وتحت رحمة من يسمون أنفسهم مخرجين ، وأنا لم أستطع أن أتمالك أعصابي وفي حالة قلق وقرف دائم وهذا لعلمي بأنهم لا يعرفون ما هو التمثيل ويحبون أن يظهروا أنفسهم كأنهم يفهمون أحسن من الممثلة العالمة بفنها وأصوله ابتداء بكمال زفت إلى عبد الجواد وجهله وقلة أدبه ويوسف وهبي ومنعه أن أمثل أو أن أندمج في دوري ، يحاولون أن يقللوا من احترام شخصيتي مثل عبد الجواد زفت. والمرض والعصبية التي عندي ناشئة من أني أشعر بالفهم وهم يحاولون أن يحتقروا شخصيتي ، وأحسن شيء أعمله هو أن أنتج فيلما لحسابي الخاص - أنتجت فاطمة رشدي فيلم تحت ضوء الشمس إلا أن النتيجة كانت كارثة دفعتها إلى أن تقدم على إحراق النيجاتيف حتى لا يراه أحد -

وهذا هو الشيء الصواب أو أن أشتغل مع أناس طيبين وأستطيع أن ألقنهم ما أريد مثل إبراهيم عمارة ومن على شاكلته».

ـ ويخط قلم غيرة الأنثى في يد فاطمة مشاعرها تجاه حسناوات عصرها وعلى رأسهن الراقصة أمينة محمد فتكتب: «الله لطيف بعباده ومثال ذلك أمينة محمد تلك المخلوقة التافهة التي كانت من الفقر على أبشع صورة، وهي من حيث التكوين أقرب إلى القبح منها إلى الجمال، وذات صوت ينفر السمع منه، ولكن معجزات الله كثيرة فقد أرسل لها شاب أمريكي غني مثقف ثقافة عالية فأحب هذه المخلوقة الضئيلة، وبنى لها فيلا وأوقف لها مبلغًا جسيمًا في حالة وفاته وأعطى لها طوال حياتها مبلغًا معين لتعيش به. وتدله في حبها فتزوجها شرعيا وأسلم لأجلها فأي معجزة هذه التي تجعل من هذا الشاب أعمى لا يرى الفتيات الجميلات في أمريكا وفي مختلف العالم ولا يتسع نظره إلا لصاحبة الصوت المنفر».

ـ وتظل أبدا فاطمة متأججة ثائرة.. في ١٦ أبريل ١٩٤٥ تكتب: «أكتب هذا وأنا أستجير وأطلب من ربي أن ينتقم من (........) يوسف وهبي، فربي قدير على كل شيء وإنشاء هو أن يريني في أقرب وقت العقاب الذي يحل على يوسف (.........) فقد أراني في هذا اليوم منتهى قلة الأدب من الشخت ـ الشخط ـ والإمارة وكان يعيد المنظر ويسخر مني ويريني كيف ألقى الجمل وهو أجهل من الجهل بحيث كان كأنه ينتقم مني. ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إن مع العسر يسرا لدرجة أن عمال الاستوديو كانوا يشفقون عليّ من هذا التحدي، وهذا آخر مهزلة من مهازل المخرجين الجهلة وإن شاء الله سوف لا أعمل تحت إمرة أحد مطلقا مهما لقيت من الجوع والفقر وكفى ما لقيت أخيرا من سفالة وقلة أدب عبد الجواد ويوسف وهبي». ويصل قرار فاطمة إلى اتباع سياسة الغموض فتقول في ٣١ يناير ١٩٤٥: «يجب على الممثلة العظيمة أن تكون مغلوقة ـ منغلقة ـ وعميقة كالبئر وألاّ تكون بسيطة بل متكبرة داهية، أما إذا كانت بسيطة، عبيطة، طيبة القلب، فسوف تكون سخرية للجميع»، وتخرج من تجربتها الفنية بنصائح لزميلات المهنة في ٣ فبراير ١٩٤٥ تحت عنوان الراحة والطمأنينة: «يجب على الممثلة التي تريد أن

تغتني وتتمتع بالراحة والطمأنينة في أواخر حياتها أن تهتم بالمال وأن تبتعد عن الشخصيات الصغيرة وأن لا تشفق عليهم. وعليها أن تخالط كبراء القوم مع الاحتفاظ على كرامتها وشخصتها - شخصيتها - من أن تمس بسوء وأن تكون سليطة اللسان لكي يخاف الناس منها، فلا يجسر أحد أن يهين كرامتها بسوء وأن تحيط نفسها بالخدم والشخصيات المفيدة لها وأن لا تصادق أحدًا من وسطها».

- وجاء رأيها المكتوب في التقليد: «الشخصية التافهة هي التي تقلد بعض المشاهير في إشاراتهم وحركاتهم، فالتقليد يقتل الابتكار في الشخص المقلد ويعلي من قدر الذي يقلده والناس دائما يريدون الجديد من الشخصيات وليس صورا منقولة بعضها من بعض».

وتهتم نجمة مصر الأولى بدراسة طبائع الملوك فتكتب عن شخصية الملك سعود في ١١ فبراير ١٩٤٥، تقول: «إنه قليل النوم. قليل الأكل. دائم العمل. أساس مأكله الأرز واللحم الضاني ويحب لبن الماعز والتمر، وهو لا يأكل الخضار إلا قليلا. وكذلك الشاي يشربه قليلا جدا ولكنه يكثر من شرب القهوة ويشرب عشرة فناجين قهوة في اليوم الواحد وأكثر. وهو لا يميل للحلوى وهو قوي الذاكرة». وتكتب فاطمة عن الملك فؤاد: «عصره ذهبي مشهور بالصبر، وكتب كلمة الصبر كبيرة على مكتبه، وكان يعرف قيمة المال فلا يبعثره كما بعثره إسماعيل - رحمه الله - وكان يمتاز بذاكرة قوية وقوة ذاكرته من الأسباب الرئيسية في نجاح حكمه. وكان يعرف الوزراء واحدا واحدا ويذكر جيدا جدا ما فعلوه وما قالوه وما وعدوا به، وأنه كثيرا ماشعر بالضيق المالي في بعض ظروف حياته وكان يقول إن هذه الظروف الحرجة هي التي جعلت مني آدميا كبقية الآدميين، والواقع أن هذه الظروف الحرجة هي التي جعلته خبيرا بنفسية العالم ونفسية الأشخاص».

وعن الممنوعات في مذكرات فاطمة كانت: «اللوز والجوز والبندق والفسدق والفول السوداني والفلفل والمستردة والكاري والصلصة والجبن المش». وضربت بالريجيم عرض الحائط بقرار في ١٢ أبريل ١٩٤٥: «نصحني الدكتور أن أنقطع عن العشاء لأنني أصبحت في نظره سمينة، وهذه السمنة جاءتني من الحمل وليس من

العشاء، فسمعت نصيحته وانقطعت عن العشاء فجاءني الأرق الفظيع وبعد أن كنت أنام لغاية الثامنة أو التاسعة أصبحت أنهض بالليل وأصحو في الفجر فساءت صحتي ولازمني الإمساك والنرفزة والعصبية فالأحسن للإنسان ألاّ يستمع إلى نصائح الدكاترة أبدا وأن يكون طبيعيا في تناول وجبات الأكل والأهم العشا، والأمراض تأتي من عدم تنظيم مواعيد الأكل فنظمي أكلك وراحتك تستردي صحتك وتستريحي وتنشطي للعمل، وللاحتفاظ بالصحة كوب ماء ساخن على الريق يوم نعم ويوم لا، وأن ترقدي أطول مدة ممكنة ورأسك وقلبك في مستوى واحد بدون مخدة. وإذا نمت على مخدة فالأحسن أن تكون واطية. وامضغي الأكل جيدا وعلى مهلك لتضمني المعدة الجيدة». ولو مضغت الفكرة جيدا ضمنت التنفيذ جيدا وويل للذين لا يمضغون اللقمة جيدا ولا الفكرة جيدا وبين يوم وآخر لا تترك الفنانة مساحة فارغة في دفتر مذكراتها دون أن تسجل حكمة أو رأيا مستنيرا. . منها: «لا يسقط من لا يخشى السقوط. . لا تصدق كل ما تسمع. كلما زاد الحب قل الحذر. مقياس الحب نكران النفس. خصلتان في الأحمق كثرة الالتفات وسرعة الجواب. لا تكوني كالشجرة التي تدنو ثمارها فالرجال مغرمون بتسلق الأشجار لجمع الثمار. شيئان لا يجب أن تجري وراءهما الفتاة الأوتوبيس والرجل، فالأوتوبيس سيلحق به غيره، والرجل سيأتي رجل آخر من بعده». وتشرح صاحبة الـ ٢٠٠ مسرحية والـ ١٦ فيلما حكاية ضربها أحد الصحفيين بالحذاء في شارع عماد الدين بقولها: «كان لا بد من عقابه. كنا نقدم إحدى المسرحيات على مسرح رمسيس وتطلب المشهد أن يقبل البطل يوسف وهبي البطلة التي هي أنا قبلة طويلة، فرأى يوسف وهبي أن يصورها سينمائيا كي يعرضها بين الفصول كنوع من الدعاية، وعندما فوجئت بعدها بالصحفي ينتظرني خارج المسرح ليطلب مني بمنتهى الوقاحة أن أمنحه قبلة مماثلة فشتمته، فما كان منه إلا أن صاغ مقالا مطولا يهاجمني فيه، وفي اليوم التالي شاهدته يدخل المسرح فهجمت عليه وفين يوجعك لأخلص حقي منه».

وفي مذكراتها عن شدة حب زوجها الأول عزيز عيد لها: «أكره ريحة البسطرمة موت وإذا شممتها أصاب بحالة هيستيرية تجعلني أتصرف تصرفات شاذة. . عزيز

لأنه يحبني حب جنون، ويغار عليّ غيرة شديدة علق أكثر من يافطة بين الكواليس وفي ممرات حجرات الممثلين مكتوب عليها ممنوع أكل البسطرمة قطعيا»، كتب لها أمير الشعراء أحمد شوقي خصيصا مسرحية مصرع كيلو باترا وجاء في يومياتها: «دعانا شوقي إلى حفل عشاء في كرمة ابن هانئ وكان معنا أحمد رامي الذي يترجم مسرحيات لفرقتي، وكانت المائدة عامرة بالطعام التركي والفرنساوي، ولم تكن الخادمة أمامنا فناداني باسم تدليلي عنده يا بامظ، فقلت له مدللة نعم يا كامظ فقال: هاتي الطبق اللي عندك، وكانت فيه أكلة (الضلمة الكدابة) لخلو المحشي فيها من اللحم المفروم فأخذ الطبق وصار يفتش فيه بالملعقة عن اللحم وسط أرز الحشو فقلت ضاحكة: هذا الطبق يا كاظم الغيظ ليس فيه لحم لأن اسمه الضلمة الكدابة، فرد مقهقها: يا ستي أنا شايفها منورة ثم يا ستي أنا مصدقها».

ولأننا نحتفل هذه الأيام بذكرى ميلاد الموسيقار محمد عبد الوهاب ذهبت أبحث عنه في مذكرات فاطمة رشدي فأجد أمير الشعراء شوقي قد جمعهما في «مصرع كيلوباترا» لتقوم هي بدور البطولة ويضع عبد الوهاب الموسيقى والغناء حيث كان يمثل أمامها دور مطرب الملكة واسمه أياس وتكتب فاطمة: «كنت أناديه يا أياس فينشد «يا طيب وادي العدم» وكان شدوه الرائع يجعلني أشعر بالفعل وكأني الملكة كيلوباترا التي يرحل بها لزمان عظمة الفراعنة».

وحول فيلم العزيمة كتبت عن لقائها بكمال سليم: «قال عندما رآني أنني لا أكاد أصدق عيني هل فاطمة رشدي بصولجانها وهيلمانها هي هذه الكتكوتة وقال إن ميزانية الفيلم محدودة وأجر البطلة ١٦٠ جنيها فقط، فغضبت ورأيت الرعب في عينيه فقررت الموافقة ووقعت العقد. أحبني كمال من اليوم الأول وعرض الزواج فرفضت: أنت شاب ممتاز يشرف أي واحدة أن تربط حياتها به وأنا كفنانة لي مركزي الذي يحتم أن أعيش في مستوى معين قال: بعد نجاح الفيلم سيفتح لي الباب على مصراعيه وأتحرر من قيود الوظيفة وأصبح مناسبا لك. . ورأيت من شدة غيرته ما دفعني لأن أهجره، خاصة أنه كان قاسيا في معاملته لعزيز عيد ولم يوافق على اشتراكه بالتمثيل إلا في دور عربجي ولمدة دقيقة واحدة!».

وأكتفي بإذاعة هذا القدر من أسرار نجمة عظيمة راحلة تخوفا من سحر الاستسلام لفضح المستور الذي قد يخدش سيرة البعض أو حياء البعض أو صورة البعض . . وأغلق دفتر الذكريات بنهاية كتبتها أشهر نجمات القرن العشرين التي عاشت المجد والمال ودفنت في مقابر الصدقة . . كتبت في ١٩ فبراير ١٩٤٥ : «خليها على الله يا فاطمة . . ولكن» . لماذا مذكرات فاطمة رشدي؟ ما يبرر النشر أولا أنها امتلكت شجاعة تسجيل مثل تلك الوقائع في حياتها ، إلى جانب يقيني بأنه من بعد مرحلة زمنية تغدو الشخصيات العامة ملكا للناس بجميع أبعادها ، وحتى في حسناتها وأخطائها تتحول إلى تجربة إنسانية نزداد منها تعرفا عليها ونتعلم منها ، خاصة إذا كانت إذاعة مثل هذه الأسرار لا تسبب ضررا ولا حرجا لأحد ، ولقد كتب سعد زغلول في مذكراته يتحدث عن مغامراته ولياليه رغم مسئولياته الجسام في لعب القمار الذي خسر فيه الكثير حتى إنه لجأ إلى مصاغ زوجته أم المصريين صفية هانم زغلول لتعويض خسارته ، ولم ينتقص ذلك من حجم زعامته ولا وطنيته . وكتب المهاتما غاندي في مذكراته عن تجربته السرية مع إحدى الغانيات أيام بعثته في إنجلترا ، ورغم ذلك فقد ظل غاندي هو الأب الروحي للهند المستقلة . . هناك لكل شخصية نقاط ضعفها التي تعبر عن حضورها الإنساني ولا تقلل من قيمة صاحبها أو عطائه في أمور أخرى ، ولقد كان فيلسوف إنجلترا العظيم برتراند راسل يهوى التطلع من ثقب الباب على السيدات في حجرات خلع الملابس .

و . . واجب أن نعترف بأن الفنان كيان عظيم . . و إنسان عادي .

منيرة المهدية... الغندورة

قالت له إيه القطقوطة الحلوة دي يا سى محمد؟! . . والنبي تعمل لي واحدة زيها . . وعمل لها الأسطى «محمد علي لعبة» من القطاقيط عشرات أشهرها: «أسمر ملك روحي، ويا حبيبي تعالى بالعجل، ويمامة حلوة ومنين أجيبها طارت يا نينة عند صاحبها» . . وكانت القطقوطة قالبًا جديداً في الغناء ليس بالدور ولا الموشح ولا الموّال، لكنه شكل جديد في الأغاني يتسم بالرشاقة وخفة الظل والحركة، ومن هذا المنطلق أبدعت منيرة المهدية في طقاقيطها التي تحولت بعد التحريف إلى «طقاطيق» و«طقطوقة» غناها سيد درويش: «بونجور يا هانم يا عنية أنا والله هايم ما تردي عليّ»، ولا يعلم الكثيرون أن الشيخ سيد ليس هو ملحن طقطوقة «البحر بيضحك ليه وأنا نازلة أدلع أملا القلل» وإنما الملحن هو محمد نور، ومأطأط، وظل صالح عبد الحي يغني الطقطوقة من العشرينيات حتى بداية الخمسينيات والتي كان آخرها . . «ليه يا بنفسج»، وامتلأت ساحة عطاء محمد عبد الوهاب بالطقاطيق وأشهرها «فيك عشرة كوتشينة» و«خايف أقول اللي في قلبي» . . وتجمح وتجنح سلطانة الطرب عندما تغني طقطوقة زكريا أحمد «إرخي الستارة اللي فريحنا لحسن جيرانك تجرحنا» و« قلبي بيطب قوي وخايفة/ عندك شباك نواحي العطفة افتح دَرْفَة وأقفل درفهْ/ ونقوم نغيّر مطرحنا»، و«الساعة كام يا سي محمد/ الوقت راح ياللا نروّح/ يا خوفي لا بابا يسألني/ وعلشان غيابي يزعلني، وأقول له إيه لو يسألني الساعة ستة وزيادة/ وحياة عيونك بزيادة/ هو إحنا خدناها عادة؟ الوقت راح ياللا نروّح . . . ومن بعد ثورة ١٩١٩، تستقيم طقاطيق المهدية التي كانت من أشد المتحمسين لكفاح المرأة المصرية حتى إنها كانت قبل بداية عرض مسرحياتها تغني طقطوقتها:

الواحـدة منا بإيديهـا . . تصـون نامـوسـهـا وعـفـافـهـا
تدوس غـرامـهـا برجليهـا . . عـشـان وطنهـا وشرفـهـا

وعندما أصدر الإنجليز أحكامًا عرفية غنت منيرة لأمين صدقي :

يا مصريين . . يا وطنيين . . قوموا كده ما لكم نايمين
أحكام عرفية ولا فيش حرية . . وادي قوانين استثنائية

وكادت منيرة المهدية أن تسلب عقول المتفرجين والمستمعين في مقهاها «نزهة النفوس» الذي استثنته السلطات الإنجليزية من الإغلاق لأنها كانت تعمل لشخصية منيرة ألف حساب، وكان الوطنيون الأحرار يجتمعون فيه ليتنسموا الحرية حتى إنهم قالوا : « هواء الحرية في مسرح منيرة المهدية» عندما كانت تغني :

شـال الحـمـام حط الحـمـام . . من مـصـر لما للسـودان
زغلول وقلبي مـال إليــه . . أنده لـه لما احـتـاج إليـه
يفـهـم لغـاه اللي يناغيـه . . ويقـول حـميـحم يا حـمـام
والبـــدر ينظر من ســمـــاه ويحـســـده على عـــلاه
وإن كـان يريد ألعب معـاه . . شـال الحمـام حط الحـمـام

والبدر الذي ينظر من سماه، هو الزعيم سعد زغلول، وتنتشر الكلمات على كل لسان لتغدو أشبه بالنشيد الوطني تحديًا لأمر قائد الاحتلال الذي أصدر أمرًا عسكريًا بسجن كل من يذكر اسم سعد زغلول ستة أشهر مع الشغل، وجلده عشرين جلدة . . هذا وجاء ذكر منيرة المهدية في مذكرات سعد زغلول الخاصة عن سنوات الحرب العالمية الأولى والتي وصف فيها سهرة في الأوبرا أقامتها وزارة الأشغال وكان معه عبد الخالق ثروت باشا وإسماعيل صدقي باشا، وخرج الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة، لسان حال حزب الأحرار الدستوريين ألد أعداء حزب الوفد وسعد زغلول وقد اندفع متحمسًا بغناء السلطانة ليعقد مقارنة بين مكانة سعد ومكانة منيرة عند طبقات الشعب المصري قائلاً بجرأة : «إذا كان لعامة الناس من أهل هذه البلاد زعيم محبوب يسيرون وراءه . . فقد كانت منيرة-

لهذا الجمهور الذي احتشد لسماعها في الأوبرا ـ زعيمة محبوبة» والمعنى الذي أراده أن سعد هو زعيم الغوغاء أما سلطانة الطرب فهي زعيمة الكبراء والعظماء!

وقد كان لسلطانة الطرب مواقف وطنية عديدة ساهمت من خلالها في بعث روح الوطنية حتى إنها استغلت نفوذها لدى أصحاب الشأن في أخذ العفو عن كثير من الطلاب الذين كانوا يقدمون للمحاكمات أيام ثورة ١٩١٩، وذهبت إلى مقر «اللورد اللنبي» لتحصل منه على أمر بالعفو عن طالب وحيد لأمه قبضوا عليه أثناء المظاهرات، وفي مسرحية «كلام في سرك» شاهدها رائد الاقتصاد المصري طلعت حرب، فشد على يدها قائلاً: إنه بعد مشاهدته الرواية خرج مقتنعًا تمامًا بضرورة تنفيذ إنشاء بنك عربي ومصنع عربي، وفي رواية بعنوان «كلها يومين»، أي كلها يومين ويخرج الإنجليز، ورمز فيها مؤلفها يوسف القاضي إلى السلطان عبد الحميد بشخصية رجل تركي في حالة وصاية على منيرة المهدية التي هي مصر، وفيها تغني منيرة من ألحان سيد درويش:

شرفك لو ضاع منك واتهان.. منين تجيب غيره بكرة
إن عشت عيش حر ومنصان.. وإن مُت خلد لك ذكرى

وكان رئيس الوزراء حسين رشدي باشا من رواد مسرحها ومن أشد المعجبين بها وتروي أنه طلب منها يومًا في صحبة بعض الوزراء التوسط لدى السلطات الإنجليزية للإفراج عن شاب وطني يدعى «محمود جبر» السجين في ثكنات قصر النيل، وذهبت منيرة إلى دار الحماية، وطلبت مقابلة المعتمد البريطاني الذي سألها عن دافعها لإطلاق سراح الرجل الخطير مؤكداً لها أنه سيلبي طلبها فقط إذا ما كان الأمر يتعلق بالحب والرغبة في الزواج، فاضطرت منيرة إلى الادعاء بأن دافعها هو الحب، فأجابها المعتمد: سأفرج عنه بشرط أن يتم الزواج حالاً، وأمامي وقبل أن تخرجا من هذا الباب.. ووافقت منيرة وتم زواجها بمحمود جبر على يد المأذون المهرول المستدعى من قبل السلطات البريطانية بشهادة اثنين من موظفي السفارة.. واستمر الزواج أربع سنَوات «أشقى أيام حياتى، ولم أجد وسيلة للهروب من حكم الطاعة إلاّ بالاغتراب، فهجرت مصر إلى سوريا ولبنان والعراق، وخفت أن

يتتبعني فأوغلت في الصحراء حتى بلغت «الناصرية» وأقمت عند سلطان تلك المنطقة من الخليج العربي، وكانت معي فرقتي، وهناك غنيت وحفظ الناس الأغاني، ولما تم الطلاق وقفت من الفرحة أغني:

بعد ٣١سنة ارتحت من بعد التعب

لما يريد ربنا تيجي على أهون سبب

«زكية حسن منصور» الشهيرة باسم منيرة المهدية ابنة قرية المهدية بمحافظة الشرقية في عام ١٨٨٥، التي توفي والدها وهي رضيعة فتولت رعايتها شقيقتها الكبرى وإن كتبت في مذكراتها «أنها قد ولدت بالإسكندرية وأن أختها أدخلتها هناك المدرسة التي كانت تزوّغ منها، وذلك على درب من يشتهرون فيكتبون لهم تاريخاً جديداً كما يتراءى لهم في أوقات الفسح بين الحصص كانت تجتمع الطالبات ونبدأ اللعب في الفسحة نقفز ونغني، وحين أبدأ أنا في الغناء يسكت الكل، ولم أكن أهتم بهذه المسألة فماذا يهمني في أن يكون صوتي جميلاً.. وكانت البنات يطلبن مني أن أغني فألبي عن طيب خاطر، وعند الانصراف كنت أعود لبيتنا في شبه مظاهرة، فالسميِّعة يسيرون من حولى لأغني لهم طوال الطريق، وكانت النوافذ تفتح والناس تخرج للبلكونات ينصتون بإعجاب شديد ويلقون فوقي الزهور».. وتزور بيتهم الحاجة سيدة اللاوندية المطربة الشهيرة لتنصت ولا تصدق، وترعى البرعم الصغير تدربه على الأداء السليم، وتذيع شهرة منيرة في محافظة الشرقية، وتنتقل للعاصمة الزقازيق ليسمعها محمد فرج أحد أصحاب المقاهي بالقاهرة ليغريها بالعمل عنده في عام ١٩٠٥ لتبقى مغنية وراقصة خمس سنوات، ويسمعها كامل الخلعي ويعرض عليها العمل في مقهاه بحارة «بير حمص» بالقرب من باب الشعرية بالقاهرة، وتضيق منيرة بالمكان لتنتقل لملهى الألدرادو فيتسع صيتها لتستأجر بالأزبكية مقهى «زهرة النفوس» ومنه إلى تياترو برنتانا «ثم مسرح الكورسال».. وتنتقل «الست منيرة» كما كانت تَلقب في مرحلتها الفنية الأولى إلى لقب «مطربة الأزبكية الأولى»، ومن بعدها كانت «سلطانة الطرب»، تنتقل من الطقاطيق إلى تمثيل روايات الشيخ سلامة حجازي وغناء قصائده بعد إصابته بالشلل عام ١٩٠٩،

وهو الذي قال لها بعد سماعه لها لأول مرة: «أوصيك خيراً بحنجرتك وبتلك البحّة الخالدة، فصوتك اسمه الصوت الأبيض»، وتسأله منيرة بسذاجة: «هو فيه صوت أبيض يا شيخ سلامة؟!» فيرد عليها الفنان المتذوق: «صوتك كل ١٠٠ سنة لما ييجي في الدنيا صوت زيه، حافظي عليه، حافظي كويس». . وقد قامت منيرة المهدية بأدوار الرجال التي كان يقوم بها الشيخ سلامة على المسرح. . أدت دور «وليم الفاتح» في رواية «صلاح الدين»، وقامت بدور«روميو» في رواية «روميو وجولييت» أو«شهداء الغرام» كما أسماها الشيخ، ودور» راداميس في رواية «عايدة»، ودور على في رواية «على نورالدين»، ودور «راؤول» في رواية «ضحية الغواية» وغنت فيها قصيدته الشهيرة «سلى الكواكب يا شارلوت عن سهري»، وكان الشيخ سلامة يشهد رواياته فينسى كل شيء، ينسى أنها تمثل رواياته، بل أدواره، وأنها تنافس فرقته، ويذكر شيئًا واحداً «إنها صوت من السماء»، فيصيح من أعماقه إعجابًا وطربًا: «الله أكبر». . . ثم غالبت منيرة المهدية أنوثتها فتركت روايات الشيخ وتخلت عن أدوار الرجال، وعادت الأنثى الفنانة التي تهز المسرح بأنوثتها وفنها. . وقدمت «توسكا» القصة الخالدة، ووقف أمامها على المسرح - لأول مرة في حياته - المطرب الكبير «صالح عبد الحي» بعد ريجيم قاس هبط بوزنه كثيراً الذي يروي أنه في ليلة الافتتاح وقف أمام منيرة على المسرح، وغنت، فانسجم، وبدلاً من أن يرد عليها، أخذته النشوة، فنسي أنه يمثل، وأطاح بقبعة التمثيل في الهواء صائحًا: الله. . كمان يا ست!. . وضجت الجماهير بالضحك والتصفيق، وبُهتت منيرة، فقال لها على المسرح أيضًا: «أعمل لك إيه؟!. . أعصابي. . هو أناَ مش بني آدم؟! ارفديني! اعملي فيَّ اللي تعمليه!».

كانت منيرة سيدة المسرح. . لا لأنها صاحبته فحسب، ولا لأنها بطلته فحسب، بل لأنها كانت المخرجة، ومديرة الشئون المالية، ومهندسة الديكور والإضاءة، ومصممة الأزياء. . أما الذين لحّنوا لها، فقد بدأوا بسيد درويش، ومن بعده زكريا أحمد، وكامل الخلعي، وداود حسني، ومحمد القصبجي، ومحمد عبد الوهاب، ورياض السنباطي. . أما المؤلفون فكان منهم فرح أنطون الذي ترجم لها «كارمن» أول رواية تعيد لمنيرة أنوثتها من جديد، ثم أعقبها العديد من الأوبرات

والأوبريتات «توسكا وأدونا وتابيس وكلام في سرك والتالتة تابتة وكلها يومين»، والغندورة وقمر الزمان وحورية هانم والجيوكندا، والمظلومة وكيد النسا وحماتي ولولو من ألحان رياض السنباطي، ونورا تأليف أمين صدقي، والدجالين ومملكة الحب و المخلصة تلحين زكريا أحمد. . . إلخ».

وكانت مسرحية «المظلومة أنا» أول عمل يشاركها فيه محمد عبد الوهاب، ثم كانت كيلوباترا التي لحن لها فصلها الثالث بعد أن لحن سيد درويش فصليها الأول والثاني وتوفي قبل استكمال الفصل الثالث، فأكملها عبد الوهاب وقام ببطولة المسرحية عام ١٩٢٧، كانت منيرة المهدية قد عهدت أولاً بتلحين الفصل الثالث للموسيقار داوود حسني فقام بعمله وتقاضى أجره إلاّ أنها رأت أن الألحان لا تكمل مسيرة ألحان سيد درويش فعهدت بها إلى محمد أفندي عبد الوهاب الذي استشار والده الروحي الشاعر أحمد بك شوقي فشجعه عليها، ولكن محمداً قرر ألا يقوم بالعمل إلا إذا قام بتمثيل دور «أنطونيو» الدور الذي كان قصيراً لا يزيد على بضع كلمات في الفصل الأول فاتسع تبعًا لرغبته لتدخله عدة أغان لحنها عبد الوهاب لنفسه «لا لست بالرجل الذي يحب ويبقاكي تحت أخطار السهاَم» إلى غير ذلك من ألحان لا تقل جودة عن ألحان سيد درويش، وأبدع عبد الوهاب في الفصل الثالث الذي قام وحده بتلحينه. . وتوالت المواقف التي تجمع بين كيلوباترا وأنطونيو، ليغني فيتسيد، وتغني فتفقد رصيدها من الإعجاب، وكانت منيرة يومها ممتلئة القوام بينما عبد الوهاب هزيلاً ضامر العود من وزن الريشة، وفي أحد المواقف ترتمي كيلوباترا على صدر أنطونيو نائحة: حبيبي أنطونيو. . أنت جريح؟!. . وحدث أن الشاب النحيل لم يحتمل مرة كيلوباترا على صدره، فسقط على أرضية المسرح، ومن فوقه كيلوباترا فكادت تكتم أنفاسه ليتصايح الجمهور «الجدع مايستحملشي يا سلطانة». . وتحكي منيرة المهدية أنه أثناء عرض الأوبريت دخل حسين رشدي باشا غرفتها قائلاً: «إيه الواد المفعوص عبد الوهاب ده؟ أنا أنفع في دور أنطونيو أحسن منه»، وكان حسين رشدي وقتها رئيسًا لمجلس الشيوخ. . فقالت له منيرة على الفور: «مفيش مانع يا باشا، بس على شرط تعين عبد الوهاب رئيسًا لمجلس الشيوخ». فتركها ـ ضاحكا ـ بوعد بالنظر في الأمر. وكتب النقاد

يتساءلون بعد مشاهدتهم للأوبريت: «أين صوت المهدية؟ أين سحرها؟ لقد جاء عبد الوهاب لينزلها عن عرشها، العرش الذي اغتصبه المطرب النحيل»، وفيما كتبته وقتها المجلة الموسيقية كما أوردته الدكتورة رتيبة الحفني: «لقد رأى عبد الوهاب أنه إذا ما سار في التلحين مراعيًا مصلحة المطربة من طبقة تمكن صوتها من تأدية مختلف الدرجات ـ بقوة وعذوبة ـ محافظًا على النسبة الحسابية بين طبقتي صوتي الرجل والمرأة فإن عجزَ صوته المحدود سوف يخرجه من حلبة السباق خاسرًا، ومن هنا وضع ألحانهَ من طبقة تناسب صوته هو بينما جعلها تغني في غير حدود طبقتها فخرج صوتها عاديًا لا تطريب فيه، فاترًا لا حول له، مما حرّم مميزات صوتها أداء ما ثبتها على عرشها، وأطال عمر سلطانها»، وخرج الجمهور قائلاً: «لقد صغّر المهدية في نظرنا، وتفهها في سمعنا حتى أنسانا إيّاها». . ويصف عبد الوهاب بعدها منيرة المهدية قائلاً: «كانت سيدة جميلة جدا، مصرية الشكل. . وجهها منمنم القسمات. . حلوة. . دمها خفيف. . بنت مجلس. . وكان وزني عند عرض الرواية يتراوح ما بين ٤٠ ـ ٤٥ كيلو جرامًا، أما كيلوباترا أو الست منيرة. . فكانت ما شاء الله أكبر مغنية في ذلك الوقت». . وكان العظماء يغسلون قدميها بالشامبانيا. . ولم تهتم منيرة بما يقال في أول الأمر إلاّ أنها استيقظت على حقيقة خطر عبد الوهاب فبدأ الخلاف الظاهري على الأمور المادية بينما كان ما خفي أعظم، وجاء في شرح عبد الوهاب للظاهري: «لم أدخل مع السيدة منيرة في اتفاق تفصيلي على الأجر، ولكن بعدها جاءت اللحظة التي كان لا بد فيها من تسوية الحساب، وعندها طالبت بأن يكون أجري عشرة جنيهات في الليلة الواحدة، وعارضت السيدة منيرة رغم أن الإيرادات كانت ذات أرقام يتواضع أمامها هذا الأجر، وأصرت على ألا يزيد على ستة جنيهات. . وحاول الأصدقاء التسوية بتقسيم البلد بلدين، لكن أحدنا لم يتزحزح عن موقفه، وإزاء إصراري وإصرارها اتفقنا على أن أترك الفرقة بشرط أن أتقاضى راتبي عن المدة التي اشتركت فيها بالتمثيل معها بواقع عشرة جنيهات عن الليلة، وكان مبلغًا لا يستهان به لم أقبضه في عمري قبلها، وبعد مغادرتي للفرقة حاولت أن تقلل من أهمية هذا الانفصال فأسندت دور أنطونيو إلى الأستاذ عبد العزيز خليل الذي لا صلة له بالغناء، ثم

استعانت بعدها بالأساتذة صالح عبد الحي ثم سيد شطا وعبد الغنى السيد» . .
وجاء تعليق منيرة المهدية - في حوار أجراه معها عبد الحليم حافظ في مجلة الكواكب حول كيلوباترا وعبدالوهاب: «كان عبد الوهاب بيشتغل عندي ملحنًا وكمل ألحان الرواية، وكان دور مارك أنطوان بيعمله الممثل عبد العزيز خليل، لأن الدور ماكانش من الأصل محتاج مغني، والناس ماكانش يهمها التمثيل في حقيقة الأمر، وإنما كان يهمها إنها تسمعنى أنا وبس . . حتى الأستاذ فكري أباظة جاني يقول لي: إنت فاكرة يا سلطانة إن الناس عايزة تشوف تمثيل؟ الناس عاوزين بس يسمَعوكي . . ولما نجح عبد الوهاب قوي لأنه غني قصادي أغراه النجاح يطلب زيادة في الماهية، وعمل نمرة مش لطيفة أبدًا . . جه يوم البروفة الجنرال وماجاش. يعني كان فاضل على عرض الرواية يوم، قمت أنا زعلت منه جدا، وحتى كنت يومها جايبة له هدية تساوي ١٥٠ جنيها أيام ما كان الجنيه بعشرين، وكنت جايبة له شوية قمصان وحاجات زي دي لزوم المظهر من البون مارشيه بحوالي عشرين جنيها . . أقول لك الحق لما عمل الفصل ده قلت هو حر ولا ديتوش الحاجات اللي كنت جايباهاله».

وتتوالى دقات مسرح منيرة المهدية معلنة إسدال الستار لا فتحه وذلك بعد مأساة فشل فيلمها السينمائى الوحيد عام ١٩٣٥، المأخوذ عن مسرحيتها «الغندورة»، وكان من إخراج الإيطالي «ماريو فولبي» وقصة وحوار بديع خيري وسيناريو موريس قصيري، من بطولتها مع أحمد علام وعباس فارس وبشارة واكيم وروحية خالد، واكتملت المأساة باحتراق النسخة الأصلية من الفيلم، وانتقد الكتاب أداءها في الأوبريتات المقتبسة بأنها غير مؤهلة للغناء الأوبرالي، فقد كانت تغني على المسرح كما لو كانت تؤدي على التخت الشرقي وتصر على الظهور في الشخصيات الأجنبية بالقماش التَلّلي المطرز بالترتر وخرج النجف . . ويكتمل تعتيم المسرح الشخصي، في مطلع الحرب العالمية الثانية، حين تستعد صاحبة الألف حذاء - التي كانت تقول إن ثمنها يوازى دخل أي فنانة لمدة سنة - والتي أهداها الملك فؤاد سيارتها الحمراء موديل ١٩٣٤ - لبدء موسمها بمسرح برنتانيا فتدهمها سيارة بالطريق، تلزمها الفراش لمدة ستة أشهر . . وكانت العواصف من قبل قد هبت في كل مكان لتقتلعها

من عرشها يوم مات الصحفي عبد المجيد حلمي رئيس تحرير مجلة المسرح مدبج المقالات النارية ضد منافستها أم كلثوم . . مات العاشق الصحفي صريع الحمى والحب، ورفضت منيرة أن تزوره في غيبوبته قائلة : «إن عبد المجيد مريض بالسل وهي تخشى أن يصاب بالعدوى» . وكان الصحفي الصعيدي الشاب الولهان يغار غيرة عمياء من الكاتب الصحفي فكري أباظة خاصة عندما شاهده بعد انتهاء عرض مسرحية «كيلوباترا» ينحني على يد حبيبته ليُقبِّلها إثر انحناءة من قامته الفارهة تكاد فيها جبهته تلامس الأرض فكتب يوم ٢٨ فبراير ١٩٢٧ يقول لمنافسه : «هي امرأة واحدة نحبها نحن الاثنين يا صديقي، أهو القدر يعبث بنا أم نحن نعبث بها، أم هي تلعب بنا جميعًا؟ قلت لي في مقابلتنا الأخيرة إنها باحت لك بغرامها، وأنها تحبك من دوني ولولا أنها تخشاني لنفرت مني . ألم تذكر أنها قالت ذلك؟ وفّر عليك جهدك فقد سمعت منها هذه الألفاظ عنك . . إذن هي تعبث بنا جميعًا، أحدنا تخشاه والآخر تجد مصلحتها في استرضائه، ومع ذلك فأنت تعبدها وتطمع فيها وتغار عليها، أما أنا فأحبها بلا عبادة ولا طمع ولا غيرة» . . ويكتب مصطفى أمين في أخبار اليوم بعد ذلك مقالاً ناريًا تحت عنوان : «المطربة التي قتلت الصحفي، والصحفي الذي دفن المطربة!!» .

صاحبة أشهر عوامة على شط النيل في إمبابة التي اشترتها بثمن فيلتها بمصر الجديدة ستة آلاف جنيه، ثم اشترتها بعد ذلك الملكة نازلي . طلبت منيرة من المعجب البرنس يوسف كمال أن يهديها أسدًا فأرسله في الصباح التالي للعوّامة صغيرا تبعًا لرغبتها، وكان من زوار العوامة الفريق إبراهيم فتحي باشا وزير الحربية الذي يأتي بملابس التشريفة وعلى صدره عشرات الميداليات، وعبد الخالق ثروت باشاخير سميع بشرط الهدوء، وحسين رشدي باشا رئيس الوزراء الذي كان يعقد اجتماع مجلس الوزراء في صالون العوامة، ويقول لها لمّا أكون عندك بيروق بالي وألقى حلولاً جذرية لمشاكل الوطن، وأنا لازم أجيب بكرة مكتبي هنا، فترد ضاحكة : «طيب يا باشا ما تعملني معاك وزيرة» . ولم يكن يمر يوم واحد دون أن تقيم في العوامة وليمة غداء أو عشاء، ، ولقد تعرض كل من الوزير أحمد خشبة باشا وحسين رشدي باشا، لغضب الملك فؤاد لعلمه بأن كلا منهما قد قَبّل يد منيرة

المهدية علنًا، فأقال الأول، وهدد الثاني والذي ردّ أنه ليس في الدستور مادة تمنع رئيس مجلس الشيوخ من أن يُقبّل يد مطربة. . وكانت قد التقت بكمال أتاتورك عدة مرات بدايتها في مقهاها «نزهة النفوس» بمصر عندما استقبلته بغناء بعض الموشحات التركية فقدم نفسه لها مهنئًا: «اسمحي لي أن أقدم لك نفسي. . أنا البكباشي مصطفى كمال». . وكانت المفاجأة الكبرى عندما لبت دعوة من الأتاتورك في تركيا لتفاجأ بأنه البكباشي مصطفى كمال الذي قدم لها زوجته «ليزا» إحدى عضوات فرقتها في القاهرة. . وفي جولاتها غنت منيرة لباي تونس أغنيته المفضلة «أسمر ملك روحي»، وفي البصرة نزلت ضيفة على سلطان» المحمرة ليملأ حقيبتها كل ليلة ذهبًا، وفي سوريا طبعت كبرى شركات السجائر صورتها على ماركة جديدة اسمها «منيرة». . وكانت بدلة رقصها في مسرحية الغندورة مرصعة بكاملها بالجنيهات الذهبية الحقيقية تحفظها بعد انتهاء التمثيل كل ليلة في خزانة حديدية بالبنك. . ويأتي عام ٤٨ بترنيمة البجعة - التي كتب عنها د. زكي نجيب محمود من أن البجعة تصدرها قبل الرحيل - فتفكر منيرة في العودة إلى الأضواء لكنها كان شبح منيرة على المسرح، وتصر أم كلثوم على حضور الحفل يصحبها مصطفى أمين الذي يرى دموع أم كلثوم عندما يسدل الستار على بديعة قبل أن تنهى وصلتها الأولى. . ومثل أي ممن انسحبت عنه الأضواء في بلدنا الحبيب مصر لم يودع سلطانة الطرب سوى خمسة أشخاص فقط. . حفيدها من ابنتها الوحيدة «نعمات» وثلاثة من أصدقائه وأمين صندوق معاشات الفنانين.

غربت شمس منيرة، ولكنها لم تغرب وحدها، وإنما غربت معها شمس المسرح الغنائي، وهي التي سألت يومًا: «الساعة كام يا سي محمد، الوقت راح يللا نروّح!».

أم كلثوم

كم أناديك

كان فرح شقيق الوالدة . . خالي . . زماااان . . وأم كلثوم بفرقتها وجلالة قدرها من عبده صالح والقصبجي وكمنجة الحفناوي سوف تأتي كمطربة لتغني لخالي وعروسه، والسهر للصبح . . على وجه الوالدة تصيدت تعبيرا شامخا وهي تحشر اسم خالي العريس والعيلة وأكابر القوم والفرح وحضور أم كلثوم على مسامع الوالد بمناسبة وبدون مناسبة حتى لو كان الكلام يدور حول زرار القميص الناقص أو طبق البامية الدِّلع . . أيضا ظلت على مدى أيام قبل المناسبة السارة تدندن مقاطع من أغاني ثومة، وتختتم كل مقطع بتنهيدة يعقبها لفظة ياريت . . وياريت تقول سلوا كئوس الطلا هل لامست فاها . . وتعجبت كطفلة من كيفية تقديم الطلاء أي الدهان في الكئوس للضيوف . . وجاء اليوم . . واصطحبتنا الوالدة صغيرات لامعات مع حقيبة سفر ضخمة حملها خدم بيت الفرح كقضية مسلم بها مع سرب حقائب وافدة مماثلة في الضخامة لمدعوات أخريات، للصعود بها لحجرات النوم في الطابق الثاني، ليعلق ما بداخلها فورا على الشماعات لزوم فرد المحتويات من فساتين سهرة سوف يتم تغييرها تباعا طبقا لبرنامج الفرح، ففي تلك الأيام لم يكن يكتفي لحضور أي حفل زفاف بارتداء فستان يتيم واحد فقط، بل كانت تقام هناك مباريات للقلع واللبس بين المدعوات لعدة فساتين مختلفة تبعا لذوق وثراء وأناقة ومنزلة عائلة كل واحدة . . كان هناك على أقل تقدير فستان خاص لحضور الزفة، وفستان لحضور البوفيه، وفستان للسهر حتى خيوط الفجر، وهذا الأخير بالذات يزداد النسيج فيه التصاقا بالقوام ويرتدى معه أهم قطع المصاغ إلى جانب كثافة في حبات التطريز وعلو شأن أبليكات الزهور الصناعية المثبتة في مواضع لا تخطر على

بال، وتتجرأ فيه تقويرة العب أي الديكولتيه إلى مشارف شارع ما بين النهدين لتدور حولهما بحبكة أو بحرية في قصة على هيئة القلب المعدول أو المقلوب، وقد تكتفي الخياطات اليهوديات (إستر وراشيل وماريكا) في تثبيت الفستان على الجسد المهلبية بالحمالات، وقد يتغاضى التصميم تماما عما يستر زقزوقة الكتف والترقوة وملاحات العنق أو يغطي سلسلة الظهر وريش الرئات.. وعادي.. وبونسوار يا تيزة.. وعقبال دودو يا حكمت هانم.. وتعالي يا نازلي سلمي على أونكل حشمت.. وعيب يا سوسو خللي عمو كمال بك يبوسك.. وكانت أيام غير أيامنا الآن التي تستشعر فيها المدعوة السافرة بين سيادة الحجاب الذي غدا مسيطرا على نساء العائلة والأقارب والمعارف والنسايب وكأنها بتفرد هيئتها برأسها العاري بلا عمامة لامعة، وبسيقانها المكشوفة وركبتيها الباديتين للعيان قد حضرت لأداء مهمة العالمة التي ستنفلت بعد قليل لعرض نمرتها القارحة في رقصة الرعشة على واحدة ونصف، وفقط ينقصها الصاجات.. ولأنه قد أصبح هناك ثوب واحد يتيم للمناسبات العائلية يواكب نمو أولاد وبنات العائلة من حفلات سبوعهم لعقد قرانهم فإنه يظل معلقا على شماعته سنينا في جانب الدولاب ليغدو بمثابة راية تعلن عن قدوم صاحبته، ويصبح تحصيل حاصل عندما تصف مظهر المدعوات لقريبة لم يصلها كارت دعوة أن طنت تحية كانت بفستانها البروكار الأخضر الذي أصبح تماسك خيوطه حول هضابها المحشورة نوعا من بطولات النسيج، وصفية بالتايير الجرسيه الذي لا لون له منذ بداية طلعته والذي غدت أرضية صدره جدباء قاحلة إلا من حبات خرج نجف عشوائية تجاورها نهايات فتل ضامرة وذلك بفعل فاعل يستدل عليه فوريا ألا وهو الزمن، وسميرة بفستان فرحها الذي تم منذ أكثر من حول وكانت قد قصت ذيله وزرعت في صدره ترتراً ملونًا من قبيل التمويه ليغدو مجرد فستان سهرة عادي تحضر به المناسبات.

ومشينا في الزفة التي أبدعتها فرقة نعيمة عبده، وخلص البوفيه الذي شاركتنا فيه أم كلثوم بحميمية وخفة ظل لألاحظ هرجا ومرجا وتغييرا في ديكورات ونظام وشخوص المقام.. خالي.. العريس.. وعروسه اللي كانت قمراً بيلالي والمفروض أنهما نجما الحفل ينسحبان ليذوبا بين المعازيم بينما الكوشة قد تربعت

على عرشها أم كلثوم وفي خلفيتها فرقتها. . وطال الوقت. . طال. . طال. . وأنا مفروسة وقربت أطق من عبث الآلاتية بآلاتهم الموسيقية ولا أدري معنى لكلمات الوالدة التي تشرح لي بها هذا التسكع أصل الفرقة بتدوزن. . العود بيدوزن. . والقانون بيدوزن. . والكنترباس بيدوزن. . وفضلوا يدوزنوا كتير حتى التحم اللحن. . هذا بينما أم كلثوم جالسة في صمت تنظر إلى الأرض بسرحان وإلى المعازيم وكأنهم ليسوا هنا، ويتوقف سؤالي داخل حلقي حول سكوتها بزغرة من عين الوالدة تقطع مني النفس. . وأخيرا ينطلق شدو من فيلم سلامة الذي كان معروضا في ذلك الوقت:

برضـــاك يا خـــالقي. . لا رغـــبـــتي ورضـــاي

ويقع الرجال على الأرض، وتطير طرابيش في السماء ويزايل الوقار صاحبات الحمالات وتلبي أم كلثوم رغبة جامحة:

حـــبـــيـــبي يســـعـــد أوقـــاته عـــالجـــمـــال سلطان

في نظرته وابتساماته. . فرحة. . فرحة. . فرحتك. . يا زماااان

ولما يخطر. . ولما يخطر. . يخطر بقـــوامـــه. . ترقص الألحـــان

آه هاهاها. . آه هاها. . ولما ينعم. . ولما ينعم. . ينعم بـ. . .

وفجأة ينقطع الغناء كما في فيلم سلاَّمة تمامًا عندما يدخل أبو الوفا. . أم كلثوم بالفعل غاضبة. . يا ليلة سودة. . ولا أدري حتى الآن ما الذي أغضب صاحبة العصمة بالضبط. . الست. . آسفة الآنسة أم كلثوم في ذلك الوقت، ولكن ما تعيه الذاكرة أن أحدهم قد خدش إطار المهابة حولها بضجة صاخبة، وما تعيه الذاكرة أيضا أن جمع الباشاوات والباكوات السمِّيعة الجلوس تحت قدميها، حيث تضع ساقا على ساق على أعتاب سلم الكوشة انهالوا تقبيلا واعتذارا ورجاء مبتهلا لتعاود الغناء. . وغنت أم كلثوم أخيرا لكن بشرط أن يبوس الجدم ويبدي الندم على غلطته في حقها. . ومن المؤكد أنها قد استرضيت بكل ماهو ممكن ومتاح وذلك لما تبعه من تلبية الرغبات.

الأولـة فـي الـغـــــــــــرام والحـب شـــــــــــبكـونـي
و. . هو صحيح. . صحيح. . الهوى غلاب. . ما اعرفشي أنا
و. . الصب تـفـــــضـــــحـــــه عـــــيـــــونـه
و. . النوم. . يداعب جـــفـــون حـــبـــيـــبي
من بعـــد مـــا تمنيت رؤياه. . لو كـــان يجـيني في الأحـــلام

وقلت يمكن. . وقلت يمكن. . يوم ألقاه. . معايا في دنيا الأحلام. . الفكر تاه في الخيال. . . نام يا حبيبي نام. . نام يا حبيبي نام. . نام. . نام. . ونمت أنا. . تكومت فوق مقعدي على أرجوحة الأحلام. . وقمت فزيت من شدة جذب عصبي تسوقني به الوالدة مع الركب أمامها لنترك الفرح المعظم وهو لسه شغال. . ليه يا ماما. . ليه يا ماما؟ قريبتها التي نزلت ضيفة علينا مع أنجالها من قبل الفرح بأسبوع قررت أن العيال عايزين يروحوا يناموا. . وكفاية بقى الفرح وحضرناه والفساتين ولبسناها وصاحبتك وكدناها وأم كلثوم وشفناها ناقص إيه تاني. . ولم تكن والدتي تنطق ببنت شفة، لكني كنت عارفة وفي الضلمة إن لونها ازدرد، وإن عروق رقبتها قد غلظت وأنها كاظمة غيظها بمعجزة. . وإن أنسى لن أنسى جلستها بعد عودتنا أمام المرآة وهي تنزع برعشة غضب من فورمة رأسها حلقات من الشعر المستعار كانت تعطي مظهر الكعكة الشهيرة أو التسريحة الشينيون زمان، بينما قريبتها التي بترت ليلة أنسها تعابثها ساخرة مواسية في موضع يحتاج الصمت البليغ: يعني أم كلثوم كانت حتغني إيه تاني. . شوحه شوحه. . أغنيها لك أنا. . أغنيها وخد عنيه وكانت تقصد بالطبع غني لي شوية شوية. . ولا بد أن أمي قطعت شعرها الطبيعي مع حشو شعر الفورمة المستعار.

تعوْشبت أم كلثوم في حنجرة الوالدة بطقاطيقها وقصائدها وموشحاتها وأغانيها، فكانت تصاحب دوران الكبشة في حلل الطبيخ: الوداد روح المحبة. . واللي مال يبقى طول العمر فيه أسير الجمال. . لـيـيـه. . ليه تقضي الليل حزين وإنت في حبك أمين يا بنت قشري لي الباذنجان وهاتي لي شعرة فلفل. ياما نديت من طول أسايا في وحدتي يا حبيبي. . وتقضي الوالدة ساعات في قص جرانين

رفوف المطبقية زجازيج متماثلة الفتحات والأهلة: لي لذة في ذلتي وخضوعي. . وأحب بين يديك سفك دموعي. . ولا تسمح ميزانية الوالد بالتصييف ذلك العام فيكون مقابل المنع وقفة أمي في الشباك ناظرة للأفق البعيد تستجلب أغنية لأم كلثوم بأي شكل:

علـى بـلـد المحـــــــــــبـــــــــــوب وديـنـي

زاد وجـــــدي والبـــــعـــــد كـــــاويـني

يـا مـــــســـــافـــــر على بحــــر النـيـل

أنـا لـي فـي مـــــــــصـــــــــر خـلـيـل

تـتـــــــــمـنـى عـــــــــيـنـي رؤيـاه

أشـكـي لـه وهـو يـواســـــــــيـنـي

ولم أكن أعرف أن الأذن ترى إلا بعد أن أصبحت ليلة الخميس التي تطل فيها نجمة الشرق أم كلثوم على الناس ليلة مقدسة. . ليلة يتحول فيها الهواء إلى نغم والأنفاس إلى دندنة والقمر إلى رغيف محبة والليل إلى مظلة أمان والناس إلى أصابع في قبضة المودة، وأبي إلى مخلوق رومانسي. . ليلة تتمشى فيها الطمأنينة والرضا في شوارع القاهرة وحواريها وأزقة القرى ودروب النجوع. . في بيتنا - مثل آلاف البيوت - كنا نعيش طقس استقبال أم كلثوم في حفلها الشهري مبكرا. . نتولى نحن الصغار إعداد كل شيء باستثناء الاقتراب من مربع الراديو التليفونكن ذي الجسد الخشبي الرابض بكبرياء في الصدارة. . كان الوحيد الذي يمارس حق الاقتراب وتقدير الموقف واتخاذ القرار المناسب هو الوالد ومن ورائه أمي. . كان يحرك الكتلة الخشبية طبقا لوجهة نظر لم أعرفها إلا فيما بعد حين علمت أنه كان يستشعر أفضل جهات الاستقبال وذبذبات الكيلو سايكل - كما ينطقها المذيع - وكانت في جعبته شرائح خشبية يرفع بها أحد جوانب الجهاز أيضا تبعا لتقديره في ضبط الموجة مع سريان الإرسال ثم يمسك بالمؤشر يتعامل معه كأنه مبضع جراح يجري عمليته البالغة الحساسية في أدق شرايين العين. . دقة مغلفة بحزم للوصول إلى الهدف حتى يأتي صوت المذيع واضحا بدون خدش أو ظلال خروشة. . جليا

نقيا خاليا من أي شوشرة قد تنقع عليها محطة زايطة مجاورة، وها هي الخلفية تأتي نسمات آلات موسيقية توحي بإرهاصات أن سيدة الغناء العربي سوف تطل على جمهورها بعد قليل. . مازلت أذكر تلك الليالي. . ورغم أنني لست من هؤلاء الذين يؤمنون بأن كل ما ذهب هو من ذهب. . ولا أنا ممن يعاني من الترف الذي يجعلني أستريح لوهم أن الماضي كان جميلا وفقط. . لكنني وحقيقة لا أستطيع أن أكذب على حياة شهدتها بعيني في قلبها كانت تسكن أم كلثوم. . لا أستطيع أن أنسى أن منزلنا كان يستقبل الجيران، وفي ليالي خميس أخريات كانت بعض منازل الجيران هي التي تستقبلنا لنعيش نفس الطقوس الخلابة، ولنلتف بنفس الأسلوب وتحت نفس المظلة وحول نفس التليفونكن. . لم يكن يجمعنا بالجيران بزنس أو مصلحة أو منفعة، ولم يكن شعارنا صباح الخير يا جاري إنت في حالك وأنا في حالي، فقد كنا أسرة واحدة والأحوال واحدة وبوصلة مزاجنا واحدة. . وكانت بيننا أم كلثوم جسرا من مودة ورحمة وأرضا من محبة وحنان وهواء نقيا شجيا سلسبيلا يدخل القلب يموج بالترحاب. . وكنت في أوقات عديدة أنسحب بهدوء لأطل من نافذتي في الدور الثالث لأمسح بعيوني نوافذ البيوت المجاورة في حي العباسية الشرقية. . يا إلهي. . ما كل هذه السكينة. . كل هذا الجمال يتمطى في حينا وكل هذا الحب يطل من خلف كل هذه النوافذ المضيئة بحنجرة أم كلثوم. . وأتخيل المقهى الوحيد على الشارع العمومي بمذياعه المفتوح والجالسون حول جمرات الشيشة يهزون رءوس الانسجام مع زمن جاد بالحب؛ فجعله أغنية تُرى بالأذن وتُحس بالقلب وتدق الفؤاد لتقيم في الشغاف. . كل هذا الحب كنت ألتقطه سريعا بنظرة من نافذتنا لأعود بعدها مسرعة للجلوس في صمت مقدس. . ويتكرر نفس المشهد مع كل حفلة. . ومع الأيام والنضج والانغماس في حياة الناس اكتشفت أن الأمر أكبر بكثير من محيط شارعنا وأوسع من المقهى في شارع التروماي والجيران الذين يحتسون معنا السحلب في ليلة أم كلثوم. . اكتشفت أن سيدة الغناء العربي هي راية حريرية خفاقة ظلت مرفوعة فوق هامة الوطن لأكثر من نصف قرن وأن الشاعر العربي الذي تمزق عقله بين مختلف الرؤى والأفكار طوال نفس الفترة الزمنية لم يجد الطمأنينة القلبية المشتركة بين كافة أبنائه مثلما حدث تحت

راية أم كلثوم . . وأن الذوق العام الذي كان قد انحدر تحت الليل العثماني قد بدأ يستعيد وعيه ، وأن ثقافة فيك عشرة كوتشينة وارخي الستارة اللي ف ريحنا في زوال وأن أم كلثوم كانت إيذانا بعصر جديد يعلن انتهاء زمن المطربة العالمة أو الأسطى الباشا التي تسطع في الأفراح والليالي الملاح وتخلط الغناء بالزغاريد بالنقطة ، ولو كانت أم كلثوم مجرد صوت جميل يغني بأسلوب العصر الذي ظهر فيه ولا يزيد عليه شيئا ولا يغير فيه ولا يبدل لما كان لها أثر في الغناء العربي طوال حياتها ولما بقي لها أثر .

أم كلثوم التي كان اسمها حتى عام ١٩١٩ ، كلثوم فقط فيسمعها الشيخ زكريا أحمد فيمنحها لقب أم . . والكلثوم معناها لغويا الراية الحريرية التي يرفعها الجندي فوق رأسه خفاقة ، وظلت الكلثوم ملء أسماع العرب منذ علق الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم معلقته الحماسية على الكعبة في مكة قبل ما يزيد على أربعة عشر قرنا فتداولتها الأجيال العربية جيلا بعد جيل . . أم كلثوم . . ثومة . . يا بخت السميعة وهناهم إذا ما أعلن سلفا قبل خميس أول الشهر عن مولد أغنية لها جديدة . . الأمل . . صالحت بيك أيامي . . رق الحبيب . . فات الميعاد . . يا فؤادي أين الهوى . . حمامة الأيك من بالشجو طارحها . . هذه ليلتي . . سهران . . سهرانة . . يا مسهرني . . سهرانين للصبح مع الست ليلة الجمعة .

حقيقة بيتنا كان كلثومي النزعة ، ونقطة الارتكاز الكلثومية فيه خارج دندنات المطبخ كانت تكمن في رف مجاور للأرض تعلوه عشرات من أسطوانات أم كلثوم التي تضم تسع قصائد غنتها لأمير الشعراء أحمد شوقي و ١٩ أسطوانة لحنها لها داود حسني وزكريا أحمد . . الرف فوق قاعدة ترابيزة رشيقة الأعمدة تحمل على سطحها الفونوغراف الذي يلقمه والدي أسطوانة تلو أخرى يوخزها بالإبرة ليعود إلى جلسته المسترخية في الشرفة يحتسي قهوته المحوِّجة على مهل . . مؤرجحا مع الأنغام رأسه على مهل . . مستنشقا على مهل عبق زهرة الفل المجوز النضرة هدية أمي من أحدث نتاج زرعها ورعايتها وتسميدها للشجرة الفواحة بتنوة البن المتبقي على جدران فناجين القهوة . . مبتسما على مهل . . منتشيا على مهل . . مرتاحا

على مهل . . فالأوقات الحلوة ممتدة . . والشارع المورق الأشجار من تحته مغسول مرصوف تتلاشى فيه الظلال المتهادية التي تمشي الهوينى على مهل . . على مهل . . وتزقزق أم كلثوم :

هـــوه دا يـــخـــلـــص مـــن الـــلـــه
الـقـــوي يـذل الـضـــعـــيـف
حـــتـى يـبــخـل بـالمـطـلـة
شــيء ولــو دون الــطــفــيــف
لـيـــــه دا كـلـه لـيـــــه دا كـلـه
مـــين يقـــول لـه . . مـــين يقـــول لـه

. . وعلى مهل يدير الوالد الوجه الآخر للأسطوانة الحميمة العتيقة بدور إمتى الهوى الذي أشار إليه أديبنا العالمي نجيب محفوظ في رواية خان الخليلي عندما وصف في سياق الرواية قعدة في حي الحسين تحدث فيها الأصدقاء عن الغناء، فقال أحدهم : اسمعوا القول الفصل : أجمل ما تسمع الأذن، سي عبده الحامولي إذا غني يا ليل . . والشيخ على محمود إذا صعد مئذنة مسجد الحسين وأذن لصلاة الفجر . . وأم كلثوم في دور إمتى الهوى ييجي سوا . . وماعدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب .

إمـــتـى الـهـــوى يـيـــجـي ســـوا
وارتـاح ولـو فـي الـعـــمـــر يـوم
يـــا نـــاس أنـــا قـــلـــبـــي انـــكـــوى
وعـــيـــني مـــا يـهـــواهـا نـوم
فـي شـــرع مـــين يا منصـــفـــين
الـعـــمـــر كـلـه لـوم فـي لـوم
لـيـــه يـا تـرى حـــيـــرتـني
إيـه يـعـنـي لـو ريـحـــتـني

وعملت غيري لعبتك
وتميل عليه وتقول له ليه
يا دي الهوى حيرتني
إيه يعني لو ريحتني

وتهل الوالدة تحمل طبقا صغيرا من مربى قرع العسل بالملعقة الصيني تلقمها لوالدي لتكمل أم كلثوم شدوها :

آه يا سلام زاد وجدي آه
والصبر طال من غير أمل
كوى الهيام قلبي وضناه
واللي كواه عنه انشغل

وكأنما كانت أم كلثوم تدير بينهما الحوار بصوت رفيع ضغطته أجهزة التسجيل العتيق :

ليه تكايديني كل ما أتكلم
ليه تلاوعيني والفؤاد سلم

وتترقرق المآقي في عيونهما مع الذكرى :

لي لذة في ذلتي وخضوعي
وأحب بين يديك سفك دموعي

وتموت الوالدة، ومن بعدها والدي، وأم كلثوم رحلت هي الأخرى، ولم تعد الحياة تمشي على مهل، ولم تعد عيشة العباسية هنية، ولا القاهرة الكبرى ولا الصغرى مرية، ولا الإسكندرية هنية ومرية، وأصبحنا نلقي بالتحية ولا يحفل أحد بردها . . وتخرج الآهات من الصدور مكبلة بالعجز لا لتصل إلى السماء وإنما لتتهاوى على الأرض، وعلى الأرض تموت . . وكانت آهات أم كلثوم بمثابة عطر نفاذ يمتلئ به المكان، تنضح به الدنيا، تأتينا بالحبيب . . كم مرة نادته . كم مرة تلونت في حنجرتها الآهة وتنوعت وطالت ورقت، وكم من المعاني قيلت فيها

وبها، وكم استعطفت وكم استجدت وكم غضبت وكم امتعضت وكم تدللت وكم دمعت وابتسمت، وكم صعدت وكأنها آخر الأنفاس، وكم انبثقت وكأنها صرخة الحياة، وكم خرجت من حنجرة لونتها البراءة، وكم كانت حنجرة مذنبة ومتألمة وشاكية وباكية، وكم عبرت عن اليائسة وعن المعلقة في خطوط واهية بين اليأس والأمل. . وما كان كل هذا الاهتمام العظيم بحبال حنجرتها المتفردة ككائنات بالغة الحذق والنشاط تلتف على بعضها البعض لتخرج الأنة والصرخة والابتهال والآهة من الأعماق. . شدو حبال تنحني تزقزق تفرق تجمع تندس تدخل تحت الجلد تعشش في شغاف القلب. . حنجرة يسكنها عوالم وأكوان وسلامات وتحيات واحتجاجات ووداعات واستغاثات. أعظم غناء في العالم يغني والأنفاس معلقة بالصوت. . تغني الحب فيغدو الحب لي فأكون لأول مرة معك. بكل كياني معك ولك، وبكل كيانك لي ومعي لا شريك لك في ولا شريك لي فيك. أنت الحب. إنت عمري. الحب كله حبيته فيك. إنت لي تماما كما أنا لك.

ماتت أمي وماتت أم كلثوم وضاعت تسجيلات أبي وأغلقنا شرفة الاستمتاع بحوائط الألوميتال لاستغلالها غرفة نوم ولعب ومذاكرة الأحفاد، وتمضي بنا الأيام بلا مهل فيها اللعبة الجديدة تتم في صمت ولا أحد يخرج عن قواعدها، والقاعدة أنك تسمع هيييييه لشعبولله، وحاركب الحنطور واتحنطر لبعرور وسلطان والصغير وريكو، وقوم أقف وإنت بتكلمني، وغير كده ماتسمعشي ولا تشوفشي وإن شفت ما تقولشي وكأنك ما شفتش، وإذا حصلت لغيرك ما تقولشي، وحتى لو حصلت لك إنت ما تنطقشي ولا كأنه حصل. . وفي طنطا شنق الطباخ نفسه بحبل غسيل لعجزه عن دفع مصروف البيت، ومن الاكتئاب انتحر أب وابنتاه الجامعيتان، وفي مارينا موسم يصرخ وينط فيه آلاف الشباب إلى مطلع الفجر بالمايوهات على رتم نغمة واحدة مستوردة من البوب، وفي بورتو مارينا ينصحنا العسيلي المذيع الشاب في برنامجه التحرري - من حرية - من على الكنبة المتحررة بأن تعمل ما بدا لك فأنت حر في روحك ما دمت لا تسيء بحريتك للآخرين إن شاء الله يعني تطلع في مخ واحدة حرة تخرج من دارها دون تخوف

من أن ينقل مقدارها لتتسوق من السوبر ماركت في الرابعة صباحا كي تتجنب الزحام. . حرة في بلد حرية!

وأهرب، وأنا حرة، لصوت جلال معوض وحفلات أم كلثوم في سينما ريفولي في الخميس الأول من كل شهر التي يعيد البرنامج العام إذاعتها مشكورا محمودا على صموده الكريم العفيف الشريف أمام إغراء خصخصة تلك الشرائط الكلثومية القومية في مهب رياح الخصخصة، التي تذرو أمامها كل ما هو وطني لتقلع من الجذور جذور طلعت حرب وأمثاله وبيعها فوق البيعة مع تراث أفلامنا لكل من شخشخ جيبه بالدراهم والدنانير. . وفاكر لما كنت جنبي. . وما أنا بالمصدق فيك قولا. وهذه الدنيا كتاب أنت فيه الفكر. هذه الدنيا عيون أنت فيه البصر. . ويا رب كثير اللقاء كان قليلا. يا رب هل يرضيك هذا الظمأ. يا رب يد تمتد نحوي كيد من خلال الموج مدت لغريق. كان منايا يدوم هنا يا ما دامشي ليه. وشوف بقينا إزاي أنا فين يا حبيبي وإنت فين. . وإذا ما سألت القلب يوما تولى الدمع عن قلبي الجوابا. وبيريحني بكايا ساعات!!



سيرة الحبايب

ليس تأريخًا وإنما تحليقًا مع باقة جمعتها من ثمار شجرة الإنسانية لأتذوقها على مهل، وأحلق في أجوائها بالخشوع والمعايشة والصداقة والحب والتأمل والتأثر.. وأنصت لها وأستزيد.. فغرامي وقضيتي وحوار عمري ونبض قلمي ونهج بحثي هو «سيرة الحبايب»..

سناء البيسي





دار الشروق
www.shorouk.com